

العالم الإسلامي في العصر العباسي

د. أحمد إبراهيم الشريف

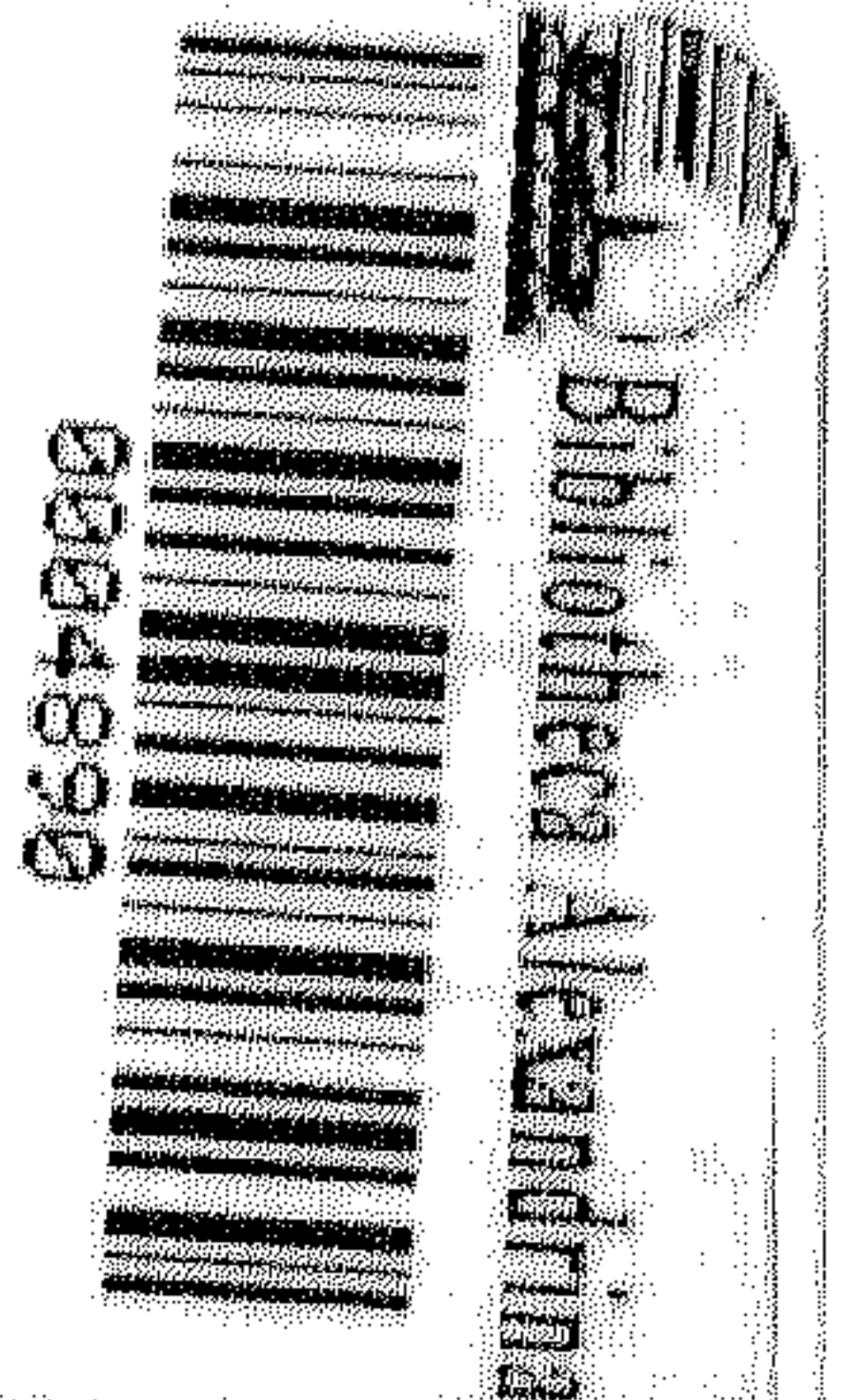
استاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت

د. حسن أحمد محمود

استاذ التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب جامعة القاهرة
وجامعة الرياض

الطبعة الخامسة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



العالم الإسلامي

في العصر العباسي

دكتور أحمد إبراهيم الشريف
أستاذ التاريخ الإسلامي
بجامعة عين شمس
وجامعة الكويت

دكتور حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الإسلامي
بكلية الآداب جامعة القاهرة
وجامعة الرياض

الطبعة الخامسة

ملتنزرا الطبع والنشر
دار الفكر العربي

تصدير

لم تعد الكتابة في التاريخ الاسلامي مجرد سرد لسير الخلفاء ، ووصف لمجالس طربهم ولهوهم والحياة في قصورهم ، أو ذكر لحروبهم ووقائعهم . وانما أضحت نظرة واسعة للحياة الاسلامية كأرحب ما تكون النظرات ، وهذه النظرة الواسعة ليست مجرد معلومات محشوة بعضها في اثر بعض ، وانما لابد أن تعطى لهذا التاريخ مفهوما يعبر عنه ، ودينامية تسير حركاته وتسير غور أعماقه .

ولعل ذلك ما دفعنا الى أن ننظر في الحياة الاسلامية في العصر العباسي هذه النظرة الواسعة ، فعرضنا لتطوراته السياسية ، ولم نهمل قضايا الاقتصادية وتطوراته الاجتماعية والثقافية .

ولعل البحث عن مفهوم التاريخ الاسلامي في العصر العباسي ، هو الذي دفعنا الى البحث عن جذور الدعوة العباسية به وكيف تحولت الى ثورة شاملة ، كان العصر العباسي الأول تطبيقا لمبادئها . وكيف تركت هذه الثورة انطبعا عميقا في جميع نواحي العصر السياسية والاجتماعية والثقافية . ثم كيف فتحت هذه الثورة أمام المسلمين من غير العرب باب الظهور في تلك المجالات جميعا .

ثم كيف فقدت الخلافة العباسية فعاليتها في العصر العباسي الثاني نتيجة لضعف الحزب العباسي فلسفة وتنظيما . ولكن المبادئ التي نادت بها الثورة ظلت تؤتي ثمارها على الرغم من ضعف الخلافة . ولم يصبح التاريخ لذلك ، تاريخ الخلافة وانما أصبحت الشعوب الاسلامية هي التي تصنع هذا التاريخ وتوجهه ، فقد برزت القوميات الاسلامية تحت ظل شعار المساواة بروزا واضحا ، واستجابت الخلافة للمصالح الاقليمية في مرونة سياسية كبيرة الأمر الذي أدى الى سيادة النظام الفدرالي والحكم اللامركزي . ولم تعد نظرة المؤرخ

نتجه الى شخصية الخلفاء قوة وضعفا وانما نتجه الى العالم الاسلامي ككل . والى الشعوب الاسلامية كجماعات تسعى الى تنمية شخصياتهم ومسالحتها في نطاق هذا الكل ؛ ومن ثم برزت على مسرح التاريخ شعوب لم يسمع التاريخ لها ذكرا من قبل ، وحققوا لنفسها مجدا كبيرا ، كما أعدت للعالم الاسلامي حيوية دافقة ، وهي وان أثرت في مركز الخلفاء أنفسهم فأضعفت من شخصياتهم ، الا أنها مدت نفوذ العالم الاسلامي ودافعت عنه وأمدته بحيوية متجددة .

وقد أدى هذا كله الى امتزاج حضاري كبير ، والى تعدد المراكز الثقافية بظهور المدارس الاقليمية المستقلة ، مع اكتمال حركة الترجمة ودخول الموالى ميدان الفكر الغربي بميراثهم الثقافي وقرائنهم الحضاري ، الأمر الذي أدى الى نهضة شاملة في كل المجالات الحضارية أينعت في القرن الثالث وآتت أكلها في القرنين الرابع والخامس .

وقد تعاونوا في اعطاء العصر العباسي تلك الأهمية التي اليها أشرنا ، كما بذلنا الجهد في محاولة اكتشاف المفاهيم التي أوضحنا ، والكشف عن التطورات التي اليها ألمعنا .

فاختص أحدنا (حسن أحمد محمود) بالقسم الأول من الكتاب ، وهو القسم الذي أفرد للعصر العباسي الأول ، وعرض فيه لقيام الدولة العباسية ، وتحدث عن الثورة وتنظيماتها وفلسفتها وشعاراتها ، والعوامل التي مكنت لها من النجاح ، وأحداث هذه الثورة منذ اندلاع شرارتها الأولى ، حتى تمت البيعة للخليفة الأول ، فتحدث عن تقدم العناصر الايرانية سياسيا وفكريا ، ثم عرض للخلافة ونظم الدولة في ضوء مبادئ الثورة وفلسفتها . وتحدث عن العباسيين والموقف الدولي ، وكيف حققوا السلم الاسلامي . ثم تابع نتائج الثورة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

واختص الآخر (أحمد ابراهيم الشريف) بالقسم الثاني من الكتاب ، وهو القسم الذي أفرد للعصر العباسي الثاني ، وقد بدأ بالقاء

نظرة عامة على هذا العصر تحيط بالدولة الاسلامية في خطوط عريضة ،
أبرز فيها آثار الشعارات التي نادى بها الثورة العباسية وألمح الى
أهمية النظرة الشاملة للعالم الاسلامي ، وتعرض لمناقشة الآراء
المختلفة فيما يتعلق بقوة العالم الاسلامي ومصلحته من خلال النظرة
الى تاريخ الخلافة وتاريخ الأمم الاسلامية . ثم عرض لظهور الشعوب
الجديدة ودخولها في مجال الحياة الاسلامية . ثم عرض لنفوذ الأتراك
والصراع بينهم وبين الخلفاء ، وضعف الخلافة وظهور منصب أمرة
الأمراء . ثم تحدث عن ظهور الدول المستقلة بالإشارة الى تطور الحكم
الفدرالي وظهور المتغلبين في المغرب والمشرق ، ومقدار فعالية هذه
الدول وأثرها في قوة العالم الاسلامي ونموه ماديا وحضاريا ، وفرق
بين نوعين من الدول : الدول الثغرية والدول الداخلية . ثم عرض آخر
الأمم العسكريين البويهى والسلجوقي وبين أوجه الشبه والخلاف بينهما .
وواصل الحديث الى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وتلقى دول
أخرى مسيطرة العالم الاسلامي في ظروف أخرى .

ولما كانت دراسة العالم الاسلامي ، وبخاصة في العصر الثاني ،
من كل جوانبها لا يتسع لها سفر واحد ، فقد رأينا أن نقصر هذا الكتاب
على الناحية السياسية ، ونلحقه بجزء آخر نخصصه للناحية الحضارية
فهي قديمة أن يفرد لها بحث خاص نأمل أن نخرجه قريبا بعون الله .

«هذا وقد بذلنا في اخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الجهد المصني ،
وأملا أن نكون قد أفلحنا في اعطاء العصر العباسي الأهمية التي
يستحقها ، وأن نكون قد وفقنا في عرض وجهات النظر والتعبير عن
الأفكار في صورة واضحة مفهومة ، وعسى أن نكون قد أحرزنا بعض
النجاح ، ولا ندعى الكمال فليوفر لنا القارئ الكريم ما نكون قد
وقعنا فيه من زلل ، وكل رجائنا أن نكون قد ففتحنا الطريق الى مزيد
من الدراسات في هذا العصر الهام من حياة الأمة الاسلامية .

المؤلفان

الباب الأول
قيام الدولة العباسية

القسم الأول
العصر العباسي الأول

الثورة العباسية

لم يكن قيام الدولة العباسية مجرد بيعية خليفة دون آخر ، أو انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين . يقول المؤرخ برنارد لويس ، « كان حلول العباسيين محل الأمويين في حكم الجماعة الاسلامية أكثر من مجرد تغيير الأسرة الحاكمة . لقد كانت ثورة في تاريخ الاسلام ، تعين نقطة فاصلة فيه ، ولها من الأهمية ما للثورتين الفرنسية والروسية من الأهمية في تاريخ الغرب » (١) .

وذلك ليس بالقياس الى أحداث الثورة نفسها ، انما لفعاليتها وقدرتها على التغيير الجذري في المجتمع الاسلامي ، فقد ظلت آثار هذه الأحداث تحدث التغيير الجذري في المجتمع الاسلامي طوال العصر العباسي الأول ، بل تجاوزت أصدائها حدود ذلك العصر ، ونعتقد أن أموراً ثلاثة قد اجتمعت لتحدث هذا التطور العميق ، وأن تتم النقطة في تاريخ الاسلام . وهذه الأمور الثلاثة هي :

١ — أنها قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيمًا دقيقًا كتب للثورة النجاح ومكن لجذورها في الأرض .

٢ — أن الدعوة العباسية أفادت من انتشار الاسلام في ايران الذي زاد شدة وسرعة عن غيرها من الأمصار الاسلامية ، ويمكن الدعاة العباسيين من أن يستغلوا هذه الطاقة الجديدة ويتموا تحالفًا بين الدعوة العباسية وبين هذه الجماهير الماضية صعدا .

٣ — أن الدعوة أفادت من طاقات عظيمة من السخط تجسدت في ايران وعلى الخصوص في الفترة من عام ١٠٠ هـ الى ١٣٢ هـ ، وذلك لأسباب اقتصادية واجتماعية ، وأسباب أخرى تعزى الى سياسة

(١) العرب في التاريخ ، ص ١١٣ .

الخلفاء الأمويين الأواخر ، ولا بد أن نناقش هذه الموضوعات بالتفصيل لنلقى أضواء على هذه الأحداث الهامة التي غيرت وجه التاريخ الاسلامي .

الثورة والتنظيم العقائدي

وقد ثبت أن التنظيم العقائدي في فترة التحضير للثورة ينم عن عقريّة فذة في الترتيب والتنظيم ، وقد وضع هؤلاء المنظمون العباسيون نهجا تكرر كثيرا عبر التاريخ فيما بعد ، فقد نسج القرامطة والفاطميون على منوالهم وتعلموا دروسهم وترسموا خطواتهم ، وأفادوا من نجاربهم . وكان هذا التنظيم العقائدي يقوم على السرية المطلقة ، أعني أن الدعوة توفر لها عنصر السرية الى أبعد الحدود ، خصوصا بعد الكوارث التي نزلت بآل البيت منذ مصرع الحسين ، وما عمّدت انية الدولة الأموية من تصفية الحركات العلوية ، والقضاء على زعمائهم بكل وسيلة مستطاعة حتى تخدم أنفاسهم ولا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، وقد ظلت الدعوة سرية تقوم على أساس الدعوة لامام مستور عن أعين الأمويين الى أن قدر لها أن تظهر على السطح بعد نجاح الثورة مباشرة .

زعامة الثورة :

وكانت هذه الدعوة السرية تقوم حول امام من آل البيت يدير دفعة هذه الحركات السرية ، ويرعى هذه التنظيمات ، ويوجه الدعوة ويقودهم ، وقد آلت الامامة في هذا التنظيم السري الى بني العباس ، في فترة مرحلية عظيمة ، وقدر لهم أن يقودوا الكفاح حتى النصر .

وكان بنو العباس خارجين عن نطاق هذا النزاع ، وإنما تأخروا لتأخر سابقة العباس ، ثم تقدموا بفضل ما جمع عبد الله بن العباس من العلم ، وبفضل عكرمة الذي نشر علم ابن عباس في المشرق ، وعندئذ

ظهر فضل هذا البيت وعرفه الناس واحترموه لقربته القريبة من بيت
الامام على ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الى أن اتفق حول رأس القرن الثاني للهجرة أن فقد البيت
العلوى رياسته في حياة على بن عبد الله بن العباس ، وقد أسن ،
فأصبحت الظروف تقضى بالتطلع اليه كشيخ كبير وقور من شيوخ
آل البيت الكريم . ولهذا تذكر المراجع الدعوة العباسية عام ١٠٠ هجرية
على يد على بن عبد الله بن العباس ، ولا تذكر هذه المراجع قبله أحدا .

والواقع أن الموت أذهب جيلا من الملويين : فان الامام على
السجاد زين العابدين توفي في المدينة المنورة قبل هذا التاريخ
بست سنين ، وكذلك توفي أبو هاشم بن محمد بن الحنفية قبل هذا
التاريخ بسنتين تقريبا . وكان ابنا السجاد وهما محمد الباقر وزيد
لا يزالان في أول شبابهما غير ظاهرين ، على حين لم يعقب أبو هاشم
من بعده من يخلفه .

ونرجح أن الناس لم يحتاجوا الى أن يفرقوا يومئذ بين آل
البيت ، وكل القرائن تدل على أنهم نظروا الى آل البيت جملة ، على
أنهم كل متضامن لا ينازع أحد منهم أحدا . وان كانوا بيوتا مختلفة
لكل بيت دوره ووجاهته .

ونرجح كذلك أن محمد بن الحنفية انما ظهر عقب استشهاد
الحسين ، لأن الشهامة كانت تقضى بالتضامن دون أن يكون في خاطره
أن يستأثر لنفسه بشيء . والراجح أن آل البيت أنفسهم بعدوا
أم قربوا لم يكونوا ليتنازعوا على أمر لا يزال في قبضة غيرهم ، فأبهم
قام بالدعوة قام عن الجميع ، ولهذا كانت الصلة بين أبي هاشم وبين
باقي ذرية على صلة قوية ودية .

وبهذا الروح صار على بن عبد الله بن العباس حول عام ١٠٠ هـ
وهو شيخ آل محمد قادرا على أن يتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد

أو يشك في نواياه • وكان من الطبيعي أن ينظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو إلى آل محمد •

واغتتم هذه الفرصة على بن عبد الله بن العباس ، وكانت فرصة ذهبية ، فلما نجح بيته استأثر بالأمر ، مع أنه لم يدخل فيه إلا منذ وقت قريب • وكان نجاح هذا البيت بسبب فرصة ثانية مماثلة سنحت بعد استشهاد زيد وابنه يحيى •

وانتهى الأمر بنجاح العباسيين في الجيل الثالث (جيل على المؤسس ثم جيل ابنه محمد ثم جيل حفيده إبراهيم) ، وولى الخلافة من هؤلاء الحفدة اثنان هما أبو العباس عبد الله بن محمد ثم أبو جعفر المنصور بن محمد •

ونلاحظ عندما نستعرض تاريخ الدعوة العباسية بين عام ١٠٠ هـ إلى أن ظهرت عام ١٢٩ هـ أن الدعوة العباسية كانت تنشط إذا خلا الجو من رؤساء علويين ، وتضعف إذا ظهر منهم أحد ، كما نشطت بعد وفاة زين العابدين مرة ، وكما نشطت بعد استشهاد زيد مرة أخرى • ومن هنا كان من الضروري أن نقف قليلا أمام علاقة الدعوة العباسية بالدعوات العلوية •

كانت الدعوة اذن تقوم على أكتاف الأئمة العباسيين المستورين الذين يقيمون في مدينة الحميمة ، ويديرون خيوط الدعوة في المسالم الاسلامي كله ..

وقد كانت الفترة من عام ١٠٠ هـ إلى ١٣٢ هـ • حافلة بطائفة من الأئمة والأفذاذ الذين أظهروا قدرات ادارية فذة ، وكانوا بحق سلفا كبيرا لخلف أكبر ، تجلى في صورة أبي العباس السفاح أو المنصور أو الرشيد أو المأمون أو المعتصم ، وهم من أعظم أفراد البيت العباسي قدرة على التنظيم •

وقد نظم الدعوة من البيت العباسي ثلاثة لم يقدر لهم أن ينالوا ثمرة غرسهم • وأولهم علي بن عبد الله بن عباس وكان يكنى بابننه محمد كما يكنى بأبي الحسن ، وقد رأس الدعوة أكثر من عشرين سنة حتى مات عام ١١٧ هـ ، وقد قارب الثمانين ، وهو الذي نظم الدعاة والنقباء في كل من العراق وخراسان •

وولى أمر الدعوة بعد ذلك ابنه محمد (١١٧ — ١٢٥ هـ) (١) والراجح أنه كان أكثر مسالمة وإيثارا للعافية • ثم ولى أمر الدعوة إبراهيم وهو الذي وصل بها إلى الذروة • وكان هؤلاء الأئمة الثلاثة كما قلنا يقيمون بالحميمة ويتصلون بخراسان عن طريق دعاة العراق (٢) •

الدعاة والنقباء :

وهؤلاء الأئمة الذين يقعدون على القمة في هذا التنظيم السري كان يساعدهم طائفة من الدعاة ، هم وحدهم الذين يعرفون سر امام الوقت ويحتفظون بهذا السر لأنفسهم ، وكان الدعاة في الحقيقة جميعهم من طراز واحد : قدرات عسكرية خلقة ، وإخلاص للدعوة وفناء فيها ، وقسرة بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومداراة الأحوال أو اجتذاب الأنصار • ومنطق في المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن ومراعاة مقتضى الحال •

وقد لبست الدعوة لبوسا ثقافيا ، وأغلب الدعاة تعمقوا في العلوم الإسلامية وبرعوا في الحديث أو الفقه أو اللغة ، وتولوا التعليم ، وأخذ الناس عنهم •

(١) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ،

(٢) الطبري ، ج ٨ ، ص ١٣٦ •

النقباء الذين اختارهم أبو عكرمة السراج هم :

سليمان بن كثير الخزاعي والاعز بن قريظ التيمي وقحطبة بن شبيب الطائي وموسى بن كعب التيمي وخالد بن إبراهيم أبو داود والقاسم ابن مجاشع التيمي وعمران بن اسماعيل أبو النجم ومالك بن الهيثم الخزاعي وعمر بن أعين وشبل بن طهمان وعيسى بن أعين •

ونعتقد أن ثمة مدرسة للدعوة العباسية برزت في هذه الفترة تدرب هؤلاء وتعددهم نفسيا وثقافيا وعسكريا ، وتعددهم لليوم المرتقب . هذا النشاط الأدبي والنفساني الذي قام به الدعاة في هذه الفترة في حاجة الى دراسة واستقصاء أدبي وتاريخي ، للكشف عن هذه الجهود التي تتابعت نحواً من ٣٢ سنة حافلة بالنضال ، ونسوق كلمة عن دعاة العراق والكوفة وخراسان مستخلصة من الحوليات القديمة ليتبين قدر هؤلاء الدعاة وقدرتهم :

دعاة العراق :

وأمر الدعاة بالعراق واضح ، فقد نظم الدعوة هناك ثلاثة هم : ميسرة العبدى ، ثم بكير بن ماهان ، ثم سلمة الخلال الذي عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد .

أما ميسرة فقد كان مولى لعلى بن عبد الله بن العباس ، وهنا نلاحظ أن الدعوة قامت بالعراق على يد مولى من موالى البيت العباسي ، وأنها قامت بخراسان على يد مولى نفس البيت العباسي . ونلمس بذلك كيف كان الموالى يحرصون على رفع البيوتات التي ينتمون اليها ، غير أن ميسرة العبدى عوجل بالموت فلم يرأس الدعوة بالعراق الا بضع سنين (١٠٢ — ١٠٥ هـ) .

وتولى بعده رئاسة الدعوة بكير بن ماهان (١) ، وهو الذي تمركز في يده أمر الدعوة نحو ٢٢ سنة ، فهو من هذه الناحية أهم دعاة العراق ، وكان صاحب جهاد واخلاص لا يدخر في سبيل الدعوة جهدا ولا مالا ، فانه كان في أول أمره مرابطا يثغر السند ، واقتنى هناك مالا قدره أربع لبنات من فضة ولينة من ذهب ، فأنفق كل ذلك في سبيل الدعوة ، ويرجع الفضل في ضمه الى الدعوة الى عكرمة السراج مولى

(١) الخضرى : الدولة العباسية ، ص ٢٢ . قدم من السند وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن .

ابن عباس ، ويروى كذلك أنه هو الذي أرسل الى خراسان بعض دعاةها .

أما ثالث دعاة العراق وآخرهم فهو أبو سلمة الخلال وهو الذي قاد الدعوة في العراق في السنين الخمس الأخيرة قبل ظهور بنى العباس .

دعاة خراسان :

أما عن الدعوة بخراسان فقد قام بها جماعة كثيرة يبلغ عددهم سبعة ، وأولهم أبو عكرمة السراج (١) مولى ابن عباس ، وقد تجمع حوله أربعة أو خمسة نقباء ، وكانوا جميعا نواة الدعوة . منهم محمد بن خنيس وحيان العطار (٢) وعمار العبادي .

وكان أبو عكرمة يلقب بأبي محمد الصادق ، وهذا تلقب يشعر بأهمية صاحبه وان كان من الموالى . وكان أبو عكرمة متصلا بالبیت العباسي ، اما بحكم الولاء واما بحكم مكانته في الدعوة ، ويروى أنه زار بنى العباس في الحميمة وحضر ولادة علي بن عبد الله بن عباس . وقد هاجر عكرمة الى خراسان بعد ابن عباس ونشر فيها علمه الكثير ، فكان أهل المشرق يجلون ابن عباس عن طريق تلميذه ومولاه أبي عكرمة ، والراجح أن أبا عكرمة لم يكن داعيا بل كان مجرد وجوده عنوانا لفضل البيت العباسي .

وأساس الترجيح أنه أمضى معظم حياته قبل أن تبدأ الدعوة الا السنين الخمس الأخيرة ، وينسب اليه مع ذلك أنه هو الذي اختار النقباء وأنه الذي اختار بكر بن ماهان ، ومن الطبيعي أن يجتمع حوله جماعة وأن تظهر منهم مقالات في حق بنى العباس ، ووقعت بسبب ذلك أزمة ، فقد سمع بهم والى خراسان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسري فأخذ جماعة منهم وفر جماعة منهم زيادة الناجي .

(١) ويسمى أحيانا أبا محمد الصادق .

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٤٧٨ — ٤٧٩ .

(م ٢ — العالم الاسلامي في العصر العباسي)

أما الداعي الثاني ، فهو من أهل بلخ الذين اشتهروا بالحماسة
للدعوة وهو حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن ثعلبة .

والداعي الثاني كان مركزه في بلخ أيضا ، وفي مرو ، وانتهى
أمره بأن قتله والى خراسان كما قتل زياد الناجي .

أما الداعي الثالث ، فقد قدم من الكوفة ونزل في بلخ مركز
الدعوة بالمشرق ونزل في بيت أبي النجم ، وهو كثير الكون (١١٠ -
١١٧ هـ) وكان رجلا أميا متحمسا لبقا ذا نشاط ، وقد رفع أمرهم
الى أسد فحبس جماعة منهم ثم أطلقهم .

ثم قدم على هذه الجماعة البلخية داع آخر اسمه خدائش ،
ولا يعرف عنه غير هذا الاسم (١) وأظهر خدائش مقالات تفرقت بسببها
الجماعة الى فرقتين ، فريق معه وفريق عليه ، ويدل ما يروى عنه أنه
كان يبيح ترك العبادات ويقول بتأويل القرآن : فكان يتأول الآية
« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا
ما اتقوا وآمنوا وعلوا الصالحات ... » وكان يقول الضوم هو
التستر على الامام ، والحج قصده ، والصلاة الدعاء له ، وكان أيضا
يطعن على أبي بكر وعمر .

وقد اتهم بسبب هذه المقالات بالزيف وباحياء دين الخرمية
بما أحل من الاباحات ، وقيل أيضا انه لم يكن مخلصا في اسلامه ،
لأنه كان نصرانيا ثم أسلم ، وانتهى أمر خدائش بأن أخذه أسد وقتله
بأن قطع لسانه ثم سمل عينيه في آمد ، كما قتل أسد بعض أصحابه .

والراجع أن هذه الفتنة أدت الى حذر الأئمة العباسيين فتركوا
مكاتب دعاة خراسان ولم يبعثوا اليهم بكتب ولا رسل . وقد قامت

(١) يقال كان اسمه عمارة وسمى خدائشا لأنه خدش الدين .
ويقال أن اسمه كان عمار بن يزيد . انظر فلهوزن ، ص ٤٨٢ .

هذه الفتنة في أول رئاسة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس
لادعوة • وكان محمد صاحب علم وميل إلى السلم ، وكان هو الذي
ترك مكتبة الدعوة بخراسان •

ومن القرائن على ميله إلى السلم أنه التقى يزيد بن علي
في الكوفة ونصحه بعدم الخروج ، فأرجف الناس بسبب موقفه هذا
من زيد بأنه يطمع في الأمر لنفسه ، ثم ان محمدا عاصر الفترة التي
ازداد فيها نشاط الزيدية ، ومثل هذا النشاط كان من شأنه أن يصرف
الأنظار عن العباسيين (١) •

واستمرت الجماعة البلخية قائمة برغم ترك الامام محمد لهم (٢) ،
وظهر فيهم زعيم جديد عالم هو سليمان بن كثير ، ولعله ولد كثير داعي
الكوفة الذي أشرنا إليه • فان صح فانه فخر لأبيه فقد أشاد المنصور
فيما بعد بأثره في الدعوة واقتخر له فقال : « هو أحد هتياننا » ، وقد
اختاره أبو مسلم فيما بعد اماما للصلاة عند اعلان الثورة ، وهو الذي
أعاد طقوس صلاة العيد على نحو ما نصليها الآن •

ويظهر أنه كان صاحب استقامة ورأى ، وأنه اختلف في النهاية
مع أبي مسلم حين لجأ أبو مسلم إلى العنف الظالم في خراسان ،
فانتهمه أبو مسلم وقتله • ونحن نسمع به لأول مرة وهو يقدم موقدا
إلى الامام محمد وإلى الامام ابراهيم من قبل شيعة خراسان ، فأعرض
عنه الامام ثم أعطاه كتابا وأمره ألا يفضه الا في خراسان امام
أصحابه ، فلما فوضوا الكتاب لم يجدوا فيه الا البسمة ، ومعناها
الغضب بسبب ما هم فيه من فتنة (٣) •

ثم أوفد الامام إلى شيعة الخراسانية كبير دعاة العراق ، وهو
بكير بن ماهان (٣) وأمره أن يعلم صحابة آل البيت بكذب خدائش ،

(١) الاخبار الطوال ، ص ٣٣٧ •

(٢) فلهوزن ، ص ٨٤ •

(٣) انظر الطبري ، ج ٩ ، ص ٤٧ •

فلما قدم بكير عليهم طلبوا منه علامة ليصدقوه ، فعاد وجاءهم بعلامة الى النقباء هي عبارة عن عصي مضببة ، وأعطى كل واحد عصا ، ولا نكاد نفهم ما ترمز اليه هذه العلامة ، وتاريخ الخبر عام ١٢٠ هـ (١) . ونحن نستبعد هذا الخبر ونرى أن استئناف العلاقات على هذا النحو جاء بعد خروج زيد وابنه يحيى وفي أيام الامام ابراهيم .

ثم يتولى رئاسة الدعوة العباسية أبو مسلم الخراساني ويبقى سليمان بن كثير على حاله ، وكان قدوم أبي مسلم من جهة الامام ابراهيم ، فنزل في بلخ عند أبي النجم ، ولم يلبث أن صاهره وأن رزق بديت اسمها فادامة ، وكان عقبه منها ومن زوجها مخرز بن ابراهيم . وكان من وجوه أصحابهم في بلخ أيضا أبو منصور طلحة بن زريق وكان « عالما بحجج الهاشمية ومعائب الأموية » .

وكان أبو مسلم رجل علم ، أخذ العلم عن جماعة ، منهم أبو عكرمة مولى بن عباس ، ومنهم الامام محمد نفسه ، ومنهم ثابت البناني ، ومن هنا تأتي الحلة بفرقة البنانية . وممن أخذ عنهم العلم أيضا أبو الزبير الحكي وغيره . وقد روى عبد الله بن المبارك عن أبي مسلم (٢) .

النقباء :

والمرتبة التالية في كادر الدعوة العباسية هم النقباء ، وكانوا يأترون بأمر الدعاة ولهم قدراتهم الدعائية والعسكرية ، ولم يكونوا يقلون عن الدعاة قيمة انما كانوا يجهلون امام الوقت ، فقد كان العلم به سرا لا يعرفه الا الدعاة فحسب . ومن هؤلاء النقباء من برزوا

(١) الديبري ، ج ٩ ، ص ٤٧ .

(٢) نسخة من أبي مسلم :

« أخبر أبي مسلم غامض والروايات فيه مختلفة . أما الذي لا شك فيه فهو أنه لم يكن عربيا بل كان أعجميا . كان مملوكا أو مولى في الكوفة . رتب سنرعى وهو ما يزال في سن الصغر انتباه شعبة بنى العباس هناك مما دعا الى إرساله الى ابراهيم بن محمد فأخذه ابراهيم وضمه الى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته » .

في أحداث الثورة العباسية وصنعوا الأعاجيب ، وكان لكل داعية
أنا عشر نقيباً ، وكان النبلاء بدورهم تتبعهم طبقات أقل في مراتب
الدعوة وهي طبقة العمال ، وكان لكل نقيب سبعون عاملاً يديرون
الجهاز السري ويساعدون النقباء . ثم يمضي التشكيل في عمقه الى أن
يُنْتَهَى بالخلايا السرية التي كانت تنـدس في جميع الأمصار الإسلامية .

وفي استطاعتنا الآن أن نتعرف على منطق هؤلاء الدعاة ،
والشعارات التي كانوا يرددونها ، والآمال التي كانوا يطلقونها
لاجتذاب الجماهير والأنصار . وهذه الشعارات مهمة جداً في دراسة
التفكير العباسي كله في فترة التحضير للثورة ، وهي أشد أهمية في فترة
نجاح الثورة لأنها ستحكم على العباسيين وهل أطلقوا الشعارات رغبة
في كسب الأنصار أم صدقوا ما وعدوا . وفي الأماكن أن نعرف شعارات
الدعوة بدراسة مفصلة لسير الدعاة وما نسب اليهم من أقوال أو أفعال
كما رواها الطبري مثلاً ، أو بتصفح كتاب الملل والنحل للشهرستاني ،
أو قراءة الرسائل العباسية خصوصاً رسائل الخميس .

شعارات الدعاة للثورة :

لكل دعوة أو مذهب شعارات خاصة تنادى بها وتجعلها رمزا
يؤمن بضرورة تحقيقه . وإذا قسنا الدولة العباسية بشعاراتها
وبالفوائد التي حققتها هذه الشعارات ، لاعتبرنا الدعوة العباسية من
أكبر الثورات في التاريخ العالمي . ولفظ ثورة ولفظ دعاية من الألفاظ
المولدة المستحدثة في أيامنا ، ولا بأس من استعمالها بدلاً من لفظ
الدعوة .

المساواة :

وأول هذه الشعارات هو شعار المساواة بين الشعوب ، وهو
شعار ساهم في انجاح الثورة العباسية ، وأنصف الشعوب التي
أسلمت واستعربت واندمجت في ظل دولة عربية إسلامية وصارت
متطلع إلى المساواة .

وهذا الشعار في ذاته مبدأ انساني جليل لا تزال الأجيال تتعلق به منذ القدم وتتخذة مثلاً أعلى . وهو شعار له معنى خاص في حضارتنا العربية الاسلامية ، وهو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أو دمائهم أو تاريخهم ، والغاء هذا التقسيم المتعارف الى شعوب ، على أساس أن تعدد الشعوب ليس الا ضرورة من ضرورات التعارف بين الناس ! وعلى أساس أن الشعوب قد عمها الاستعراب واندمجت في الحضارة العربية في ظل دولة اسلامية واحدة عزيزة الجانب .

والواقع أن أساس الاستعراب كان أساساً طبيعياً في دولة ذات حضارة عربية اللغة يعتز أهلها بلغتها المقدسة التي هي لغة القرآن قبل أن تطرأ عليهم بوادر الاستعجام ومقتضياته ، فلا فرق بين فارسي أو تركي أو عربي ما داموا أهل تقوى واعتزاز بأماتهم .

ومبدأ المساواة مبدأ أصيل في شريعتنا الاسلامية ، لأنه مستند الى القرآن والسنة واجماع الفقهاء ، حتى اننا لنعتبر أى خروج عن خط المساواة لابد أن يكون استثناء اقتضته مصالح مؤقتة أو ضرورات مازمة .

وقد كان من الضروري أن تسارع الشعوب المستعربة الى طلب المساواة بين الشعوب على المستوى الجماعى قبل المستوى الفردى . ومن البديهي أن يقف الفقهاء الى جانبهم باسم المبادئ الاسلامية الأساسية ، ويقف الى جانب الفقهاء أهل التقوى والصالح والفروسيّة من فرسان الشجر ، انتصاراً للعدل والسنة وانكاراً للجهور .

بل ان المطالبة بالمساواة قد تنصرف الى المساواة بين العرب أنفسهم . مثال ذلك شاعر فارس من عبد القيس في خراسان يسوؤه أن تتمتع قريش بالخيرات دون القيثائل الأخرى ويتمنى لقريش الزوال .

ومن الفرس من كانوا يدعون الى المساواة بروح شعوبية ، مثل

القائد الفارسي قحطبة حين يقول لجند من خراسان « يا أهل خراسان :
معه البلاد كانت لأبائكم » .

ومن الدعاة الذين يدعون إلى الاسلام من كانوا ينتصرون لمبادئه
دون اعتبار سياسته الدواة . ومن هؤلاء نعرف بعض أسماء مثل
(أبو الحدياء وأبو فاطمة الأيادي ، وصالح بن طريق مولى بنى
صبغة ، والهيثم الشيباني والربيع بن عمران التميمي ، ونعرف بعض
أسماء مشهورة مثل ثابت قنانه الشاعر ومثل الحارث بن سريج) (١) .
وأبو الحدياء وأصحابه هم الذين كانوا قد حملوا عمر بن عبد العزيز
على تقرير المبادئ التي قررت ، وكانوا من الداعين إلى الإصلاح
والمساواة بين العرب والموالي . ومن قبيل ذلك محاولة أخرى في طريق
الإصلاح وتحقيق مبدأ المساواة ، ومساعدة مسلمي الأعاجم على
المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق والواجبات ، كان بطلها الحارث بن
سريج . وكان من المحاربين الأشداء الأقوياء . يقال انه كان في مستهل
أمره أحد ثوار الخوارج الغلاة ، ولكنه لم يدع الخلافة لنفسه
ولا بايع غيره عليها ، ثم أخذ برأى المرجئة وكان كاتبه الجهم بن صفوان
أسهر متكلمي هذه الفرقة . وكان الحارث نفسه يناظر على مبادئها ،
ودعا المرجئة إلى التوفيق بين المتحالفين وطرح مسائل الخلاف
خصوصاً مسألة الامام الحق ليحكم الله فيها ، ونادت الجماعة النائرة
بمبدأ تتفق عليه كافة الطوائف المختلفة وهو الدفاع عن حق المساواة .
ومعارضة الاستبداد ، ونصرة الحق الذي قدمه الاسلام ، ومحاربة
الظلم والعسف . وقد بدأ الحارث وجماعته محاولتهم في تأكيد
الإصلاح بالضرورة مستفيداً من التذمر الذي شاع في البلاد بسبب
سياسة الأمويين ضد الموالي ومناداتهم باستقاط الجزية وإشراكهم
في العدا . وأيده الدهاقنة وأهل القرى . وكأنه ترسم خطاً أبي
الحدياء ، واذك أيده أسياح أبي الحدياء مثل أبي فاطمة الأيادي
وبن جرمود الضبي . فكانت في الحق ثورة عربية تولاهها العرب

(١) مازون — الدولة العربية ، ص ٤١٢ .

لأنصاف الأعاجم الذين أسلموا ، واشترك في هذه الثورة عرب من تميم والأزد . ولم تكن الثورة الا بزعامة المرجئة فحسب وكانوا يقبلون كل من يؤيدهم في الرأي . وكانت هذه الثورة ارهاصا لنجاح الدعوة العباسية وتأسيسا لمبادئها في نفوس الناس ، فقد رفع الراية السوداء في بلاد ما وراء النهر في السنوات الأخيرة من ولاية الجندب . وفي ولاية عاصم بن عبد الملج امتدت الثورة الى طخارستان ثم بلخ ، وضمت للحارث بلخارستان كلها . وتضخم جيش الحارث بعد انتصاراته تضخما كبيرا ، فتقدم الى مرو ، وتصدى لهذه الدعوة الى الاصلاح الوالى الأموى أسد بن عبد الله القسرى . ولم يتخل الحارث عن دعوة الاصلاح على مبادئ المرجئة ، فقد وضع نفسه من أول الأمر في خدمة قضية الأعاجم فكتب لهم كتباً بسيرته وسياسته وأغراضه في احقاق الحق والعدل . وكان رجاله يقرأون ذلك في الطرق والمساجد .

وعلى هذا نجد نزعات مختلفة تتستر خلف مبدأ الدعوة الى المساواة . يؤيده العرب بما عرف فيهم من تقديس للعدل ، ويؤيده الفرس وجميع الموالى لما يتحقق لهم من الكسب . ويؤيدونه أيضا بدافع من العصبية الشعبية ، ويؤيده بنو العباس تشجيعا على بنى أمية وطلباً لمنفعة البيت العباسى دون اهتمام بنزعات الناس .

الامامة للرضا من آل محمد :

وكان هذا الشعار غير محدد بتحديد آخر بالنسبة لعامة الناس أما الخاصة فهم يعرفون رياستهم ولمن يدعون من آل البيت . والعامة والخاصة معا يريدون ألا تبقى الامامة في بنى أمية ، والشعار ينادى بضرورة نقل الخلافة عنهم واعتبارهم مغتصبين .

ونستطيع أن نجد صورة لآراء الثوار المعارضين في رسائل الجاحظ . ونرى في رسائله انكارا للأساس الذى أقام عليه بنو أمية خلافتهم وهو أساس تحقيق الجماعة والخروج بالناس من الفتنة ، والحقيقة في نظرهم أن الجماعة التى يفخر بها بنو أمية « قهر وجبر

« وغلبة » وأن بنى أمية وقعوا في « الضلال والفسق » حين حولوا الخلافة الى ملك ، وأنهم حين حادوا عن السب المنصوبة وقعوا في الكفر ، وأن أول كفره كانت من الأمة رد معاوية قضية رسول الله في ولد الفراش واستلحاقه زيادا ، وأن أهل عصر معاوية كفروا بترك أكفاره .

ويشير الجاحظ في رسائله الى طائفة أخرى تقول ان سب ولاية السوء فتنه (١) وهذه الطائفة لا تستحل سب السلطان الجائر ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه حتى لا تكون فتنه .

ويضاف الى أقوال الجاحظ ما أشيع عن يزيد بن معاوية وعن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الشاعر من طعن في سلوكهما وحبهما للهو واستهتارهما بالدين والحادهما وزندقتهما وشربهما للخمر (٢) .

ويضاف كذلك ما أشيع عن مروان آخر خلفاء بنى أمية من أنه جعدى معطل .

وكذلك وجه الشيعة عامة (من عباسيين وطالبين) الطعن الى ولاية بنى أمية وسموهم ولاية الجور ، واشتهر بين الناس استنكار عمر بن عبد العزيز لأفعال عمال السوء ، ومن ذلك كتاب لعمر يذكر ما أصاب أهل الكوفة « من جور في أحكام الله ، وسنة خبيثة سنّها عمال السوء » .

وعلى أساس تكفير بنى أمية أو على الأقل معاوية ويزيد والوليد ابن يزيد ، واستنكار جور عمالهم ، يجب أن نفسر ما جاء في خطبة داود بن علي عند البيعة لابن أخيه أبي العباس الملقب خطأ بالسفاح : « اذا والله ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر

(١) رسائل الجاحظ : رسالة في بيان مذاهب الشيعة ، ص ١٧٨ — ١٨٦ .
(٢) نفس المصدر .

نهرنا ولا نبني قصرا ، وانما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والتعصب
لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئوئكم ، ولقد كانت
أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية
فيكم وخرقتهم بكم واستذلّاهم لكم واستثثارهم بفيئكم وصدقاتكم
ومغانمكم • لكم ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس رحمه الله أن
نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة
منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال في آخر
خطبته : « ألا وانه ما سعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى
الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين
عبد الله بن محمد » (١) •

والمهم في هذا العرض هو أن نلمس كيف صار أمر الامامة أمرا
نتحمس له الفرق سعيا وراء هدف ، وهو جعل الامامة في أهلها
المستحقين لها ، أملا في أن يكون صلاح الأمة على يد هذا البيت الذي
هو أصلها • ونحن نلمس أيضا كيف أن هذه الفرق توزعت الناسل
وصرفتهم عن بنى أمية ومهدت الطريق أمام آل محمد • ولم يكن أحد
يتوقع أن يكون الفائز من آل محمد هم العباسيون •

الدعوة الى الإصلاح :

من شعارات الدعوة العباسية الإصلاح أو الدعوة الى الكتاب
والسنة وهو شعار عام ، وهو أشمل من الشعارات الأخرى ، فالمساواة
مثلا من مطالب رجال الفقه ومن مطالب الشعوبيين • والامامة كذلك
من مطالب آل البيت وشيعتهم ، أما الإصلاح فهو صيحة الأجيال
على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم •

وأهم من صاغ هذا المبدأ في المشرق الحارث بن سريج التميمي (٢)،

(١) الطبرى ج ٩ ، ص ١٢٦ •

(٢) كان المرجئة اكبر شائنا من الخوارج في خراسان ، وقد تدخلوا
بقيادة الحارث بن سريج في تاريخ العصر الاموى الاخير تدخلًا كبيرًا ،
وقد استنكروا كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين •

وجهم بن صفوان (١) مولى راسب وأولهما تسمى باسم صاحب الفئة العادلة ، وثانيهما عرف أتباعه باسم الجهمية ، وقد بررت الى جانبهما بعض الأسماء مقترنة بتفاصيل هامة خاصة بالدعوة الى الاسلام وبالتمسك ببعض الأصول الاسلامية الخاصة بالجزية ، وبسيرة الولاة والخلفاء ، وباقرار العدالة المثالية ، وقد أشرنا الى هذه الأسماء تحت باب شعار المساواة .

والواقع أن أحداثا كثيرة تركت في النفوس أثارا مريرة ، مثل حصار الكعبة وانتهاك حرمة المدينة المنورة يوم الحرة ، وسفك دماء أهل البيت . وسياسة الجبر والقهر والاستبداد واضطهاد المعارضة ، والابتعاد عن سيرة السلف الصالح ، وحب الترف واللهو وكثرة مظاهره ، وكثرة المذاهب وتصارعها ، وظهور أقوال كثيرة غير مألوفة من قبل ، والاعتماد على العصبية في الحكم مع أن العصبية لم تمنع مثل الحارث بن سريج من أن يدافع عما يراه حقا .

ويبدو أن جهود هؤلاء الدعاة والأئمة قد تضاعفت لنشر هذه الدعوة ، ومصادق ذلك دراسة ما رواه صاحب الأخبار الطوال (٢) عن الذين انضوا تحت لواء أبي مسلم وبايعوه . وقد جاءت الوفود من مدن خراسان كلها ، ومن القرى الصغرى ، ومن أهل الثغور من كرمان وكابل وخوارزم وجرجان والديلم وأهل ما وراء النهر وأهل بلخارسنان ، بل آمن العرب بهذه الدعوة ودخلت لها قبائل عربية مثل خزاعة وطبيء وبكر وتغلب وتميم . وبالطبع انتشرت الدعوة في العالم الاسلامي كله ولكنها تركزت في ايران بعامة وفي خراسان بخاصة .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ٤٦ - ٤٧ في حديثه من الجهمية .

(٢) الدينوري ، ص ٣٦٠ .

انتشار الاسلام في إيران

حاول الدعاة العباسيون استغلال التيار الاسلامي في ايران
وايجاد نوع من التحالف الوثيق بين الدعوة العباسية وبين هذه
القوى الاسلامية في ايران .

وهو موضوع يتطلب المزيد من الاهتمام والعناية ، لأنه يفسر
القوى الايرانية الصاعدة نحو القوة والتي أيدت الدعوة العباسية ،
ليمضى النفوذ الايراني صاعدا في حركة مطردة نحو القوة السياسية
والاحياء الثقافي .

ولا شك أن الثورة العباسية ثورة ايرانية انبعثت من خراسان
ووجدت صدى ومنطلقا في مدن ايران وريفها ، وخرج المد الثوري
منها الى كافة الجهات الاسلامية ، وأن العباسيين بعد نجاح ثورتهم
كانوا من أحرص ما يكونون على ايران وعلى ولاء أهلها .

وأنهم كانوا يلجأون الى الخراسانية كلما احتاجوا الى سند من
القوة ، فقد لجأ المأمون مثلا الى الخراسانية في نزاعه مع الأمين ،
ولجأ المعتصم الى الأتراك حين أجس بحاجة الدولة العباسية الى
دم جديد ، وموضوع انتشار الاسلام في ايران اذن موضوع مهم يفسر
أحداث الثورة العباسية وأسباب نجاحها .

فلابد من أن نعرض لهذا التيار الاسلامي الداخلي الذي استغله
الدعاة ، ونلاحظ أن هنالك صلة قوية جدا بين الثورات الايرانية وبين
انتشار الاسلام ، ولم تكن الثورة العباسية بداية الثورات الايرانية
انما كانت أكثرها تنظيما ونجاحا ، واستفادت الى حد بعيد من
الثورات السابقة .

على كل حال نستطيع أن نقول ان من مظاهر هذه الحركة
الاسلامية زيادة أعداد المسلمين وبداية اشتراكهم في الحياة الاسلامية

العامّة ، نفى عصر الراشدين بدأ الإيرانيون يدخلون الاسلام وخصوصا
تصعد من هذه الطبقات وتنتشر بين الطبقات الأخرى وخصوصا الطبقة
تصعد من هذه الطبقات وتنتشر بين الطبقات الأخرى وخصوصا الطبقة
الأرسنقراطية .

وما كان العصر الأموي يبدأ حتى كانت الحركة الاسلامية
في ايران قد قذلت شوطا واضحا نحو الظهور ، نفى مدينة الكوفة
قام الموالي المسلمون بأول ثورة اسلامية سنة ٤٣ هـ (١) في عهد الوالي
المغيرة بن شعبة ، واضطر معاوية بن أبي سفيان الى أن يواجه هذه
الحركة الاسلامية الآخذة في الظهور ، فعمل على تهجير طبقات من
الموالي وحملهم على الإقامة في بلاد الشام (٢) .

وفي نفس هذا العصر وضحت الحركة الاسلامية أيضا في ناحية
أخرى ، هي اشتراك طبقات من المسلمين في الجيش الاسلامي وخصوصا
في عهد زياد بن أبي سفيان الذي اتخذ من الموالي جيشا ، سماه
« المحاربة » وعدته اثنا عشر ألفا (٣) .

ونعتقد أن الحركة الاسلامية مضت قدما بعد معاوية ، وأنها
بدأت تزداد ونموها في عهد يزيد بن معاوية وبعد وفاة يزيد بقليل ،
والدليل على هذا مستمد من حوادث المجتمع الإيراني في عهد يزيد
وفي عهد خلفائه ، ذاك أن المسلمين من الإيرانيين زادت أعدادهم زيادة
واضحة ، في الوقت الذي رأوا فيه الطبقات العربية تتضاعف امتيازاتها

(١) فلهوزن — الدولة العربية ، ص ٤٧٢ ، يقول فلهوزن :
« ان استقامت الدولة العربية لم يأت من أهل ما وراء النهر الذين بقوا
على عجمتهم وعلى عدائهم للعرب ، بل جاء من قبل من أسلم من أهل
خراسان وهم انما قاموا بمحاربة السيادة العربية مستندين الى الاسلام .
والاسلام هو الذي جمع كلمتهم وكلمة أولئك العرب الذين كانوا يعارضون
حكومة بني أمية مهتدين بالمبادئ التي يجب ان تقوم عليها الدولة
الاشواقراطية في نالر الاسلام » .

(٢) البعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٢٠ — ٢٢ .

بمضى الوقت في جميع النواحي العسكرية والادارية والاجتماعية ،
بل حتى في الناحية الاقتصادية •

وقد بدأ الايرانيون في هذا الوقت أيضا يصبحون قوة مرجحة ذات وزن كبير في الحياة الاسلامية ، والدليل على هذا موقف الايرانيين المسلمين من ثورتين عارمتين حدثتا في هذا العهد : هما ثورة الزبيريين ، ثم ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى • ولا تعنينا تفاصيل هذه الثورات ، انما الذى يعنينا هو مدى اشتراك عنصر الموالى فيها تعبيرا عن سخطهم والتماسا لحقهم الطبيعى فى المساواة • وقد اعتقد الايرانيون المسلمون أن الفرصة مواتية والصف العربى منقسم على نفسه ، فبدعوا يستغلون الثورة الأولى وهى ثورة الزبيريين •

ونكاد نلمح من مصادر العصر شعور الايرانيين الحقيقى ووزنهم الحقيقى فى ترجيح كفة الطرفين المتنازعين • فواضح أن الايرانيين المسلمين بعثوا الى عبد الله بن الزبير يطلبون الدخول فى دعوته ، وهم يعتقدون أن الدخول فى هذه الدعوة ربما يعطيهم بعض الحقوق التى لم يستطيعوا الحصول عليها فى ظل الحكم الأموى •

وكان عبد الله بن الزبير وأنصاره من قصر النظر بحيث لم يستطيعوا الاستفادة من هذه الثورة الجديدة النامية ، ثورة الايرانيين المسلمين ، التى بدأت تظهر على مسرح الحوادث فى ايران الى جانب القوة العربية صاحبة السلطان • ونعتقد أن فشل الزبيريين فى الاستفادة من هذه التطورات يرجع اليه ما أصابهم من اخفاق ومن استطاعة الأمويين القضاء على حركتهم •

غير أن هذه القوة الاسلامية النامية ظهرت بصورة واضحة فى ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى • فقد كانت هذه الثورة تهدف الى المطالبة بشار الحسين الذى قتل على يد يزيد بن معاوية ، فكانت فى الحقيقة ثورة شيعية ، وبدأت تلقى تأييدا من عنصر الموالى ، وكان

هذا التأييد بداية التحالف المعروف بين الفرس وبين الشيعة ، هذا التحالف الذى سوف يؤدي الى نجاح الثورة العباسية والى قيام الخلافة العباسية •

المهم أن المختار هذا استطاع أن يستفيد من هذه القوة النامية وأن يعتمد عليها ، وقد اشترك في ثورته نحو ٣٠٠٠٠ من الفرس المسلمين (١) ، ورغم أن هذه الثورة لم تحقق أغراض الايرانيين كاملة ، إلا أنها كانت بمثابة التعبير الأول عن أهدافهم الثورية ، وعن رغباتهم المتزايدة في التحرر والحصول على حقوقهم المشروع في المساواة ، والمؤرخون يجدون شبهة بين هذه الثورة الفارسية الأولى وبين ثورة أبى مسلم فيما بعد ، فكلتاها تعبير عن وجهة النظر الفارسية •

ويبدو أن هذه الحركة الاسلامية قطعت شوطا آخر في طريق التقدم ، وظهرت ظهورا أوضح خصوصا في عصر عبد الملك بن مروان ، وفي عصر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وسنتخذ حوادث عصر عبد الملك وعصر الحجاج مقياسا لهذا التطور الاسلامى العظيم •

ونعتقد أيضا أن الأمويين في هذا العهد بدأوا يواجهون حركة اسلامية كبرى وتيارا اسلاميا دافقا • ودليلنا على هذا مستمد من السياسة الأموية في عهد عبد الملك وخصوصا السياسة الاقتصادية التى بدأ الحجاج بن يوسف الثقفى يطبقها في ايران ، فمثلا تبين أن الحركة الاسلامية النامية تهدد الاقتصاد الأموى تهديدا خطيرا ، فبدأت الجزية يتناقص مقدارها بالتدريج ، بل بدأت تختفى باعتبارها موردا من موارد بيت المال ، ولعل هذه الحقيقة هى التى دفعت الأمويين ودفعت الحجاج بن يوسف الى ابقاء الجزية على من أسلم ، لأن الحركة الاسلامية العظيمة كانت تبدد هذا المصدر تبديدا خطيرا (٢) •

(١) الطبرى ، ج ٧ ، ص ١٥٩ •

(٢) الطبرى ، ج ٨ ، ص ٣٥ •

يضاف الى هذا أيضا موقف الأمويين من «أكية الأرض ومن ضريبة الخراج ، لأن الحركة الاسلامية أيضا بدأت تهدد هذا المورد كما هددت الموارد السابقة • لأن الدخول في الاسلام كان معناه أن الأرض الخراجية التي كان أهل الذمة يقومون بزراعتها ، سيملكها المسلمون ، وتتحول الى أرض عشرية ، ومعنى هذا أن الخراج سيقبل أيضا مثلما قل مقدار الجزية • وبدأت الدولة تتدارك أثر الحركة الاسلامية في هذا المورد بابقاء الخراج على ما كان عليه (١) ، بل بدأت هذه الحركة أيضا تتخذ مظهرا آخر هو أن المسلمين الجدد بدأوا يهاجرون من الريف الى المدينة ويقيمون في المدن الكبرى ، رغبة في الحصول على العطاء ، أو استفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة • ووجدت الدولة الأموية نفسها مضطرة الى مقاومة تيار الهجرة ، أو بمعنى آخر مقاومة هذه الحركة الاسلامية الكبيرة •

وكان موقف الشعب الايراني المسلم من هذه السياسة يدل في وضوح على مدى زيادة التيار الاسلامي ، اذ المعروف أن الرأي العام الاسلامي في ايران لم يرض عن هذه السياسة ، وبدأ عدم رضائه عنها يتخذ شكل ثورات أو حركات سياسية أشد وضوحا من الحركات السابقة ، وأشد قوة منها وأوضح نتيجة من الحركات السابقة ، وخصوصا الثورة المنسوبة الى عبد الرحمن بن الأشعث ، فكانت ثورة ابن الأشعث ثورة فارسية حقيقية تتناسب مع زيادة التيار الاسلامي (٢) •

والدليل على هذا أن الذين اشتركوا في حوادث هذه الثورة بلغ عددهم نحو ٢٠٠٠٠ من المقاتلين الايرانيين ، وانضم اليهم بعض الحريصين على مبادئ الاسلام من العرب وخصوصا فقهاء المسلمين (٣) ،

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٤١٦ •

(٢) عن ثورة ابن الأشعث : أنظر : اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ٢٢ •

(٣) يذكر الدينوري أن ابن الأشعث انضم اليه الشيعة والخوارج والقراء والعباد والمسيحيون بل انضم اليهم الأساورة والزط •

أو طبقة حفاظ القرآن الكريم ، فهم الذين اشتركوا في هذه الثورة مع أهل البلاد على قدم المساواة .

وكان من الطبيعي أن هذه الحركة الإسلامية ستزداد وضوحا وشدة بعد عهد الحجاج وعهد الوليد ، ولدينا أيضا أدلة مستمدة من حوادث العصر الأموي أو من سياسة العصر الأموي بعد عصر الوليد ابن عبد الملك ، فمثلا نلاحظ أن السياسة الأموية في إيران بعد عصر الوليد تنقسم بظاهرتين : الظاهرة الأولى يمكن أن نسميها ظاهرة المتراجع عن السياسة السابقة ، والثانية سياسة الاعتراف بالأمر الواقع والتمشي مع الحركة الإسلامية المطردة .

أما المظهر الأول وهو مظهر التراجع فقد وضح في عهد سليمان ابن عبد الملك ، وبدأت الدولة الأموية تغير من سياسة الحجاج (١) ليس كرها في الحجاج بقدر ما كان محاولة لاسترضاء طبقات المسلمين ، فمثلا عزلت الدولة الولاة الذين عينهم الحجاج ، وأطلقت آلاف الإيرانيين من سجون البصرة والكوفة ، وأشركت الإيرانيين المسلمين في الجيش الإسلامي . وضوعف العطاء حتى بلغ نصيب الفرد كل شهر نحو ٢٥ درهما (٢) . كما بدأت في نفس الوقت تعدل عن مقاومة الهجرة بالأساليب العنيفة التي ظهرت في عصر الحجاج . كما بدأت من ناحية أخرى تخفف من وطأة الظاهرة الاقتصادية .

حتى إذا جاء عهد عمر بن عبد العزيز وضح المظهر الآخر « وهو سياسة المسالمة » أو الترضية . وأهم ما يلاحظ أن هذه السياسة لم تكن من وحى أخلاق عمر وتقواه فحسب ، إنما كانت مواجهة لتيار إسلامي كبير ، أما أن تترضاه الدولة وأما أن تسقط تحت وطأته ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٠ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

(م ٣ — العالم الإسلامي في العصر العباسي)

فامتازت سياسة عمر بن عبد العزيز (١) بأنها سياسة التوفيق بين التيار الاسلامي وبين المصالح الأموية الرئيسية ، والدليل على هذا سياسة عمر بن عبد العزيز الاقتصادية التي يمكن أن نسميها « سياسة أنصاف الحلول » ومظاهرها أن الجزية لا تفرض على المسلمين انما تضاعف على من بقى على دينه الأول ، والخراج يقل على المسلمين ، وتقوم الدولة بمضاعفة الخراج على أهل الذمة ، وأغرب من هذا أنه عمر بن عبد العزيز يبيح الملكية للمسلمين ، وهو في نفس الوقت يصدر قانونا بتحريم بيع الأرض للمسلمين . فاذن هي سياسة التوفيق بين التيار الاسلامي وبين المصالح الأموية ، وان كان عهد عمر يمتاز بالقيام بحركة تبشيرية كبرى لنشر الاسلام في كافة الجهات وخصوصا في منطقة آسيا الوسطى .

ومضت الحركة الاسلامية في طريقها بعد عمر بن عبد العزيز (٢) وبدأت تتخذ صورة جديدة أو شكلا جديدا ، هو التحالف بين الحركة الاسلامية وبين الدعوة الهاشمية سواء للعلويين أو للعباسيين ، ومضى التطور حتى اكتملت الصورة سنة ١٣٢ هـ بنجاح الحركة الاسلامية ، ومعها نجاح الدعوة العباسية . وبداية ظهور الايرانيين المسلمين على مسرح الحوادث .

ونحن نريد بعد هذا وبعد أن عرفنا كيف انتهى التطور الى هذه الخاتمة ، أن نعرض للنتائج الهامة التي ترتبت على هذه الحقيقة التاريخية الكبرى .

(١) عن سياسة عمر بن عبد العزيز في العراق وايران .
أنظر الطبري ، ج ٨ ، ص ١٣٢ ، وابن الحكيم ، سيرة عمر
ابن عبد العزيز ، ص ٩٩ . وفلهوزن ، ص ٢٥٩ — ٣٠٢ . وابن الجوزي
مناقب عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٤ .

(٢) ذكر يحيى بن آدم ، ص ٤٤ « أن عمر بن عبد العزيز رفض تحويل الخراج على قوم دخلوا في الاسلام الى مضر وأنه فوق ذلك أعلن أن من بقى منهم على جدوله يدفع ما كان يدفعه من قبل وأن من يهاجر الى المدن ترد ارضه الى أهل القرية » .

اذن كانت الحركة الاسلامية في ايران أسرع منها في أى قطر، آخر ، فقد كانت سنة ١٣٢ هـ هى سنة هذا التحول العظيم في تاريخ ايران ، على حين تم هذا التحول في مصر في سنة ٢٥٤ هـ مع ظهور الدولة الطولونية (١) .

وفي حديثنا عن أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الاسلام في ايران وأتاحت له فرصا كثيرة للنجاح ، نعتقد أن أهم هذه العوامل هو ما يمكن أن نسميه بالسياسة العامة للدولة الاسلامية في ايران بعد الفتح ، هذه السياسة التى وضعت أصولها زمن الفتح أو بعده بقليل .

وهذه السياسة تتألف من أركان كثيرة ، وأهم ما فيها مسألة معاملة أهل الذمة من جميع الوجوه ، لأن هذه المعاملة ستكون من أهم الأسباب التى تهيب الذميين نفسيا لتقبل الدعوة الى الاسلام والاقبال على الحضارة العربية ، والمعروف أن الدولة العربية كانت سياستها تمنع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحة ، فمثلا المعاهدة التى عقدت مع الحيرة ومع الرى ومع مدينة طبرستان واذربيجان وغيرها من المدن الايرانية ، ونصوص هذه المعاهدات موجودة في كل من البلاذرى : « فتوح البلدان » (٢) ومحمد بن جرير الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » .

هذه المعاهدات كلها تكاد تتجه اتجاها واحدا وتتبع من مصدر واحد ، وكلها تتضمن منح أهل الذمة من الايرانيين حرياتهم الدينية ذلك أن المجوس اعتبروا أهل ذمة على قدم المساواة مع الديانات الأخرى ، وفوق هذا منحوا أيضا الحريات المدنية ، وتكفل المسلمون بحماية هؤلاء الناس وتوفير أسباب الطمأنينة لهم ، وذلك في مقابل

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ١٢٣ — ١٢٨ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٢ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٩٩ ،

واحد هو دفع الجزية (١) ، وهذه الجزية كانت تتراوح كثرة وقلة بين الغنى والفقير ، وتعفى منها طبقات كبيرة من الناس •

وهذه العقود فوق هذا أعطت أهل الذمة حقوقا لم تكن متوفرة لهم من قبل • وإلى جانب ذلك كله تضمنت هذه السياسة استخدام الإيرانيين من غير المسلمين في وظائف الدولة الادارية وخصوصا الوظائف المالية ، لأن إيران كانت بها طبقة تسمى « طبقة الدهاقين » عرفت بمهارتها المالية وبنبوغها في أعمال الخراج واطلاعها على الأسرار الادارية والسياسية (٢) هؤلاء الناس استخدموا في عهد الراشدين واشتد استخدامهم في عهد الأمويين •

وفوق هذا أبقي العرب على التنظيمات الادارية ، فمثلا سجلات الضرائب ظلت في إيران تكتب باللغة الفارسية نحو من خمسين سنة ، وظلت في منطقة خراسان تكتب باللغة الفارسية بعد الفتح بنحو ١٠٠ سنة • وفوق هذا أيضا استخدم العرب نفس العملة الفارسية القديمة ، فبقى الدرهم الفارسي بنفس الصورة القديمة أساسا للمعاملات المالية والاقتصادية (٣) •

هذه هي روح السياسة العربية واتجاهاتها • ومما تجب الإشارة إليه أن هذه السياسة طبقت نصا وروحا في عصر الراشدين ، وجميع الوثائق العربية المتعلقة بإيران في العصر الاسلامي كلها تجمع على ذلك ، وهذا لم يكن غريبا ، فقد كان عهد الراشدين هو عهد المثالية الاسلامية وعهد الدعوة الى الاسلام ، بل هناك من الشواهد ما يجعلنا نخالف اجماع المؤرخين من أن العصر الأموي كان خروجاً على هذه المبادئ ، فقد ثبت أن الأمويين حافظوا على روح هذه السياسة ، وظل التسامح الديني مستمرا وقتاً طويلاً ، وبقيت عقود الصلح كما هي دون أن تتغير •

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١٥ •

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٦٥ وفلهوزن ، ص ٤٦٩ •

(٣) الكرملي : النقود العربية ، ص ٩١ •

بل توسع الأمويون في استخدام أهل الذمة في وظائف الدولة ، وكل ما يؤخذ عليهم هو أنهم نحوا نحوا ماليا في مضاعفة بعض الضرائب لاعتبارات تطلبتها حياة العصر ومشاكله ، ويكفى أن يقال أن عهد عمر بن عبد العزيز كان عهدا اسلاميا مثاليا ، وسنرى أنه سيكون له شأن في تطور الحركة الاسلامية .

وإذا كان الأمويون قد حافظوا على هذه الروح فبالتالى حافظ عليها العباسيون ، لقد كان العصر العباسى هو عصر النفوذ الفارسى على نطاق واسع ، وأصبح الفرس أو الايرانيون هم العامل الموجه للحياة الاسلامية كلها .

وقد كان هذا التسامح الاسلامى ذا أثر كبير في الاستعداد النفسى لأهل ايران ، لأن الاضطهاد دائما هو الذى يبيح للديانات البقاء ، وما من دين اضطهد الا وانتصر ، أما العرب فانهم تركوا للاسلام الفرصة لأن يلتقى سلميا مع الديانات الأخرى ، وأتاح لهذه الديانات ولغيرها الفرصة للمقابلة بين ما عند الاسلام وبين ما عندهم . ونحن نعتقد أيضا أن أغلب الاستجابة للاسلام كانت عن اعتقاد ، والدليل على هذا أن طبقات المسلمين من أهل ايران هم الذين تولوا الدفاع عن الاسلام بعد أن تسلموا زمامه وقد دافعوا عنه كما دافع عنه العرب .

وكذلك كان للاعفاء من الجزية الذى قرره التقاليد الاسلامية أثر عظيم ، لأن الجزية في ايران كان لها مفهوم غير الجزية في البلاد الأخرى ، فكانت الجزية في مصر البيزنطية يفرضها شعب غالب على شعب مغلوب ، أما الجزية في ايران الساسانية فقد كانت نظاما يفرض على الساسانيين أنفسهم ، فكانت فرص الاعفاء تجعل طبقات كثيرة من الفقراء تستجيب للحركة الاسلامية .

ونلاحظ مثلا في عهد عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف سخطا عظيما من المسلمين على محاولات الدولة الأموية ابقاء الجزية

على من أسلم ، وشارك في هذا السخط العرب ورجال الدين ، وانتهى الأمر بأن أعفوا من الجزية في عهد عمر بن عبد العزيز • على كل حال كان عامل الجزية هذا من العوامل التي كان لها أثر كبير في تقرير موقف الفلاحين والعمال من الحكم الاسلامي ، ومن العقيدة الاسلامية •

ويمكننا أن نضيف الى هذا كله موقف الدولة الاسلامية من موضوع الخراج وموضوع ملكية الأرض ، فقد كان موقف الدولة من هذه الناحية يمثل في نظر الايرانيين المعاصرين تطورا بعيد المدى ، لأنه تضمن القضاء على الاقطاعية الساسانية ، وتحرير الملايين من الناس الذين كانوا يعيشون عبيداً للأرض وليس لهم من الحقوق الا العمل الشاق المتواصل •

فجاء موقف الاسلام أو موقف الحكومة الاسلامية من تقرير مبدأ الحيازة والملكية لكافة الفلاحين الذين كانوا محرومين منها ، تطورا بعيد المدى ، وصحب هذا التطور فرض ضريبة الخراج وهي بالقياس الى الضرائب القديمة كانت خفيفة العبء (١) فإذا كانت الحكومة الاسلامية تمنح أهل الذمة هذه الحقوق فبالأولى تتضاعف هذه الحقوق بالدخول في الاسلام ، والايراني اذا أسلم كان يستبدل بنظام الجيازة بنظام التملك ، ويستطيع أن يملك الأرض ويتصرف فيها بالبيع أو الشراء أو بالهبة أو الوصية ، وذلك كله في مقابل دفع ضريبة العشر فقط •

وقد كانت هذه السياسة بعيدة الأثر في تطور الحركة الاسلامية ما في ذلك شك • وقد حاولت الدولة أيضا في عهد الحجاج بن يوسف وعهد عبد الملك أن توقف هذا التطور ، ولكنها لم تستطع أن تغالب التيار الاسلامي الذي كان يشتد سنة بعد سنة •

والى جانب موضوع الخراج وملكية الأرض ، هنالك موضوع فرض العطاء من بيت المال ، اذ أنه كان من المفروض أن الايرانيين

(١) انظر البلاذري : أمر البطائح ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ •

إذا أسلموا من حقهم أن يشتركوا في الجهاد وقد اشتركوا فيه ، فالجيش الأموي كان به فرق من المسلمين من أهل الذمة ، وهذه الفرق شاركت المسلمين العرب في حركة الجهاد واستطاعت أن تدافع عن الحدود الإيرانية ، وأن تدافع عن حدود الإسلام ، وفرض لهم العطاء من بيت المال ، فكان هذا العطاء في عهد معاوية نحو ٢٥ درهما للفرد في الشهر (١) إلى جانب النفقات الأخرى ، وكان هذا العطاء يتضاعف بمرضى الوقت ، وكان هذا الجهاد وما يترتب عليه من عطاء من أهم العوامل التي كانت تساعد على نمو الحركة الإسلامية وكثرة الداخلين في الإسلام .

وفي ختام هذه النتائج يجب ألا ننسى موضوع المحافظة على النظم الإدارية والابقاء على الموظفين من أهل البلاد ، وهذه السياسة كان لها أثر عظيم جدا وخصوصا في موقف طبقة البيروقراطية أو طبقة الموظفين ، هذه الطبقة تأثرت إلى حد كبير بهذه السياسة الإسلامية ، وإذا كانت قد استطاعت أن تحتفظ بوظائفها مع احتفاظها بدينها القديم فإنها اعتقدت أن دخولها في الإسلام سيضاعف من هذه الحقوق ، وهذا ما حدث فعلا (٢) . ذلك أن أسلام أفراد هذه الطبقة كان يضاعف من حقوقها ويزيد من تمكنها من النواحي الإدارية ، ويرى المستشرقون أن هؤلاء الناس لم يكونوا يدخلون في الإسلام فحسب ، إنما بدأوا بالمحافظة على أوضاعهم ولزيادة حقوقهم يتخذون أسماء وألقاباً عربية .

والبلاذري على وجه الخصوص يضرب أمثلة للأسماء التي اتخذوها مثل (أبو مسلم وأبو عون وغيرها من الألقاب الإسلامية) ، وقد ظنوا أن استعراهم على هذا النحو ربما يزيد من اتصالهم بالحكومة العربية (٣) ، ويزيد بالتالي من امتيازاتهم ، بل نستطيع أن نؤكد أن هذه السياسة تسلمت إلى نفوس الطبقة العليا من المجتمع ،

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

(٢) البلاذري : نقل ديوان الفارسية ، ص ٢٩٨ .

(٣) Browne, Literary History of Persia, pp, 127—135.

طبقة الأرستقراطية ، ولدينا من الشواهد والأدلة ما يثبت أن الكثيرين من الأرستقراطية الفارسية دخلوا في الاسلام ، واتخذوا أيضا أسماء عربية تمهيدا لاشتراكهم في الحياة الاسلامية .

ولا ننسى الفرق الواضح بين تشريعين : التشريع الايراني الرسمي الذي يتمثل في الزرداشتية ، فهي لم تكن ديناً فحسب ، انما كانت تنظيماً للحياة الاجتماعية والاقتصادية . ثم التشريع الاسلامي وهو بدوره لم يكن تشريعاً دينياً فحسب ، انما كان تشريعاً اجتماعياً واقتصادياً . ويكفي أن نبين ببساطة الفرق الواضح بين اتجاهي التشريعين ، وأثر هذا الفرق في نفسية الشعب الايراني ، وأهم ما نلاحظه أن التشريع الايراني كان تشريعاً طبقياً بمعنى أنه يعطي نظام الطبقات طابع القداسة . ويفرض على غالبية الناس أن تعيش عيشة اجتماعية في حدود مرسومة لا يمكن أن تتخطاها ، فقد كان من المستحيل أن يتم الانتقال الطبقي من فئة لأخرى (١) .

والاسلام نزعة نحو المساواة والقضاء على الطبقية . وهي نزعة كانت أشد وضوحاً على الأقل في زمن الفتح وفي زمن الراشدين ، واتجاه الشريعة الاسلامية الى هذه التسوية بين الطبقات كان له أثر نفسي بعيد المدى في الطبقة الثالثة ، طبقة العمال المدنيين وطبقة الفلاحين ، فهي أسرع الطبقات دخولا في الاسلام واستجابة له .

وهناك فرق واضح أيضا بين التشريعين في موقف كل منهما من نظام الأسرة ، باعتباره نواة للتشكيل الاجتماعي ، فالمعروف أن التشريع الايراني القديم كان ينزل المرأة الى مستوى العبيد ، ويكاد يحرمها من حقوقها المدنية وحقوقها الاجتماعية .

وكان هذا التشريع يجيز نسب المولود لغير أبيه ، ويجيز أشياء أخرى لا تعمل على تقوية روابط الأسرة انما تساعد على انحلالها

ونفختها . أما التشريع الاسلامى فهو يعطى الأسرة مكانا واضحا فى الحياة الاجتماعية ويعطى المرأة حقها الكامل فى النواحي المدنية والاجتماعية . ولا يعترف بالأبوة الا على أساس الدم وأساس النسب .

وهناك فرق آخر فى التنظيم الاقتصادى فى التشريعين الايرانى والاسلامى . هذا الفرق هو أن التشريع الايرانى فى الناحية الاقتصادية يفهم على نظرية الاحتكار . واعطاء كل الحقوق الاقتصادية لطبقات معينة من المجتمع . ثم حرمان غالبية الناس من حقها الطبيعى فى الحياة الاقتصادية . هذا فى الوقت الذى تنتجه فيه الشريعة الاسلامية اتجاهها اشترائيا واضحا . قوامه التكافل الاجتماعى والاقتصادى ، والمساواة بين كافة الطبقات على قدم المساواة .

أما أهم هذه العوامل وآثارها فهو الهجرات العربية الى ايران واستقرار العرب فى هذا الوطن واقامتهم فيه .

والمؤرخون الذين عرضوا لموضوع انتشار الاسلام فى ايران ، يعتقدون أن عامل الهجرة العربية كان من أهم العوامل وأقواها (١) . وهذا العامل يرجع اليه الفضل فى نشر الاسلام ليس فى ايران فحسب ، انما فى جميع البلاد الاسلامية . ذلك أنه من المعروف أن الفتح العربى لايران ولغيرها من البلاد لم يكن فتحا عسكريا فحسب ، انما كان فتحا بشريا ، بمعنى أنه كان يمثل هجرة بشرية كبرى ، وبدل على هذا نظرة فاحصة الى الجيش العربى الذى قام بفتح ايران فى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كان هذا الجيش يتألف من جميع القبائل العربية المشتركة فى الجهاد على قدم المساواة . وأهم من هذا أن المقاتلة العرب كانوا يحسبون معهم أسرائهم وذويهم ، وكان الفتح عادة يعقبه استقرار للعنصر العربى فى البلاد المفتوحة .

وقد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب ، ووضحت

(١) البلاذرى : ٢٧٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٠ .

في عهد عثمان ، ويكفى أن نذكر أن الثورة الكبرى التي أطاحت بعثمان جاءت من طبقة المقاتلة أو طبقة المهاجرين التي زادت زيادة كبرى في عهد عثمان ، ولم يتوقف تيار الهجرة بعد عثمان ، إنما استمر طوال العصر الأموي ، ففي عهد معاوية مثلاً حدثت هجرة الأزدي الكبرى ، ففسد هاجر الأزدي واستقروا بمنطقة خراسان ، وأصبحوا عاملاً هاماً في تشكيل الحياة السياسية والاجتماعية في هذه المنطقة . ويرى الدارسون أن منطقة خراسان وحدها تجمع فيها من العرب نحو ٢٠٠.٠٠٠ أسرة عربية . واتجه الأمويون اتجاهها واضحاً إلى سياسة توطين العنصر العربي ، واسكان هذا العنصر في مختلف أنحاء إيران ، وكانت سياسة مرسومة وضحت إلى أبعد الحدود وخصوصاً في عصر الحجاج بن يوسف وعمر عبد الملك بن مروان ، وما كاد القرن الأول للهجرة ينتهي حتى انتشر العنصر العربي في إيران كلها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب (١) .

على أن المهم في موضوعنا هذا ليس هو انتشار العنصر العربي على هذه الصورة من الاتساع ، إنما المهم هو التقارب التدريجي بين العنصرين : بين العنصر العربي والعنصر الإيراني ، ولا نستطيع أن ننكر أن العرب في عصر الراشدين كانوا طبقة استقرارية تتفرغ للحرب والجهاد ، إنما بدأت الخطوات نحو الاقتراب بين العنصر العربي والعنصر الإيراني طوال العصر الأموي .

ونستطيع أن نحدد ملامح هذا الاقتراب ووسائله والنتائج التي انتهت إليه . فقد تم هذا الاقتراب في المدينة والريف على حد سواء ، ففي المدن القديمة ، مثلاً الري وأصفهان ، كان العرب الوافدون ينزلون في المواقع الاستراتيجية في هذه المدن ، ويتعاونون مع أهل البلاد ويختلطون بهم بمرضى الزمن : أما في المدن الجديدة التي أنشأها العرب في العراق وإيران مثل البصرة والكوفة ، فبرغم أن سكانها كلهم

(١) البلاذري : خراسان ، ص ٣٩٩ — ٤٠٩ .

انظر أيضاً فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٣٨٠ — ٤٦٧ .

كانوا من العرب الا أنها شهدت ظهور احياء جديدة هاجر اليها المسلمون من الفرس ، يعملون فى خدمة الطبقة العربية خصوصا فى الأعمال اليدوية والمشروعات الصناعية (١) .

وكانت طبقة المهاجرين الى المدن الجديدة يزداد عددها باستمرار ، وكان موضوع الهجرة هذا من أهم المشاكل الاجتماعية التى عمل الأمويون على حلها ، وإلى جانب هذه المدن الجديدة والقديمة ، تم الاختلاط بين العرب وبين الإيرانيين فى الاقطاعات الكبرى المنتشرة فى المناطق الريفية ، وكانت وسيلة هذا الاختلاط بين طبقة العرب من ناحية وأهل البلاد الأصليين من ناحية أخرى ، هى الزواج وخصوصا زاهرة الزواج بالكتابات ، وقررت على هذا الزواج نشأة طبقة جديدة من المولدين آبائهم عرب وأمهاتهم من غير العرب ، وكانت طبقة المولدين هذه يزداد عددها باستمرار وستصبح عماد الحركة الاسلامية فى ايران ، بل هى عماد التطور الاسلامى فى الوطن الايرانى كله .

وما لبثت الطبقة العربية الوافدة أن عادت مظاهر الحياة الاجتماعية ، وبدأوا يستخدمون نفس الأساليب فى الحياة ، وفى اللبس ، وفى طريقة المعيشة ، وفى الاحتفال بنفس الأعياد الفارسية القديمة ، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول ان الهجرة العربية هى التى ساعدت على التقرب الطبيعى بين العرب والفرس ، بل هى التى ساعدت على تطور الحركة الاسلامية واشتدادها .

مساوىء الحكم الأموى

أما الأمر الثالث الذى أفاد منه الدعاة العباسيون أنهم فائدة ، فهو تجمع طاقات عظيمة من السخط فى نفوس الإيرانيين على الحكم الأموى ومساوئه ، وقدر لهذه الطاقات أن تبلغ أقصاها فى الفترة الأخيرة من العصر الأموى ، أى منذ عام ١٠٠ هـ حتى قيام الثورة

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : تمصير الكوفة ، ص ٢٧٤ .

العباسية ، ومن الغريب أن تنشط الدعوة العباسية المنظمة منذ عام ١٠٠ هـ على وجه التحديد ، في الوقت الذي وضحت فيه سياسة التراجع الأموي أمام التيار الاسلامي الصاعد •

استطاع الدعاة العباسيون فعلا أن يفيدوا من التطورات الاقتصادية في ايران ، حتى أن الثورة العباسية يمكننا أن نبحت لها عن أسباب اقتصادية أو تبرير اقتصادي ، ويخيل إلينا أن المظاهر الاقتصادية لم تكن أقل أهمية من المظاهر السياسية ، ان لم تكن تفوقها أثرا ، ونعتقد أن الظواهر الاقتصادية هي التي أدت الى القضاء على الملك الأموي ومكنت الثورة العباسية من أن تنجح ، وهذه الأسباب تتمثل في :

— سياسة اقتصادية معينة سار عليها الأمويون حققت لهم بعض المكاسب الوقتية ، ولكنها أدت في النهاية الى اضطرابات اقتصادية كانت سببا في نهاية عهدهم وزوال ملكهم •

— تطورات اقتصادية بين طبقات الموالي من غير العرب في جميع البلاد الاسلامية ، وخاصة منطقة إيران قلب الثورة العباسية ، والتي مكنت العباسيين من أن يحققوا أغراضهم السياسية ، ومكنتهم من نقل الخلافة اليهم •

وقد حدثت تطورات اقتصادية داخل طبقة الموالي أنفسهم ، ذلك أن الموالي كانوا مضطرين الى الهجرة جماعات من الريف لأسباب اقتصادية أو غير اقتصادية • وكانت هذه الهجرة مشكلة المشاكل وخاصة في بلاد العراق وفي منطقة ايران ، وكان هؤلاء المهاجرون يذهبون الى المدن الكبرى ، وينشئون أحياء جديدة حولها ، لخدمة الأرستقراطية العربية في النواحي الفنية والصناعية (١) •

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٧٩ •

وقد اكتسب هؤلاء المهاجرون أرباحا ضخمة عن هذا الطريق ، لأن العرب دائماً كانوا يأنفون من الحرف والصناعات ، ولكن الذى حدث أن هذه الهجرات منذ النصف الثانى من العصر الأموى اشتدت وظهرت فى هذه المدن طبقات من الموالى اكتسبت الأموال قبل اشتداد الهجرة وتزاحمها ، وأصبحت المدن العراقية والایرانية بها طبقات كبيرة من العاطلين الساخطين على أوضاعهم ، وكان هؤلاء الساخطون وقوادا هشا للتطورات الثورية ، وخصوصا لحركة الشيعة وحركة العباسيين •

التطورات الاجتماعية :

ويمكننا أن نضيف الى المظاهر الاقتصادية مظهرا اجتماعيا أو تطورا اجتماعيا معيناً ، وهذا التطور سنراه واضحا فى جميع البلدان الاسلامية ، لكنه سيكون أشد وضوحا فى مركز الثورة العباسية ، ونقصد منطقة العراق وايران ، فقد كان الموالى يملكون بتطور اجتماعي معين ، ذلك أن الفتح العربى للعراق وايران والحكم العربى لهذه البلاد ، قضى على النظام الطبقي القديم ، وكانت نتيجة هذا تحرير ملايين من البشر من طبقات العمال والصناع والفلاحين ، وهم أفراد الطبقة التى كانت تسمى طبقة العمال المدنيين •

وكانت هذه الطبقة قبل الفتح العربى تعيش فى الأغلال الاجتماعية والاقتصادية ، فكان تحريرها ثم اعتناقها الاسلام مقدمة لظهور طبقة وسطى من بينهم تسكن المدن ، وتحرز الثروات ، ونجمع الى جانب الثروة الخبرة وتضم لجيلها عنصر الثقافة ، ولذلك كان الموالى أسرع من العرب تقبلا للحضارة وللتطورات الثقافية ، وسرعان ما ظهرت فى ميدان الفقه والأدب ، وبدأوا ينتجون فى مختلف العلوم الاسلامية ، وإذا بهم بعد حصولهم على هذه الامتيازات الاقتصادية والثقافية يشعرون أنهم ليسوا أقل من العرب • وأنهم أحق بالحصول

على المساواة والحرية • هذه الطبقة الجديدة كانت عمود الثورة العباسية ، وهى التى ستوجه الحياة العباسية كلها وتلعب الدور الأول فى التاريخ العباسى (١) •

كما أنه بعد فتح العراق وايران أخذت الهجرات العربية تتجه الى هذه البلاد ، وسكن العرب المدن الجديدة وبعضهم نزل فى الريف ، وتبين لنا المراجع أن المهاجرين العرب انتشروا فى ايران كلها ووصلوا الى حدودها الشرقية • وهذه الهجرات العربية لم تكن قاصرة على عصر الراشدين انما استمرت طول العصر الأموى • والعرب فى ايران والعراق خضعوا لتطورين عظيمين ، كان لهما أثرهما العظيم فى مستقبل العرب كجنس ومستقبلهم كأمة (٢) •

تركوا البداوة الى الاستقرار ، واشتغلوا بالزراعة . وتأثروا بالتقاليد الاجتماعية فى البلاد التى هاجروا اليها • كانوا يرتدون نفس الأزياء ويأكلون نفس الأطعمة ويعيشون نفس الحياة (٣) ، وأهم من هذا أنهم بدأوا يتزوجون من أهل البلاد ، وبعد جيل أو جيلين انتشر عنصر المولدين ، وبدأت الدماء العربية النقية تذوب فى الشعوب المغلوبة ، كما أن العرب كجنس بدأوا يفقدون مقومات وجودهم ، ووضحت هذه الظاهرة فى العصر الأموى الأخير •

وفى أماكنهم أو أوطانهم الجديدة ، حملوا معهم نفس بذور الانقسام التى كانت موجودة فى الجزيرة العربية ، نفس النزاع التقليدى بين الجنوبيين والشماليين أى بين القحطانية والعدنانية ، فمقد انتقل هذا النزاع الى كل بلد دخله العرب ، فنجده واضح فى منطقة خراسان مركز الثورة العباسية ، فلا نعجب اذا وجدنا العرب وقد ضعفوا كجنس ، انقسموا وحاربوا بعضهم بعضا ، واستطاع الموالى

(١) انظر الفصل المتع عن الموالى فى :

Levy : The Social Struicure of Islam pp. 64.

(٢) فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٧٣ •

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٨ •

عندما نهضوا أن يجدوا عنصرا عربيا ضعيفا ، ولعل هذا الضعف هو الذى مهد لنجاح الثورة العباسية ، حتى ليرى المؤرخون أن الثورة العباسية كانت أسبابها الاقتصادية والاجتماعية أوضح من أسبابها السياسية والعقيدية .

أحداث الثورة العباسية (١٢٩ - ١٣٢ هـ)

هذه السنوات الأربع فترة قصيرة زمنا عميقة تطورا وأحداثا ، بل هى من أهم السنوات فى تاريخ العباسيين ، فقد زاولت فيها تنظيمات الدعوة العباسية نشاطها ، وخرجت من الستر الى العلانية ، ووضحت فعاليتها وحقان أوان الحكم لها أو عليها ، وبدأت شعارات الدعوة التى أشرنا اليها تمتحن صلابتها وأهميتها وقوتها ، بل وضحت فى هذه السنوات القليلة جذور التطور التى شكلت الحياة العباسية كلها ، وقد تجلت فيها مظاهر الضعف الأموى فى أجلى مظاهرها : فى سيرة نصر بن سيار ، وابن هبيرة ، ومروان بن محمد ، وكانت حافلة بالنضال العنيف والاشتباكات الدموية العنيفة ، وشهدت عملية تصفية للأمويين ونفوذهم لم ير لها مثيل من قبل . فى هذه الفترة ظهرت القوى الجديدة من خلال غبار الحروب فى مرو ونيسابور والزاب ، هذه القوى التى ستطفو على سطح الحياة الإسلامية كلها ، وفيها تجلى ضعف العنصر العربى وانقسامه وتخاذله ليفقد نفوذه كله فيما بعد ، وفيها تحولت الامامة الى خلافة ، وظهر زيف شعار الدعوة للرضا من آل محمد ليحل محله الرضا من آل عباس .

أبو مسلم يتزعم الدعوة العباسية فى الشرق

كانت سنة ١٢٧ هـ سنة حرجة فى تاريخ الدعوة العباسية فى الشرق ، فقد تكون للشيعنة بخراسان تنظيم استقل عنهم (١) وتفاقم خطره برئاسة خدّاش . وكانت رئاسة الدعوة المحلية التى تكونت

(١) انظر : المسعودى « مروج الذهب » ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

في مرو طيلة السنوات السابقة لا تريد أن تخضع لرئاسة الكوفة أو تأتمر بأمرها ، وان كان هذا لم ينتقص من ولائها لآمام الوقت محمد بن علي * وقد خشي العباسيون أن يفلت من أيديهم زمام أهل خراسان أو أن تكتسحهم دعوة الشيعة العلوية * وقد حاول محمد بن علي أن يعيد طاعة جماعة خراسان لرئاسة الدعوة في الكوفة ، واستطاع بنفوذه الشخصي أن يستميل زعيمهم سليمان بن كثير اليه ، واستطاع سليمان بن كثير أن يوجد التلاحم المنشود بين الجماعة الخراسانية وبين الرئاسة في الكوفة ، فلما دخل وزير الكوفة الى مرو سنة ١٢٦ و ١٢٧ هـ رحب به أهل خراسان وساموه ما اجتمع عندهم من نفقات وخمس أموال ، وكانت هذه الأموال قبل ذلك تحمل الى الامام نفسه عندما كانوا يلقونه في مكة المكرمة .

ثم استطاع ابراهيم بن محمد بن علي أن يتخذ الخطوة الحاسمة للسيطرة على الموقف في خراسان سيطرة تامة ، فوضع اللبنة الأولى في صرح الدولة العباسية ، وذلك عن طريق أبي مسلم الخراساني (١) * وقد سبق أن ذكرنا أنه لم يكن عربيا بل كان أعجميا وكان مملوكا أو مولى في الكوفة * وقد استرعى انتباه شيعة بنى العباس ، فأرسلوه الى ابراهيم الامام ، فضمه الى أسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته .

ويبدو أن أمور الدعوة في المشرق قد استقامت لبنى العباس سنة ١٢٨ هـ وحلت المشاكل التي واجهها محمد بن علي من قبل في سنة ١٢٦ هـ ، بعد أن أصبح أبو مسلم داعي العباسيين في خراسان وأصبح رئيسا للدعوة * وكان قد أصبح معروفا في خراسان بعد زيارته المتكررة لها رسولا للأئمة ، ووجدت فيه الجماعة الخراسانية ، الخراساني الحق الذي يرضى طموحها ويحقق أحلامها ، وقد كان اختياره موفقا ، فان مولى يرأس الدعوة في خراسان أليق وأجدر بالشقة في خراسان من عربي حر * ولم يقصد أن يتنحى سليمان بن كثير ، فقد أوصاه ابراهيم الامام بالألا يخالفه أو يعصيه وأن يرجع اليه *

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ١٢ .

واستطاع أبو مسلم بما أوتى من كفايات أن يكون الداعية العباسي المتحكم في الشرق كله .

عمليات أبي مسلم في خراسان وطخارستان وما وراء النهر :

ويمكننا اعتمادا على ما رواه الطبري وأبو الخطاب أن نتتبع الخطوات التي خطاها أبو مسلم ، منذ زعامته للحركة العباسية في خراسان حتى انتهى به الأمر الى النجاح .

فقد عاد أبو مسلم الى مرو منصورفا من قومس يوم الثلاثاء ٩ شعبان سنة ١٢٩ هـ فنزل أول الأمر قرية تدعى قنين ، والثاني من رمضان خرج الى قرية سفيذنج ، وجعل يوم ٢٥ رمضان موعدا للجهر بالثورة ، وأخبر بذلك أتباعه في مرو الروذ وطخارستان وخوارزم . وتم في هذا اليوم رفع أعلام العباسيين ، وأوقدت النيران للأنصار من سكان القرى المجاورة ، فاجتمعوا في قرية سفادم في ٢٧ رمضان ، حتى بلغ عددهم ألفين ومائتين من الرجال وستة وخمسين من الفرسان .

وفي يوم عيد الفطر سنة ١٢٩ هـ أقيمت في سفيذنج (١) أول صلاة للأنصار بنى العباس ، فلم يكن هنالك بد من الصدام الحتمي بين جند الثورة وبين قوات نصر بن سيار عامل بنى أمية ، فقد أرسل نصر حملة يقودها مولى له يسمى زيد . ولكن رجال أبي مسلم هزموا خيل نصر عند قرية آلين . وفي أول ذي القعدة كان خازم بن خزيمة التميمي قد استولى على مدينة مرو الروذ (٢) . وكان أبو مسلم قد مكث في سفيذنج أربعين يوما . وفي يوم الأربعاء ٩ ذي القعدة نقل عسكره الى الماخوان ، ومنها بعث حملة الى جيرنج ليفضوا على نفوذ نصر بن سيار في مرو الروذ وكور بلخ وطخارستان ، ثم انتقل الى آلين واحتفل فيها بعيد الأضحى . ولم تستطع خيل نصر بن سيار أن تنال من رجال أبي مسلم المعسكرين في آلين .

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ٨٣ .

(٢) الطبري : ج ٩ ، ص ٨٦ .

ثم جاءت الظروف مواتية لأبي مسلم ولثورته الناشئة ، فقد رفض الحلف الذي جمعه نصر بن سيار لوأد الثورة في مهدها ، فقد وقع الانقسام بين القبائل العربية (١) هناك . ولعل هذا التطور هو الذي دعا أبا مسلم الى أن يعود الى الماخوان مرة أخرى ، وأن يأمر أصحابه بابتناء المساكن والاستعداد للشتاء (٢) . وقد أقام أبو مسلم في الماخوان ثلاثة أشهر ثم دخل مرو يوم الخميس ٩ جمادى الأولى . وقد هاجم مرو من ناحيتين ، فقد قام على بن جديع أحد رجال أبي مسلم بالهجوم من جهة ، كما قام قائد آخر بالهجوم من جهة أخرى ، فانتصر لدعوة بني العباس ، ودخل أبو مسلم المدينة وعمر نصر بن سيار لا يلوى على شيء .

وبعد أن أدرك أبو مسلم ذلك النجاح ، وجه أبا داود خالد بن ابراهيم البكري أحد أنصاره المخلصين الى طخارستان . ومن الغريب أن كلمة العرب جميعهم في تلك الناحية مضريهم ويمانيهم وربيعهم قد اجتمعت على مقاومة أبي مسلم وشيعة بني العباس وانضم اليهم الأعاجم هناك ، ثم وقعت بينهم معركة على نهر السرجنان ، فترك العرب المتحالفون مدينة بلخ وتراجعوا الى مدينة ترمذ .

وصارت في يد أبي مسلم في أرض خراسان الحقيقية الولايات الشرقية الثلاث ، وهي مرو ، ومرو الروذ ، وهراة . أما في القسم الغربى وأعنى ولاية نيسابور فلم يكن في يده سوى مدينتي نسا وأبيورد . وقد كان نصر بن سيار ، العامل الأموى ما زال يقيم في مدينة نيسابور ، على حين كانت سرخس يسيطر عليها شييان بن سلمة الحرورى . وقد بدأ أبو مسلم يتصدى لقتال شييان الذى اجتمعت له قبائل بكر ، فهزمه أبو مسلم وفر جنده الى نيسابور وانضموا الى نصر بن سيار ، ثم بدأ أبو مسلم يلتحم بقوات نصر . وهذا تطور كثير لا يخلو من تأمل وتدبر ، وهو ان دل على شيء فانما يدل على

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣٧ - ٤١ .

(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٩٠ .

قدرات أبى مسلم وتعاضم قوائمه ، وتنفشى دعوة بنى العباس ، وتتناحر العرب فيما بينهم واغتقارهم الى اتحاد الرأى واجتماع الكلمة • وتداعى النفوذ الأموى فى تلك النواحي ، وكان ذلك بداية الاشتباكات الكبرى التى زلزلت قواعد النفوذ الأموى • ولم يتول أبو مسلم القيادة بنفسه. فى هذا الاشتباك المصيرى بل ولاها قحطبة بن شبيب الطائى •

والذى نخرج به من دراسة نصوص الطبرى — التى عرضنا لها فيما سبق عرضا موجزا مركزا أقرب الى الجولية منه الى شىء آخر — تلك القدرات العظيمة التى تجمعت لهذا المولى أبى مسلم الخراسانى والتى جعلته من أعظم الدعاة العباسيين قاطبة ، قدرة واخلاصا ، ومكنته من أن يرسى دعائم الدولة ويحقق آمال الدعاة منذ انتقلت الزعامة الى بنى العباس • والذى نريد أن نعرفه وأن نؤكدده هو كيف استطاعت الأحداث أن تبرز هذه الشخصية الفريدة ، حتى أصبح أبو مسلم صورة من زعامة القوة النامية ، قوة الموالى الذين ظهروا على سطح الحياة الاسلامية وآلت اليهم مقاليد الأمور ، يتصرفون فيها كيف يشاءون ، فقد كان أبو مسلم مقدمة للبرامكة والظاهرين والبويهيين • ولقد وضع أبو مسلم أساس الدولة الخراسانية التى خشى المنصور أن تتحقق فى حياته ، فتحققت فى عهد المأمون باستقلال الطاهريين • وكان جند أبى مسلم مقدمة لعنصر الموالى الصاعد الى القوة والمجد •

وفى استطاعتنا أن نستعرض قدرات ذلك الزعيم الداهية وأن نكشف عن السياسة التى اتبعها فى طريقه الى النصر ، وكيف تجمعت له القدرات العسكرية الفائقة ، والقدرات السياسية الكبيرة ، وكيف كان عليما بنفسية الشعوب التى يخاطب ، والأرض التى عليها يحارب ، والعدو الذى يلقي •

ويمكننا أن نعزو تألق نجم أبى مسلم وظهوره بخاصة الى الأمور الآتية :

المعرفة بأسلوب الحرب الذي يلائم أرض خراسان واقليم ما وراء النهر ، وقدرته الخارقة على التنظيم التي جعلت منه الادارى الناجح ، الذى يجمع الأنصار ولا يفرقهم بسوء التدبير وبسياسة لا أدري أطيبيعية متأصلة فى نفسه أم كانت أسلوبا من أساليب دهائه منقطع النظير • وهى المن على الأعداء المقهورين واطلاق سراحهم وموادعتهم ، والبراعة فى اخفاء الأهداف الحقيقية للدعوة العباسية حتى لا تفترق كلمة شيعته أو كلمة الأحزاب الداعية الى الاصلاح ، ثم فهمه لطبيعة القبائل العربية المقيمة فى خراسان ومعرفته بنزواتهم واحنهم وكيف وادعهم وأفاد من انقسامهم ، ثم كيف بطش وغدر بمن قاومه منهم •

فيمما يتعلق بالناحية الأولى وهى أسلوبه فى الحرب ، اختياره الشتاء دائما موعدا لعملياته العسكرية الناجحة ، ففيه تشل قوات العرب الذين لم يألفوا بعد هذه الأحوال القارسة البارد فى هذه البلاد . وغبه ينشط الخراسانيون والأتراك الذين نشأوا فى هذه المناطق وخبروها وألفوا جوها ، لذلك حدد أبو مسلم لأصحابه موعدا يخرجون فيه فى قلب الشتاء الموافق ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ هـ ، وقد اختار أبو مسلم فصل الشتاء لأنه الفصل الذى جرت عادة الجند فيه بالانصراف الى الراحة فيه من جانب العدو ، وعدم قدرة هذا العدو على جمع الجيش فى الشتاء ، على حين كان جند أبى مسلم من أهل الخشونة الذين لم تقيدهم بعد عادات خاصة ، وقد استغل أبو مسلم الى أقصى حد قوة جنده على الحرب شتاء وعجز جنود الخلافة فى خراسان عن الحرب فى الشتاء ، ولهذا نجده عندما يرى أن يوجه ضربة حاسمة يختار لها قلب الشتاء ، وبهذا الأسلوب كسب كل خراسان •

ولما تجمعت عليه الجيوش عقب ذلك كما رأينا ، اختار الشتاء التالى لوقفة عند أصبهان ، وقضى على نصف القوات المعادية ، كما نجح فى دخول مرو شتاء • وانتصار أصبهان شتاء أكسب القوات

الثورية تنظيما وقوة وشجاعة • كما نلمس أيضا تقديره السليم لقواته ووجوه الانتفاع بها الى أقصى حد ، والقدرة على اختيار الوقت المناسب للسكون والحركة • وكذلك اختار مكان الاحتشاد بعيدا عن المدن ذات الأجناد ، وعن عاصمة خراسان • فلما تم اجتماع الأنصار رسم لهم في مكان اجتماعهم سورا ليجعل من معسكره مدينة قادرة على الدفاع عن نفسها ، وظل يفعل ذلك نحو سنة كاملة حتى دخل مدينه مرو ، فاكتفى بها وبكثرة جنده وأنصاره •

والناحية الأخرى التي تتكشف لنا من تحليل الأعمال المنسوبة الى أبي مسلم ، هي قدرته الخارقة على التنظيم الذي جعل من جماعته ، وهم الفئة القليلة ، القوة الخاربة في حزم واحكام • ويروى الطبري أنه كان يعين العمال ويحصن الأمكنة ويأنف من اتخاذ مظهر الأمراء ، كما اتخذ لنفسه ديوانا للجيش ، لكي يطمئن على رزقهم ، فأمر أن يقيّد في السجل كل جندي بحسب اسم أبيه واسم قريته ، وكان الرزق الذي يعطيه لكل منهم يتراوح بين ثلاثة وأربعة دراهم في الشهر (١) • ويبدو أنه دبر الناحية المالية مما جرت عليه عادة الشيعة أيا كانوا ، وهي أن يدفعوا الخمس (٢) لأئمتهم ، واحتفظ أبو مسلم لنفسه بالناحية الحربية والادارية ، وترك امامة الصلابة لداعية آخر من رجال الدعوة وهو سليمان بن كثير الخزاعي الكوفي • فكانه وضع نواة حكومة عباسية مصغرة في خراسان تتسع دائرتها بالتدريج كلما ازدادت الثورة سعة في الانتشار ، وهي قائمة على أساس أن تختلط الأمور السياسية بالناحية العقيدية التي قامت الثورة على أساسها • وكانت حكومته تلك على صلة وثيقة ، حرص هو عليها كل الحرص ، بقيادة الدعوة في الكوفة أو الحميمة • وكان يتلقى تعاليم ابراهيم الامام وينفذها في دقة وأمانة وإخلاص • في الوقت الذي

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ٩٠ •
(٢) يذكر الطبري ان الأموال التي حملت الى ابراهيم الامام سينة ١٢٩ هـ هي ٢٦٠ ألف درهم •

انقطعت فيه أسباب الاتصال بين نصر بن سيار والخلافة الأموية ،
وتبددت الطاقات الأموية في دوامة الصراع القبلي العنيف .

ثم ناحية ثالثة نكتشفها من تحليل أعمال أبي مسلم خلال هذا
الدور الخراساني من أدوار الثورة العباسية ، وهي سياسة المن على
الأعداء وموادعة المهزومين ، كسبا للقلوب وتأكيدا لزعامته بين الناس ،
وهي لغة غير مألوفة في مثل هذه الفترة الدموية من تاريخ الدعوة ،
التي كانت أقرب أن تكون حرب حياة أو موت . ويشير الطبري الى
زيد مولى نصر بن سيار الذي بعثه لمصر لواد الحركة العباسية غب
ظهورها ، وكيف هزم زيد وجرح وأسر ، فأمر أبو مسلم بأن يعالج
هذا القائد من الجراحات التي أصيب بها وأن يحسن تعهده ، حتى
إذا افدملت الجراح دعاه أبو مسلم وخيره بين الإقامة معه والدخول
في الدعوة (١) أو الرجوع الى مولا نصر ، على أن يعطى عهد الله
ألا يحارب أبا مسلم وقومه ، ولا يكذب عليهم ولا يقول فيهم غير
ما رأى . وأراد أبو مسلم أن يكون هذا المولى شاهدا على أبي مسلم
وشيعته في اقامتهم الصلاة وتلاوة القرآن . ومن الغريب أن يكرر
نفس هذا المسلك في مناسبات أخرى عندما هاجمه بعض أنصار
نصر بن سيار على مقربة من مرو . وقد وقع في يده بعض الأسرى
مجروحين ، فأمر أن يعالجوا ، وكساهم وخلنى سبيلهم . لقد كان
أبو مسلم يريد أن يقيم القيادة الأسوة ليجتذب القلوب ويطبق
شعارات الدعوة .

وتتجلى حنكة أبي مسلم كداعية ، وبراعته كزعيم في فجر الثورة
الأولى في عمله على كسب ولاء جميع الفئات التي كانت تدعو الى
الاصلاح وتعمل على تغيير الأوضاع التي أفسدها الخلفاء الأمويون
الأواخر ، لتتوخد الحركات الثورية خلف هدف واحد للاطاحة بالنظام
الأموي . كما لم يحصد عن الدعوة للرضا من آل محمد برغم نجاح

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ٨٦ .

حركته ، ولم يكشف عن خبيء الدعوة العباسية ، بل جعلها تبدو للناس أمرا عاديا مألوفا يجمع الناس ولا يفرقهم • ومن قبيل ذلك ما يرويهِ الطبري من أن فتية نساكا من أهل مرو كانوا يطلبون الفقه أتوا اليه في معسكره ليسألوه عن نسبه ، فقال لهم (١) « خبري خير لكم من نسبي » فلما سألوه عن أشياء في الفقه قال لهم « أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا ، ونحن في شغل ، ونحن الى معونتكم أحوج منا الى مسألتكم ، فاعفونا » • وقد دخل أبو مسلم في مرو على رأس الهاشمية • ومن الهاشمية أمر أن تؤخذ البيعة بعد دخوله • أما هذه البيعة (٢) فكانت « أبايغكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، والطلاق والعتاق والمشي الى بيت الله ، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعاما حتى يبدأ بحكم ولا تنكم ، وان كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولا تنكم » • ومما يستلفت النظر في هذه البيعة أنها لا تطلع الجند على غايتها الحقيقية بل هي بيعة اجمالية في صيغتها ، وهي لا تصرح بشخص الامام العباسي من بين أهل البيت ، وأول ما أخذه على الجند هو الطاعة التامة لولايتهم • والواقع أن هؤلاء التأثيرين قد استخدموا الدين على مبادئ حربية ، فلم يكن الرجل العادي بحاجة الى أن يعرف أسرار قاداته ، بل كان يكفيه الايمان بالراية السوداء (٣) وقد لا تكون هذه السياسة من عنديات أبي مسلم وقد تكون مخططا عاما طبقه الدعاة في كل مكان ، حرصا على وحدة الكلمة الهاشمية ، لكن يكفي أن أبا مسلم طبق هذا المخطط في دقة وأمانة •

على أن الناحية الأخيرة في سياسة أبي مسلم في الدور الخراساني التي تحتاج الى تفسير ، هي موقفه من القبائل العربية وفهمه الجيد لآحنها وثاراتها وتجمعاتها وتحركاتها ، وافادته من اجتماعها واغتراق

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ٨٩ •

(٢) الطبري : ج ٩ ، ص ٤٥ - ٤٦ •

(٣) فلهوزن : ص ٥٠٣ •

كلمتها على حد سواء • وقد مر موقفه ذلك في مراحل ثلاث • الحيدة المطلقة — الانحياز لفريق على فريق — القمع للعرب المعادين لهم في شدة وقسوة أخذت عليه بالمحل الأول ، وأخذت على الأئمة بالمحل الثاني • وأعتقد أن انتقاله من مرحلة الى أخرى كان يتوقف أو يرتبط بقدرته وكثرة أنصاره ورغبته في الحرب أو المهادنة •

بدأ بالحيدة المطلقة بين القبائل المتقارعة حتى ظن كل فريق أنه على هواه ، ويعزى ذلك الى أن أبا مسلم لم يكن له في أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحديا صريحا ، فاستوقفهم وذر الرماد في عيونهم ، بل هو لم يفسد ما بينه وبين مصر الى حد يجعله يندوا صريحا لهم ، وإذا كان قد دعا الى الثورة على الحكومة الأموية فإن ذلك لم يكن بالأمر المستنكر في مثل هذا الجو المصطب بالحروب والثرارات • وثمة أمور أخرى دفعته الى هذه الحيدة والمهادنة ، فقد رأى والى خراسان مشغولا بحرب الخوارج ، وبحرب العصبية اليمنية بقيادة الكرمانى ، وبحرب الحارث بن سريج وأصحابه الزيدية تحت قيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار • ورأى من مصلحته أن يبتعد عن هذه المعركة ، فقد دخل فيها الحارث بن سريج وجماعته التى سمت نفسها بالفئة العادلة ، وانتهى أمرها الى الهزيمة على يد العصبية اليمنية • بل وادع أبو مسلم الزيدية « ونظر أبو مسلم الخراسانى فى الديوان فقتل كل من وجد له اسما فيه ممن شارك فى قتل يحيى بن زيد » (١) ولهذا كله اتخذ أبو مسلم سياسة الحياد والتربص حتى يتأكد أن الفئات المقاتلة قد أجهد بعضها بعضا وبأن لا مدد لهم •

ومن أمثلة هذه الحيدة ما يرويه الطبرى من أن نصر بن سيار أرسل الى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر ، وأرسلت ربيعة وقحطان اليه بمثل ذلك ، فطلب أبو مسلم أن يقدم عليه وفد القسريتين لكى يختار أحدهما — وأمر من عنده من الشيعة أن يختاروا قحطان

(١) البغدادى : محمد بن حديد . المحبر ، ص ٢٨٤ .

وربيعة ، فلما أقبل الوفدان أدخل وفد قحطان في بستان فأجلسهم فيه وبقي هو في البيت ، وأذن لوفد مضر فدخلوا عليه ، وكان مع أبي مسلم سبعون رجلا من الشيعة وقد أوعز اليهم بما يقولونه ، فقام رجل منهم فقال « ان مضر قتلت آل الرسول ، وهم أعوان بني أمية وعمال مروان ، وان دماء المسلمين في أعناقهم وأموالهم في أيديهم وان نصر ابن سيار عامل مروان ينفذ أمره ويدعو له » وانتهى الأمر بالانحياز الى علي بن الكرمانى وأصحابه من ربيعة وقحطان على نصر بن سيار وأصحابه من مضر .

واذا كان قد أفلح في استمالة ربيعة وقحطان الى جانبه الا أنه لم يفسد علاقته بمضر . والحق أن الجميع كانوا يسعون الى كسب مودته ورضاه ، وأصبحوا لا يتجاسرون على معاملته معاملة العدو ، بل دخل مرو قاضيا وحكما لينهى النزاع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها . وقد حكم أبو مسلم لربيعة وقحطان على مضر . ولم تكن هذه المواقف من أبى مسلم الا دهاء ومكرا . فالحقيقة أنه لم يكن له في أول الأمر من القوة ما يمكنه من أن يتحدى العرب تحديا صريحا ، بل هو تصرف بحكمة مياسية فاستوقفهم وذر الرماد في عيونهم . بل لم يترك أبو مسلم جماعة الا وحاول أن يكسبها ، فناظر فتية نساكا من أهل مرو وكسبهم الى جانبه ، وكان أكثر أتباعه من الزراع الأعاجم من الموالى من قرى مرو ، وكان بينهم بعض العرب وكان لمعظمهم مكان الرياسة ، وكانت الرابطة التى تربط بين أنصار أبى مسلم هى الدين والمذهب ، وكانت نواة جند خراسان من الهاشمية .

ثم أملت عليه الظروف ، وأملت عليه سياسة تفريق كلمة العرب والافادة من هذه الفرقة بقدر ما يستطيع ، أن يحالف ربيعة وقحطان دون مضر ، وقد خرج أبو مسلم لتحقيق هذه الغاية . ويروى الطبرى أنه أقام بعدئذ بآلين ثم رجع الى الساخوان وأمر أصحابه أن يبنوا المساكن ويستعدوا للشتاء لأن الله قد أعفاهم من اجتماع كلمة العرب ، ولعل هذا هو الذى مكنه من دخول مرو .

وأثار هذا المسلك وهذا النجاح الذى أحرزه الدعاة العباسيون قلق العرب وريبتهم ، فاجتمع بنو بكر بزعامة شيبان الحرورى الى مصالحة نصر وانضم الى هذه الحركة على بن جديع الكرمانى ، وأغاروا على بعض القرى الخاضعة لأبى مسلم ، ولكن أمد التحالف لم يدم فقد أفلح أبو مسلم فى إفساد هذا الحلف ، فتوجه بنفسه من الماخوان الى مرو واستطاع أن يؤثر على بن جديع الكرمانى ومن معه من ربيعة وقحطان حتى نقضوا عهدهم مع نصر بن سيار وانقلبوا عليه ، وفى الوقت نفسه لم يجهر بعدوان نصر بل كان الجميع يسعون الى كسب وده ورضاه ، ولم يجروا أيهم على أن يعامل أبا مسلم معاملة العدو ، فأمكنه أن يدخل مرو قاضيا وحكما ، وأن يتدخل لينهى الصراع القاسى الذى استنفدت فيه القبائل العربية قوتها ، وقد روى أن أبا مسلم حكم لربيعة وقحطان على مضر •

هكذا تقلب أبو مسلم بين الحيدة المطلقة والانحياز المطلق لتعلو كلمته وتتحقق أهدافه ، ولكن كيف نفذ أبو مسلم هذين الخطين ومضى فى الشدة والقسوة والقمع واسقاط القبائل العربية من حساب كقوة مؤيدة أو مساندة •

يفهم من رواية الطبرى أن هذا التطور حدث بعد هجومه على مرو من ناحيتين ، كما أشرنا ، وبعد أخذ البيعة للرضا من آل محمد ، وتحقق له ذلك الظفر العظيم واجتمع له الأنصار • والحقيقة أن هذا التطور يحتاج الى وقفة قصيرة لنلقى بعض الأضواء عليه ، لأنه يمثل بداية مرحلة جديدة فى السياسة العباسية فى هذه الفترة الهامة من تاريخ الثورة • جاء فى إحدى روايات الطبرى أن الامام ابراهيم ابن محمد نفسه أوصى أبا مسلم وصية صريحة « بأنه اذا استطاع ألا يدع فى خراسان من يتكلم العربية فليفعل وأن يقتل كل غلام بلغ خمسة أشبار يتهمة » ونحن نشك فى هذه الرواية من أساسها ونكاد نجزم بأنها وضعت وضعا ودست دسا على بنى العباس لافساد دعوتهم وتلطيح حركتهم بالقسوة والدماء • ودليلنا على هذا ما يروى من

ص. يقات أبى مسلم بعد دخوله مرو ، وفي المراحل التالية لذلك من مراحل الثورة ، فلم ترد في روايات الطبرى الا اشارة الى أن أبا مسلم قتل أربعة وعشرين من ثقة أصحاب نصر وصناديدهم بعد أن هرب نصر ، بل ان أبا مسلم أمر جنده بالتزام أدق نظام ، وحرّم عليهم أن يقتلوا أحدا من تلقاء أنفسهم ، اذ يبدو أن هذا القائد المحنك السياسى الداهية قد أحس بأن النصر الذى تم قد هز مشاعر الموالى وأبطرهم بصورة أو بأخرى وجراًهم على العرب ، لكن لم يفلت منه الزمام بل استطاع أن يكبح جماحهم وأن يسيطر على مشاعرهم ، فلم يتحقق ما جاء فى وصية ابراهيم الامام المزعومة وكل ما فى الأمر أن الوضع فى خراسان بعد توالى الانتصارات لم يكن بحاجة الى مصانعة المضرية أو القحطانية ، وكان على الدولة فى تلك الفترة أن تقرر سياسة مستقلة دون أن تتورط فى هذه الصراعات العنيفة ، أو أن تقتصر من المعارضة فى شدة وعنف ، وأن تفيد من المؤيدين وأن تسلكهم فى سلك جندها ، وأن تستفيد من طاقتهم فى المراحل الأخرى من الصراع بينهم وبين السلطان الأموى المتداعى .

مرحلة قحطبة بن شبيب :

ما كادت الثورة العباسية تقرر الأمور فى مرو ، وتفرغ من خراسان لتسديد الضربة الأخيرة لقوات نصر بن سيار المنتهكة الى نيسابور ، ومعه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان ، وهم من قبائل تميم وبكر وقيس ، حتى نقلت قيادة العمليات العسكرية من أبى مسلم الخراسانى الى قحطبة بن شبيب الطائى ، ولم يجد أبو مسلم نفسه بدا من الاذعان لهذا التطور الجديد . ويلقى الطبرى أضواء على هذا التحول الجديد فى سير الثورة ، فيذكر أن قحطبة بن شبيب وكان عربيا من طييء ، كان أثناء بداية الثورة الخراسانية غائبا فى مكة .، وكان قد ذهب اليها للقاء الامام ابراهيم بن محمد فى موسم الحج . ولما انصرف قحطبة من عند ابراهيم عقد له الامام لواء وجعله على

مقدمة أبى مسلم ، وجعل له القيادة أو العزك والاستعمال (١) وكتب الى الجنود بالسمع والطاعة له ، وأن أبى مسلم رضخ لذلك الأمر وأسند القيادة اليه ، وخرج قحطبة في الجيش وتحت امرته : أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ، وخازم بن خزيمة التميمي ، وخالد بن برمك البلخي وغيرهم من القواد .

وأعتقد أن رئاسة الدعوة كانت تهدف من وراء ذلك الى أمور جد خطيرة ، وكانت تتطلع الى ما بعد خراسان من أحداث ، وأعتقد أنها أرادت ألا يتجاوز أبو مسلم خراسان مهما كانت الأحوال ، وأكد الملح هنا بداية لأساسة أبى مسلم التي انتهت على يد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وأعتقد أن ثمة أموراً أخرى ألجأت رئاسة الدعوة الى اسناد القيادة في هذه الحرب الى هذا القائد العربي الطائى ، وهو أنه لم يكن من المعقول أن تقتحم معاقل العروبة في العراق والشام ومصر بقيادة أعجمية ، وانما بقيادة عربية خالصة ، وأفلح ابراهيم الامام في اسناد عمليات نيسابور وجرجان وما بعدهما الى القائد العربي قحطبة بن شبيب ، فنزعت القيادة من أبى مسلم ، كما سبق أبو العباس السفاح بعد اتمام بيعته في الكوفة الى انتزاع القيادة من العسكريين المظفرين الى أبناء البيت الجاسى من الاخوة والأعمام .

عملية قحطبة بن شبيب :

وقد سارع قحطبة عندما أسندت اليه القيادة العليا في هذه المرحلة في فجر الربيع الى نيسابور ، حيث تحصن نصر بن سيار انتظاراً للأمداد الموعودة التي طلبها ، وحمى وطيس الحرب هناك ، فلما تأخر المدد العراقى انسحب نصر من نيسابور قاصداً الرى فالتقى بالأمداد عند قومس .

وبذلك اكتسب الثوار مدينة كبيرة جديدة من أهم مدن خراسان ،

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٠٤ .

وهي مع ذلك نتيجة لا تحسم النزاع ، ولم تكن هذه الا جولة متممة لما وقع بخراسان •

وابتدأت جولة أخرى بقدوم الأمداد التي ذكرنا وصولها الى قومس ، وكانت عبارة عن جيش عظيم تبالغ الأخبار في وصف عدده وعدته ، وكانت قيادته الى قائد كبير هو نباتة بن حنظلة الكلابي عامل جرجان ، غير أن هذا الجيش قدم بعد فوات الأوان ، وكان المفروض أن يتخذ نيسابور ، فلما غاته هذا الهدف تغيرت الخطة •

ورأى نصر أن يتجه الى جرجان بمن معه وبجيش نباتة ، والراجع أن نباتة كان يتعجل القدوم الى ولايته في جرجان • والراجع أن جرجان كانت أفضل ميدان لبعدها عن العصبية الفارسية التي ازدادت حميتها بنجاح ثوارها • واتخذ نصر عند جرجان معسكرا وجعل عليه خندقا ، ولم يستبعد قحطبة جرجان بل تقدم في شجاعة ونازل عدوه وهزمه (في ذي القعدة ١٣١ هـ) وضاعت هذه الجولة على نصر ، وطلب أمدادا أخرى من والي العراق ابن هبيرة •

وكان ابن هبيرة ككل ولاية العراق يمد اختصاصه على كل المشرق ، وكان عليه أن يواصل ارسال الأمداد •

وقد أرسل مددين ، أما المدد الأول ، فكان جيشا عظيما وصفوه بأنه جيش الجيوش ، وجعل على قيادته ابنه ، وقائدا آخر هو عامر ابن ضبارة المري ، وأمرهما أن يقصدا قحطبة ، ثم أرسل ابن هبيرة مددا ثانيا جعل قيادته الى ابن غطيف ، وتتهم الأخبار والي العراق بالتهاون وتذكر أن مروان أمره بارسال هذا المدد الأخير وأنه لم يرسله من تلقاء نفسه • أما المدد الأول فوصل الى أصبهان ، وأما المدد الثاني فوصل الى نهاوند ، بينما بقي نصر بن سيار بالري •

وبهذا بدأت معركة الجبل ، ورأى قحطبة أن يحرص في خطبه على منع التقاء الأمداد واحتشادها ، فوقف بقوانه بين أصبهان

ونهاوند ، وظل يتحاشى المعركة الفاصلة حتى اشتد الشتاء ، فاستغله على عادة الخراسانية للهجوم على أصبهان ، وكانت وقعة انتصر فيها قحطبة • ثم تحول بعد ذلك الى نهاوند وقد جبن أهلها وتحصنوا بها ، وبها غلول المنهزمين من خراسان ورجال من أهل الشام ومدد ابن هبيرة ، فأقام محاصرا المدينة ثلاثة أشهر حتى استأمنت قوات المدينة ، فأمن أهل الشام وقتل قواد خراسان ومنهم ابن الحارث بن سريج ، وبذلك تقرر مصير بلاد الجبل •

ومات نصر بن سيار بالرى آخر الشتاء بعد وقعة أصبهان ، في جو الهزيمة القاتم ، وهو جو ذاق فيه الفشل مرة بعد مرة ، دون أن يكسب معركة من المعارك ، وذاق فيه مرارة الهرب والترمل والثلكل ، فقد وقعت امرأته في يد أعدائه وهو غار من مرو واستشهد ابنه تميم عند نيسابور ، ثم استشهد بعد وفاته ولد آخر من أولاده عند نهاوند •

وبرغم هذه الهزائم نحس أنه وأبناءه كانوا من شجعان الناس ومن يشترون النصر بدمائهم ، وما من شك في أنه فارس ، ولكنه كان أقل قدرة في فن الحرب • ولذلك رفعت عنه الأخبار مسؤولية الهزيمة وصورته في صورة أسطورية نحس كأنها صورة من ملحمة ضائعة •

فهو لا يتكلم من فوق منبره على عادة القواد ، وإنما يذيع ما يريد في صيغة شعر ، ويكتب الى الخليفة رسائل شعر لا الرسائل الادارية المألوفة ، ونهيا انذار وتحذير وتنبؤ ، لا يعقل أن يكون حقيقة كلام نصر الوالى الى أمير المؤمنين ، وسر هذه الملحمة ان صح وجودها أن نصرا كان فارسا جاد بنفسه وجاد أبناءه بدمائهم وأصيب امرأته فانتحرت — في الليلة (حيث أسرت) فنالت عطف الجماهير ، كما أن سيرته تصلح فوق ذلك لتصوير انتصارات الفرس المتتالية •

وبعد ذلك بدأت الجولة الخامسة ، وهى جولة اشتركت فيها قوات الدولة الأموية من ناحيتين : من ناحية مروان بالشام ، ومن

ناحية والى العراق • وهنا نجد قحطبة يختار خطة سليمة وهى أن يهاجم العراق ، وأن يحتفظ ببعض قواته أمام ما يمكن أن يصل من قوات من الشام ، فان يكن قد قسم جنده الى قسمين ، فان جند بنى أمية كانوا فى ناحيتين ، وكان من المتوقع أن يجتمعا عليه ، فاختار قحطبة أن يواجه قوات الخلافة على دفعتين ، دفعة فى العراق ودفعة فى الشام ، أما مروان فعالج الأمر بارسال نجدات الى ابن هبيرة •

واتجه قحطبة نحو العراق بينما كان ابن هبيرة يتحرك من العراق نحوه ، وكان من المتوقع أن يلتقيا فى الطريق ، ولكن قحطبة تحاشى المعركة وأسرع نحو الكوفة ، واضطر والى العراق أن يعود مسابقا قحطبة نحو الكوفة أيضا ، وقحطبة يتحاشاه الى أن تراءيا وبينهما الفرات : قحطبة على الشاطئ الغربى ، وابن هبيرة على الشاطئ الشرقى •

والخواسبانية أسرع وأكثر جلدا ، فسبقوا ثم فاجأوا ابن هبيرة بعبور النهر فى مخاضة بين الأنبار والكوفة ، وعندها نشبت المعركة وفيها انتصروا على ابن هبيرة أو على الأقل أوقفوه عن السباق ، ولكن قحطبة لم يعش ليرى النتيجة فقد مات غريقا فى المخاضة وخلفه ابنه الحسن ، ولا شك أن قحطبة قام من الناحية العسكرية بالعمل الأكبر فى نصر العباسيين وعقد النصر للواء الأسود وتوطد فى الأذهان أنه لواء لا يغلب •

ووصل الخبر الى أهل الكوفة ففرحوا به • وثاروا على واليهم ورفعوا الألوية السوداء ، وترغمهم ابن أحد ولاة العراق انتقاما لأبيه الذى عزله هشام ، وهو محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ، ودخل الجيش الخراسانى الكوفة دون أن يرفع سيفا ، بعد شهرين وأيام من استسلام نهاوند (المحرم سنة ١٣٢ هـ) وأظهروا أبا سلمة رئيس دعاة العراق ، وأنزلوه فى معسكرهم بالنخيلة ثم فى حمام أعين • وأخذوا له البيعة بوصفه وزير آل محمد وأصبح أبو سلمة صاحب الأمر •

بهذا تقرر مصير العراق ، واضطر ابن هبيرة أن يحتفى بأسوار
واسط ملتزما خطة الدفاع ، أما الجولة الأخيرة فقد تأخرت الى ما بعد
الشتاء •

وكان استقرار الثورة بالعراق بعد سيطرتها على المشرق كله
كسبا عظيما ، وأصبح من الممكن أن يظهر الدعوة ، وأن يعرف
الخراسانية امامهم من آل محمد •

كانت القوى الزاحفة من خراسان الى الكوفة تحت لواء الدعوة
الظافرة تسير في خط مغاير للزحف العربية التي رأتها ايران في عهد
عمر من القادسية الى مرو • كان هذا طريق الزحف • طريق النصر أمام
هذه القوة الجديدة ، وسيشهد هذا الطريق زحف البويهيين ثم زحف
السلجقة ثم زحف المغول ، وقل أن رأينا زحفا على طريق عمر القديم •

مرحلة الخليفة ابي العباس السفاح :

كان أبو العباس حين بويح خليفة (١) لا يملك الا ما ملكه جنده ،
فقد كانت الجيوش تهتعد للجولة الأخيرة ، وكانت الأمور كلها بيد
القواد والدعاة •

وقد خاض أبو العباس هذه الجولة وأشرك فيها اخوته وأعمامه
وأبناء اخوته : العم سليمان بن علي للبصرة ، والعم داود بن علي
للحجاز واليمن ، والعم عبد الله بن علي الحارب مروان ، والأخ أبو جعفر
المنصور لقتال ابن هبيرة في واسط •

واستهل أبو العباس أيامه في معسكر الجيش الخراساني وبجانبه
أبو سلمة وزير آل محمد ، ثم ترك المعسكر وتحول الى العاصمة
الجديدة التي اختارها وهي هاشمية الكوفة ، نسبة الى هاشم الذي

(١) تمت البيعة للسفاح عام ١٣٢ هـ . انظر الطبرى : ج ٩ ،
ص ١٢٣ •

يجتمع عنده نسب العلويين والعباسيين على السواء ، ولكن الدولة لم تسم بالدولة الهاشمية على نحو ما سميت العاصمة الأولى •

وحرص أبو العباس في البداية على أن يفهم القواد بأن اشراك أهله نوع من الاشتراك التشريفي ، فقد كتب الى الحسن بن قحطبة حين جعل معه أخاه أبا جعفر « ان العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكن أحببت أن يكون أخى حاضرا » ولهذا حرص ما يبرره ، فانه يروى أن أبا العباس كان لا يقطع أمرا دون أبي مسلم (مع وجود أبي مسلم بخراسان) وكان لأبي مسلم عين على أبي العباس يكتب اليه بأخباره • وكان أبو جعفر يحث أخاه الخليفة على قتل أبي مسلم ويقول له : « أخاف والله ان لم تتغده اليوم أن يتعشاك غدا » (١) • اذن كانت المجاملة ستارا يخفى وراءه خوفا وغدرا ، والهدف من الاشراك هو نقل السلطة تدريجيا من يد القواد الى يد أعضاء البيت العباسي ، ولكن هذا الانتقال لم يتم الا بعد التخلص من أبي سلمة خلال ، وبعد التخلص من أبي مسلم ، بصرف النظر عما في مثل هذا العمل من انكار للجميل •

أما عن جبهة القتال الهامة المقابلة للشام ، فانها ظلت كما تركها قحطبة ، أو بعبارة أخرى ظلت قوات خراسانية مقيمة عند نهاوند في أثناء حملة العراق ، ودعمت هذه القوات نفسها بأن جندت خمسة آلاف •

وكانت طلائع مروان قد قدمت من شهرزور نحو نهاوند ، فأرسل قحطبة لمقاتلتها قوات يقودها أبو عون عبد الملك بن يزيد الخراساني ، فهزمها وردّها ، ثم ثبت مكانه عند الزاب مدافعا طوال حملة-العراق ، وهو الذي جند الخمسة الآلاف التي ذكرناها •

وفي مقابل قوات أبي عون قدمت قوات مروان بن محمد تحتشد

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ١٥٣ •

(م ٥ — العالم الاسلامي في العصر العباسي)

على الناحية الأخرى من الزاب ، وكانت مؤلفة من جند الشام والجزيرة
والموصل ، وهم خير جند الشام .

واجتهد كل فريق في حشد قواته عند الزاب استعدادا للمعركة
الفاصلة ، وتأخرت هذه الواقعة ستة أشهر . أما أبو العباس فقد أسند
القيادة لعمه عبد الله بن علي (ومعه من القواد أخوه صالح بن علي ،
ومعه خاصة الحسن بن قحطبة) وكذلك أرسل أبو العباس وراء عمه
أمدادا طائفة بعد طائفة .

ونشبت المعركة عند الزاب (١) ، واستمرت أحد عشر يوما
(في جمادى الآخر ١٣٢ هـ) بعد انتظار واستعداد دام طوال الشتاء
السابق ، وكانت شبيهة بالقادسية في شدتها ، وكان الظفر للخراسانية
على العرب ، وبهذا الظفر استرد الفرس مكانتهم كمحاربين أشداء ،
وبالغ بعضهم فقالوا ان وقعة الزاب كانت ردا على القادسية .

وانصرف الجيش الظافر الى تتبع مروان ومنعه من الاستقرار
في أى مكان مخافة أن يجمع حشودا جديدة ، ولكن مروان كان يذوق
في هربه مرارة الهزيمة ، فقد أظهر الكراهية من كان يخفيها ، وكان عدد
كبير من أقاربه وأعدائه في سجنه في مدينة حران ، ووجد مروان المدن
تغلق أبواب أسوارها في وجهه .

ولم يجد بالشام قوة كافية تقف معه ، ولا بمصر ، وظل الجيش
الخراساني يتتبعه حسب أمر الخليفة الى عمه عبد الله بن علي ، فبعث
عبد الله بن علي أخاه صالح بن علي ومعه عامر بن اسماعيل وراء مروان
لتتبعه في مصر (٢) حتى أدركوه في بوصير من أعمال الأشمونين ،
وبعث صالح بن علي برأسه الى أمير المؤمنين أبي العباس (٣) وكتب

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ١٣٠ .
(٢) عن لجوء مروان الى مصر ، انظر : الكندى : الولاة ، ص ٩٥ .
(٣) انظر : الأغاني ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ . المسعودى : ج ٦ ، ص ٧٦ .
ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٦ . واليعقوبى ، ج ٢ ، ص ٤١٤ . وىروى
الكندى (١) الولاة ، ص ٩٦ ، أن مروان قتل ببوصير يوم الجمعة لسبع
يقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ .

عليه « انا أتبعنا عدو الله الجعدي حتى ألجأناه الى أرض عدو الله
شبيهه فرعون ، فقتله بأرضه » •

أما عامر بن اسماعيل الحارثي فإنه بعد أن قتله « احتوى على
عسكره ، ودخل الى الكنيسة التي كان فيها بناته ونساؤه ، فقعد على
فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى — وتعرفه
بأم مروان — يا عامر : ان دهرنا أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك
عليها تأكل من طعامه ليلة قتله ، حاكما في ملكه وحرمة وأهله ، لقادر
أن يغير ذلك » •

وقد استهجن الخليفة أبو العباس ما فعله عامر وكتب اليه
يلومه : « أما كان لك في أدب الله ما يذكرك أن تقعد في مثل تلك
الساعة على مهاد مروان وتأكل من طعامه ، صم ثلاثة أيام وتب الى
الله • • ومر جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك » •

وماذا تفعل هذه الروح التقية وسط جو كله قصاص وانتقام
ووحشية ودماء ؟ لقد كان عبد الله بن علي في نفس الوقت يتتبع ذرية
بنى أمية ما استطاع ، الى أن اجتمع عنده نحو تسعين رجلا وهو
في مجلس له عند نهر أبي فطرس بالأردن ، فدخل عليه شاعر من موالى
بيته هو شبل بن عبد الله ، فأنشده قصيدة يحرضه على بنى أمية
ويطلب اليه ترك الاشفاق عليهم وانزال القصاص بهم ، فأمر بهم
عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام
عليها وهو يسمع أنين بعضهم ، وهكذا لم ينج من بنى أمية الا رضيع
أو هارب • بل لم ينج الأموات ، فقد أمر عبد الله بن علي بنش قبور
بنى أمية بدمشق ، وصلب جسم هشام لأنه الوحيد الذي وجد سليما ،
وكذلك استقصى عبد الله بن علي أموال بنى أمية ، وكذلك فعل أقارب
أبي العباس الذين ولاهم على الولايات الكبرى •

اهمية نجاح الثورة العباسية في تاريخ الاسلام

تعتبر بيعة آبي العباس السفاح وتصفية الحكم الأموي ومصرع مروان بن محمد البداية التقليدية للعصر العباسي • ويهمننا قبل أن نكتب أخبار هذا العصر مفصلة أن نتحدث اجمالاً عن الميزات العامة التي يتصف بها •

ليس من شك في أن ظهور العباسيين على سطح الحياة الاسلامية قد صاحبه انتقال جذري وتطور عميق في الحياة الاسلامية •

فقد فتح العباسيون صفحة جديدة في الصراع العالمي وفي موقف العالم الاسلامي من القوى المحيطة به ، فمثلا تطورت علاقات الدولة الاسلامية بالبيزنطيين ، ولم تعد الدولة العباسية تهتم اهتماما مباشرا ببلاد الشام وشرق البحر الأبيض المتوسط ، على حين كان الاهتمام الأموي يتركز كله في بلاد الشام ومصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث القواعد البحرية وحيث الثغور الساحلية • وكانت معارك الأمويين مع البيزنطيين معارك برية طاحنة ومعارك بحرية في كل جزء من شرق البحر الأبيض ، بل امتدت المعركة الى غرب البحر المتوسط ، خصوصا بعد اتمام فتح المغرب ودخول العرب الى ميدان الأندلس •

هذا النشاط العظيم الذي شهده العصر الأموي قد قل شأنه في العصر العباسي : تولت الامارات الاسلامية في المغرب والأندلس مسئولية الدفاع عن حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وخفت صوت البحرية الحربية الذي كان يدوي من موانئ الشام وموانئ مصر ، فقلت بالتالي الاشتباكات البحرية بالطابع الذي عرفه العصر الأموي ، وستظل هذه الاشتباكات غافية الى أن تستيقظ قليلا في ظل نفوذ الطولونيين والأخشيديين في مصر •

ولم تعد الاشتباكات البرية تتخذ ذلك الطابع القديم الذي شهده

عصر معاوية وخلفاؤه • انما تجمدت العلاقات حول نطاق الثغور الذي يحفة بجبال طوروس شمال الشام وهضبة أرمينية شمال العراق • وأقام العباسيون سلسلة من المحارس والحصون يتمركز فيها الم رابطون المنصرفون للغارات الخاطفة الشائبة أو الصائفة ، أو ينصرفون الى لون من العلم والدراسة ، وكانت ثغور الشام تكتفى بصد غارات البيزنطيين في الأغلب الأعم أو تقوم بغارات خاطفة ، هي الى سياسة الدفاع أقرب من سياسة الهجوم ، وسيظل الحال على هذا النحو الى أن يقتحم سلاجقة الروم آسيا الصغرى مركز النفوذ البيزنطى •

كان انصراف العباسيين جله صوب الشرق ، ففى تركستان استطاع العباسيون الحيلولة دون الخطر الصينى ودون التطرق الى الغرب ، وقد سادت علاقات وثيقة بعد ذلك بين الصين وبين الدولة العباسية ، وسلكت التجارة ذلك الطريق البرى القديم المنحدر من الصين صوب الغرب ، وتدفقت واردات الصين على العالم الاسلامى •

كما أتم العباسيون التوسع العربى فى اقليم السند ووطدوا النفوذ العربى هناك ، وأتاحوا لتجارة الهند أن تدخل الى أسواق العراق فى طمأنينة ، ومكنوا لثقافة الهند من أن تواكب التجارة وتمضى فى أثرها ، ونمت البحرية العربية فى المحيط الهندى لتؤدى نفس الدور الذى أدته البحرية الأموية فى البحر الأبيض • وبدأت السفن العربية والبحارة العرب يدخلون مياه جزر الهند الشرقية وجنوب الصين ، وأصبحت البصرة من أهم الموانى العالمية ، تتجمع فيها المراكب القادمة من الشرق الأقصى ، وانطبعت هذه المغامرات العربية الجديدة فى ما ذكره الرحالة والجغرافيون ، وأفئد كثيرون من المسلمين فى العراق وايران من هذا التطور الجديد بتكوينهم ثروات طائلة •

وقد حمل العصر العباسى معه تطورا آخر لا يقل عمقا عن التطور الأول • ذلك أنه عصر نجاح الدعوة الى الاسلام ، فقد كان لدخول

الآيرانيين في الاسلام جماعات أثرت في نجاح الثورة العباسية التي يعتبرها الكثير من الدارسين ثورة جماهير الشعب الايراني المسلم . وقد مضى الاسلام في ايران تمكنا من الناس وانتصارا ، وصحب ذلك كله انتشار الاسلام في تركستان وفي السند ، ونجاح الدعوة الى الاسلام في مصر والمغرب والأندلس الأمر الذي يجعل العصر العباسي عصر التحرر الاسلامي الكبير . وسيتخذ هذا التحرر لبوسا اقتصاديا ويسهم هؤلاء المسلمون في ذلك النشاط الاقتصادي العظيم الذي شهده العصر العباسي الأول . ويتخذ لبوسا فكريا فقد بدأت العناصر المسلمة الجديدة تدخل ميدان الثقافة الاسلامية بميزاتها وتجاربها ، فتكسبها قوة ، وبرع الكثيرون في مختلف العلوم العربية وأصبحوا من أعلام النهضة الجديدة ، وانتهى ذلك بنجاح حركة الاحياء الفارسية حول اللغة الفارسية الجديدة .

على أن هذا التحرر سيتخذ طابعا سياسيا ، فقد سيطرت هذه العناصر الجديدة على الجيش والنظام الاداري (١) في العصر العباسي الأول ، وأصبح هؤلاء المسلمون وقودا للحركة الاستقلالية التي انطلقت في العالم الاسلامي كله ، تؤذن بفصل جديد من فصول التحرر وما صحب هذا التحرر من نشأة المدارس الاقليمية وتنمو الفكر الاسلامي .

وشهد العصر العباسي الأول تطورا اقتصاديا عظيم الشأن سيصل الى القمة في القرن الثالث الهجري ، فقد عملت الثورة العباسية على تحرير طبقة العمال والفلاحين من أغلال النفوذ الأموي ، وتم الاعفاء من الجزية وأبيحت ملكية الأرض وتخففوا من أعباء الضرائب ، وامتنعت الهجرة الى المدينة فزارا من كساد الريف . وتعم هؤلاء بالاستقرار والطمأنينة في ظل نفوذ الموالى الصاعد . وليس من شك في أن امتداد النفوذ العباسي الى الشرق الأقصى قد أتاح

(١) فلهوزن : الدولة العربية ، ص ٥٢٨ .

فرصا جديدة أمام الحاصلات والسلع ، وما جر ذلك من رواج اقتصادى كبير يخالف صورة الكساد التى غلبت على العصر الأموى الأخير ، وانطلقت الطبقة الوسطى التى كانت عمود الثورة العباسية وفتحت أمامها ميادين الاقتصاد ، تغامر فيها كيف يحلو لها ، وقد استغلوا التجارة النامية واقتنوا الثروات الطائلة وأصبحوا من أرباب الملايين ، وتحول أغلبهم ليكونوا طبقة أرستقراطية جديدة ذات قوة ونفوذ ، يصورها الجيو الذى يسود قصص ألف ليلة وما يرسم فى أخيلته عن حياة هؤلاء السراة من التجار •

وشهد العصر العباسى نشاطا اقتصاديا فى مجال الصناعة ، فقد توفرت المادة الخام واستطاع العباسيون استغلال مناجم الفضة والنحاس والذهب ، وفتحت السبل أمام التأثيرات الصينية والهندية ، وأصبحت الأسواق العالمية غير موصدة الأبواب أمام مصنوعات العباسيين ، ونشطت صناعة الترف التى تتطلبها حاجات قصور الخلفاء والأمراء ورجال الدولة والأغنياء الجدد ، ولعل الطراز العباسى فى الفن والصناعة يترجم عن هزم النهضة الصناعية الكبرى ، وسرى النشاط إلى التجارة الدولية • ويصور المؤرخ هيد Heyd فى كتابه « تاريخ التجارة » الآفاق الدولية التى فتحت أمام التجارة العباسية ، فقد أدى تفاهمهم مع الصين الى فتح سوق الشرق الأقصى أمام تجارة متبادلة غنية الى أبعد الحدود ، وكذلك أدت مغامرات العباسيين فى الشرق الأقصى الى تدفق للتجارة فى هذه الآفاق ، وفتحت أسواق البلخاب وحوض الفولجا ، وقد عثر أخيرا على نقود عباسية فى هذه البقاع تصور ذلك النشاط التجارى القديم •

ويبدو أن تفاهم العباسيين مع ملوك الفرنجة فى أوروبا قد مكن لمغامراتهم التجارية أن تمتد الى غرب أوروبا وشمالها الغربى ، وقد لعب التجار اليهود فى منطقة الرين ويسميهم المؤرخون العرب « بالرهمانية » دورا كبيرا فى عملية المبادلة بالأسواق ومهارتهم فى

الأعمال المصرفية وافتقارهم للغات الأوروبية والشرقية ، وقد عثر المنقبون على نقود عباسية في شمال غرب أوروبا هي بقية من ذلك النشاط التجاري القديم ، ونمت الحياة المصرفية لخدمة هذه العمليات التجارية الكبيرة وعرفت المصارف والصكوك (الشيكات) وعمليات التحويل المصرفية .

وقد انفرد العصر العباسي بتطور جديد في النظم الإسلامية ، ونظرة فاحصة الى ما عرف من نظم حكم أموية ، والى ما كتب عن نظم العباسيين تقنعك بالطفرة الكبيرة التي قطعها العباسيون في هذه الناحية ، فقد اعتمدت الخلافة العباسية على نظرية الامامة التي كانت محور العقيدة العباسية والدعوة العباسية .

وقد أعطت هذه الامامة للخلافة العباسية مسحة جديدة من القداسة لم تكن معروفة في العصر الأموي ، ولم تكف الخلافة العباسية عن أداء هذا الدور العقيدى على الاطلاق ، وظلوا يخاطبون الأنصار ويمسكون خيوط الدعوة طوال العصر العباسي الأول على الأقل .

ولعل هذا يفسر جنوح الخلفاء العباسيين الى الاستئثار بالسلطة والاستبداد والاحتجاب عن الناس ، مخالفين بذلك الروح العربية السمحة التي أطلت من حياة الأمويين .

وتأثرت حياة هؤلاء الخلفاء وأسلوبهم في العمل وطريقتهم في الحكم بالأساليب التي عرفها الساسانيون ، حتى لقد اعتبرها بعض المؤرخين نوعاً من الاحياء الفارسي الذي امتد الى أكثر من ناحية في ذلك العصر .

وقد أحيا العباسيون الديوانية الفارسية أو البيروقراطية الفارسية ، ولا شك أن بعث التقاليد الفارسية في الحكم والادارة انما يعود الى عصر هشام بن عبد الملك ، لكن هذه التقاليد طغت على النظام

العباسي كله حتى أن المستشرق بارتولد يرى فيها الديوانية الفارسية منزهة وروحا ، فطائفة الكتاب والوزراء ورجال الدولة ترسمت التقاليد الفارسية القديمة في طريقة العمل وفي البروتوكول وفي المراسلات ، ويرى بعض الدارسين أن ذلك كان احياءا للفارسية أيضا . وتطورت النظم العباسية الأخرى ونما الجيش البري العباسي وأصبحت غالبية الأجناد من هذه الطبقات المسلمة الجديدة ، فقد أصبحت لهم القوة والقيادة الى أن ينتهي الأمر بسيطرتهم على الحياة الإسلامية كلها .

وكان التطور في ميدان الحضارة لا يقل عمقا عن الميادين الأخرى ، وقد وصلت الحضارة الإسلامية الى قمة التطور في القرن الرابع الهجري الأمر الذي دعا المستشرق آدم متر الى أن يؤرخ لهذه الظاهرة في كتابه المعروف « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » متناولا فيه الأعماق التي انتهت اليها حضارة الاسلام اذ ذاك ، وليس غريبا أن تكون هذه النهضة مصاحبة للحركات الاستقلالية ولنمو المدارس الاقليمية والتنافس الشديد بينهما ولتمام حركة التدوين ، تدوين التراث الاسلامي كله واكتساب العلوم الإسلامية صفة الوضوح والأصالة والعمق ، ولشيوع الثقافة الإسلامية في العالم كله ، ليس باعتبارها ثقافة محلية بل باعتبارها ثقافة عالمية . وقد اجتمعت عوامل عدة للوصول بالحضارة الإسلامية الى هذه الصورة ، فقد كانت طبيعة العرب القائمة على تجنب السلبية ، والتعاون الدولي والتسامح مع الأقطار الأجنبية ، والأفادة من كل خبرة وتجربة ، من أهم ما ساعد على اكتمال حركة الترجمة في الآداب العالمية المعروفة خصوصا الآداب الاغريقية . وقد ألف الأستاذ أوليري كتابا عن العلوم الاغريقية التي انتقلت الى الفكر العربي ، ولم يكتف العرب بمجرد الترجمة بل هضموا وأضافوا وشرحوا وعلقوا ، ومن هذه العوامل أيضا دخول غير العرب في معترك الحياة العلمية ومعهم طاقاتهم الفكرية وأصبحوا أعلام مدارس العراق وايران . كان منهم أعلام النحويين والمفسرين والمحدثين والأطباء والفقهاء والفلاسفة ، ولا ننس ما كان

للحركة الاستقلالية من أثر بالغ في نشأة المدارس الاقليمية وتنافس هذه المدارس فيما بينها رغبة في السبق أو التجويد .

وقد مست هذه النهضة الحضارية الفن الاسلامى الذى استفاد من أساليب عدة : من الأساليب الايرانية أو الهندية أو البيزنطية أو القبطية ، وأخذت هذه الأسباب كلها الطابع الاسلامى العام .

ولعل العصر العباسى عامة والعصر العباسى الثانى بخاصة يتميزا بظاهرة هامة لابد من أن تدرس دراسة مستقلة وتظفر بالعناية اللازمة ، وهى الحركات الاستقلالية التى ظهرت على سطح الحياة الاسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا ، وذلك بقيام الامارات المستقلة فى الشرق والغرب على حد سواء مع اعتراف هؤلاء الأمراء بالتبعية للخليفة العباسى . ولابد من أن تدرس القوى المشكلة لها والظواهر التى تنطوى تحت لوائها وهل هى تفكك للدولة الاسلامية ؟ أم هى مظهر من مظاهر النهضة وعلامة من علامات التحرر ... القوى السياسية المشكلة لها والمختفية من ورائها ، وآثارها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ؟ فقد كانت فى الحقيقة تطورا مرحليا بدأ تطوره منذ نجاح الثورة العباسية ، ولم يكن من المعقول أن تكتفى القوى النامية بمجرد المشاركة فى الثورة وتعريضها ، بل انه معقول أن تحصل على مكاسب سياسية واقتصادية ، وأن تطرد هذه المكاسب نموا حتى تتحول الى سيادة ونفوذ واستقلال ، ولن يقف هذا المد الصاعد عند حدود القرن الثالث أو عند الأبعاد التى تنتهى اليها ، فسيصل هذا المد الى بغداد وتوضع الخلافة العباسية تحت وصاية هذه العناصر الجديدة ، حينما دخل البويهيون بغداد بحجة حماية الخليفة والدفاع عنه أو كما دخل السلاجقة بنفس هذه الحجة .

وانتهى أمرهم باغتصاب السلطة تحت ظل من الخلافة الضعيفة المتهاوية ، الى أن يدخل المغول دنيا الاسلام على غير الاسلام ويغيروا غاراتهم الخاطفة المدمرة كأنها الأعصار ، فيفتحوا ايران ويطيحوا

بالسلاجقة ويدخلوا بغداد ، ويقتل الخليفة ويفرن من بقى من سلالة ،
العباسيين معتصما بمصر زمن المماليك •

هذه هى التيارات الكبرى التى ظهرت على سطح الحياة
الاسلامية أو تعمقت الى جوفها طوال العصر العباسى • هذا العصر
الذى يمتدنا أن نحدد له أبعاده الزمنية تحديدا واضحا منذ دخول
القوات العباسية مدينة الكوفة والبيعة للخليفة العباسى الأول
أبو العباس السفاح الى أن استطاع المغول دخول بغداد والاطاحة
بالخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ •

الباب الثاني
العصر العباسي الأول

من أهم قضايا الدراسات العباسية موضوع قسمة تاريخ العباسيين الى فترتين : فترة يصطلح على تسميتها بالعصر العباسي الأول • وتشمل الخلفاء العباسيين من السفاح الى وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) • والفترة الأخرى اصطلاح على أن تسمى بالعصر العباسي الثاني وينساق فيها تاريخ بني العباس حتى آخر العهد بهم •

وأعتقد أنه ينبغي بادية ذي بدء أن نعرض لهذا التقسيم هل هو جذري أم سطحي • ما أعماقه ما أصالته ما صلته بالواقع ؟ هل هو مجرد تقسيم سياسي فحسب أم هو تقسيم حضاري ، ويرى بعض الدارسين أن هذه القسمة ليست بذات جذور عميقة لأن قصة الحضارة الإسلامية واحدة لا ينبغي أن تخضع للتجزئة أو للتقسيمات •

وأعتقد أن وفاة الواثق كانت خطأ فاصلا بين عصرين يختلفان في جميع المقومات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وأن لدينا أسبابا كثيرة مستمدة من تاريخ بني العباس تبرز هذه القسمة وتقويها وتجعلها خليفة بأن تكون أساسا صالحا لعرض التاريخ العباسي •

ولدينا في هذا الموضوع ملاحظات منها أن تطبيق شعارات الدعوة التي ظل الدعاة يرددونها منذ تنظيم الدعوة حتى عام ١٠٠ هـ حتىبيعة أبي العباس السفاح في عام ١٣٢ هـ ، برزت بصورة ملحة فعالة في فترة من التاريخ العباسي ، تبدأ بسنة ١٣٢ هـ وتنتهي بوفاة المعتصم . هذه الفترة وضحت فيها مكاسب الثورة العباسية وطبقت عمليا ، وقد شابت هذا التطبيق أخطاء وصحبه توفيقات ، ولا بد أن يدرس هذا العصر من زاوية هذه الأخطاء أو التوفيقات فيصبح العصر العباسي الأول عصرا فريدا متميزا من وجهة النظر هذه •

أما الدور اللاحق على الواثق فقد بدأت فيه مكاسب الثورة تضع لأسباب خارجة عن ارادة الخلفاء ، وبدأت الأخطاء تتضاعف

وتؤتى ثمارها بظهور ثورات ذات طابع اصلاحي مثل ثورة الزنج أو ثورة القرامطة أو الدعوة الاسماعيلية ، الى أن تنتهى هذه الثورات بنجاح الحركة الاستقلالية وتتسبب في اضعاف نفوذ الخلفاء •

وثمة موضوع آخر يوضح البون الكبير بين العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني ، وهو موضوع قدرات الخلافة وفعاليتها ، فقد كانت هذه القدرات كأقوى ما تكون في العصر العباسي الأول — أنظر سيرة أبي العباس والمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم وقارن بينهم وبين جيل الأئمة الكفاة منذ عبد الله بن علي — وكانت الخلافة تتمسك بالامامة ورئاسة الدعوة في قوة ، وتحكم صلتها بالتنظيمات العقيدية ولا تريد أن تنقطع صلة القيادة الروحية في العراق بجماهير الأتباع في المغرب والمشرق • وقد تبين هذا من الرسائل المسماة باسم رسائل الخميس ، ولعل هذا التمسك هو الذي أكسب خلفاء العصر العباسي الأول هذه الكفاية والقدرة •

أما بعد الواثق فان الخلفاء العباسيين قد فقدوا هذه الفعالية وفقدوا الصلة بتنظيمات الدعوة وان لم تضعف شخصياتهم • ويبدو أن آخر رسالة من رسائل الخميس انما كانت تنسب الى عصر المتوكل ، وهذا يتمشى مع ما ظهر في ذلك الوقت من ضعف الخلافة وتهاويها وفقدانها نفوذها العقيدى ، وقد تعرضت الدعوة العباسية لدعوات ذات دم جديد أفادت من التجارب العباسية وطورتها ، ففسد ظهرت الدعوة الاسماعيلية في اليمن والمغرب •

ومما يحدد أبعاد العصر العباسي الأول موضوع الجند من الموالى ودخولهم صفوف الجيش العباسي ، تحقيقا للمكاسب التي نالوها ، فهم أصحاب الثورة الحقيقية ، وقد بدأ هذا الدخول منذ وقت مبكر جدا ووصلوا الى مراتب القيادة وكانوا عمود جند الخلافة ، ولم نسمع في هذه الفترة أن هؤلاء الجند طغوا على الخلافة أو تعرضوا لها أو سيطروا عليها ، بل كانوا عون الخلافة وأداتها في فعاليتها ونضالها •

أما في عصر الواثق فقد ظهر الجند الأتراك وتآلق نجمهم ، واستبدوا بالسلطة حتى دخول البويهيين ، ووصلوا الى منصب أمين الأمراء وسيطروا على الولايات واستقل منهم كثيرون . وكانت الخلافة مقهرهم أحيانا ويقهرونها أحيانا أخرى حتى أطلق على هذه الفترة عصر نفوذ الأتراك في التاريخ العباسي .

حتى العنصر العربي نفسه وتطوره قوة وضعفا يشارك في تحديد الفرق الواضح بين العصر العباسي الأول والثاني ، ففي العصر العباسي الأول لم يتقهقر هذا العنصر تماما ، صحيح أنه غلب على أمره ، ولكنه ناضل قبل أن يموت . وقد طفا على السطح من وراء نكبة البرامكة وفي خلال النزاع بين الأمين والمأمون ، حتى استعان المأمون بالخراسانية مرة أخرى لقهرهم .

ومن الواثق فصاعدا اختفى العنصر العربي على الأقل من الحياة السياسية تماما . ويبدو أنه اختفى من القوات المسلحة على الإطلاق بعد اسقاطهم من العطاء ، وما تبع ذلك من تفكك القبائل العربية واختلاط أنسابها ، واستقرارها في الريف وانسحاب بعضها الى الجزيرة العربية مرة أخرى .

ويمكن أن نتخذ موضوع نفوذ الموالى للتفرقة بين العصر العباسي الأول والثاني ، ففي العصر العباسي الأول كان نفوذ الموالى صاعدا ، الطبقات العاملة دخلت القوات المسلحة ، وتحولت البرجوازية الى بيروقراطية بتوليها الوزارة والكتابة . ولكن نفوذهم لم يكن طاعيا ، واذا رضيت الخلافة بالمشاركة فانها كانت قادرة على الحركة كما فعلت بالبرامكة .

أما في العصر العباسي الثاني فقد انطلق نفوذ الموالى دون قيد في وقت ضعفت فيه الخلافة ، فانقلبت امتيازاتهم السياسية فأصبحت (م ٦ — العصر العباسي)

حركة استقلالية ضخمة بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ،
ثم تغير وجه العصر العباسي بسيطرة البويهيين والسلاجقة •

حتى الناحية الثقافية والفكرية تظهر لنا فرقا واضحا بين العصر
العباسي الأول والعصر العباسي الثاني • فقد كان العصر الأول هو
عصر التحضير للنهضة بمعالمها الواضحة : دخول الموالى حلبة الفكر
يعلمهم وتجربتهم المترجمة من الآداب الأعجمية دون قيد ، كما ظهرت
بوادر التلقيح الثقافي والفكري •

أما التألق فكان في العصر العباسي الثاني ، وبلغ هذا التطور
الغاية في القرن الرابع الهجري ، ثم بدأ دور الشيخوخة في الثقافة
العربية بعد حركة الأحياء الفارسية وظهور الفارسية الجديدة
والتركية •



في هذا العصر العباسي الأول الذي يمتد من بيعة السفاح في سنة
١٣٣هـ الى وفاة الواثق في سنة ٢٣٢هـ ، ونرى أن أهم الموضوعات
الكبرى التي سنتناولها هي على الترتيب التالي :

الفصل الأول

تقدم العناصر الإيرانية في العصر العباسي الأول

موضوع الموالى عامة أو الطبقات غير العربية التي بدأت تسلم وتستعرب من أهم موضوعات الدراسة في العصر العباسي كله ، بل لها من أهم موضوعات التاريخ الاسلامي كله ، لأنه في الحقيقة موضوع تاريخ الشعوب الاسلامية وأثرها في الحياة الاسلامية بجميع مظاهرها .

وإذا استعرضنا أقاليم الدولة العباسية لنتعرف على التيارات الموجهة للشعوب التي دخلت في الاسلام ، ولنتعرف على وجهة نظرها ونبتين مواقفها من مشكلات الاسلام ، لوجدنا مثلاً أن موقف المصريين لم يثر مشاكل كبيرة أمام العباسيين ، فقد استقاموا على الطاعة للعباسيين في عصر الولاة ، ثم ظهر نفوذهم من وراء الطولونيين والأخشيديين ، وكذلك الحال في بلاد المغرب التي استقرت أوضاعها خلف الأغلبة أو الأدارسة .

غير أن مشكلة المشاكل عند العباسيين الأوائل كانت مشكلة عناصر الموالى من الإيرانيين .

وقد اختلفت فيها آراء الكتاب والمؤرخين منذ القرن الثالث الهجري حتى اليوم . فالجاحظ أحد كتاب القرن التاسع الميلادي يقول : « دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان أموية عربية » وطلع جوبينو^(١) وغيره من مستشرقى القرن التاسع عشر

Gobineau : Histoire des Perses.

(١)

Browne : Literary History of Persis. vol I pp. 251—252

Dozy : Hist. de l'islamisme (trans.) pp 228—229

Sykes : History of Persis vol. I p. 586.

علينا بنظرة جديدة ، وذلك حين فسروا الصراع بين الأمويين والعباسيين ، والانشقاق الدينى كله على أنه صراع عنصرى بين المسلمين والآريين ، واعتبروا فوز العباسيين نصرا للفرس على العرب . مكنهم من تأسيس امبراطورية فارسية جديدة متشحة بقناع فارسي اسلامى مكان الدولة العربية الزائلة .

وهناك مؤرخون آخرون يفسرون أحداث الثورة العباسية على أسس اقتصادية اجتماعية ، فبرنارد لويس مثلا يقول « العداء العنصرى كان له أثره فى الثورات التى أدت الى سقوط الأمويين ، إلا أنه لم يكن العامل الرئيسى المحرك لها ، وأنه على الرغم من وجود عدد كبير من الفرس بين المنتصرين إلا أنهم لم يحرزوا النصر بوصفهم من الفرس كما أنهم لم يهزموا أعداءهم بصفتهم عربا . وضمت جيوش الثورة عربا كثيرين وخاصة من قبائل الجنوب التى لم تكن بعد ثابتة القدم فى أرسقراطية الفاتحين ، ولم يكن الموالى كلهم من الفرس بأية حال ، بل كان بينهم عراقيون وسوريون ومصريون ، انما القوة المحركة للثورة ماثلة فى التذمر الاجتماعى والاقتصادى الذى سببه الحكيم الأموى (١) .

ونحن نخالف أنصار الرأى الأول ، ونرى أن الأمر لم يصل الى درجة العنصرية بالصورة التى صوروها ، ولم تكن الصورة كما تصورها الجاحظ . معترفين بأن طاقات من السخط قد تجمعت فى سماء ايران : اجتماعية واقتصادية ، وأن هذه الطاقة فجرها أو استغلها الدعاة العباسيون عندما كانوا يلوحون بشعارات الاصلاح والمساواة ، واستغلوا هذه الجماهير الساخطة فى اسقاط الحكم الأموى ونقله الخلافة اليهم .

وأن ثمة تحالفا وثيق العرى تم بين الايرانيين الساخطين وبين الدعاة العباسيين ، وأن نجاح الثورة ألزم العباسيين بأن يفوا بما

(١) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ١١٤ .

وعدوا وأن يطبقوا شعار المساواة ، وأن عناصر الموالى وجدت باراً ،
مفتوحاً نحو مستقبل وأمل فانسأقت فيه مؤثرة في الحياة الإسلامية .

وقد واجه العباسيون هذا التيار في العصر العباسي الأول بما
يحفظ لهم فعاليتهم ونفوذهم وما يعطى هذه العناصر ما تتمناه ، إلا أن
هذا التيار انقلب زحفا هائلا في العصر العباسي الثاني نتيجة ضعف
نفوذ الخلافة والحركات الاستقلالية التي انتشرت في الشرق والغرب .

وأعتقد أنه من المستحب أن نستبدل لفظ الموالى باصطلاح أبلغ
في الدلالة على ما حدث ، وألا نستبدله بكلمة الفرس لأن الفرس كانوا
قطعا من مجموعة العناصر أعم وأشمل ، إنما ينبغي أن نقول (العناصر
الایرانیة) لأن ایران كمصطلح جغرافي كانت بوتقة ترعرت فيها
كل العناصر التي ظهرت على مسرح الحياة العباسية ، فهي تضم
الخراسانية الذين ظهروا مع أبي مسلم ومع الطاهريين ، وهي تضم
أتراك ما وراء النهر الذين برزوا في عهد المعتصم ، وهي تضم الفرس
سكان المناطق الجنوبية ، والديلم سكان المناطق الشمالية الغربية ، ومنهم
بنو بويه الذين عرفتهم الحياة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

ويمكننا أن نرى في هذا التيار الإيراني المؤثر في الحياة العباسية
قسمين : قسم يمثله تيار منافر لا يتجه الى البناء إنما يتجه الى الهدم
وقد اتخذ لبوسا سياسيا دينيا ثقافيا . وقد تصدى له العباسيون الأول
بالمقاومة حتى استحقوا تقديرا معيناً في التاريخ ، تصدوا له وهم
أقوياء ، لأنه لو ظهر في وقت ضعف العباسيين لكانت الفتنة القاضية .

وقسم آخر يمثله تيار متعاون ، أفاد منه العباسيون في مراحل
الثورة الأولى وأوجدوا نوعا من المشاركة ، وتقدم هؤلاء الناس
في جميع النواحي الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ،
هالتطور السياسي والعسكري أفضى الى الحركات الاستقلالية ، والتطور

الاقتصادي الاجتماعي أفضى الى رأسمالية الايرانيين ، والتطور الثقافي أفضى الى الاحياء .

التيار المنافر :

أما عن التيار المنافر الهدام فهو يتمثل فيما ورثه العباسيون من مشاكل التاريخ الايراني ، خيره وشره ، فقد ورثوا نفس التيارات القديمة التي كانت مشكلة الساسانيين والزرادشت وهي التيارات المانوية والمزدكية (١) .

فقد كانت تعاليم مزدك الاشتراكية تثير الطبقات الدنيا والمتوسطة ، وكادت أن تقوض أركان النفوذ الساساني في القرن الرابع الميلادي ، وهي نفسها التي أقضت مضجع العباسيين في القرن الثامن الميلادي ، ثم مذهب الثنوية المانوي ذو الطابع الصوفي الذي كان يثير المتاعب في العصر الساساني أصبح اليوم يثير المتاعب الفكرية في العصر العباسي الأول .

وكل الحركات الهدامة التي ظهرت في العصر العباسي الأول اذا حلت نجدها تتخذ تعاليمها الدينية من الهرطقات (المذاهب) الايرانية القديمة . كانت هذه الحركات سافرة أول الأمر وقد أدى سفورها الى سرعة فشلها ثم كبته ، ثم بدأت بعد ذلك تتخذ نزعات توفيقية بنشر تعاليم هي مزيج من المزدكية والشيعة المتطرفة .

هذه الحركات السافرة ظلت مشكلة العصر العباسي الأول حتى وفاة المعتصم ، واليك استعراضا سريعا لأهم هذه الحركات :

كان مصرع أبي مسلم على يد المنصور من أكبر الصدمات التي عانتها القومية الايرانية ، وقد انتهر المزدكيون هذه الفرصة ، وتحت

(١) Browne : Literary Hist. of Persis. vol. I. P. 328.

حديثه من المانوية ، صفحات ١٥٤ — ١٦٦ ،
والمزدكية ، صفحات ١٦٦ — ١٧٣ .

علم الثار لأبي مسلم رفعوا راية العصيان بزعامة سنباذ من أتباع أبي مسلم في ما وراء النهر (١) .

وقد تمكن المنصور من القضاء عليه ولكن ذلك لم يقطع دابر هذه الحركات ، فقد قامت حركة أخرى منفصلة بالمزدكية ومأساة أبي مسلم على يد رجل اسمه أستاذ سيس (٢) واستطاع المنصور أن يقضى على هذه الحركة في المهد . وكانت الخلافة في أوج فعاليتها .

وتتابع الحركات الهدامة بعد ذلك مما يدل على اعتمادها على أقلية إيرانية كبيرة ويدل على تمسكها بالروح الإيرانية تمسكا كاملا ، فقد أعلن المقتنح الخراساني (٣) الثورة في منطقة مرو مركز نفوذ أبي مسلم في خلافة المهدي ، وانتشرت في إيران الشمالية وما وراء النهر وتجلت فيها المزدكية صريحة واضحة في إباحة الملكية والفساد ، وقد استمرت هذه الحركة ١٣ سنة (٤) .

واكتسبت هذه الحركات ضراوة في القتال وخبرة عسكرية وأفادت من ظروف الدولة العباسية أحسن افادة تحت علم بابك الخرمي (٥) (٢٠١ — ٢٢٢ هـ) وكان بابك زعيما مزدكيا له مواهب قيادية وعسكرية عظيمة ، وكان معظم أتباعه من الفلاحين ، وبدأ يكسب ولاء الدهاقين ،

(١) كان سنباذ رجلا مجوسيا من بعض قرى نيسابور وكان من أصحاب أبي مسلم وصنائه ، فلما قتل أبو مسلم ثار سنباذ وكثر أشياعه وأطاعه أكثر أهل الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحسب طبرستان وغلب على كثير من بلاد خراسان واضطر المنصور أن يرسل إليه جيشا كثيفا خاض معه معارك واسعة . انظر ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٤٨ .

(٢) أعلن الثورة في هرات وبادفيس وسيستار واجتمع له نحو من ثلاثمائة ألف من الأنصار وقضى عليه خازم بن خزيمة .

(٣) عن تعاليم المقتنح انظر النويختي : فرق الشيعة ، ص ٤٢ — Browne, P.P. 318—319.

(٤) طبرى ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ .
Browne : vol. 1 P. 328.

(٥) انظر :

Browne, Literary History of Persia, P.P 821—831.

وهو يرد تعاليمه إلى المزدكية . انظر الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٢٤٤ .

وكان مركز الحركة في أذربيجان مركز القلاقل والفتن ، ونالت الحركة تأييد الأكراد والأرمن والقوقازيين وسعت الى ايجاد تحالف مع البيزنطيين (١) •

وكانت خطورة بابك الخرمي آتية من اعتصامه بوعورة المنطقة وتحالفه مع أعداء العرب واستيلائه على الطرق التجارية الشمالية ، وقاوم الدولة بقوة السلاح نحواً من سبع سنوات وهزم أربعة من قواد المأمون ، ولم يقم بالعمل العسكري الحاسم الا المعتصم (٢) ، ولعل هذا هو الذي ألجأه الى الاستعانة بالترك •

وشهد عصر المعتصم صورة من هذه الحركات كان طابعها عسكرياً أكثر منه عقائدياً وأعنى بها حركة الأفشين (٣) في ما وراء النهر •

على أن هذه الحركات الهدامة لم يكن لبوسها ثورات وحركات عسكرية فقط ، انما اتخذت لبوساً فكرياً يتسرب في طمأنينة وصمت ونقصد بها حركات الزندقة (٤) •

وكلمة زنديق تطلق على من اعتنق المانوية • والجاحظ الذي عاش في عصر المأمون درس كتب الزنادقة وعلق عليها وقرأها بدقة ، وقال انه ينطبق عليها ما عرفه عن المانوية ذات النزعة الصوفية ، كما ذكر الأصبهاني ما يفيد تأثر هذه الحركة بتعاليم قريبة من المسيحية والزرادشتية والاسلام •

(١) يعطينا براون بعض التفاصيل عن تعاليم بابك الخرمي — من ٣٢٦ — ٣٢٨ . انظر كذلك البلخي : البسده والتاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) أسره الأفشين وحمله الى سرمن راي . انظر : Browne vol. I. P. 329.

(٣) الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣٦٢ •

(٤) عن الزنادقة : انظر الغزالي : كتاب فيصل التفرقة بين الاسماء والزندقة ، ص ٣٢ . الاغانى : ج ٣ ، ص ٧٣ ، ٨٦

Browne. Vol. I. P.P. 159.

ثم انقلبت الى نزعة تحريرية تهاجم التقاليد وتنتشر في أوساط المثقفين خاصة ، حتى لقد قيل ان أبا نواس (١) كان منهم ، وكذلك ولد معاوية بن يسار الوزير (٢) وانهم البرامكة بالزندقة في عهد الرشيد (٣) .

على كل حال كان العامة وأشباههم يطلقون على المساجن المستهتر كلمة زنديق ، فحماد عجرد وأبراهيم بن سيابة الشاعر كانا يرميان بالزندقة ، وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز اتهم بالزندقة لأنه كان خليعا عتثما في الشراب . والواقع أن كثيرا من الشعراء في ذلك العصر أفرطوا في دعوة الناس الى الاباحية وحملهم على الاستهتار . وتعرضوا للدين أحيانا وجهرًا بأقوال فيها تهكم وسخرية .

وقد رويت أشعار من هذا القبيل نسبت الى بشار وأبي نواس (٤) ، وشاع اتهام بعض الناس بالزندقة لا عن عقيدة انما ليشتهر بالظرف . قال صاحب العقد (٥) . « ان علامة الزندقة شرب الخمر والرشا في الحكم ومهر البغى » .

وقد اتخذت الزندقة اتجاها آخر وهو اعتناق بعض الناس الاسلام في الظاهر واستبطان دين الفرس القديم (٦) . وهؤلاء لم يؤمنوا بالاسلام انما آمنوا بسلطانه وأن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام . وقوم آخرون سعوا الى فساد العقيدة الاسلامية بالانتساب اليها حتى يستطيعوا أن ينفثوا تعاليمهم

(١) انظر رأي الجاحظ في بعض قصائد أبي نواس . الحيوان ،

، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٣٤ .

(٢) النخري ، ص ١٦٣ - ١٦٦ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ، ص ١٤٨ .

(٤) أشار ابن الفديم الى من رمى بالزندقة من الملوك والرؤساء ،

عقد البرامكة ومحمد بن عبيد الله كاتب المهدى ، ومحمد بن عبد الملك الزيات .

(٥) العقد الفريد ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٦) أشار صاحب الفهرست الى الذين اظهروا الاسلام وابطنوا

الزندقة . ابن ماثوت ، ابن الأعدى الحريزي ، صالح بن عبد القدوس ، روى الشعراء : بشار واسحق بن خلف وعلى بن الخليل ، ص ٤٧٣ .

على أشكال مختلفة طورا في العلم والدين وطورا في الأدب .
وأحيانا كانوا يعملون أفرادا وأحيانا جماعات . ومن أمثلة هؤلاء
عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي كان يفسد أحاديث الرسول .
وحماد الراوية الذي كان يفسد اللغة والأدب بما يدسه على الشعراء .
وأمثال هؤلاء كانوا يدينون بدين المجوس عن علم ويتظاهرون بالاسلام
اضلالا للناس (١) . وقد عرف بهذا النوع من الزنادقة في هذا
العصر حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان ويشار
ابن برد وابن المقفع ويونس بن أبي فروة ومطيع بن اياس ومالك
ابن عبد القدوس وعلي بن خليل ، وقد حفل كتاب الأغاني بتراجم
الكثيرين منهم .

وأحيانا تطلق كلمة الزنادقة على أتباع ديانة الفرس دون
انتحال الاسلام أو على الذين جحدوا الأديان كلها .

ولم يعرف عن المنصور امعانه في اضطهاد الزنادقة . وكانت
لسياسته قمع الفتن الظاهرة . فلما جاء المهدي كان من أبرز
الأمور في عهده تنكيله بالزنادقة والبحث عنهم . وقد عين رجلا
عهد اليه بأمرهم سماه « صاحب الزنادقة » (٢) .

وكان المهدي شديد الاهتمام بهذه الفتنة حتى لم ينس أن
ينصح ولي عهده أن ينكل بهم (٣) . وقد نفذ الهادي وصية
أبيه واشتد في طلب الزنادقة . ولما آلت الخلافة الى هارون
الرشيد نهج نهج من سبقه من الخلفاء في تعقب الزنادقة (٤)
واستمرت الدولة تواجه هذه الفتن بالتحدي والممع في عهد
المأمون (٥) . وكانت محاكمة الأفشين في عهد المعتصم صورة

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥١ .

(٢) الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ . الطبري ، ج ١٠ ، ص ٩ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ، ص ٤٢ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٠ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

معبرة عن اهتمام الخلافة العباسية بهذه الحركة الهدامة ، فلما خرج الأفشين اتهم بالزندقة وألفت محكمة لمحاكمته من أعضائها محمد ابن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبى دؤاد (١) .

وقد تصدى أهل السنة لمقاومة هؤلاء الناس حتى أن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد الواضح في مكافحة الزندقة ، وتصدى علماء الكلام لتسفيه الزنادقة والرد عليهم (٢) ، ومن ثم نشأ علم الكلام ، وكان واصل بن عطاء (٣) أول من تصدى للرد عليهم ، وكان لأبى الهذيل العلاف (٤) مناظرات طويلة مع الزنادقة .

وفي العصر العباسي الأول ظهرت نزعتان شهيرتان : نزعة تقول بأن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم . . والناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد . والتفاضل بين الأفراد وليس بين الأمم (٥) . وأصحاب هذه النزعة كانوا يسمون « بأهل التسوية » ويمثلهم أكثر المتحضرين من العرب والعجم ، وخصوصا أن روح الاسلام وقواعده تدعم هذا الرأي . وأطلق على أصحاب هذه النزعة اسم « الشعوبية » لأنهم يقولون « بالشعوب » أى يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم ، فاتخذوا هذا الاسم اعترافا بأن الشعوب سواء ، وسموا بالشعوبية ، ولم يكن في اتجاه هؤلاء ما يرضي العرب أو يغضب الحكومة العباسية . فقد كانوا يستجيبون لشعار

(١) انظر محاكمة الافشين الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٣٦٤ .

(٢) ابن الخياط : الانتصار ، ص ٨١ .

(٣) احمد امين : ضحى الاسلام ج ١ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤) من اقوى الشخصيات في مدرسة البصرة . كان رئيس الاعتزال .

في عصره واليه يرجع الفضل في تطعيم مبادئ الاعتزال بمبادئ الفلسفة وهو محمد بن الهذيل العلاف من موالى عبدالقيس . ولذلك يقال له العبدى .

وتقد عمر نحو مائة سنة فقد ولد سنة ١٣٥ ومات سنة ٢٣٥ هـ في أول خلافة المتوكل ، وبلغ ذروته في أيام المأمون . انظر احمد امين . ضحى

الاسلام ج ٣ ، ص ٩٨ — ١٠٦ .

(٥) العقد الفريد : ج ٢ ، ص ٨٩ .

المساواة الذى رفعه الدعاة العباسيون ، ولكن النزعة الأخرى هى التى نريد أن نلفت اليها النظر وأن نضعها بين المحاولات الهدامة التى تصدى لها العصر العباسى الأول حفاظا على تراثه وثقافته • ولم يكن التصدي على المستوى الحكومى كما رأينا عند حديثنا عن الزندقة انما كان التصدى أمانة فى أعناق أعلام العرب ومفكريهم وكان سلاحهم ليس السيف انما القلم ومقارعة الحجة بالحجة والرأى بالرأى •

والنزعة الأخرى تميل الى الحط من شأن العرب وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم ، وقد أطلق على هؤلاء أيضا اسم « الشعبوية » فالجاحظ وابن عبد ربه يطلقان عليهم هذا الاسم عندما اشتد سلطانهم أيام الرشيد والمأمون • ورد فى اللسان « والشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلا على غيرهم » وهؤلاء كانوا يرون أن العرب كافة لا ميزة لهم اذا قورنوا بالرومان أو الهنود أو الفرس وأنه ليس عندهم ما يفخرون به ، فأين ملكهم من ملك الفراعنة والعمالقة والأكاسرة والقيصرة • والعرب فى زعمهم أضعف الأمم شأننا وأعقمهم يدا وأجذبهم عقلا ، واذا فخروا بالاسلام فليس الاسلام دين العرب وحدهم بل هو دين الناس كافة • ومن الغريب أن الذين حقروا العرب على هذا النحو كانوا ، اما ممن ظلوا على دينهم القديم أو أسلموا ولما يدخل الايمان فى قلوبهم أو غلبت عليهم النزعة الوطنية • وكان الشعوبيون أخلاطا مختلفة منهم فرس ونبط وقبط وأندلسيون • وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء بصبغة خاصة • وبعض هؤلاء الشعوبيين ألفوا فى مناقب العجم : فسعيد بن حميد البختكان ألف كتاب « انتصاف العجم من العرب (١) » وكتاب « فضل العجم على العرب واغترارها » وبعضهم وضع الكتب فى مثالب العرب كالهيثم بن عدى الذى وضع

(١) الفهرست ، ص ١٢٣ •

عدة كتب في المثالب منها كتاب « المثالب الصغير » وكتاب « المثالب الكبير » وكذلك سهل بن هارون صاحب « بيت الحكمة » وألف علان الشعوبى كتاب « الميدان في المثالب » قال فيه ابن النديم « انه هنك فيه العرب فأظهر مثالبها (١) » كما ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابا كثيرة تعرض فيها للعرب منها « كتاب لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » كما ألف كتاب « فضائل الفرس » .

كما عمد الشعوبيون الى أنهم وضعوا في الأدب قصصا كثيرة تؤيد حججهم واختلقوها اختلاقا . هذا الى أنهم لونوا كل ما رووا من تاريخ الفرس لونا زاهيا جميلا ونسبوا الى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة الحكيمة ، ونكاد نلمس أثر الشعوبية حتى في الفقه نفسه .

وقد انبرى العرب بأقلامهم لهؤلاء الشعوبيين يردون على ما يذيعونه من مثالب أو ما يشيعونه من أباطيل في مساجلات طريفة حفظها أدب القرنين الثانى والثالث الهجرى .

وقد دفع هذا العلماء العرب الى النظر في التراث الغابر محاولين بعثه واحياءه ليدحض نظريات الهدامين ، فانصرف الهمدانى الى احياء غابر اليمن وانصرف آخرون الى الأنساب أو الأصنام أو الأدب القديم حتى ردوا كيد الشعوبيين الى نحورهم ، وأسهموا الى جانب الخلفاء والمتكلمين بمقاومة هذا التيار الهدام .

ويرجع الى العصر العباسى الأول القضاء على هذه الحركات الهدامة ، فقد أسلموا الأجيال القادمة حركة اسلامية قوية مبرأة من الشوائب الى حد كبير .

* * *

التيار الموافق :

أما التيار الآخر الموافق الذى أفاد منه العباسيون وأفاد هو منهم ونعنى به التيار الايرانى الصاعد المتقدم فى الحاح طوال العصر العباسى الأول ، وقد تجلى هذا التيار الايرانى الدافق فى ميادين ثلاثة : الميدان الفكرى والميدان الاقتصادى الاجتماعى ثم السياسى .

والتقدم الفكرى حقيقة اعترف بها المؤرخ ابن خلدون فى مقدمته (١) حين قال ان حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم ، واذا درسنا كتب الطبقات (٢) دراسة دقيقة فاحصة لتبين لنا أثر هذا الدم الجديد الذى دخل الى ميدان الفكر فى العصر للعباسى ، وأسهم فى البعث وكان من مقومات النهضة .

فقد ترك الفنانون الايرانيون أثرا واضحا فى الفن الاسلامى فى العصر العباسى الأول ، وأدى ذلك الى ظهور ما يسمى بالطراز العباسى فى العمارة ، هذا الطراز متأثر الى حد بعيد بالأساليب الساسانية .

وقد أذاعه العباسيون فى العالم الاسلامى كله فأثر فى العمارة فى مصر ، ثم انتقل الى تونس فى عصر الأغالبة ووصل الى القمة فى القرن الثالث الهجرى .

ويذكر الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « فنون الاسلام » (٣) أن التأثير الايرانى لم يكن قاصرا على الأساليب الفنية أو المعمارية إنما امتد الى الصناعات نفسها ، وبدأت الصناعات فى العصر العباسى تقلد النماذج الفارسية فى الخزف .

(١) انظر : المقدمة ، ص ٢١٥ .

(٢) أرجو أن يدرس ما ورد فى كتاب ابن النديم : الفهرست بعناية ، انظر مثلا المقالة الثانية من أخبار النحويين واللفويين ، ص ٩٦ — ١١٥ .

(٣) فنون الاسلام ، ص ١٣ .

هذا التأثير الإيراني طبع الفن بطابع واضح ، فإذا قلنا ان القرن الثالث الهجرى هو عصر النفوذ الأيرانى فى الناحية السياسية **فيمكننا أن نقول انه عصر الفنون الساسانية أيضا .**

والتأثيرات الأيرانية لم تكن قاصرة على الفن بل تجاوزته الى ميدان الأدب الغربى نفسه . وقد درس الأستاذ أحمد أمين (١) هذه الظاهرة فى كتابه ضحى الاسلام ، وهو يرى أن الأدب الفارسى **أثر فى الشعر العربى وأن شعر القرن الثالث بصفة خاصة عربى فى شكله وربما فى لفظه ولكنه فارسى التعبير .**

وقد أقبل الفرس على الأدب العربى يتمكنون منه ، وبرع كثيرون منهم فى قرض الشعر ، وثمة أمر آخر يشير اليه الأستاذ أحمد أمين وهو أثر الفرس فيما يسميه بالحكم الإسلامية أو علم الأخلاق عند المسلمين . وهو يرى أن علم الأخلاق قد تأثر بالقرآن والسنة ، وبالكتب المقدسة ولكن التأثير الفارسى كان فى غاية القوة . ويرى أن ابن قتبية فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد **انهما كانا يصوغان حكما عربية اللفظ فارسية الموضوع .**

وتجاوز أثر الأيرانية هذه الأبعاد وأثر فى الموسيقى والغناء ، **والربط الشعر بالموسيقى شديد ودراسة كتاب الأغانى لأبى الفرج عتق على تسرب الكثير من ضروب النغم الفارسى وأساليبه الى الموسيقى العربية .**

ومن مظاهر التأثير نشأة مجالس الطرب والمنادمة التى شاعت على الخصوص فى العصر العباسى وأصبحت من الأساليب الشائعة فى بلاط الخلفاء وفى البيوت الأرستقراطية العربية والفارسية ، وهذا **الأسلوب فى المنادمة انما هو أسلوب فارسى محض .**

ولا ننسى أن نشير الى الرسائل الديوانية وهي نحو جديد في ميدان النثر والترسيل عند العرب ، وأسلوب هذه الرسائل وملتحيه من تقاليد ومبالغات وأساليب خاصة في التعظيم والتفخيم إنما هي أساليب فارسية النبع ، ظهرت للمرة الأولى على يد الكاتب المعروفة عبد الحميد الكاتب ثم احتلت مكانها في تاريخ النثر العربى •

على كل حال تزعمت العناصر الايرانية الحياة الفكرية بمظاهرها كلها ، وحتى العلوم العربية الخالصة التي كان يظن أنها وقفت على العرب ظهر فيها الايرانيون ، واحتلوا مكان الصدارة في النحو والفقه والتفسير وعلم التاريخ ، هذا بالإضافة الى العلوم الدخيلة الأخرى مثل الكيمياء والطب وغيرهما •

وفي ذلك يقول ابن خلدون « ان حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم من العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربى في نسبته فهو عجمى في لغته ومرباه ومشيخته (١) » ، واذا كان قول ابن خلدون هذا فيه بعض المغالاة الا أن الفرس كانوا فعلاً أقدر على التدوين والتأليف • فقد تعمقوا في الحضارة وتدربوا منذ القدم على التأليف بلغتهم ، فلما اعتنقوا الاسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم سهلاً ميسوراً ، وكان الموالى في العصر العباسى الأول فعلاً من السابقين الأولين في تدوين العلوم المختلفة والبراعة فيها ، ومنهم أبو حنيفة النعمان الامام ، وحماد الراوية الذي روى أكثر الشعر الجاهلى وجميع المعلقات ، وكذلك سييويه والكسائى أحد الأئمة الاعلام في النحو واللغة والقراءات وأحد القراء السبعة ، والفراء عالم الكوفة الشهير في النحو واللغة وفتون الأدب ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى العارف باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامهم ، وأبو العتاهية الشاعر الزاهد ، وابن قتيبة صاحب المعارف وعيون

(١) المقدمة ، ص ٤٧٧ •

الأخبار (١) •

وامتد المد الايراني الى آفاق أخرى غير آفاق الفكر ، امتد الى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية • فقد أفاد الايرانيون من المكاسب الأولية التي حققتها الثورة العباسية من اعفاء من جزية أو تخفيف أعباء خراج أو اباحة ملكية الأرض أو اطلاق الهجرة •

وقد أسهموا في النهضة الزراعية وفي الانتاج الذي تضاعف في العصر العباسي الأول ، والذي يعزى الى اطلاق القيود التي كانت تعوق نشاط الطبقات العاملة ، كما أفادوا ودعموا النهضة الصناعية وأفادوا أكثر من اتساع رقعة التجارة الدولية التي حملت التجارة الاسلامية الى أبعد ما يظن من الآفاق •

وقد أدى هذا الى تحول خطير في حياة الايرانيين ، أدى الى التحول الرأسمالي ، فالبرجوازية القديمة تحولت الى طبقة جديدة رأسمالية كانت في العصر الأموي عربية وأصبحت في صدر العصر العباسي ايرانية ، اقتنى أفرادها الضياع الواسعة واشتغلوا بالتجارة وفتحوا المصارف ، واقتنوا الملايين ، وعاشوا عيشة يصورها القصص العباسي في ألف ليلة وليلة ، ويصورها الشعر العربي بمدائحه وأوصافه ، وتتحدث عنها المراجع التاريخية ، وكانت المدن ايرانية في الحقيقة يصدر عنها اشعاع جديد •

هذا التحول الرأسمالي ترك آثارا ربما لا تظهر بوضوح الا في العصر العباسي الثاني ، فستتحول الى مساوئ اقتصادية معينة تلهب الحركات الثورية ذات الطابع الاشتراكي مثل حركة الزنج أو حركة القرامطة ، كما يستفيد منها دعاة الاسماعيلية ليؤلبوا الناس على الحكم العباسي الجائر •

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩٢ •
(م ٧ — العصر العباسي)

ولم يكن تقدم العناصر الايرانية قاصرا على ميادين الفن والاقتصاد والفكر فحسب ، فقد كان هذا ثلثهما لا تحسب له السياسة العباسية أى حساب ، انما تقدمت هذه العناصر في ميدان السياسة والقيادة تقديما حثيثا ، فهي التي أيدت الدعوة في مراحلها الأولى وهي التي كانت وقود الدولة وكانوا جندها المخلصين المعبرين. عن ارادتها والمنفذين لسياستها . كان الخراسانيون في جيل أبى مسلم هم الذين حملوا عبء الكفاح ، وكانوا جند الدولة المخلصين في زحفها نحو العراق واطاحتها بالدولة الأموية ، وتثبيت دعائم الحكم العباسي . وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة الهامة التي كتبها ابن المقفع وسماها برسالة الصحابة ، والتي تعتبر من أهم الوثائق التي تكشف عن سياسة العباسيين وحقيقة أهدافهم ، فلهذه الرسالة قيمة كبيرة في نقد نظم الحكم ورسم وجوه اصلاحه ، فقد رفعت الى أمير المؤمنين ويظن أنه أبو جعفر المنصور (١) لأنه يذكر دولة بنى العباس وقد استقرت على قدميها ويذكر أبا العباس السفاح ويترحم عليه: وقد أدرك ابن المقفع المكانة الهامة التي احتلها جند خراسان في السياسة العباسية ، ومدحهم بأنه لم ير مثلهم في الاسلام ، وأنهم يمتازون عن غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف والكف عن الفساد ، والتذلل للولاء والتفاني في خدمة الخليفة ، حتى ان منهم من كان يقول « ان أمير المؤمنين لو أمر أن تستدير القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا » . وقال داود بن علي : « يا أهل الكوفة انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا (٢) » . وكان الخراسانيون عدة المنصور في قضائه على أعدائه وقمع الطامعين في ملكه ، واطفباء الثورات التي اشتعلت في الحجاز ، والتمكين لسلطانه

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

ومن ذلك قول أبى جعفر المنصور « يا أهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا وأهل دعوتنا » ، المسعودي : المروج ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

في مصر والمغرب وعدته في جهاده مع الروم • ولم تتخل الدولة العباسية عن عناصر الايرانيين على الاطلاق ، فقد عادوا الى الظهور في الصراع بين الأمن والمأمون • وكانوا جند المأمون في القضاء على الأمن والتمكين لنفسه من النفوذ والسلطان ، حتى استعان المعتصم بالترك الغربيين • هما وراء النهر ، وكانوا أقرب الى العناصر الايرانية من الأتراك الشرقيين • وقد ترتب على هذا أن ضوعف عطاؤهم ونالوا من الرعاية حقهم وتولى القيادة فيهم رجال منهم وصلوا الى أعلى مراتب السلطة والقيادة • ونالوا من الحقوق بقدر ما كانوا يشتهون • ولو درس النظام الحربي في العصر العباسي الأول دراسة مفصلة لوجدنا كيف كانت القيادة العسكرية في جميع القطاعات في أيدي هذه العناصر الجديدة الفتية الصاعدة الى النفوذ والسلطان ، ولم يصبح الايرانيون هؤلاء من أرباب السيوف فحسب ، بل سيطروا على الجهاز الاداري في حاضرة الخلافة وفي الولايات الخاضعة لها ، وغلبوا على جميع دواوين الدولة وتولوا مناصب الولاة على البلدان ، ونالوا من الثقة الشيء الكثير • وزاولوا منصب الوزارة منذ فجر الدولة ، وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية • وكان الوزراء الظاهرون في العصر العباسي الأول كله من العناصر الايرانية ، غابوا سيطرة الخليل أول وزير عباسي مولى فارسي ، وأبو أيوب المورياني وزير المنصور فارسي من موريان قرية من قرى الأهواز ، ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك • وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، واستوزر المأمون بنى سهل ، وكانوا من أولاد ملوك الفرس من صنائع البرامكة ، وتولى الوزارة الفضل بن سهل والحسن بن سهل ، ومن بعدهم استوزر المأمون أحمد بن يوسف مولى بنى عجل ثم ثابت بن يحيى ابن يسار الرازي • ولو تصفحنا أسماء الوزراء الذين أشار اليهم الجهشيارى (١) لتبيننا أن أكثر الوزراء في العصر العباسي الأول كانوا

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٤

من الفرنس ، والأستاذ أحمد أمين في كتابه : ضحى الاسلام
« يعزو هذا النفوذ الصاعد في ميدان الوزارة الى القدرة على
الكتابة التي كان يشترطها الخليفة في الوزير ، وأن هذه القدرة
الكتابية كانت عند الفرس أبين منها عند العرب » • والحقيقة أن تولي
الوزارة كان زحفا من هذه الزخوف التي قيام بها الايرانيون أصحاب
الثورة وصناعها ، وكما تولوا وظائف الكتابة فقد كان للوزراء أعوان
من الكتاب يعينهم ، ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتابا ، فكان حماد
عجرد كاتبا ليحيى بن محمد بن صول بالموصل (١) • وكان ابن المقفع
يكتب لداود بن عمر بن هبيرة والى كرمان ، وكان عمرو بن مسعدة
يكتب للمأمون ، والحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، وكان
يكتب ليحيى بن خالد البرمكى عبد الله بن سوار بن ميمون ، وكان
أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحذون حذو أجدادهم من الفرس ،
بل وصل الصعود في مجال العمل السياسي بهذه العناصر الى حد
احتكار نوع من السلطة السياسية يتوارثه الأبناء عن الآباء ، أعنى
أنه تكونت لهم في العصر العباسي الأول دويلات وظيفية أو أسرات
بيروقراطية كالبرامكة مثلا وبنى سهل •

ولكن الأمر الذي يستحق الالتفات هو موقف العباسيين من هذا
الطوفان السياسي للعناصر الأيرانية • أتم ذلك في غفلة أو تجاهل أم كان
العباسيون يرسمون لأنفسهم سياسة عميقة بعيدة الغور ولم يتخلوا
عن تطبيقها طوال العصر العباسي الأول ؟ ونستطيع أن نكتشف عن هذه
السياسة بوضوح ، فقد كانت قائمة على أن يشارك هؤلاء الايرانيون
العباسيين نفوذهم وسلطانهم وينالوا من السلطة ما يطيب لهم ،
لكن داخل اطار محدود لو تجاوزوه لقادهم هذا التجاوز الى
مصارعهم ونهايتهم •• كانوا يسمحون لهم بذلك في حدود الطاعة

(١) الجهشيارى : نفس المرجع والصفحة •

المطلقة للخلافة والاعتراف الذي لا شبهة فيه بسلطانهم وتنفيذ كلمتهم ، حتى إذا سولت لهم مطامعهم أن يخرجوا عن الطاعة أو يثوروا على السلطة أو يترددوا في تنفيذ الكلمة كان الكبت والقمع والبتر الذي لا هوادة فيه على الإطلاق ! وكان لهم في هذا القمع والكبت سياسة مرسومة وهي سياسة ضرب العناصر بعضها ببعض ، فقد ضربوا الخراسانية جيل أبي مسلم بالبرامكة الفرس ، وضربوا البرامكة الفرس ببقايا النفوذ العربي ، وضربوا ببقايا النفوذ العربي بالخراسانية في جيل بنى طاهر ، ثم ضربوا الخراسانية بالأتراك في عصر المعتصم ، حتى إذا انتهى عهد الواثق وانقضى العصر العباسي الأول كانت العناصر الترككية تلك هي التي ضربت الخلافة وسيطرت عليها .

اذن يمكننا أن نقول ان سياسة العباسيين حيال هذه العناصر الإيرانية المتقدمة في المجال العسكري والسياسي تقوم على عنصرين : المشاركة والموازنة في اطار الطاعة لبنى العباس ، ثم الكبت والقمع اذا كان ثمة خروج على أركان هذه الطاعة وهدود هذا الولاء . هذه السياسة يمكن أن تعطينا منطلقاً لأحداث كبيرة حفل بها العصر العباسي الأول ، وكانت هذه الأحداث تثقل على ضمير المؤرخ ، فهو اذا تناولها مجردة وبعبدة عن هذا الاطار الذي رسمناه بدت غدرا وخيانة وتنكرا لأبسط المبادئ . واذا روعيت السياسة التي ذكرت كانت كبتا من جانب الخلافة حفاظا على السيادة والسلطة واحتفاظا بالقدرة والفعالية . في ضوء ما تقدم يمكن أن نعرض لمحاولات القمع هذه التي حفل بها تاريخ العصر العباسي الأول . ويمكننا أن نعددنا على هذا النحو ثم نعرض لها بشيء من التفصيل يفسر السياسة التي أشرت إليها .

مصرع أبي مسلم ، والقضاء على أفراد الأسرة الطامعين في السلطة ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، ونكبة بنى سهل ، ومصرع الأخشيين في عهد المعتصم واتهامه بالزندقة .

وقصة الصراع بين أبي مسلم الخراساني وأبي جعفر المنصور تستحق العرض والدراسة ، فهي صورة صادقة من القوى الخراسانية المعتدة بنصرها الصاعدة الى النفوذ والسلطان ، وبين الخليفة المنصور صاحب نظرية المركزية في سلطان الخلافة وسلطوتها • ولم يكن يرضيه أن تطفئ الخراسانية على سلطان الدولة أو تخرج عليه ، وقد نقل الطبري (١) تفاصيل كثيرة عن أحمد بن زهير وعلى بن محمد وسلمة بن محارب ومسلم بن المغيرة وسعيد بن أوس وأبي حفص الأزدي والنعمان بن السري ومحمد بن ابراهيم ، وهذه التفاصيل في حاجة الى دراسة وتحليل للتعرف على تفاصيل هذا الصراع الطريف الذي هو صورة من انطلاق الطاقة الايرانية وصورة من خوف الخلافة أن تكون الطاقة مدمرة لسلطانها ، وأنها حاولت أن تروضها وأن يسلس لها قيادها •

ومن روايات الطبري هذه نقبين أن أبا مسلم الخراساني كان يحس احساسا صادقا بأنه المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس وأنه لولاه لما قامت لهم دعوة ، وكان يحسن أن الخراسانيين يلتفون حوله ويأثمرون بأمره ويرون فيه زعيما وبطلا قوميا • وقد وضح هذا الاتجاه من أبي مسلم حتى في عهد الخليفة الأول أبي العباس السفاح • فقد ذكر الجهشيارى (٢) أن وطأة أبي مسلم ثقلت على أبي العباس وكثر خلافه اياه ورده لأمره • ولعل مما استاء له كثيرا السياسة التي درج عليها العباسيون آنذاك من نقل السلطة من القواد الى أفراد البيت العباسي • وربما كان أبو جعفر المنصور أكثر احساسا من أخيه أبي العباس بخطورة ذلك الزعيم الخراساني القوي • وقد بدت منذئذ نذر ذلك الصراع بين القوتين • فقد روى الطبري (٣) أن أبا مسلم أراد أن يحج الى بيت الله فولى الخليفة أبا جعفر امرأة

(١) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٥٩ — ١٦٧ •
 (٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٦٣ •
 (٣) الطبري : ج ٩ ، ص ١٢٥ •

الحاج فغضب أبو مسلم وقال « أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا » • كما أشار الطبري الى أن أبا مسلم كان يعمل على الحط من هيبة أبي جعفر ، وأنه كان ينفق الأموال الكثيرة في الترفيه عن العرب واصلاح الطرق ، وأنه كان يتقدم عليه في الطريق بعد أداء فريضة الحج • ويبدو أن أبا مسلم كان حريصا على أن يشعر أبا جعفر بقيمته وقيمة العصبية التي تبسندته وتؤازره ، فيروى أنه تنبأ في البيعة للمنصور بعد وفاة أبي العباس ، وأنه نعى أبا العباس وكتب الى أبي جعفر يعزيه في وفاة أخيه دون أن يهنئه بالخلافة أو يبعث اليه بالبيعة أو يقرئ في طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد • كان صراع أبي جعفر وأبي مسلم يقوم على أسس محاولة ابعاد أبي مسلم عن منطقة نفوذه في خراسان ، وأن يلقاه وحيدا مجردا من السلطان والنفوذ ، وأنه حريص على أن يحول بين أبي مسلم وبين الاعتصام بخراسان حتى لا يؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فروى الطبري (١) أنه ولاء مصر والشام فغضب أبو مسلم وقال « هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي » • وأراد أن ينطلق في طريقه الى خراسان ، غير أن المنصور أراد أن يستعين بسياسة اللين والمسالمة حتى يستدرجه الى ما بيته له • فكتب اليه يستدعيه وأرسل اليه من يخوفه من مغبة معصية الامام والخروج عليه فقد كتب اليه نائبه في خراسان يقول : « انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالف امامك ولا ترجعن الا بأذنه » ، فلم يجد أبو مسلم بدا من أن يستسلم حتى لا يظهر بمظهر الخارج على الخلافة المتمرد على سلطانها ، ثم مثل بين يدي الخليفة ودارت بين الرجلين محاورة في غاية الطرافة كانت أقرب الى المحاكمة منها الى المحاورة ، وهي تكشف عن اعتداد أبي مسلم بنفسه وبالجهد التي أداها خدمة لبني العباس ، وعن دهاء المنصور وخوفه من انطلاق الطاقة الخراسانية في وجه الخلافة العباسية ، واليك هذه المحاورة الطريفة :

(١) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٦٧ •

« أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن علي قال : هذا أحدهما الذي علي » قال أبو جعفر : أرنيته ، فانتضاه فناولاه ، فهزاه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه ، فقال : أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس ، تنهاه عن الموات . أردت أن تعلمنا الدين قال : ظننت أخذه لا يحل فكتبته إليه فلمسا أتاني كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال : أخبرني عن تقدمك إياي في الطريق . قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضرب ذلك بالناس فتقدمتك التماس المرفق . قال : فقولك حين أتاك الخبز بموت أبي العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلى : تقدم غفري من رأينا ، ومضيت فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلى . قال : منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت تقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف . قال : فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها . قال : لا ، ولكني خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بهنًا من يحفظها ، فقال : فمراغمتك وخروجك إلى خراسان . قال : خفت أن يكون قد دخلك مني شيء ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم قط والله ما زرتني إلا غضبا . ثم أقبل يعاتبه : ألسنت الكاتب إلى تبدأ بنفسك ، والكاتب إلى تخطب أمينة بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ؟ ما دعاك التي قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا وهو أحد نقبائنا قبل أن ندخلك في شيء من هذا الأمر . قال : أراد الخلاف « وعصاني فقتلته » . ثم انتهى الحوار بمصرع أبي مسلم بالصورة التي رواها الطبري (١) .

وبعد ... أنعد هذا غدرا من المنصور أم حفاظا على مركزية الخلافة وسطوتها والحرص على تقدم العناصر الايرانية في نطاق الولاء للخلافة والطاعة لها ؟

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ١٦٧ .

البرامكة :

والبرامكة ينتسبون الى برمك الذي كان كاهن بيت النار في مدينة بلخ ، وكان فارسيا عريق النسب فلم يكن يتاح لأحد أن يتولى هذه الأعمال الجليلة في الحياة الدينية الا اذا كان منسبا . وقد أتاحت ظروف الدعوة العباسية وأحداث الثورة العباسية المتلاحقة لأحد أبناء هذا الكاهن أن يطفو على سطح الأحداث كما طفا غيره من بنى جنسه (١) .

ذلك أن خالد بن برمك بدأ حياته في عسكر قحطبة بن شبيب الطائي الزاحف الى العراق ، وكان يتقلد الخراج والغنائم . وقد أظهر كفاية ومقدرة لفتت أنظار القائد العباسي فزاده تقديره ثم حضر فتح العراق وبيعة السفاح وولى ديوان الخراج والجند وتولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أبى مسلمة الخلال، ثم أبقاه المنصور في الوزارة فكان عوناً له في سياسته نحو المركزية في جهوده في الإصلاح الإداري وتثبيت دعائم الحكم العباسي والقضاء على الفتن والحركات الهدامة .

وقد ولى الرشيد يحيى وزارة التفويض وإطلق يده في كل شيء وحقق نظرية المشاركة الكاملة، وتولى الفضل بن يحيى المشرق كله سنة ١٧٨ هـ (٢) وهو منصب لم يكن يتولاه الا الأمراء . واشترك في حروب الديلم وأطلقت يده كنائب للخليفة قاعدته مرو، أما جعفر ابن يحيى فقد تولى البريد ودور الضرب والطرارز ثم تولى على المغرب كله سنة ١٨٦ هـ (٣) .

وكان يحكم هذه البلاد من بغداد حتى وجه لقمع الفتن في بلاد الشام .

(١) ابن طباطبا : الفخرى : ص ١٧٢ . الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ، ص ٤٨ ، ج ٢ . الجهشيارى ، ص ٨٩ . مروج الذهب ، ص ٢٨٢ .
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٢ — ٨٧ .
(٣) الفخرى : ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وتتحدث المراجع عن النفوذ الذي وصل اليه البرامكة والثروات التي جمعوها والحياة التي عاشوها أقرب الى السلاطين منهم الى الوزراء، والى مدائح الشعراء لهم ووصف حياتهم ولهوهم •

ولم تكن دار البرامكة تقل بهاء عن دار الخلافة نفسها • لقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والاسراف وحب المظهر وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ولم يردوا قاصدا •

قيل ان جعفر بن يحيى البرمكي أنفق على بناء داره عشرين مليون درهم ، غير ما يحتاج اليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وما الى ذلك من أسباب البذخ ، وألوان الترف التي تثير عوامل الغيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم ••

ثم كان وقوع النكبة بالبرامكة ويصورها المؤرخون المعاصرون (١) على هذا النحو « في آخر ليلة من المحرم سنة ١٨٧ هـ بعد أن عاد الرشيد من حجه ، ووصل الأنبار دخل الى فراشه مبكرا على غير عادته ، فلما انصرف جعفر من عنده أرسل وراءه مسرورا كبير خدمه وأمره بضرب عنقه (٢) وقبل أن تنتقضي تلك الليلة أمر الرشيد بمن يقبض على يحيى البرمكي وابنيه وحبسهم وأمر بمصادرة أموال البرامكة وفرق الكتب على الولاة بالأقاليم بذلك وبالقبض على أنصارهم ومواليهم وحذر الناس من ايواء أحد منهم » •

واختلفت آراء المؤرخين في استنباط هذه الأحداث ومعرفة الأسباب الحقيقية التي دفعت بالرشيد الى هذا المسلك ، وبعضهم يلوم الرشيد ويتهمة بالقسوة والعنف وأحيانا بالغدر، وبعضهم ينسب الأمر الى تدخل زوجته زبيدة والفضل بن الربيع والحزب العربي المتطلع الى استعادة النفوذ •

(١) انظر الطبري : ج ١٠ ، ص ٧٩ •

(٢) الطبري : ج ١٠ ، ص ٨٤ •

والبعض الآخر يرى أن ميل البرامكة الى العلويين هذا الذى عجل بوقوع الكارثة ، وبعضهم يأخذ بأسلوب القصاص وينسج الأخيلة حول العباسية أخت الرشيد وولعها بجعفر بن يحيى وما تلا ذلك من غضب الرشيد (١) .

والدكتور حسن إبراهيم له آراء فى تفسير أسباب هذه النكبة ويلخص هذه الآراء على النحو الآتى :

« اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير فى السبب الذى دفع هارون الرشيد الى نكبة البرامكة ، مع أنه شب فى حجر يحيى بن خالد البرمكى حتى يدعوه يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسية ، وبعضهم يقول ان ذلك كان بسبب اطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسـه ، وبعضهم يقول ان استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استئمال الناس اليهم ، وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الايقاع بهم (٢) .

أضف الى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد مما لا تحمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاسة الفضل ابن الربيع بهم عند الرشيد .

كذلك روى الطبرى من الشواهد (٣) ما يدلنا على مبلغ حقـد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم ، حتى أنه أمر غلمانه بالاعراض عنهم والاستهتار بهم اذا دخلوا قصره ، دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد فقام الغلمان اليه ، فقال الرشيد لمسـرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار . قال :

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم : ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٨٠ .

فدخل فلم يقيم اليه أحد ، فأربد لونه • وكان الغلمان والحجاب بعد
إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره
فلا يسقونه ، وبالحرى أن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها
مرارا » (١) •

أضف الى ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في مخاورة الأصمعي للرشيد
والفضل بن يحيى وغيرهم ، وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد
دسوا للمغنين شعرا يثير عامل المنافسة والحقد في نفسه • وكذلك
ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا
على سماعه للخليفة وتحريك حفاظه لهم •

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة الى حوادث ليست
فجائية كالتى تقدمت ، وانما هي أمور جاءت متتابعة : منها أن الرشيد
كان يميل كثيرا الى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت
الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك ، وكان الفضل يظن أن الذى حملها
على ذلك انما هو جعفر البرمكى • فلما ماتت الخيزران ولى الرشيد
الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر •

وأعقب ذلك اطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى
خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث اليه الفضل بن يحيى البرمكى
فى خمسين ألف مقاتل ، فما زال به حتى مال الى الصلح وطلب أمانا
بخط الرشيد ، فكتب اليه الأمان بخطه • وشهد عليه فيه القضاء
والفقهاء وكبار بنى هاشم ، ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة
والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه اذ علم أنه يعمل لخلعه ، واستفتى
الفقهاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ثم سلمه لجعفر بن يحيى
البرمكى فأطلقه •

لذلك لا نعجب اذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ،

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٨٠ .

وساعد على اشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ،
وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة ، اذ كانت تظن أن الرشيد قد عهد
الى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكى • أضف الى ذلك
ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسى كان يدعو
الى نفسه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه ، فغضب الرشيد عليهم
وحبس عبد الملك معهم •

ويتبين من دراسة النصوص أن الرشيد كان يتصرف وفق خطة
مرسومة مبيتة تظهر من مقتل جعفر ومصادرة الأموال والكتابة الى
الأقاليم لضمان ألا يتحرك أنصارهم للعمل • ولا يمكن أن يكون ذلك
مفاجأة على الاطلاق • والسبب الحقيقى هو شعور الخلافة باختلال
التوازن فى قضية المشاركة • وقد أدرك الرشيد اختلال التوازن من
تصرفات يحيى وأولاده ، وهو نفس الحافز الذى دفع المنصور الى
الاحاطة بأبى مسلم ، وهو الذى سيدفع المأمون الى مصرع الفضل
ابن سهل والمعتصم الى قتل الأفشين ، كان هذا تصرف الخلافة للمحافظة
على فعاليتها ولو على حساب أى ولاية أو أية مبادئ •

كان العنصر العربى هنا قوة ترجيح اعتمدت عليها الخلافة
فى أحداث عملية التوازن ، وقد شارك العرب فى الافادة من تغير
الرشيد ، أفاد من ذلك الفضل بن الربيع وزبيدة وأفلح فى تنصيب
الأمين وليا للعهد ، ولا يبعد أن تكون مؤامرات القصر قد أفادت
من هذه التطورات كما أفادت منها جميع العناصر المتطلعة الى مزيد
من السلطة •

الصراع بين الأمين والمأمون :

أورد الطبرى (١) ثروة طائلة من الأخبار وحشدا من الروايات
والوثائق والعهود والمواثيق عن هذا الصدام العام الذى شهدته العصر

(٢) انظر الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٤٢ - ١٦١ •

العباسي الأول ، وبالدراسة الفاحصة لهذه الثروة الطائلة من الأخبار نتبين أن ثمة عوامل كثيرة متشابكة صنعت هذه المأساة • منها ما نسب الى الرشيد من تقديمه الأمين في ولاية العهد عن المأمون واحساسه بالهوة التي تردى فيها دفعه الى الافراط في أخذ العهود والمواثيق حتى لكأنه كان يحس في قرارة نفسه بأن الأخوين سيقتتلان بعد وفاته • ثم فضال العنصر العربي الذي أحرز النصر في مأساة البرامكة وسعيه الى مزيد من كسب ومزيد من تأكيد النفوذ والسلطان • وقد لا يتحقق نفوذه وسلطانه الا في ظل خليفة كالأمين أمة عربية خالصة فألقى الحزب العربي بثقله كله خلف الأمين لأنه اعتقد أنها فرصته الوحيدة بل فرصته الأخيرة • ثم العنصر الخراساني الذي لا يمكن أن يعود الى الظل حتى ولو صرع أبو مسلم بل لابد له أن يعود الى الظهور من جديد جارفا طاغيا لا يقف في سبيله شيء • ولم يكن من المعقول أن يختفى فجأة • ولم يكن من المعقول أيضا أن يستطيع العنصر العربي الضعيف أن يملأ الفراغ الذي تركه اختفاء البرامكة فكان طاهر بن الحسين هو أبو مسلم الجديد ، وكان المأمون هو الامام الذي التفت حوله الخراسانية الجديدة ، كما كان أبو العباس الشعار الذي سارت من خلفه الخراسانية القديمة • ولذلك نستطيع بكل طمأنينة أن نضع هذه المأساة في نفس الاطار الذي وضعنا فيه البرامكة وأحداثهم ومأساتهم • وهو اطار الحكومة الخفيفة على تأكيد سلطانهما والتي استعانت بالعرب لتقضي على البرامكة الفرس واذا بها تواجه تطلع العناصر الايرانية مرة أخرى الى مزيد من السلطان ، وتأكد انتصار المأمون ، هو لقاء على نفس المستوى بين هذه العناصر الجديدة على نحو ما كان اللقاء بين المنصور وبين الرشيد وبين هذه العناصر ، وكيف كان المأمون أشد حرصا على السير في نفس الخط الذي رتبته الخلفاء لأنفسهم منذ قيام الدولة •

وجذور هذا الصراع بين الأمين والمأمون الذي استمر نحو خمس سنوات وتخضب الأرض دما في العراق وخراسان وانتهى بمصرع

خليفة ومصرع نفوذ الحزب العربى ، ترجع الى عهد الرشيد نفسه وتوليته ابنه الأمين العهد وتفضيله على ابنه الأكبر المأمون .

ولنبداً بعرض الوقائع : ولى الرشيد ابنه الأمين العهد عام ١٧٥ هـ (١) وهو العام الذى جعله فيه والى المغرب لما بين ولاية المغرب وولاية العهد من صلة . ولم يكن الأمين يزيد يومئذ على عشر سنين (٢) . ثم ولى الرشيد ابنه المأمون العهد سنة ١٨٣ هـ (٣) وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ولابد أنه ولاء المشرق يومئذ . فلما كان حج سنة ١٨٦ كتب الخليفة على ولى عهده شرطين احتاط فيهما لأحدهما على الآخر وأشهد على تلك الكتب وعلقها بالكعبة (٤) .

ثم أضيف الى شرطى الكعبة عهد آخر كتب فى قرماسين سنة ١٨٦ هـ (٥) ، ثم كتب الرشيد بولاية العهد للأفاق ١٨٦ هـ (٦) وهو التاريخ الذى أصبحت ولاية العهد فيه رسمية فلدينا أربعة نصوص : شرطاً الكعبة وشرط قرماسين والكتاب للأفاق وتتضمن شرطاً على

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٣ . وضم اليه الشام والعراق .

(٢) وفى رواية أخرى خمس سنين : الطبرى ج ١٠ ص ٥٣ .

(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٩ — وولاه من همذان الى آخر المشرق .

(٤) انظر الطبرى : ج ١٠ ص ٥٣ . روى الطبرى أن الرشيد لما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام وكانت نسخة الكتاب .

انظر الطبرى : ج ١٠ ص ٧٣ ، ٨٩ ونسخة الشروط الذى كتبه المأمون بخط يده ، ج ١٠ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ونسخة كتاب هارون الى العمال ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، وكلها وثائق هامة جداً تكشف الخلافة وسياستها واتجاهاتها .

(٥) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٩٦ .

« ان جميع ما له فى عسكره ذلك من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وما سوى ذلك لعبد الله المأمون وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير وجدد البيعة له على من كان معه ووجه هرثمة بن أعين صاحب حرسه الى بغداد فأعاد البيعة على محمد بن هارون وعلى من بحضرته لعبد الله والقاسم » .

(٦) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

عبد الله المأمون كتبه المأمون بصيغة المتكلم يتعهد عن نفسه قبل الخليفة وقبل الناس بما فيه ، وشرطا مكتوبا على محمد الأمين كتبه الأمين بصيغة المتكلم يتعهد عن نفسه قبل الخليفة وقبل الناس بما فيه .

وكانت التزامات محمد كما يلي « ... أمير المؤمنين ولاني العهد ... وولى عبد الله ... بعدى ... وولاه خراسان وثغورها وكورها وحزبها وجندها وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصداقاتها وعشورها وجميع أعمالها في حياته وبعد — وتعهد من الأمين على تسليم ذلك له وتسليم ما أقطعه أمير المؤمنين للمأمون من قطيعة أو جعل له من عقدة أو صنيعة ، وتسليم ما ابتاع المأمون لنفسه من الضياع والعقد أو ما أعطاه أبوه من مال أو حلى أو كسوة أو منزل أو دواب » .

أما شرط المأمون فهو يذكر أن « أمير المؤمنين ولاني بعد أخى ، ولاني في حياته (أى حياة الرئيد) ثغور خراسان ، وبعد مماته على أن لا يعرض لى الأمين فى شىء مما أقطعتنى أمير المؤمنين وما أعطانى ، وعلى أن لا يعرض لأحد من عمالى بسبب محاسبة ، ولا يدخل على ولا عليهم مكروها فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بشر ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير .

وعلى أنا أن أنفذ كتبه وأحسن مؤازرته وجهاد عديوه من ناحيتى ، فان احتاج محمد منى الى جند فعلى أن أنفذ أمره ولا أخالفه ولا أقصر فى شىء كتب به » .

هذه هى الشروط المكتوبة بين الأخوين . ولكن تنفيذها السليم لا يكون بطبيعة الحال الا على أساس التفاهم وحسن الصلة بين الأخوين .

وقد كان ما بينهما متباعدة فى حياة أبيهما فلما مات لم يرد أحدهما الآخر ، أما المأمون فقصد ولايته ولم يبرحها ، أما الأمين فكان يخشى عاقبة هذا الاعتكاف عنه .

وكان طبيعيا أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر .
أما المأمون فيجب أن يسوء ظنه اذا نزل الى سوابق ولى العهد
الثانى ، أما الأمين فلأن أخاه معتكف ولأنه قد يجعل من خراسان قاعدة
هامة للخلع ، فهو يخافه (١) .

وكان طبيعيا أن تسوء الظنون لأن طبيعة الاستئثار بالملك تحفز
الأمين على اليقظة لكل حركات أخيه وتأويلها . أما وقد قسم الأب
البلاد قسمة فانه قد غرس غرسا كريها ، لأن ولاية الخليفة عامة .

وقد طلب الأمين من أخيه طلبات كلها من حقه فكان الرد
الاعتذار دائما (٢) .

سحب الأمين الجيش الذى كان بطوس حيث مات الرشيد وكان
الرشيد ينوى ضمه للمأمون ، وعهد بتنفيذ هذا السحب لبعض خواصه
فى نفس اليوم الذى مات فيه أبوه . وليس ذلك مخالفا للشرط فقد
شرط المأمون على نفسه فقال : فان احتاج محمد الى جند ...
فعلى أن أنفذ أمره . وقد مر الحادث بسلام ، وكانت كتب المأمون
للأمين فى هذا الظرف بالذات لطيفة .

ثم استقدم الأمين المأمون (٣) فاعتذر بضرورة البقاء ثم احتج
فقال « وقد أمرنى الرشيد بلزوم الثغر » . كما طلب المأمون من
الأمين حرمه وأهله ومائة ألف دينار أوصى له بها أبوه من بيت المال
فرفض الأمين .

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٢٨ .

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٢٥ .

(٣) الم تكن محاولة استقدام الأمين أخاه من مرو شبيهة باستقدام

أبى مسلم من قبل .

وهنا طلب الأمين من المأمون التنازل عن قسم مضموم لخراسان ضما مؤقتا وارجاعه الى ما كان عليه (١) وهو طلب مخالف لظاهر الشرط . ولكنه طلب من حق الأمين صاحب السلطان . وقد تلطف الأمين في صيغة الطلب فطلب « الصفح » أو « التجافي » عن بعض الكور، وعلى ذلك يُقال « ان أمير المؤمنين وان كان أفردك بالطرف وضم اليك من كور الجبل . فان ذلك لا يوجب لك فضلا من المال . . . وقد كان هذا الطرف كافيا لأمره ، وقد ضم اليك الى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك بها ، فالحق أن تكون مردودة في أهلها » (٢) .

وكان الأمين جادا في التهديد ، فما كاد يصله الرفض حتى أمر بالامساك عن الدعاء للمأمون على المنابر في كل الآفاق (٣) . وأمر الأمين بإبطال عملة كان المأمون ضربها في خراسان سنة ١٩٤ هـ ولم يذكر عليها اسم الأمين ، وأمر الأمين بإسقاط اسم المأمون من الطرز (٤) .

وبعث الأمين حاجبا وسأله التلطف في أخذ الكتابين المعلقين بالكعبة فسرقهما وجاء بهما فحرقهما .

كما أمر قائده على بن عيسى بالسير الى خراسان على أن يكون واليها من تحت يد موسى وركب الأمين مع قائده حين خروجه فجعل يوصيه ويقول : « أكرم من هناك من قواد خراسان ، وضع عن أهل خراسان نصف الخراج (٥) ، ولا تبق على أحد يشهر عليك سيفاً أو يرمى عسكريك بسهم ، ولا تدع عبد الله يقيم الا ثلاثا من يوم أن تصل اليه حتى تشخصه الى ما قبلي » .

-
- (١) الطبري : ج ١٠ ، ص ١٣٢ .
 - (٢) الطبري : ج ١٠ ، ص ١٣٣ .
 - (٣) الطبري : ج ١٠ ، ص ١٣٦ .
 - (٤) الطبري : ج ١٠ ، ص ١٣٨ .
 - (٥) الطبري : ج ١٠ ، ص ١٣٩ .

ومن هذا البيان نتبين الخطوات التي اتخذها المأمون ،
أما الضرب الذي أهمل فيه ذكر الأمين فمعروف التاريخ يرجع الى
قبل بعث الجند بسنة ، أما قطع البريد واسقاط اسم الأمين من الضرب
ودعاء المأمون لنفسه فحادثة محدودة التاريخ والراجح أنها
وقعت سنة ١٩٥ هـ فقط . ولعل المأمون لم يتسم بأمر المؤمنين الا بعد
هزيمة جيش شيخ الدولة على بن عيسى بن ماهان .
أما تفاصيل الصراع فهي على النحو الآتي :

كان الأمين هو الباديء بالعدوان فقد سير قائده على بن عيسى
الى خراسان لاغتصابها من المأمون وجند فيه طاقته كلها وقوته
كلها ، واشتركت فيها عناصر عربية قوية وهو أشبه بالجيش الذي
جنده مروان بن محمد بقيادة ابن هبيرة لقتال جيش قحطبة بن شبيب
الزاحف على العراق في فجر الثورة ، ثم تصدى له الخراسانيون كما
تصدوا بالأمس . وما أقرب الشبه بين أبي مسلم وظاهر بن الحسين .
وكانت هزيمة هذا الجيش قاصمة بالنسبة للحزب العربي وانتصرت
الخراسانية مرة أخرى . في شوال سنة ٢٩٥ هـ (١) .

وتحول فيها المنتصر الى الهجوم والتقدم في المنطقة التي أمامه
وهي منطقة الجبل وحصونها همدان وحلوان وغيرها ، وتذكرنا بزحفة
قحطبة بن شبيب بالأمس عام ١٣٣ هـ وهو التحول الى الهجوم عبر
منطقة الجبال ، وانهزمت الجيوش العراقية وتقدم ظاهر على أثر
انتصاره نحو قرية من قرى حلوان تسمى شلالان وصار بازاء حلوان
الباب الوحيد الباقي لحماية العراق .

ثم انتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان الى الدفاع
عن مداخل العراق من ناحية الجبل ، وفي سبيل هذا الدفاع بذلت
الخلافة آخر جهدها تقريبا فجندت ٢٠ ألفا من العرب ومثلهم من

(١) الدليري : ج ١٠ ، ص ١٤٣ .

الأبناء واتجهت (١) الى تجنيد عرب الشام أيضا • وكان ذلك اتجاهها جديدا فقد كانت أكثرية الجيش قبل هذه الجولة من الأبناء وكان ذلك خطة أفقدت الجيش انسجامه •

أما الأبناء فقد ولى أمرهم عبد الله بن حميد بن قحطبة وهو من بيت له ماضى حربى • وولى أمر العرب أسد بن يزيد بن مزيد الشيبانى ، اختاره الفضل بن الربيع وقال له : انما نحن شعب من أصل ان قوى قوينا •• ان هذا (يريد الأمين) قد ألقى بيده القاء الأمة ••• وأنت فارس العرب (٢) •

وحاول الأمين أن يبذل جهدا لصد هذا الجيش عن العراق فهزمت جيوشه الثلاثة ، وكانت الجولة الأخيرة حصار بغداد ثم مصرع الأمين فى ٣٥ المحرم سنة ١٩٨ •

كان الخراسانية جند الدولة الذين دخلوا العراق عام ١٣٢ هـ لانتهاء الحكم الأموى ، فاذا بهم اليوم جند المأمون الذين دخلوا بغداد ليقتلوا خليفة وليضعوا حدا للنفوذ العربى الذى برز فى سماء بغداد منذ عهد الرشيد حتى مصرع الأمين • فليس عجيبا أن تحقق الخراسانية أطماعها وأن تطلق يد طاهر بن الحسين فى خراسان . طاهر بن الحسين (٣) الذى نسميه بحق أبا مسلم الجديد •

بنو سهل :

وتكرار ظاهرة التحول البيروقراطى فى عهد المأمون يعد نكبة البرامكة وتصفية مشكلة الأمين يدل على أنها لم تكن مجرد فقاعة من فقاعات السطح تظهر ثم تنفجر انما يدل على ظاهرة تنبع من داخل

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٦٠ .

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ ثم تولى بمسند أحمد بن زيد .

(٣) سماء المأمون ذا اليمين وصاحب جبل الدين : الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

المجتمع العباسي ومن واقع العناصر الايرانية الصاعدة نحو النفوذ ، فقد عمل **بنو سهل** في عهد المأمون ما فعله البرامكة في عهد الرشيد .

ذلك أن الفضل بن سهل (١) تقرب من المأمون بمثل ما تقرب به الرشيد من يحيى بن خالد ، فقد كان كاتب المأمون ولي العهد وألصق الناس به ، بل كان يدبر ليضمن للمأمون حقه ويحميه ، فقد أشار عليه بالذهاب الى خراسان ليلتمس فيها الأنصار وليبعد عن سطوة الأمين وحزبه .

ولما رأى الهوة تتسع بين الأمين والمأمون أعده للمستقبل ومهد له الطريق الى الخلافة ولعب دورا في تكتيل الخراسانية خلف قضية المأمون ، وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه وكانوا يقولون : ابن أختنا وابن عم رسول الله (٢) . وقد شجعه على الصمود في وجه قوات علي بن عيسى الزاحفة الى خراسان ، ولعب دورا كبيرا في ترجيح كفته . وكان من الجهود التي بذلها حسن اختيار القواد وحسن اعداد الجيش بما يلزمه .

ولما آلت الخلافة الى المأمون واستقر به الأمر في بغداد وفي للفضل كما وفي الرشيد ليحيى بن خالد فقد ولاه وزارة التفويض وأمر بأن يخطب له بعده وولاه المشرق كما تولى الفضل بن يحيى من قبل ورث له أجرا قدره ثلاثة ملايين من الدراهم في السنة (٣) .

ولقبه ذا الرياستين ، رئاسة الحرب ورئاسة التدبير ، ومنحه لقب الامارة فكان أول وزير يجمع اللقبين ، وكتب له توقيعا يدل على مدى تعظيمه له واعترافه بفضله . أما الحسن أخوه فقد تولى كور الجبال

(١) في رجب سنة ١٩٦ عقد له المأمون على المشرق من جبل همدان الى جبل سقينان والتت طولا ومن بحر فارس والهند الى بحر الديلم ، حار عرضا وجعل له عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين واعطاه علما وسماه ذا الرياستين . الطبري ، ج ١٠ ، ص ١١٦ . الجهشياري : ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) الجهشياري : ص ٢٧٩ .

(٣) الجهشياري : ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

والعراق والحجاز واليمن (١) • وبلغ من تأثير بنى سهل على المأمون أن الفضل أغراه بتولية على بن عيسى الرضا العهد من بعده وأراد تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين •

ويبدو أن عقدة الظهور التي وجهت البرامكة كانت من وراء بنى سهل توجههم الى نفس المصير ، فقد أخذ الفضل يمكن لنفسه في خراسان ليعيد دور أبى مسلم القديم ، بل حاول أن ييسط نفوذه على بغداد نفسها ويسعى للوقية بظاهر بن الحسين وهرثمة رجلى المأمون (٢) ، بل أراد أن يطيح بالخلافة العباسية نفسها ، وقد ذكر الجهشيارى على لسان نعيم بن خازم قوله للفضل « انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا (٣) » •

وقد أحست الخلافة بالخطر وانقلاب التوازن وخافت ضياع هيئتها وفعاليتها ، كما تحركت من قبل في عهد المنصور والرشيد • وقد سار المأمون من مرو ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الراكب يسير حتى وصل سرخس فحط الراكب رحاله وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام في شعبان سنة ٢٠٢ هـ (٤) •

وهكذا كانت الخلافة في العصر العباسى الأول تستفيد من العناصر الإيرانية ، وتطلق لها من السلطان السياسى ما لا يخل بمبدأ التوازن ، فاذا أحسرت بالاخلال بادرت الى الفتك والتكيل ، وسيظل هذا دأبها حتى اذا كان العصر العباسى الثانى وفقدت الخلافة قدراتها وفعاليتها لم تستطع أن تقيم التوازن فاختل ، وكان اختلاله في ثوب الحركات الاستقلالية التي ملأت سماء العصر العباسى الثانى •

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٦١ •
(٢) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٦٣ •
(٣) الجهشيارى : ص ٣١٣ •
(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٥٠ •

الفصل الثاني

الخلافة ونظم الدولة

١ - الخلافة :

هذا الموضوع سنحكم فيه بنفس المقياس الذى سنحكمه فى دراسة موضوعات العصر العباسى كله ، وهو الثورة وفعالية شعاراتها ومدى تطبيق هذه الشعارات ، هل أدت ظروف الثورة العباسية والنجاح الذى ظفرت به الى تغيير فى نظام الخلافة كما عرفت الحياة الاسلامية منذ أبى بكر الصديق حتى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ؟ والاجابة عن هذا السؤال تقتضى أن نعقد مقارنة موضوعية بين روح هذا النظام فى السابق وفى العصر العباسى لنلتبس ظروف التغيير ومظاهره ، وقد يلزم أن نعرض للمصادر التى نستقى منها المادة التى تمكنا من الادلاء برأى فى الموضوع .

من هذه المصادر ما يعطينا الجانب النظرى للموضوع ، ومنها ما يعطينا الجانب العملى أو التطبيقى . الجانب النظرى من الموضوع تعرض له كتب الفقه فى الباب الذى تفرد له لنظام الخلافة ، وتعرض فيه للأصول الدستورية والادارية والحربية والقضائية (١) .

أما الجانب التطبيقى فيظهر من دراسة سير الخلفاء العباسيين كما وردت فى كتب التاريخ ، أو القيام بدراسة فاحصة للرسائل العباسية وخصوصا رسائل الخميس أو رسائل التقريض (٢) .

(١) انظر : الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب . قدامة : نبذ من كتاب الخراج . وصنعة الكتابة . الماوردى : الأحكام السلطانية . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة . Arnold; The Caliphate.

(٢) أحمد زكى صفوت : رسائل العرب ، ج ٣ و ٤ .

فمما الذى يمكن أن نتبينه من هذه المصادر بنوعيتها ، ما هى الاتجاهات الجديدة وما هو مدى التغير وفعاليتها ؟

كانت الخلافة المركزية هى الشكل المثالى الذى^١ آثره الفقهاء وتمسكوا به فى كتب الفقه التى تتعرض لأصول الحكم ، فقد ظل الفقهاء برغم تطور الأصول الدستورية يعتبرون الخلافة المركزية هى الشكل الشرعى الذى اكتسب صفته القانونية من الاجماع ، بمعنى أن فكرة الخلافة المركزية فكرة أنشأها اجماع الراشدين فى جيل الصحابة الأوائل ، واكتسبت لذلك صفة القاعدة الدستورية الثابتة (١) ، فالى أى حد حافظ العباسيون على هذا الشكل المثالى للخلافة ؟

ولا نستطيع أن نتخذ عصر السفاح قاعدة لأنه كان عصر تصفية وتثبيت لأهداف الثورة ، كما أنه لم ينفرد بسلطة ، إنما أشرك بنى العباس كلهم باعتبار أن القضية هى قضية مصير بالنسبة لهم •

والمنصور هو الذى حاول بكل ما استطاع من قوة وجهد أن يحقق النمط التقليدى للخلافة القسوية القادرة المسيطرة • ولعله من هذه الوجهة يمكن أن يسمى بالمؤسس الحقيقى للدولة العباسية • فقد تصدى لمشاكل كثيرة وقف فى وجهها دون خوف وتغلب عليها جميعا ، ووضع الأساس الحقيقى للنظام العباسى • كما أن خلفاءه من بعده ظلوا حريصين على هيئة الخلافة التى حققها المنصور ، وأخص بالذكر المهدي والهادي وصدر عصر الرشيد •

وجهاد المنصور فى تحقيق الشكل التقليدى للخلافة الاسلامية يستحق التنويه والتوضيح • وأول ما واجهه المنصور هو التصددع

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ٨ — ١٢ — ٤ — ٦ — ١٣ — ٢٠ •

ابن حزم : الفصل ج ٤ ، ص ١٦٣ — ١٧١ • الشهرستانى : ج ١ ، ص ٢٠ — ٣١ •

مقدمة ابن خلدون ، ص ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٤٦٥ • انظر ١ كتابه متز وجولدشمير وارنولد وحسن ابراهيم •

في البيت الخلافي نفسه ، وطمع بعض الأعمام وأبناء العمومة في الخلافة ، وخصوصا بعد أخذ البيعة للمنصور ، فقد خرج عبد الله ابن علي في مطلع عهد المنصور ، وقد هزمه أبو مسلم الخراساني بعد حرب ظلت خمسة شهور ، وقد هرب ولجأ الى البصرة حيث أخواه سليمان وعيسى • وكان المنصور في هذه المواجهة بعيد الغور شديد الدماء ، فقد كتب أمانا لعبد الله بن علي (١) واشترط أن يسلمه عهد الأمان بنفسه ، وقد جاءه سليمان وعيسى ومعهما عبد الله وظل في محبسه حتى عام ١٤٧ هـ ، ثم قتله ولم يغنه عن مصيره ذلك حسبه أو نسبه أو قرابته ، أو جهوده في تكوين الدولة ولا وقوفه في وجه مروان بن محمد (٢) ، وما زال بعيسى بن موسى حتى جملة علي أن يقر بيعة المهدي بالخلافة بعد المنصور ، فقد ألزم عيسى أن يواجه الناس في المسجد الجامع ومعه الوزير ليعلن بنفسه على الناس « أني قد سلمت ولاية العهد للمهدي وقدمته على نفسي » • ولكن الوزير لم يكتف بذلك فقال « ليس هكذا أيها الأمير ، ولكن قل : لحقه وصدقته ، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت » فقال عيسى بعد هذا : نعم قد بعت نصيبي عن تقديمي في ولاية عمه عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم بطيب نفس مني ورغبتني في تصييرها اليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها وأحق وأقوم بها وأقوى على القيام بها مني (٣) •

وقضى المنصور على الحركات التي ظهرت بعد مصرع أبي مسلم وأقر السلام في فارس وخراسان ، كما واجه الثورات العلوية التي قامت في عهده وخصوصا ثورة محمد النفس الزكية في عام ١٤٠ (٤) ، وقد أعد المنصور لمحاربته جيشا بقيادة عيسى بن موسى فقضى على

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ١٠٣ — ١٠٤ •

(٢) الطبري : ج ٩ ، ص ٢٦٥ •

(٣) الجهشيارى : ص ١٢٧ •

(٤) الطبري : ج ٩ ، ص ٨١ — ١٨٧ •

هذه الثورة وأطفأ نارها • وكان إبراهيم (١) أخو النفس الزكية قد دعا لنفسه بالبصرة منتهزا فرصة اشتغال المنصور بحرب أخيه ، وقد بعث إليه عيسى بن موسى ففسار إليه وهزم جيشه وقتله قبل نهاية ذي القعدة من العام الذي قتل فيه أخوه (٢) •

وكما حرصت الدولة على تأكيد سلطان الخلافة في بغداد والعراق ، فإنها كانت حريصة أيضا على تحقيق النمط المركزي فيما يتعلق بالولايات الخاضعة لسلطانها ، فكانت الدولة العباسية حريصة على مصر حرص الأمويين عليها • وكانت لا تزال تعتبر قاعدة الاسكندرية من أهم القواعد لتثبيت سيادتها في البحر الأبيض المتوسط • ولم تهن أو تضعف في المحافظة على نفوذها في البلاد • فقد بدأت الخلافة تواجه المتاعب في مصر في ولاية موسى بن مصعب الخثعمي الذي ولى في ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ ، وبدأت نذر الثورة بين أهل الحوف ، وتحالفت القيسية واليمانية واتفقوا مع أهل الفسطاط ، وخرج موسى في جند الفسطاط ونشبت الحرب مع القيسية واليمانية ، كما عقد لعبد الرحمن بن موسى في خمسة آلاف من أهل الديوان وبعثه الى الصعيد لقتال دحية بن مصعب ، ثم تولى الفضل ابن صالح بن علي العباسي في المحرم سنة ١٦٨ وكان عليه أن يواجه الفتن التي اشتعلت في كل مكان ، ودخل مصر في المحرم سنة ١٦٩ ومعه عسكر عظيم جاء بهم من الشام من أهل قنسرين وممص ودمشق والأردن وفلسطين • فكانت الدولة العباسية في الحقيقة تؤكد سلطانها المركزي وتظهر قدرتها على مواجهة الأحداث •

وبنفس الاصرار واجه العباسيون مشاكل المغرب العربي ولم تدخر الدولة وسعا في تأكيد سلطانها مهما تكلفت من تضحيات ، فاستخدمت الحملات البحرية وبعثت المثنى بن زياد الخثعمي في شوال

(١) الطبري: ج ٩ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ •
(٢) اليعقوبي: ج ٢ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ •

سنة ١٣٦ الى الاسكندرية ليتوجه بالأسطول الى طرابلس ، وليقتحم به معركة تثبت السيادة في تلك النواحي ، ثم ولى أبو عون عبد الملك ابن يزيد جيوش المغرب لأن العلاقة كانت قد فطرت بين الخلافة وبين عبد الرحمن بن حبيب وذلك قبل سنة ١٣٥ ، وساءت العلاقات الى حد القطيعة بعد خلافة المنصور سنة ١٣٧ ، فقد اكتفى ابن حبيب باعلان الولاء الشكلى للخليفة العباسى وامتنع عن ارسال الأموال السنوية اليه . وكانت هنالك أسباب أخرى تبعث على شك العباسيين في اخلاص عبد الرحمن منذ البداية ، وهى موقف السفاح من قبل من تسير الجيوش من مصر الى المغرب ، فقد استقبل عبد الرحمن بن حبيب الأمراء الأمويين استقبالا طيبا وأنزلهم في كنفه^(١) ولكن المنصور لم يرض بذلك الخضوع الاسمى ، فما بالك وقد تجرأ عبد الرحمن بن حبيب وقطع الخطبة للمنصور ونزع شعار الدولة العباسية وأمر بتمزيقه واحرقه^(٢) . هكذا واجهت الدولة العباسية المقدمات الأولى لفقد نفوذها في المغرب بانقطاع المغرب الأقصى عن الخلافة بأثر ثورات الصفرية واستقلال عبد الرحمن بن حبيب بافريقية . وبانتزاع القيروان حقق صفرية نقراوة سنة ١٤٠ ما كان يهدف اليه اخوانهم صفرية طنجة والمغرب الأقصى سنة ١٢٢ .

كما أن هؤلاء الآخرين أضافوا الى ذلك نجاحا آخر اذ ذاك فأنشأوا مدينة سجلماسة سنة ١٤١ هـ ، وبذلك انقطع المغرب الأقصى عن الخلافة تماما وخلص للخوارج ، ويبدو أن مشاكل المشرق من ثورة عبد الله بن على ، والتخلص من أبى مسلم استغرقت كل هم الخليفة المنصور فلم يرد بسرعة على عصيان عبد الرحمن بن حبيب ، أو يمد يد المعونة لأنصار العباسيين في افريقية . ولم يستجب علماء القيروان^(٣) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥٠ .
(٢) ابن عذاري : ج ١ ، ص ٦٧ .
(٣) المسالك : رياض النفوس ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

وبدأت الدولة العباسية تواجه الموقف حين تولى مصر القائد المشهور محمد بن الأشعث ، اذ سير قواته الموجودة في برقة بقيادة العوام بن عبد العزيز ، وبعث بقائد آخر سنة ١٤٢ هـ لقتال أبي الخطاب عبد الأعلى بن الشيخ الابطاحي ، ونشبت معركة حامية هزم العباسيون فيها (١) . فلم يجد المنصور بدا من أن يعهد الى ابن الأشعث بنفسه بولاية افريقية ، وأرسل اليه الجيوش وأمره بالمسير بسرعة ، وخرج ابن الأشعث في أربعين ألف رجل معهم ثلاثون ألفا من جند خراسان وعشرة آلاف من جند الشام ، ومن قواده الأغلب بن سالم التميمي ، والتقى بالابطاحية سنة ١٤٤ هـ ، فهزموا وقتل أبو الخطاب ، وثار زنانة فهزمها ابن الأشعث في نفس السنة . ودخل القيروان في جمادى الأولى سنة ١٤٤ هـ . وبذلك استعادت الخلافة بلاد افريقية .

ولكن هذا النفوذ لم يتجاوز حدود القيروان اذ ظل مذهب الخوارج متغلغلا بين قبائل البربر من طرابلس الى تامسنا في المغرب الأقصى . وأصبحت القيروان محاطة بالعداوات السياسية والمذهبية ، وحصنت أسوار المدينة ونجح ابن الأشعث في تأكيد سلطان الخلافة ، وأخضع كل خصومه من البربر ، ولكنه انهيار فجأة سنة ١٤٨ هـ بسبب ثورات جند الخلافة . فولى المنصور الأغلب بن سالم التميمي والي الزاب في نفس السنة ، ونجح الأغلب في السيطرة على الجند . ولكن ثار الخوارج مرة أخرى بعد مقتله سنة ١٥٠ هـ .

ووضح اصرار المنصور على تأكيد سلطان الخلافة في اختياره أبا جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة من أسرة المهلب الذي دخل القيروان سنة ١٥١ هـ ، واستقامت له الأمور أكثر من ثلاث سنوات ، ثم بعثت الخلافة يزيدا بن حاتم المهلبى الى القيروان ، ولم تكن شدة الثورات التي وقعت في افريقية في ذلك الوقت لتجعل الخليفة المنصور يتخلى عن مشروعاته ، بل كانت مدعاة لأن يتشبت بها .

(١) الكندى : الولاة ، ص ١٠٩ .

وعرف كيف يواجه الثورات بالحديد والنار ، وذلك باختياره يزيدا ابن حاتم ، الذى تولى مصر أولا ثم سيره المنصور الى المغرب فى جيش كثيف سنة ١٥٥ هـ .

وقد انتصر يزيد على قوات أبى حاتم الاباضى ، ثم بدأ يعمل على تهدئة الأمور واستمر فى القضاء على البقايا الباقية من الثورات دون اين أو هواده ، وترتب على استتباب الأمن والسلام فى البلاد أن تهيأت الظروف ليزيد بن حاتم للقيام بالأعمال الانشائية فى البلاد ونشر العمران فيها واستمرت ولايته خمسة عشر عاما منذ ولاء المنصور ، واستمر يحكم افريقية طوال عهدى المهدي والهادى الى أن توفي عام ١٧٠ هـ .

واذا كانت الخلافة العباسية فى نضالها من أجل المركزية لم تستطع أن تجاوز بنفوذها افريقية صوب الغرب ، فانها لم تستسلم للتطورات التى أظلت بلاد الأندلس منذ عام ١٣٨ هـ . وكانت الخلافة شديدة الحرص على أن تؤكد سلطانها على الأندلس ، فلم ينظر العباسيون الى جهود عبد الرحمن الداخل فى تثبيت سلطانه نظرية الرضا والارتياح . وكان عليهم أن يعملوا على تحقيق مشروعاتهم قبل أن يفرغ الداخل من تأكيد سلطانه والقضاء على الفتن والثورات الداخلية ، لذلك حالفوا اليمانية فى الأندلس . ذلك أن اليمانية ظنوا أن تأييدهم للأمير الداخل قد يبعث لهم مجدهم القديم وامتيازاتهم القديمة ، فلما خاب ظنهم وقفوا فى وجهه وثاروا . فلما بعث المنصور العلاء بن مغيث الحضرمى وولاه أمر الأندلس سنة ١٤٦ ، وعبر البحر من المغرب الى الأندلس انضم اليه أعداء عبد الرحمن جميعهم ، وكان اليمانيون أشد الناس تأييدا له . ويبدو أن الثورة اليمانية العباسية أحرزت نجاحا أول الأمر ، فقد استطاع العلاء بن مغيث أن يحاصر عبد الرحمن شهورا فى منطقة باجة فى غرب الأندلس ، غير أن عبد الرحمن حطم حلقات الحصار وهزم أنصار العباسيين هزيمة كبرى ، كما قضى على من انضم اليهم من

أهل اليمن • وأشعل اليمانيون نار الثورة مرة أخرى مستترين خلف محاولة عباسية تزعمها أحد أعمام السفاح فلم يظفروا بطائل وظل عبد الرحمن يتعقب اليمانية بالحرب حتى قضى على ثورتهم نهائياً •

والخلافة إذا كانت حريصة على تأكيد سلطانها في الحاضرة والقضاء على الثوار والمطالبين بالحكم • إلا أن محاولاتها في المغرب الأوسط والأقصى باءت جميعها بالفشل الذريع •

والسبب في هذا أن الاصطدام كان بقوة لم يكن يحسب لها حساب من قبل ، إنما يجب أن يحسب لها حساب من بعد ، وهى الإقليمية الجديدة النامية في الأمصار ، التى باتت تهدد بانقسامات خطيرة ، وتبين أن الخلافة العباسية إذا جمدت أمام الشكل القديم ضعفت وتلاشت وانتهت ، إذ كان لابد أن تعترف بالإقليمية النامية وأن تقيم نوعاً من التعاون بين القوتين •

وقد حاولت الخلافة العباسية أن تعدل النمط القديم بارادتها • ومن قبيل هذه المحاولات ما كان من إيجاد منصب نائب الخليفة وقسمه العالم الإسلامى إلى مشرق ومغرب • كان القسم الشرقى عاصمته مرو في خراسان ، وكان القسم الغربى عاصمته دمشق أحياناً أو العسكر في مصر أحياناً أخرى ، وابتدأ العرف يجرى بعد ذلك بجواز قيام سلطان آخر أو أكثر من سلطان إلى جانب الخلافة على أساس أن يعتبر مستمداً سلطانه من الخلافة •

وظلت الصفة الفيدرالية تزداد وتنمو في العصر العباسى الأول وفي العصور العباسية التالية كذلك • وقد رأينا كيف أن بلاد الأندلس قد انفصلت منذ أن دخلها عبد الرحمن الداخل ، واستبد الأمويون هناك بتدبير أمور بلادهم بأنفسهم دون أن يكون للخليفة العباسى البغدادى أى سلطان على بلاد الأندلس ، ومع ذلك لم تتخذ الأسرة الأموية بالأندلس لقب الخلافة ، بل تسمى أمراؤها باسم أبناء

الخلائف ، وتخرجوا من أن يحملوا لقب الخلافة ايماناً منهم بفكرة الخلافة الموحدة القائمة على التصديق العام بحسب التقاليد الاسلامية الأولى ، فلما تغيرت الظروف في القرن الرابع الهجرى حملوا هذا اللقب .

وحالة أخرى تدل على قيام الروح الاقليمية تحت ستار المذهب وهي حالة الدولة الادريسية التي قامت عام ١٧٠ هـ ، وهي دولة شيعية زيدية أسست مدينة فاس ، وجعلت منها مركزاً قوياً يعادل القيروان في نشر الثقافة العربية وأصول حضارتها ، وتعاونت هذه الدولة الادريسية مع جماعات المعتزلة الواصلية التي أنشأتها الدعوة الواصلية ، فاجتمع بالمغرب الأقصى نسب الأدارسة وعلم الواصلية ، وأدى ذلك الى نشاط سريع في الاتجاه الحضارى العربى .

ثم أقرت الخلافة العباسية في نهاية المطاف تلك النزعة الاقليمية ، وأدركت فوائدها ، فأقامت بنفسها في اقليم القيروان دولة الأغلبية ملكى تحمل عنها هذه الدولة أعباء المغرب .

وقد سرت نفس الروح أيضاً في المشرق الاسلامى كله بعد نجاح الثورة الخراسانية ، وشعر الخلفاء بذاتية خراسان فقد جعل الخليفة المنصور ابنه المهدي قائداً للجند الخراسانى وبنى له الرصافة (بغداد الشرقية على دجلة) .

ثم تبلور هذا الاتجاه عندما جعل الرشيد المشرق الخراسانى كله لابنه المأمون والمغرب الشامى المصرى لابنه الأمين ، فكان هذا نوعاً من التقسيم يراد به ارضاء الروح الاقليمية مع ربطها بالمركز عن طريق ولادة العهود .

ثم وصلت الروح الاقليمية الى أقصى مداها (المعروف في العصر العباسى الأول) بقيام الدولة الطاهرية ، وهي دولة أقامها المأمون

بنفسه وجعل رياستها لقائد من كبار قواده هو طاهر بن الحسين ، وهو فارسي مستعرب مشهور بالبلاغة (١) .

ثم أصبحت هذه الدول الاقليمية في المشرق والمغرب الاسلاميين نماذج لدول اقليمية كثيرة ظهرت في العصور التالية ، وأصبح النظام الاقليمي هو القاعدة .

اذن اتجه العباسيون بعد تجارب مريرة الى النظام الاتحادي أو الفدرالي في الحكم ، وراضوا بمجرد الإشراف والتوجيه ، وكان هذا منهم مساهمة للظروف لتعيش الدولة العباسية ويستمر لها السلطان . وكانت نزعة توفيقية تدل على الحنكة والبراعة .

واستمرت هذه السياسة متماسكة في عهد فعالية الخلافة وقوتها طوال العصر العباسي الأول ، ولكنه في عهد ضعف الخلافة ووهنها ستتحول الى حركة استقلالية كبرى منتشرة في العالم الاسلامي كله في العصر العباسي الثاني ، وتتحول الخلافة الى مجرد ظل ، وقبـد عاشت ظلا حتى زالت سنة ٦٥٦ هـ .

وقد استجابت الخلافة للظروف الجديدة في ناحية أخرى وهي جمعها بين الخلافة والامامة ، فقد تحول الامام الداعية الى خليفة يحكم ، ولم يكن طبيعيا أن يقطع الخلفاء الأوائل صلاتهم بتنظيمات الدعوة وجماهيرها (٢) وفعلوا ظل الحكم في العصر العباسي الأول يعتمد على التنظيمات الأولى . التي نجحت خلال الدعوة السابقة وأثمرت ، ويسدل على هذا رسائل الخميس (٣) التي استمرت حتى عصر

(١) انظر عن طاهر بن الحسين وابنه عبد الله . جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ صفحة ٤٨٥ — ٤٩٧ .

(٢) للدراسة التفصيلية لهذا الموضوع اليان تدرس جمهرة رسائل العرب . الأستاذ أحمد زكي صفوت ، ج ٣ ، ص ١ — ٥٦٠ .

(٣) انظر مثلا : رسالة الخميس لأحمد بن يوسف — جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

المتوكل ، وكانت التعليمات ترسل الى المريدين من مختلف الأقطار ، للاحتفاظ بتشكيل الدعاة والنقباء والعمال •

كانت العلاقة كأقوى ما تكون بين الخلافة وبين جماهير الدعوة ، ولعل هذا هو الذى أكسب النظام السياسى الصلابة والقوة ، ولعل هذا يفسر ما قام به أنصار الخلافة من تبرير لأعمالهم فى رسائل التقريظ التى تدور حول نظرية عصمة الأئمة التى تبلورت فى العصر الفاطمى •

يتجلى هذا على الخصوص فى الرسائل التى تسمى رسائل التقريظ ولدينا رسالة منها وجهها يحيى بن زياد الحارثى الى الرشيد (١) وهو يعتبر أن مناصرة الرشيد والوفاء له ضد أعدائه « فريضة أوجبها الله على العباد » أو أمر من أولى الأمر وأحسنها مغبة فى الدنيا والدين « أو أن الوفى هو الناجى » الذى استنقذه الله بموالاة أمير المؤمنين • ونلمس فى هذا اتجاهها الى الاحتفاظ بالمبادئ الشيعية عند الامامية والاسماعيلية ، تلك المبادئ التى تعتبر معرفة الامام فرضاً من الفروض وتقول « ان من مات دون أن يعرف امامه مات ميتة جاهلية » •

ولعل هذا كله يفسر جنوح الخلفاء الى الاستبداد بالسلطة والانفراد بها (٢) والخروج عن روح المشيخة العربية التى عرفت فى العصر الأموى ، والتى كانت تعتمد على مشاوراة الخليفة للاستقرار فى العربية ، بل بوحى من هذا بدأ الخلفاء العباسيون يتدخلون فى القضاء ويوجهون الفقهاء ويخضعون أحكامهم لسلطانهم (٣) •

(١) جمهرة رسائل العرب : ج ٣ ، ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ •
(٢) يرجع هذا الاتجاه خطأ الى ما يسمى بنظرية الحق الملكى المقدس ، ويرجعون بها الى التأثير بالفرس غير انها ترجع الى أن الخليفة كان اماماً • حسن ابراهيم ، النظم الاسلامية ، ص ٤٩ •
(٣) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢٨٠ •
(م ٩ - العصر العباسى)

وثمة ناحية أخرى من نواحي نظام الخلافة نريد أن نبين كيف
مسها التغيير في العصر العباسي الأول، ونعني موضوع الخلافة
والشورى ونظرية الوراثة وولاية العهد •

لا نستطيع أن نقول ان الخلافة في العصر العباسي الأول كانت
وراثية في الأعقاب ، بل الأدق هو أن الخلافة كانت مقصورة على
البيت العباسي دون غيره ، يتولاها منهم أفضلهم بعهد ممن يسبقه
بشرط أن تتم له البيعة بين الناس •

والواقع أن الخلافة كانت للأقدر منهم لا وراثة مستقرة في
الأبناء ، الا اذا ثبتت قدرتهم ، وتلاحظ ذلك عندما تتبين أن الخلافة
تداولها أخوان (أبو العباس والمنصور) ثم ابن (هو المهدي) ثم
أخوان (هما الهادي والرشيد) ثم ابن (هو الأمين) ثم أخوان
هما المأمون والمعتصم ، ثم ابن (هو الواثق) ونخرج من هذا
بأن ثلاثة أبناء فقط ورثوا الامامة عن آبائهم وأن الامامة فيما عدا
ذلك كانت للاخوة •

. ومبدأ الأقدر على حمل تبعات الخلافة ناشيء من ثقل التبعات
والمشاكل ، بحيث لا يصلح لها الابن مهما يكن حاله ، ومبدأ الأقدر
ناشيء من جهة أخرى ، من عادة الخلفاء أن يشركوا معهم اخوتهم
أو اولادهم في الحكم بحيث يصبح الولد أو الأخ بحكم خبرته التي
يكتسبها أقدر من غيره على حمل التبعات ، وأجدد بأن يجمع حوله
الآراء • فقد شارك المنصور في الأمور العسامة أيام أبي العباس ،
وشارك المهدي أيام المنصور ، وشارك الأمين والمأمون أيام الرشيد ،
وشارك المعتصم أيام المأمون، وهذه السوابق هي التي تؤكد مبدأ
تولية الأقدر الأرشد •

أما أصحاب الحق في اختيار الخليفة من بين أفراد البيت العباسي
فهم الخاصة ، وهم الذين يعتبرون أهل الحل والعقد أو أهل الشورى ،

أما أصحاب الحق في البيعة فهم الشعب كله في مشارق الأرض ومغاربها بصرف النظر عن كيفية ممارسة الخاصة لحقهم وممارسة العامة لحقهم •

أما أهل الحل والعقد أو أهل الشورى كما يقول الماوردي فهم اصطلاحاً الهيئة التي تختص باختيار الخليفة • وهي هيئة يتحدد أعضاؤها بحسب الأحوال والظروف ، وهي هيئة مفروض وجودها في كل جماعة وفي كل عصر ، وقد كان أهل الحل والعقد مثلاً حين طعن عمر عبارة عن ستة أفراد ، ثم الباقون من الصحابة المبشرين بالجنة •

أما في العصر العباسي فإن أهل الحل والعقد هم أفراد البيت العباسي ومن في مثل مركزهم من كبار القواد ، ثم يلي هؤلاء الوزراء وقد كان أبرز أهل الحل والعقد هم أفراد البيت العباسي ، ثم انعكس الوضع في آخر الأمر فصار أبرز أهل الحل والعقد هم الوزراء والقواد ثم يليهم أفراد البيت العباسي • وتحديد أشخاص أهل الحل والعقد أمر متروك للظروف والعرف والواقع العملي •

وفي ضوء ما تقدم نقول أنه كان يشترط أن يكون الخليفة من البيت العباسي ، وأن يكون قادراً على حمل أعباء الحكم راشداً عاقلاً عالماً سليم الحواس إلى آخر شروط القدرة المعروفة في كتاب « الأحكام السلطانية » ويجب أن يختاره أهل الحل والعقد وأن يعطوه بيعتهم ، فإذا تمت هذه البيعة وهي البيعة الخاصة بايع الناس الخليفة في المسجد ، وأرسلت الرسل إلى الولاة في كافة الأرجاء ليأخذوا البيعة على القواد والأعيان والعامة في نواحيهم •

والخلافة ، باعتبارها مالكة للسيادة ، منصب لا يقبل التجزئة فلا يصح أن يوجد خليفتان في وقت واحد • والسيادة واحدة لأن الدولة وحدة متكاملة •

والخليفة عام الولاية عام الاختصاص ، فحكمه يسرى على كل

أنحاء الدولة وهو يمارس حكمه في كل مجال . في الأمور الدينية والسياسية والمدنية والحربية دون أن يشاركه أحد .

والخليفة الحق في تفويض من يشاء بما يشاء من الاختصاصات ، فيكون هو الأصل وصاحب التفويض الوكيل . وقد جرى العرف على أن يتخذ الخليفة وزيراً للتنفيذ فقط يتلقى الأوامر من الخليفة وينفذها (١) ، وله أن يتخذ وزيراً تفويضياً يفوض له البت في الأمور باسم الخليفة (٢) ، وللخليفة كذلك أن يفوض اقليم المشرق الى أحد الأمراء أو ان لم يجد الى أحد كبار القواد ، وله نفس الحق في التفويض بالنسبة لاقليم المغرب .

هذا ولم تجدد الدولة العباسية شيئاً في مسألة ولاية العهد ، بل استمر الأمر في ولاية العهد على نفس السنة التي كانت معروفة في أيام بني أمية ، فقد جرى بنو أمية على أن يعين الخليفة ولي عهد أو اثنين من أهل بيته ولاية لعهد (مثل عبد الملك بن مروان عندما عهد للوليد ثم سليمان) . وقد جرى العرف في الدولة العباسية على أن يتولى العهد اثنان من البيت العباسي فيما عدا الحالتين الأخيرتين : حالة المعتصم ثم حالة الواثق . وقاعدة الثنائية إذن هي الأصل ، ثم كان العدول عنها آخر الأمر لظروف خاصة (٣) .

والقاعدة في اختيار ولاية العهد هي قاعدة القدرة لا قاعدة الأرشد ، فإذا اختير ولي العهد صغيراً جعل له الخليفة من يقوم معه

(٢٤١) حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ، ص ١٢١ .
(٣) عهد السفاح بالخلافة الى أخيه المنصور ثم الى ابن أخيه عيسى ابن موسى ، والمنصور خلع عيسى ويبيع للمهدى وجعل عيسى من بعده . ولما ولي المهدي الخلافة خلع عيسى بن موسى وولى ولديه الهادي . ثم هارون . وقد حاول الهادي خلع هارون لولا أن حالت وفاته دون ذلك .

أما الرشيد فقد ولي عهده أولاده الثلاثة . على أن الواثق خرج على النظام فلم يعهد لابنه محمد . وقد سئل وهو في مرضه الأخير أن يعصى لولده فقال كلمته المأثورة « لا يرانى الله أنقلدها حياً وميتاً » .

باسمه الى أن يكبر ، على أمل أن يعيش الأب حتى يبلغ ولي العهد
الرشد ، فاذا حدث عكس ذلك بطلت ولاية العهد • ولم يكن من قبيل
المصادفة أن ولاية العهد كلهم كانوا راشدين مجربين ، بل كان ذلك
مرسوما بيد الخلفاء • وهذا العرف المبني على الرشد والتجربة هو
السبب الذي جعل الخلافة العباسية تنتقل في أغلب الأحيان الى
الاخوة دون الأبناء •

ويشترط في ولي العهد من الشروط ما يشترط في الخليفة ما عدا
شرط السن ، لأن ولاية ولي العهد لا تبدأ الا عندما يتوفى الأب •
وكذلك الحال بالنسبة للقدرة بعد التيقن من أن ولي العهد الصغير
ممن يتوسم فيهم العقل والقدرة •

والجدید الذي لا مثیل له فی العصر الأموی هو اشراك ولاية العهد
في الحكم في أيام الأب •

وقد جرى العرف أن يختص أحد ولاية العهد بالشرق كله وأن
يختص الآخر بالمغرب (النصف الغربي من الدولة) فيكون ولي العهد
بحكم العهد ويحكم ما يتولاه من الأعمال شخصية كبرى من
شخصيات الدولة •

أما الأصل الذي يتفرغ عليه أمر ولاية العهد فهو في حالة
العباسيين حق هذا البيت الذي فضله الله في تولى أمر المسلمين •
أما الأصل الذي صار سابقة في عهد الراشدين فهو عهد أبي بكر
في أثناء خلافته الى عمر ، وهذه هي السابقة الأولى في العهد ، لكنها
سابقة غير مقيدة ببيت معلوم ، كما هو الحال في أمر العباسيين •

والشورى من حيث المبدأ قائمة في اختيار ولاية العهد واختيار
الخلفاء ، غير أنها شورى محدودة ببيت معين ، يتولاها أهل البيت
والعقد • فان هذه الهيئة هي والخليفة هي التي تقرر وتختار الأصلح
للأمة •

والشورى مبدأ أصيل لا يمكن التخلي عنه : والجاحظ (١) وهو من أولياء الدولة وأنصارها يسبب بنى أمية لأنهم أماتوا الشورى وأحيوا الاستبداد . ولم يكن الجاحظ ليسبب بنى أمية لاستبدادهم على أهل الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين الا وهو يعلن أن سنة الشورى قائمة لأهل الحل والعقد في العصر العباسي (٢) .

ومبدأ الشورى هو الذى صرف التشريع الاسلامى عن التفكير فى تحديد الوريث الذى تتول إليه الخلافة تحديدا دقيقا ، ولم يكن مثل هذا التحديد عسيرا على الفقه الاسلامى ، بل كان مثل هذا التحديد مضادا للاتجاه الفكرى القائم على الشورى .

ومع ذلك فان الأئمة العباسيين الأول كانوا يعتبرون من أهل العلم وكان اختيارهم لولى العهد يكسبه صفة شرعية .

وتبعاً لكل ما تقدم لم ينظم التشريع الاسلامى مجالس وصاية ولم يبيح التشريع أن يكون الخليفة قاصرا (٣) ، ولا محل اذن لتعيين ولى العهد حسب قرابته وتشكيل مجلس يقوم مقامه ، فان هذا وضع غريب على المفاهيم السياسية الاسلامية .

والحجج المبينة لذلك كثيرة ، ويكفى مثلاً أن تتأمل الوراثة كما عرفت لدى الاسماعيلية ولدى الامامية .

وقرار تعيين ولى العهد من القرارات التى لا تتغير بسهولة ، فانه قرار ملزم ينشئ لصاحبه حقاً فى عنق جميع من بايعوه .

(١) أنظر رسالة الجاحظ فى بنى أمية ومنها قوله « وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحقين ورحمهم وقوى ضعفهم وكثر قلتهم حتى صاروا ولاية أمرنا فى هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد . . . وأعلم بما يلزم فيه منا » .

جمهرة رسائل العرب ج ٢ ص ٦٠ — ٧٥ .

(٢) أنظر الرسالة السابقة .

(٣) الماوردى : ص ٤ . ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٢ .

ولهذا أدت الرغبة في تغيير ولاية العهد بعد تعيينهم الى أزمات كثيرة •

أراد المنصور أن يجعل الخلافة لابنه بدل عمه (١) ، وأراد الهادي أن يجعلها لابنه بدل أخيه ، وأراد الأمين أن يجعلها لابنه بدل أخيه أو أراد أن يخضع أخاه وولى عهده لأمره ، وأراد المأمون أن يجعل ولاية العهد لعلوى ترضية للعلويين ، وكذلك طمع في الخلافة عبد الله بن علي وطمع فيها ابن المأمون ، وفي كل مرة ظهرت فيها مثل هذه الارادة أو هذا الطمع قامت أزمة كبيرة واقتربت الأزمة أحيانا بحروب كما حدث في حالة عبد الله بن علي وفي حالة الأمين والمأمون وفي حالة ولى العهد العلوى « على الرضا » •

وترجع الاضطرابات والحروب الداخلية التي قامت بسبب ولاية العهد الى الخلافات الأسرية والى اصطدام العصبية الفارسية بالعصبية العربية ، كما يمكن أن تدخل فيها المعارضة العلوية •

والحق أن خلفاء العصر العباسى الأول كانوا سلسلة من القدرات والكفايات اضطلعوا بالمسؤوليات كاملة وجابهاوا المشاكل وأبرزوا قوة الخلافة الجديدة وفعاليتها ، وقام كل منهم بدوره خير قيام ، بل لعب كل منهم دورا خاصا في أحداث العصر العباسى الأول •

وأول هؤلاء الخلفاء هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس (١٣٢ — ١٣٦ هـ) (٢) وقد جرى عرف المؤرخين منذ القرن الرابع على تلقيبه بالسفاح • أما قبل هذا العهد فان المؤرخين لم يجعلوا له لقبا ولا قرنوا اسمه بالسفاح • بل ذكرت

(١) انظر جمهرة رسائل العرب : ج ٣ ، ص ١٥٩ . كتاب عيشى ابن موسى ، بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادي .
(٢) انظر : الطبرى : ج ٩ ، ص ١٥٤ . المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ١٧١ .

المصادر المعتمدة على الاسناد أنه تلقب بلقب المهدي ، وقد أكدت
الكشوف الأثرية قول المسعودي ، فقد وجد الأثريون بمسجد صنعاء
نقشا ورد فيه اسم أبي العباس مقترنا بلقب المهدي (١) . أما لقب
السفاح فقد أطلق في الأصل على عبد الله بن علي عم الخليفة .

والراجح أن فكرة التلقب ولدت في عهده دون أن يشيع تغليب
الملقب واكتفى الناس بالكنية .

وكان أبو العباس شابا أقرب الي التقشف في حياته وفي زيه مع
عبادة تقربه بالنسك ، الي خلق رضى ولين جانب ووفاء وعفاف
وحلم (٢) ، وكل هذه الصفات جعلته يتسع صدره لهم جميعا ، وان
كان أخوه المنصور أسن منه ، وهو لذلك أي شيء الا أن يكون سفاحا ،
ولهذا شرح المؤرخون العبارة الواردة في خطبته على أن السفاح في
الأصل قدح من القداح التي كان يضرب بها وهو قدح ذو حظ
عظيم (٣) ، وقد روى أنه شخصا كان يكره سفك الدم . ولم يصح
أنه أمر بالقتل بنفسه الا في حالات معدودة وأكثر ذلك منسوب الي
آل بيته ، وهم ممن لا يقدر أبو العباس على ردهم أو عقابهم . وروى
كذلك أنه أمر بالكف عن سفك الدماء الا بمشورته .

أما عن مدى ممارسته لحقوق الخلافة : فإنه مارس سلطاته عن
طريق أهل بيته ، وفوض الولايات الكبرى لآخوته وأعمامه (٤) واذن

(١) لم ترد في الكندي رغم أنه من أوثق الرواة أية إشارة الي لقب
السفاح . الكندي ، ص ٩٧ .

(٢) الفخرى : ص ١٣٤ .

(٣) جاء في القاموس : سفع الدم أراقه والسفاح العطاء ، والفسيح
ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ . وقد جاء في خطبة أبي العباس « وقد
زدتكم في إعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فإنا السفاح المبيع والثائر المبير » .
فكان كلمة السفاح جاءت تأكيدا لزيادة العطاء . الطبرى : ج ٩ ،
ص ١٢٩ .

(٤) ولي مصر مثلا صالح بن علي بن عبد الله العباسي . الكندي :
ص ٩٧ . وولي أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وأرمينية كما اعتمد على عبد الله
ابن علي وداود بن علي .

فقد تحكّم في ممارسته للسلطات أمران : الأول هو حاجته الى نقل السلطات من يد قواد الثورة الى أيدي أكثرهم قربا اليه ، والى أيد أجدر بأن ترفع اسم البيت العباسي • واذن فقد كانت السلطة الفعلية في يد القواد ثم انتقلت اليه والى اخوته •

والأمر الثاني هو أن أهل بيته الذين انتقل اليهم الأمر بعد القواد كانوا جميعا متضامنين في الجهاد حتى نجحت الثورة وتولى الخلافة واحد منهم ، فكان من الطبيعي ألا يتغير الوضع الا بمقدار محدود •

وعهد أبي العباس على أى حال هو العهد الذى شهد انقلابا كبيرا في الأوضاع ، فقد ارتفع فيه شأن المشرق الاسلامي-الآسيوي ، وقد وقع فيه القصاص من أهل الشام ومصر باعتبارهم أنصار بنى أمية وصارت منزلة هذه الأقلية أقل من منزلة المشرق الآسيوي •

ثم آلت الخلافة الى المنصور (١) (١٣٦ — ١٥٨ هـ) وهو شخصية حازمة فكان بحزمه سيد أهل بيته (٢) كما كان صاحب الأمر في خراسان بعد أن تخلص من أبي مسلم • فهو الذى وطّد أمور الدولة لمن بعده ، وهو الذى افتتح سياسة القسوة مع العلويين وأذاقهم من سطوته مثلما ذاقوا في أيام بنى أمية وأكثر •

والمنصور ، فوق ذلك هو الذى أتم الدور التأسيسي من حياة الدولة ، وصان حدودها وأمسك بزمام قيادتها • أما في الحدود فان دراسة الحدود الشامية الحزرية عند جبال طوروس تظهر الجهد العظيم الذى بذله المنصور بما بنى من حصون (٣) •

أما بالنسبة لزمام القيادة فانه كان يطمح في استعادة الأندلس

(١) ورد ضمن القاب في نص تشييد قرب أذربيجان •
Van Berchem Corpus, Egypte. Vol 1. 96.

(٢) انظر الفخرى : ص ١٣٥ — ١٣٦ •

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٩٣ •

الى الخلافة كما كانت فى عهد بنى أمية ، كما كان يطمع فى استعادة الغرب للخلافة أيضا •

وقد فشل فى هذين المجالين ، ويكفيه مع ذلك أنه حاول توحيد الخلافة كما كانت فى عهد بنى أمية • وتتجلى هذه الفكرة فى بناء المنصور لبغداد حتى أنها سميت بمدينة المنصور ، وهى المدينة التى جمعت أنصار الدولة ودواوينها ، وهى المدينة التى بلغت من العظمة والازدهار ما لم تبلغه أية مدينة أخرى فى العالم الإسلامى ما عدا القاهرة •

ثم يأتى بعد المنصور سبعة من خلفاء العصر العباسى الأول هم المهدي وابناه (الهادي والرشيد) ثم أبناء الرشيد الثلاثة (الأمين والمأمون والمعتصم ثم الواثق) •

ويختلف هؤلاء السبعة عن الخليفتين الأولين فى أنهم ورثوا دولة قد استقرت على نمط معلوم ، وأصبحت حياتها السياسية ميسرة ، وفى أنهم أحاطوا أنفسهم ببلاط عظيم وقصور فخمة وترف لا حد له حتى صار ترفهم أسطورة تروىها الأجيال ، واختارت الأساطير شخصية منهم هى واسطة عقدهم ، وهى شخصية الرشيد •

أما المهدي (١) فكان فوق لين أبى العباس وتحت حزم المنصور ، وقد جاء بعد أن وطد له أبوه الأمور ، فظهرت خاصة ميوله الشخصية ، وأولها حبه للصيد وخروجه إليه مع خاصته من رجال البلاط (٢)

(١) ورد هذا اللقب فى سكة بتاريخ ١٤٦ هـ من الرى وفى أخرى من الباب وفى ثالثة ضربت بتاريخ ١٥٢ بأران وذلك أثناء ولاية المهدي للعهد •

Inrontairo des Mounaies. P. 7.

• ورد النعت أيضا أثناء خلافته فى نص تشييد بتاريخ المحرم ١٥٥ هـ على قطعة من الرخام فى عسقلان وفى طراز قطعة نسيج بتاريخ ١٥٩ بمصر . Rapsreairs Vol. I. pp. 24—44.

حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٥١٤ — ٥١٥ •

(٢) الفخرى : ص ١٦٣ •

واهتمامه بالبلاط فقد اتخذت حاشية الخليفة لأول مرة شكل بلاط نشأ على يد المهدي في القسم الشرقي من بغداد . ثم بداية اهتمامه بالعقائد (١) فان المهدي هو الذي تتبع الزنادقة على نحو ما ذكرنا .

ولم يحكم الهادي غير سنة واحدة ثم تولى هارون الرشيد (٢) (١٧٠ — ١٩٣ هـ) وقد طالت خلافته على نحو ما طالت خلافة جده المنصور وخلافة ابنه المأمون ، وقد شغل هؤلاء الثلاثة (المنصور والرشيد والمأمون) نحو خمسة وستين سنة من العصر العباسي الأول فهم لذلك عنوان عليه ، والرشيد في وسطهم كواسطة العقد .

والرشيد شخصيته الأسطورية ، فهو يمثل شخصية ملك سعيد ، والبرامكة يمثلون شخصية وزير نافذ الكلمة ، وأبو نواس يمثل شخصية ماجن خليع فيلسوف حكيم .

وبينما كانت هذه الأساطير تتبلور في الأخيلة الشعبية كان الرشيد في الحقيقة يقوم بدور درع الدولة متنقلا بين أرجاء دولته غازيا وحاجا ، وهو أول خليفة قاد الغزو بنفسه ، وسار الى الثائرين على رأس جيئته ، فقد خرج بنفسه لقتال رافع بن الليث الذي خرج بخراسان ، واسم الرشيد بعد ذلك كله مقترن باسم ايرين ونقفور وشرلسان ، وهو من غير شك أعظم هؤلاء الملوك جميعا ، بل أعظم ملك في عصره على الاطلاق .

وولده الأول الأمين الخليفة المظلوم الذي ضاعت شخصيته الحقيقية لما لحقه من هزيمة ، وهو على أي حال بطل عصبية الأبناء ،

(١) حسن ابراهيم : ج ٧ ، ص ٣٧ .

(٢) ورد على بعض نقود الرشيد كما ظهر على طراز قطعة من النسيج ، بتاريخ ١٩٠ هـ . Repertoire Vol 1. p. 78. للتوسع في دراسة شخصية الرشيد . انظر الطبري : ج ٩ ، ص ١٠٠ وما بعدها . والفخرى : ص ١٧١ — ١٧٢ . المسعودي : مروج الذهب . والجهشياري : الوزراء والكتاب . السيوطي : تاريخ الخلفاء . محمد الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية .

• وهى العصبية الفارسية من أبناء الجيش الخراساني الذي استقر بالعراق ، كما أنه بطل التوفيق بين عصبية الأبناء هذه وبين العصبية العربية • وقد حارب جيوش أخيه المأمون من الخراسانية بجيوش بعضها من الأبناء وبعضها الآخر من العرب ، والروايات التاريخية تصوره رجلاً مثرفاً غير حازم يحالفه سوء الحظ في كل ما يحاوله (١) •

والمأمون شخصية عجيبة ، جامعة للمواقف المتناقضة التي يصعب التوفيق بينها ، فهو يميل حيناً الى الخراسانية ويعتمد عليهم ، ثم يميل الى العلويين (٢) ، ميلاً متطرفاً حتى لبيذلون له ثقتهم وينسبون خصوماتهم ، ثم يميل الى السنة ، ثم انه استطاع أن يتقرب الى المغرب وأن يكسب ثقته بعد أن كان يقصر مودته على الخراسانية في المشرق •

فهو شخصية قادرة على التوفيق بين المواقف المتناقضة وعلى ارضاء كل المعسكرات • وبهذه الملكة ، ملكة التوفيق ، انتهى المأمون بأن تغلب على كل ما صادفه من صجاب (٣) والأمر الذي لم يتحول عنه هو وفاءه وحبه لأخيه المعتصم وتفضيله له على ابنه العباس •

أما من الناحية العقلية فهو فيلسوف الخلفاء (٤) ، ومؤسس بيت الحكمة ، وصاحب حركة الترجمة لنقل الرياضيات والفلسفة عن اليونان ، وهو الذي احتضن طائفة المعتزلة بحمايته في النصف الثاني من خلافته بوجه خاص ، وقال بمقالتهم وهى أن القرآن مخلوق ،

(١) انظر الروايات الطريفة التي وردت في الطبري : ج ١٠ ، ص ٢١٥ — ٢٢٦ وفيها قصص كثيرة عن جده ولهوه ومجونه ومأساة عصره •
(٢) توليته علياً الرضا هذه : حسن إبراهيم : ج ٢ ، ص ١٦٢ •
(٣) تغلب على الثورات الاتيية : ثورة أبي السرايا — ثورة نصر ابن شيبان — ثورة بغداد ، ثورة الزط — ثورة العرب بمصر •
(٤) يقول فيه صاحب الفهرست ، ص ١٦٨ •
« أعلم الخلفاء بالفقه والكلام • • ونحن نستغنى بشهرة أخباره عن استقصاء ذكره » •

واضطهد خصومهم ، وشايع الزيدية كذلك على أساس صلة الزيدية بالمعتزلة (١) .

وهو فوق ذلك كله مهتم بحماية حدوده ، ناجح في هذه الناحية نجاحا تاما في جبهة الترك في أواسط آسيا وفي جبهة الروم عند طوروس (٢) .

أما المعتصم (٣) ، فهو ثالث أولاد الرشيد الذين تعاقبوا أخا بعد أخ على كرسى الخلافة . وهو في شخصيته فارس يحب أهل الفروسية ، ولهذا مال الى الترك وأحب فروسيتهم وخصهم بتقديره ، وبني لهم عاصمة جديدة مفسحا لهم أكبر مجال انفسح لهم منذ اتصالهم بالدولة الى وقته .

والسمة الأخرى الواضحة في شخصية المعتصم هي وفاءه لشخص أخيه بالذات في حياة أخيه وبعد مماته ، ولهذا يعتبر حكمه استمرارا لحكم أخيه المأمون ، بحيث لو عاش المأمون لما اختلفت سياسته عن سياسة أخيه ، برغم الاختلاف الملحوظ بين العصرين . مثال ذلك أن المأمون هو الذى افتتح سياسة استخدام الأتراك وأن أخاه المعتصم هو الذى وصل بهذه السياسة الى أقصى مدى ممكن .

أما آخر خلفاء العصر فهو الخليفة الواثق ، وهو أقل خلفاء العصر من حيث وضوح الشخصية ، وقد استطاع أن يحتفظ بمقام الخلافة الى جانب الأتراك وأن يظل سيدهم الحاكم ، الا أن مكانة

(١) انظر رسائل المأمون الى اسحق بن ابراهيم نائبه ببغداد : أحمد زكى صفوت : رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ — ٥٥٤ . وجمعت كلها من الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٩ .

(٢) انظر المكاتبات بين المأمون ونيوفيل ورد المأمون عليه طبرى ج ١٠ ، ص ٢٨٣ . جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٥٣٣ .

(٣) "الفجرى" ، ص ٢٠٩ — ٢٢٠ .

الأتراك كانت قد استقرت بحيث تحكموا بعدد في تولية المتوكل
وفي سياسته ، فلما خرج عن طاعتهم قتلوه •

* * *

٢ — نظم الدولة :

واذا كنا قد اهتممنا بنظام الخلافة وعرفنا ما أصابه من تغير
فمن واجبنا أن نعرض لوسائل الخلافة في الحكم ، أعني لنظم الدولة
من نفس وجهة النظر التي نحن بصدد توضيحها وهي الثورة وفعاليتها
وأثرها في نظم الدولة في العصر العباسي الأول •

ولاعطاء فكرة صحيحة عن نظم الدولة في العصر العباسي ينبغي أن
نذكر أنها في هذا العرض ستعتمد على نصين أحدهما كتاب قديم
ألفه الماوردي في الأحكام السلطانية • وأعطى صورة في غاية
الوضوح عن نظام الدولة في العصر العباسي كله • ثم بين أيدينا كتاب
حديث ألفه الدكتور حسن ابراهيم حسن وموضوعه «النظم الاسلامية»
فيه أيضا استعراض لهذا الموضوع على أسس علمية حديثة •

بالاعتماد على هذين المصدرين نظهر الوجه النظري للنظم ،
وبالاعتماد على ما تناثر في تاريخ الطبري من أخبار الدولة في عهد خلفاء
العصر العباسي الأول من التسفاح حتى الواثق نتبين أن ثمة عوامل
هامة وجذرية أحدثت التغيير المنشود وتركت أثرها في جهاز الحكم •

هذه العوامل هي : ظروف الخلافة نفسها وما داخلها من تطور
وكيف ترك صدها في نظام الدولة • وقيام الدولة وما صحبه من احياء
التقاليد الفارسية • وتقدم العناصر الايرانية وما صحب ذلك من
طغيان على جهاز الحكم • والمكاسب العسكرية لعناصر الموالى وما صحبها
من أثر في النظام الحربى على وجه الخصوص •

أما عن ظروف الخلافة العباسية فإنه كان من الطبيعى أن تترك
أثرا واضحا في أجهزة الدولة ، فالخلافة مثلاً في صراعها بين المركزية

والاقليلية وفي حفاظها على التوازن الذي لا يفقدها فعاليتها ، كانت متترك أثرا في الولاية على البلدان وفي اختصاصاتهم وفي السلطات المخولة لهم ، فقد كان الولاية مثلا في عهد أنصار الفكرة المركزية مثل المنصور أقل نفوذا وأضيق سلطانا من الولاية في عصر الرشيد وبعد الرشيد ، فقد بدأ الولاية يكتسبون سعة في النفوذ وانطلاقا في اليد (١) ، وتطورت هذه السلطات الى استغلال وتكوين امارات كما فعل الأغالبة في تونس أو الطاهريون في خراسان .

هذا التطور بين المركزية والاقليلية يصوره الماوردي (٢) في الأحكام السلطانية بتقسيمه نظام الامارة على البلدان الى طائفتين : امارة الاستكفاء التي تصور جهود الخلافة نحو المركزية وتظهر منها الاختصاصات التي كانت للخلفاء وتغلغل الخلافة في جميع الأمور .

أما الطائفة الأخرى فهي امارة الاستيلاء التي تدل على الاقليلية وعلى ازدياد سطوتها ، فيقدم أحد الأمراء قسرا على الاحتفاظ بولاية من الولايات ويضطر الخليفة الى اقراره عليها ويفوض اليه تدبير سياستها .

وثمة ناحية أخرى وهي تنظيمات الدعوة التي ظلت مؤثرة طافية على السطح طوال العصر العباسي الأول ، فقد كانت تلزم الولاية العباسيين بالمشاركة في هذا النشاط والقيام الى جانب القيادة العسكرية والقيادة الاسلامية العامة برئاسة الدعوة في الاقليم .

لذلك أعتقد أن ولاية العصر العباسي الأول كانوا دعاة يمسون حيوط الدعوة ويتصلون بالنقباء والعمال ويعملون على تفسير رسائل الخميس وتعقب المحاولات الأموية والعلوية للقضاء عليها .

(١) لنضرب مثلا بمصر . الولاية : من السفاح الى الرشيد .
الكندى : الولاية ، ص ٩٧ — ١٣٢ . والولاية : من الرشيد حتى الواثق
ص ١٣٣ — ١٩٦ .

Von Rremer p, 228.

(٢) الماوردي ، صفحات من ٢٨ — ٢٩ .

انظر قضية هروب عبد الرحمن بن معاوية مثلاً وكيف كانت تلاحقه أجهزة الدعوة في كل مكان • وأعتقد أن هذا الاختصاص العقيدى كان واضحاً في ولاية القسم الشرقى من الامبراطورية • وقد حرص العباسيون على ايجاد أوثق الصلات بين عهد الحركة العباسية وبين العاصمة (١) •

ومن ناحية أخرى أدى حرص الخلافة على الروح الفيدرالية ، ومحاولة السيطرة على التيارات الاقليمية وكبح جماحها وتحقيق التعاون المنشود بينها وبين السلطة في دار الخلافة ، الى ابتداء سياسة ادارية معينة تحقق لهم ذلك الهدف ، فقد قسموا العالم الاسلامى الى مشرق ومغرب وأنشأوا منصب نائب الخليفة ، وكان ولاية العهد أو الأمراء المقربون يقلدون هذا المنصب الرفيع • وأعتقد أن نائب الخليفة في الغرب كان مقره اما في دمشق أو العسكر في مصر ، وكان نفوذه يمتد الى المحيط الأطلسى ويقوم بسك العملة وتولية العمال الأصغر وقيادة الجند •

ويدل البروتوكول الذى يرجع الى عصر المعتصم على أن نائب الخليفة كان اسمه يسك على العملة والطراز ويدعى له بعد الخليفة على المنابر ، وله ديوان انشاء وكتاب وله حق التصرف الكامل باسم الخلافة •

وأعتقد أن القسم الشرقى كان دائماً مقره مرو عاصمة خراسان مركز الانطلاق العباسى ، وكان المأمون باعتباره نائب الخليفة في المشرق يتولى منطقة مرو •

وكان الخلفاء العباسيون قعد أحيوا سنة الراشدين وذلك بكثرة عزل الولاية ، ليضمنوا ألا يستبد هؤلاء الولاية بالسلطان مستفيدين من

(١) انظر مثلاً : الرسائل رقم ٦١ ، ٨٠ ، ٢٤٢ ، ١٧٠ ، ٢٠٧ ،
جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ •

الاقليمية الجديدة (١) ، اطلاق في السلطات مع قصر مدة التولية (٢) ولكن هؤلاء خصوصا في عصر المعتصم كانت تطول مدة اقامتهم وتطلق أيديهم في البلاد ، انظر أشناس التركي والمناصب التي تولوها والسلطات التي أعطيت له ، وكان طبيعيا أن يتحول هؤلاء الى أمراء مستقلين في العصر العباسي الثاني .

أما العامل الثاني الذي ترك أثرا واضحا في نظم الدولة في العصر العباسي الأول فهو موضوع احياء التقاليد الايرانية الذي يشكل موضوعا هاما ، أولى أن يتعرض له المؤرخون بالعناية والدرس ليروا كيف كانت البداية في مهتزل العصر العباسي ، وكيف كانت النهاية في هذه القوة الايرانية التي طفت على سطح الحياة الاسلامية منذ القرن الثالث فصاعدا .

(١) كان المنصور ينقل عماله من بلد لآخر بعد فترة وجيزة ، فقد نقل حميد ابن قحطبة من مصر الى خراسان سنة ١٥١ هـ ، زامبور : ج ١ ، ص ٣٩ ، ١٧ كذلك أجرى المهدي تعديلات واسعة بين حكام الاقاليم فعزل منهم كثيرين وولى بدلهم (ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٧١) وكان الرشيد يولى أعماله أذربيجان كل سنتين أو ثلاثة واليها جديدا ، (ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٦٦) .

(٢) كانت الشروط التي يجب أن تتوافر في الولاة في العصر العباسي الأول اعتمادا على الماوردي : الاحكام السلطانية وابي شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم على هذا النحو :

- (١) أن يكون عليما بالسياسة وشئون الادارة .
- (ب) أن يكون قادرا على قيادة الجند : ومعنى هذا أن الوالي كلن يجمع بين القيادة السياسية والعسكرية .
- (ج) أن يكون خيرا بجمع المال رقيقا على عمال الخراج وجباة الاموال .
- (د) العدل بين الرعية وحسن التصرف في الامور ومشاورة أهل الرأي .

(هـ) أن يكون منصوبا في تنظيمات الحزب العباسي شارك بنصيبه في الدعوة في فترة التحنير للثورة أو في الاحداث التي تلتها .

(م ١٠ — العصر العباسي)

وقد كان هذا الاحياء عسكريا وثقافيا واجتماعيا ، ولا يهمننا منه هنا الا ما يخص موضوع نظام الحكم فقط . وكان من أثره افادة العباسيين على نطاق واسع من التقاليد الادارية الفارسية القديمة ، يقول برنارد لويس : « وكانت الادارة عند العباسيين تطورا للادارة عند الأمويين المتأخرين واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في تنظيم الدولة » (١) .

الا أن تأثير النظام الفارسي المعمول به أيام الساسانيين أخذ يزداد قوة . وكثير من شعائر العباسيين تقليد متعمد للعادات الفارسية التي أصبحت معروفة في هذا الزمن عن طريق الموظفين الفرس (٢) . وقد كان المنصور في الحقيقة هو المشرع الادارى للعصر العباسي ، وكان يسير على خط هشام بن عبد الملك في الافادة من التجارب الفارسية القديمة .

وقد اتخذ هذا الاحياء صورا متعددة فقد كان استحداثا لأنظمة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كما أدى الى تطوير أنظمته ، وقائمة ، وسحب الموالي الى الجهاز الادارى كله .

فمن قبيل استحداث أنظمة لم تكن موجودة من قبل ما كان من نشأة نظام الوزارة وتطورها في العصر العباسي الأول ، فقد استحدث منصب الوزارة متأثرا بتقاليد الفرس ، ولم تتضح صورتها في عهد أبي سلمة الخلال أول وزراء العباسيين ، ولكنها وصلت الى قمة التطور في أواخر العصر العباسي الأول .

وكانت سلطات الوزير ضخمة (٣) ، فقد كان يقضى باسم الخليفة

(١) العرب في التاريخ ، ص ١١٩ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٣) قول ابن خلدون في سلطان الوزراء في العصر العباسي الاول :

« فلما جاءت دولة بني العباس واستحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل »

في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال والاشراف على الضرائب ، وكان كذلك بنوب عن الخليفة في حكم البلاد ويجمع في شخصه بين السلطتين المدنية والحربية (١) .

والماوردي (٢) يقسم الوزارة الى وزارة تفويض ووزارة تنفيذ .

وزارة التنفيذ :

وهي التي تكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف في شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها ، فلم يكن سوى واسطة بين الخليفة ورعيته .

وزارة التفويض :

وهي أن يعهد الخليفة بالوزارة الى رجل يفوض اليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شئونها دون الرجوع اليه فلا يبقى للخليفة الا ولاية العهد وعزل من يوليهم من الوزراء .

والعقد ، وتعين مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب وجعل له النظر في ديوان الحساب لما تحتاج اليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البضاعة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور ، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذيع والشياع ، ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تسكن له لاستثكانه عن ذلك : المقدمة ص ٢٠٧ .

انظر ايضا الفخرى ، ص ١٣٦ — ١٣٩ .

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .

ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٧ .

(٢) الاحكام السلطانية ، ص ٢٦ وما بعدها .

وفي استطاعتنا أن نجد صوراً ممتعة عن وزراء العصر العباسي الأول فيما كتبه هلال الصابي أو الجهشيارى عن حياتهم وأساليبهم في العمل ووسائلهم وعلاقاتهم بالخلفاء ، وأثرهم في سياسة الدولة ، وحياتهم الخاصة يتبين منها أحياء السنن الفارسية القديمة . لقد كانوا فرساً في ثياب عربية ، الأصل فارسي وأسلوب العمل فارسي صميم .

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان من أرباب الأقلام يسمون بالكتاب ، وكان لكل وزير كاتب أو كتاب يعينونه ، ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب ، وكانت طائفة الكتاب تؤلف وحدة يرأسها الوزير ، وتتدرج في الترقى حتى تصل إلى منصب الوزارة معتمدة على الكفاية والبلاغة ، وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء يحتذون حذو أجدادهم من الفرس حتى في مظهرهم ، بل إن صيرورة الكتاب طبقة ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي ، وقد ترك هؤلاء الكتاب أثراً كبيراً في نشر الثقافة وذيوعها ، فثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت مناصبهم تحتم عليهم أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يلموا بعلوم اللغة والأدب وعلوم الدين وعلم الكلام والجغرافيا والتاريخ ، فقد كانوا يتعرضون لمواقف تضطرهم إلى الإلمام بكل هذه المعارف العامة ، والأستاذ أحمد أمين (١) يقارن بين معارف الكتاب الشاملة ومعارف المحدثين والفقهاء المحدودة وأن هؤلاء دائرتهم حول فنهم .

ومما يدل على هذا الشمول في المعرفة المطلوب توافرها في الكتاب ما ألف لهم من كتب (٢) . فابن قتيبة يؤلف أدب الكاتب لأنه رأى أن طائفة الكتاب شغفت بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة ، وعرفت الكون والفساد وسمع الكيان والكنية والجوهر والعرض ، ورأس الخط

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) ابن النديم : الفهرس ، ص ١٦٨ — ١٧٠ .

النقطة ، والنقطة لا تنقسم • وألف بعده أبو بكر الصولى كتاب أدب الكاتب وتوسع فى أمور لم يرض لها ابن قتيبة فعرض لحسن الخط والدواة والقلم وترتيب الكتاب وطيه والدعاء فى المكاتبات • وألف ابن درستويه « كتاب الكتاب » •

وقد أسهم هؤلاء الوزراء وكتابهم فى نشر الثقافة العامة وجمعوا بين الآداب العربية والفارسية • وكانوا صورة صادقة للاحياء الفارسي الذى أشرنا اليه •

كما أن اتساع سلطات الخلافة وتنوعها وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية تطلب التوسع فى الدواوين بصورة لم تكن مألوفة من قبل • ويشير الماوردى الى أن الدواوين بلغت أكثر من اثنى عشر ديوانا : منها : ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى ، وديوان البريد وديوان النفقات ، وديوان الرسائل (أو ديوان الانشاء) وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، كما كانت هناك ادارة خاصة للمحافظة على مصالح غير المسلمين ويدعى رئيسها كاتب الجهاز •

وهناك دواوين أخرى فرعية تتصل بالادارة والسياسة والقضاء ، هذا عدا ديوان المنح أو المقاضاة وديوان الأكرية للإشراف على القنوات والقرع والجسور وشؤون الرد وقد أنشأ المهدي ديوانا لمكافحة الزندقة (١) •

على كل حال هذه الدواوين كلها كانت تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين : الأولى للتوجيه الادارى والمكاتبات الرسمية مثل البريد والمراسلات والتوقيع والخاتم ، والثانية مختصة باستتباب الأمن فى الدولة وتوفير الحماية لها مثل الشرطة والحسبة والجند •

(١) انظر حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ١٧٦ — ١٧٨ • وكذلك الفصل المتع الذى كتبه آدم مقرر عن الادارة ، ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٤٩ وكذلك الوزارة والوزراء ، ص ١٥٠ — ١٨٨ •

كانت دواوين المجموعة الأولى تعمل وفق نظام رتيب ، فالمكاتبات ترد الى ديوان الرسائل ليقوم بفضها فاذا روى عرضها على الخليفة أو الوزير تولى ذلك الأمر ديوان التوقيع ، واذا كانت في حاجة الى دراسة أتم وأشمل عهد بذلك الى ديوان التوقيع ، فاذا انتهى من الدراسة سلمها الى ديوان الرسائل لتؤخذ منها صور يحتفظ بها في خزانة الدولة على أن يسلم الأصل الى ديوان الخاتم للختم بخاتم الخليفة ثم يعود الى ديوان البريد لارساله الى جهة الاختصاص •

على كل حال كان من بين هذه الدواوين ديوانان تطورا تطورا للنهوض الى مستوى السياسة العباسية ، ومواجهة احتياجات الدولة المتنوعة ومشاكلها من المركزية الى الاقليمية ، والموقف الدولي ، وهما ديوان الرسائل وديوان البريد •

بدأت عناية العباسيين بهذا الديوان منذ بداية حركتهم في خراسان ، فقد أنشأ أبو مسلم ديوانا للرسائل عهد به الى أسلم ابن صبيح (١) • لكن قواعد تنظيم هذا الديوان استقرت في عهد المنصور عهد التنظيم الشامل والتطور الحقيقي لنظام الخلافة العباسية ، ففي بغداد أفرد مكانا خاصا لهذا الديوان بل جعله قريبا من قصره (٢) ، وعهد به الى أبان بن صدقة ، ولم يتوقف تطور هذا الديوان في عهد المهدي وأصبح باستطاعة من يتولاه أن يستخلف عليه من يريد ، كما فصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة (٣) الآن ديوان • رسائل الدولة بدأ يخضع لاشراف الوزراء المباشر وخاصة وزراء التفويض ، ثم مضى التطور قدما في عهد الرشيد اذ أدخل تعديلا على المكاتبات الرسمية فأصبحت تصدر بالثناء على الله عز وجل والصلاة على الرسول • ولم تفتقر العناية بهذا الديوان الهام حتى

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٨٥ •
(٢) اليعقوبى : البلدان ، ص ٨ •
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٥ •

آخر عهد الوثائق بل نعتقد أن الديوان تألق كأقوى ما يكون في عهد الرشيد والمأمون خاصة . وكان ديوان الرسائل بالذات لا يتولاه الا خيرة الكتاب الذين أشرنا اليهم (١) .

وفي كل من ضبح الأعشى للقلقشندي (الجزء الأول خاصة) وقانون ديوان الرسائل للصيرفي ، وهلال الصابي « رسوم دار الخلافة » (٢) تفاصيل كثيرة عن وظيفة هذا الديوان ونظام العمل به ، ومنها نتبين أن الديوان يتلقى الرسائل من ديوان البريد . وكان الخليفة يستشير صاحب ديوان الرسائل ، لذلك كان الصق الموظفين به وأدناهم منه فكان من أبرز موظفي الدولة .

وكان لصاحب ديوان الرسائل كاتب يرتب الكتب التي ينظرها مجلس المظالم ويلخصها ، فإذا روجعت عرضت على الخليفة . وهناك كتاب آخرون مختصون بمكاتبات موظفي الدولة وعمالها ، وبعضهم يختص بمكاتبات كبار رجال الدولة ، وفريق آخر كان يعكف على كتابة المناشير وكتب التقليد والولاية ، ومراجعون يقرأون ويتصفحون كل ما يكتب في الديوان . أما الخطاطون فمهمتهم نسخ الكتب بعد صياغتها ومراجعتها ، ولهذا الديوان أرشيف يتولاه الخازن وهو يحفظ أصول المكاتبات التي ترد الى الديوان ومعها نبذ مختصرة عما تم بشأنها وما صدر عن الديوان عنها ، كما ينظم الموضوعات التي ترد للديوان ، ويحتفظ بسجلات للتقاليد والمناشير وألقاب الولاة وكبار رجال الدولة وطريقة مخاطبتهم ، كما يحتفظ بسجلات للحوادث الكبرى في البلاد وكذلك المكاتبات التي ترد الى الديوان بلغة غير عربية .

ويلخص القلقشندي الأعمال المنوطة بصاحب هذا الديوان الخطير ، فيشير الى فض المراسلات الواردة وترتيبها ، ثم كتابة الردود

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٦ - ١٦٦ .
(٢) انظر خاضة : الفصل الخاص برسوم المكاتبات عن الخلفاء في حدودها وعنواناتها والادعية فيها ورسوم المكتب عن الخلفاء ، ص ١٠٤ - ١٠٩ .

والتوقيعات التي يستقر عليها الرأى ومراعاة الألقاب والمراتب في المكاتبات الخاصة ومراجعة كل ما يصدر عن هذا الديوان الهام (١) •

مما تقدم يتبين كيف كان ديوان الانشاء بالنسبة للخلفاء العباسيين هو وزارة الخارجية في النظم الحديثة ، وقد اتسع نطاقه في العصر العباسي لمواجهة حاجات الدولة من الرسائل والمكاتبات والتطور بالسياسة الخارجية التي اتسع أفقها بعد نمو العلاقات مع دول العالم المعروفة آنذاك ، وكذلك كثرة المكاتبات في الداخل مثل عقود التولية والخلع والأوامر والبروتوكول (المراسيم) والرسائل أو بمعنى آخر كان ديوان الرسائل هو أرشيف الدولة الاسلامية •

أما ديوان البريد فان العباسيين تناولوا تقاليد الأمويين وتوسعوا فيها الى أبعد الحدود حتى بلغ حد الكمال في عهدهم ، والذي أوصل ديوان البريد الى تلك المكانة وأعطاها تلك الأهمية هو الخليفة المنصور ، لأن هذا الديوان أعانه على كشف حركات التمرد والثورة ووأدها في المهد • وكان عمال البريد يبلغون السلطة المركزية بما يجرى في الأقاليم فيقومون بالمواجهة الحازمة السريعة • وكان البريد في الحقيقة عدة المنصور وخلفائه في تحقيق التوازن والمركزية التي أشرنا اليها من قبل • لذلك كان صاحب البريد من أهم الموظفين عند المنصور (٢) • فلم يكن يولى عليه الا المقربين من مواليه أو ممن يثق بهم ثقة لا حد لها • ولا صحة لما يذكر من أن المنصور هو الذي جعل صاحب البريد في الولاية تعلو مكانته على مكانة الوالى نفسه ، والحقيقة أن ذلك من ميزات العصر الأموي • ويبدو أن مهمة رجال البريد

(١) يجب أن يدرس ديوان الرسائل دراسة فاحصة عميقة لاطهار الجوانب الدبلوماسية والبلاغية المرتبطة به اشد الارتباط ويكفى ان تراجع ما يجمعه احمد زكى صفوت في كتابه « جمهرة رسائل العرب » الجزء الثالث ، فقد جمع نحواً من ٣٤٧ رسالة •

(٢) طبرى : ج ٩ ، ص ٢٩٧ •

لم تكن مجرد التجسس وإبلاغ الأخبار إنما كانوا يراقبون السلع ويوافون الخليفة بأسعارها .

ومضى ديوان البريد قدما في طريق التطور كلما احتاجت الخلافة خصوصا في عهد تحقيق الصفة الفدرالية الى مزيد من الرقابة على الولاة الذين أعطتهم سلطات واسعة . وقد أمر المهدي سنة ١٦٦ هـ باقامة محطات بريد بين مكة والمدينة واليمن خصوصا بعد ثورة العلويين في الحجاز . وتطور الرشيد بهذا الديوان وعهد به الى جعفر البرمكي (١) وتمكن بفضل من السيطرة على شؤون الدولة ، كما ظهرت أهمية هذا الديوان في النزاع بين الأمين والمأمون ، فلما وضحت للمأمون نوايا الأمين العدائية بادر سنة ٢٩٤ هـ الى قطع البريد عنه ، فقطع البريد عن محمد وأسقط اسمه من الطراز (٢) . وفي عهد المعتصم لعب ديوان البريد دورا هاما في محاولات عجيف بن عنبسة القضاء على حركة الزط الذين عاثوا في طريق البصرة وقطعوا الطرق ، اذ رتب الخيل في كل سكة من سكك البريد تركض بالأخبار ، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل الى المعتصم في يومه (٣) وقد دخل بهم بغداد منتصرا في ذي الحجة سنة ٢١٩ هـ . وقام البريد بنفس هذا الدور الهام في فتنة بابك الخرمي (٤) .

اذن كان ديوان البريد من أهم أسلحة العباسيين في تحقيق الأهداف السياسية التي نصبوا أنفسهم لتحقيقها ، عن طريقه عرفوا أسرار الخارجين على سلطانهم ونافحوا الثورات وقضوا على كثير من الحركات واحتفظوا بسلطانهم ونفوذهم ، وكانت المكاتبات الرسمية على نحو ما ذكرنا يحملها بريد الأقاليم الى ديوان البريد الرئيسي في بغداد حيث تسلم الى الدواوين المختصة . وكان الديوان يستخدم

(١) الجهشيارى : ص ٢٠٤ .

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٠٦ .

(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٣١ .

البغال والخيول والجمال والحمائم الزاجل (١) وكان بدواوين البريد سواء في الحاضرة أو الأقاليم عدد كبير من الموظفين يعاونون صاحب البريد . وكان عمال البريد في الولايات يخضعون لصاحب البريد في بغداد .

ويبدو أن أصحاب البريد هؤلاء كانوا يضطلمون بمهام جسيمة فكانوا يعينون الموظفين ويدفعون رواتب العمال ويطمئنون على وصول البريد وسفره في المواعيد المقررة ، وكانوا يكتبون تقارير وافية للخلفاء عما يجرى في البلاد ، وكان عليهم أن يحفظوا الطرق من عبث اللصوص .

وهناك طبقة أدنى من رجال البريد كانوا يحملون الرسائل في حقائب خاصة على ظهور الخيل من مكان لآخر ويسمون « المرتبون » أما الموقعون فيشرفون على محطات البريد . ويحددون موعد وصول المكاتبات ويسجلونها في دفاتر خاصة . ويضطلع فريق آخر من الموظفين بالتفتيش على محطات البريد وكتابة تقارير عنها .

ويبدو أن تأثير الثورة العباسية كان طاغيا بحيث أنه من نظام القضاء ، فالخليفة الامام أعطى نفسه الحق في أن يقضى على استقلال القضاة الذي كان طابع العصر الأموي ، وقد كان هؤلاء الخلفاء يتدخلون في الأحكام ويوقفون بعضها إذا صدر على غير هواهم لأنهم كانوا يخشون أن تتعارض أحكام القضاء مع مبادئهم ، يتبين هذا من سير القضاة في بغداد أو في الأقاليم (٢) .

والكندي في كتابه الولاية والقضاة يعطينا صورة عن القضاء في مصر في العصر العباسي الأول ، نجملها فيما يلي :

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٩ .
(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢٨١ .

أنه في مستهل العصر العباسي جرى الحال على ما كان عليه في العصر الأموي من ترك ولاية مصر يختارون من يتولى القضاء في البلاد ، وكان الخليفة يصدق على هذا الاختيار ، وقد ظل الولاة العباسيون يمارسون هذا الحق الى أن تدخل الخلفاء في اختيار قضاة مصر ، فقد ولي أبو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ (١) عبد الله بن لهيعة الحضرمي . ويتحدث الكندي عن هذه المناسبة بقوله : « ان وفد مصر كانوا بالعراق فدخلوا على أبي جعفر المنصور يوما فقال لهم « أعظم الله أجركم في قاضيكيم أبي خزيمة ، ثم التفت الى ربيع فقال : انتخبنا لأهل مصر قاضيا ، قال عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج : ماذا أردت بنا يا أمير المؤمنين ؟ أردت تشهرنا في الأمصار بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتى تولى علينا من غيرنا » (٢) .

ويبدو أن العباسيين في عهد المهدي بدأوا يختارون للقضاء رجالا من أهل الكوفة المتربين بفقه أبي حنيفة ، فقد اختار اسماعيل ابن اليسع الكندي « وهو أول من ولي مصر بقول أبي حنيفة ولم يكن أهل مصر يعرفونه » .

غير أن الولاة العباسيين عادوا الى ممارسة حقهم في اختيار القضاة ، فالمطلب بن عبد الله والي مصر سنة ١٩٨ هـ ولي القضاء الفضل بن غانم الخزاعي ، ثم عاد الخلفاء الى تولية القضاة بأنفسهم مرة أخرى ، فقد ولي هارون بن عبد الله القضاء من قبل المأمون وقدم مصر يوم الأحد الأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ٢١٧ هـ وظل الأمر على هذا النحو حتى سنة ٢٤٦ هـ .

وكان القضاة الذين يختارهم الخلفاء يكتسبون الاستقلال في الرأي ولا يستطيع الولاة أن يتدخلوا في شأنهم ، فقد رفض القاضي

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٧١ .

محمد بن مسروق الذي ولى من قبل هارون سنة ١٧٧ هـ حضور
مجلس الوالى .

ويبدو أن رواتب القضاة فى العصر العباسى قد تضاعفت بعض
الشيء ، فقد كان رزق القاضى عبد الله بن لهيعة الذى ولى القضاء
سنة ١٥٥ هـ فى عهد المنصور ثلاثين ديناراً فى الشهر ، وبلغ مجموع
رواتبه فى السنة ٣٦٠ ديناراً (١) . ويبدو أن هذا تقليد استمر بعد
المنصور . فها هو الخليفة يجرى على القاضى المفضل ابن فضالة
القتبانى نفس هذه الرواتب ، الى أن كانت ولاية عبد الله بن طاهر
فزادت رواتب القضاة زيادة كبيرة حقاً (٢) فقد أجرى على القاضى
عيسى بن المنكدر سنة ٢١٢ هـ سبعة دنائير كل يوم . ويبدو أن هذا
التقليد استمر من بعده ، فالكندى يقول « فجرت فى القضاء الى
اليوم » .

ويبدو أن القضاة ابتداء من العصر العباسى بدأوا يعنون باتخاذ
زى خاص بهم ، يرتدونه فى مجالسهم العامة أو عند ذهابهم للقاء
أمير أو خليفة ، فكان المفضل ابن فضالة القتبانى يتخذ عمامة سوداء
على قلنسوة طويلة ، أو يلبسون كساء أسود من صوف .

وبنمو سلطان القضاة فى العصر العباسى وتنوع اختصاصاتهم
وتعدد قضاياهم نما أعوان القاضى عدداً ووضحوا تخصصاً ، فقد
بدأ القضاة يختارون كتاباً يعاونونهم فى انجاز أعمالهم ، فينظمون
جلسات القضاء ويدونون الأحكام ويكتبونها ، وقد ينوبون عن
القضاة اذا مرضوا . ثم وضع للقضاة اختصاص غريب لم يكن لهم
من قبل ، غفى سنة ١٩٥ هـ أصبح من واجب القاضى التحقق من
الأنساب واثباتها ، فقد كان بعض العرب يتحرشون بأهل الحرس
من المسلمين الجدد ويؤذونهم ويطعنون فى أنسابهم ، فأرادوا أن

(١) الكندى الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٣٥ .

يسجل لهم سجل باثبات أنسابهم • وقد رفض القاضي العمري أن يفعل ذلك أول الأمر ، الى أن ورد اليه كتاب الأمين بتسجيل أنساب هؤلاء الناس • وقد شاعت في ذلك الوقت ظاهرة تزييف سجلات الأنساب والتزوير فيها (١) •

وثمة عامل ثالث كان له أثره البالغ في الجهاز الإداري في العصر العباسي الأول ، وهو موضوع شعار المساواة الذي رفعه الدعاة العباسيون إبان الثورة ، ثم تحول الى زحف وظهور للعناصر الإيرانية في سماء العصر العباسي الأول •

وكان زحف هذه العناصر ملحا متدافعا بدأ بأبي مسلم وانتهى بظهور الأمراء المستقلين الذين أصبح بيدهم توجيه أمور الدولة ، كان الزحف أكثر من المتوقع ، كان الزحف كبيرا ، ولا يعني لنا من هذا إلا ما يمس نظم الدولة •

تسربت العناصر الإيرانية الى جميع الوظائف الصغرى في العاصمة والأقاليم ، ولم يقتنعوا بهذا بل بدأوا يتولون بعض المناصب الخطيرة ذات الأثر في توجيه الدولة مثل منصب الكاتب أو الوزير ، بل احتكروا هذا المنصب زمنا طويلا واشتهرت منهم طائفة أمثال الفضل بن سهل وأحمد بن يوسف والحسن بن وهب وغيرهم •

وتطرقت هذه العناصر الى أرفع المناصب في الدولة مثل منصب الولاية وقيادة الجيش ، بل ظهرت أسر بيروقراطية توارثت المناصب الرفيعة وأطلقت أيديها في أمور الدولة ، مثل البرامكة الذين تولوا السلطة منذ أيام السفاح حتى نكبهم الرشيد ، أو مثل بنى سهل الذين أسلمهم المأمون قياده حتى نكب الفضل بن سهل ، أو مثل الطاهريين في خراسان ، بل دخلت هذه البيروقراطية الجديدة في طائفة أهل الحل والعقد ، وحلت محل الارستقراطية العربية زمن الأمويين •

(١) الكندي : القضاة ، ص ٣٩٨ •

ولم تكن هذه هي الأبعاد الوحيدة لهذا التسرب الايراني ، فقد تسربت الى النظام الحربى للدولة العباسية وأصبحت بمضى الوقت اليد الضاربة للخلفاء العباسيين ، فلقد كانت الثورة العباسية فى مرو مجرد بداية فقط لم يكن من المعقول أن تتقف عند حدود •

وقد دخلت طبقات العمال والفلاحين ميدان الجندية على قدم المساواة وفرض العطاء لهم ، وأصبحوا عمود القوة الضاربة العباسية ، ولم تكن تستطيع أن تأتى أمرا الا بهم • فقد كان الخراسانية أهم العناصر المقاتلة فى الجيش العباسى ، كانوا هم فى الحقيقة حرس الخليفة وقوته الضاربة وبيدهم وحدهم زمام الجيش • وقد فقدت العناصر الخراسانية بعض أهميتها فى آخر عصر الرشيد ، وفى عهد الأمين الذى استعان بفرق الأبناء ، ولكنهم استردوا نفس المكانة اثر انتصار المأمون ، ولم يستبعد العرب من الجيش أول الأمر انما كانت لهم المكانة التالية ، فقد كانت بالجيش العباسى فرقتان : الفرقة المصرية والفرقة اليمانية ، ثم تضاعف شأن هذه الفرق بالتدريج حتى كان عهد المعتصم وابعادهم من الجيش نهائيا واسقاطهم من العطاء • ووجد أن خراسان لم تعد المنبع الوحيد الذى يمكن أن يمد الدولة بحاجتها المستمرة الى الدم المحارب الجديد ، فأكثر من الترك الذين استخدموا على نطاق ضيق زمن المأمون ولكنه جعل الحرس من الأتراك وجاء بالمقاتلة من فرغانة وما وراء النهر (١) وأنشأ لهم العاصمة الجديدة سامرا ، ونقل اليها دواوين الحكومة واشتد ساعدتهم فى عهد الواثق حتى سيطروا على الخلافة فيما بعد •

وسرعان ما تسربت هذه العناصر الجديدة الى مناصب القيادة العسكرية فى جيش الدولة ودخل هؤلاء القواذ من أهل الحل والعقد ، وسرعان ما تحكموا فى اختيار الخلفاء بعد المعتصم ، لم تكتف هذه القوة الحربية النامية بمجرد المشاركة فى النفوذ والسلطان كما شاء

(١) المسعودى : ج ٧ ، ص ١١٨ •

خلفاء العصر العباسي الأول ، انما انقلبت الى الاستبداد والسيطرة ،
سيطرة أتراك المعتصم ثم مجيء البويهيين والسلاجقة ، بل تولت هذه
العناصر مناصب القيادة البحرية في الأساطيل العباسية في المحيط
الهندي وجنوب شرق آسيا •

وما دامت هذه العناصر قد أصبحت قوة الخلافة الضاربة
وسلاحها في تحقيق السيادة وتأكيدها ، فقد فرضت لهم العطاء بأكثر
ممن سواهم وجهزوا بأفضل سلاح وأكمل لباس ، وكان عطاء الجندي
من المشاة زمن أبي العباس السفاح نحو تسعمائة وستين درهما
في السنة فضلا عن الطعام والمخصصات • وكان الفارس يتناول ضعف
ذلك ، ثم تضاعف مقدار العطاء حتى بلغ أقصاه زمن المأمون • ونظمت
فرق الجيش تنظيما على أسس جديدة ، فكان الجند النظاميون يتألفون
من المشاة وسلاحهم الرمح والسيف والترس ، ومن الفرسان الذين
كانوا يلبسون الخوذ والدروع ويحملون الحراب وفؤوس القتال ،
وكان المشاة أو الفرسان يتألفون من وحدات صغرى على كل عشرة عريف
وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد (١) • وكان الفيلق يضم
عشرة آلاف جندي ، ويتألف من عشر كتائب كل كتيبة جنودها ألف
وكانت الجماعة مائة رجل • وإذا اجتمعت بضع جماعات معا سميت
كردوسا ، وكانت كل فصيلة من الرماة تضم جماعة من النفاطين يرتدون
ثيابا لا تخترقها النار ، يهاجمون العدو ويقذفون بالمواد الملتهبة (٢) •
وكان الجيش يرافقه المهندسون الموكلون بآلات الحصار كالعرادات
والدبابات والأكباش • وكانت المستشفيات المتنقلة ومحامل الجسر هي
النقالة على ظهور الجمال تصحب الجيش الى الميدان • وينسب ذلك
التجديد الى الخليفة هارون الذي استخدم العلم الجديد والتكنولوجيا
الجديدة في تسليح الجيش • ويبدو أن ظروف العصر العباسي الأول

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٦ ، ص ٤٥٢ •

(٢) الأغاني : ج ١٧ ، ص ٤٥ •

والأخطار الشديدة التي جابهها والتحديات القوية التي صمد لها ،
قد ألجأتهم الى انشاء أكبر قوة ضاربة في العالم في العصور الوسطى ،
فقد ازدادت أعداد الجند زيادة فظة حتى بلغ الجيش مئات الألوف
وكان في العراق وحده أكثر من ١٢٥ ألفا من الجنود (١) . وكانت
مناطق النفوذ البيزنطي يربط فيها أكثر من مائة ألف جندي ، ويرى
أومان (Oman) (٢) أن العرب بثوا الرعب في قلوب أعدائهم بكثرة
أعدادهم وسرعة حركتهم ، ونقل فليب حتى (٣) في كتابه (تاريخ
العرب) أن رسالة في الأساليب الحربية منسوبة الى الامبراطور ليو
السادس (٨٨٦ — ٩١٢ م) أن العرب أمهر الشعوب وأبرعها في
العمليات الحربية (٤) وتحدث الامبراطور قسطنطين برفرغنتس
«Prophyrogenitus» عن قوة هذا الجيش العربي فذكر أنه اذا
احتل منهم ألف فقط موقعا لما استطاعت قوة أن تنتزعه منهم .

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ١٨١ .

(٢) Art of War 2 ed. Vol. 1. p., 209.

(٣) ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٤) Tactica Consitutio XV. 111. 123.

الفصل الثالث

العباسيون والعلاقات الدولية

يجب أن تحتل السياسة الخارجية للعصر العباسي الأول مكانها^٤ من الدراسات الجادة ، وأن تظهر بتقييم جديد يكشف عن حقيقة الموقف الدولي وجهود الخلفاء فيه ، فقد بذل هؤلاء الخلفاء جهودا تظهر بالتقدير والاعجاب ، وتضعهم في صف واحد مع أوغر المجاهدين المسلمين عملا وأكثرهم اخلاصا ، وأن تنفض عنهم أباطيل الدعايات العلوية ومفترياتها •

فقد تحقق لهم السلم الاسلامي Pox Islamicus وكانت نتائجه الثقافية أبقي أثرا من السياسة ، فلم يكن الأمر مجرد كسب دبلوماسي ، فقد ساعد ذلك على التسرب الثقافي للحضارة العربية التي بدأت في ذلك الوقت تفتح آفاقا جديدة في تركستان وما وراء النهر والهند والشرق الأقصى وصقلية وجنوب ايطاليا ، كما ساعد ذلك على أن يقتبس العرب من الثقافات الاغريقية والهندية والصينية ما طاب لهم •

وفي ظل هذا السلم كان الانتشار التجاري العظيم الذي جعل موانئ البصرة والأبلة وسيراف في مقدمة الموانئ العالمية ، ودفع بالتاجر العربية الى أسوار الصين والى البحار الدفيئة والى حوض الفولجا والرون وشمال غرب أوروبا ، وساعد ذلك على تكديس الثروات واحداث التحول الرأسمالي الذي أشرت اليه من قبل •

وقد ورث العباسيون تركة مثقلة بالمشاكل ، ورثوا مشاكل الساسانيين وعقدتهم ، ومشاكل الأمويين ومعضلاتهم مع البيزنطيين ،^٥ حوض البحر الأبيض المتوسط •

(م ١١ — العصر العباسي)

ونعتبر عهد المعتصم فيصلا في تاريخ هذه العلاقات الخارجية ،
فالخلفاء قبله كانوا يجتهدون ويجاهدون على النسق القديم ، وسنراهم
في آسيا الصغرى يعاملون البيزنطيين نفس المعاملة القديمة ، وفي
تركستان يحاربون الصين ويوقعون بالأتراك الشرقيين ، وفي الهند
يصارعون إمارة قنوج ويستولون على ساحل الهند الغربى ، أعنى
أن الفتوح لم تتجمد في عهدهم إنما تابعوها بنفس عنفوان عمر وعبد الملك
الأمر الذى يدفع الى تقديرهم كل التقدير .

أما في عصر المعتصم والوائق فقد عملت الدولة على تثبيت
الكاسب والاستعانة في تجميد الموقف باتمام اقامة الثغور
والتحصينات ، لتتفيا الدولة الاسلامية ظل الدعة والسلام . ويدخل
العالم في ظل سلام مبسوط الرواق ، فتكاملت حلقات الثغور على
أطراف آسيا الصغرى وعلى أطراف كشمير وعلى أطراف ما وراء
النهر ، وشحنت هذه الثغور بالمرابطين المقاتلة وأدت دورها كاملا
في تحصين الحدود والدفاع عن الدولة ودفع جميع الأخطار .

ولكى نستعرض هذه الجهود الدولية استعراضا ناجحا ينبغى
أن نقسم خريطة العالم الاسلامى في العصر العباسى الأول الى ثلاثة
قطاعات ، كان للعباسيين فيها جولات . قطاع الشام وآسيا الصغرى
والبحر الأبيض المتوسط كله ، ثم قطاع تركستان والصين وأواسط
آسيا ، وأخيرا قطاع الهند وجنوب شرق آسيا .

قطاع الشام وآسيا الصغرى والبحر الأبيض المتوسط :

في هذا القطاع ورث العباسيون المشكلة المستعصية ، مشكلة
النفوذ البيزنطى ، فقد استأصل العرب الساسانية ، ولكن البيزنطيين
تحصنوا في مواقع حصينة في جبال طوروس وآسيا الصغرى وبحر
مرمرة ، يطلون منها في ساعات الضعف أو الانشغال ، ويتقهقرون اليها
في ساعة القوة والوحدة . كانوا من وراء الحركة الصليبية وظلوا
يؤدون دورهم هذا حتى قضى العثمانيون عليهم .

وقد ذاق العباسيون الأول مرارة هذه المشكلة ، ذلك أن الامبراطور قسطنطين الخامس انتهر فرصة انشغال العباسيين بالثورة وأحداثها والتمكن أنفُسهم ، ومواجهة مشاكل المركزية والاقليمية ، وأغار في سنة واحدة على منطقة الحدود وأتى على جهود المسلمين في التحصين ودمر خط حصون الفُرات (١) ثم الخط الممتد من الفرات الى البحر ، وهدد النظام الثغرى كله تهديدا خطيرا (٢) . فحاصر ملطية واستسلم أهلها له . وعندما تولى المنصور الخلافة اهتم بتحصين الحدود إذ أمر صالح بن على باعادة بناء ملطية وتحصينها . ويبدو أنه أول من جعل لمنطقة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا ، فقد ولى عبد الوهاب بن ابراهيم الامام على الجزيرة والثغور وسخر في ذلك العمل الجليل جنود الدولة الجدد ، فقد خرج الحسن بن قُطَيْبَة في سبعين ألفا وجمع العمال من كافة البلاد ، ويذكر البلاذري أن الحسن كان يحمل الأحجار بنفسه احتسابا . وقد استطاع الجند الخراسانية أن يعيدوا بناء ملطية في نحو ستة أشهر . ويبدو من رواية البلاذري أن المنصور هو الذي وضع أساس النظام الثغرى الذي وصل الى حد الكمال زمن المعتصم ، فكان يقسم المرابطين الى جماعات تتألف من عشرة من المقاتلين أو خمسة عشر ، ويبنى لهم البيوت والاصطبلات ، ويبنى لهم حصنا على بعد ثلاثين ميلا من دار اقامتهم . وحشد في ملطية عشرة آلاف مقاتل وزاد عطاء المقاتل عشرة دنانير وخصص له معونة قدرها مائة دينار ودبر السلاح وأقطع الجند المزارع ، فوضع حدا لمطامع قسطنطين (٣) .

ويبدو أن جهود المنصور في التنظيم والترتيب امتدت الى كل ناحية ، ففضلا عن تحصينه مناطق الثغور على النحو الذي رأيناه ، فإنه

(١) اليمتوي : ج ٣ ، ص ٩٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٩٠ .

(٣) البلاذري ص ١٩١ — ١٩٢ .

يتبين من نصوص البلاذري (١) أنه حدد أسلوب القتال وتقاليده .
هذا الأسلوب وهذه التقاليد التي حافظ عليها الخلفاء الذين تعاقبوا
بعده ، ففي عهده نظمت الصوائف والشواتي ، فقد كانت هناك أوقات
معينة يغير فيها المرابطون في الثغور تحدث في فصل الربيع والصيف
وتسمى بالصوائف . ويبدو أن ممن اشتهر بالبطولة في ميدان الصوائف
في عهد المنصور رجل يدعى مالك بن عبد الله الخثعمي (٢) الذي بلغ
من شدة بلائه في الحرب وظفره فيها وغنائمه الكثيرة منها أن سمي
مالك الصوائف . وقد استولى في إحدى الغزوات على غنائم طائلة
أقام يوزعها بموضع يدعى الرهوة فسميت رهوة مالك . يشير قدامة
ابن جعفر (٣) الى أن غزو الربيع كان يبدأ في منتصف مايو بعد أن
تكون الخيل قد سمنت وقويت من رعيها ، ويستمر الغزو ثلاثين يوما
أعني حتى منتصف شهر يونيو ، وتجدد الخيول أثناء هذه الغارات
الغذاء الوفير والمرعى الخصيب في أرض البيزنطيين التي تعبت فيها ،
ثم يركن المسلمون الى الراحة حتى منتصف يوليو ، فتبدأ غارات
الصيف وتستغرق قرابة الشهرين ، أما الشواتي فكانت في الفترة بين
مستهل فبراير والمنتصف الأول من مارس . كما يكشف عن الجهود
التي بذلها المنصور في تحصين منطقة الثغور ، فيذكر أن منطقة الثغور
إذ ذاك كانت اما ثغورا جزرية خصصت للدفاع عن شمال العراق وأهم
حصونها ملطية وزبطرة ومرعش ، والحدث والمصيصة (٤) . أو الثغور
الشامية وتقع في جنوب غرب الثغور الجزرية . وقد خصصت للدفاع
عن بلاد الشام . ومن أشهر حصونها طرسوس وأذنة وعين زربة
والهارونية . وكانت الثغور الشامية تتولى الغزو في البر والبحر على
حد سواء ، فيقوم أمير البحر بجمع أساطيل الشام ومصر لتشارك
في غزو مشترك .

(١) البلاذري : ص ١٩٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الخراج : ص ٢٥٩ .

(٤) قدامة : ص ٢٥٣ .

وتابع المهدي نفس الاتجاهات التي وضحت في عهد المنصور من بناء الحصون وحشد الجند • بل كان احساسه بالمشكلة البيزنطية لم يقل عن احساس معاوية أو عبد الملك بن مروان ، فتصدي للامبراطور البيزنطي ليو الرابع والحملات التي قام بها على منطقة الثغور • فقد وجه الحسن بن قحطبة وساح في بلاد الروم وثقلت وطاته على أهلها حتى صوره في كنائسهم (١) « ولم يكتف بما أحرزه الحسن بن قحطبة من نصر بل قرر أن يقود المعركة بنفسه وأن يصطحب معه ابنه هارون • وبعد أن أدرك أرض البستان قرر الرجوع تاركا أمر القيادة الى هارون الذي مضى مخترقا آسيا الصغرى على نحو ما كان الأمويون يفعلون • وقد خرج هارون يوم السبت لحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ١٦٥ هـ وخرج في ركابه ذلك الجيش الجديد الذي كان المنصور والمهدي قد فرغا من اعداده وتدريبه • ويذكر الطبري أن الجيش الذي قاده هارون بلغ خمسة وتسعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وتسعين ، وحمل له من العين مائة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين دينارا ، ومن الورق واحدا وعشرين ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم (٢) • الأمر الذي يدل على أن الدولة العباسية كانت تلقى بثقلها كله في هذه الحرب الضروس • وتوغل هارون في آسيا الصغرى ودمر حصن ماجدة وواصل سيره حتى أشرف على خليج البحر الذي على القسطنطينية • وكانت حملة هارون خاتمة الحملات العربية على البسفور • شهد عهد معاوية ثلاث حملات وشهد عهد سليمان الحملة الرابعة • وقد أظهر هارون في هذه الغزوة من البسالة ما أهله لحمل لقب الرشيد • وكان من أثر ذلك النصر أن الامبراطورة ايرين اضطرت الى طلب الصلح ، وعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، وتعهدت الامبراطورة بموجبها أن تدفع جزية سنوية قدرها تسعون قطعة « أو سبعون ألفا

(١) البلاذري : ص ١٩٤ •

(٢) الطبري : ج ٩ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ •

تؤديها في نيسان الأول من كل سنة وفي حزيران « وأن تمتد الجيش العباسي بالأدلاء وتيسر لهم المؤن في الطريق * ويعدد الطبري غنائم هارون من الأسرى على هذا النحو » أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمئة وثلاثة وأربعين رأسا ، وقتل من الأسرى صبورا ألفا وتسعون أسيرا ، ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بادواتها عشرون ألف دابة ، وذبح من البقر والغنم مائه ألف رأس » (١) .

اذن في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية تكبت الثورات وتنقضي على الخارجين على سلطانها وتحقق النمط المركزي من الخلافة ، كانت تواجه المسكلة البيزنطية بنفس النظر والاحساس * ولعل هذا النصر هو الذي مكن المهدي من أن يفرض الطاعة في آسيا الوسطى . فيشير اليعقوبي (٢) الى أن ملوك كابل وطبرستان والصغد وطخارستان دافوا له بالطاعة والولاء .

ثم حدثت تطورات جديدة في المسكلة البيزنطية بل في علاقات الخلافة بالبحر الأبيض المتوسط عامة في عهد الخليفة هارون الرشيد . ومعالم هذه التطورات الجديدة في حاجة الى مزيد من التوضيح . منها شخصية الخليفة نفسه ، فلم يكن بالخليفة العايب اللاهي كما يصوره القصص انما كان من الخلفاء الذين أوتوا سعة الأفق وحسن القيادة بل الحماس والحمية * يتبين هذا من مراسلاته مع نقفور امبراطور الدولة البيزنطية ، ومن قيادته لاجنود بنفسه في حملة هرقل المشهورة ، كما عاد يقود الجيوش مرة أخرى بعد قضائه على ثورة رافع بن الليث * كان هارون فعلا من الشخصيات اللامعة بين جيل خلفاء العصر العباسي الأول .

وثمة تدور آخر وهو سيره في نفس الطريق الذي سار فيه

(١) الطبري : ج ٩ ، ص ٣٤٧ .

(٢) اليعقوبي : ج ٣ ، ص ١٣١ .

المنصور والمهدى من قبل وهو استكمال تحصينات منطقة الثغور ،
فقد أقام منطقة جديدة أطلق عليها اسم منطقة العواصم (١) . وكان
هذا الاقليم في الحقيقة جزءا من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله
وجعل عاصمته منبج ورتب لها جيشا دائما يربط على طول الحدود .
كذلك عمر مدينة طرسوس وأمر ببناء مدينة عين زربة (٢) ووضع
فيها الجند الخراسانية وأقطعهم الأرض ، كما بنى مدينة الهارونية
يرابط فيها الجند بالسلاح ، يضاف الى هذا كله أن الجيش العباسي
في عهد هارون تكامل قدرة ونظاما وتدريبا وكفاية ، بدليل القوات
الهائلة التي جندها في منطقة العواصم والفرق التي سخرها في حملاته
المتكررة والتي تدل على حسن التسليح وكفاية التدريب . ويروى
الطبرى (٣) أن الجنود الذين اشتركوا في حملة هرقله بلغوا ١٣٠ ألفا
من المرتزقة سوى الأتباع والمطوعة ومن لا عطاء له . وقاد داود
ابن عيسى في بعض الحملات سبعين ألفا ، وقاد شراحيل بن معن
ابن زائدة مثل هذا العدد . وكذلك فعل يزيد بن مخلد . كان الجيش
العباسي في عهد هارون أكفأ الجيوش التي عرفها العالم اذ ذاك .

وهناك أمر آخر ربما اشتهد وضوحه في عهد الرشيد بالذات وهو
وضوح الجانب البحري في ذلك الصراع الدموي الذي نشب بين
البيزنطيين والعرب ، والذي يدل على أن سقوط الدولة الأموية لم يقلل
من شأن النشاط البحري كما كان يظن ، فقد أشار الطبرى في حوادث
سنة ١٩٠ هـ (٤) الى أن الخليفة ولى حميد بن معيوف سواحل بحيرة
الشام وأنه غزا رودس وقبرس ، وأسر في إحدى هذه الغزوات
ستة عشر ألفا من الأسرى . وتتابع النشاط البحري حتى بعد الرشيد ،
ليستطيع العرب أن يقضوا على النفوذ البيزنطي في البحر الأبيض

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٠ — البلاذرى ص ١٩٤ .
Lestrange p. 129.

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٨

(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٩ .

(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٩٩ .

المتوسط شرقه وغربه ، فقد احتل الأندلسيون الذين طردهم عبد الله ابن طاهر من الاسكندرية جزيرة كريت (١) وحملهم زعيمهم أبو حفص في أربعين سفينة فنزلوا الجزيرة وتمكنوا من السيطرة عليها . ولم تجد حملات ميخائيل الثانى في طردهم منها ، بل أخذ عرب كريت يرسلون الحملات لنهب الجزر المجاورة والاغارة على بلاد اليونان (٢) . وتطلع الأغلبة الى صقلية ، وان كان هذا التطلع أقدم من الأغلبة أنفسهم . فقد استولى المسلمون على جزيرة بانتاليريا سنة ٧٠٠ م ، وقام ولاية افريقية بغارات خاطفة على الجزيرة بين سنتى ٧٥٢ ، ٧٥٣ م وظل الأمر على ذلك حتى عام ٨٢٧ م حينما ثار القائد البيزنطى يوفيمىوس (٣) الذى خشي غضب الامبراطور البيزنطى فلجأ بسفنه الى تونس ، وطلب المساعدة من الأمير زيادة الله الأغلبى الذى أنفذ أسطولاً يتألف من نحو مائة سفينة . وفى سنة ٨٣١ م احتل المسلمون بالرمو التى أصبحت قاعدة الحكم الأغلبى . وظلت الحروب متصلة مع البيزنطيين حتى عام ٨٥٩ م ، وفى هذه الأثناء كان المسلمون قد احتلوا مملكة مسينة سنة ٨٤٣ م ، وقصريانه وسرقوسة وهدد المسلمون نابولى وروما . وأجبروا أحسد البابوات على أن يدفع لهم الجزية بين سنتى ٨٨٢ ، ٩١٥ ونشرت المستعمرات الحربية التى أنشأها المسلمون فى جنوب ايطاليا الرعب والفرع فى كامبانيا ولاتوم (٤) .

ومن المظاهر الأخرى التى جعلت لعصر هارون وسياسته الخارجية طابعاً خاصاً جنوحه الى تحقيق النمط الفدرالى فى الحكم باعطائه الولاية مزيداً من السلطة مع مزيد من الرقابة ، وأدى هذا الى

(١) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض ، ص ٢١١ .

(٢) Finlay. : Hist. of the Byzantine Empire. p. 128.

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٩٧٠ .

(٤) هازيبايف : العرب والروم ، ص ١٨٤ .

أن أعطى عامل الثغور سلطات أكبر وقدرة على العمل والحركة مكنته من مواجهة هذه المواقف المتغيرة • وبلغ من اهتمام الرشيد أن ولى ابنه المعتصم على هذه المنطقة الحربية الهامة • والأمر الذى مكن الرشيد من أن يواجه المشكلة البيزنطية بتركيز أشد وأقوى موقفه من التطورات التى حدثت ببلاد الأندلس والمغرب عقب قيام الدولة العباسية ، والتى استنفدت جهود المنصور والمهدى من قبل • فقد اعترف بالأمر الواقع فى الأندلس وفى المغرب الأقصى على حد سواء ، واعترف بالأغلبية أمراء مستقلين فى نطاق التبعية للخلافة العباسية ، فتحولت إفريقية الى ثغر عباسى يمكن لهم من النفوذ فى إفريقية ويحمى مصر من أى عدوان خارجى • وظل الأغلبية رسل العباسيين الأوفياء فى الشطر الغربى من البحر الأبيض المتوسط • ومعنى ذلك أن أثقلا كبارا قد أزيحت عن كاهل العباسيين وأعطتهم قدرة أكبر على الحركة مكنتهم من التفرغ للمشكلة البيزنطية من ناحية ومن توطيد سلطانهم بالشرق من ناحية أخرى •

على أن الأمر الجدير بالتنويه فى موقف هارون الرشيد أنه استخدم الدبلوماسية سلاحا يخوض به تلك المعركة التى اشتعلت فى البر والبحر على حد سواء ، بتقريبه من شرلمان ومملكة الفرنجة ، فقد أخذت العلاقات تزداد سوءاً بين الفرنجة والامبراطورية البيزنطية وكانت البابوية من ناحيتها أحرص ما تكون على أن تحول بين الفرنجة وبين البيزنطية وعلى الرغم من أن السفارات تبودلت بين قسطنطين الخامس وبين القيصر عام ٧٥٧ ، ٧٦٥ م فإن البابا هرّض ملك الفرنجة على احتجاز السفراء البيزنطيين الذين وفدوا اليه •

وكان العمل الدبلوماسى الذى تحقق فى عهد هارون هو التقارب بينهما وبين الامبراطور شرلمان • والغريب أن ظروف كل من العاهلين وأمهاتهما كانت تملئ هذا التقارب وتحتّمه •

وشرلمان كان قد وثق علاقته بابابوية وتوج امبراطورا في عام ٨٠٠ ميلادية (١) ، وكان يشعر بأن الامبراطورية البيزنطية لن تنصر الى ذلك الاتجاه نظرة الرضا والارتياح بل نظرة العداء الشديد (٢) . وكان شرلمان من ناحيته أخرى على معرفة بالعداء التقليدي بين العباسيين في الشرق وبين الأمويين في الأندلس ، وكان يتمنى أن تطول حالة الفوضى التي آلت ببلاد الأندلس آخر عصر الولاة . وساءه أن تقوم امارة قوية في البلاد تحقق الوحدة الوطنية وتنشئ الجيش القوى ، وتقهر الفتنة الداخلية وتخلص البلاد من متاعبها . وتحول دون اتصال الكنيسة الكاثوليكية في روما بجماهير الكاثوليك في البلاد ، وتمنع التقارب بين الامارات القوطية والبابوية الناهضة ، وخصوصا بعد أن أخفقت حملته على سرقسنة وتأكد أن الأندلس في عهد الأمويين لا يمكن أن تؤتى بسهولة . نضيف الى هذا أن أطماع شرلمان لم تكن تعرف حدا ، فقد أراد أن ييسط رواقه على المسيحيين في الشرق ، ولا بأس من أن ينتقض من نفوذ البيزنطيين وأن يصبح حامى حوى الديار المقدسة ، وكذلك كانت له أطماعه الاقتصادية . ففقد أنشأ أسطولا في البحر الأبيض المتوسط ومد نفوذه في جزر البليار وسردينية وجنوب ايطاليا وحاول السيطرة على البندقية وايستريا وذلماشيا ، فكان تقاربه من العباسيين يحمل في طياته مشروعات اقتصادية (٣) . وهارون هو الآخر كان يريد بهذا اللقاء أن يحقق أهدافا : كان يريد أن يقض مضاجع الأمويين في الأندلس بعد أن أخفقت جهود المنصور في القضاء عليهم ، وكان يعتقد أن شرلمان العاهل الأوروبي قد يشغلهم بتهديده المستمر عن التطلع الى مزيد من النفوذ في افريقية أو الشرق . وكان في ذلك الوقت يضيق

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٢) رفض نقفور الاعتراف بلقب شرلمان الامبراطور وبدأت الحرب السفارة بين الامبراطوريتين .

انظر ارشيبيلد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٧٣ .

(٣) ارشيبيلد لويس : ص ١٨٢ .

الخفاف على البيزنطيين في البر والبحر على النحو الذي أشرنا إليه .
رحان يريد أن يمنع التحالف بين البيزنطيين والفرنجة بأية وسيلة .

وتبودلت السفارات بين الرشيد وشرلمان (١) ففي عام ١٨٠ هـ
بعث شرلمان وفدا مؤلفا من ثلاثة رجال اثنان من الأفرنج وتخص
ثالث يهودى يدعى اسحق (٢) ، وفي سنة ٨٠٦ م وهدت سفاره الرشيد
على شرلمان ومعها وفد يمثل الأغالبه في تونس . وفي عام ١٨٦ هـ
بعث شرلمان سفارة اخرى الى بلاط الرشيد .

وكان شرلمان يعمل جاهدا في ظل هذا التقارب على توثيق
صلاته ببطريق القدس . ففي سنة ٧٩٩ م وصل رسول بطريق القدس
الى بلاط شرلمان ، كما أوفد الامبراطور رسولا الى بيت المقدس (٣) .
ويبدو مما ذكره كل من رنسيومان وبكلر أن بطريق القدس كان حلقة
الاتصال في تحقيق هذا التقارب التاريخي .

بهذه الأسلحة جميعها واجه الرشيد المشكلة البيزنطية أعظم
مواجهة عرفها تاريخ النضال بين البيزنطيين والعرب . ويشير
الطبرى (٤) الى غضبة الرشيد من نقض نقفور شروط الهدنة السابقة
وهجومه على هرقله (٥) وهزمت قوات البيزنطيين ، ثم عاود الرشيد
الهجوم بعد قضائه على ثورة رافع بن الليث فاتخذ بيانا مركزا لعملياته
الحربية وبنى فيها منزلا ، ووجه داود بن عيسى متوغلا في آسيا
الصغرى على رأس سبعين ألفا من المقاتلة ، كما بعث حملة أخرى
يقودها شراحيل بن معن بن زائدة ، وحملة ثالثة قادها يزيد بن مخراد ،

(١) اولى السفارات بين العباسيين والفرنجة أوفدها بين الى بغداد
سنة ٧٦٥م وتعددت هذه السفارات بشكل ملحوظ اواخر أيام شرلمان .
ارشيلد لويس : ص ١٧٨ .

(٢) Buckler; Harunul — Rashid. p. 21.

(٣) Sunciman; Charlemagne and Palestine p. 609.

(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٦٩ .

(٥) ارشيلد لويس : القوى البحرية والنجارية ، ص ١٧٢ .

واستمرت هذه الحملات تلاحقة نحواً من ثلاثين يوماً وأخفقت جهود نقفور في وقف هذا التيار الجارف ، فلم يجد مناصاً من التسليم « وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين (١) كما تعهد ألا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد عام ١٩٣ هـ (٨٠٨ م) •

ولكن يبدو أن جهود الرشيد كانت قد تركت جرحاً عميقاً في جسم الدولة البيزنطية لم تستطع أن تفيق منه في سهولة ويسر • يدل على هذا أنها لم تحاول أن تستغل التصدع في داخل الدولة العباسية ابان الفتنة بين الأمين والمأمون • وكانت الفتنة فرصة مواتية لأي مخطط مضاد يستعيد ما فقد في عهد الرشيد •

كما أن التفاهم الذي توطد بين العباسيين والفرنجة لم يخطف بوفاة هارون إنما ظلت أواصره معقودة حتى أوائل عصر المأمون • ويذكر Buckler (٢) أن آخر السفارات التي وصلت الى البلاط العباسي كانت سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٣) الأمر الذي يدل على أن التفاهم استمر بعد الرشيد مدة طويلة ، ولعله كان من بين الأسباب التي حالت بين البيزنطيين وبين مواصلة العدوان •

ثم استطاع المأمون أن يعيد للدولة وحدتها • وبالخراسانية الجديدة هزم جيوش الأمين وآلت اليه مقاليد الأمور • واستمرت مكاسب عصر الرشيد وفعالية الدولة في مواجهة الخطر لم تفتر أو تتغير • ويبدو أن كلا الطرفين كان يريد أن يستفيد من الفتنة الداخلية التي تقع داخل المعسكر الآخر • فقد حاول المأمون مثلاً

(١) الطبري : ج ١٠ ، ص ٩٩ •

(٢) ص ٣٧ •

(٣) أرشيبلد لويس : ص ١٩٨ •

أن يفيد من الفتنة التي تزعمها توماس الصقلي (١) بين سنتي ٨٢١ ، ٨٢٣ م الذي دعا الى خلع الامبراطور • ووقف المأمون الى جانب هذا الثائر وحالفه على أن يمسده بقوات تعيينه على فتح القسطنطينية (٢) ، كما أوعز المأمون الى بطريق القسطنطينية أن يتوج هذا الثائر ليضفي على حركته طابعا شرعيا • لكن توماس هزم وقتل على أبواب القسطنطينية • وأراد ميخائيل الثاني أن يرد هذا الكيد فانتهاز فرصة ثورة بابك الخرمي فأعانه على المأمون (٣) •

وكان المأمون في بعض الأحيان يقود الصوائف متوغلا في أرض العدو ، فقد خرج سنة ٢١٥ هـ سالكا طريق الموصل ومنبج ودابق وأنطاكية والمصيصة • طرسوس (٤) في الوقت الذي تقدم فيه العباس ابن المأمون من ملطية واستولت القوات العباسية على حصن قرة وماجدة وسندس وسنان • وقد عاود المأمون الغزو مرة أخرى سنة ٢١٦ هـ (٥) • ثم استؤنف القتال مرة أخرى عام ٢١٧ هـ وأرسل تيوفيل يطلب الصلح ولكن يبدو أن المأمون كان يريد أن يمضي في القتال الى غايته وأن ينطلق الى عمورية (٦) لكنه توفي قرب طرسوس عام ٢١٧ هـ (٧) •

على أن القوة الضاربة للدولة العباسية وصلت الى أقصى شدتها في عهد فارس بنى العباس المعتصم بن الرشيد الذي أراد أن يحقق ما حققه السلاجقة فيما بعد ، وأن يخترق الهضبة اختراقا بطوليا ، وأن يوقع بالدولة البيزنطية ويضربها ضربة قاصمة • قال المعتصم

(١) لويس : القوي البحرية والتجارية ، ص ١٦٨ . الباز
العريني : الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٠ .
(٢) الباز العريني : ص ٢٣١ .
(٣) الطبري : ج ١٠ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٩ .
(٤) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٨٠ .
(٥) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٨١ .
(٦) اليعقوبي : ج ٣ ، ص ١٩٦ .
(٧) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

« أى بلاد الروم أمنع وأحصن فقليل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام ، وهى عين النصرانية وبنكها وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » (١) . اذ يروى المؤرخون أنه تجهز بما لم يتجهز به خليفة من قبل من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ، وجعل على مقدمته أشناس ويثلوه محمد بن ابراهيم وعلى يمينته ايتاخ وعلى يسرته جعفر ابن دينار وعلى القلب عجيف بن عنيسة » (٢) . وبهذا الجيش الكثيف دخل عمورية ، وبذلك استشعرت الدولة البيزنطية الخطر الفادح الذى يهددها ، فاستنجد تيوفيل بصاحب البندقية ودولة الفرنجة وبالأمويين فى الأندلس ، ولم تستطع الحملة أن تحقق الغرض الذى خرجت لتحقيقه بسبب بعض الاضطرابات الداخلية فى الجيش . وكانت هذه الغزاة خاتمة الجهود البطولية التى وضحت فى عهد الرشيد ولم تكن جهود المأمون والمعتصم الا نتيجة للجهود الكبيرة التى بذلت فى عهد الرشيد .

ويستفاد مما رواه الطبرى أن سنة ٢٣١ هـ (٣) شهدت تخولا خطيرا فى المشكلة البيزنطية اذ شهدت توقف ذلك الصراع الدموى الذى استمر أكثر من تسعين سنة ، وتحقق السلام على الحدود الفاصلة بين الدولتين ، وأنه فى تلك السنة اتفق الطرفان على تبادل الأسرى على ضفاف نهر اللامس قرب طرسوس ، وحضر الفداء خاقان الخادم وجعفر بن أحمد الحذاء وأحمد بن سعيد بن سلام بن قتيبة الباهلى أمير الثغور ، وحضرت مفاوضات الفداء فرقة عباسية تتألف من نحو سبعين ألفا من حملة الرماح (٤) . ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر والبيزنطيون على الجانب الآخر . وتم الاتفاق على فداء كل

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٣٥ .

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٣٥ — ٣٤٣ ، تفاصيل غزاة المعتصم فى غاية الطسرافة والاهمية .

(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩ — ٢١ .

(٤) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢١٧ .

نفس بنفس دون تفرقة بين كبير أو صغير فتى أو شيخ (١) وأقام البيزنطيون جسرا على النهر وكذلك فعل المسلمون (٢) وأمر الواثق خاقان الخادم أن يمتحن الأسرى من المسلمين فمن قال ان القرآن مخلوق وبأن الله لا يرى في الآخرة فودى به وأعطى ديناران وثوبان (٣) ومن رفض ترك للروم (٤) .

ثم بدأ اطلاق الأسرى فكان المسلمون اذا أطلقوا أسيرا أطلق الروم أسيرا مثله فيلتقيان وسط الجسر ، فاذا وصل الأسير المسلم الى عشيرته كبروا واذا وصل الأسير الرومى الى أصحابه صاحوا صيحة الفرح ، وكان عدد من افتدى من المسلمين ٤٤٦٠ نفسا ، النساء وأزواجهن وأولادهن ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة . وكانت الدولة تعطى الطليق فرسا وألف درهم (٥) ومن المشاهير الذين تم اطلاق سراحهم مسلم بن أبى مسلم الجرمى ، فقد كان من مشاهير أهل الثغور ، وعلى معرفة بأهل الروم وأرضهم . وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب فيهم (٦) .

ولعل هذا التطور يدعونا الى أن نشال لماذا تحقق هذا السلم ولماذا فترت هذه الحرب . المظاهر ضعفت في جسم الدولة البيزنطية ومظاهر قوة من جانب الدولة العباسية ؟ . وهل هذا العداء يستحق هذه الضحايا وهذه النفقات التى بذلت ؟ . واعتقد أن العباسيين كانوا راغبين فى السلام بعد أن قل اهتمامهم بالبحر الأبيض المتوسط وبلاد الشام ، وبدأوا يوجهون مزيدا من الانصراف الى أواسط آسيا . هذا وقد تكاملت الحصون بناء وشحنت عتادا ورجالا مرابطين ،

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٧ .

(٤) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٠٩ .

(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٢ .

(٦) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٠٠ .

واكتسبت منطقة الثغور استقلالاً في الإدارة وقدرة على الحركة ،
وفي مكنتها أن تقوم بمهمة الدفاع عن الحدود بعد أن فطرت الرغبة
في الهجوم • يضاف الى هذا أن ثمة أمورا داخلية بدأت تميز عصر
الوائق وتستحق مزيدا من الاهتمام ، فقد ثار القيسية بدمشق (١)
وانتشرت ثورات العرب بعد اسقاطهم من العطاء ، وبدأ الأتراك تزداد
متاعبهم ومشاكلهم • وكانت الدولة البيزنطية من ناحيتها أشد رغبة
في التفاهم بعد صدمة عمورية وفقدانها أغلب قواعدها في البحر
الأبيض المتوسط وخاصة كريت وصقلية • ومن حسن الحظ أن هذا
السلام أعطى مزيدا من فرص التبادل الفكري والثقافي وأنه حدث
في وقت آذنت فيه أمضاع الخلافة بالاختلال وانتهت فترة العصر
العباسي الأول ولاحت نذر العصر العباسي الثاني •

* * *

قطاع التركستان ووسط آسيا :

وللعباسيين دورهم المرسوم في تاريخ العلاقات العربية التركية
وفي انتشار الاسلام بين أوطان الترك ، ودورهم هذا لا يقل أثرا عن
الدور الذي اضطلع به الأمويون •

فقد كان واضحا أن خطر الأتراك الشرقيين المتدافع نحو حدود
اقليم ما وراء النهر يدفعه خطر أقوى ، هو الخطر الصيني ، فقد كانت
الأطماع الصينية لا تقف عند حد ، بسط الصينيون نفوذهم السياسي
على الأتراك الغربيين أيضا وان كنا نعتقد أن المطامع الصينية ليست
لمجرد فرض السيطرة السياسية ، إنما القصد منها الاستيلاء على طرق
القوافل التي تعبرها متاجر الشرق الأقصى الى ما وراء النهر والشرق
الأوسط وأوربا •

وكان لابد لكي تقهر مقاومة الأتراك الشرقيين أن تعزل الصين
عن المعركة وأن يقضى على أطماعها قضاء تاما وهذا هو ما استطاعه
العباسيون فعلا •

(١) اليعقوبي : ج ٣ ، ص ٢٠ •

فقيام الدولة العباسية صحبه ظهور الأطماع الصينية ساغرة (١) ،
فقد ألجوا الأتراك الشرقيين وبدأوا يغيرون على أطراف اقليم ما وراء
النهر ، فقد استولوا على سوباب وخربوها ، ثم هاجموا اقليم التاش
وقتلوا عامله ، وبدأ النفوذ الصينى يزحف نحو الغرب زحفا مطردا ،
على أن العباسيين نهضوا بالأمانة كاملة واستطاع عاملهم زياد بن صالح
الخزاعى أن يهزم جيش الصين الذى كان يقوده (كاو — هين — شيه)
فى يوليو عام ٧٥١ م (٢) .

وكان هذا النصر من أعظم الانتصارات العربية فى تاريخ آسيا
الوسطى من حيث الهزائم التى لحقت بجيش الصين ، ومن حيث
النتائج العامة التى ترتبت عليه فى تاريخ آسيا الوسطى ، وتذكر
الروايات العربية أنه قد سقط فى المعركة نحو من خمسين ألف قتيل
من جيش الصين ، ووقع أكثر من عشرين ألفا فى الأسر ، ويعلق بارتولد
على هذا النصر وعلى أهميته القصوى فيذكر أن تركستان فى ذلك
الوقت كان عليها أن تقرر الى أى المدينتين تتحاز ، الى المدينة الصينية
أو الاسلامية (٣) .

ويبدو أن هذا النصر الحاسم لم يضع حدا لأطماع أهل
الصين فقد عاودوا الظهور وقاموا بمحاولة أخرى لتأليب الحكام
الوطنيين على العرب ، وان كانوا لم يجروها على الاشتباك المسلح ،
ومراجع الصين تشير الى نصر أحرزه أهل الصين على العرب فى أقصى
الجنوب الشرقى عند حدود الهند ، ولكن هذه الأخبار لا تؤيدها
المصادر العربية .

(١) ابن الاثير : ج ٥ ، ص ٢١٤ .

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم ، ص ٧٤ — ٧٥ ، الطبرى : ج ٩ ،
ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) Barthold; Hist. of Central Asia p. 11—12.

(م ١٢ — العصر العباسى)

كان من أثر ذلك أن أبعدت الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين ، وبات على هؤلاء أن يلقوا العرب اعتمادا على جهودهم وحدها ومواردهم وحدها ، وقد وضحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقا ، فقد ضعف عدوان الأتراك الشرقيين ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل •

فقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين وقامت لهم امارات صغرى متناثرة حول حدود اقليم ما وراء النهر ، فظهرت امارة القرلوق سنة ٧٦٦ م شرقى نهر سيحون . كما ظهرت امارة الأغوز في هذه المنطقة أيضا ، ولم تعد جموع الأتراك الشرقيين تشكل خطرا فادحا على اقليم ما وراء النهر • بل أصبح لا هم لهم الا الغارات الخاطفة أو مد يد المعونة لولاة الأتراك الثائرين من ناحية أخرى •

وقد عمد العباسيون الى بناء الأسوار عند رشت وقرب بخارى وفي بلاد الشاش لاهطاء الاقليم الحماية والطمأنينة التى لا بد منها لتستمر المشروعات الاسلامية في طريقها الى النجاح (١) •

هكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية في تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى (٢) •

وقد كان العباسيون يتابعون حمل هذا العبء الكبير وهو مهاجمة الأتراك الشرقيين كلما لاح لهم عدوان ، والقضاء على فتن الأمراء المحليين اذا حدثتهم أنفسهم بالثورة ، ففى عهد المنصور حارب العرب أمير فرغانة واضطروه الى طلب الصلح ودفع الجزية (٣) وتابع المهدي سياسة المنصور بإرساله حملة أحمد بن أسد أخضعت أخشيد

(١) طبرى : ج ٩ ، ص ١٥٠ •

(٢) Jean. — paul — Boux L, Islam en Asia p. 35.

(٣) البلاذرى : ص ١٩٢ •

الصغد وصاحب أسروشنه وملك فرغانة وحكام القزلوق وخاقان الأوغوز • وتمضى المصادر العربية فى وصف هذا التغلغل العباسى فتشير الى خضوع ملك التبت وامبراطور الصين •

والأمر الجديد هنا أن العباسيين بدأوا يسيطرون نفوذهم خارج حدود اقليم ما وراء النهر ويخضعون الامارات الشرقية المجاورة ، بل أوغل نفوذهم صوب الشرق بصورة لم تشهدا المنطقة من قبل ، كما وضح أن الأتراك الشرقيين قد تفرقت كلمتهم وفقدوا عنفوانهم القديم وبدأوا يستسلمون للحكم العربى أو يذعنون له بالطاعة (١) •

انظر الى حملات هارون الرشيد بقيادة واليه الغطريف بن عطاء والى توغلها فى مناطق لم يكن العرب يجراؤون على اقتحامها من قبل ، فقد بسط نفوذ العباسيين على امارة القزلوق مرة أخرى وطرد ملكها ، كما استطاع الفضل بن يحيى البرمكى أن يخضع ملك أسروشنه الذى لم يخضع لنفوذ من قبل •

وقد وضحت ثمار هذا النصر العباسى فى عهد الخليفة المأمون رأوغل النفوذ العباسى فى قلب آسيا الوسطى (٢) •

وقد أرسلت الجيوش الى بلاد الصغد وأسروشنه وفرغانة ، وتوافد سفراء الامارات الشرقية الى بلاط المأمون لتقديم فروض الطاعة ، وعلت كلمة العرب فى هذه المنطقة وأصبح ملوك القزلوق والتبت خاضعين للنفوذ العباسى يظهرون الطاعة ويبعثون بالهدايا وتفرض عليهم الجزية ، ولم يعد نفوذ العرب قاصرا على اقليم ما وراء النهر فحسب، بل امتد الى أسوار الصين •

(١) البلاذرى : ص ٣٩٣ ، ٤١٨ •

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٩ •

العباسيون وانتشار الاسلام في وطن الأتراك :

وكما حددنا للعباسيين دورهم الواضح في المجال السياسي والعسكري ، يمكننا أن نجدد الدور الذي قاموا به في انتشار الاسلام والثقافة العربية في وطن الأتراك •

ويمكننا أن نقول ان العباسيين وجدوا حركة اسلامية ضخمة انتشرت في خراسان وفي اقليم ما وراء النهر ، وكانت بلاد ما وراء النهر طوال العصر الأموي تابعة اداريا لولاية خراسان ، واستطاع العباسيون أن يستغلوا هذه الحركة لصالحهم ، وأن يكسبوا رضاها وتوطئة للقضاء على الحكم الأموي ونقل النفوذ اليهم ، اذ لا يمكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود ، ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر لنشر دعوتهم عبثا •

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية الى اقليم خراسان وما وراء النهر في أواخر العصر الأموي ، واضطلع بها قبل أبي مسلم يحيى بن زيد العلوي ، وابراهيم بن محمد العباسي^(١) •

وكان منطق الدعاة العباسيين في ذلك الوقت يجذب اليه هؤلاء المسلمين الجدد ، فقد كانوا يدعون لاهياء سنة رسول الله التي زعموا أن الأمويين قد نقضوها ، ثم الدعوة الى أن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والدينية بصرف النظر عن لونهم أو جنسيتهم • ولا يمكن أن يغفل هؤلاء المسلمون دعوة هذه أهدافها ومراميها •

كان الدعاة العباسيون في السنوات القلائل السابقة على انتصارهم يسعون الى كسب ود طبقات معينة من الناس ، الى كسب ود اليمانية دون المضرية ، ثم الى كسب ود أهل الريف وطبقة الدهاقين ، بمعنى أن حركتهم قد اتخذت طابعا شعبيا صرفا •

(١) الطبري : تاريخ بخارى ، ص ٧٨ •

وكانت هذه الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ يذكر أن ست قرى دخل أهلوها في دعوة أبي مسلم في يوم واحد . ونجاح الثورة العباسية في خراسان وفي اقليم ما وراء النهر يدل على عمق هذه الحركة الاسلامية التي استغلوها لصالحهم .

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة الكبرى ، ذلك أن الانشقاق العلوي لقي قبولا واستجابة شاملة في منطقة بخارى ، حيث انبعثت ثورة شريك بن صالح تنادى بأحقية العلويين ، وقد تجمع حوله نحو من ثلاثين ألفا من بخارى وحدها ، بل امتدت هذه الحركة حتى وصلت الى منطقة خوارزم الى أن تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم .

واذا كان العباسيون قد وجدوا هذه الحركة الاسلامية بهذا العمق واستغلوها لصالحهم ، فإنه يرجع اليهم الفضل في أنهم مكنوا لها من أن تحرز نجاحا أكبر مما أحرزته ، ليكتسب اقليم ما وراء النهر في مستهل القرن الثالث الهجري طابعا اسلاميا واضحا . ونحن نريد أن نعرض لهذه الجهود التي بذلها العباسيون في الوصول بالحركة الاسلامية الى هذا القدر من النجاح .

ونعتقد أن أهم هذه الجهود ما بذله العباسيون في الميدان السياسي والعسكري من حماية اقليم ما وراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التي تهددته ، وحماية الاقليم من خطر الصين والأتراك الشرقيين ، ثم القضاء على ثورات الأمراء المخلتين ، ولينس من شك في أن هذا الأمن وهذه الطمأنينة التي انتشرت في البلاد في ظل بني العباس قد أعلت من شأن الحكم العربي في نظر الناس ، وساعدت عن طريق غير مباشر على التمكين للحركة الاسلامية من أن تفتنى في طريقها ، ونجاح الادارة العربية في حل المشكلات التي

استعصى حلها يعلى من شأن الحضارة الاسلامية في نظر الناس (١) .

ومن قبيل جهود العباسيين في الاستقرار النظم الادارية الناجحة التي طبقت في خراسان وما وراء النهر ، عن طريق الاقتباس من النظم الناجحة التي كانت شعار الساسانيين والتي رأى العباسيون فيها عنوانا للحكمة واتخذوها نموذجا ، وكان وزراءهم من الفرس يعتبرون أنفسهم خلفاء برزجمهر وغيره من وزراء آل ساسان ، والتنظيم الادارى الناجح يزيد في هيبة الحكم العربى ويكسب البلاد الاستقرار .

وقد مضى العباسيون في سبيل دعم هذا الاستقرار خطوات أبعد ، فقد رأوا في تغير الولاية المستمر الذى سار عليه الأمويون أمرا أطمع الأعداء وأشاع القلق في البلاد وشجع العناصر المتمردة على الثورة والخروج ، لذلك نراهم يختصون اقليم خراسان وما وراء النهر بنظام يرى المؤرخون له شبيها في العصر الساسانى وهو تولية أبناء الخلفاء حكم الأقاليم الهامة من الدولة .

وقد بدىء في تطبيق هذا النظام في عهد هارون الرشيد حينما ولى المأمون على القسم الشرقى من الدولة ، وكان لهذا كله أهمية قصوى في خراسان التي كان الصراع الداخلى والخارجى فيها على أشده .

وقد عمدت الدولة العباسية الى جعل منصب الولاية وراثيا في الأرستقراطية من أهل البلاد ، وهم أكثر معرفة بالتقاليد المحلية وأكثر حرصا على كسب ثقة الناس .

وقد أضاف العباسيون الى سياستهم هذه أمرا آخر كان بالغ الأثر في التقريب بين الأتراك والعرب ودفع من بقى منهم على دينه

الى اعتناق الاسلام ، ونقص استخدام الأتراك في القوات المسلحة
وفي الوظائف الادارية الصغيرة والكبيرة .

وقد وجد العباسيون تقاليد عربية قديمة مطبقة منذ أيام
الأمويين وهي استخدام غير المسلمين في الجيش ، فزاد العباسيون من
من هذا الاستخدام ، وقد أنشأ الفحل بن يحيى البرمكى فرقة
كبيرة في خراسان ، يذكر الطبرى أن عدد جنودها بلغوا نحواً من
٥٠ ألفاً أرسل منهم الى بغداد ٢٠ ألفاً ، وأطلق عليها اسم الفرقة
العباسية ، واشترك في قوات على بن عيسى رجال من الصفد
والخوارزمية .

والجديد في هذا الأمر هو استخدام هؤلاء الجنود ليس في
خراسان وما وراء النهر فقط بل في بغداد نفسها ، وقد استن المأمون
سنة جديدة حينما دعا كثيرين من زعماء الأتراك الى الدخول في خدمته
ودعا زعماءهم لبغداد ومنحهم الصلوات واشترك فرسان الترك
في الحرس الخليفى (١) ، واستمر هذا التقليد في عهد المعتصم حين
ظهر الحرس التركى ، وفيه من الصفد وفرغانة وأسروشنه والشاش ،
وكانوا دعائم الخلافة . وقد قرب هذا بين الأتراك الغربيين وبين
الاسلام فساعد على انتشاره من ناحية كما ساعد على تثبيت السيادة
الاسلامية في البلاد .

وفي عهد المعتصم كان الاسلام قد رسخت قدمه في بلاد ما وراء
النهر وبدأ الأتراك أنفسهم يتبنون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك
الشرقيين . يقول البلاذرى : « المعتصم بالله جل شهود عسكره
من جند أهل ما وراء النهر من الصفد والفراغنة والأثروسنة وأهل
الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على ما هنالك

(١) البلاذرى : ص ٤٢٠ .

وحاصر أهل تلك البلاد يغزون ما وراءهم من الترك .. ففتح مواضع
لم يدخل إليها أحد قبله (١) .

قطاع الهند :

وإذا كان الأمويون كسبوا معركة السند في عهد الوليد
ابن عبد الملك فانهم ما ابثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب
وتثبيتها منذ عهد سليمان بن عبد الملك حتى آخر العهد بهم .

واضطروا الى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد
ابن القاسم ومصرعه ، فقد استطاع ابن ملك السند أن يدخل العاصمة
وأن يستردها واضطر الأمويون الى معاودة القتال في عهد ولاة السند
أمثال يزيد بن أبي كبشة ٢ وسليمان بن عبد الملك بن حبيب ، وحبيب
ابن المهلب (٣) .

وظلت هذه الفتن متلاحقة متصلة والأمويون لا يكفون عن
القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٣) ، وأدرك الأمويون أن
كسب معركة التثبيت لن يكون الا بانشاء القواعد العربية التي تمتد
في البلاد لتكون مراكز لتجميع العنصر العربي وقلعا حصينة تحمي
المكاسب التي أحرزوها ، ومن أجل هذا أنشئت مدينتا المحفـوظة
والمنصورة (٤) .

ويبدو أن هذه السياسة أثمرت آخر العصر الأموي فقد
استقرت الأحوال وقضى على الفتن والثورات ، وركن أهل السند
واللتان الى الطاعة .

(١) البلاذري : ص ٤٢٠ .
(٢) البلاذري : ص ٤٢٨ .
(٣) البلاذري : ص ٤٢٩ .
(٤) البلاذري : ص ٤٣١ .

ولم يكن العصر العباسي ، عصر تجميد الفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين ، فقد اندفع العباسيون في تيار الفتوح بنفس قوة الأمويين ، ويكفي أن نشير الى ما أحرزوا من نصر في بلاد ما وراء النهر ، وفي هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلهم في أحوال الأتراك •

ولم يقف العباسيون جامدين في اقليم امارة قنوج فقد احتكوا بها ويظهر أنهم أحرزوا بعض النصر في هذا الميدان ، فالبلادري يشير الى القائد العباسي هشام بن عمرو التغلبي وفتح قشмир (١) ، واستمرت معركة المسلمين مع قنوج حتى أيام الخليفة المأمون ، فقد أشار البلادري الى جهود موسى بن يحيى بن خالد البرمكي •

ولم يكف العباسيون عن متابعة الزحف صوب الشرق حتى أيام المعتصم العباسي الذي تابع سياسة انشاء المدن وبناء القواعد الحصينة ، فبنى قاعدة البيضاء وأسكنها الجند •



العباسيون وجنوب شرق آسيا :

ليس من شك في أن العصر الأموي فتح للحضارة العربية آفاقا جديدة مطلقة على آسيا الوسطى بعد فتوح ما وراء النهر ، كما فتح آفاقا أخرى مطلقة على المحيط الهندي بعد فتح السند واستيلاء العرب على الميناءين الهامين على ساحل الهند الغربي : ميناء الديبل والمنصورة • وبدأت البحرية العربية للمرة الأولى تبسط نفوذها وتؤكد سلطانها في هذه المناطق الهامة • لكن الحقيقة المؤكدة أن العصر الأموي لم يستطع أن يستغل هذه الآفاق الجديدة التي أطلت منها الحضارة العربية ووقفت جهودهم عند الآفاق التي انتهوا اليها ، لأن التركيز كله وثقل الدولة كلها كان في بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ، الذي شهد أهم المعارك

(١) البلادري : ص ٤٣١ . الطبري : ج ٩ ، ص ٢٧٩-٢٨٠ •

البحرية ، وأهم التوسعات البرية ، فكانت الدولة الأموية في الحقيقة دولة ألفت بثقلها كله في ميدان البحر الأبيض المتوسط .

ولكن قيام الدولة العباسية كان نذيرا بتحول جديد ومزيد من الاهتمام والتطلع الى الآفاق التي جمده الأمويون عندها . ولا ننكر أن الدولة العباسية ظلت منذ قيامها معنية بالمشكلة البيزنطية والدفاع عن حدود الشام والاحتفاظ بنفسها في المغرب ومناوشة الأمويين الذين كانوا قد استقلوا بالأندلس . لكن الحقيقة أنهم كانوا يدافعون عن مكاسب آلت اليهم من العصر الأموي ، ولم يكن من المعقول أن يتركوها نهبا لأطماع البيزنطيين ، أو لأطماع الثوار الخوارج ، أو مشروعات الأمويين التوسعية .

كل ذلك لم يتصرف نظر الدولة العباسية عن موضوع آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا ، وبدأت الدولة تتخفف من أثقالها في الغرب الاسلامي بالتدريج لتعطي مزيدا من الاهتمام ومزيدا من التركيز نحو الشرق . وقد حافظت الدولة العباسية على ميراث الاسلام في تركستان ، وصمدت لأطماع الصين ونقضت تحالفها مع الأتراك الشرقيين ، كما أعطت قوة جديدة للنفوذ الاسلامي في السند ، وبدأ المد الاسلامي يتحرك صوب الشرق نحو قشмир وامارة قنوج ، لكن هذا التركيز وهذا الاهتمام اشتد أثره واشتد وضوحه منذ أواخر عصر الرشيد حين تحقق النمط الفيدرالي في الحكم وأقيمت دولة الأغلبية في افريقية ، وتم التفاهم مع الفرنجة وضربت الدولة البيزنطية ضربات قاصمة . ولعل من أدلة هذا الاهتمام قسمة العالم الاسلامي الى مشرق عاصمته مرو في خراسان وتولية المأمون ولي العهد ، ونائب الخليفة على هذه البلاد يقيم فيها ويهتم بأمورها ، ثم تأكد هذا الاهتمام في عصر الخليفة المأمون الذي وضحت في عهده الصبغة الأسيوية الصرفة للخلافة العباسية . وكان المأمون عاهل آسيا العظيم تأتية الوفود من كافة آفاق آسيا

تلتبس التأييد أو تشتري السلام ، حتى بلغ هذا الاهتمام بآسيا ونشاطها وتياراتها القمة في عصر الخليفة المعتصم ، الذي وُجد في الأتراك الغربيين القوة الجديدة التي تساند الخلافة وتحميها . وقد أدى هذا كله الى مزيد من الاهتمام بجنوب شرق آسيا وبالشرق الأقصى . وأصبح هذا الاهتمام ركنا هاما من أركان السياسة الدولية لخلفاء العصر العباسي الأول . واعتقد أن ذلك مرده الى عوامل متعددة منها أن الدول العباسية لم تهمل أبدا إقليم خراسان ، حيث انطلقت الصيحات الأولى للدعوة العباسية ، وكانت خراسان عامل جذب كبير في تاريخ العصر العباسي الأول . هذا الى التحالف الذي نشأ بين العباسيين وبين الجموع الايرانية المتطلعة الى مزيد من السلطان ، هذه العناصر التي كانت قد أسلمت واستعربت واتخذت اللغة العربية لغة لحياتها الثقافية ، وورثت الدولة الكثير من التراث الساساني القديم (١) . ومن بين ما ورثته الاهتمام بالملاحة في الخليج الفارسي وبحار الهند وجنوب شرق آسيا . وثمة عامل آخر يعزى الى تأسيس مدينة بغداد التي أصبحت مركز الثقل في الحياة الاسلامية في العصر العباسي الأول ، وكانت ذات موقع متوسط يربطها بواسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين ، وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وآذربيجان وأرمينية (٢) . وكانت تربط الفرات بدجلة عدة قنوات صالحة للملاحة ، وكانت العاصمة الجديدة في وسط السهول الخصبة التي كانت تزدان بها أرض الجزيرة . وكانت أوفر حظا بمياه الري وأكثر ازدهارا بالسكان . هذا الى ما استطاعت الدولة العباسية أن تحققه من مظاهر الاستقرار بقضائها على العناصر المناوئة لها في ايران واخماد الثورات والفتن واصلاح

(١) حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ص ١٩٧ .

(٢) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٢٤ .

Heyd, *Islam, du Commerce* Vol. I. p. 27.

الحكومة ، وإنشاء الجيش القوي والتمكين للنظام العباسي من القوة والسلطان •

وهناك تطورات أخرى حدثت في جنوب شرق آسيا ساعدت العباسيين الأول على أن ينطلقوا في هذا الاتجاه بكل ما يستطيعونه من قوة • فقد ظهرت جاليات اسلامية في بلاد الصين يعزوها المؤرخون الى الشيعة الذين فروا في أواخر العصر الأموي من الاضطهاد في خراسان وأقاموا بجزيرة في أحد الأنهار الكبيرة في الصين ، واشتغلوا بالوساطة التجارية بين المشرق والمغرب • وتتحدث الكتابات الاباضية عن رحلة تاجر اباضي الى الصين حول منتصف القرن الثامن من أهل عمان كان اسمه أبا عبيدة • وشهدت بلاد الصين في ذلك الوقت استقرارا شبيها بالاستقرار الذي تحقق للعباسيين في عصرهم الأول ، فقد حكمت أسرة تانج (٦١٨-٩٠٧ م) امبراطورية ظلت متحدة حتى آخر العهد بها ، ونعم جنوب الصين قرنين ونصف قرن بسلام لم يكن يعكر صفوه شيء ، وكان من الطبيعي بعد أن استقامت أحوال الصين على هذا النحو أن تفتح كانتون للتجارة من كل صوب •

تلك هي العوامل الجاذبة التي شددت انتباه العباسيين الى الشرق الأقصى فما هو نطاق هذا الاهتمام ؟ كانت الخطوة الأولى في هذا الصدد أن تحافظ الدولة العباسية على سيادتها على بحار الهند ، وتشدد من قبضتها على الموانئ الغربية الهامة ، وأن تقضي على القرصان الذين انتهزوا فرصة العصر الأموي الأخير وعاثوا هسادا في تلك البقاع • ويروي البلاذري (١) أن الخليفة المنصور وجه عمرو ابن جميل في بوارج الى تارند وأتى القندهار في السفن ففتحتها ، وفي عهد المأمون بعث محمد بن الفضل بن ماهان فصار في

(١) فتوح البلدان : صفحة ٤٣١ •

بارجة (١) الى ميد الهند فقتل منهم خلقا كثيرا . ثم تزايد الاهتمام العباسى بالشرق الأقصى وانتظمت الملاحة المباشرة مع الصين فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . يدل على ذلك هذا الأدب الجغرافى الكبير الذى ظهر فى هذه الفترة يتحدث عن هذه العلاقات ويصف المسالك ويتحدث عن السفن والتجارات . هذا الأدب الجغرافى المتمثل فى الرواد الأوائل من الرحالة المسلمين الذين ظهوروا فى هذه الفترة أمثال سلام الترجمان الذى قام برحلة الى سور الصين الشمالى، وابن وهب القرشى الذى ركب البحر الى الصين . وانتهى به المطاف الى مدينة كنتون بالصين . وقد أكرمه امبراطور الصين وناقشه فى الدين والسياسة ثم عرض عليه صور بعض الأنبياء ، وأمر له بالهدايا النفيسة . وقد أفاد من تجربة ابن وهب مؤلف اسمه أبو زيد حسن، كما أشار المسعودى الى هذه الرحلة فى كتابه مروج الذهب فى الفصل الذى كتبه عن ملوك الصين ، وكذلك رحلة سليمان السيرافى . ولا نكاد نعرف شيئا عن حياته ، وكل ما وصل الينا هو وصف رحلته الى الهند والصين . ولهذا الوصف ذيل وضعه فى القرن الرابع الهجرى مؤلف سيرافى اسمه أبو زيد حسن واعتمد فيه على ما سمعه من قصص الرحالة والتجار فى بحار الصين . وتمتاز رحلة سليمان والذيل الذى وضعه أبو زيد حسن بما فيها من وصف صادق للطريق التجارية وبعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ولأهم الحاصلات فى الهند وسرنديب وجاوة والصين . هذا التراث الجغرافى العظيم هو الذى بقى فيما كتبه المسعودى والاصطخرى وابن خرداذبة .

وأصبحت البصرة والأبلة وسيراف منتهى المطاف للسفن القادمة من الصين ، بل أصبحت سيراف منافسا للبصرة فى الغنى والثروة .

(١) فتوح البلدان : ص ٤٣٣ .

من هذا الأدب الجغرافي سالف الذكر يمكن تصور الطريق الذي سلكه القاصدون الى الصين في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي . كانت السفن في طريقها الى الهند تقف في صحار ومسقط للترود بالمياه ثم تعبر المحيط الهندي مباشرة الى جنوب ملبار . وهذا الطريق بطبيعة الحال كانت تسلكه السفن التي تقطع الرحلة الطويلة الى الصين . وكانت السفن تستطيع كذلك الابحار على طول الساحل مارة بجزيرة قيس وهرمز القديمة ، وتيزمكران والديبل والمنصورة . وكانت السفن في هذا الطريق تتعرض لغارات القرصان ، فكانت تحمل على ظهرها جنودا مدربين على الرمي بالنفط (١) . وساحل ملبار هذا كانت له أهمية اقتصادية قصوى عند المسلمين ، فقد كان مصدر خشب الساج الذي كانت بيوت سيراغ تبنى به والذي كان يستخدم في صناعة السفن ، ومن ساحل ملبار تسير السفن الى جزيرة سرنوبيب (سيلان) وبعد أن تؤدي السفن القاصدة الى الصين رسوما تبلغ ألف درهم كانت تسير حول الجزء الجنوبي من سيلان ، وبعد أن تعبر مضيق ملكا تقصد مباشرة الى الهند الصينية ، وتسير السفن على طول ساحل خليج كنج الى هانوي ، ثم تتجه آخر الأمر الى كانتون التي كانت تسمى أحيانا خانفو . وكان الملاحون العرب على معرفة بالساحل الممتد شمالا كنتون . فان خرداذبة يشير الى ميناء خانجو ، ويبدو أنهم — وأعني الملاحين العرب — قد أرغلوا شمالا حتى كوريا (٢) ويسميا ابن خرداذبة بلاد السيك (٣) .

ولكن كانتون كانت بحق أعظم المراكز التجارية ، وقد نزلت بها جالية كبيرة العدد من المسلمين . ويتحدث سليمان السيراغ عن هذه المدينة الكبيرة . ويذكر أنها كانت أكبر أسواق الصين آنذاك « وكان فيها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين المسامين الذين

(١) ابن خرداذبة : ص ٦٠ .

(٢) Lloyd: Hist. du Commerce Vol 1. pp. 30—32. .

(٣) ابن خرداذبة : ص ٧ .

يقصدون تلك الناحية • وإذا كان العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لمسلطان المسلمين » ، والمصادر الصينية تشهد بوجود هذا النوع من الامتيازات ، وأنه امتد الى الجاليات الاسلامية الأخرى في سائر مدن الصين فكان لكل منها قاضيها وشيوخها ومساجدها وأسواقها ، وإن كانت الحكومة الصينية قد احتفظت لنفسها بحق النظر في الجرائم التي قد يترتب عليها النفي من البلاد أو الاعدام •

وكانت الرحلة من مسقط حتى كانتون تستغرق ١٢٠ يوما عدا فترات التوقف في الموانئ •

هذه العلاقات الهامة التي نمت في ظل الحكم العباسي انتهت نهاية عنيفة سنة ٨٧٨م عندما حاصر الثائر هوانج بشاو مدينة كانتون وأعمل فيها السلب والنهب وقتل عددا كبيرا من النجار الأجانب • وكانت الامبراطورية الصينية في حال من الضعف بسبب هذه الثورة وامتدت الاضطرابات السياسية حتى بداية أسرة هونج عام ٩٦٠م ، وكانت الدولة العباسية بدورها قد دهمها التفكك والانحلال •

وبعد • • فهذه هي الآفاق العظيمة التي فتحتها خلفاء العصر العباسي الأول ، وهذا هو الدور العظيم الذي لعبوه في السياسة العالمية ، وتلك هي الجهود التي بذلوها في تحقيق السلم الاسلامي •

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

١ - الحياة الاقتصادية :

لا نريد بالطبع دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية دراسة موسعة نتناول أدق التفاصيل وتلم بالكثير من التفريعات الصغرى ، وانما نريد أن نعرض لهذا الموضوع من نفس الزوايا والأبعاد التي نظرنا بها الى الموضوعات السابقة التي درسناها فى اطار العصر العباسى الأول . والمراد أن نجيب عن التساؤلات الآتية : كيف انفلت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتأثرت بأحداث العصر العباسى الأول ؟ . ما الآثار الاقتصادية التي تركتها الثورة التي لم تكن مجرد تحطيم لأغلال العصر الأموى ، انما كانت رسماً لنهج فى الاسلام . هل تأثرت هذه الحياة بجيل الخلفاء القادمين المصلحين الذين تصدوا للمواقف العسيرة فى الداخل والخارج ووصلوا الى حل موفق لها ؟ . هل كانت للثورات العظيمة التي جمعها خلفاء العصر العباسى الأول آثار معينة فى الرخاء الاقتصادى للناس وفى قيمهم ومستوياتهم الاجتماعية ؟ هل الانطلاق الدولى العظيم الذى وصل الى القمة فى عهد الرشيد وما تحقق من سلام آخر العهد به فتح مغاليق الأسواق العالمية ، وساعد على تدفق الثروات الطائلة الى طبقة التجار ومن أحاط بهم ؟ . هل تجمعت لدينا صورة معينة لانتحول الاقتصادى فى آخر العصر العباسى الأول ؟ وهل أثر ذلك فى حياة المسلمين بعد عهد الواثق ؟ أغنى العصر العباسى الثانى .-

كانت الثورة العباسية دعوة الى الاصلاح ، وقد رأينا كيف أنها رفعت شعارات المساواة والاصلاح والقضاء على مظالم العصر الأموى الأخير ، وتحقيق آمال الجماهير التي تاقبت الى التغيير ، وتطلعت الى

الدعاة العباسيين والتفت حولهم رغبة في التحرر والخلاص ، وانه لما يشرف جيل الخلفاء في العصر العباسي الأول أنهم لم يتنكبوا طريق الدعوة في فترة التحضير للثورة ، وبعد نجاح الثورة وقيام الدولة العباسية لم يضعوا وراء ظهورهم الآمال العريضة التي لوحوا بها للجماهير . انما كانوا أشد حرصا على تحقيق شعارات الدعوة قولا وعملا ، ولعل هذه الحقيقة قد وضحت في الدراسات التي مرت بنا ، وسنزداد اقتناعا بها اذا درسنا أثر ذلك في الوضع الاقتصادي .

ان الخلفاء العباسيين الأول نصبوا أنفسهم في قوة ووضوح واخلص للقضاء على المظالم الاقتصادية التي تجمعت في العصر الأموي الأخير ، فما هي طبيعة هذه الاصلاحات ؟ وكيف مست قاع المجتمع وأدت الى تحرر العمال والفلاحين وخففت عنهم الكثير من الأثقال الاقتصادية الباهظة التي تحملوها ؟

وضح هذا الاهتمام مبكرا عندما اندلعت الثورة في خراسان واستطاعت الثورة السيطرة على هذا الاقليم الغني واقصاء النفوذ الأموي منه ، فقد كان خالد بن برمك في جيش قحطبة بن شبيب يتقلد خراج الناس احساسا منه بالمظالم الفادحة التي تعوضوا لها والأعباء الجسام التي تحملوها . ولكن الثوار اندفعوا في القتال الدموي الذي انتهى بدخولهم العراق ، ثم خوضهم معركة الزاب ، والقضاء على النظام الأموي ، ولم يستطع السفاح لفداحة المشاكل التي واجهها أن يتفرغ للتوسع في الاصلاحات التي بدأها خالد بن برمك في خراسان ، فقد كانت الدولة مشغولة بالقضاء على أعدائها والاحتفاظ برمقها .

ثم آلت الخلافة الى أبي جعفر المنصور وتصدى للثورة والفتن التي نشبت في خراسان ففضى عليها ، وتصدى لثورات العلويين في الحجاز فأخمدوها ، وجابه المشكلة البيزنطية في حزم وشجاعة ، وعمل جاهدا

على تحقيق النمط المركزي للخلافة وتثبيت دعائم الحكم العباسي في مصر والمغرب . كما عني باصلاح أداة الحكم وانشاء الجيش القوى القادر على تثبيت أركان النظام العباسي وحمايته . وكانت المشكلة الاقتصادية ، وعلى الأخص مشكلة الخراج والأرض وارضاء الملايين من الفلاحين في ايران والعراق ومصر وغيرها من البلاد ، لا تزال تنتظر المنصور ليتصدى لها بالحل كما تصدى لحل المشكلات السابقة . تبين الرغبة الملحة في اصلاح الوضع الاقتصادي في رسالة ابن المقفع الى المنصور وهي رسالة تعتبر وثيقة تاريخية هامة ، فهي شهادة من معاصر عاصر المشاكل وعرفها وأشار الى مساوئ الخراج وضرورة اصلاحه ومواجهة غلاء الأسعار ، الذي نجم عن اضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية منذ أواخر الدولة الأموية (١) ، وفي الطبري (٢) في أحداث عام ١٢١ هـ أشارات واضحة الى الغلاء الشديد وارتفاع الأسعار في خراسان والعراق . وكانت المشكلة الاقتصادية هي المشكلة الكبرى التي واجهت المنصور . وكان تصديه لها بروح الثورة ومنطق الدعوة في غاية الأهمية ، لأن معناه اقناع جمهور الأنصار في كافة البلاد أن الحكومة لم تنزل عن مبادئ الثورة انما تتمسك بالحزب وتنظيماته وجعلت هذه التنظيمات أساسا للإصلاح الإداري والنظر في النفقات ، والخراج ومصاحبة معاش الرعية لطرح عمالتهم والتلطف لسكونهم وهدأتهم (٣) .

والاصلاحات الاقتصادية التي قام بها المنصور في غاية الموضوح ، وقامت على أسس معينة منها الشدة والحزم في مراقبة عمال الخراج والسيطرة عليهم وعزلهم اذا كان هناك أية شبهة في انحراف . روى الطبري أنه أنكر على عبد الوهاب بن ابراهيم الامام والي فلسطين عسفه

(١) احمد زكي صفوت : جمهرة رسائل العرب ، ج ٣ ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) الطبري : ج ٩ ، ص ١٧٦ .

(٣) الطبري : ج ٩ ، ص ٨١٦ .

فى جباية الخراج فعزله من الولاية (١) . وتكلم رجل من أهل خراسان إلى المنصور فوق على مظلمته بقوله « ان كنت صادقا فجئ به ملبيا فقد أذنا لك فى ذلك » (٢) كما عنى الى جانب ذلك بتنظيم ديوان الخراج حتى أصبح من أهم دواوين الدولة وأكبرها أثرا . وكان رئيسه يؤخذ رأيه فى كافة الأمور المتعلقة بالخراج قبل أن يتخذ الخليفة أو الوزير فيها قرارا . وكان يحتفظ فى ديوان الخراج بسجلات يرجع إليها فى تقدير قيمة الخراج . وبلغ من اهتمام المنصور بهذا الديوان الهام أن خصص له مكانا فى بغداد ليكون على مقربة منه خاضعا لإشرافه المباشر . وكان أشد حرصا على ألا يتولى وظائفه الا من عرف بالكفاية ونزاهة اليد . واشترط فى هؤلاء الموظفين الحرية والأمانة والتفقه فى أمور الدين والامام بقواعد الخراج ، ولم تفتقر عناية خلفائه بهذا الديوان على الإطلاق ، انما زادوه سلطانا وتنظيما وتطورا كثيرا فى عهد المهدي وفى عهد الرشيد ، وأمر عمال الخراج ألا يقبلوا من الناس الا الجيد المضبوط من العيار (٣) واستحدث كيلا جديدا لجباية الخراج عرف بالقفير الهاشمى (٤) . ولا شك أن ذلك كان خطوة حاسمة فى سبيل الإصلاح المنشود ، لأنه لا يمكن لمبادئ مهما سمت أن يضمن تطبيقها الا على أيدي عمال مخلصين شرفاء . واقرنت هذه الإصلاحات بمحاولات جادة لزيادة دخل الدولة لمواجهة النفقات المتزايدة والمطالب الملحة . وكان حريصا على أن يملك احتياطيا من الخراج بيت المال لمواجهة نفقات الجند ونفقات الدولة .

ولكن ما زالت أمام الدولة خطوات أبعد لتحقيق الإصلاح المنشود وتحرير الفلاح من أوزار الماضى على المظالم التى صورها ابن المقفع فى رسائله الشهيرة ، ويبدو أن المنصور كان يفكر فى اصلاح جذرى

-
- (١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٧٣ .
(٢) الطبرى : ج ٩ ، ص ٣١٠ .
(٣) البسلاذرى : ص ٤٦٩ .
(٤) المريسى : الخراج ، ص ١٤٢ — ١٤٣ .

لموضوع الخراج يريح الناس ويحدد دخلاً ثابتاً للحكومة لولا أن عاجلته
المنية . والدليل على هذا هو ما يشير إليه الماوردي^(١) من أن المنصور
هو الذى فكر فى نظام المقاسمة ، على حين يؤكد البلاذرى^(٢) أن هذا
الإصلاح تم فى عهد المهدي ، وليس بدءاً أن يفكر المنصور وأن ينفذه
المهدي .

على كل حال فإن الثورة الكبرى فى نظم الخراج لم تتحقق فى عهد
المنصور إنما تحققت فى عهد المهدي ، إذ قرر العدول عن نظام المساحة
الذى اعتمد عليه منذ الفتح ، والذى بمقتضاه كانت الدولة تقدر خراجاً
معيناً على مساحة تجبىه كل عام دون نظر إلى المحصول أو أسلوب
الزراعة ، فغير المهدي ذلك كله بإدخال نظام المقاسمة فى كثير من البلاد
الإسلامية ، وأصبحت الدولة تقاسم المزارعين وفق نسبة معينة دون نظر
لمساحة الأرض ، ذلك أن أسعار الحاصلات قبل تطبيق نظام المقاسمة
كانت منخفضة ولم يكن هناك تقدير صحيح لمساحة الكور ، ويؤخذ
مما رواه أبو يوسف^(٣) أن نسبة المقاسمة فى عهد المهدي بلغت نصف
المحصول على الأرض التى تسقى سيجاً ، وثلث المحصول على الأراضى
التي تسقى بالدوالي لشدة ارتفاعها ، وربع المحصول على الأرض التى
تسقى بالآلات كالسواقي . وفى بعض المناطق كانت الدولة تحصل على
خمس المحصول تقديراً لظروف خاصة . وطبق نظام المقاسمة فى عهد
المهدي على الغلات الزراعية فقط ، أما ثمار النخيل والكروم والشجر
فبقيت على نظام المساحة وعدل خراجها حسب قربها من الأسواق
أو بعدها ، وقد تحققت فوائد كثيرة من هذا الإصلاح فقد توحد النظام
فى جميع البلاد وضمنت الدولة دخلاً ثابتاً ، واستفاد الزراع وتجنبوا
الأزمات التى تنجم عن الانخفاض المفاجئ فى أسعار الغلة . ولا ريب أن
ذلك كله أدى إلى اطمئنان الناس وزيادة الإنتاج وارتفاع مستوى الدخل

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٦٨ .

(٢) فتوح البلدان : ص ٢٨٢ .

(٣) الخراج : ص ٤٣ .

وحوال بين الفلاحين وبين عبث العمال وتشددهم . وقد روى الجهمياري^(١) أن المهدي أمر العمال بالكف عن الحاق الأذى بالناس أثناء الجباية كما تنهى عن تحصيل المتأخرات واستجابة لهذا الاتجاه قام خالد بن يحيى البرمكي حين ولى أمور فارس فى عهد المهدي بتقسيط الخراج وأعفاهم من خراج الشجر^(٢) .

ومضت هذه الثورة الإصلاحية التى حققت أمل الجماهير وتمتست مع الشعارات التى رفعها الدعاة فى عهد الرشيد الذى عمل بعد توليه الخلافة على تخفيف عبء الجباية أكثر مما خففه المهدي ، فأمر بإلغاء خريبة العشر التى كانت تجبى من أهل العراق بالإضافة الى نسبة النصف المقررة بحكم نظام المقاسمة . وبلغ من اهتمامه بأمر هذا الإصلاح أنه كلف القاضى أبا يوسف بحل مشكلات الخراج . ومن أجل ذلك ألف كتاب الخراج . وقد نصح فيه الرشيد بمزيد من الرأفة مع الفلاحين فعدلت نسبة المقاسمة التى وضعت فى عهد المهدي فأصبحت $\frac{2}{3}$ على الأرض التى تروى سبيحا و $\frac{1}{3}$ على الأرض التى تروى بالدوالي ، وجعل على النخل والكروم الثلث وعدل عن تقدير خراجها طبقا للمساحة ، أما غلة الصيف فقد أبقي عليها الربع لأنها كانت تسقى بالدواليب . وقال أبو يوسف « وانما أراد الرشيد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصالح لأمرهم^(٣) » بل أصبح بيت المال يتكفل بنفقات الأنهار التى تروى أرض الفلاحين الذين يدفعون الخراج فى أنحاء الدولة ، على أن يشارك مزارعو السواد فى بعض هذه النفقات نظرا لخصوبة المنطقة وثرائها ، وبالغ البرامكة فى تحقيق رغبات الرشيد ، فى الإصلاح والتزيد من رعاية مصالح الزراع فألغوا المبالغ المتأخرة على المزارعين التى عرفت بالبقايا ورفع ما يلحق بالفلاحين من غبن فى الجباية ، فقد خفض خراج ثغر

(١) الوزراء : ص ١٤ .

(٢) الوزراء : ص ١٥١ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ، ص ٣ .

قزوين ليتمكن أهله من مواجهة نفقات الدفاع والغزو (١) •

وقد ارتبكت هذه السياسة الاصلاحية بعض الشيء خلال الفترة بين الأمين والمأمون ، الأمر الذي أدى الى نقص دخل الدولة بنحو مائة مليون درهم بسبب آثار الحرب بين الأخوين ، وما كاد الأمر يستقيم للمأمون حتى سار في نفس النهج الذي استنته الرشيد • ومضى قدما في تطبيق آراء القاضي أبي يوسف فتوسع في تطبيق النسب التي وضعت في عهد الرشيد ، وجعل مقاسمة أهل السواد بالخمسين بدلا من النصف (٢) وولى على جباية خراج السواد القاسم بن ابراهيم أخى أبي يوسف القاضي ، فباشـر عمله بعدل وأمانة ، وأمر المأمون بتخفيض ربع خراج خراسان (٣) كما خفض خراج الرى • وكان يحاسب عمال الخراج محاسبة دقيقة • وظلت هذه المبادئ مطبقة في عهد المعتصم رغم زيادة نفقاته بسبب اغداقه الأموال على جنوده من الترك وتأسيسه سامرا ومخاربه المبيزنطيين • ولم يرو أن الواثق خرج عن هذه المبادئ السمحة التي وضعت في عهد الرشيد •

ألم يكن ذلك كله استهداء بتعاليم الثورة ؟ ألم يكن خفض الخراج تحريرا لجمهرة الفلاحين من الموالى الذين صنعوا الثورة وأقاموا الدولة • وكما تقدموا سياسيا باشتراكهم فى القوات المسلحة وتوليهم وظائف الدولة اتعشوا اقتصاديا نتيجة هذه السياسة ، وأصبحت الحياة الزراعية تقوم على اكتاف الفلاح الحر واسقاط القيود الاقتصادية التي وضعها الأمويون ، وإباحة الهجرة لمن شاء وإباحة ملكية الأرض للموالى ، وبدأت الطبقات التي تحررت تستغل خبراتها فى النشاط الزراعى الى أبعد الحدود • وفى الأماكن التي كانت تفتقر الى الأيدي العاملة كسهول البصرة وجنوب العراق جلب العباسيون الزنج كما جلب الحجاج الزط وتحولت هذه المنطقة من جديد الى الخصوبة •

(١) أبو يوسف : الخراج ، ص ٣ •
(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٥ •
(٣) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٢٧٨ •

وفى مقابل الضرائب التى دفعها الفلاحون حرص العباسيون على
انعاش الزراعة بانفاق شطر كبير من مال الدولة فى الخدمات الزراعية .
ولما كان لا يجوز أن يشتري الماء أو يباع ، لم يكن هنالك مناص
من أن تتولى الدولة أمور الري منعا للتكسب أو الاتجار . فكان من
واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود وسد البثوق (١) وقد
خصصت لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون بالمهندسين .
ونشط خلفاء العصر العباسي الأول فى حفر الترع والمصارف وإقامة
الجسور والقناطر ، وكانت الأراضى الواقعة بين نهري دجلة والفرات من
أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على ادارتها
أشرافا مباشرا ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وامتدت
فى هذه الأرض شبكة من الترع والمصارف حتى أصبحت قوية الخصب
تكثر بها المزارع والبساتين . وإذا كان ماء الفرات لا يكفى لرى أرض
السواد ، فقد عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الري بشق كثير
من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لرى الأراضى
الواقعة على شاطئه الغربى وساحل الخليج الفارسي ، وبذلك أمكن رى
جميع الأراضى الممتدة من صحراء العرب حتى جبال كردستان ، كذلك
هد المنصور قناة من دجيل الذى يأخذ ماءه من دجلة ، وقناة أخرى من
كرخايا الذى يأخذ ماءه من الفرات ووصلهما بمدينة بغداد فى عقود
محكمة من حجر الكلس والآجر ، فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة
وينفذ فى الشوارع والدروب والأرباض ولا ينقطع صيفا ولا شتاء .
ولما تولى المهدي أنفق أموالا كثيرة فى إنشاء الطرق بين بلاد العرب
والعراق ، وحفر نهر الصلة قرب البصرة ، وحفر الرشيد عددا من الأنهار
بالعراق ، فقد حفر نهر القاطول ونهر أبى الجبل فى العراق وأنفق فى ذلك
عشرين مليوناً من الدراهم (٢) ، كما عاون المعتصم أهل الشاش فى إعادة
حفر أحد الأنهار الهامة .

(١) أبو يوسف : الخراج ، ص ٦٣ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٧٧ .

كان من الطبيعي أن تنطلق في العصر العباسي الأول نهضة زراعية بلغت الذروة في عهد الرشيد تقوم على أساس فلاح غير مستعبد توفر له الدولة الحياة الكريمة ولا تثقل كاهله بالضرائب ، بل تمدّه بحاجته من الماء ؛ وقد أدى ذلك الى التوسع في زراعة جميع المحاصيل دون استثناء بالصورة التي تحدث عنها آدم متز (١) وبالصورة التي عرض لها الرحالة والجغرافيون أمثال المقدسي (٢) والاصطخري (٣) وابن حوقل (٤) .

وتكسب الانتاج الزراعي في أسواق العراق وايران ورخصت الأسعار بصورة أقرب الى الخيال . روى أن الرجل من عامة الناس في عصر الرشيد كان يكفيه هو وعائلته ثلاثمائة درهم في السنة . ويقول الخطيب البغدادي (٥) « سمعت داود بن صفير بن شبيب بن رستم البخاري يقول : رأيت في زمن أبي جعفر كبشا بدرهم وحملًا بأربعة دواقي والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم . وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم » (٦) .

مما تقدم يتبين كيف كان اصلاح الخراج تحقيقا لشعارات الدعوة وارضاء الجماهير الناس التي أيدت الثورة وعملت على نجاحها وكيف كانت النهضة متأثرة الى أبعد الحدود بظروف الثورة العباسية وبأحداث العصر العباسي الأول .

بل امتدت هذه التأثيرات الى ميادين الانتاج الاقتصادي كلها . امتدت الى ميدان الصناعة ، فقد أسقطت الثورة كل القيود التي وضعها

-
- (١) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٩٨ — ٣٤٤ .
 (٢) صفحات ١٨٠ ، ٢٠٤ ، ٢٣٠ ، ٤٠٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٢ .
 (٣) صفحات ٢٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ ، ٢٧٤ .
 (٤) صفحات ٤٧ ، ١٢٤ ، ٢٢٨ ، ٣٤٨ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .
 (٥) ج ١ ، ص ٧٠ .
 (٦) ج ١ ، ص ٤٣ .

الأمويون الأواخر ، وأباحت الدولة العباسية الهجرة من الريف الى المدينة ، فهاجر كثيرون من الحرفيين والصناع ومعهم أساليبهم وأدواتهم لينفدوا من الحياة الجديدة التي لاحت في ظل الخلافة العباسية ، ووجدوا جو الحياة العمالية في المدن الكبرى قد تغير تماما ، فقد أسقطت الحواجز بين العرب والموالي وتحرر الصناع والحرفيون ونعموا بحريتهم كاملة وارتفع مستواهم المادى والاجتماعى . يضاف الى هذا أن العصر العباسى الأول أسقط الحواجز الطبقيّة التي كانت تفصل بين العرب والموالي ، وأصبح المسلمون جميعهم على قدم المساواة . وكانت الحركة الاسلامية قد قطعت شوطا بعيدا في سبيل التطور . وكما امتزجت الثقافات ودخل الدم الجديد الى ميدان الحياة الفكرية ، كذلك كان شأن الصناعة فقد نشأت من امتزاج العرب بأهل البلاد التي أخضعوها لسلطانهم ومن تتلمذ الصناع العرب على أرباب الصناعات الفنية في تلك البلاد مسلمين وغير مسلمين ، ومن الاختلاط بين أهل تلك البلاد المختلفة ، ومن تنقل الفنانين والصناع في ديار الاسلام ، نشأ من هذا كله فنون يمكن تمييزها عن غيرها من الفنون ولكنها متباينة في جزئياتها تبعا للاقليم الاسلامى الذى تنسب اليه ، وتلك هي الطرز أو الأنماط أو المدارس الفنية الى قامت في العالم الاسلامى وقتذاك ، والتي كانت تتطور بتطور العصور وتتأثر بالأحداث السياسية والاجتماعية (١) فتأثرت الحركة الفنية والصناعية بتغلب العناصر الإيرانية وما صاحب هذا التغلب من احياء الكثير من التقاليد الإيرانية الحكومية والثقافية والاجتماعية ، وما نجم عن ذلك من ظهور أسلوب جديد سمي بالطرز العباسى ، ونشأ هذا الطراز متأثرا بأساليب الفنون التي سادت في ايران والعراق في العصر الساسانى ، والتي تمتد جذورها الى أصول موروثة عن الفنون الأشورية والأخمينية والفارسية مع تأثير من المود النطاق بالعناصر الهلنستية التي انتشرت في الشرق الأدنى . وقد بلغ الطراز العباسى أوج عظمته في مدينة سامرا التي أسسها المعتصم .

(١) زكى محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية : مقدمة ، ص ١ .

وقلده الناس فى سائر أرجاء الدولة الاسلامية ، وانتشر هذا الأسلوب تحت الراية العباسية وامتد أثره الى بلاد الشام ومصر ، بل دخل المغرب فى ظل الأغالبة ويتضمن هذا الطراز أساليب من العمارة والنقش والزخرف والفنون الفرعية والتقاليد الصناعية (١) .

وثمة ظاهرة أخرى شهدها العصر العباسى الأول سنشرحها بالتفصيل فيما بعد . وكانت ذات عمق امتد الى جميع مظاهر الحياة فى ذلك الوقت . وأعنى بها ظاهرة ارتفاع مستوى الدخل ، دخل الفلاحين والعمال ، وتوطد نفوذ البرجوازية فى الميدان الحكومى والاقتصادى والاجتماعى . ونشأة طبقة رأسمالية جديدة أفادت من التجول الاقتصادى الذى شهدته العصر العباسى الأول ، اقتنت الضياع الواسعة فى المجال الزراعى والثروات الضخمة فى المجال المالى والتجارة الواسعة وابتنت الدون والقصور وعاشت حياة مترفة ناعمة يصورها أدب ذلك العصر سواء أكان أدبا رسميا أو أدبا شعبيا مثال ذلك الثروات الطائلة التى حازها البرامكة وبنو سهل وبنو طاهر ، والحياة المترفة التى عاشوها ، ثم الثروات الأسطورية التى امتلكها الخلفاء والعطايا والمنح التى فاقت حد الوصف . واستقطاب قصر الخلافة لكل أدب رفيع وذوق جميل وأسلوب اجتماعى لطيف . وتركز هذه الثروات الطائلة فى بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية . والمستوى الاقتصادى الرفيع يدفع الى الاقبال على صناعات الترفين من النسيج الرفيع والخزف الجميل والأثاث والرياض الفخر ، وسيدات الطبقة العليا واقتنائهن أجمل المجوهرات وأدق المصنوعات والنقش والشعر فى ذلك الوقت صناعة يلهبها الترف ويؤلفها التشجيع والاعداق والانفاق . فكانت سوق الصناعة فى بغداد فيها من الفن ما هو طريف وجديد سواء أصنع فى المدينة نفسها أو حمل اليها من مراكز

(١) أنظر المصدر السابق : خزف من الطراز العباسى ، شكل —

الصناعة بالأمصار • يقول الدكتور زكى محمد حسن (١) : وقد حدث فى كثير من الأحيان أن كان الفن فى ديار الاسلام يتأق ويبدع فى اختيار أشكال الآنية والتحف التى تستخدم فى الحاجيات اليومية ، فيتخذ المبخرة أو الابريق الخزفى أو غطاء الاثاء على هيئة حيوان أو طائر • ونجح مهرة الفنانين فى تخفيف الشذوذ والتناحر فى الألوان بتصغير المساحات الملونة وتكرارها فتجاوزت الألوان المتباعدة فى هدوء وبهاء بعد أن خفف من حدتها وضعها فى أشكال هندسية صغيرة أو وحدات موزعة فى مساحات كبيرة ذات ألوان أخرى » •

وقد أسدت الدولة العباسية الى التطور الصناعى يدا طولى كانت الى جائب ما تقدم ذكره من أهم العوامل التى ساعدت على تطورها وازدهارها • وأية صناعة لا تقوم على مادة خام رخيصة فى متناول الصناع لا يمكن أن تقف على قدميها أو تصمد للمنافسة القوية فى الأسواق العالمية الأخرى • وقد عملت الدولة العباسية على التوسع فى استخراج الثروة المعدنية التى حفل بها العالم الاسلامى وعملت على نقلها الى مراكز الصناعة فى سهولة ويسر • وكان ذلك من أهم أسباب الانطلاق الصناعى الكبير الذى تحقق فى العصر العباسى الأول • وقد أشار الرحالة والجغرافيون (٢) • الى النشاط الجيم الذى بذله العباسيون فى استخراج المعادن من مواردها الأصلية •

فكان الذهب يستخرج من القسم الغربى من العالم الاسلامى من صحراء مصر الشرقية وعلى وجه التحديد فى منطقة تمتد بين أسوان وعيذاب • وكانت مدينة العلاقى أكبر مدينة تقع بها مناجم الذهب • وكانت تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان • وقد اهتمت الدولة العباسية بهذه المنطقة اهتماما بلغ أقصاه فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، اذ أرسلت حملة لتأديب البجة الذين كانوا دائبى التهديد لهذه

(١) أطلس الفنون الزخرفية : ص ٥ •

(٢) انظر : المقدسى — ابن حوقل — ابن خرداذية •

المناطق الغنية بالذهب . وقد خضع البجة للسلطة العباسية واستقام أمرهم وانتقلت قوافل التبر اما شمالا عن طريق النيل واما من عيذاب الى بلاد العرب عبر البحر الأحمر . أما مورد الذهب الآخر فكان في غرب أفريقية عند الطرف الجنوبي للصحراء الكبرى ، وكان التبر أكبر غلات القبائل الزنجية الضاربة على أطراف الصحراء . وكانت قوافل التبر تعبر الصحراء الكبرى متجهة الى تونس والقيروان حيث ينقل الذهب الى الى مواطن التصنيع .

وكانت الفضة تستخرج بكميات وفيرة من الشرق الاسلامي ، وكانت أكبر مناجم الفضة تقع في مدينة بنجهير بجبال هندكوش في الوقت الذي استنفدت فيه مناجم الفضة بأصيهان ، وباداغييس ببلادفرغانة . وكان هذا المعدن النفيس يعبر الامبراطورية متجها صوب الغرب اما الى بغداد أو غيرها من مواطن التصنيع . وكان النحاس الأصفر يستخرج من أصفهان وأحيانا يجلب من بخارى ، وكانت الدولة تجبى من مناجم النحاس خراجا بلغ عشرة آلاف درهم (١) ، أما الحديد فكانت فارس أعظم الأقاليم استخراجا له وصناعة (٢) ، وكان يستخرج أيضا من كرمان وكابل وفرغانة كما كان يستخرج من قرب بيروت ، وكان خام الحديد في بعض الأحيان يحمل من مناجم المغرب وصقلية ويجلب الى الهند فتصنع منه أغلى آلات الحديد . وكان اللؤلؤ يستخرج من الخليج الفارسي وكان يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين . وكان التجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج ويصدرونه الى عمان والهند والصين (٣) . أما خشب بناء السفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر (٤) . وكان خشب الساج الهندي يعتبر أحسن ما يستخدم في بناء المساكن في بغداد والشرق كله . وكانت تصنع منه الأدوات

(١) ابن رسته : ص ٥٦ .

(٢) ابن حوقل : ص ٢١٤ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٨ .

(٤) المقدسي : ص ٢٨٣ .

لبيوت السادة الكبراء • وكان خشب الصنوبر يقوم مقام خشب الساج فى بلاد البحر الأبيض • هذا كله الى جانب الخزف والمرمر الذى كان يجلب من تبريز ، والملح والكبريت من شمال فارس والقار والنفط من بلاد الكرج • وكان الشب يسخرج من منطقة بحيرة شاد ومنها يحمل الى مصر والمغرب (١) • وكان الملح الذى يستخرج من مناجم الصحراء تحمله آلاف الأبل • وكان ملح النوشادر يستخرج من صقلية ومن بلاد ما وراء النهر (٢) •

اذن وضعت هذه المصادر الغزيرة بالمادة الخام فى متناول الصناعة العباسية • وثمة عوامل أخرى يمس أن تفسر لنا الانطلاق الصناعى الذى أشرت اليه وأعنى موضوع التسويق • وكانت الصناعات العربية تنقل فى سهولة ويسر من شرق الامبراطورية الى غربها ، بسبب السبل الآمنة والأمن المستتب ، وحرص الخلفاء العباسيين على القضاء على الثورات وتأكيد هبة الخلافة وسطوتها ، فكانت الصناعات من الأندلس والمغرب ومصر والشام تحمل الى أسواق الشرق ، وكانت مصنوعات الشرق تسوق داخلها فى أسواق الشام ومصر والمغرب والأندلس • هذا وقد أدت الاتصالات الدولية التى بلغت الذروة فى عصر الرشيد الى فتح الأسواق العالية • أما الصناعات العربية فحملت الى الصين وبلاد البلغار وشرق أوروبا وبلاد الفرنجة وإيطاليا وكانت نموذجا لدولة موفورة الرخاء موفورة الثروات حاشدة بالكفايات والخبرات ، ويمكننا أن نعطي صورة لأهم الصناعات التى ذاع صيتها فى العصر العباسى والمراكز التى نمت وتطورت فيها • كانت صناعة النسيج من أهم الصناعات التى راجت سبوقها فى العصر العباسى الأول ، وكانت مصر أعظم مراكز لصناعة النسيج فى العالم الاسلامى كله • وكان الكتان هو القماش الذى اختلفت به مصر وكان

(١) الادريسي : ص ٣٩ — ٤٠ •

(٢) المقدسى : ص ٢٨٣ •

يزرع بكثرة بأقليم الفيوم ومنها يحمل الى مراكز الصناعة ، بل تفوقت مصر فى صناعة الأقمشة الصوفية أيضا (١) ، اذ كانت تصنع بمدينة طخا بالصعيد حيث تصنع الثياب الصوفية الرفيعة • واشتهرت بنسيج الكتان أيضا بحيرة تنيس بنواحيها وهى : مدينة تنيس ودمياط وشطا وديق • وكانت هذه المدينة الأخيرة أكبر مدن النسيج لأنه ينسب اليها أجود أنواع الأقمشة الديبكية • وكانت مصر تصنع قماش الكتان الناصع البياض ، حتى لقد قيل ان الأقمشة المصرية كانت أدق من غشاء البيضة ، وكانت الاسكندرية تصنع من الكتان ما قوم الدرهم منه بدرهم فضة (٢) وقد نبغ أهل تنيس فى صناعة ثوب يسمى بالبدنة وكان للخليفة خاصة اذ يصنع من أوقيتين من الغزل فقط ثم ينسج باقيه بالذهب ، ويباع ثمنه ألف دينار (٣) •

وكانت صناعة النسيج فى الدلتا صناعة منزلية ، فكان النساء ، يغزلن الكتان والرجال ينسجون • وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم وكان لابد أن يبيعوا للسماسة الذين تعينهم الحكومة • وكان النساج يتقاضى أجرا قدره نصف درهم كل يوم • وكان ثمن النسيج يرتفع ارتفاعا باهظا بسبب المكوس والضرائب المتنوعة (٤) •

وكانت بالشرق (٥) مراكز لصناعة الكتان خاصة بفارس ، وكانت مدينة كازرون تختص بصناعة الكتان ، فأطلق عليها المقدسى اسم دمياط الأعاجم (٦) • وكانت تصنع بفارس أنواع الأقمشة المصرية من الديبكي

(١) المقدسى : ص ٢٠٤ •

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٣ •

(٣) ابن دقماق : ج ٢ ، ص ٧٩ •

(٤) أنظر زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية • أشكال

٥٥٧ — ٥٦٧ ، أشكال ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، صفحات ١٨٤ ، ١٨٧ و ١٩٣ •

(٥) أنظر زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ، أشكال

٥٧٠ ، ٥٧٣ ص ١٨٩ •

(٦) نفسه : ص ٤٣٣ — ٤٣٤ •

والشرب والقصب مقلدة بذلك الأسلوب المصرى • ويذكر المقدسى ،
أنه بمدينة سينير كانت تصنع ثياب تحاكي ثياب القصب وأنه ربما حمل
إليها الكتان من مصر • وهذا دليل على أن صناعة الكتان كانت تنتقل
من مصر إلى فارس • والعباسيون بدورهم أنشأوا دورا للطراز فى أهم
مدن فارس • وتفوق الإيرانيون فى صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات
الحريرية المشجرة ، وكانت المنسوجات الحريرية المشجرة تصنع فى تستر
والسجاجيد فى فرق وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية •
واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور ، أما المراكز الكبرى
لصناعة القطن فكانت تقع فى شرق فارس خصوصا مرو ونيسابور وبهم
(شرق كرمان) ، وقد اشتهرت المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة •
وكانت تصنع بها الطيالة وثمن الواحد منها ثلاثون دينارا وكانت تباع
بخراسان والعراق ومصر • أما صناعة الأبريسم فكانت متركزة على
طريق الصين القديم وكانت أيضا توجد بمرو وبطبرستان •

وقد ازدهرت بأقليم نيسابور صناعة الروائح العطرية ، وكانت
الروائح العطرية تتخذ من البنفسج والنيلوفر والرجس والسوسن
والزئبق (١) ، واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج • وقد أنشأ
المعتصم مصانع جديدة فى بغداد وسامرا •

وبغداد كان بها عدد كبير من دور الصناعة وقد قيل انه كان بها
أربع مائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصناعة الزجاج ، وثلاثون
آلف معمل لصناعة الخزف (٢) • واشتهرت بغداد بالصياغة ونبغ فيها
الفرس وبلغت صناعتهم شأوا بعيدا فى الدقة والجمال ، حتى انهم كانوا
يرصمون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب الجسم ، ويصنعون

(١) المقدسى : ص ٤٤٣ •

(٢) أنظر زكى محمد حسن : 'أطلس الفنون أشكال ١ : ٣١ ،

صفحات ١ - ٩ •

للملوك أقداحا تبهر الأبصار ، وكانوا يتخذون على الجامات صورا على هيئة طيور تطير ومن فوقها العقبان تنقض •

واشتهرت مصر أيضا بصناعة المعادن لا سيما صياغة الذهب والفضة ، وضرب المصريون بسهم وافر في صناعة الأدوية والعقاقير وكذلك صناعة المراكب النيلية والسفن المقاتلة وصناعة الزجاج (١) •

وشهد العصر العباسي أيضا انقلابا عظيما في صناعة الورق وكان الناس يعتمدون على البردي المجلوب من مصر ، ولكن كواغد سمرقند طغت على قراطيس مصر ، واضمحلت صناعة القراطيس المصرية في أواخر القرن الثالث الهجري • ولم يشر اليعقوبى الا الى مدينتين فقط في مصر السفلى ، وفعلا نجد أن الورق البردي المؤرخ ينتهى عام ٣٢٣ انتهى تماما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها بعام ٣٠٠ هـ • وكان أجود الورق في ذلك العصر هو الكاغد الذى نقلت صناعته من الصين • وقد استطاع المسلمون أن ينفقوه مما كان يستعمله في صناعته من ورق التوت والغاب الهندى ، وبدأت صناعته أولا في بلاد ما وراء النهر (٢) ، كما أنشأ المعتصم مصانع الورق في عدة مدن وجلب لها الأساتذة والصناع من مصر •

وقد تركت ظروف العصر العباسي الأول ، ونجاح خلفائه في توطيد النظام الداخلى ، وحرص هؤلاء الخلفاء على كبح الثورات واستتباب الأمن والتصدي للمشكلات الدولية ، أثرا عميقا في ناحية من أهم نواحي الحياة الاقتصادية وأقصد بها التجارة الداخلية والخارجية • وقد أشرنا الى وقوف العباسيين في وجه التقدم الضيق المتحالف مع الأتراك الشرقيين في آسيا الوسطى ، وشددوا في قبضتهم على الطريق الدولى للتجارة المارة ببحر قزوين وشرق أوروبا أو المتجه الى خراسان والعراق

(١) انظر : زكى محمد حسن : اطلس الفنون : ٧٣١ — ٧٣٧ • صفحات ٢٤٩ — ٢٥٠ •

(٢) الاضطخري : ص ٢٩٩ •

والبحر الأبيض المتوسط ، ورأينا كيف تركت الصين سياسة العدوان ولجأت الى التعاون والتفاهم ، واستؤنفت العلاقات التجارية عن طريق البر والبحر على أساس سيادة العباسيين التي تأكدت في أرضهم وداخل حدودهم ، ورأينا كيف تصدى العباسيون للمشكلة البيزنطية وكيف توطلت أواصر الود والتفاهم بين العباسيين والفرنجة في عصر شرلمان . لذلك أعتقد أن التجارة الدولية نشطت كأقوى ما تكون في عهد الرشيد، وتألفت في عصر المعتصم والواثق . وتطلع العباسيون الى البحر الأحمر وشرق افريقية وأخضعوا البجة لسلطانهم وبدأ التجار المسلمون يستقر بعضهم على ساحل شرق افريقية أو يتجرون في العاج والعييد . اذن أسفرت السياسة العباسية سواء في الصعيد الداخلي أو الدولي عن تطور هام في التجارة الداخلية والدولية . فيما يتعلق بالتجارة الداخلية يكفي ما قامت به الدولة العباسية من تأكيد سلطتها ونفوذها في كل مكان ، وارتبطت الولايات الاسلامية بالحاضرة بغداد بأوثق الروابط وأقواها ، ورابط الجند العباسيون في الأمصار يحافظون على النفوذ والسلطان ، وانتشرت القواعد البحرية في البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، ورابط الجند العباسيون في الثغور ونشطت التجارة الداخلية نشاطا عظيما ، يشهد بذلك الرخاء الذي غلب على حياة المسلمين . وقد أشرنا الى تبادل الحاصلات والخامات والمنتجات . واعتمدت هذه التجارة على دولة مرهوبة الجانب عظيمة الجاه تملك الثروات الطائلة والقوات القادرة ، يضاف الى هذا ما قامت به الدولة من توحيد النظم المالية واصدار العملة الموثوق بعارها والتي نالت التقدير في جميع الأسواق الداخلية والخارجية . ويكفى أن نقرأ ما أشار اليه الرحالة والجغرافيون من العلاقات التجارية الوطيدة بين مشرق العالم الاسلامي ومغربه ، وكيف كانت بغداد سوق الامبراطورية الكبير تلتقى فيه جميع النجارات والمنتجات ، ويمسك بزمام المال والاقتصاد ، ويتحكم صيارفة الحاضرة في ملايين الدنانير والدراهم . لكن الموضوع الذي

يستحق الدراسة هو نمو التجارة الدولية في ظل السلم الذي فرضه العباسيون على القوى المعاصرة ، السلم الذي لا ينبع من ضعف انما ينبع من قوة وتفوق وقدرة .

وقد نشطت الطرق التجارية نشاطا عظيما وارتادها التجار المسلمون فسلكوا طرقا برية واضحة المعالم . منها الطريق الى الشرق من بغداد الى همدان والري ونيسابور وطوس وهراة والذي ينتهي الى بخارى وسمرقند وبلاد الصير (١) . ثم الطريق الشمالى من بغداد الى الموصل وسنجار ونصيبين والركة وطبرية والرملة ثم القاهرة والاسكندرية (٢) . وكذلك الطريق البرى من غرب أوروبا الى الأندلس ثم عبر المضيق الى طنجة مخترقا المغرب ومنتھيا الى مصر فبلاد الشام والعراق (٣) . وهناك طريق برى آخر لعب دورا هاما فى التجارة الدولية وأقصد الطريق المستد من بلاد الروس الى شمال بحر قزوين الى جرجان وبخارى وسمرقند ثم منحدرًا الى بغداد (٤) .

ثم سلكت هذه التجارة الدولية الواسعة النطاق الطرق البحرية أيضا وخصوصا الطريق البحرى من غرب أوروبا الى المشرق مارا بمصر . وكان يستغله التجار اليهود (٥) . ويتحدث ابن خرداذبة أحد جغرافيين القرن التاسع الميلادى عن هذا الطريق البحرى الهام ، فيذكر أن هؤلاء التجار اليهود غالبيتهم من جنوب فرنسا ، وأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية ويقومون بدور الوسطاء لنقل التجارة الى أسوان أو أوروبا ، وأنهم كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والجلود

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨ .
قدامة بن جعفر ، ص ١٩٧ .
(٢) متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .
(٣) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ — ١٥٥ .
(٤) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ .
(٥) ابن خرداذبة : ص ١٥٤ .

والخزف والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون الى الفرما يحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى جدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي ، حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون في البحر فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا الى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك .

ويبدو أن هذه المغامرات التجارية لم تقف عند حد فقد عثر في اسكندنافية وفي السويد خاصة على الكثير من النقود الاسلامية تحمل نقوشا يرجع تاريخها الى الفترة بين أواخر القرن السابع وأول الحادي عشر . وهذا يدل على أن ميدان المعاملات التجارية وصل الى هذه الآفاق البعيدة ، كما وجدت نقوش مشابهة على طول مجرى نهر الفسولجا . وهذا يؤيد ما تشير اليه المصادر الأدبية من امتداد نشاط المسلمين التجاري الى بلاد البلقان عبر بحر الخزر والبحر الأسود . وقد سبق أن أشرنا الى الاهتمام العباسي بالطريق البحري الى بلاد الهند المنتهى الى الصين والى ازدياد أهميته في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي .

وفي العصر العباسي الأول نشطت العلاقات بين العالم الاسلامي وشرق أفريقيا وزاد اهتمام الدولة بالبحر الأحمر وموانيه . وكانت السفن تسير بحذاء الساحل الأفريقي الى بر الزنج طلبا للذهب والرقيق والعاج والعنبر ووصلت هذه الرحلات الى سنغاله (١) . وقد احتكر العمانيون التجارة مع بلاد الزنج وشرق أفريقيا . ذكر المسعودي أن القوم الذين يركبون بحر الزنج هم عرب من الأزد من أهل عمان (٢) . وكان الرحالة

(١) المسعودي : مروج الذهب : ج ١ ، ص ٦٥ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

المسعودى نفسه يركب البحر الى شرق أفريقيا من عمان وقد وصف
الرحالة وأشار الى الأهوال التى صادفها والمشاق التى تعرض لها أذ قال
« ... وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصير والروم والقازم واليمن
وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر
الزنج وفيه السمك المعروف بالأوال طول السمكة نحو من أربعمائة
ذراع بالذراع العمرية وهى ذراع ذلك البحر والأغلب من هذا السمك
طوله مائة ذراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب
الماء فى الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفرع منه بالليل والنهار
وتضرب له بالدبابد والخشب لينفر من ذلك »

وقد أدت هذه التجارة الدولية العظيمة الى نشأة موانئ اسلامية
ذاع صيتها واكتسبت شهرة عالمية وازدهمت بالسفن الغادية والرائحة
وتكدست فيها السلع . وأقام بها الغرباء ونشأت بها المنظمات المصرفية
والجمركية . وكانت الاسكندرية أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط ،
تنقل اليها التجارة الآتية من أوروبا الى البحر الأحمر وكذلك التجارة
الآتية من الشرق الى أوروبا . أما فى البحر الأحمر فقد ازدادت أهمية
القلزم التى تنتهى اليها تجارة الشرق الأقصى التى تريد عبور برزخ
السويس الى البحر الأبيض المتوسط (١) .

ثم عيذاب على الساحل الغربى لهذا البحر ، وأصبحت من أهم
المراكز التجارية فى ذلك الوقت ، فكانت ترد اليها السفن الوافدة من
الحبشة وزنجبار واليمن . وكانت البضائع تنقل من عيذاب على الابل
الى أسوان ، ومنها تنقل الى القاهرة بالنيل (٢) وكانت مقصد الحجاج
المصريين الذين يعبرون البحر الى جدة .

وفى أقصى الجنوب عند مدخل البحر الأحمر وضحت أهمية عدن

(١) ابن خرداذنة المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

(٢) متر : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

كنقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر • وكانت ترد اليها السفن المحملة بالسلع الآسيوية والأوربية مما أدى الى انتعاش التجارة وتدفق الأموال عليها • يذكر المقدسى (١) « أن من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة » • وفى الخليج الفارسى ظهرت أهمية سيراى التى أصبحت أعظم الثغور المتاجرة مع الشرق الأقصى (٢) وارتفع مستوى الدخل فيها بسبب تدفق الأموال • يذكر الاصطخرى أن أهل سيراى كانوا يبنون بيوتهم من طبقات عديدة ويستغلون فى ذلك خشب الساج الغالى الثمن الذى كانوا يجلبونه من ساحل مالابار وبلاد الزنج وبالغوا فى الاتفاق على دورهم حتى أن أحدهم يبنى بيتا كلفه ثلاثين ألف دينار ، وكان التجار يفضلونها على البصرة (٣) • ثم ميناء البصرة • وان كانت السفن لا تستطيع بلوغها فترسو فى الأبله •

وكان من آثار هذه التجارة العالمية أن نشأ أسلوب جديد فى المعاملات المالية ليواجه هذه الحركة الكبيرة والأموال المتدفقة بين الشرق والغرب • ويجد وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة العمل بعيدة عن اللصوص (٤) فنشأ النظام المصرفى ولجأ كثير من الناس لأصحاب المصارف لحفظ أموالهم وتيسير معاملاتهم التجارية بسبب ذلك النشاط التجارى العظيم الذى أسفر عن ظهور طبقة من التجار الأثرياء الذين امتد نشاطهم الى جميع الأمصار الإسلامية ، بل وصل الى بعض الدول المعاصرة • كما لجأت طائفة من كبار الموظفين من الوزراء والكتاب الى التماس مكان أمين يحفظون فيه ودائعهم • هذه المصارف كان يديرها رجال ذوو خبرة ودراية يسمون الجهابذة وكانوا إما من كبار التجار أو من الصيارفة (٥) • ويبدو أن نظام الصيرفة هذا قد ظهر

(١) أحسن التقاسيم : ص ٤٢٦ •

(٢) متر : ج ٢ ، ص ٤٣٢ •

(٣) المقدسى : ص ٤٢٦ •

(٤) متر : ج ٢ ، ص ٣٧٣ •

(٥) ذكر ناصر خسرو : أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف وكانوا جميعا يجلسون فى سوق يسمى سوق الصرافين ، انظر : متر : ج ٢ ، ص ٣٧٥ •

فى عهد المنصور فقد أودع أبو الحسن على محمد بن الفرات بمصرف هارون بن عمر ١٦٠ ألف دينار • وكانت الكوفة من أعظم المدن شهرة بالصيرفة وأمورها • وفى بداية العصر العباسى كان معظم الصيرفة من أهل الذمة • وقد اتخذوا مكانا خاصا بالكرخ وسامرا وكان يطلق على هذا المكان سوق الجوهريين والصيرفة •

ولعبت السفاتج والصكوك دورا كبيرا فى المعاملات المالية (١) والسفتجة خطاب تذكر فيه قيمة معينة من المال قابل لأن يصرف فى أى مكان من عملاء وجهابذة الشخص الذى حرر السفتجة • وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطويلة وهو آمن مطمئن ، بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسل الى العراق بهذه الوسيلة • ومما يدل على توطد العلاقات التجارية بين العالم الاسلامى وبين أوروبا أن سفاتج التجار المسلمين كانت تصرف فى البلاد غير الاسلامية ، الأمر الذى يدل على النظام المالى المستتب والثقة الموفورة بالاقتصاد الاسلامى ، ولهذا صارت للسفاتج قيمة المال واستخدمها الأفراد فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة •

أما الصك فهو عبارة عن ورقة مالية تثبت لهما قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين (٢) • وقد استخدم فى المعاملات المالية بين الأفراد فى كافة أنحاء العالم الاسلامى (٣) • وكان الجهابذة يعرفون قيمة هذه الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسم معلوم ، أشار ابن الأثير فى حوادث سنة ١٧٠ هـ أن الهادى أمر لندما

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ١٠٩ — ١١٠ •

(٢) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٢٣ — ١٢٤ •

(٣) يذكر ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكا بائنين وأربعين ألف دينار بدين على محمد بن أبى سعدون من أهل سجماسة لرجل من أهلها ، وقد شهد عليه العدول • ابن حوقل ، ص ٤٢ و ٧٠ •

بثلاثين ألف درهم وكتب صكا ليصرف من بيت المال (١) . هذا وكانت التجارة تجرى وفق تنظيمات مالية معينة . ومن أهم الأنظمة التي استخدمت في ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة وكانوا يحصلون من عملهم هذا على أجور محترمة . وكانت عقود الشراء تتضمن شروطا معينة كتحديد السعر وتحديد موعد الدفع إذا كان البيع نقدا أو موعد الأقساط إذا كان الدفع مؤجلا . كذلك تحديد نوع البضاعة وصفاتها وتحديد الكمية المتعاقد عليها . وإذا تمت شروط الصفقة كان لا يجوز أن تلغى ، اللهم الا إذا تبين المشتري وجود عطب في السلعة أو أنها غير مطابقة للمواصفات التي تضمنها العقد . واستخدمت العقود والسفاتج والصكوك في شراء السلع ، وكان من الجائز أن ينب كل من البائع والمشتري عنه وكيلا عند كتابة العقد إذا تعذر على أطراف التعاقد الحضور . وقد أدى ذلك كله الى نشاط ملحوظ بين الجهابذة وأصحاب المصارف .

هذه التجارة الغنية كان من الطبيعي أن تزيد من دخل الدولة نتيجة للمكوس التي تفرض على السلع المتبادلة بين الأسواق العالمية . فكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر (٢) . وكانت التعريفة الجمركية تختلف من بلد الى آخر ، ففي جدة مثلا كان يؤخذ عن كل حمل من الحنطة نصف دينار ، وعلى سبط الثياب ثلاثين دينارا ، وعلى سبط الديبقي ديناران ، وعلى حبل الصوف ديناران . وفي القلزم كان يؤخذ عن كل حمل درهم . وفي الاسكندرية كانت تفرض المكوس على السفن القادمة من المغرب . ومن الفرما تحصل المكوس من السفن القادمة من الشام (٣) .

وكانت الرسوم الجمركية في عدن ربما أكثر ارتفاعا اذ كانت الدولة

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

(٢) اليعقوبي : ج ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣) المقدسي : ص ٢٦٣ .

تجبي ثلث أموال التجار بسبب الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها .
وفي العراق أقيمت المراصد في البر والبحر والنهر . وفي البصرة كان
يجرى تفتيش دقيق حتى لقد كان يؤخذ على السلعة البسيطة أربعة
دراهم (١) ، وفي حي اليهودية وهو القسم التجاري من أصفهان كان
يؤخذ على كل حمل يدخلها ثلاثون درهما . وفي ما وراء النهر كان يفرض
على الحمل ستة دراهم اذا دخل أو خرج ، وعلى الرقيق اثنا عشر .
وكانت الدولة تفرض رسوما على الصادرات . فقد اقترح أبو يوسف
على الرشيد أن يرفع الظلم عن المارين بالمصالح ، وأن يحول دون جور
العمال في تحصيل ما لا يجوز تحصيله . ولعل ملاحظات أبي يوسف
كانت نتيجة للتوسع العظيم في التجارة الدولية ، وهو توسع لم يقابل
على ما يبدو باصلاح دقيق للجهاز الجمركي ، لهذا اقترح على الرشيد
أن يولى المكوس قوما من أهل الصلاح والدين ، وأن يأمرهم بمعاملة
الناس بالحسنى فلا يأخذون من الناس أكثر مما ينبغي ، كما أشار على
الرشيد أن يتفقد أعمالهم وأن يعزل الفاسد منهم (٢) .

كان من أثر تلك النهضة الاقتصادية الشاملة أن نمت موارد الخلافة
وزاد إيراد بيت المال . وقد أورد الجهشيارى في كتابه تاريخ الوزراء
وثائق تاريخية عظيمة الأهمية تشير الى جانب من جوانب موارد الدولة
وأعنى به الخراج . وهذا طبعا بصرف النظر عن الموارد الأخرى .
وإذا أضفنا الى هذه القوائم المنقولة عن ديوان الخراج ما ورد في الطبرى
.. اشارات الى أموال الخلفاء و ثرواتهم لتبيننا كيف كانت الدولة عند
تمامها فقهة في مواردنا ، فقد روى الطبرى (٣) . أن أبا العباس
السفاخ خلف تركة لا تعدو أن تكون تسع جباب وأربعة أقمصه وخمسة
حراويلات وأربعة طبالسة وثلاثة مظاريف خز . على أن الفضل في تنمية
در - سحره يرجع الى أبي جعفر المنصور ، فقد ترك ثروة قومها

(١) المقدسى : ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ١٢٢ .
(٣) ج ٩ ، ص ١٥٤ .

المسعودى (١) ينحو ٦٠٠ مليون درهم و ١٤ مليون دينار • ويبدو أن الثروة الخلافية وصلت الى أقصى ما أمكن أن تصل اليه في عهد الرشيد • فقد ذكر بعض المؤرخين أن الجباية بلغت على عهد الرشيد في كل سنة نحو ٥٠٠ مليون درهم من الفضة وعشرة ملايين دينار من الذهب ، وأسرف بعض المؤرخين في المبالغة تصويرا منه لهذه الثروة الطائلة التي تجمعت للدولة في عهد الرشيد ، فذكر أنه لكثرة الجباية كان الخراج يقدر بالوزن لا بالعد وأن وزنه بلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب • والحقيقة تتبينها من الاحصاءات التي استقناها الجهشيارى وهى احصاءات لا شك أنها معاصرة وقيمة ومفيدة ، وخصوصا القائمة التي وجدناها في كتاب وضعه أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب في أخبار خلفاء بنى العباس ، وهى بخط أبى الفضل نفسه وهى تشير الى مقدار الجباية زمن الرشيد وهى على هذا النحو • من العين ٥٠ مليون دينار قيمة الدينار ٢٢ درهما فكانت الجملة بلغت على حد تقدير المؤلف ١٢٥٥٣٢٠٠٠ درهما ، أما الورق فقد بلغ ٤٠٤٨٠٧٠٠٠ فتكون جملة العين والورق ٥٣٠٣٢٠٠٠ درهما وهى جملة موارد الرشيد من الخراج • فقد ناقش الدكتور الرئيس (٢) هذه القائمة وصور بعض ما ورد فيها من أخطاء فقد رأى أن حاصل ضرب ٥٠ مليون دينار في ٢٢ درهما يساوى ١١٠٠ مليون • كما أن مجموع العين والورق بخالف المجموع الذى انتهى اليه الجهشيارى ، فإذا جمع مقدار العين وهو ١٢٥٥٣٢٠٠٠ الى الورق وهو ٤٠٤٨٠٧٠٠٠ لكان الحاصل ١٦٦٠١٩٠٠٠ والحقيقة التى نستخلصها من وثائق الجهشيارى بصرف النظر عن بعض الأخطاء فى تفاصيلها أن ثروة الخلافة بلغت الذروة فى عهد الرشيد ، العهد الذى حلت فيه المشاكل وخفت صوت الثورات ، ومنح الولاة سلطات واسعة • وكبح جماح الخطر البيزنطى ، وتم التفاهم مع الفرنجة وتجمعت كل مقومات الاستقرار • وبرغم الفتنة بين الأمين

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .

(٢) الخراج : ص ٥١٠ — ٥٢٠ .

والمأمون وما تحملته الخزائن من خسائر جسيمة ، ورغم محاولات المأمون التخفيف من الأعباء التي فرضها نظام المقاسمة الذي وضعه المهدي والتكاليف الكبيرة التي تحملتها الدولة في عهده ، وما أشار إليه الطبري (١) من شكوى المأمون من قلة المال ، إلا أن قوائم الخراج من عهد المأمون تشير إلى أن الصورة التي رأيناها في عصر الرشيد لم تتغير كثيرا . وقد نقل الدكتور حسن إبراهيم (٢) قائمة للجباية من عهد المأمون نقلا عن ابن خلدون ، يتبين منها أن دخل الدولة من الخراج بلغ ٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم . ويبدو أن النفقات تزايدت قليلا في عهد المعتصم فبلغت حصيلة الخراج ٣٨٨٢٩١٣٥٠ (٣) واستمر هذا التناقص حتى بلغ الخراج في عهد الواثق ٢٩٩٢٦٥٣٤٠ درهما . ولم يكن هذا الدخل بالقليل على أي حال ، وظلت الدولة غنية بسواردها محتفظة إلى حد كبير بثروتها .

وكانت الخلافة فوق هذا كله تملك موارد أخرى هامة ، ملكت مساحات من الأرض الزراعية سميت الضياع السلطانية ، وهي الضياع التي غنمها العباسيون بعد أن تم لهم القضاء على الدولة الأموية وهي المعروفة بضياع آل مروان . وقد أشار البلاذري إلى أنه عند وفاة مسلمة بن عبد الملك آلت بالس وضواحيها لورثته وظلت ملكا لهم حتى قيام الدولة العباسية ، واستولى عبد الله بن علي على أموال الأمويين كلها ومنها هذه الضياع . وقد أعطاها السفاح اقطاعا لسليمان بن علي ثم آلت إلى ابنه محمد (٤) . أما رصافة هشام فقد آلت إلى أم جعفر زبيدة فبقت بها القطيعة المنسوبة إليها ، كما تم الاستيلاء على بحيرة الطريح ، وكانت ملكا لمروان بن محمد . هذا بالإضافة إلى ما كان من ضياع مسلمة ابن عبد الملك التي استولى عليها العباسيون ، واستولت الدولة كذلك

(١) ج ١٠ ، ص ٢٩٦ .

(٢) النظم الإسلامية ، ص ٢٩ .

(٣) الدكتور حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ، ص ٢٩٣ .

(٤) البلاذري : فتوح ١٥٧ — ١٥٨ .

على اقطاعات كافت ملكا لأبناء هشام بن عبد الملك • وهكذا استولى الخلفاء العباسيون على أرض واسعة فى العراق وبلاد الفرس • وقد عهد أبو العباس السفاح بعد توليه الخلافة الى عمار بن حمزة بن ميمون بالاشراف على هذه الضياع وحصرها (١) وازدادت أراضى الخلافة عن طريق الشراء أو المصادرة أو الغنائم ، كما استولت على أرض واسعة من طريق نظام الالغاء ، فقد كان بعض ملاك الأرض يسلمون أراضيهم الى الخلفاء لحمايتهم من عسف العمال • وأنشئت عدة دواوين لإدارة هذه الضياع • وكانت كل ضيعة أو مجموعة من الضياع يعهد بها الى عمال يديرونها ، وكانت فى بعض الأحيان يتقبلها شخص معين نظير مقدار من المال يدفع لبیت المال سنويا (٢) •

وقد بدأت الخلافة منذ عهد المنصور تصادر أموال كبار رجال الدولة كنوع من العقوبة ، وكانت مصادرة أموال البرامكة من أشهر المصادرات فى عهد الرشيد ، وقد بلغت قيمتها ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، كما صادر الرشيد أموال على بن عيسى بن ماهان بعد عزله عن خراسان وحصل من ذلك على ٨٠ مليوناً من الدراهم (٣) •

ولما قامت الحرب بين الأمين والمأمون صادر الأمين ممتلكات أخيه واتباع المأمون سياسة المصادرة بعد أن ولى الخلافة • كما صادر المعتصم أملاك وزيره أبى العباس الفضل بن مروان وحصل على مبلغ كبير من المال ، وتوسع الواثق فى سياسة المصادرة فصادر سنة ٢٢٩هـ أموال عدد كبير من كتابه وعماله •

هكذا أصبح خلفاء العصر العباسى الأول أغنى الملوك الذين عرفهم عالم العصور الوسطى •

(١) الجهشيارى : الوزراء ، ص ٨٩ — ٩٠ •

(٢) كان الوزير يتولى الاشراف على جميع هذه الضياع نظير ١٧٠

الف دينار • انظر الجهشيارى ، ص ٢٨٢ و ٣٥١ •

(٣) طبرى : ج ١٠ ، ص ١٠٠ •

هذه الموارد العظيمة وهذه الثروة الخيالية كانت من أمضى أسلحة الخلفاء فى تحقيق مشروعاتهم فى السياسة الداخلية والخارجية ، وانجاز مشروعاتهم المدنية كتأسيس بغداد وسامرا ، ومشروعاتهم العسكرية ، وكانت هذه الثروة فى الحقيقة كثيرة ، للقدرات العظيمة التى رايها متمثلة فى المنصور وخلفائه . وقد استغلت هذه الأموال أيضا فى كسب الأنصار وتأليف القلوب وتجنيد الجند ، لم ييخلوا بأية نفقة مهما عظمت فى سبيل اعداد الجيش وتدريبه ليكون سندهم فى قمع الثورات فى الداخل ومجابهة الأخطار فى الخارج . ونلمح فى أخبار العصر العباسى الأول ما يؤيد هذا القول ، فقد أنفق المنصور فى اعادة بناء حصن ملطية سنة ١٣٩ هـ مبالغ طائلة ، كما أن مشروعاته فى تأكيد السلطان المركزى للخلافة فى بلاد المغرب كلفته نحو ٦٣ مليون درهم . واستمر الخلفاء يوالون الحصون والثغور بالتعمير ، فأعاد المهدي بناء قلعة الحدث بالجزيرة ، كما أنفق الرشيد الكثير فى بناء وترميم حصن زبطرة وفى اعداد الحملات التى سيرها لقتال البيزنطيين . وقد زادت نفقات الحرب فى عهد المعتصم زيادة كبيرة حتى قيل ان نفقات محاربته بابك الخرمى بلغت مليون دينار فضلا عن النفقات الطائلة التى أنفقها فى محاربة البيزنطيين .

وقد سبق أن أشرنا الى انفاق الأموال الكثيرة فى حفر الأنهار وانجاز مشروعات كبرى للرى أسهمت فى زيادة الانتاج الزراعى .

وأعطيات الخلفاء ومنحهم تستحق من الدارس لنفقات الدولة مزيدا من التأمل ، فقد بلغت من الكثرة حدا يعطى من يحكم بظواهر الأمور الحق فى أن يرمى هؤلاء الخلفاء بالاسراف الذى قد بلغ حد اليوس . ولكن الحقيقة أن ذلك كله لم يكن هوسا أو تبذيرا ، انما كان انفاق مال لتحقيق أهداف وسياسة ، يؤيد هذا القول وجهة نظر المهدي فى انفاق الأموال الطائلة التى جمعها أبوه حتى فرغت بيوت المال ، أبو حارثة الهندي خازن بيت المال فرمى المفتاح بين يديه وقال :

ما معنى مفاتيح نبيوت فرغ ما بها (١) • وروى الجهشياري (٢) أن المهدي أراد أمرا فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ، فقال المهدي : « ويلك • • وهل يحسن السرف الا بأهل الشرف • ويلك يا يعقوب لولا الاسراف لم يعرف القل من الكثر » كان لابد من أن يتألف الناس • وقد وضحت هذه السياسة منذ قيام الدولة ، فقد منح الخليفة أبو العباس أحد كبار العلويين ويدعى عبد الله بن الحسن مليوناً من الدراهم ، وبلغت عطايا سليمان بن علي خمسة ملايين درهم ، كذلك منح المنصور معن بن زائدة الشيباني عشرة آلاف درهم لجهوده في قمع الراوندية • وكان المنصور كثيراً ما يمنح القواد الذين يحضرون مجلسه • ويقال انه أطلق لهم في يوم واحد مليون درهم • وأنفق المهدي الكثير ، فحين حج سنة ١٦٠ هـ أنفق على أهل مكة ثلاثين مليون درهم • وقد جلس المهدي للعطاء مرة في خاصة أهل بيته وقواده وكان حين تقرأ عليه الأسماء يأمر بالزيادة العشرة آلاف والعشرين ألف (٣) • أما الهادي فقد أمر لعيسى بن سميرة بثلاثين ألف دينار (٤) • وكذلك توسع الرشيد في اغداق العطايا والمنح ، وكان اذا عفا عن شخص أطلق له الأموال ، فلما أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي منحه مائة ألف دينار وزاد صلات الشعراء فبلغ ما حصل عليه أحدهم أربعين ألف دينار • وكان الرشيد في الحقيقة كثير الاتفاق حتى لقد قيل عنه أنه كان يقتنى أثر المنصور ويطلب العمل بآثاره الا في بذل الأموال (٥) • ولما توطدت سلطة المأمون كثرت أعطياته لرجاله ، ففي سنة ٢١٣ هـ ولي أخاه المعتصم الشام وابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لهما ولعبد الله بن طاهر مليوناً ونصف مليون من الدينانير ، كما توسع في اعفاء قدمائه • ففي سنة ٢١٨ هـ منح محمد بن عباد بن المهلب ثلاثة ملايين من

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ •

(٢) الوزراء والكتاب ، ص ١٥٩ •

(٣) الطبري : ج ٩ ، ص ٣٣٧ •

(٤) الطبري : ج ١٠ ، ص ٤٢ — ٤٣ •

(٥) العقد الفريد : ج ٣ ، ص ٢٦١ •

الدراهم ، كما أعطى جنده وحاشيته في دمشق عشرين مليون درهم ، وأعطى الحسن بن سهل عشرة ملايين من الدراهم • وحينما هزم الأفشين بابك الخرمي منحه المعتصم عشرين مليوناً من الدراهم ، كما أعطى الواثق سنة ٢٣١ هـ وصيفاً الخادم ٧٥ ألف درهم بعد أن قضى على ثورة الأكراد بالجزيرة •

ولا يمكن أن يختتم القول في الحياة الاقتصادية في العصر العباسي الأول دون الإشارة إلى حقيقة هامة ، وهي أن الثورة العباسية التي فتحت الطريق أمام جماهير الموالي الذين أيدوا الثورة وعملوا على نجاحها في العمل السياسي ، فوصلوا إلى أرفع المناسب وتولوا القبادات السياسية والعسكرية ، فتحت أمامهم نفس السبيل في المجال الاقتصادي ، وقد رأيناها تسقط القيود التي وضعها الأمويون الأواخر ، وتخفف عن الفلاح عبء الخراج وترفع من مستواه وتعطي العمال في المدن الكبرى حرياتهم المدنية وتزيح من سبيلهم كل العقبات ، ولكن طبقات أخرى غير طبقات العمال والفلاحين استغلت هذا الميدان المفتوح دون قيد ، فانطلقت فيه إلى الغاية ، وأفادت من النهضة الاقتصادية العظيمة وظهرت اقطاعية عظيمة بعيدة السلطان تملك المساحات الواسعة من الأرض في العراق أو الأمصار وتستغل هذه الأرض لصالحها وتستدر منها أعظم الثروات • وكذلك نشأت طبقة رأسمالية أخرى في الناحية المالية استغلت رؤوس أموال كبيرة إما في المشاريع الصناعية أو التجارية •

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليعمروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة ، وسرعان ما جمعت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها • والبرامكة في عصر الرشيد احتازوا الأموال ذوثة واستولوا على القرى

والضياع من النواحي والأمصار في سائر الممالك • ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كان للنساء والمحظيات اقطاعات يهبها لهم الخلفاء • واقتصر المقطعون على تدبير أملاكهم عن طريق غلمانهم ووكلائهم • وكان من أبرز عيوب هذا النظام أن المقطع يعمل على الإثراء ويجمع الأموال الكثيرة ، وليس أدل على ذلك مما وصل إليه البرامكة فقد عمروا مرافق الدولة وخططها بالرؤساء من أولادهم وصنائعهم وتسربت الى خزائنهم أموال الجباية • وتحدث الماوردي (١) عن هذه الاقطاعات وقسمها الى: اقطاع التملك ويعنى أن صاحب الأرض يملكها مقابل دفع العشر من انتاجها سنويا • وكان الخلفاء العباسيون يقطعون أنصارهم أحيانا من الأرض العامرة • ثم اقطاع الاستغلال ومعناه أن الأرض يمنحها الخليفة لمدة معينة دون أن يملكها صاحبها أو يورثها وينتهى حق الاستغلال بموته • وكانت معظم الاقطاعات في العصر العباسي الأول تعطى لأصحابها وفق نظام الاستغلال هذا •

واختلفت الاقطاعات حسب الأفراد الذين منحت لهم • فقد منحوا الاقطاعات للرجال المقربين اليهم مكافأة على أعمال قاموا بها أو رغبة في تكريمهم ، فأعطيت الشعراء والأمراء وعلية القوم كاقطاع تملك ، وقد أقطع المنصور ابنه صالحا اقطاعا من هذا النوع قرب الأهواز كما أقطع المهدي أفراد حرسه الخاص اقطاعات زيادة على رواتبهم مكافأة لهم • كذلك أقطع الرشيد عبد الله بن المهدي بعض الأراضي بمنطقة الأهواز •

وكان صاحب الاقطاع يعين الفلاحين العاملين في زراعة أرضه ويمدهم بالبذور وينفق على حفر القنوات وصيانة الأرض •

وقد منح الخلفاء العباسيون بعض الاقطاعات الخاصة بمقتضى نظام الإيفار فأقطعوا بعض المقربين اقطاعات واسعة مقابل مبلغ من المال

(١) الأحكام السلطانية : ص ١٦٨ — ١٦٩ •

لا يرتبط بنسبة العشير أو الخراج المقرر على الأرض وسميت هذه الأرض أرض الايفارات ، ومنحت الأشخاص من ذوى النفوذ فى الجهات التى يسودها الاضطراب أو تقل عوائدها (١) ، كما منح الخلفاء العباسيون اقطاعات من أرض الصوافى التى كان يملكها أكاسرة الفرس وأمراؤهم ثم هجرها أصحابها أو قتلوا • وثمة نوع آخر من الاقطاعات يسمى بالاقطاعات المدنية وهى أرض يقطعها الخلفاء الوزراء والكتاب والموظفين مقابل الرواتب أو كبديل للنفقات التى يستحقونها بحكم عملهم فى خدمة الدولة • وهناك الاقطاعات العسكرية التى تقطع للقواد منذ عهد المنصور فقد عرض وزيره أبو أيوب الموريانى على أحد القواد سنة ١٣٧ هـ مدينة كسكر ، كما أقطع المهدي اقطاعات لحرسه الخاص ، وأقطع الهادي والرشيد جند الشغور قطائع فى أرضها وكذلك فعل المأمون والمعتصم •

ثم طبقة التجار المياسير الذين أفادوا من التقدم التجارى الذى أشرنا اليه وركبوا البحار وجابوا الأسواق وسيروا السفن لحسابهم ، وكان لهم الوكلاء والمخازن فى كل مكان ، والذين كان فى مقدورهم أن يحولوا ملايين الدراهم ويوقعوا من العقود ما يقوم بالملايين ، وعاشوا اما فى الحاضرة بغداد أو فى حواضر الأقاليم أو فى الموانئ الكبرى عيشة الترف والنعيم ، وأصبح التاجر الغنى هو ممثل الحضارة الاسلامية التى صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب • ويبدو أن بريق التجارة والمستغلين بها كان شديدا بسبب الأرباح الطائلة التى عادت عليهم ، ذلك أن بدر بن حسنويه كان يلى منصبا من أرفع المناصب فى الدولة ولكنه لم يترفع عن أن يشتري خانا بمدينة همدان ويقيده باسمه ويقيم فيه ويبيع ما يشتريه من الأمتعة • وقد ربح من وراء ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم •

لكن الأمر الذى لا يغتفر بحيال الخلفاء فى العصر العباسي الأول هو أنهم لم يطبقوا المبادئ التى طبقوها فى الحياة السياسية على النواحي

(١) الرئيس : الخراج ، ص ٤٨٧ •

المالية والاقتصادية ، ففي الوقت الذي كبتوا فيه عناصر الموالى الصاعدة وألزموها حدود الطاعة للخلافة وحافظوا على قدرتهم وفعاليتهم ، أطلقوا لعناصر الموالى العنان في المجال الاقتصادي فبرعوا فيه وسيطروا عليه وتملكوا ثروات البلاد سواء في الحاضرة أو الريف ، وتألقت منهم طبقة ممتازة هابها الخلفاء ورجال الدولة ، وشهد العصر العباسي الأخير تحولا رأسماليا خطير الشأن وانقلبت برجوازية الأمس الى رأسمالية طاغية متحكمة شديدة السطوة أدت الى اختلال التوازن الاقتصادي ، وأوجدت بونا شاسعا بين طبقات المجتمع الأمر الذي أدى الى مزيد من الثورات ذات الهدف الاقتصادي • ولو طبق العباسيون نفس المبادئ التي طبقوها في مجال السياسة وفرضوا القيود والضوابط على هذا التحول الرأسمالي واتخذوا سلطات الدولة وسيلة لزيادة مستمرة في ارتفاع مستوى الطبقات الفقيرة لكان للتاريخ العباسي شأن آخر •

٢ — الحياة الاجتماعية :

ان دراستنا للحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول ان تكون بالدراسة الشافية اذا قصرناها على بغداد وحدها وما شهدته من حياة اجتماعية متطورة ، أو على الخلفاء ورجال الدولة وحياتهم الخاصة ولهوهم وشرابهم وطعامهم ولباسهم ومجالس أنسهم • كما لا يمكن في مثل هذا الحيز الضيق الذي تتناول فيه الحياة الاجتماعية كصورة من الصور العديدة التي شهدتها العصر العباسي الأول أن نعرض لأدق التفاصيل الاجتماعية في مجتمع عظيم متزامي الأطراف كالمجتمع الاسلامي في العصر العباسي الأول •

لذلك أفضل أن ننظر الى موضوع الحياة الاجتماعية من نفس الزوايا التي نظرنا منها الى أحداث العصر العباسي الأول كلها ، وأن نركز على التطورات الهامة التي أحدثتها الثورة وخلفتها ظروف العصر • وخاصة

(١) آدم منز : ج ٢ ، ص ٢٦٤ •

التطورات الاقتصادية وصدى هذه التطورات في المعالم الاجتماعية للعصر العباسي الأول كله .

أهم معالم التطور الاجتماعي ما جاء نتيجة حتمية لما سبق أن عرضنا له في دراسة الحياة الاقتصادية ، وما لاحظناه من انطلاق اقتصادي عظيم وما أدى إليه هذا الانطلاق من مظاهر التحول الرأسمالي وارتفاع مستوى الدخل ، وما نتج عن ذلك كله من امتلاك الخلفاء لثروات خيالية . وغنى الدولة بصورة فريدة ، وما جمعتها البيروقراطية الحاكمة من وزراء وكتاب وقادة وولاة من دخول عظم قدرها أودعوها المصارف ووظفوها في المشاريع التجارية ، وما كان من نشأة طبقة وسطى جديدة قوامها العمال الذين أحرزوا الثراء وصغار الملاك الذين اتسعت دائرة أعمالهم ، ثم ما أشرنا إليه من تحول الطبقة البرجوازية القديمة الى اقطاعية عظيمة السلطة في الريف ورأسمالية عظيمة الأموال في المدن والحوضر . ولم تكن تلك ظواهر قاصرة على بغداد والعراق وحدهما إنما امتد أثرها الى الأمصار الإسلامية . وكان الأفراد العاديون يستطيعون أن يحيوا حياة كريمة . وقد أشار آدم مترز^(١) الى أن الأسرة العادية في عهد الرشيد كان في مكنتها أن تعيش من دخل لا يتجاوز ثلاثمائة درهم في السنة ، وأن الأسرة التي كان دخلها نحو من سبعمائة دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية أقرب الى الطبقة الممتازة منها الى الوسطى . وكان أثرياء الناس وأبنائهم سواء في الحضر أو الريف ينفقون عن سعة في بناء الدور أو اقتناء الجوارى أو المشاركة في المشروعات التجارية .

ولنبداً بأثر هذا التحول الاقتصادي في حياة الطبقة الممتازة من الخلفاء والوزراء ومن أحاط بهم ، والولاة في أقاليمهم ، وأثرياء الناس من الزراع أو التجار .

ويبدو أن الخلافة العباسية قد تحولت الى حياة الترف والنعيم التي

(١) الحضارة الإسلامية : ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

يصورها أدب ذلك العصر سواء أكان أدبا رسميا أم شعبيا ، دفعة واحدة رغم امتلاكها الأموال الوفيرة زمن المنصور ، وفي حياة هذا الخليفة نفسه مصداق لهذا القول • فقد روى الجاحظ (١) أن المنصور كان لا يظهر لنديم قط ولا يثيب أحدا من ندمائه وغيرهم درهما ، فيكون له رسم في ديوان ، ولم يقطع أحدا من كان ينتسب الى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض • وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، وكان يستطيع أن يذكر بها من نالها وكان يقول « من صنع مثل ما صنع اليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكورا ومن علم أن ما صنع فالى نفسه صنع لم يستبطنى الناس فى شكرهم ولم يستزدهم فى مودتهم ، ولا تلتزم من غيرك شكر ما وقيت به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فأكرم وجهك عن رده » •

ثم بدأ الانطلاق الاجتماعى قليلا فى عهد المهدي ، يؤيد ذلك قول المسعودي « كان المهدي محبا الى الخاص والعام لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم والكف عن القتل ، وتأمين الخائف وانصاف المظلوم ، وبسط يده فى العطاء » ومعنى هذا بداية استقرار الدولة وحل مشاكلها واستقرار أمورها ، ثم وصل هذا الانطلاق الى القبة فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق • كان عصر هؤلاء هو عصر الانطلاق الاجتماعى العظيم لهذه الطبقة الممتازة : طبقة الخلفاء وأعوانهم وطبقة الرأسماليين ملاك الاقطاعات أو التجار ملوك المال •

ظهر هذا الانطلاق فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأرستوقراطية الحاكمة بنفوذها أو المتحكمة بمالها • وأشار الخطيب البغدادي الى وصف قصور خلفاء العصر العباسي الأول فذكر أنها كانت تشتمل على دور واسعة وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظلمة بالأشجار ، وكانت الأروقة تسمى بالأربعين أو الستين على قدر الغلمان • وقد بنى المنصور قصر الذهب وسط بغداد وقصر الخلد على شاطئ دجلة الغربى تجاه باب خراسان ، وكانت بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه

مستاهير من الذهب والفضة ، كما تخللته العمدة الكثيرة الفخمة وفرش
بالرخام المجزع تتوسطه قضبان من الذهب وفرش بالديباج والبسط وفيه
الكراسي المرصعة باللؤلؤ . كما بنى الرشيد على دجلة قصرا تألق في
تجميله ربما أفخم مما زين به المنصور قصره السابق ، كما بنى الواثق
في سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني (١) .

وكانت قصور الأمراء تقرب من هذا المستوى ومن أحسنها تعبيرا
قصر عيسى بن علي بن عبد الله عند مصب نهر الرغفل المتفرع من دجله ،
وقد ذكر أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى ومعه أربعة آلاف رجل فاتسع
لهم هذا القصر الكبير .

وكانت قصور البرامكة صورة لترف البيروقراطية الجديدة المتشبهة
بالأمراء والخلفاء . وقد روى الجهمسياري أن يحيى بن خالد البرمكي
قال لولديه الفضل وجعفر « لا شيء أبقي من البناء فأتخذوا منه يبقى لكم
ذكرا » وقيل ان جعفر البرمكي أنفق على بناء قصر له عشرين مليون درهم .

وكانت قصور الطبقة الاجتماعية الممتازة تصور ما حازوه من ثروة
وجاه . كانت دورهم ثلاثة أقسام هي : مقاصير الجرم ، وحجرات
الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، وتحيط بها حدائق تزرع
فيها الفاكهة والرياحين ، وحليت جدرانها وستقونها بالفسيفساء المذهبة
والرسوم الملونة ، وأما دورهم فقد زينت بالقباب المرفوعة على عمد
دقيقة ، ويحيط بكل دار سور واحد .

ولم تكن قصور ولاية الأمصار بأقل من هذه بهجة ورواء بل كانت
تقليدا لما شاع في الحاضرة من أساليب فنية ، أشار الكندي إلى قصور
الولاية العباسيين في مصر . ولم تكن قصور الأغلبة في تونس أو الطاهريين
في خراسان ، أو ولاية الدولة في السند أو الحجاز أو الشام بأقل من

(١) الطبري : ج ١١ ، ص ١٠ .

هذا المستوى ، وكذلك كان شأن كبار رجال الدولة وأثرياء التجار وكبار المقطعين وملوك الأرض •

وكان الطعام والشراب صورة من هذا المستوى الاجتماعى الرفيع •
حفلت مائدة الرشيد بألوان الطعام حتى قيل ان الطهارة كانوا يطهون له ثلاثين لونا فى اليوم ، وكان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم فى اليوم •
ولما زف الى زبيدة بنت جعفر أقيمت فى قصره وليمة تكلفت خمسة وخمسين ألف درهم ، وبلغت نفقة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار كان ينفق منها قدرا كبيرا على مطابخه (١) •

وكان الأمراء يعبون من هذا السرف : قيل ان عيسى بن على استضاف الخليفة فقدم له ولأتباعه من ألوان الطعام «الخبز ولحم الجدى والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى» وقد بلغ من نفقتهم فى الطهى واسرافهم فى الانفاق عليه أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة (٢) ، كما روى المسعودى قصصا متشابهة عن اسراف ابراهيم بن المهدي فى تقديم الطعام عندما زاره الرشيد بالركة ، قال المسعودى ان ابراهيم بن المهدي قال : استزرت الرشيد بالركة وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب اليه منها جام قريض سمك فاستصغر القطع وقال : لم صغر طبابخك تقطيع السمك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : هذه السنة السمك ، قال ، فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم (٣) •

وقد قلد الوزراء الخلفاء والأمراء وساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم وسرت هذه العادة بين عليّة القوم جميعهم سواء فى الحاضرة أو الأمصار،

(١) ابن طباطبنا : الفجرى ، ص ٢٠٧ .

(٢،٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

روى الطبرى (١) أن عامة أهل بغداد كانوا يتفننون فى الطعام ويسرفون فى اجتلاب الوانه فى غير مواعيدها من صيد وفواكه وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها فى الوزن من الفضة • وكانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والجبن من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند •

وكما قاد الترف الخلفاء الى الاسراف فى الطعام قادهم الى التأنق فى الملبس فى حياتهم الخاصة والعامة • كان الخليفة فى المواكب يرتدى قباء أسود أو بلون البنفسج يصل الى الركبة وهو مفتوح عند الرقبة ليظهر القفطان زاهيا من تحته ، وله منطقة مرصعة بالجواهر وعليه عباءة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة زينت بالجواهر الغالية •

أما الطبقة الراقية فكان لها أيضا زيتها الفاخر الذى يتمشى مع ثرائها ومكانتها • كان لباسها العادى يتألف من سروالة فضفضافة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة ، وكانوا أحيانا يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ويسمونها « مزاج » •

وكان لكل طائفة زيتها الذى يميزها ، فالكتاب لبسوا الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان رداء القواد الأقبية الفارسية القصيرة • أما عامة الناس فكان رداء الواحد منهم ازارا وقميصا ودراعة وسترة طويلة وحزاما يسمى (قمر بند) وكانوا يلبسون الأحذية والنعال •

وسايرت ملابس النساء نفس هذا التطور بل لعلها كانت أكثر مبالغة فى الفخامة والتأنق ، فسيديات الطبقة الممتازة اتخذن غطاء الرأس مرصعا بالجواهر ومحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة • ويقال ان هذا الزى ابتكرته عليّة بنت المهدي • وكان للسيدة زبيدة فضل كبير فى تطور الزى اذ يعزى اليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر • وكانت

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٥٢ •

تسرف فى شراء ملابسها وتزيينها حتى انها اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيذ ثمنه على خمسين ألف دينار • وقلدتها نساء الطبقة الممتازة جميعهن • أما نساء الطبقة الوسطى فكن يتخذن فى رؤوسهن حلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن •

وثمة ظاهرة أخرى كان لها أثرها الكبير فى تحديد معالم التطور الاجتماعى فى العصر العباسى الأول • وهى ظاهرة الانتشار المطرد للإسلام ونجاح الدعوة الى الاسلام التى بدأت فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام • وقدر للعهد العباسى أن تتركز فيه كل جهود الخلفاء والولاة والعلماء والدعاة منذ أيام النبى حتى آخر القرن الثالث الهجرى • ونجاح الثورة العباسية فى خراسان وانتشارها فى ايران بسرعة انما كان نتيجة لدخول أغلب الايرانيين فى الاسلام ، وقد أيدوا الثورة وساروا فى ركابها تطلعا الى اسقاط القيود التى وضعها الأمويون فى طريق فوزهم بحق المواطنة الاسلامية (١) • وكان امتداد الدعوة العباسية الى ما وراء النهر يدل أيضا على الخطوات البعيدة التى قمتها الاسلام فى طريق الانتشار فى وطن الأتراك ، ثم كانت الحكومة العباسية وما قامت به من جهود فى تدعيم سلطانها والقضاء على الحركات الهدامة عاملا فى دفع الحركة الاسلامية الى الأمام وتشجيع التيار الاسلامى القوى المتدافع ، ويمكننا أن نقول فى غير تردد أنه ما كاد العصر العباسى الأول ينقضى حتى كان المشرق الاسلامى قد اكتسب صبغة اسلامية واضحة واتخذ طابعا عربيا واضحا فى لغته وثقافته •

وقد شهد الغرب الاسلامى تطورا مشابها • والذي يدرس ما ورد فى ابن عبد الحكم (٢) والكندى (٣) من روايات ويطلع على قوائم جباية

(١) ارنول : الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٣٧ — ٢٤٠ •

(٢) فتوح مصر •

(٣) الولاة والقضاة •

الجزية التي حفظها أوراق البردى العربية من القرن الثاني والثالث الهجريين يشهد تطورا خطيرا في تاريخ الدعوة الى الاسلام . وكان الاسلام والتعريب يسيران جنبا لجنب . ويساق دليلا على ذلك ما كان من تناقص حصيلة الجزية المفروضة على اهل الذمة تناقصا مطردا . دعا الى عدم اعتبارها في آخر القرن الثالث الهجري بابا هاما من ابواب الايرادات . وقد اشتدت ثورات المصريين من المسلمين سواء في الدلتا أو الصعيد ، وتفسر هذه الثورات على أنها حركات أقلية أحست بنفوذها يتداعى وكيانها يضعف ، فناضلت فضالها الأخير قبل أن تفقد سلطانها ويقل نفوذها . وساعد على انتشار الاسلام أيضا شيوع الثقافة العربية بعد أن كانت مركزة في القسطنطينية وامتدادها جنوبا حتى أسوان وشمالا حتى الاسكندرية ، وتوطين القبائل العربية في الريف ومساهرتها المصريين . فلما جاء أحمد بن طولون الى مصر عام ٢٥٤ (١) وجد البلاد قد غلب عليه الاسلام وتشرب الثقافة العربية .

وكذلك كان حال المغرب فقد أدت سياسة المشاركة بين العرب والبربر في الحكم والنفوذ والفتح وملكية الأرض الى دخول أغاب القبائل في الاسلام . وكانت مدرسة القيروان تلقن هذه الجموع الثقافة العربية وتحمل ظهر الدعوة وتساند جهودهم . ومن الأمور المقررة في تاريخ المغرب أن الخط الفاصل بين المغرب القديم والمغرب الاسلامي كان ممسلا في ثورات الخوارج التي شغلت الحكومات العربية حتى قيام الأغابة . فقد كانت هذه الثورات تشل تطلعات ملايين المسلمين من المغاربة الى اسقاط ما قام في وجوههم من عقبات آخر العصر الأموي . وإلى حينهم الطبيعي في المساواة . وشهد العصر الأموي الأخير دعوتين استغلها أعداء الأمويين الأواخر من ناحية وتطلعات جماهير المسلمين من ناحية أخرى لاقامة حكومة تتبنى مبادئ الدعوة : ثلثت دعوة المشرق تسعى الى إقامة

(١) حسن أحمد محمود : حضارة مصر في العصر الإسلامي .

خلافة هاشمية للرضا من آل محمد ، ثم تحولت الى خلافة العباسيين .
وقامت دعوة في المغرب تدعو الى اسقاط امامة قريش وتولية الخلافة
أفضل المسلمين ، ولذا بايع الثوار الخوارج سقاء يدعى ميسرة المظفرى
خليفة وفاضلوا تحت علمه تحقيقا لمبادئهم . غير أن دعوة الخوارج أسفرت
عن وجهها في وقت مبكر عام ١٢٢ - ١٢٣ تقريبا واستطاعت الخلافة
الأموية أن تضربها بشدة ضربة قاصمة ، على حين ظهرت الحركة الأخرى
في خراسان عام ١٢٩ هـ والدولة الأموية في الرmq الأخير ، فتمكنت من
النجاح وحرصت على تأكيد سلطانها في مصر والمغرب على أنقاض
الخوارج ، وظلت تناضل حتى أقر الرشيد قيام الأغالبة في تونس .
والمتبع لتاريخ مدرسة القيروان في النصف الأخير من القرن الثالث
الهجرى ومدرسة فاس وما صدر عن المدرستين من كتب طبقات وتراجم
يقتنع بحق كيف تأصل الاسلام في تلك البلاد ، وكذلك تراجم مدرسة
الفسطاط التى تضمنها كتاب ابن الحكم ومؤلفات المؤرخ الكندى .

واذا كان هذا التطور قد وضح في آخر العصر العباسى الأول فان
للعباسيين فضلا كبيرا في الأخذ بمساعد هذه الحركة الاسلامية النامية حتى
وصلت الى هذا القدر الكبير من النجاح . وبذل العباسيون في هذا
المضمار جهدا أكبر مما بذله خلفاء بنى أمية . فطبيعة الخلافة العباسية
الدينية جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة ويتدخلون فى المسائل
الدينية تدخلا أكبر ، وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء فى نشر الدعوة
الى الاسلام . والمتكلمون قاموا بجهد مشكور فى هذا السبيل وعلى
رأسهم المعتزلة ، فهم الذين كانوا يبحثون فى الاسلام عن طريق العقل
واستعانوا بالمنطق اليونانى وعزفوا أدب الجدل والمناظرة ، وفارلوا أهل
الديانات الأخرى من مجوس ويهود ونصارى ودعوهم الى الاسلام ،
كما بذلوا الجهود فى الدعوة الدينية^(١) والرد على المخالفين فأسلم على
يدهم الكثيرون ، فقد أسلم على يد أبى الهذيل العلاف أكثر من ثلاثة

(١) احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

آلاف رجل • وبجانب هؤلاء العقليين الذين دعوا الى الاسلام عن طريق العقل كان هناك من يدعو الى الاسلام عن طريق الأسوة والسيره الطاهرة كالعلماء والفقهاء • قال ابن خلكان^(١) « قيل أنه أسلم يوم مات أحمد ابن حنبل عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس » أو عن طريق الوعظ والتصوف كما فعل أبو القاسم الجنيد • وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء للدعوة الى الاسلام ، وخصوصاً المأمون الذى بذل جهوداً كبيرة فى دعوة أهل الصغد وأشروسنه وما وراء النهر ، فكتبهم بالدعوة الى الاسلام والطاعة والترغيب فيه ووجه رسله ليفرضوا لمن رغب فى الديوان ، وأسفرت هذه الحركة فى عهد المعتصم عن تغلب الاسلام على بلاد ما وراء النهر •

ولا نريد أن تتناول انتشار الاسلام من وجهة النظر العقيدية أو الثقافية انما من وجهة النظر الاجتماعية ، اذ مما لا شك فيه أن اعتناق الاسلام كان من أهم عوامل التغير الاجتماعى ، فقد كان معناه تقبل التشريع الاسلامى فى تنظيم الأسرة والأخلاقيات وأدب السلوك والعلاقات الاجتماعية • وكان معناه الاحتفال بالأعياد الاسلامية والميل الأكبر لتقاليد العرب والتشبه بحياتهم الاجتماعية والميل الأكبر للاختلاط بالجماعات الاسلامية الأخرى • وكان يتلو اعتناق الاسلام فى أغلب الأحيان تغير اقتصادى مثل اسقاط الجزية وتملك الأرض ونيل العطاء ، وانتهاز الفرص الاقتصادية المتاحة والاندماج فى زمرة المحاربين ، والتطلع الى مزيد من الحقوق السياسية والانضواء فى المجتمع الاسلامى العظيم الذى امتدت دياره من حدود الصين حتى المحيط الأطلسى •

ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم من ظواهر ، ظاهرة أخرى هامة من الأولى أن تدرس فى شئ من العمق والاهتمام لأنها من أهم الظواهر فى تاريخ الحياة الاسلامية ، ونعنى بها ظاهرة التوليد أو المولدين ، أى

(١) الوفيات : ج ١ ص ٢٣ •

الامتزاج بين العناصر العربية المهاجرة وأهل البلاد التي هاجروا اليها واستقروا بين ظهرائها ، وهي ظاهرة متشعبة النواحي منها الجانب البشرى البحت ومنها الجانب الثقافى ومنها الجانب الاجتماعى ، وهي تميز حركة الهجرة العربية على غيرها من الهجرات التي عرفها التاريخ القديم فالنفوذ الاغريقى صحبته هجرة عريضة انتشرت فى رقعة فسيحة من العالم ، وفى ظل النفوذ الرومانى اقامت جاليات رومانية كثيرة ، اما فى حوض البحر الأبيض المتوسط واما فى مصر وبلاد الشام • ولكن الهجرات السابقة تعالت وانزلت وعاشت حياة مقفلة ولم تحاول أن تمتزج أو تختلط بأهل البلاد الأصليين • وما من بلد عربى فى أعقاب الفتح الا وقد شهد هذه الظاهرة الهامة وهي ظاهرة اختلاط العرب بالناس عن طريق التزاوج والاختلاط • ففى مصر اختلط العرب وأصهروا الى المصريين ونشأ جيل من المولدين ، وفى المغرب أصهرت القبائل العربية المهاجرة الى البربر ولما دخلوا الأندلس فعلوا نفس الشيء ، وأصبحت جماعات المولدين فى العصر الأموى جماعات كبيرة العدد تتزايد أعدادها باستمرار ، ويبدو أنه حتى آخر العصر الأموى كانت ظاهرة التوليد من جانب العرب وحدهم ، أعنى كان الرجال العرب يتزوجون النساء الأعجميات ، على حين كان العرب يرفضون أن يزوجوا بناتهم الى الأعاجم ولو كانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم ، بل لم يعط الأمويون هؤلاء المولدين رغم عروبة نسبهم مكانا لائقا فى المجتمع بل احتقروا طائفة المولدين وسبوا ابن العربى من الأمة الهجين • قال ابن عبد ربه « كانت بنو أمية لا تستخلف بنى الاماء ، واذا اختاروا واليا راعوا عرويته واذا اختاروا قاضيا أو اماما يصلى بالناس راعوا ذلك » حتى كانت الثورة العباسية واعتمادها على جماعات المستسلمين من الخراسانية والفرس وأسقطوا الحواجز الطبقيّة القديمة ، وبدأت الطبقة القديمة تفقد الكثير من امتيازاتها السياسية والاقتصادية ، كما بدأت تفتح أمام جماعات الموالى ميدان العمل السياسى وميدان العمل الاقتصادى ، وتفشيت ظاهرة التوليد ، وأصبح البيت الاسلامى وخصوصا بيوت الأمراء والخلفاء

والأغنياء مزيجا من الأجناس ، فأبوجعفر المنصور كان فى بيته أروى بنت منصور الحميرى وأمة كردية وأمة رومية ، وكان للرشيد زهاء ألفى جارية من المغنيات • ومن هذا الاختلاط نشأ جيل جديد يحمل ميزات خاصة وكسبوا من أمهاتهم وآبائهم صفات خاصة • وكان المولدون فى العصر العباسى من أظهر العناصر ولهم ميزات خاصة فى صفاتهم وعقولهم وصناعاتهم (١) قال أحد القواد « ما فى الدنيا أحد أشجع من أجناد خراسان المم لدد • ولا أفنك منهم • ولم يكن التوليد فى هذا العصر من جانب العرب وحدهم ، بل أقبل الموالى المسلمون الذين تغيرت أوضاعهم السياسية والاقتصادية على الزواج من عربيات خالصات أو مولدات ، وبدأت جماعات المولدين تلعب دورا بارزا فى الأمصار سواء فى الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وغابت ظاهرة المولدين على حياة الأندلس ووضحت أكثر من وضوحها فى الأمصار الأخرى • وعرب الجيل الرابع لا يمكن أن يكونوا عربا خلصا على الإطلاق باستثناء عرب البادية فى العراق والشام والحجاز ونجد ، ولعل ذلك ما ساعد على خفوت صوت النزعة العربية فى القرن الثالث الهجرى • هذه النزعة التى كانت من أقوى ما تكون وأوضح ما تكون فى ما وراء النهر الى جبال البرانس فى شمال أسبانيا ، ولعل ذلك ساعد على ايجاد مفهوم جديد للعروبة لا يقوم على أساس الجنس فحسب إنما يقوم على أساس الدين والثقافة • يقول برنارد لويس (٢) « لم يعد العرب طبقة وراثية مقفلة بل أصبحوا شعبا مستعدا لقبول أى مسلم يتكلم العربية ، وأصبح تحرير الموالى الاجتماعى يتم بطريق قبول العرب التام لهم كعرب •• وكان يساعده على حركة الاستعراب فى الولايات الواقعة غربى فارس انتشار العرب المسرحين من الخدمة فى الجيش وسيادة اللغة العربية فى المدن وانتقالها الى الريف » •

ولعل هذه الظاهرة كانت مصحوبة بظاهرة أخرى ربما مكملت لها

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٢ •

(٢) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ، ص ١٣١ •

أو نتيجة من نتائجها ، وهى ظاهرة تضائل نفوذ العرب فى العصر العباسى الأول ، ثم اختفائهم من العمل السياسى والحربى بالتدريج • ولعل السبب فى ذلك أنهم فقدوا امتياز السلطة السياسية بسبب قيام الدولة العباسية ، ثم امتياز العنصر النقى والعصبية المتناسكة باطراد التوحيد والتهجين حتى فقد عرب الجيل الرابع صفات آبائهم عرب الجيل الأول ، وخفت صوت العصبية التى ناب مسونها على الأحداث آخر العصر الأموى •

والعرب لم تتطور أحوالهم على هذا النحو دفعة واحدة • فقد كان الخلفاء العباسيون عربا هاشميين وقد فخروا بذلك وعدوه من أكبر مناقبهم ، والایرانيون فى العصر العباسى الأول كان لهم نفوذ كبير ولم يكن يعنى ذلك انعدام نفوذ العرب • كانت أعظم المناصب كالوزارة فى يد الفرس ولكن كان للخليفة قواد عرب وولاة من العرب وحنس المنصور كانوا أربعة أقسام (١) • يمنية ومضرية وربيعية وخراسانية • واشتهر فى صدر الدولة أمراء وقواد من العرب أمثال سعيد بن مسلم الباهلى ومعن بن زائدة الشيبانى وأبودلف العجلى • فى أول العهد بالعباسيين كانت كفة العناصر الايرانية راجحة جدا ولكن العرب كانوا لا يزالون على شىء من القوة •

ولما آلت الخلافة الى الرشيد زاد نفوذ الايرانيين بفضل البرامكة ثم تأكد انتصارهم فى عصر المأمون وكان العجم يركبون ومعهم التمسى والنشاب بين يديه • انظر الى نظر المأمون الى العرب من هذا القول الذى رواه (٢) الطبرى من أن رجلا تعرض للمأمون بالشام مرارا فقال له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لأهل خراسان • فقال المأمون : أكثرى على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن

(١) الطبرى : ج ٩ ، ص ٢٨٢ •

(٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٩٦ •

فو الله ما أحبيتها ولا أحبتي فط • وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني
وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله
فيه من مضر • ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهم شاريا ، اعزب فعل
الله بك • فلما تولى المعتصم استخدم الأتراك وأسقط العرب من الديوان •
اذن بدأ العنصر العربى يحتضر نفوذا وسلطانا منذ بداية عصر الرشيد
ثم فقد النفوذ والسلطان فى عهد المعتصم • ولم تتقبل العناصر العربية
هذا التطور انما ناضلت لتعيش لكنها قاضلت نضال الضعيف المتهاوى •
وقد ثار العرب بمصر ثورات متصلة فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم
كما ثار عرب الشام ، ولكن الثورة لم تعد عجلة التطور الى الوراء ،
وبدأ الأمويون فى الأندلس يعتمدون على الصقالبة ، واعتمد الأدارسة
على البربر ، ثم اعتمد الأغالبة بعد أن عانوا من العرب على العبيد
السودان فى الوقت الذى اعتمد العباسيون فيه على الأتراك •

وكان من أثر ذلك أن خفت صوت العرب فى جميع الأمصار على حد
سواء وذلك بسبب هجراتهم من المدن الى الريف واشتغالهم بالزراعة
ثم اندماجهم وقنائهم فى الشعوب التى عاشوا بينها ، فى مصر مثلاً بدأ
العرب آخر القرن الثالث يهاجرون الى الريف ويعملون بالزراعة وبدأوا
ينتسبون الى اقليم مصر التى استقروا بها ، وشواهد القبور من القرن
الثالث تدل على هذا ، ولا بد أن ما حدث بصر حدث فى جميع البلاد
على حد سواء • وبعض القبائل هجرت الأمصار والحوضر وعاد بعضهم
الى الحياة البدوية •

وأعتقد أن انتشار الاسلام من ناحية وظاهرة التوليد من ناحية
ثانية ثم فقدان العرب لسلطانهم السياسى ونزوحهم الى الريف من ناحية
ثالثة كانت له نتائج اجتماعية العامة ، وهى خلق أنماط اجتماعية محلية
متأثرة الى حد بعيد بالتقاليد التى كانت سائدة قبل الفتح وخروج
العرب مهاجرين ، وتمثلت هذه الأوضاع الاجتماعية فى كثير من المظاهر •
فى الطعام وفى العادات والتقاليد • فالعرب الذين أقاموا فى خراسان

أو في ما وراء النهر كانوا في العصر العباسي قد تأقلموا بالبيئة التي عاشوا بها وألفوا الأجواء القارسة البرد ولبسوا السراويل الطويلة وقلائسوات الفراء التماسا للدفع • والعرب الذين استقروا في جنوب ايران أو في منطقة بحر قزوين ، لم تكن في العصر العباسي تستطيع أن تميزهم في حياتهم الاجتماعية عن غيرهم من المسلمين • وتكررت هذه الظاهرة في كل عصر اسلامي تقريبا ، فالمسلمون من المصريين والعرب المستقرون خضعوا لمؤثرات اجتماعية واحدة وألفوا نفس الطعام وعاشوا نفس الحياة المصرية التي ألفها المصريون منذ القدم ، ومثل ذلك حدث في بلاد الشام أو المغرب أو الأندلس • كانت الروح الاقليمية بارزة جدا في ميدان الحياة الاجتماعية وهي نتيجة ما أشرنا اليه من عوامل •

ولكن رغم هذا حدث في ميدان التقاليد الاجتماعية ما حدث في جميع مظاهر الحياة في العصر العباسي الأول من تقدم العناصر الايرانية سياسيا وتقدمها علميا وفنيا ، فقد تقدمت اجتماعيا وغلبت التقاليد الفارسية على حياة الناس في العراق بل انتشرت في العالم الاسلامي كله كما انتشر الطراز العباسي الذي أشرنا اليه •

غلبت التقاليد الاجتماعية الفارسية في كل ناحية تقريبا ، غابت في الأزياء فانتشرت القلنسوة الطويلة وضروب الأزياء الفارسية ، واتخذ القضاة القلائس العظام ، واتخذ الخلفاء العتائم على القلائس • وتفنونوا في العمارة ونوعوها تبعا للطبقات كما كان يفعل الفرس ، فليخلفاء عمه وللفقهاء عمه والأعراب عمه ، ولكل مرتبة زي فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ومنهم من يلبس « البازيكند » وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود • وتمثلت في الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام • كان الخلفاء يحتفلون بالنوروز في أول العام وفي آخره بالمهرجان ، كما تأثروا في منازلهم بالأساليب الفارسية ، واقتدوا بالفرس في مظاهر البلاط والحفلات والأعياد والمواسم •

وبنوا الدور على الطراز الفارسي الذي شاع في بغداد وهي سامرا ،

في عمارتها وفي زخرفتها وفي قبابها وعمدها ورياشها وحدائقها • واستخدم
العباسيون المطبخ الفارسي على نطاق واسع • وكانت موائدهم تحفل
بمثل ما كانت تحفل به موائد الفرس •

ثم انتقلت هذه التقاليد الى البلاد الاسلامية الأخرى ، نقلها الولاة
المبعوثون من بغداد ونقلها القضاة ورجال الدولة ، وكان يقلدهم الكبراء
والوجهاء ، يتحدث الكندي عن ولاة بنى العباس في مصر وعن حياتهم
الخاصة على النسق الذي ساع في بغداد ومن اجبارهم الناس على لبس
القلانس والتشبه بتقاليد الفرس • وكان بلاط الأغالبة في تونس تقايدا
للبلاط العباسي فما بالك ببلاط الطاهريين في خراسان ؟

هذه اذن أهم معالم التطور الاجتماعي التي وضحت في العصر
العباسي الأول فلنعمد الى دراسة قطاعين اجتماعيين في ضوء هذه الملامح
العامة : الأول قطاع المدينة والثاني قطاع الريف •

فالى أى حد تأثرت الحياة المدنية بالمقومات الاجتماعية التي أشرنا
اليها ؟ وبكل ما أسلفنا القول فيه من ظروف العصر العباسي الأول •
وسنغنى بقدر الامكان بالمدن القديمة كالبصرة والكوفة والفسطاط ودمشق
والحيرة والأنبار ومرو ونيسابور وغيرها من حواضر الأمصار ، ونبين
ماذا أصابها من التطور الاجتماعي الجديد كما نغنى أيضا بالمدن الجديدة
التي أنشأها العباسيون وخصوصا بغداد وسامرا ، وسنتخذ من بغداد
نموذجا للحياة المدنية الجديدة التي انطلقت انطلاقة كبيرة في العصر
العباسي الأول • وأول ما يلاحظ ذلك التوسع العمراني الكبير الذي طرأ
على هذه المدن في العصر العباسي وما تضمنه ذلك من كثرة المساجد
والحمامات والحوائط • أشار الخطيب البغدادي الى التوسع الذي طرأ
على بغداد فذكر أنها اشتملت على ستين ألف حمام ، وكان بازاء كل حمام
خمسة مساجد فتكون مساجد بغداد كلها ثلاثمائة ألف مسجد • ومما اكتسبه
جغرافيو القرن الثالث نتيجه أنه ما من مدينة من مدن العالم الاسلامي في
ذلك الوقت الا وشهدت هذا التوسع العمراني العظيم فشهدت قرطبة

والقيروان وبالرمو نفس هذه الظاهرة • وقد امتد هذا التوسع الى مساكن الناس فقد شهدت بعض المدن توسعا رأسيا فى البيوت لمواجهة حركة ازدياد السكان ، فمدينة الفسطاط مثلا كانت بها بيوت من طبقات كبيرة تبلغ الثمان حتى بدت كأنها المنائر وربما سكن الدار الواحدة مائتان من الناس (١) • كما أنشئت أحياء خاصة الى جوار الحواضر القديمة لمواجهة هذا التوسع العمرانى العظيم ، فقد أنشأ الاغالبية مدينة رقادة ، وأنشأ العباسيون العسكر فى مصر ، وبنيت سامرا فى عهد المعتصم والجعفرية على نهر دجلة قرب بغداد • وكانت هذه الأحياء الجديدة تجنباً للأخطاء التى ارتكبت فى عمارة المدن القديمة فامتازت بالاتساع •

ومن الظواهر الاجتماعية التى طرأت على الحياة فى المدن فى العصر العباسى الأول ظاهرة التضخم السكانى العظيم ، فقد ألغى العباسيون قيود الهجرة التى وضعت فى العصر الأموى الأخير ، وفتحت الأبواب على مصاريعها للمهاجرين الباحثين عن أسباب الرزق ، وجذبتهم أضواء المدينة وحياتها الصاخبة المترفة • وكان التوسع الصناعى والتجارى يجذب العناصر المتدفقة باستمرار التماسا للكسب (٢) • ولعل مما ساعد على هذا النمو السكانى الكبير أيضا ما عمد اليه العباسيون من اسقاط القيود التى فرضها الأمويون على الوافدين الى المدينة من الإقامة فى أرباض المدن وظواهرها بعيدا عن الطبقة العربية الأرستقراطية المتعالية • وكان هذا التضخم السكانى ظاهرة شهدت المدن الاسلاميه كلها ، فابن عدارى (٣) • يذكر أن عدد البيوت فى قرطبة بلغ نحواً من مائة ألف بيت ، وبشير مؤرخو المغرب الى ازدحام القيروان وفاس بالسكان • وشهدت الفسطاط هذا الاحتشاد السكانى الكبير كما أشار الخطيب البغدادى الى أن سكان بغداد بلغوا

(١) الاميلخري : ص ٤٩ — ابن حوقل : ص ٩ — المقدسى :

١٩٨ ١٩٨ •

(٢) Levy, the social structure of Islam p. 69--65.

(٣) البلدان المغرب : ج ٢ ، ص ٢٤٧ •

فجاءوا من مليون ونصف مليون نسمة فكانت أعظم الحواضر احتشادا بالسكان . وإذا اتخذنا بغداد نموذجا لهذا الازدياد المطرد في السكان فسنجد أن ذلك يعزى الى تدفق الرقيق وأهل الذمة والعمال . فقد وسع العباسيون في جلب الرقيق واستخدمهم في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء واكتظت هذه القصور بالآلاف من الجوارى من كل جنس . وكانت بغداد نصسها من أعظم أسواق الرقيق . وكان بها شارع يسمى شارع « دار الرقيق » . وقد اشتهر من الرقيق الخدم وكان أكثرهم من غير المسلمين الذين يؤسرون في الحروب أو يشترون من الأسواق . وكان منهم الزنجى والتركى واليونانى والصقلبى . وتعاضل عدد أهل الذمة في المدن الكبرى وخاصة في بغداد ، فقد تضاعفت أعداد النصارى واليهود واستخدمهم الخلفاء في الدواوين ، وبلغ من تزايد أعداد الجالية المسيحية أن كان لهم رئيسان يعين كل منهما بعهد خاص من الخليفة أحدهما يطلق عليه اسم « الجاثليق النسطورى » والثانى « بطريق اليعاقبة » وقد سمح للجاثليق بالاقامة في بغداد ، وكان له حق إرسال المبشرين الى النواحي المختلفة (١) . أما اليهود فكان لهم رئيس خاص يدفعون له الضرائب . واشتغل أهل الذمة في بغداد بالأعمال التى درت عليهم الأرباح الوفيرة وكانوا أهل معرفة بالحساب والكتابة والخراج ، وكان كثيرون من الكتاب من النصارى ، أما الجهابذة فقد كانوا من اليهود (٢) . ووفد الى بغداد كثيرون من المجوس الذين اشتغلوا بنقش الزجاج وتلوينه وصنع السلاح . وزاد عدد العمال في بغداد زيادة كبيرة وكان منهم الحرفيون الذين يحترفون الصناعات اليدوية كالحدادين والخطاطين والتجارين والخبازين والباعة .

وتأثرت المدن الاسلامية في العصر العباسى الأول أيضا بالتطورات الاقتصادية التى عرضنا لها بالتفصيل ، فقد أصبحت من أعظم مراكز الصناعة ومن أكبر أسواق التجارة الداخلية والعالمية ، وتدفقت اليها

(١) عبد الجبار الجومرد : هارون الرشيد : ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٢) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

الأموال واشتد انفاق الطبقة الموسرة الغنية ، وتأثرت البرجوازية القديمة التي ظهرت آخر العصر الأموي وشاركت في صنع أحداث الثورات وخاصة في المشرق الاسلامي بالنهضة الاقتصادية ، وتحولت الى طبقة رأسمالية ذات نفوذ وسطان تقلد الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة في بذخهم وكثرة انفاقهم . وكانت الطبقة في المدن الكبرى عامة وفي بغداد خاصة في غاية الوضوح ، وظهرت في ملابس الناس وأزيائهم . فكان للعمال زيهم وكان الكتاب يلبسون الدراريح (١) . وهي ثياب مشقوقة من الصدر وكان العلماء يرتدون الطيلبسان ، والقواد الأردية الفارسية القصيرة . وكان أثرياء الناس يلبسون قميصين ورداء فوق السراويلات ، وانشر في بغداد عامة نوع من الذوق الاجتماعي الرفيع بين الخاصة والعامة على حد سواء . وأشار آدم متز (٢) الى أمثلة منه فذكر أن المدعوين الى الطعام كانوا يغسلون أيديهم معاقبل الطعام ويكون غسل الأيدي من وعاء واحد . وانتشرت هذه العادة حتى بين العامة فكانوا يقومون من مجالسهم ليغسلوا أيديهم ، وأشار الجاحظ الى ما يمكن أن نسميه أدب المائدة ، فهو يستحسن « من النديم ألا يمشش الطعام ولا يبادر الى البيض الموضوع على البقل ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو المعيون » وتوسع صاحب كتاب الموشى في آداب المائدة حتى تناول أدق التفاصيل . وبلغ الترف بسكان هذه المدن حدا بغيدا ، فكان الناس يشربون الماء المثلج في الصيف ، وكان الكبراء يحملون الثلج في حراقاتهم وكان هذا الثلج يحمل أحيانا من بلاد الشام . وقد أدى تزايد أعداد السكان من ناحية وكثرة الانفاق من ناحية أخرى الى ارتفاع الأسعار خاصة في بغداد ، وهذا الغلاء وان احتمله الأغنياء وأوساط الناس فانه ثقل على الفقراء ، وقد شكوا أبو العتاهية ذلك وصوره تصويرا دقيقا (٣) .

بقوله :

(١) مسكويه : ج ٦ ، ص ٣٠٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية : ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) ديوان أبي العتاهية ، ص ٣٠٤ .

من مبلغ عنى الامام نصائحا متوالية

أنى أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

وكان المال فى مثل هذه البيئات يأتى سريعا ويذهب سريعا *

وكان من أثر هذه المستويات الاقتصادية المتقاربة وهذه الحياة المترفة لقطاع كبير من الناس أن شهدت المدن الكبرى عامة وبغداد خاصة انحرافات اجتماعية معينة نتيجة لهذا التفاوت الطبقي العنيف ، وهذه الضدية الاجتماعية البينة فامتلات بغداد بالحانات ومن أشهرها حانة طيزنا باذ وحانة قنابل وحانة الشط^(١) . وكان للجوارى بيوت معدة لسماع الغناء . وشاعت ألوان أخرى لا تشيع الا فى المدن الكبرى عادة كلعب القمار بفصى النرد^(٢) . وكان بالفسطاط شيوخ يسمون المظمين لهم جراية من دور القمار ليجلبوا الناس اليها ويطعموهم فى اللعب ، وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة ، ويحكى أن رجلا لاعب آخر فغلبه فأخذ منه عشرين دينارا . ولما تولى أمر مصر يزيد بن عبد الله التركى منع الرهان وأمر ببيع الخيل ، لأن شباق الخيل شاع بالفسطاط وبلغ من شغف الناس به وتقليدهم له أن السابق كان يأخذ حصان المسوق . وانتشرت البطالة فى بعض المدن بين صفوف العامة وخاصة بغداد . وكان بعض أفراد من العامة يتجولون فى الأسواق بحثا عن الرزق عن طريق النهب والسلب ، وخصوصا جماعات العيارين الذين فشقوا فى بغداد فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وكانوا يسيرون عراة الأجسام الا ما يستر عوراتهم ويشدون على أوساطهم المقاليح القديمة ويحصلون الحقائق المليئة بالحصى والحجارة ولعبوا دورا كبيرا فى الفتنة بين الأمين والمأمون . قال الخطيب البغدادي « أما الفقراء وذوو الحاجة فقد ضاقت عليهم بغداد بما رحبت ولم يستطيعوا العيش فيها » . وكان من أثر هذه الحياة من رفاهية قوم وبؤس آخرين أن ظهرت حركتان : ظهرت حركة من

(١) العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٣٩٣ — ٣٩٥ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ، ٤٠٤ .

الملتطوعة للنكير على الفساق ببغداد (١) . وكان لهذه الحركة زعيمان لكل
زعيم برنامج فى الإصلاح ، أما أحدهما فهو خالد الدريوش وبرنامج
أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يثور على السلطان ، فهو
يطلب الإصلاح فى حدود الطاعة للحكومة . والزعيم الآخر سهل بن سلامة
الأنصارى يرى مقاتلة من خالفه ، كما شاعت حركة الزهد لمعارضة
الداعين إلى اللهو كبشار وأبى نواس .

ويمكننا أن نعطي صورة للخدمات العامة التي كانت تقوم بها
الدولة رعاية لهؤلاء السكان الذين تجمعوا فى المدن على هذه الصورة ،
فقد عنى الخلفاء العباسيون عناية عظيمة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها
وطسرقاتها وكانت الرحاب تكتس كل يوم ويحمل التراب خارج
المدينة (٢) . وكان يقف فى زاوية كل شارع حارس مسئول عن حفظ
النظام ، وكان الميدان الذى يطل عليه القصر يضاء ليلا وجميع الطرقات
كانت تضاء ليلا ، كما أكثر القائمون على أمور بغداد من المتنزهات الشعبية
عند تقاطع الشوارع وحول الأحواض المائية واشتهرت منها بركة
برزل (٣) . وحمل الماء إلى بغداد عن طريق قناتين يجرى فيهما الماء إلى
المدينة ، وكلتاها مغطاة ومحكمة العقد ، وكانت أحدهما تأخذ من نهر
كربخا الذى يتفرع من الفرات . وأمرت السيدة زبيدة ببناء قناة معقودة
تمد أهل مكة بالماء وانتشرت مجارى الماء المبنية تحت الأرض . فى
مدن إيران الشمالية مثل قم ونيسابور . وكانت نيسابور من أكبر مدن
المشرق فى ذلك العصر (٤) . وكان بها الكثير من مجارى الماء المغطاة ،
بعضها يظهر فى خارج المدينة ويروى البساتين وبعضها الآخر يمد البيوت
بالماء (٥) . وفى بغداد خاصة أقيمت عدة جسور عند باب الشعير وقد

(١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٢٤١ — ٢٨٤ .

(٢) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ٣٥٧ .

(٣) عبد الجبار الجومرد : هارون ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ٤٨٦ .

(٤) اليعقوبى : ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٥) ابن حوقل : ص ٣١٢ .

بنى عام ١٥٧ هـ عندما بنى المنصور قصره المعروف بقصر الحلد كما بنى ثلاثة جسور أخرى ، وبنى الرشيد جسرين عند باب الشساسة (١) . كما بنيت الحمامات ، وكان في الجانب الشرقي من بغداد خمسة آلاف حمام وكانت هذه الحمامات من أهم المؤسسات المدنية ، وقد ذكر المقرئى أنه كان بالفسطاط وحدها ألف ومائة وسبعون حماما . وفى داخل هذه المدن الكبيرة كان لابد أن تدبر وسائل الانتقال . وكانت الوسيلة التى تستخدمها الطبقة الوسطى هى كراء الحسير . وكان الحمارون يقفون بحميرهم فى بغداد عند باب الكرخ (٢) . ويبدو أن هذه الظاهرة شاعت فى المدن الكبرى كلها ، فقد كان بالفسطاط موقف لاكتراء الحسير بالقرب من دار الحرم .

وقد وضحت الشخصية الادارية للمدن فمدن خراسان مثلا كان يتولى أمورها القاضى وصاحب البريد وصاحب المعونة (٣) . وكان القسم الشرقى من بغداد يدبره الخليفة مباشرة ، أما القسم الغربى فقد ضم الى أعمال بادوراي . وكان ثمة تنظيم شعبى الى جانب هذا التنظيم الرسمى وضع على الخصوص فى بغداد ويبدو أنه عمم فى كثير من البلاد ذلك أن بغداد قسمت الى أرباض وقسمت الأرباض الى أرباع وقلد كل ربع لرجل من الحاشية يتولى أمره . وكان لكل رضى رئيس وقائد (٤) .

ويسكننا أن نعطى فى ايجاز صورة لما كان يجرى فى الريف من تطورات اجتماعية ، فقد تجرر الفلاح المسلم وارتفع مستواه الاقتصادى والاجتماعى ، كما انتشرت الاقطاعات الكبيرة التى يديرها العمال والوكلاء

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١١٥ — ١١٦ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١ .

(٣) ابن حوقل : ص ٣٠٦ .

(٤) اليعتوبى : ص ٢٤٠ .

على أساس نظام المقاسمة • ولكن المشكلة الاجتماعية التي كانت ماثلة في الريف في العصر العباسي الأول هي مشكلة الهجرة المطردة الى المدن الكبرى • وقد أدى هذا الى نقص في الأيدي العاملة وارتفاع في مستوى الأجور ، ولعل ذلك هو الذي حدا بالعباسيين وأصحاب الاقطاعات الكبيرة في جنوب العراق الى استخدام الرقيق في الأعمال الزراعية ، ومن ثم نشأت مشكلة الزنج المشهورة • هذا الى ما كان من استقرار العرب واصهارهم الى أهل البلاد واقامتهم في الريف واشتغالهم بالزراعة •

الفصل الخامس

اهم الاتجاهات الثقافية والفكرية

في العصر العباسي الاول

ان تأثير الثورة العباسية وأحداث العصر العباسي الاول لم يقتصر على المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فحسب ، انما تعداها الى الناحية الثقافية والفكرية . وأعتقد أن هذه الناحية فقط هي التي تحتاج الى التوضيح دون أن نخوض في تفاصيل كثيرة عن الحياة الثقافية في العصر العباسي الاول .

وأعتقد أن ثمة عوامل مهمة وضحت بعد نجاح الثورة العباسية واستمرت طوال العصر العباسي الاول ، وأن هذه العوامل ساعدت على أن تهيئ الظروف لانطلاقة ثقافيه وفكرية ستبلغ الذروة في القرنين الرابع والخامس الهجري .

من أهم هذه العوامل ما سبق أن وضحناه من أن الثورة العباسية واكبت حركة اسلامية ضخمة بين جماهير الموالي من الايرانيين ، وأنها حررت جماهير المسلمين منهم وأسقطت الحواجز والقيود التي كانت تعيق في طريق مشاركتهم في الحياة السياسية . وقد رأينا كيف انطلقت طاقة الموالي مؤثرة في المجال السياسي حتى سيطرت على أجهزة الحكم كلها في العصر العباسي الاول ، وهذه الطاقة المتدفقة لم تقتصر على الناحية السياسية انما اندفعت الى المجال الاقتصادي وتعدته الى المجال الثقافي ، وأعطى الموالي الايرانيون الثقافة العربية عقولهم وتجاربهم ، وبرزوا في مجال الفكر كما برزوا في مجال السياسة والاقتصاد ، وعمت آثارهم الفكرية العالم الاسلامي كله بنفس الوسيلة التي انتشر بها الطراز العباسي في الفن أو الأسلوب الفارسي في الحياة الاجتماعية .

كان الايرانيون هؤلاء طليعة حركة الترجمة من الفارسية الى العربية وقد أشار صاحب المهرست الى أسماء النقلة من الفارسية الى العربية^(١) وذكر منهم : عبد الله بن المقفع • وآل نوبخت ، وموسى ويوسف ابني خاله ، وأبا الحسن علي بن زياد التميمي ، والحسن بن سهل ، والبلاذري ، وجبله بن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكي : وهشام بن القاسم ، وموسى بن عيسى الكردي ، وزادويه بن هاشويه الأصفهاني ، ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني ، وبهرام بن مردان شاه ، وعمر بن الفرخان • فأثروا التجربة العربية وغذوها بفكرهم القديم •

وكان هؤلاء الايرانيون الصاعدون الى النفوذ والسلطان المنطلقون في غير ما قيد فد اتقنوا اللغة العربية الى جانب اتقانهم لغتهم الفارسية فمكنوا على قراءة الكتب الفارسية وتثقفوا منها ، وأخرجوا باللغة العربية أدبا وشعرا وعلميا ، وأنتجوا في العربية انتاجا جديدا ، كالفضل بن سهل وسهل بن هارون وابن المقفع • وكان موسى بن سيار الأسواري أنموذجا طيبا لهذا الجيل الجديد من المثقفين الذين ملكوا عنان العربية والفارسية • قال الجاحظ أنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية • وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية^(٢) • بل كان للفارسية من الجذب الثقافي ما حجب فيها بعض العرب الخلف ، فقد أقبل قوم منهم عليها ووجدوا فيها من الغذاء الفكري ما لم يجدوه في العربية ، فقرأوا ما كتب بها وتدارسوه وأخرجوا أدبا عربيا جمع بين بلاغة العرب ومعاني الفرس • من أمثلة هؤلاء كلثوم بن عمرو بن أيوب الشاعر المعروف بالعتابي الذي اشتق بالثقافة الفارسية وأعجب بها ، وله حكم تقرب من حكم ابن

(١) ابن النديم : ص ٢٤٤ وما بعدها •

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٣٩ •

المقنع • وقد أنتاج الفرس الذين استعربوا والعرب الذين تعشقوا الفارسية ثروة عظيمة كانت من أهم ما تميز به العصر العباسي الأول • كان من الطبيعي أن يبرز الأثر الفارسي في الأدب العربي بروزا واضحا • وكانت كتب الفرس التي ترجمت الى العربية ككليلة ودمنة وهزار أفسانة أساسا للقصص العربي الذي بنته الأجيال المتعاقبة • وابن النديم يضرب مثلا للقصص العربي وكيف استقى من نبع فارسي واضح ، بما فعله محمد ابن عبدوس الجهشيارى عندما شرع فى وضع كتاب تخير له ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، وجلس الى المسامرين يأخذ عنهم أحسن ما يقصون ، واختار الكثير من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات • « واجتمع له من ذلك أربعمائه ليلة وثمانون ليلة • كل ليلة سمر قام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تنمة ألف سمر (١) » •

والحقيقة أنه لا يكفى أن نحصى التأثيرات العظيمة التى تركها الأدب الفارسي ، ويكفى أن نشير الى ما اشتهر به الفرس القدماء من أدب التوقيعات حينما كان الملوك يوقعون على شكاوى الناس بعبارة بليغة أو حكمة مفيدة يتخيرون لها اللفظ الحسن والمعنى الجيد • وقد أفاد العرب الشئ الكثير من توقيعات ملوك الفرس • وكثرت التوقيعات فى العصر العباسي ، وكان أكثر الكتاب فرسا فساروا على سنن آبائهم ، حتى لقد نشأ فيما بعد ديوان اسمه « ديوان التوقيع » • وما أكثر المعاني الفارسية التى نقلت ونظمت أو قلدت • وكانت هذه العناصر الايرانية التى أقبلت على ميادين المعرفة فى العصر العباسي الأول أقبالا منقطع النظير ، أقدر على التدوين والتأليف بسبب ميراثهم الحضارى القديم ، فلما تعلموا العربية كان تأليفهم بها سهلا ميسورا ، وأصبح كثيرون منهم من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة ، منهم أبو حنيفة النعمان

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٤ . احمد امين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

الفقيه ، وحماد الراوية • وبشار بن برد وسيبويه ، والكسائي ،
وأبو عبيدة ، وأبو العتاهية ، وابن قتيبة • وكلهم كانوا فرسا أسهموا
بالنصيب الأوفر فى تقديم الفكر العربى •

« اذن كانت الثقافة الفارسية عنصرا قوى الأثر فى ذلك العصر ،
فى الشعر • فى الأدب • فى الحكم • فى القصص • فى الخرافات
والأوهام • فى العادات والتقاليد • فى نظم الحكم • فى دعاة الاصلاح •
فى رجال اللهو والغناء ، فى الديانات ومذاهب المتكلمين ، فى رجال
العلم والتدوين (١) » أليس العصر العباسى الأول هو عصر تقدم العناصر
الايرانية حتى فى مجال الثقافة والفكر •

ولا يمكن أن نغفل عاملا هاما كان له أثره الكبير فى التقدم الفكرى
والثقافى الذى شهدته العصر العباسى الأول • وأقصد به ما سبق أن أشرنا
اليه من النجاح العظيم الذى أحرزته الدعوة الى الاسلام فى القرن
الثالث الهجرى ، وكيف أن ذلك كان مصحوبا باسقاط العرب من الديوان
وفقدانهم امتيازاتهم السياسية والعسكرية • واستقرارهم فى الريف
واشتغال أغلبهم بالزراعة واختلاطهم بأهل البلاد • واذا كنا قد درسنا
النتائج الاجتماعية لهذه الظواهر فى الفصل السابق فان الذى يعنينا هنا
أن نعرض للنتائج الثقافية ، وأهم هذه النتائج امتزاج التقاليد الثقافية
الموروثة للشعوب الاسلامية بالتقاليد الثقافية العربية • ومعنى هذا أن
الحياة الفكرية قد شهدت عملية توليد وامتزاج أشبه بما أشرنا اليه فى
الحياة الاجتماعية ، وتدفقت دماء جديدة الى تجربة العرب الثقافية
لتكسيها القوة والحياة ، وما صحب ذلك من شيوع الثقافة العربية بين
جماهير المسلمين • فلم تعد ثقافة الأرستقراطية العربية المنطوية على نفسها
فى المدن والحوضر أو المرابطة فى الثغور ، وقطعت اللغة العربية أشواطاً

يعيدة في مجال التغلب اللغوي وأصبحت لغة الحديث والتخاطب للملايين المسلمين ، بل وجدت صفوة مثقفة من المسلمين من غير العرب أتقنت اللغة العربية حديثا وتأليفا ونظمت الشعر الجديد وكتبت الرسائل البليغة - وشاركت في حركة الترجمة وألفت في الفقه وعلوم اللغة •

ومن الغريب أن تقع هذه التطورات الهامة في وقت جنحت فيه الخلافة العباسية في آخر عصر الرشيد الى النهج الفدرالى فى الحكم ، وحصلت الحكومات المحلية فى الأمصار على مزيد من السلطة ومزيد من الاستقلال ، وحصل الولاة على حريات فى العمل أكبر مما كان لهم من قبل ، وظهر رأى عام من المسلمين أهل البلاد قوى مؤثر يتضاعف قوته وتأثيرا باطراد الداخلين فى الاسلام ، بل أقام العباسيون الامارات المستقلة برضاهم فظهر الأغلبة فى تونس والطاهريون فى خراسان ، ونشأ بلاط اقليمى متشعبا ببلاط الخلافة تشتد جاذبيته للعناصر المثقفة بالتدريج •

ومعنى هذا كله أن المدارس الاقليمية - مدارس الأمصار - بدأ قدمها يرسخ انتاجا وتفوقا ونجمها يعلو ، وظهرت مراكز للعلم والثقافة الى جانب الحاضرة ، ولا أقول انها كانت من نفس المستوى انما كانت جذورها تتمكن بالتدريج واشعاعها الفكرى تتسع دائره حتى يأتى يوم تضعف فيه الخلافة وتضطرب لأمور الحاضرة ، وتميل كفة الأمصار وترهبو باماراتها المستقلة ومدارسها المتفوقة •

اذن شهد العصر العباسى الأول رسوخ قدم الثقافة العربية فى الأمصار بسبب انتشار الاسلام واستقرار العرب ونمو السلطان السياسى للامصار ، وهذه بحق ظاهرة مهمة تستلفت النظر وتستحق الدراسة فقد كانت ارهاصا للانطلاقة الكبرى للامصار فى القرنين الرابع والخامس • ويكفى أن نضرب مثلا بمدرستين عظيمتين ظهر أثرهما فى آخر العصر العباسى الأول وهما مدرسة القيروان ومدرسة القسطنطينية •

فالأغلبية يرجع اليهم الفضل فى نمو مدرسة القيروان وازدهارها. والمؤرخون يذكرون كيف أنشأوا بمساجد القيروان حلقات للتدريس. كما أنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم «دورالحكمة» وجلبوا لها الأساتذة من الشرق . فكانت هذه المدارس وما افترن به انشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملا هاما فى رفع شأن لغة العرب وثقافتهم . والتطور الهام الذى شهدته أفريقيه فى عهد الأغلبية هو انتشار مذهب مالك من مدرسة القيروان وغلبته على القسم الغربى من العالم الاسلامى . ومذهب مالك فى الحقيقة انتشر فى أفريقية قبل الأغلبية . غير أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره . وقد وفد المذهب قادما من مصر كما وفدت المذاهب الاسلامية الأخرى، ورحل كثير من فقهاء المغرب الى مصر والحجاز طلبا للمزيد من فقه عالم دار الهجرة (١) ثم عادوا الى بلادهم متأثرين بما سمعوا ، ثم جاء أسد بن الفرات فقيه القيروان (٢) ورحل الى مصر وسمع من على بن القاسم امام المالكية فى مصر فتأثر به ودون خلاصة مشاهداته فى كتاب مشهور فى تاريخ الفقه فى المغرب اسمه «الأسدية» ، ويبدو أن ما سمعه الأفريقيون من علماءهم الراحلين الى مصر أو ما سمعوه من دروس أسد بن الفرات حبيبهم فى هذا المذهب فاشتد اقبالهم عليه . وهذه الرغبة فى الاستزادة من علم مالك دفعت سحنون بن سعيد الى الرحلة الى مصر ايضا ليسمع من على بن القاسم . وأقام بالفسطاط زمنا ثم عاد لبلده ، وجمع خلاصة دراساته وقراءاته المالكية فى أول كتاب ظهر فى فقه مالك غير الموطأ وأسماه « المدونة » ويرجع الى تحمى سحنون الغريب الى مذهب مالك الفضل فى دخول الناس فيه جماعات ، وطار صيته الى الأندلس ، فجاءه علماء قرطبة يسعون منه ، وبدأ مذهب مالك منذ ذلك الوقت يدخل بلاد الأندلس وينتشر فيها .

(١) الدباغ : معالم الايمان ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ص ١٨٤ .

وكان مذهب أبى حنيفة قد وفد الى أفريقية بقيام الدولة العباسية .
فلم يلق اقبالا اقله اعتماده على الحديث وميله للرأى والاجتهاد (١) ،
ولكن مذهب مالك فى عهد سحنون بدأ يتغلب على مذهب أبى حنيفة
وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها .

وتمكنت تقاليد المالكية من نفوس المغاربة بفضل مدرسة القيروان
وقد وقفوا للمذاهب الأخرى بالمرصاد ، فلما انتشرت بأفريقية محنة خلق
القرآن وآراء المعتزلة وقف المالكية متمسكين بالكتاب والسنة ، حتى
هزموا المعتزلة فلم يبق لهم رأى ولا أتباع ، ولم يجد الأمراء مفرا من
النزول على رأى المالكية (٢) .

انتصر المالكية انتصارا عظيما فى عهد الأغالبة وكانت مقالمعتهم
للأمراء ، وعدم السير فى ركابهم وأخذهم بالبأس والشدة أمرا محجبا الى
المغاربة الذين عرفوا بالنزعة الاستقلالية ، وأصبح فقهاء المالكية فى
نظرهم الزعماء المعارضين للحكام والمدافعين عن الضعفاء .

ولم تقفر مدارس أفريقية من ألوان الثقافة العربية الأخرى ، فكانت
جميع العلوم الاسلامية تلقى فى مدارس القيروان ، لكن المغاربة غلبت
عليهم النزعة المالكية فجعلتهم لا يعرفون من الدراسات الاسلامية غير
ما يتصل بها .

واستطاعت مدرسة القيروان أن تسيطر نفوذها على المغرب كله ،
بل امتد هذا النفوذ الى صقلية والأندلس . والذى يطلع على طبقات
فقهاء القيروان وطبقات فقهاء الأندلس وصقلية يدرك هذه الأعماق البعيدة
التي انتهت اليها هذه المدرسة الاقليمية التي برزت فى الغرب الاسلامى
فى العصر العباسى الأول .

(١) المالكى : رياض النفوس ، ص ١٦٠ .

(٢) الدباغ : معالم الايمان ، ج ١ ، ص ٢٢ .

ولم تكن مدرسة القسطنطين بأقل أهمية أو أضال أثرا من مدرسة القيروان ، فقد كانت في آخر العصر العباسي الأول تزدهر رسوخا وتقدما ربما لا يلحظه من يعيش في بغداد حيث المستوى الثقافي الرفيع . وسيأتي وقت تقف فيه من مدارس العراق على قدم المساواة ، ثم يكتب لها التفوق في عصر ضعف الخلافة العباسية في بغداد وفي ظل الامارات المستقلة التي ظهرت في مصر . وبدأت مدرسة القسطنطين تتخذ طابعا دينيا واضحا وظهرت بها علوم القراءات ، وقد بدأت هذه العلوم بدروس ألقاها أبوامية المعافري النحابي ثم توطن هذا العلم بالقسطنطين وبرع فيه ورش (١) ونافع . وقد رسخت قدم القسطنطين في علوم الفقه والحديث وذاعت شهرتها وارتحل اليها الناس طلبا للحديث . ويكفي أن نذكر أن البخاري نقل في تفسيره وتاريخه كثيرا عن الصحيفة المصرية في التفسير ، وأن الطبري نقل الشطر الأكبر منها في تفسيره . والصحيفة المصرية أشاد بها عدد من العلماء ، فقال الامام أحمد بن حنبل في مسنده « بمصر صحيفة في التفسير ولو رحل رجل فيها الى مصر قاصدا ما كان كثيرا » وقد وفد النسائي مؤلف أحد الصحاح الستة في الحديث على مضر ليرد مورد القسطنطين ويقرأ صحيفتها ويلتقى بمحدثيها (٢) . وقد نقل الوافدون الى مصر روايات المصريين أمثال خالد بن حميد الاسكندراني (١٦٩ هـ) وخلاد بن سليمان الحضري (المتوفى سنة ١٧٨ هـ) وعبد الله بن وهيب صاحب كتاب الجامع في الحديث والذي يقال أنه روى عن أربعمائة من الشيوخ وأنه أكثر من رواية الحديث ، وروى الموطأ . وشاعت في القسطنطين كتابة الأحاديث وقراءتها وتدوينها ، ومن العلماء الذين كان لهم شأن بمصر الليث بن سعد الذي ولد في قرية قلقشيدة من قرى مصر سنة ٩٤ هـ وتلقى تعليمه على شيوخ مصر وأشهرهم يزيد بن حبيب ،

(١) هو عثمان بن سعيد المعروف بورش من اصل قبلي وهو مولى آل الزبير بن العوام اشتهر بإحدى القراءات المنسوبة اليه . . وانتهت اليه رئاسة الاقراء بالديار المصرية في زمانه وكان ماهرا في العربية ومات بمصر سنة ١٩٧ هـ . السيوطي حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
(٢) حسن احمد محمود : الكندي المورخ ، ص ٣٤ .

ثم رحل الى الحجاز وسمع من شيوخها أمثال عطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وهشام بن عروة ثم رحل الى العراق وسمع من علمائه • وكان علما فى علوم القرآن والنحو والحديث والشعر وقد وثق المحدثون بحديثه كل الثقة ، وروت عنه كل كتب السنة الصحيحة ، فقال فيه أحمد بن حنبل « ما فى هؤلاء المصريين أثبت من الليث - ما أصبح حديثه » • وبلغ من رسوخ قدمه فى الفقه أن قرن بمالك ، قال الشافعى « الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » وفى رواية « ضيعه قومه » وفى أخرى « ضيعه أصحابه » ويبدو أن السبب فى ذلك أنه لم يدون مذهبه فى كتب ولم يكن له مثل ما كان لأبى حنيفة والشافعى من أصحاب وتلاميذ • ووفد الامام الشافعى على مصر وأقام بها واجتمع به المصريون • وكان للخلاف فى رأى والمناظرات الشهيرة التى قامت بين المالكية والشافعية أثر ملحوظ فى نهضة العلوم الدينية فى البلاد ، اذ أخذ كل فريق يؤيد وجهة نظره بالآيات والأحاديث ويناضل عن رأيه ويفتخر به • وتفوقت الدراسات اللغوية فى القرن الثانى وبرز عدد كبير من علماء مصر • وقد أذاع النحوى الشهير « ولاد » شهرة هذه الدراسات فرحل اليه كثيرون من علماء العراق • وكما عرفت مدرسة النسطاط الدراسات الفقهية واللغوية شهدت نمو علم التاريخ ، يدل على ذلك رواية الكندى فى كتابه الولاة والقضاة ، ثم ابن عبد الحكم القرشى صاحب كتاب فتوح مصر • وأشار الكندى (١) الى جذور المدرسة المصرية فى الشعر فيعطينا أمثلة لشعر قاله قوم لم يفرغوا للشعر ، وان كانوا قد أظهروا بعض المهارة فيه كالولاة والقضاة ، كما ينخير أبياتا قالها شعراء لم يكن لهم اتصال وثيق بمصر ، كما يستشهد بأبيات من نحو خمسين قصيدة ، ويشير الى شعراء مثل سعيد بن عفير والمعلى الطائى وأبو تمام والحسين بن عبد السلام وغيرهم (٢) •

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، صفحات ١٨ — ٢٥ — ٢٦ — ٤٢ —

٤٣ — ١٦٠ — ١٧٠ •

(٢) حسن احمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٤٠ ، ٤١ •

وقد تكونت فى بلاد الشام مدرسة لا تقل عمقا أو إنتاجا عن مدرسة القيروان أو مصر • وضعت جذورها منذ هجرة الصحابة اليها واقامتهم بها • واتخذوا مسجد دمشق مقرا لنشاطهم العلمى • ومن هؤلاء معاذ بن جبل وأبو الدرداء الأنصارى ، ثم رحل التابعون الى بلاد الشام وقطعت مدرسة الشام شوطا كبيرا فى طريق النمو فى العصر الأموى ، وتألفت كثيرا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، فلما قامت الدولة العباسية كانت هذه المدرسة راسخة الجذور • ويكفى أن من أعلامها فى ذلك الوقت عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي الذى ولد ببعلبك سنة ٨٨ هـ ورحل الى اليمامة وسمع من شيوخها ورحل الى مكة والبصرة ثم نزل دمشق وبيروت ومات بها سنة ١٥٧ هـ ، وقد تلقى المنصور ببلاد الشام ووعظه (١) ، وكان له فى الفقه مذهب كمذهب مالك وأبى حنيفة ، وكان أكثر ميلا الى مدرسة الحديث منه الى مدرسة الرأى ، فقد أثرت عنه أقوال فى ذم أهل العراق ورأيهم • وكان أشد الناس كرها للكلام فى القدر وصفات الله ، ويعد ذلك من البدع • وقد انتشر مذهبه فى بلاد الشام حينما وحمله مهاجرة العرب الى الأندلس الى أن غلب على هذه البلاد مذهب مالك •

وعلى الرغم من تحول زعامة الشعر من الشام الى العراق بعد سقوط الدولة الأموية الا أن الشعر فى بلاد الشام بقى راسخ القدم • والثعالبي فى اليتيمة يشير الى العتابي ومنصور النمرى والأشجع السلمى ومحمد بن زرعة الدمشقى وربيعة الرقى ثم الى الطائين أبى تمام والبحترى •

كما ظهرت بواكير مدرسة حلب والموصل التى انطلقت فى عهد سيف الدولة الحمدانى • ولا شك أن ظهور ابن نباتة ومعلمه ابن خالويه والصنوبرى والمتنبى والسلمى والوأواء الدمشقى والبغاء ، والنامى

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(م ١٧ — العصر العباسى)

وإبن نباته السعدى ممن تألقوا فى بلاط سيف الدولة كانوا انطلاقة لجذور قديمة أينعت فى حلب والموصل فى آخر العصر العباسى الأول (١) .

وتم تفرع النهضة الفكرية التى انبثت فى الحجاز فى العصر الأموى ،
أثما ظلت الحركة العلمية فى مكة والمدينة فى العصر العباسى لم تفقد
علو كعبها فى الحديث والفقه المعتمد على الكتاب والسنة . ومن أشهر
العلماء الحجازيين فى العصر العباسى الأول عبد الملك بن أبى جريس ،
وكان علما من أعلام مدرسة مكة ، وقد تلقى عنه الأوزاعى وسفيان
الثورى ابن عيينة وكثيرون ومات سنة ١٥٠ هـ ، ثم سفيان بن عيينة وكان
من أشهر المحدثين انتقل الى مكة ومات بها سنة ١٩٨ هـ وقد أخذ عنه
الشافعى وأحمد بن حنبل ومحمد بن اسحق ويحيى بن أكثم . ثم الفضل
ابن عياض من مشاهير الزهاد رحل الى الكوفة ثم الى مكة وكان يلقب
بشيخ الحرم ومات سنة ١٨٧ هـ .

وكان بالمدينة محمد بن عمر الواقدى شيخ المؤرخين « المسالم
بالمغازى والسيرة والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والأحكام » وقد
اتصل به الرشيد عندما حج الى مكة ليتعرف على المشاهد الإسلامية
ثم اتصل بالبرامكة ورحل الى العراق . على كل حال لم تفقد مدرسة
الحجاز فى العصر العباسى الأول مكائنها المتفوقة فى الفقه والحديث
وما يتصل بهما من أخبار وسير .

وكان ظهور المدارس الإقليمية على النحو الذى ذكرت ظاهرة غابت
على الحياة الإسلامية كلها فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ،
ففى ظل الطاهريين أينعت الحركة الثقافية فى مرو ونيسابور وأصبحت
المدينة الأخيرة من أهم المراكز الثقافية فى المشرق الإسلامى كله .

وإذا أردنا أن نضيف الى ما تقدم من عوامل مؤثرة فى النهضة

(١) مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص ١١١ .

الفكرية فى العصر العباسى الأول ، فأننا نضيف ما حققه ذلك العصر من مظاهر الاستقرار الاجتماعى بقضائه على الفتن والثورات وتمكينه للمرجوازية التى صنعت الثورة ، ومن فتحة الأفاق أمام الطبقة العاملة لمزيد من التحرر ، وما صاحب انطلاقة العصر الخلافى وقصور الوزراء والأمراء والقادة وكثرة المهاجرين الى المدن وما شهدته من ألوان اجتماعية جديدة • وليس أشد تأثيرا فى الانتاج الأدبى من الاستقرار الاجتماعى ، فانه يتيح للخمائر الأدبية أن تنضج فى أناة وأن تتفتح أزهارها فى جو مشمس حافل بألوان الاستقرار ، وشعر العصر العباسى الأول مرآة صادقة لحياة اجتماعية مستقرة مترفة الى أبعد الحدود •

ويمكن أن نضيف الى ذلك ما كان من تطورات اقتصادية سبق أن أشرنا اليها من قبل من تحرر العمال والفلاحين ودخولهم معركة الانتاج ، وما كان من اصلاح الأرض وزيادة الدخل ، وتطور التجارة الدولية وارتفاع مستوى المعيشة بصفة عامة ، والثروات الطائلة التى امتلكها الخلفاء ومن أحاط بهم من وزراء وأمراء وقواد وذوى نفوذ ووجاهة ، وكان الخلفاء ينفقون فى سخاء وبذخ ويصلون الشعراء بصلات عظيمة (١) ويشجعون أهل الفكر والثقافة ، والثقافة العربية ترتبط الى حد كبير بتشجيع أمير أو خليفة أو وزير ينفق بسخاء على المجودين من الشعراء وكان هذه القصور قد تحولت الى أسواق للشعر الجيد •

وقد ترك ما ظهر فى المدن الكبرى عامة وفى بغداد خاصة من ثروات طائلة ، وبون شاسع بين الغنى المفرط للطبقة الممتازة وبين الحياة القاسية الشاقة للطبقة العاملة الكادحة ، أثره فى أدب ذلك العصر ، فقد ظهر تياران متناقضان كل التناقض ، تيار يمثل الاغراق فى الترف الى أبعد

(١) كان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء يهتف به الشاعرون قيس تجيب وبفيض جوده حتى يصل به الى حد السرف • وقف رجل من أمية فى ريف الرشيد ومعه كتاب وفيه قصيدة من أربعة أبيات فأمر له من بيت الشاعرة وقال : لو زدنا لزدناك • الجهمسارى ، ص ١٧ •

الحدود وفي المجوس الى أبعد الحدود ، والدعوة الى حياة مبتذلة
متهتكة تزعمه بشير بن برد الذي كان امام المجان الذي فتح لهم باب
التهتك على مصراعيه ، وانتشر شعره في العراق كله فلا غزل الا ويروي
شعره ويأتيه النساء في بيته فيأخذن عنه شعره ، وكان واصل بن عطاء
يقول عنه « ان من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى
الملحد (١) » . وكان يشار نفسه يقول « عسر النساء الى مياسرة ،
فيشجع الفتيان على الامعان في المغازلة والالاحاح في الطلب » . فلما
فتح هذا الباب ولج فيه من أتى على أثره سواء في ذلك العربي والعجمي ،
كمطيع بن اياس وأبي نواس ، واشتهر أبو نواس بمنادمته الأمين ، ويمتاز
بخمرياته وغزله ومجونته ، فهو بحق شاعر الخمر والتهتك والعبث ،
وكان غزله وكانت خمرياته مرآة صادقة تعكس الحياة الاجتماعية المترفة
التي شاعت في بغداد اذ ذاك . وظهر تيار آخر لا يريد أن يستسلم لهذا
اللهو الجارف انما يقاومه ما وسعته الحيلة ، فظهرت الدعوة الى مزيد من
الزهد ومزيد من التقشف . وقد تزعم هذا التيار المتزهد المتقشف
أبو العتاهية الذي كان شعره تعبيرا عن آلام الطبقات الكادحة يسيغه
جمهور الناس ويمججه أثريائهم ومترفوهم . قال المبرد « كان يخرج
القول منه كسخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا » وكان شعره يمتاز
بصبغة علمية دينية فلسفية ، وشايعة في ذلك ابن عبد القدوس .

ومن الظواهر البارزة حقا في تاريخ الحياة العقلية في العصر
العباسي تطور الحركة التعليمية وشمولها واتساع نطاقها بكثرة الإقبال
عليها ، ولعل مما ساعد على ذلك أمور معينة نجملها فيما يلي :

ان المساجد في الحواضر الكبرى عامة وفي بغداد خاصة تطورت
وظيفتها التعليمية في العصر العباسي الأول . حكى ياقوت عن الأخفش
قوله « وردت بغداد فرأيت مسجد الكسائي فصليت خلفه الغداة

لما القتل من صلاته ، وقعد بين يديه الفراء والأحمر وابن سعدان ،
 تسلمت وسألته عن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأته في جميعها » .
 وكان المعتزلة يعلمون الكلام في مسجد المنصور ببغداد . بل عقدت
 بالمساجد حلقات للشعر والأدب فقد رحل الطبرى الى مصر وأملى في
 مسجد عمرو شعر الطرماح عند بيت المال في المسجد الجامع (١) .
 وكان الكميت بن زيد وحماد الراوية يجتمعان في مسجد الكوفة ويتذاكران
 أشعار العرب وأيامهم . وكان مسلم بن الوليد يملئ شعره في المسجد
 الجامع ، كما كان الناس يتناظرون في الشعر في المساجد (٢) . وروى أن
 أبا العتاهية كان يجلس في المسجد وحوله الناس ، كما روى أبو محمد
 اليزدى أن أبا عبيدة كان يجلس في مساجد البصرة الى سارية « وكنت
 أنا وخلف الأحمر نجلس جميعا الى أخرى » (٣) . فكان المساجد لم تعد
 أماكن لتدريس الفقه والحديث فحسب بل دخلتها علوم المعتزلة وعلوم
 الآداب واللغة . وكان العلماء المنصرفون الى التدريس بهذه المساجد
 ينالون من عناية الخلفاء والأمراء والأثرياء الشيء الكثير . وكانوا يتخذونهم
 لأولادهم معلمين ومؤدبين . فالمنصور اختار شرقى ابن القضاة معلما
 للمهدي ، والمفضل الضبي كان يؤدب المهدي ، والكسائي اختير لتعليم
 الأمين ، وأبو محمد يحيى بن المغيرة اليزيدي كان يعلم المأمون . والفراء
 كان يؤدب أبناء المأمون ، وكان ابن البكيت يعلم أبناء طاهر . يضاف
 الى هذا كله انتشار مجالس المناظرة في الدور والقصور والمساجد بين
 العلماء وفي حضرة الخلفاء ، في الفقه والنحو والصرف واللغة والمسائل
 الدينية . وكان يشد من أزر هذه المناظرات الشغف بالعلم وعطايا الخلفاء
 والأمراء ويشتركون في الرأي يؤيدون البعض ويفندون البعض . وكان
 العلماء يستعدون للمناظرة ويتسلحون لها رغبة في الشهرة وذيوع الصيت .
 وكانت تذكى المنافسة الحادة بين الآراء والمدارس . وقد شهدت

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٤٣٢ .

(٢) الأغاني : ج ١٥ ، ص ١١٣ .

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

بغداد على نحو خاض مناظرات في النحو والصرف واللغة • مثل ما كان يجري ما بين سيبويه والكسائي في مجلس يحيى البرمكي • وما كان بينه الكسائي واليزيدي في حضرة المهدي ، ثم الكسائي والأصمعي أمام الرشيد ، وما روى من محاوراة أبي العباس أحمد بن يحيى مع ابن الأعرابي في مجلس الأمير ابن سعيد ، كما تناظر أبو العباس ثعلب مع المبرد في حضرة محمد بن عبد الله بن طاهر • ومن أشهرها جميعا مناظرات المأمون الذي كان يرى أن تثار بين يديه المسائل الدينية المختلفة ، فيسمع من كل رأيه وحجته ، ثم يفصل في أوجه الخلاف على ضوء هذه الحجج • وقد صعب هذا كله ، أمعانا في شد أزر الحركة التعليمية ، انشاء المكتبات واقتناء الكتب ووضعها في متناول كل طالب للاستزادة من العلم • وكانت أكبر مكتبات بغداد خزانة الحكمة ، وكانت في عهد المأمون تتألف من خزائنين خزانة الرشيد وخزانة المأمون (١) • وكانت هذه المكتبة تتولى نسخ الكتب ثم ترجمتها الى العربية ، وكان بها رئيس للمترجمين ومساعدون ومدير وأعوان وكان فيها مجلدون أيضا (٢) • وقلد الخلفاء والأمراء أثرياء العلماء والأدباء فكانت لهم مكتبات خاصة عظيمة ، روى ثعلب أنه رأى لاسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب ، وكذلك كان للكندي الفيلسوف مكتبته الخاصة العظيمة التي سميت بالمكتبة الكندية (٣) •

وكان التعليم حرا لا تنفق عليه الدولة من مالها ، وليس في ميزانيته باب خاص بالتعليم ، اللهم الا ما يمنحه الخلفاء والأمراء والأثرياء لمن اتصل بهم من العلماء ، ولم تكن الدولة تتدخل في وضع منهاج معين أو مراقبة معلم إلا من انحراف نحو الزندقة (٤) • ومما ساعد على شيوع الثقافة وذيوعها وتوغل الحركة التعليمية الى أدنى طبقات المجتمع أن باب العلم

(١) الفهرست ص ١٩٠ •

(٢) نفس المصدر ص ١٠ •

(٣) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٧ ، ص ١٢٠ •

(٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧ •

كان مفتوحا للراغب فيه دون أى قيد أو شرط ، حتى لمن استطاع أهله أن يدبروا النفقات الضئيلة أو استطاع الطالب أن يدبر ما يقتات منه . ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من الطبقات الفقيرة كأبى العتاهية الذى كان خزافا وأبى تمام الذى كان يسقى بالجرة ، وأبى يوسف القاضى الذى كان يعمل قصارا .

ومما ساعد على نمو الحركة التعليمية وذيوعها أيضا وامتدادها الى أبعد الحواضر ما كان من رحلة العلماء بين مشرق العالم الاسلامى ومغربيه . ولا شك أن الأمن الموفور والمستوى المعاشى المرتفع والتشجيع الكبير الذى يظفر به الرحالون من الولاة وسراة الناس كان له أثره العظيم فى اشتداد الرحلة الى الأمصار ، وقد رحل علماء اللغة الى البادية يقيمون افلغة والأدب ، ورحل علماء الحديث ، بل امتدت الرحلات الى بلاد الروم فأرسل المأمون بعثة الى القسطنطينية لاجتياز الكتب ، ورحل حنين ابن اسحق الى بلاد الروم ليتمكن من اللغة اليونانية .

ومن الظواهر التى تستحق التسجيل أن العصر العباسى الأول ونهاية القرن الثالث الهجرى شهد تدوين التراث العربى كله شعره ونثره . فكان هذا العمل الجليل من أهم المنجزات الثقافية فى تاريخ الفكر العربى ، وفى الحق لا نريد أن نمر بهذه الظاهرة مرورا عابرا انما ينبغى أن نقف عندها ونسأل عن الدوافع التى أدت الى مثل هذا الحدث الفكرى ثم نتحدث عن تفاصيله مشيرين الى نتائجه .

فالطافات الجديدة التى دخلت فى الاسلام واستعربت ، والملايين المتعطشة الى المعرفة لم يكن من المعقول أن تقنع بالتراث الذى يحتكر روايته شفاها جماعة من الحفاظ انما كانوا فى حاجة الى أن يجدوا بين أيديهم التراث كله مجموعا ليكون غذاء لروحهم ووقودا لنهضتهم . كلها أن النظرة العلمية الجادة التى جاءت نتيجة للاحتكاك بالفكر القديم

والهليليتى بوجه خاص ونتيجة لاسلام الموالى واستمراهم لم يكن من المعقول أن تنظر نظرة الاعتبار الى التراث المروى مشافهة ، لما كانت فى حاجة الى متون بين أيديها تقتلها درسا وبحثا . وثمة اعتبار آخر ينبع من المفكرين العرب أنفسهم الغيورين على تراثهم الفكرى ، وهو خوفهم من أن تمتد الى هذا التراث غير المكتوب يد الوضع والانتحال والتزييف بسبب الاعتبارات التى استجذت على الحياة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، كالشعوبيين الذين كانوا ينالون من الثقافة العربية ويزرون بكل ما هو عربى . وكان العرب فى حاجة الى مواجهة هذه الحركة ببعث أمجاد العرب القديمة والتاريخ الماضى العربى ، كما أن الفرق الدينية والتيارات السياسية المتضاربة كانت تمتد الى التراث العربى لتلمس منه ما يؤيد وجهة نظرها ويكسب نشاطها طابعا مشروعا . ومن غريب الاتفاق أن تواكب هذه الحركة التدوينية الكبرى نشاط صناعة الورق وكثرتها فى العصر العباسى . وقد نشطت صناعة الوراقة وهى صناعة كان يقوم أصحابها بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها ، وانتشرت دكاكين الوراقين وكانت مصدرا من مصادر انتشار الثقافة فى الأمصار . وكان المتعلمون يذهبون الى دكاكين الوراقين يطالعون فيها الكتب ، وكان الجاحظ يؤجر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة (١) .

امتدت حركة التدوين الى ميدان اللغة والأدب فأتجه الدارسون الى اللغة يجمعون الكلمات التى نطق بها العرب . وكان علماء اللغة من بصريين وكوفيين يتسابقون فى الرحلة الى البادية والأخذ عن العرب . وقد اشتهر بالرحلة أبو زيد الأنصارى وأبو عمرو بن العلاء والأصمغنى والكسائى . وأبو زيد يقول فى مقدمة كتابه النوادر « ما كان فيه من شعر القصيدة فهو سماعى من الفضل بن محمد الضبى ، وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعى من العرب » وسأل الكسائى الخليل بن أحمد : من أين علمك هذا ؟ قال من بوادى الحجاز ونجد وتهامة

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٥٦ .

وخرج الكسائي في طلب اللغة حتى قيل انه استنفد خمس عشرة قنية
حبر سوى ما حفظه . وبعضهم كانوا يخرجون الى البادية ويمضون
الأعوام فيها يخالطون الأعراب ويسجلون عنهم . قال أبو عمرو بن العلاء
ان كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف (١) .
وكان كثيرون من الاعراب يفدون على مدن العراق ليأخذ العلماء عنهم
اللغة . وقد أشار ابن النديم الى طائفة منهم أبو زياد الكلابي وأبو سوار
الضوي وثور بن يزيد وأبو خيرة العدوي وأبو مهدي وأبو ضمضم
الكلابي (٢) . وقد اتصل بهم العلماء يأخذون عنهم . وبعض هؤلاء
الأعراب كان يكتب ، فيؤلف كتباً كآبي زياد الكلابي الذي ألف كتاب
النوادر وكتاب الفرق وكتاب الابل وكتاب خلق الانسان ومنهم من كان
يعلم اللغة والنحو .

كما جمع الباحثون في ألفاظ القرآن الكريم ومفرداته وكانت
الفاظه مادة كبيرة من مواد اللغة . وقد اجتهد العلماء في تحديد معانيها
وكانت حافزا على الرحلة لمعرفة مدلولها ، وجمعوا حول كل لفظة ما يتصل
بها ، كما بحثوا عن الشعر الذي يستشهد به سواء كان جاهليا أم
اسلاميا .

ولما تم لهم جمع ما أرادوا من ثروة لغوية عظيمة نهجوا نهج
المحدثين ورتبوا درجات الأخذ ، فقالوا : أملئ علينا ، أرفع منزلة من
سمعت ، وسمعت أرفع درجة من حدثني ، وحدثني خير من أخبرني
وكانوا يذكرون السند ورتبوا ما ورد في اللغة ترتيب أهل الحديث ،
فمنها ما هو فصيح وأفصح وجيد وأجود . وكذلك تجريح الرجال
وتعديلهم . وقد مر جمع اللغة بمراحل ثلاث : جمع الكلمات حيثما اتفق
ثم جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد ، ثم وضع معجم يشمل كل
الكلمات العربية على نمط خاص (٣) .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

(٢) الفهرست ، ص ٤٣ .

(٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

والعلماء الذين رحلوا الى البادية أو رحل الأعراب اليهم كانوا يزورون ديار القبائل ويأخذون عنهم شعر الشعراء • روى أن الشافعي كان يحفظ عشرة آلاف بيت من هذيل باعرا بها وغريبها ومعانيها كما كان يحفظ شعر الشنفرى ويرويه ، ولم يكتفوا بذلك بل نقلوا القصص والخرافات والأيام (١) • وفى تدوينهم الأدب اتجهوا وجهة أخرى غير وجهة اللغة ففى اللغة مضوا فى الجمع والاستقصاء حتى استطاعوا عمل معجم شامل ، أما فى الأدب فقد عمدوا الى الاختيار ولم يضعوا كتباً شاملة لكل ما روى من أدب القبائل بل عمدوا الى جمع المختارات • ومن أقدم ما وصل إلينا فى ذلك العصر المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب • ومن أقدم ما وصل إلينا من الكتب التى جمعت بين مختار الشعر والنثر البيان والتبيين للجاحظ ، ثم الكامل للمبرد (٢) •

وتطرق التدوين الى ميدان الحديث ، وقد بدأت الخطوات الأولى لتدوين الحديث فى عهد عمر بن عبد العزيز • فقد روى أنه كتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو « أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه ، فأنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية والقاسم ابن محمد بن أبى بكر •

وفى منتصف القرن الثانى الهجرى بدأ فعلاً التأليف فى الحديث وانتشرت هذه النزعة فى الأمصار كلها • ففى مكة جمع الحديث ابن جريج (١٥٠ هـ) وفى المدينة محمد بن اسحق (١٥١ هـ) ومالك بن أنس (١٧٩ هـ) وبالبصرة الربيع بن صبيح (١٦٠) وبالكوفة ظهر سفيان الثورى (١٦١ هـ) وبالشام ظهر الأوزاعى (١٥٦ هـ) وباليمن معمر (١٥٣ هـ) وبخراسان ابن المبارك (١٨١ هـ) • ويمصر الليث بن سعد (١٧٥ هـ) (٣) •

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٢ •

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٧ •

(٣) احمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٧ •

ولم تصلنا من هذه المجموعات المبكرة الا موطأ مالك ووصف لبعض المجموعات الأخرى ، وأكثر هؤلاء الجامعين انما فعلوا ذلك ردا على حركة فقهاء العراق القياسيين ، وأن أمثال مالك والأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد كانوا فقهاء من مدرسة الحديث يؤثرون الحديث ولو كان ضعيفا .

وفي مستهل القرن الثالث مضى تدوين الحديث خطوة أخرى وهي التخلص من طبيعة المرحلة السابقة ، وهي مراعاة الأبواب ومزج حديث الرسول بأقوال الصحابة والتابعين والانفراد بالحديث فقط ، فصنف عبد الله بن موسى العباسي الكوفي مسندا ، ووضع مسدد بن سرهد البصري مسندا ووضع أسد بن موسى الأموي مسندا ، ونعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسندا ، واقتنى الأئمة أثرهم ، فما من امام من الحفاظ الا وصنف حديثه مسانيد ، وطريقها أن ترتب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة . وأساس التقسيم هنا وحدة الصحابي الراوي . ومعنى هذا أن الحديث استقل عن الفقه ، وورى الحديث مجردا من أى اعتبار وجمعت الأحاديث كلها صحيحها وسقيمها .

ثم بدأت المرحلة الأخيرة آخر القرن الثالث ونشطت حركة الجمع والنقد ، وتميز الصحيح من الضعيف وظهر تشريح الرجال والحكم عليهم ، وألفت أهم كتب الحديث .

فقد ألف البخاري الجامع الصحيح ، وألف مسلم صحيحه ، وألف سنن ابن ماجه ، وسنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، وسنن النسائي وهي الكتب الستة الصحاح .

والحق أن ثقات المحدثين بذلوا جهودا كبيرة فى التحصيل ، واجتهدوا فى وضع رواة الحديث من التابعين ومن بعدهم فى موازين دقيقة ، وشرحوا كل راو وعرفوا تاريخه وسيرته ، ووضعوا قواعد الجرح والتعديل ، واشتهر فى هذا الفن يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي .

ثم يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ومحمد بن سعيد • وألف البخارى فى هذا الباب ثلاثة كتب سمي كل منها صحيح البخارى • ومن المؤلفين من أفردوا للثقات كتباً خاصة وللضعفاء كتباً والمدلسين كتباً ، كما وضعت قواعد نقد الحديث •

وامتد التدوين الى الفقه وفمت حركة تدوينه واتسمت فى العصر العباسى ، وكان لكل مدرسة اتجاهها ، فقهاء المدينة جمعوا فتاوى عبدالله بن عمر وعائشة وابن عباس وكبار التابعين بالمدينة • أما العراقيون فقد جمعوا فتاوى عبد الله بن مسعود ، وقضايا على وفتاويه ، وقضايا شريح ، ثم بدأوا يربون الحديث أبواباً حسب الفقه ، ثم جمعوا الأحاديث المستقلة بموضوع واحد فى باب واحد • أما أهل العراق فكانوا أميل الى الرأى • ومن أظهر علمائهم ابراهيم النخعى وحمام بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة ، ومن أقدم ما وصل إلينا فى الفقه العراقى كتاب الخراج لأبى يوسف ثم كتب محمد بن الحسن (١) •

على كل حال •• فى هذا العصر دونت كتب الفقه واصطبغت بصيغة قانونية بعد أن كانت صبغت من قبل صيغة حديث ، وظهر فيها أثر الخلاف فى المذاهب وأثر الجدل ، واصطبغت كتب العراق بالمنطق •

وتجاوز التدوين الميادين التى ذكرت وامتد الى الأخبار والأيام والتاريخ • وكانت الدراسات التاريخية منذ النصف الأول من القرن الأول الهجرى قد وضحت فيها اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الأول مضى نحو كتابة مغازى النبى وسيرته وقد وضع هذا الاتجاه فى مدرسة المدينة المنورة (٢) • وأدت كتب مغازى الرسول الى كتابة مغازى الراشدين ونشأت كتب فتوح الأمصار ، كما أن الكتابة فى السيرة أدت الى الكتابة فى سير الصحابة والتابعين الأمر الذى سجلته كتب الطبقات ابتداء من

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٢ •

(٢) عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب ، ص ٦١ : ١٠٧ •

ابن سعد حتى البخارى • وكان أغلب المشتغلين بهذا الاتجاه قوم مديون كلهم رواية حديث لا ينسب اليهم الكذب أو الوضع ، لأنهم كانوا يتحرون الدقة فيما ينقلون • ويلاحظ في كتابة المغازى في هذا الوقت المبكر العناية بالاسناد والعناية بالحقيقة • ثم كان الاتجاه الثانى هو أسلوب القصص التاريخى الذى بدأه عبيد بن شريه واكمل هذا القصص القديم على يد وهب بن منبه • وقد أثار ذلك كله اهتمام العرب بالتاريخ القديم وبسير البشرية كلها • أما الاتجاه الثالث فقد نشأ فى البصرة والكوفة وهو يعنى بأخبار القبائل العربية عامة وقبائل العراق خاصة أو العناية بالأنساب عامة وأنساب البصريين والكوفة خاصة • واشتغل بهذا الاتجاه النسابون الذين تخصصوا فى تاريخ القبائل العربية وأنسابها • ولم يهمل النسابون المنهج التاريخى الذى تبنته مدرسة المدينة ونعنى به الاسناد وسلسلة الرواة والحرص على اثباتها (١) •

ثم اكتملت المدرسة التاريخية فى أواخر القرن الثالث ، ونمت الأجيال العربية المتعاقبة تتبادل التجارب والخبرات • وكان جيل القرن الثالث قد أفاد من تجارب مدرسة المدينة والبصرة والكوفة والفسطاط ، والتقت الاتجاهات كلها وأصبح الكتاب لا يهملون تقاليد المدينة ولا تقاليد العراق ، وأصبحت لهذه المدرسة الجديدة سمات واضحة نجملها فيما يلى :

استخدموا أسلوب المحدثين فى النقد والرواية والعناية بالاسناد أكثر من العناية بالخبر ، وأصبح رائدهم أن تطرح الاقليمية العنيفة وأنه لا بد من الرحلة فى طلب العلم من الأمصار الأخرى ، كما تلمح فى هذا العصر الاستفادة من الميراث السابق الى أبعد الحدود • والاستفادة من مواد كتب السيرة والإخباريين وكتب الأنساب والمصادر الأخرى ، وكان عملهم فى هذه الفترة أن تعد المادة التى جمعها السلف مع استبعاد الخبيث وإبقاء الطيب •

(١) حسن أحمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٥٣ •

وقد شهدت المدرسة التاريخية في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري نشأة مؤرخي الأمصار المعنيين بتراتها وسرد أخبارها المتحدثين عن قبائلها وأنساب أهلها والترجمة لمحدثيها وعلمائها . من هذه التواريخ المحلية قسم غير ديني تأثر المسلمون في كتابته بنماذج قديمة نشأت في سوريا في العهد البيزنطي (١) كما وجد مثل هذا النوع في الأدب السرياني القديم ، كما تأثر المسلمون أيضا بالأدب الفارسي الذي عرف هذا النوع من التواريخ المحلية . وقد كتب في تاريخ العراق منذ القرن الثالث الهجري كتابان : تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر حليهور ، وتاريخ الموصل لابن زكريا الأزدي . وقد ازدهر هذا النوع من التاريخ على الخصوص في إيران حيث وصلت النعرة القومية إلى الذروة ، وأخذ الكتاب الفرس يتغنون بفضائل بلخ وخراسان ، فكتب حمزة الأصفهاني تاريخ أصفهان وألف حسن بن محمد القمي تاريخ قم . أما القسم الديني من التواريخ المحلية فإنه تضمن التاريخ للحرمين مكة والمدينة . أو التاريخ لبعض المدن مع العناية بصفة خاصة بالمحدثين والفقهاء والعلماء أو الحكماء والشعراء وذوى النباهة . وأقدم ما ألف في هذا الباب تاريخ واسط ، ومؤلفه يعرض لتاريخ واسط القديم ثم يتحدث عن مدارسها وعلمائها ويرتبهم طبقات قريبا أو بعدا من الرسول . وهذا النوع من التأليف اتسع نطاقه بعض الشيء فيما بعد وعُدل عن ترتيب العلماء طبقات وبدأوا يرتبونهم أبجديا أحيانا أو طبقات أحيانا أخرى .

ولا يمكن أن يختم القول في دراسة الاتجاهات الثقافية الكبرى التي ظهرت في ميدان الفكر الإسلامي في العصر العباسي الأول دون الإشارة إلى ظاهرة الاحتكاك الفكري بين الثقافة العربية التقليدية وبين الثقافات الأجنبية . أعنى دراسة حركة الترجمة من المعارف القديمة إلى اللغة العربية . هذه الحركة التي ازدهرت ووصلت إلى ذروة الازدهار آخر القرن الثالث الهجري .

١١٠ رزونتال : علم التاريخ عند المسلمين ، صفحات ٩٠ ، ١٢٩ .

والمنهج الذى يفرض نفسه على دراسة هذه الناحية الهامة فى تاريخ الفكر الإسلامى ليس مجرد احصاء أساء من قاموا بالترجمة أو أسماء الكتب التى ترجمت أو المعارف التى أفاد العرب منها أكثر من غيرها . بل بطا المهم أن نبرز ناحيتين هامتين . الحوافز التى شجعت من أزر حركة الترجمة حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، ثم الآثار التى تركتها العلوم المترجمة فى الفكر العربى . ومن أهم الدوافع التى ساعدت على ازدهار حركة الترجمة نمو العلاقات الدولية فى العصر العباسى الأول والجهود التى بذلها العباسيون فى فرض السلام ، والمبادلات التجارية المتى وصلت الى الذروة فى عهدهم ، والتى حملت التجار الى كل سوق ودفعت السفن العربية فى كل بحر . وقد كانت الدولة العباسية تعقد الصفقات لشراء الكتب وتدفع فى سبيلها أغلى الأثمان . وقد بدأت هذه الصفقات الثقافية فى عهد المنصور ، فروى أنه بعث الى ملك الروم فى طلب كتب العلم فكان من جملة ما حمل اليه كتاب أقليدس (١) . ثم تتابعت جهود الخلفاء فى طريق هذا التبادل الثقافى ، ويشير أبو الفرج الأصفهانى الى قدوم رسل امبراطور الدولة البيزنطية الى بلاط الرشيد فسألوا عن الشاعر أبى العتاهية وأنشدوا شيئاً من شعره ، وكان الرسول يحسن العربية فلما نقل الرسول الى الامبراطور خبر ما رأى وما سمع كتب الى الرشيد يسأله أن يوفد اليه أبا العتاهية وأن يأخذ فيه من الرهائن من يريد ، واعتذر أبو العتاهية (٢) . لكن تنظيم هذه الصفقات الثقافية تم على اكمل وجه فى عهد المأمون حكيم بنى العباس الذى سخر كل الامكانيات وطرق كل السبل ، ليعثر على الكنوز الفكرية الحبيسة فى مكتبات القسطنطينية أو قبرص . ورى ابن النديم أن المأمون كان على اتصال بالامبراطور البيزفطى ليو الأرمنى وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠١ .

(٢) الاغانى : ج ٣ ، ص ١٧٩ .

المدخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم .
الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة فأخذوا مما وجدوا
ما اختاروا فلما حملوا اليه أمرهم بنقله فنقله . وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه
ممن نفذ الى بلد الروم . قال محمد بن اسحق : ممن عنى باخراج الكتب
من بلد الروم محمد وأحمد والحسن بنو شاذان المنجم . وبذلوا المرغائب
وأفقدوا حنين بن اسحق وغيره الى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب
وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى . . والطب . وكان
قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئا فنقله (١) . ويبدو أن بعض
الكشف عن كنوز الكتب لم تترك مكانا أينعت فيه الثقافة الهلينية
الا وذهبت اليه ، ذكر أن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرس
أرسل اليه يطلب خزائن الكتب اليونانية الموجودة فى الجزيرة . وكانت
هذه الصفقات يذكىها شغف المأمون الغريب بالفكر الاغريقى هذا
الشغف الذى كان يشغله حتى فى نومه ، قال ابن النديم « ان المأمون
رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا بحمرة واسع الجبهة مقروق
الحاجب أجلىح الرأس أشهل العينين حسن الشماثل جالس على سرير .
قال المأمون : وكأنى بين يديه ملئت له هبة فقلت من أنت ؟ قال :
أنا أرسطاليس (٢) » ولم تفتر هذه الحركة انما بقيت على أشدها زمن
المعتصم والواثق . وأغلب الظن أن صفقات مماثلة عقدت مع الهنود
أو الزرادشت أو أباطرة الصين .

وثمة عامل آخر كان من أهم جوافز حركة الترجمة ، وهو الله
مع مطلع العصر العباسى لم تعد الترجمة حركة فردية انما أصبحت حركة
تظفر بعناية الدول وتشجيعها ، تساعدها وتنفق عليها الأموال الطائلة .
والمنصور فى بغداد جمع حوله صفوة العلماء من مختلف النواحي وتشجع
على ترجمة كتب العلوم ، واستجاب كثيرون ودفعهم التشجيع .

(١) الفهرست ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٢) الفهرست ، ص ٣٣٩ .

والمادى للاجادة • ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع • ولم يكن الرشيد أقل من المصور اتفاقا على الترجمة والمترجمين • فقد ذكر ابن أبي أصيبعة (١) أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأثقرة وعمورية وسائر بلاد الروم • وامتدت الترجمة الى الكتب الفارسية أيضا فقد اهتم يحيى بن خالد البرمكى بالترجمة من الفارسية الى العربية فجلب مجموعة من الكتب الفارسية ووكل ترجمتها الى من يجيدون اللسانين العربى والفارسى ، أمثال أبى سهل الفضل بن نوبخت وعلان الشعوبى ، كما أرسل فى طلب بعض العلماء الهنود وعهد اليهم بالترجمة الى العربية • وتسخير الدولة امكانياتها كلها فى تشجيع حركة الترجمة وصل الى الذروة فى عهد المأمون ، فقد أنشأ بيت الحكمة فى بغداد ، وكان يضم خزانة كتب ودارا للعلم ودارا للترجمة • وكان هذا المعهد من وجوه كثيرة أعظم المعاهد الثقافية التى أنشئت بعد متحف الاسكندرية الذى أسس فى القرن الثالث قبل الميلاد • وجمعت له أمهات الكتب باللغات المختلفة وعين يحيى بن ماسويه لرئاسته • وقد اشتهر من رجال بيت الحكمة علمان : حنين بن اسحق وأصله من العباد من نسطرة العرب ، وأحب العلم فى صباه فدخل بغداد وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه ودخل فى خدمة جبريل بن بختيشوع • وما زال قدمه يرسخ فى العلم حتى قلده المأمون رياسة بيت الحكمة • وكان حنين كثيرا ما يترجم الكتب اليونانية الى السريانية ثم يتولى مساعدوه نقلها من السريانية الى العربية ، وقد توفى حنين سنة ٢٦٠ هـ (٢) ، قال عنه ابن النديم • « كان فاضلا فى صناعة الطب فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية ، دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلاد الروم » وكذلك ثابت بن قرة ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، وكان من صابئة حران صحبه محمد بن موسى الى بغداد وعلمه فبرع فى الترجمة ، بل يرجع اليه

(١) طبقات الاطباء ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) الفهرست ، ص ٤٠٩ — ٤٦٠ .

١٠ الفضل في ترجمة القسم الأكبر من كتب اليونان في الرياضيات والفلك .
١١ وظل بيت الحكمة يواصل رسالته في الترجمة حتى بعد انتهاء العصر
١٢ العباسي الأول . وكان الثروة العظيمة التي تجمعت لخلفاء العصر العباسي
١٣ الأول قد أنفق الكثير منها في هذا الزاد العلمي العظيم .

وثمة أمور أخرى كان لها أثرها في الاقبال على المعرفة القديمة
وورد مواردها . ومنها ما أشرنا اليه في الحركة التعليمية وشيوعها وتقبل
ملايين المسلمين من غير العرب للثقافة العربية ، فنشأت العقليات التي
بلا تقنع بالثقافة التقليدية الموروثة انما ترنو الى المزيد ارواء لتعطشها
الى المعرفة ، فكان المورد الاغريقى الذى عبوا منه عبا .

كما أن الفرق الاسلامية وهى تتصارع من أجل البقاء لم يكن يكفيها
أن تتكلم بالقرآن والسنة . والمتكلمون التواقون الى الجدل والمناظرة
والمفكرون العرب الذين تصدوا للشعوبيين والطاعنين فى الاسلام ، كل
هؤلاء كانوا فى حاجة الى قوالب علمية منطقية تصب فيها أفكارهم
فتزداد أسلحتهم مضاء ويزداد تفكيرهم انطلاقا ، فكان الاقبال على تراث
المناطق والمفكرين الاغريق . كما أن ما شهدته العصر العباسي من تطور
تكنولوجى وحاجته الى مزيد من المعرفة بالطب والرياضة والفلك ،
كان يدفع الخلفاء ورجال الدولة الى الكشف عن الخبرات القديمة
للاغريق والهنود والفرس وتطويرها لتوافق روح العصر .

ويمكننا أن نضيف الى ذلك كله حقيقة أخرى هامة ، وهى أن أهل
الذمة هم الذين تزعموا حركة الترجمة وبرعوا فيها وأخلصوا لها كل
الاخلاص ، ولم يكن من المعقول أن يأتى ذلك عفوا . انما أتى بعد أن
آلف أهل الذمة الحياة العربية وشاركوا فى الحياة السياسية . ولم يفقدوا
حرياتهم الدينية ونعموا بحسن المعاملة وطيب المعاشرة ووجدوا أن الدين

(١) الجداول مست ، ص ٤٠٩ .

(٢) الجداول مست ، ص ٣٨٠ .

فلم يحل بينهم وبين تطلعاتهم المتنوعة ، كما أنه لا بد أن يمضى وقت طويل ليستعرب أهل الذمة ويتقنوا اللغة العربية الى جانب لغاتهم الأصلية ، ولم يتم استعراب أهل الذمة على نطاق واسع الا فى العصر العباسى ، ويتحدث ابن النديم (١) عن أهل الذمة الذين أسهموا فى حركة الترجمة ويذكر منهم بعض الأسماء التى رأينا أن نوردتها هنا :

يوحنا بن ماسويه الذى أرسل لجلب الكتب من بلاد الروم ، وهنري
ابن اسحق ، وقسطا بن لوقا البعلبكي البطريق فى أيام المنصور وأبنة
أبو زكرياء يحيى بن البطريق ، والحجاج بن مطر الذى نقل المجسطى
واقليدس . وابن ناعمة واسمه عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى ،
حبيب بن بهرين مطران الموصل ، زوربا بن ماجوه الناعمى الحمصى .
هلال بن أبى هلال الحمصى . بسيل المطران . أبو نوح بن الصلت .
اسطاث حيرون . اصطفن بن باسيل . ابن رابطة . تيوفل . شملى .
عيسى ابن نوح . تدرس السنقل . داريع الراهب . هبابنيون . صليبا .
أيوب الرهاوى . ثابت بن قمح . أيوب وسمعان اللذان فسرا زيغ
بطليموس لمحمد بن خالد البرمكى . باسيل وكان يخدم ذا اليمينين .
ابن شهدى الكرخى . أبو عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب . أيوب بن
القاسم الرقى . دار يشوع وكان يفسر لأسحق بن سليمان ابن على
الهاشمى من السريانية للعربية . حنين ابن اسحق . ثابت . حبش .
عيسى بن يحيى . ابراهيم بن الصلت . بل أشار ابن النديم الى نقله
الى الهند والنبط (٢) ومنهم منكة الهندى وكان عند اسحق بن سليمان
ابن على الهاشمى ينقل من الهندية الى العربية . وابن دهن الندى وكان
يشرف على بيمارستان البرامكة وابن وحشية الذى نقل من النبطية الى
العربية .

تلك أهم الدوافع التى شدت من أزر حركة الترجمة وأتاحت للعرب

(١) الفهرست ، ج ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٢) الفهرست ، ج ٣٤٩ .

هذه المناهل الغزيرة من العلم والمعرفة • بقى أن نتحدث قليلا عن أهم هذه المناهل (١) • • ماذا أخذ العرب منها وبأى أفكار تأثروا • وأى آثار باقية تركتها هذه الثقافات فى ملامح الفكر وقسماته •

من هذه الثقافات الثقافة الهلنية من منابعها التى اشتهرت فى الشرق اذ ذاك • مثل جنديسابور وحران والاسكندرية • وقد بركت هذه الثقافة أثرا فى الفكر العربى شكلا وموضوعا • فالمنطق اليونانى أعطى الفكر العربى صيغا صبت فيها قوالبه • وتأثرت بساهجه فأصبح المنطق كما يقول ابن سينا « خادم العلوم » وقد ترك المنطق الاغريقى أثرا كبيرا فى الحياة العقلية فى العصر العباسى الأول • فقد أثر فى طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل • وكانت أساليب المتكلمين متأثرة الى حد بعيد بمنطق أرسطو • بل تطرق التأثير الى ميدان الفقه ذاته • قارن مثلا بين أسلوب الفقهاء فى عصر الراشدين وبنى أمية وبين أسلوبهم فى العصر العباسى • فسوطا مالك مثلا يذكر الحكم ثم يسوق الدليل من حديث أو أثر • وكتاب الهداية فيه التدليل الفقهى وخاصة فى مسائل الخلاف بين أبى حنيفة والشافعى • وترى فيه قواعد الجدل والبرهان المتأثرة بمنطق أرسطو • وامتد أثر المنطق الى النحو • فنجد فى كتاب سيبويه الترتيب والتبويب • يقسم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ثم يعرف بكل قسم ويأتى بالأمثلة ويذكر الأحكام • واستخدم القياس فى الفقه وأصوله وفى الفلسفة • وكان أثره عظيما فى تفريع المسائل وتنويعها وحشد التشابهات تحت قاعدة واحدة • واستقطب ما لم يرد فيه حكم مأثور • ومعنى آخر ترك الفكر الاغريقى طابعه الخالد فى ترتيب العلوم وتبويبها عند العرب •

ولم يكن تأثير الفكر الاغريقى فى انشكال فحسب بل كان تأثيره موضوعيا • فقد أثرت الفلسفة الاغريقية فى تعاليم المتكلمين وأثرت الأفلاطونية الحديثة فى التصوف • وأثرت البلاغة اليونانية فى علوم

(١) توسع الأستاذ احمد امين فى هذا الموضوع فى افاضة ممتعة :
ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ١٦٢ : ٣٧٣ •

البلاغة عند العرب (١) •

لكن الأمر الذي يحمد للمفكرين العرب أنهم لم يكونوا سلبين فيما وردوا من موارد ، إنما استخدموا ما أخذوه استخداما صالحا ، ثم بنوا على ما أخذوه • وزادوا فيه وابتكروا وصنغوه بصيغتهم الخالدة • وقاموا بأعظم محاولة توفيقية في تاريخ الفكر العالمي بمواءمتهم بين الفكر الإغريقي وطابعه المادى وبين الاسلام وروحه وفكره • ولم تعد اللغة العربية من أن تتأثر بهذا الفيض من التراث الإغريقي الذى تدفق في العصر العباسى ، فقد عربت ألفاظ يونانية كثيرة ، وترجمت قصص يونانية الى العربية ، أشار ابن النديم الى مترجمات اغريقية فى الأسفار والتاريخ ، كما ترجمت حكم فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وملات كتب الأدب مثل البيان والتبيين وعيون الأخبار •

أما الثقافة الهندية فقد تأثر العرب بها عن طريق اتصال المسلمين بالهنود عن طريق الفتح والتجارة ، كما أصبحت السند مصرا اسلاميا ، وانتقل الهنود رحالين الى أرجاء العالم الاسلامى وحملوا معهم أفكارهم وثقافتهم • وبعض الأفكار الهندية تسربت الى العرب عن طريق الفرس ، فقد اتصل الفرس بالهنود اتصالا وثيقا قبل الفتح الاسلامى وأخذوا الكثير من الثقافة الهندية وترجموها الى لغتهم • وقد امتد التأثير الهندى الى الالهيات والمقالات الأدبية والرياضيات والأدب • وفى باب الالهيات تركت نظرية الهنود فى الأرواح وتناسخها وآن الأرواح لا تموت ولا تقبى وإنما هى أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يغصها ولا ريح تبيسها ولكنها تنتقل من بدن الى بدن • وقد تركت نظرية التناسخ هذه أثرا فى بعض الفرق الدينية وفى بعض قصص ألف ليلة ، وعرف علماء المسلمين مذهب السمنية (٢) وناقشوه كثيرا فى كتب التوحيد.

(١) احمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ...

(٢) ذكر البيرونى أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة وقد كانت فى خراسان وفارس والعراق والموصل الى حدود الشام فى القدم الى أن ظهر زرادشت فى ايران ودعا ببلخ الى المجوسية وراحت دعوته فانتجبت السمنية عنها الى مشارق بلخ • البيرونى ، ما للهند من مقولة ص ١٠ •

وعلم الكلام وخصوصا ما عرفوا به من نظرية المعرفة واعتقادهم أن العلم والمعرفة لا تحصل الا من باب الحواس • وكل علم ليس أساسه الحسن لا يكون علما صحيحا • ولكن الالهيات الهندية لم تترك الا تلك الآثار السطحية ولم تنفذ الى أعماق الفكر العربى •

ولكن الأثر العسيق الذى تركته ثقافة الهند كان فى الرياضيات والفلك • ويبدو أن بعض الرياضيين الهنود وفدوا الى بغداد فى عهد المنصور وأنه كلف أحدهم باختصار كتاب الفلكى الهندى (برهسكبت) واستخرج منه كتابا أصبح أساس علم الفلك عند العرب (١) • وأخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند (٢) وترجموا كتابا آخر اسمه الأركان وثالثا اسمه «الأرجهر» • وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود كلفظ (الجيب) فى حساب المثلثات ، واقتبسوا الكثير من نظريات الهند فى الحساب والهندسة • وكان الطب الهندى من المنابع التى وردها الطب العربى الى جانب المنبع اليونانى • فكان فى بغداد أطباء هنود اشتهر عنهم فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى ، وجلب يحيى بن خالد أطباء من الهند مثل منكى وبازيكر وفيرقل وسندباد (٣) • وتركت الثقافة الهندية طابعها فى ميدان الأدب فعربت الفاظ هندية كثيرة واقتبست بعض الآراء فى الأدب والبلاغة (٤) • كما أولع العرب بالقصص الهندى • ويكفى أن يقال أن أصل كلية ودمنة هندية نقل الى الفارسية ثم نقل من الفارسية الى العربية ، وقصة السندباد هندية الأصل ترجمت الى العربية • وعدد ابن النديم كتبا كثيرة للهند فى الخرافات والأسفار والأحاديث ترجمت الى العربية • وفى باب الحكم أخذوا عن الهند الشيء الكثير فكانت حكمة الهند أقرب الى روح العرب وأحب الى أذواقهم فهى أشبه بالأمثال العربية بجمالها القصيرة ومعاليها العميقة وامتلائها كتب

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٤٢ •

(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ •

(٣) الجاحظ : البيان والتهيين ، ج ١ ، ص ٧٨ •

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٤٧ •

العصر بالكثير من حكم الهند . يقول ابن قتيبة « قرأت في كتاب من كتب الهند : شر المال مالا ينفق منه ، وشر الاخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيها خصب ولا امن » (١) وعقد صاحب كتاب سراج الملوك فصلا في حكم شاناق الهندي يتضمن نصحا للملوك بالعدل في الرعية . مع ضرب الأمثال (٢) .

وفي حديثنا عن منابع التي نهل منها الفكر العربي يجب ألا نغفل المبع الفارسي الذي اشتهر وضوحه بعد دخول ملايين الايرانيين في الاسلام ومشاركتهم في الحياة العامة في الدولة العباسية . وقام الأفراد المثقفون بعملية الترجمة بعد أن حسن اسلامهم وازدادوا عمقا في الثقافة العربية وملكوا عنان اللغة . ولم تكن الدولة في حاجة الى أن تبعث البعث لتحصل على تراث فارس فقد كان هذا التراث ماثلا في كل مدينة في ما وراء النهر وايران والعراق .

على كل حال تركت الثقافة الفارسية أثرا في اللغة العربية ، فقد تسربت ألفاظ فارسية كثيرة الى اللغة العربية ، كما ترجمت كتب فارسية في التنجيم والهندسة والجغرافية . ولما اتسعت الحركة العلمية في العصر العباسي قام كثيرون ممن أجادوا اللسانين بالترجمة من الفارسيه الى العربية (٣) . فعبد الله بن المقفع ترجم كتاب (خدائنامة) وسماه تاريخ ملوك الفرس وترجم كتاب « آيين نامه » وهو وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم . كما ترجم كليلة ودمنة وكتاب مزدك وكتاب التاج في سيره أنوشروان وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب اليتيمة (٤) . كما نقل المترجمون كتب كثيرة في تاريخ الفرس فترجم محمد بن الجهم البرمكي كتاب سير ملوك الفرس . وترجم زادويه كتاب

(١) عيون الأخبار : ج ١ ، ص ٣ .
(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ، ص ٣٣١ .
(٣) الفهرست ، ٣٤١ — ٣٤٢ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ص ١٠٩ .

سير ملوك الفرس وكتاب تاريخ ملوك الفرس • وترجم جبلة بن سالم
« كتاب رستم واسفنديار » وكتاب بهرام شوش • ومن الكتب الدينية
ترجم كتاب زرادشت « آفستا » وفي الأدب كتاب هزار أفسانه وغيره من
القصص وعهد أردشير وكتاب موبذ موبدان وكتاب أردشير في التدبير
وتوقيعات كسرى وكتاب أدب الحرب •

وقد تركت الثقافة الفارسية أثرها الباقى فى الأدب العربى شعره
وثره وفى القصص العربى وفى التوقيعات •

تلك أهم مقومات النهضة التى واكبت العصر العباسى الأول ويمكننا
فى ايجاز أن نحدد ملامح الفكر العربى الذى هو وليد هذه المقومات آخر
القرن الثالث الهجرى •

كان من أثر التلاحم الفكرى الذى أشرنا اليه أن وضح تقسيم
العلوم عند العرب^(١) ووضح طابع الفكر العربى العلمى الذى تميزت به
مدارس القرن الثالث الهجرى • كما وجدت الحركة التعليمية ذات الطابع
العلمى الجديد التراث العربى كله • وقد دوفت أصغر دقائقه فظهرت
مدارس النقد والاختيار والدراسات المبنية على المنطق والقياس والمقارنة،
وأصبح التأليف فى هذا التراث الموروث يسير وفق قواعد علمية سليمة ،
كما أدت صنعة الوراقة الى شيوع الفكر الجديد ، فلم يعد متركزا فى
بغداد • انما انتشر شرقا حتى نيسابور وغربا حتى قرطبة ، الأمر الذى
أعطى الثقافة العربية غذاء موحدا ، وطبعها بطابع واحد مع اختلاف بيئى
كبير • وكان من أثر الطوفان الفكرى الذى صادفه العرب أن اشتدت
المحارك بين القديم الموروث وبين الجديد الناشئ ، كما يحدث عند التلاحم
الفكرى عادة ، وامتدت هذه المعارك الى كل ناحية ، وفى الشعر ظهر من
يعيرون على الجاهليين والمخضرمين طريقتهم فى نظم القصيد ، ويدعون
الى التحرر من قوالب العصر الجاهلى الجامدة لتنشأ قوالب وقيثارات

(١) انظر ابواب الفهرست لابن النديم •

جديدة تلائم الحياة الجديدة ، وظهر هذا الصراع في ميدان علم الكلام والمذاهب ، وانبرى المعتزلة المسلحون بالمنطق والفكر الإغريقي الى منازلة الفرق الأخرى التي كانت لا تزال تعتمد على القديم في فكرها وأسانيدها . ومن حسن الحظ أن اللغة العربية أظهرت قابلية للتشرب عظيمة وشفقت عن طواعية غريبة المثال فاستوعبت ما استجد من ألفاظ تتيجه الترجمة . واشتقت كلمات جديدة . وظهر أسلوب جديد في التعبير يختلف عن الأساليب التي شاعت في صدر الاسلام ، ظهرت « الكلاسيكية الجديدة » التي تحسن التعبير عن التيارات الجديدة في شعر رصين كما ظهر أدب الرسائل متأثرا بتقاليد الفرس ، وظهرت الأساليب العلمية الدقيقة في الطب والفلسفة والرياضة والفلك ، كما ظهر الكتاب الموسوعيون الذين يحولون هذا الزاد الثقافي الى كتب معاجم وطبقات .

القسم الثاني
العصر المياني الثاني

نظرة عامة على العالم الإسلامي

في العصر العباسي الثاني

تطالعنا دراسة العصر العباسي الثاني بصورة قد تختلف في كثير من تفاصيلها عن الصورة التي رأيناها في العصر العباسي الأول .

فقد امتاز العصر العباسي الأول بقوة الخلافة ، وتمركز السلطة في يد الخلفاء العظام الذين حفل بهم هذا العصر ، وكانوا جميعا ذوي شخصيات قوية ، كما كانوا ساسة مهرة ، وقد استطاعوا أن يحافظوا على اتصالهم الوثيق بجمهير الناس الذين وقفوا مع الدعوة العباسية في فترة التحضير للثورة ، وأيدوا الخلافة العباسية ، وقد حرص هؤلاء الخلفاء على توثيق أواصر الصلات بينهم وبين الملايين من مؤيديهم . كما أظهروا كفاءة تامة في كبح جماح العناصر المتطلعة الى القوة والنفوذ من الموالي ، واستطاعوا أن يقيموا نوعا من التوازن بين الأحزاب المختلفة التي ظهرت بقيام الدولة . وتبعاً لذلك احتفظت الدولة في ذلك العصر الأول بوحدةها تحت الحكومة المركزية في بغداد باستثناء الأندلس وجزء من الشمال الأفريقي .

لكن هذه الظاهرة العامة في العصر الأول ما لبثت أن تغيرت في العصر العباسي الثاني ، لتبدو مكانها ظاهرة أخرى تخالفها . وأول ما يطالعنا في هذه الظاهرة الجديدة ، هو انتقال الدولة الإسلامية من المركزية الى اللامركزية في نظام الحكم . وقيام دول وإمارات مستقلة استقلالاً كاملاً . أو استقلالاً جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة . ثم ظهور شعوب جديدة طارئة على العالم الإسلامي الأول ووصولها الى مركز الدولة ، وتسليطها على الحكم ، ثم وقوع الخلفاء أنفسهم تحت نفوذها . الأمر الذي أضعف من شخصيات الخلفاء ، وأذهب عنهم نظرة الاحترام

والتي تيسر التي كان يتمتع بها خلفاء العصر العباسي الأول • ونحاول أن نلقى نظرة عامة على العالم الإسلامي في هذا العصر الثاني من خلال هاتين الظاهرتين اللتين تميز بهما هذا العصر •

العالم الإسلامي بين المركزية واللامركزية :

لم تستمر الوحدة التي تميز بها العصر الأول طويلا ، وذلك لأن قيام الدولة العباسية كان يحمل في ثناياه بذور الانفصال ، فالدولة منذ قامت كانت تهدف الى المساواة بين القوميات الإسلامية المختلفة • وقد قويت هذه الروح القومية بعد ذلك ، وأقامت أسرا ودويلات اقليمية استقلت عن الدولة استقلالا جزئيا ، وان كانت قد حافظت على ولائها واعترافها بالسيادة الروحية للخليفة العباسي • ومن هذه الدول : الدولة الأغلبية التي أقامها ابراهيم بن الأغلب في أفريقية ، والدولة الطاهرية التي أقامها طاهر بن الحسين في خراسان • ومن قبل ذلك كانت أجزاء من العالم الإسلامي قد انفصلت انفصالا تاما عن الخلافة العباسية ونعني بذلك الأندلس التي انتقل بها عبد الرحمن الداخل الأموي بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، ودولة الأدارسة بالمغرب التي أسسها ادريس العلوي الفار من وجه الخلافة العباسية ، وإذا كانت الدولتان الأوليان قد نشأتا تحت ظل الخلافة وبأمرها ، فان الآخرين قد نشأتا برغم الدولة وخروجهما على سلطانها •

وحين بدأت الدولة في العصر الأول تحس خطر هذه الحركة الانفصالية ، لجأت في علاجها الى ابتداع سياسة تركيزية مضادة ، فقسمت الدولة الى قسمين •

القسم الأول هو المغرب ، ويشمل الشام ومصر والشمال الأفريقي ، وقد تضاف اليه الجزيرة ، أو الشام ومصر وبعض الشمال الأفريقي على حسب الظروف •

والقسم الثاني هو المشرق ، ويشمل الأقاليم الواقعة شرقي العراق •

وكانت العادة أن يعهد الخليفة بولاية العهد من بعده الى اثنين على أحدهما الخلافة بعد الآخر . وكانت ادارة المغرب توكل الى ولى العهد الأول ، وادارة المشرق الى ولى العهد الثانى .

ونلاحظ من هذا أن الدولة كانت تتزاعها ظاهرتان متعارضتان ظاهرة تميل الى الانفصال الاقليمى ، وظاهرة تسمى الى تركيز السلطة والابقاء على الوحدة . وسينتهى الأمر فى العصور التالية الى تغليب النزعة الانفصالية ، مع الاعتراف بالولاء والسيادة الروحية للخليفة ، فبرغم انفصال الأطراف فى العصور التالية ، نلاحظ أن الوحدة الظاهرية الاسمية ظلت قائمة ، لهذا لم تكن ولاية وال فى هذه الأقاليم المنفصلة تصبح شرعية الا اذا أقرها الخليفة العباسى .

وللحديث عن الحركة اللامركزية يجب أن نعود الى الوراء ، الى المبادئ التى نادت بها الثورة العباسية ، فهى فى الحقيقة تمثل نقطة الارتكاز لكل التطورات التى حدثت فى العالم الاسلامى فى أيام الدولة العباسية . والمبدأ الذى يهمنى هنا من بين المبادئ التى نادت بها الثورة هو مبدأ التسوية .

فقد نادت الثورة العباسية بمبدأ التسوية بين الشعوب جريا على حكم الاسلام . وهو المبدأ الذى أوقف فى عهد الراشدين لضرورات اقتضت ذلك . وكانت الثورة تنادى برفع هذا الايقاف ، واجراء حكم الاسلام على الشعوب المغلوبة ما دام الدين الجديد قد غلب على الدين القديم فيها . فالشعوب المغلوبة التى دخلت فى الاسلام كانت تطالب بأن تتبع معها قواعد الاسلام ، وكان لها الحق فى أن تطالب بهذا باعتبارها شعوبا مسلمة ، وعلى أساس أن الاسلام يفرض المساواة بين المسلمين جميعا . والمطالبة بهذا المبدأ مطالبة دينية بطبيعتها ، الا أننا اذا حللنا دوافع القومية ، وجدنا مطلبهم هذا فى ناحية من نواحيه ذا صفة سياسية . ولذلك نستطيع أن نقول أن مطلب هذه الشعوب دينى

سياسي ، وان الطابع الديني كان في الحقيقة ستارا اختفت وراءه نزعات قومية لأهم كانت لها شخصيتها القومية القديمة ، وكان متوفعا ألا تسمى هذه الشخصية القوية في بسهولة . وهذه الظاهرة — ظاهرة الأغراض السياسية التي تتستر وراء القضايا الدينية — ظاهرة معروفة في التاريخ الوسيط .

فلما انتصرت الثورة العباسية ، ولما كان الفضل في انتصارها لا يرجع الى العرب من أهل الأمصار . وإنما يرجع الى متطوعين من الفرس الخراسانيين ، كان طبعيا أن يحتل المنتصرون مكانا ممتازا لم يكونوا يحتلون من قبل (١) . وكان طبعيا أيضا أن يتشبثوا بمكانتهم الجديدة ، لكي لا يغتصب منهم غيرهم حقوقهم ان عادوا الى بلادهم وتركوا الأمور على ما كانت عليه من قبل . وهذا شأن كل ثورة لا تستطيع أن تترك الأمور لحكام العهد الماضية ، فان مثل هذا ان حدث ولو الى حد ما يؤدي في النهاية الى تفويت كثير من الأهداف التي دعت اليها الثورة . فكان من نتيجة الثورة العباسية اذن اقتصار مبدأ التسوية بين الشعوب ، ثم ونوب الخراسانيين الى مكان الصدارة . ووجودهم في هذا المكان كان بذاته دليلا ماديا على أن الثورة قد حققت مبدأ المساواة، بل جعلت للخراسانيين الصدارة بما جاهدوا في سبيل المبادئ الدينية القويمة وبتنفيذهم حكم الآية الكريمة : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ونجب هنا أن نستلرد بعض الشيء ، لنذكر نص الصحيفة التي كتبها النبي بعد هجرته الى المدينة والتي حددت شكل الجماعة الاسلامية . وأوله بنودها « ان المؤمنين والمسلمين من قریش ويشرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . أمة واحدة من دون الناس » (٢) وهذا النص هو الذي

(١) المسعودي : مروج الذهب : ج ٣ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ٤ ، ص ٣٢٦ ، الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) ابن هشام : ج ٢ ، ص ١٩٩ . وانظر كذلك عن تكوين الدولة الاسلامية . أحمد ابراهيم الشريف . مكة والمدينة ، ص ٣٨٥ — ٣٩٩ .

حذف الفوارق القبلية ، وجعل كل انسان . بحرف النظر عن قبيلته الأولى أو شعبه الأول ، داخلا في الأمة على قدم المساواة مع غيره . وقد طبق النبي صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ منذ البدايه . تم حدث بعد ذلك ضرورات هي التي جعلت الراشدين يحددون عن هذا المبدأ . وكان انتصار شعب من الشعوب المغلوبة واحتلاله مركز الصدارة بناء على المبادئ الإسلامية ، وعلى هدى التكوين الأول للجساعة الإسلامية عملا مشروعا . فكان انتصار الخراسانيين لذلك مثلا يمكن أن يحتضيه غيرهم . فكان من السهل على الأفارقة أو على المصريين أو على أهل الأندلس أن يطالبوا بهذه التسوية وأن يناوئوها ، أو يناوئوا قدرا كبيرا منها . ولذلك يجوز لنا أن نسمى العصر العباسي الأول بعصر الشعوبيات ، إذا استعرنا اصطلاحا أدبيا مستعملا للدلالة على فرع من فروع الأدب العربي ظهر في هذا العصر ، هو الأدب الشعوبي . ويتكون من مفاخرات بين الشعوب المختلفة ، فهذا أديب يتعصب للعرب ، وذلك آخر يتعصب عليهم ويسجد للفرس . ولم تكن المفاخرات الإحدى للأحداث السياسية والثورة العباسية . وما حدث بين العرب والفرس حدث مثله أيضا بين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى المغلوبة : فقد امتدت حركة الشعوبية أيضا الى المغرب والى الأندلس .

ثم أدى انتصار مبدأ التسوية في مرحلة أخرى ، الى أن تطالب الشعوب الحديثة في الاسلام — وهي غير الشعوب التي خضعت للاسلام في الفتوح الأولى — بنفس حقوق العرب أو حقوق الخراسانيين . بسجود دخولهم في الاسلام . ومن هذه الشعوب التي جعلت لنفسها حق المساواة بالشعوب الإسلامية القديمة « بنو بويه » و « السلاجقة » .

و الواقع أن السياسة العامة في العصر العباسي الأول هي التي شجعت تلك الشعوب البربرية على الدخول في الاسلام . ومهدت السبيل لها . اتخذت من سياسات قبل ظهور هذين الشعبين ، فالخليفة المأمون مثلا كان يرغب الترك في الاسلام ، لا تحقيقا لهدف ديني في المقام

الأول ، وإنما لحاجته الى جند أقوياء . فكان يرسل مع الدعاة فارضاً يسجل أسماء الأجناد في الديوان ويفرض لهم العطاء ، ويرغبهم في القدوم الى دار الخلافة ، حتى اذا ما قدموا أكرمهم الخليفة وأجازهم (١) . وبهذه الطريقة استطاع المأمون أن يجند عدداً من الترك . ثم توسع المعتصم في هذه السياسة حتى صار معظم جيشه من الترك . وحتى اضطر أن يبنى لهم مدينة خاصة هي مدينة سامرا . فالخلفاء أنفسهم هم الذين مهدوا السبيل لتطبيق هذا المبدأ على هذه الشعوب البربرية الحديثة ، دون أن يجدوا من الحرج ما وجده بنو أمية ، بل كان تجنيد الترك في نظرهم أمراً عادياً .

وعلى أساس هذا المبدأ فإن كل الشعوب التي يمكن أن تدخل الاسلام تستطيع ، بصرف النظر عن حداثة اسلامها وقدمه ، أن تحتل مكاناً مساوياً لغيرها ، بل تستطيع أن تحتل مكاناً ممتازاً ، ولا يشترط في ذلك الا شرطان . الأول : هو الاسلام ، والثاني : هو توفر الصفة الحربية في هذا الشعب الجديد .

فمبدأ التسوية خول للشعوب الغربية عن الشعب العربي ، والغربية عن الشعوب المغلوبة في أيام الفتوح الأولى ، أن تدخل في عداد الدولة الاسلامية على أساس المساواة ، ما دامت تدخل في الاسلام ، وما دامت تتوفر لها الصفات الحربية ، بحيث تستطيع أن تخدم الدولة الاسلامية من هذه الناحية ، اما في أطراف الدولة الاسلامية ، واما في داخلها وفي مركزها . فاذا لم تتوفر في الشعب الجديد الصفات الحربية ، كان الأمر أن يبقى هذا الشعب في حماية المسلمين ، وأن يظل عبئاً عليهم الى أن يوجد شعب حربي آخر يشترك في الدفاع عن الدولة وعن هذا الشعب الأعزل . وهذا مجرد فرض عن "لنا" ، لأن كل الشعوب التي كانت تتأخم الدولة الاسلامية كالت شعوباً بدائية مطبوعة على الحرب .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٧ .

وكان للدولة أن تستخدم قوة هذه الشعوب ، فتكون الدولة اليد العليا إذا كانت هذه الشعوب غير منظمة . فإذا كانت هذه الشعوب منظمة ، استقلت بتدبير نفسها تحت ظل الاسلام دون أن يكون للدولة المركزية شأن كبير في توجيهها .

ولنحاول الرجوع الى أصول هذا الموضوع ، فنتساءل : هل كانت المساواة مجرد نتيجة للثورة العباسية ولتطبيق مبادئها ، أم كان تطورا أكبر لم يكن للثورة فيه يد الا أنها عجلت بمراحل تطوره ؟

الواقع أن سياسة الدولة الاسلامية كانت تسير نحو المساواة شيئا فشيئا منذ عهد بنى أمية ، وأنها أعطت لبعض الشعوب المغلوبة الموجودة في أطراف الدولة ووراء حدودها المعروفة في أيام الراشدين ، حقوقا لم ينل مثلها المغلوبون في الفتوح الأولى كالفرس وأهل الشام وأهل مصر ، فقد جرت سياسة الدولة منذ الفتوح الثانية ، في عهد بنى أمية ، على أن تشرك أهل البلاد المفتوحة في الدفاع عن حدود الدولة ، بل ومد هذا الحدود الى ما وراءها ، فإذا تتبعنا ما وقع في إقليم ما وراء النهر وجدنا ترك ما وراء النهر يشتركون في الدفاع عن بلادهم ، وفي غزو من خوفاهم من الترك الكفار مع المسلمين ومع جيش قتيبة بن مسلم الباهلي نفسه ، وهو الذي فتح هذه البلاد (١) .

فسياسة اشراك المغلوبين ، سياسة اتبعت منذ فتح هذه البلاد ، وكانت هذه البلاد حديثة عهد بالاسلام لم تعرفه الا على يد قتيبة ، وإن عرفه بعضهم قبل ذلك بقليل . وكان ذلك ميزة لم يتمتع بمثلها الفرس ، وهم القريبون من حدود الترك ، وهم من عرف قوة وحضارة . فكانت هذه المقارعة بين شعبين متجاورين نوعا من التناقض ما كان له أن يستمر . قال الشعب الفارسي المجيد محروم من الجندية ، والشعب التركي البربري

(١) الطبري : ج ٦ ، ص ٤٧٥ . الدينوري : الاخبار الطوال ،

ص ٣٢٨ . ابن الأثير : ج ٤ ، ص ١٢٧ .

يشارك المسلمين شرف الجندية وشرف الغزو ، على حين كان على الهارسي إذا أراد أن يشارك في الجندية أن يكون تبعا لغيره من العرب * ولعل السبب في اعطاء الترك هذه الميزة هي أنه كان من غير الممكن حرمانهم من امتشاق الحسام ، فهم شعب بدائي محارب بطبعه ، وكان من الخير أن توجه هذه السيوف نحو العدو ، لأنها لا بد أن تضطرب ، بدلا من أن تنتج نحو الثورة والعصيان ومقاومة العرب الفاتحين * فكان اعطاء هذه الميزة سياسة موضوعة رسمها العرب ، وقد راعوا فيها حالة هذا الشعب ..

ولم تكن سياسة العرب في بلاد ما وراء النهر وحدها ، وإنما كانت سياستهم في جهات أخرى * في أرمينيا ، وقبرص ، والشمال الأفريقي * فان أهل أرمينيا شاركوا العرب منذ فتح بلادهم في كل ما تستلزم الحدود من دفاع وفي غزو من وراءهم (١) ، وأهل قبرص كانوا يعاونون المسلمين بأن يجلوهم على عورات الروم (٢) ، والبربر من أهل أفريقية قد انطلقوا مع العرب لفتح الأندلس *

وكان العرب يتساهلون مع هؤلاء المسلمين الجدد الحريين تساهلا قد يتناقض مع مبادئ الدين * من ذلك مثلا أن ترك ما وراء النهر اشترطوا على قواد المسلمين وعلى ولاية خراسان في أيام الخليفة هشام ابن عبد الملك ألا يعاقب المرتد منهم ، وقد احتج الفقهاء حين قبل هشام هذه الشروط * وإنما راعى هشام حين قبل ذلك أن الارتداد يكون بين الترك حين يحدث خلاف بينهم وبين المسلمين ، فيقوم الترك بثورة ويخلعون طاعة المسلمين ، وفي نفس الوقت يرتدون عن الاسلام ، فكانت ردتهم تابعة لعلاقتهم السياسية بالعرب ، ولم تكن شركا أصيلا (٣) *

(١) البلاذري : ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٦٠ ، ١٦٤ .

(٣) الطبري : ج ٧ ، ص ١٩١ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٩ ،

ونستطيع أن نقول — على أساس ما قدمنا — ان العرب فى العصر
الأموى أعطوا بعض الشعوب المغلوبة نفس الحقوق التى كانت للعرب ،
فلما جاءت الثورة العباسية عمت هذه القاعدة . فأصبحت تطبق على كل
الشعوب دون استثناء .

ونعود الى نفس المسألة من ناحية أخرى . وهى ناحية الدور الذى
أدته هذه الشعوب المغلوبة فى القيام بأمر الدولة الاسلامية . وأول دور
قامت به أمة مغلوبة هى أمة الفرس ، فهم الذين احتضنوا فكرة الدعوة
لآل البيت . وهم الذين نصروا الثورة العباسية ، وحققوا مبدأ المساواة
بين الغالبين والمغلوبين .

ثم ننتقل الى دور الترك ، وكان دورهم فى أول الأمر المشاركة فى
الدفاع عن الثغور الشرقية ، ثم صار الخلفاء يستخدمونهم فى مهمات
حربية فى ايران ، ثم زاد الالتجاء الى الترك شيئاً فشيئاً حتى استخدموا
فى جيش الحضرة (جيش الخليفة فى بغداد) فى عهد المأمون ،
ثم صاروا قوام الجيش فى عهد المعتصم بعده ، وأصبحوا هم الذين يغزون
فى ثغور الروم ، وهى الثغور الواقعة فى أطراف آسيا الصغرى عند جبال
طوروس . ونستطيع أن نتصور الدور الذى قام به هذا الشعب التركى ،
إذا قدرنا التطور الذى وقع منذ فتح بلاد الترك على يد قتيبة فى أواخر
القرن الهجرى الأول الى أن وجدناهم يغزون ثغور الروم فى أواخر
القرن الثانى وأوائل الثالث (١) .

وعلى هذا نستطيع أن نقول ان المبادئ السياسية الاسلامية ،
كانت تبيح لكل شعب دخل الاسلام أن يكون كأهله . وأن يتولى
الصدارة ما دام أهلاً لهذه الصدارة . ويمكننا أن نقدر ما كانت عليه
هذه السياسة من مرونة . ومن فائدة هذه المرونة أنها أوجدت سبيلاً
فى كل عصر تدافع عن الاسلام وأوجدت قوة تستطيع أن تسير دفعة أبور

(١) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٥٤ ، وما بعدها الى آخر عصر المعتصم .

الدولة الإسلامية • وفى عصر المساواة كان حلا للشعوب الإسلامية المختلفة أن تعترف بقوميتها ، ولهذا كان من نتيجة الثورة العباسية ، ازدياد الشعور القومى لدى الشعوب المغلوبة ، وكان من الضرورى أن ينتهى هذا الاحساس بالمساواة ، وهذا الاحساس المتزايد بالقومية ، الى استقلال الشعوب من الناحية المعنوية أولا . وكان مظهر هذا الاحساس المعنوى ظهور ما عرف فى الأدب العربى باسم الأدب الشعوبى ، وهو فى ذاته تعبير عن اعتداد الشعوب بشخصياتها • وكان موضوع هذا الأدب المقامرة بين العرب والعجم ، وذكر فضائل الأمم بعضها على بعض ، ولهذا لا نكاد نقرأ كتابا من الكتب القديمة الا وجدنا فيه ذكرا لفضائل البلاد والأمصار والشعوب • ثم أخذت الشعوب تستقل استقلالاً فعلياً ، وقام نوع من اللامركزية ، وكان من نتيجة هذا أن شهد العصر العباسى الثانى الامارات الإسلامية تظهر فى الشرق والغرب مؤكدة سلطاتها • والخلفاء لا يجدون مفر من الاعتراف بالأمر الواقع •

الا أن حركة الشعوبية لم تنته بانقصال أجزاء العالم الإسلامى بعضها عن بعض ، فإن الشعوب الإسلامية برغم حرصها على استقلالها ، ظلت تحتفظ بالروابط فيما بينها ، وكانت الخلافة هى المثل الدائم لتلك الروابط •

والخلافة بطبيعتها واحدة غير قابلة للتعدد عند أهل المذهب الواحد ، واذا تعددت فانما يكون ذلك بتعدد المذاهب • فمن الجائز مثلا أن تقوم خلافة فاطمية فى مصر — لأن الفواطم لا يعترفون بالخلافة العباسية — وأن تكون الخلافة العباسية قائمة فى بغداد •

والخلافة أيضا كانت نظاما أساسيا من أصول النظم عند بعض الفرق الإسلامية • فوجودها عندهم ركن من أركان الدين ، فهى واجبة الوجود وهى فى نظرهم عنوان الوحدة وركن العزة • وأهل السنة وإن لم يذهبوا فى الخلافة مذهب الشيعة ، الا أنهم كانوا يعتبرونها

الخلافة أساسا لشرعية السلطان • والشعوب التي حرصت على استقلالها لم تسع قط ، بل لم تفكر في الانفصال عن الخلافة • والخلافة بدورها قد سارت على مبدأ مرن سليم هو مبدأ التوفيق بين النزعات القومية والمطالبة الشعبية ، وبين مبدأ الوحدة • وفي هذا مزايا كثيرة :

فيه الحرص على التوفيق بين نزعات الأمم ، وفيه حرص على اعطاء كل شعب حقه المشروع في أن ينسى شخصيته كيف يشاء ، وفي أن يستكمل كيانه كما يريد ، في ظل الخلافة الاسلامية الموحدة •

وفي ظل هذه السياسة أتيح لكل شعب من الشعوب الاسلامية أن يشارك في بناء الدولة بقدر كفاءته، ولذلك تعددت مراكز القوة في العالم الاسلامي ، وازداد هذا العالم بذلك قوة ، وامتدت أطرافه الى فواح بعيدة لم يكن الراشدون ولا الأمويون يتصورون أن يصل نفوذ العالم الاسلامي اليها • ففي العصر العباسي نبت القوميات ، وأصبحت بحريتها. وبقدرتها على تكييف حياتها كيف شاءت ، وتبعا لظروفها الخاصة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وأتيح لها بذلك أن تسهم بقدر أكبر في خدمة العالم الاسلامي ومد نفوذه السياسي والحضاري على السواء •

وقد اختلف مصير كل دولة من هذه الدول بحسب وضعها الجغرافي وبحسب وظيفتها من العالم الاسلامي • ونلاحظ أن كل دولة من دول هذا العالم الاسلامي كانت تقوم بوظيفة معينة ، وكانت بقيامها بهذه الوظيفة تؤدي نصيبها في المشاركة في الحياة الاسلامية ، وتؤدي نصيبها في خدمة صالح العالم الكبير الذي تنتمي اليه ، فنحن في هذا العصر العباسي الثاني أمام قوميات قد نالت حريتها ، ونحن أمام قوميات تساعد وتتعاون وتحرص كل الحرص على ألا تنفصل عن هذا العالم ، فكانت فكرة الخلافة فكرة متأصلة في النفوس باعتبارها رمزا للرباط بين أجزاء العالم الاسلامي ، وكانت كل أمة تحس بفضيلة الاجتماع مع شعوب

أخرى تحت حضارة واحدة ، كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة الحضارة الأوروبية في عصرنا الحالي .

وإذا ألقينا نظرة على العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، وجدنا كل جزء من أجزائه قد تأثر بنوع خاص من المؤثرات تحكمت في تطوره التاريخي وفي مصيره .

فللمشرق تطوره الخاص من الناحية التاريخية ، ويتحكم في هذا التطور عاملان : أولهما عامل القومية ، وثانيهما عامل الغارات البربرية الأعجمية .

فلقد نقلت الثورة العباسية السلطان من يد العرب الى يد الشعوب المغلوقة المتحضرة ، وبذلك تركت للقوميات حريتها في ظل الخلافة . وبفضل هذا العامل القومي نشأت في المشرق دول أولها الدولة الطاهرية نسبة الى طاهر بن الحسين ، ثم الدولة الصفارية المنسوبة الى يعقوب ابن الليث الصفار ، ثم ملك المشرق بعد ذلك الدولة السامانية نسبة الى الأسرة السامانية التي كان موطنها مدينة بلخ .

ثم تأثر المشرق بعد ذلك بغارات شعوب جديدة طارئة على العالم الاسلامي ، ولم تكن تلك الشعوب داخلة ضمن الشعوب المتحضرة في العالم القديم ولا في العالم الوسيط الأول ، فهي شعوب أعجمية وان اصبغت بالصبغة الاسلامية ، وهي شعوب تقابل الشعوب البربرية التي أغارت على أوروبا في العصور الوسطى . . وقد تأثر المشرق بانتقالات هذه الشعوب ، وهجرتها الى داخل العالم الاسلامي ، فحكمه في أول الأمر الديلم ، وهم وان كانوا فرساً من حيث الجنس واللغة ، إلا أنهم كانوا يعيشون عيشة بربرية قبلية في منطقة متطرفة في شمال شرقي ايران جنوبي بحر قزوين . إلا أن سيادة الديلم لم تمتد الى المشرق كله ، بل امتدت الى بعضه وتركزت للسامانيين البعض الآخر ، ثم طرأ بعد الديلم والسامانيين شعب بربري جديد من تلك الأمواج التركية المهاجرة من

أعماق آسيا نحو الغرب ، ونشير هنا الى السلاجقة . فلما انتهى العصر السلجوقي جاءت غارة بربرية جديدة أشد ايغالا في الصفة البربرية ، وأبعد من الاستعداد لقبول الحضارة الاسلامية ، ونشير هنا الى غارات المغول .

وهكذا نرى التطور التاريخي للمشرق وقد تأثر بعامل القومية . ثم يعامل الغارات البربرية الأعجمية . وانتهى الأمر فيه بانتقال السلطان انتقالا يكاد يكون نهائيا من يد الشعب الايراني المتحضر القديم الى يد الشعب المغولي الطاريء على الحضارة .

أما المغرب فقد كان مصيره مختلفا عن مصير المشرق ، فهو بعد أن آثت الثورة العباسية ثمارها ، قد خضع لتأثير العوامل القومية ، ثم خضع بعد ذلك لتأثير الدعاية المذهبية ، ثم عاد لظروف خاصة بعد سقوط بغداد ملجأ للخلافة ومصدرا للقوة أمام الغارات الأعجمية البربرية ، الى أن ضاع هذا المغرب كما ضاع المشرق ، واستولى عليه شعب أعجمي لم يكن شارك قط في الحضارة القديمة وهو الشعب العثماني . فنحن نرى أن المغرب انتهى بأن خضع الى نفس المصير وخضع للبرابرة ، ولكن بعد نحو ثلاثة قرون من سقوط بغداد ، حين فتح هذا المغرب في أيام السلطان سليم الأول العثماني . فكان المغرب استطاع أن يحمل لواء الاسلام القديم الى أن اغتصب منه الترك العثمانيون هذا السلطان . فنقلوا مركز العالم الاسلامي الى موطنهم الجديد ، وأصبحت الخلافة لا تعتمد على العرب ، و لا على الشعوب المتحضرة القديمة ، وانما أصبحت تعتمد على شعوب أعجمية طارئة . حديثة عهد بالحضارة وحديثة عهد بالاسلام .

فالمغرب خضع أولا لعامل القومية ، فظهرت فيه الدولتان الطولونية ثم الأخشيدية ، ثم تأثر بالعامل المذهبي فخضع للفاطميين نحو قرنين ، ثم جاءت الحروب الصليبية فظهرت قوة المغرب أمامها في شخص الأيوبيين ، ولم يكد الأيوبيون ينهضون بعبد الحروب الصليبية ، ودلح

خطرها المهدد لأول مرة تهديدا خطيرا لكيان العالم الاسلامى ، حتى ظهر خطر جديد آت من المشرق هو الخطر المغولى ، وعندئذ قام المماليك وكانوا أقوى من الأيوبيين ، لأنهم استطاعوا أن يقفوا أمام الموجات المغولية واستطاعوا فى نفس الوقت أن يطردوا الغارات الصليبية ، وأن يحموا جبهتهم البحرية من كل هجوم أوروبى جديد . وفى نفس الوقت كان العثمانيون يشغلون أوروبا عن التدخل فى الشرق الأوسط ، وكانوا يتوغلون فى أوروبا الى أن استطاعوا أن ينقلوا مركز العمليات الحربية الى الشمال ، والى أن ينقلوا الخلافة الى الشمال أيضا .

فلاحظ من كل ذلك أن مصير المشرق مختلف تمام الاختلاف عن مصير المغرب . ونلاحظ كذلك أن الثورة العباسية قد نقلت مصير الاسلام من يد العرب الى الشعوب القديمة المتحضرة ، ثم انتقل الأمر بعد ذلك من يد الشعوب المتحضرة القديمة الى يد الشعوب الجديدة ، الطارئة . وهذا الانتقال من يد الشعوب المتحضرة الى الشعوب الأعجمية الجديدة هو الذى يحدد بالضبط نهاية العالم الاسلامى القديم ، وبدء العالم الاسلامى الجديد .

ولنا أن تتساءل بعد هذا ، هل كان العالم الاسلامى الجديد تحت قيادة هذه الشعوب الطارئة الحديثة أقدر منه تحت قيادة الشعوب المتحضرة التى ورثت الدولة الاسلامية عن العرب ؟

نستطيع أن نقول أن هذا التحول منع العالم الاسلامى من أن يشارك فى الحضارة مشاركة ناجحة ، والمسئول عن مصير العالم الاسلامى هذا هى هذه الشعوب الجديدة الطارئة .

وهناك مناطق من العالم الاسلامى يجب أن نشير اليها وهى مناطق الثغور . والذى يحملنا على أن نجعل الثغور قسما واحدا ، أننا وجدنا فى الثغور ظاهرة مطردة ، وهى أن هذه الثغور تتقوى بقدر حاجة العالم الاسلامى للدفاع ، وأن الدول التى تظهر فيها تتأثر عادة بمؤثر واحد .

هو الخطر الأجنبي ، وهو أيضا حيوية العالم الاسلامى التى تدفع هذه الثغور دائما الى الأمام . فكل البلاد الواقعة فى أطراف العالم الاسلامى بلاد لها وظائف خاصة ، وهذه الوظائف تؤثر فى كيان الثغر ، فالوظيفة الثغرية هى التى تنشئ فى الثغر دولا ، والحيوية هى التى تدفع الثغر وما فيه من دول الى الأمام . هذه هى الظاهرة المطردة الملاحظة فى الثغور .

ونستطيع أن نتتبع الثغور المهمة ثغرا ثغرا . فنجد أن الدفاع فى ثغر الروم ، عند الحدود المشتركة بين العالمين الاسلامى والبيزنطى ، أو هى بالضبط عند جبال طوروس ، يقع على عاتق الخلافة أولا ، فلما اقتضت المبادئ العباسية ، تشاركت القوميات المختلفة فى حمل عبء الدفاع . فحملة الطولونيون والخلفاء فى وقت واحد ، فلما ظهر أن التعاون بين طرفين غير فعال ، نبعت من الوظيفة الثغرية دولة ثغرية هى الدولة الحمدانية ، وحملت هذه الدولة عبء الدفاع ، ما استطاعت ، عن الثغر ، ثم غلبت لأنها عاصرت أقوى أسرة من الأسر التى حكمت بيزنطة وهى الأسرة المقدونية . وفى هذا الوقت بالذات طرأت من المشرق شعوب جديدة غزية ، ووصل الغز السلاجقة الى ثغر الروم ، وأنشأوا هناك دولة ثغرية جديدة فى آسيا الصغرى هى المعروفة بسلاجقة الروم . ثم أسلم السلاجقة اللواء من بعدهم الى العثمانيين الذين حملوه فترة طويلة .

وثغر آخر هو الثغر التركى المسمى ثغر ما وراء النهر ، وكانت مهمة الجهاد فيه على عاتق الخلافة ، الى أن تولت الدولة الطاهرية أمر المشرق كله بما فيه الثغر . فلما ضعفت الدولة الطاهرية ، قامت فى الثغر وعلى أساس الضرورة الثغرية أسرة هى الأسرة السامانية . واستطاع السامانيون أن يمدوا سلطانهم الى وسط آسيا . أما امتداد سلطانهم الى الداخل فكان ذا صفة أخرى ، فهم حين حكموا بعض خراسان الواقعة بغير نهر جيحون ، فما كانوا فى الحقيقة يملأون فراغا حدث على أثر

ضعف الطاهريين ، ولم يكن الطمع هو الدافع لهم على امتلاك هذا القسم ، وكانت قوتهم كلها مركزة في التركستان في شرق نهر جيحون ، وفي أواسط آسيا ، واستطاع السامانيون أن ينشروا الحضارة الإسلامية في تلك البلاد الوثنية . فدخل على أيديهم في الإسلام عدد كبير وقامت في أيامهم بما وراء النهر مراكز ثقافية هامة كانت عاملا قويا في صبغ الترك بالصبغة الإسلامية . ومن فضل السامانيين أنهم استطاعوا أن يجعلوا من التركستان بيئة مؤثرة في الترك . فخفض ذلك من خطرهم على العالم الإسلامي ، إذ كان الذين يهاجرون من الترك ويفتحون الحدود الإسلامية ينصبغون في هذه البلاد بالصبغة الإسلامية ويدخلون في الإسلام فيكون خطرهم أقل .

ثم تولى مهمة الدفاع بعد السامانيين قوم من الترك أخذوا الإسلام عن السامانيين ، ثم نظموا أنفسهم وقاموا بمهمة الدفاع الثغرى ، هي الدولة التي تعرف بالدولة الخوارزمية ، وقد ظلت قائمة بأمر الثغر إلى أن ظهر المغول واجتاحوها في طريقهم ، وكان هجوم المغول سريعا بحيث لم تتمكن بيئة ما وراء النهر من صقلهم بالصبغة الإسلامية أو من ادخالهم في الإسلام .

ثم ثغر السند . وكانت مهمة الدفاع فيه واقعة على الخلافة في أول الأمر ، حتى ظهرت الدولة الصفارية . فتولت هذه المهمة . ثم لم تعمر تلك الدولة ، فمدت الدولة السامانية سلطانها على هذا الثغر الأيمن البعيد ، وقامت بالمهمة الثغرية فيه بعض الوقت ، إلى أن قامت في هذا الثغر دولة مشهورة في التاريخ الإسلامي هي الدولة الغزنوية المنسوبة إلى عاصمتها غزنة جنوب غربى كابل الحالية فاقطعت هذه الدولة لنفسها بيئة جغرافية في الهند فكانت واضحة لحجر الأساس تقريبا للعالم الإسلامي الهندي ، ثم نهضت بعد الدولة الغزنوية بالمهمة الثغرية دولة أخرى هي الدولة الغورية . وظل الغوريون في هذا الثغر الهندي إلى أن أزالته الدولة الخوارزمية ، ثم جاء المغول فاجتاحوا المشرق كله ، ثم انقسموا بعد

أن أسلموا بهذا الثغر ، فكونوا فيه دولة عظيمة هي أساس دولة باكستانية
الحالية .

وكل هذا الذي عرضنا له في الثغور كان نتيجة للوظيفة الثغرية ،
ونتيجة لحيوية العالم الاسلامي .

والعراق أيضا ننظر اليه نظرة خاصة ، فقد ارتبط مصيره بالخلافة
مباشرة فهو الجزء الذي بقيت عليه سيطرة الخلفاء ، وظلت الخلافة تحكمه
حكما مباشرا ، أو يحكم باسمها حين امتد تغلغل الأعجمية الى مركز
العالم الاسلامي . وتاريخ العراق في العصر العباسي الثاني هو الذي
يمثل تاريخ الخلفاء العباسيين تمثيلا صحيحا ، ولا يمثل في الحقيقة تاريخ
العالم الاسلامي كله . ونحن حين ننظر الى تاريخ الخلفاء من بني العباس
في العصر الثاني ، لا يصح أن نربط به تاريخ العالم الاسلامي كله . فقد
ضعفت سلطة الخلفاء السياسية على العالم الاسلامي ، ولم يبق من سلطان
الخلافة الا مظهر منصبه الجليل فحسب . ولم يعد في يده غير العراق ،
وحتى العراق نفسه قد اقتطعت أجزاء كبيرة منه وخضعت لحكم المتغلبين
من حكام الأقاليم . فلم يصبح في يد الخلافة في وقت من الأوقات
الا بغداد وأعمالها (١) . ثم وقع الخلفاء أنفسهم في قبضة القواد من
الأتراك وزال سلطان الحكم الفعلي من أيديهم بانتقاله الى يد أمير
الأمراء في بغداد حتى عصر السلاجقة .

مركز الخلافة :

والواقع أن الخلافة العباسية لم تعد قادرة على أن توازن في حكمة
ودقة بين القوة المركزية في بغداد ، وبين القوى اللامركزية النامية
المتطورة في أقاليم الدولة العباسية ، نتيجة انتشار الاسلام ومطالبة
المسلمين الجدد بنصيب أوافر من الحقوق . وكان من نتيجة هذا أن شهد

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٥ ، ص ٥٥٣ — ٥٥٤ . ابن الأثير
(طبعة أوربا) ، ج ٨ ص ٢٤١ — ٢٤٢ . تاريخ أبو الفدا تحت سنة
٣٢٤ هـ .

العصر العباسي الثاني الامارات الاسلامية المستقلة تظهر في الشرق والغرب ، والخلفاء لا يجدون مفرا من الاعتراف بالأمر الواقع سواء رضوا أم كرهوا .

ولم تعد الخلافة أيضا قادرة على أن تكبت عناصر الموالى المتطلعة الى القوة والنفوذ كما فعلت في العصر العباسي الأول ، حيث كبتت قوة الخراسانيين بقتل زعيمهم أبي مسلم ، وكبتت جراح الفرس بنكبة البرامكة ، ثم استعانت بالترك على الخراسانيين في عصر المعتصم ، فقد تهاوت أسس القوة التي وضحت في العصر العباسي الأول ، وفقدت الخلافة الضعيفة نفوذها في بغداد نفسها ، بسيطرة الجند الترك ، ثم البويهيين والسلاجقة ، كما فقدت نفوذها في الأقاليم ، لتصبح مجرد رمز تجتمع الدولة حوله .

كما أن التحول الرأسمالي الذي أحدثه العصر العباسي الأول ، قد أدى الى أن تزداد الهوة اتساعا بين فئة الاحتكاريين من كبار الملاك وكبار التجار ورجال الصناعة ، وبين الطبقات الكادحة التي نالت لونا من التحرر في العصر العباسي الأول ، ولكنها لم تظفر بما كانت تسعى اليه من الرخاء الاقتصادي وانخفاض الأسعار وارتفاع الدخل ، وحيل بينها وبين الحياة الهينة الكريمة . ولم تتدخل الدولة ، وكان من واجبها أن تتدخل لكي لا يختل التوازن وتقع المأساة ، وكان في مكنتها أن تستخدم بيت المال في حماية حق الجماهير ، لكن بيت المال في ذاته قد ضعف لقلة الموارد التي تصل اليه ، لذلك انتشرت الثورات ذات الطابع الاشتراكي كثورة الزنج والقرامطة^(١) . كما نشطت الدعوة الاسماعيلية ، مستغلة الأوضاع الاقتصادية السيئة ، في جذب الجماهير نحو دعوتها تمهيدا لظهور الفاطميين .

(١) نسبة الى حمدان قرمط احد دعاة الاسماعيلية ، ورائس الطريقة القرمطية .

وقد ربط كثير من المؤرخين بين حالة الخلافة العباسية في العراق ، وبين الحالة في العالم الاسلامي ، واعتبروا ضعف الخلافة ضعفا للعالم الاسلامي كله . لكن هؤلاء المؤرخين لم يفتنوا الى أهمية مبدأ التسوية وما أحدثه من تطور ، ونظروا الى استقلال الشعوب في هذا العصر على أنه نوع من الانفصال ، وعلى أنه كان بذرة ضعف الخلافة . فقالوا : ان نمو القوميات أضعف الخلافة وأضعف العالم الاسلامي . فهم يربطون بين الخلافة في بغداد وبين العالم الاسلامي ربطا لم يكن له ما يبرره ، ويتصورون حسب نظرهم — ان الخلافة ضعفت لأن بلاد الأندلس انفصلت عنها منذ أن قام بأمر الأندلس عبد الرحمن الداخل الأموي . وقالوا ان الخلافة ازدادت ضعفا حين قامت بأفريقية دولة الأدارسة بمراكش الحالية ، والدولة الرستمية في الجزائر الحالية ، ودولة بنى الأغلب في تونس الحالية ، ثم حين قامت بأمر هذه الأقاليم الثلاثة الدولة الشيعية الفاطمية ، ثم حين توسعت هذه الدولة تملكت الى أفريقية بمصر والشام . ثم أن هؤلاء المؤرخين يعدون من مظاهر الضعف قيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر والشام ، وكذلك قيام الدول المستقلة في المشرق الاسلامي ، ويشبه المسعودي في عجم ٣٣٣ ، فعل أصحاب الأطراف ، وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذي هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر (١) فكان هؤلاء المؤرخين حين يبينون الأجزاء التي آلت اليها الدولة انما يصفون حسابها . مع أن هؤلاء المؤرخين ينسون أن قيام هذه الدول كان نتيجة لظهور مبادئ جديدة عادلة هي حق التسوية وحق الشعوب .

على أن فكرة الدولة برغم هذا الانقسام لم تفقد ما كان لها من القوة والسلطان ، فكان أصحاب الأطراف أو حكام الدول المستقلة يعترفون بالسيادة العليا للدولة ، ويقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ، ويشقرون منه القابهم ، ويرسلون اليه الهدايا كل عام ، فلم يكن واحد

(١) التنبية والاشراف : ص ٤٠٠ .

منهم يعتبر ولايته شرعية الا اذا اعترف به الخليفة وأرسل له التقليد (١) ، وحتى بنو أمية في الأندلس لم يروا لهم الحق في اتخاذ لقب الخليفة لأنفسهم أو التسمي باسم « أمير المؤمنين » بل كانوا يسمون أنفسهم « بنو الخلائف » .

وظل لقب الخلافة وقفا على بنى العباس في بغداد حتى جاء الفاطميون ، فكانوا أول من خرج على هذه القاعدة . ذلك لأنهم لم يكونوا يعترفون بحق العباسيين في الخلافة ، وكانوا يرونها حقا لهم باعتبارهم خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم . فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان ٢٩١ هـ — ٩٠٩ م (٢) . ثم أسرع بعد ذلك قية اللقب الى الهبوط ، حتى نجد حاكم سجلماسة (جنوبى جبال أطلس) يسمي نفسه بأمير المؤمنين في سنة ٣٤٢ هـ — ٩٥٣ م (٣) . ولما علم عبد الرحمن الثالث بالأندلس أن العلويين بأفريقية لقبوا بأمير المؤمنين ، اتخذ لنفسه أيضا لقب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٦ — ٩٢٩ م (٤) .

ولكن لم يكن من شأن هذا الانقسام أو تعدد أمراء المؤمنين أن يؤدي الى ضيق في معنى الاسلام . أو معنى الوطن الاسلامي . بل كانت كل هذه الأقاليم في الحقيقة تؤلف مملكة واحدة سميت مملكة الاسلام وهو اصطلاح تتخذه لتقابل به مملكة الكفر — وكانت تقوم فيها جميعا وحدة اسلامية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة (٥) . ويعتبر المقدسي أن مملكة الاسلام تمتد من « كاشغر » في أقصى المشرق الى « السوس » الأقصى في المغرب (٦) .

(١) مسكويه : ٦ : ٣٢٣ .

(٢) ميتز : ج ١ ، ص ٣ .

(٣) الكرى : المغرب في ذكر ملاد افريقية والمغرب (طبع الجزائر)

١٧٥٧ (١) ص ١٥١ .

(٤) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٩٢ . المقبرى : نفح الطيب : ج ١ ، ص

١٦٢ — ٢١٣ .

(٥) ميتز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢ — ٤ .

(٦) احسن التقاسيم لطبعة لندن (١) ص ٦٤ .

وكان المسلم يستطيع أن يرتحل فى داخل حدود هذه المملكة فى ظل دينه وتحت رايته • وفيها يجد الناس يعبدون كما يعبد ، ويصلون كما يصلون ، كذلك يجد شريعة واحدة وعرفا واحدا وعادات واحدة • وكان يقوم فى هذه المملكة قانون عملى معترف به من الجميع يضمن للمسلم كل حقوق المواطن ، بحيث يكون آمنا على حريته الشخصية أن يمسها أحد ، وبحيث تكفل له كل الرعاية القانونية (١) •

• ونستطيع أن نرد على هؤلاء المؤرخين كذلك بأن العالم الاسلامى فى عهد العباسيين كان أقوى بكثير مما كان عليه فى أيام بنى أمية ، وكان ذا حيوية وحضارة أثرت أكبر الأثر فى الشعوب المجاورة للعباسيين • فقد حملت هذه الدول سواء فى المشرق أو فى المغرب مسئولية الدفاع عن العالم الاسلامى كل فى ناحيتها ، ورفعت عن كاهل الخلافة عبء متطلبات هذا الدفاع ماديا وعسكريا • ثم انها مدت نفوذ العالم الاسلامى الى أطراف جديدة ربما لم تكن الخلافة المركزية قادرة عليها ، كما أنها تصدت لهجمات كبيرة على العالم الاسلامى ، وصمدت لها فى قوة ودمرتها ، وبذلك جعلت قلب العالم الاسلامى يعيش فى أمن •

ونستطيع أن نتصور الأعباء الجسيمة التى كان على الخلافة وعلى مركز العالم الاسلامى أن تتحملها • ولو أن الخلافة ظلت تحت هذا العالم المترامى الأطراف الممتد من أواسط آسيا الى حدود فرنسا وشاطئ المحيط الأطلسى والممتد كما يقول المسعودى : ثلاثة آلاف وسبعمائى فرسخ ، أى حوالى عشرة آلاف ومائة ميل (٢) • وانها تقطع فى نحو عشرة أشهر كما يقول المقدسى (٣) وأن تتصدى للدفاع عن أجزائه البعيدة فى المغرب حين نهضت الدول الفرنجية وأخذت طريقها نحو النمو والقوة ،

(١) متر : ج ١ ، ص ٤ •

(٢) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٧ — ٣٨ •

(٣) احسن التقاسيم (طبعة ليدن ١٨٧٧) ، ص ٦٤ •

(م ٢٠ — العصر العباسى)

وحيث بدأ العالم المسيحي الغربي يقوم بحركة الاسترداد العنيفة ، وفي الشرق حيث كانت الشغوب المتبربرة تهدد حدود العالم ، ثم أخذت تهاجر وتغير على عالم الحضارة .

ثم نستطيع أن نتصور أعباء حكم هذه الأقاليم نفسها على مركز العالم الاسلامي . لو أن الخلافة في بغداد ظلت مهيمنة على الحكم هيمنة مركزية ، وما كان يتطلبه ذلك من نفقات هائلة ، ومن يقظة مستمرة واستعداد عسكري دائم لمقاومة كل حركة انفصالية أو استقلالية تظهر في هذه الأقاليم ، ثم ما يستتبع ذلك من تحطيم لموارد هذه الأقاليم نفسها ومن تعطيل لنموها الذاتي .

وهؤلاء المؤرخون حين اعتبروا نمو القوميات ضعفاً إنما تأثروا بالأفكار السائدة في عصرهم . ولم يلتزموا الحيطة الضرورية لكتابة التاريخ ، بل تأثروا بما كانوا يعتقدون من مثل سياسية ، وكانوا كلهم يرجون أن تعود الخلافة واحدة جامعة للعالم الاسلامي على نحو ما كانت أيام الراشدين وبنى أمية . وهذه المثل شملت أخیلتهم وسيطرت على تصورهم للتاريخ فكافوا حين يذكرون ضعف الخلافة واستفادة القوميات من هذا الضعف ، إنما يدعون الى ما يتصورونه طريق الإصلاح . وكانت كذلك تنقصهم النظرة الشاملة للعالم الاسلامي ، ولذلك نجدهم يفعلون في التناقض حين يذكرون مثلاً فضل السامانيين أو الغزنويين في حماية الثغور الشرقية ، وحين يمتدحون الحمدانيين بتصديهم للهجمات البيزنطية ، والمماليك في قهرهم للصليبيين ، وصندهم المغول . وحين يتحدثون عن مراكز الثقافة في بخارى وسمرقند والقاهرة والقيروان وقرطبة . تلك المراكز التي ازدهرت ونافست بغداد ، بل تفوقت عليها في بعض الأحيان .

هذه حال المؤرخين الذين فعتبرهم مصادر في كتابة التاريخ الاسلامي . أما المؤرخون المحدثون ، فقد تأثروا بما اكتب الاقدمون من ناحية ، كما تأثروا من ناحية أخرى بالأحوال القائمة اليوم في العالم

الاسلامى والعربى فى وصفهم للماضى ، فهم قد تصوروا ماضى بلادهم كحاضرهم ، كل جزء من بلاد العرب أو بلاد الاسلام قائم بذاته ، منفصل أو يكاد ينفصل عن غيره . مع أن هذه الأجزاء لم تكن تخرج عن أن تكون جزءا تظله الجماعة الاسلامية مع غيره وان تركت له حريته القومية .

والنتيجة التى نريد أن نصل اليها من وراء هذه النظرة العامة ، هى أن العالم الاسلامى فى هذا العصر العباسى كان لامركزية ، وكان مؤلفا من مجموعة أمم اسلامية ، لكل أمة ذاتيتها الخاصة ، وكانت الخلافة تجمع هذه الأمم وتمثل الرباط بينها فى السياسة العامة وفى الدين وفى الحضارة والاقتصاد .

وبعد هذا الاجمال الذى نقصد به الى التعريف تتناول الموضوع بالتفصيل .

الباب الأول

ظهور الاتراك في الدولة الإسلامية

الفصل الأول

حالة الخلافة العباسية في بغداد

في العصر العباسي الثاني

من أهم ما تميز به ذلك العصر ، وكان له أثره الواضح في تاريخ العالم الاسلامي منذ القرن الثالث الهجري ، ما تناقله المؤرخون المعاصرون ومن تبعهم أو نقل عنهم ، من عدوان على أشخاص الخلفاء ، بالسجن أو القتل أو التعذيب أو العزل ، أو على سلطانهم بالتضييق أو السلب ، فكان الخليفة لا يأمن على نفسه أو سلطانه وحسب ، بل ان منصب الخلافة فقد ما كان له في نفوس المعاصرين من الهيبة والقداسة ، الأمر الذي يشكل صورة قاتمة محزنة من أخبار الخلفاء في ذلك العصر .

والكتاب المعاصرون أو المحدثون ردوا هذه النوازل التي حلت بالخلافة ، الى ضعف الخلفاء حيناً ، أو انصرافهم الى اللهو أحياناً ، بل نراهم يرتبون على هذا الضعف ما ظهر في أفق العالم الاسلامي من حركات استقلالية . ولكننا اذا أردنا أن نعرف حقيقة الحال ، وجب أن نجاوِز ظاهر هذه الصورة الى بواطن الأمور ، وعندما أن هذه التطورات لم تكن بسبب ضعف خليفة أو لهو آخر .

ونحن لا نكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين استسلموا للأقدار وبعض الخلفاء الذين انصرفوا الى اللهو والملذات . ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من قوة الارادة وصفاء الشخصية وأنهم حاولوا جاهدين أن يغالبوا التيار فغلبهم ، والحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف النظام الخلافي نفسه .

كانت الخلافة العباسية تستمد قوتها من مصادر متعددة من دعوة

عباسية منظمة ، ومن صلات قوية بين رؤساء التنظيم العقيدى فى بغداد وبين شبكات الدعاة وجماهير الأنصار فى الأقاليم • ومن بيت من بيوت قرش يتوارث أفراد هذا المنصب السامى ، ويتحدون جميعا للبقاء على هذا الميراث فيهم • ثم عصبية قوية متماسكة تؤمن بأن بقاءها فى بقاء الخلافة قوية ولقد ارتبطت مصاحبتها بهذه الخلافة بصلات متينة •

وما دامت هذه من مصادر القوة فى النظام الخلافى ، فإن افتقاد هذه المصادر أو ضعفها يؤدى الى ضعف الخلافة أو قد يؤدى الى تهاويها •

والدارس لتاريخ الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، يرى فى وضوح أن صلات الخلفاء بشبكات الدعاة فى كافة أرجاء العالم الاسلامى لم تضعف فحسب ، بل انها تهاوت تماما بعد الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ . ٨٤٧ — ٨٦١ م) ، فلم نسمع عن ذلك النوع من الرسائل الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول ، مؤكدا ذلك الاتصال الذى كان عصب القوة بالنسبة للعباسيين ، ومعنى ذلك أن الخليفة فقد صفته كرأس لذلك التنظيم الذى سيطر على الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، وادى هذا بالتالى الى أنه فقد القداسة والهيبة فى نفوس الناس ، وتعرض الخلفاء بسبب ذلك لصور كثيرة من الامتهان • كما سنوضح فسا بعد •

وكذلك ضعفت الروابط بين الخليفة وملايين الناس الذين أيدوا الحزب العباسى وانخرطوا فى سلكه • وأغلب الظن أن الخلايا المندسة فى البلاد اما تحللت . واما انصرفت الى تأييد الدعاة الشيعة الذين ملأوا الفراغ فى التنظيم العقيدى منذ العصر العباسى الثانى • فلم نسمع أن هذه الجماهير كانت تولى الخلافة العباسية ، النى أصبحت تقع تحت الاضطهاد ، نفس التأييد الصبق الذى كانت توليه للمنصور أو الرشيد •

ولا ندرى ماذا كان نصيب الدعاة على وجه التحقيق ، وأغلب الظن

أنه قد تضاعل سباطاتهم ونفوذهم . ولم يعد حكام الولايات رؤساء للتنظيمات المحلية كما كان عليه الحال فى العصر العباسى الأول : فقد وهت صلتهم بالخلفاء ، وانصرف الكثيرون منهم الى تنمية مصالحهم الذاتية . والاكتار من المال والجند . توطئة للمساهمة فى الحركة الاستقلالية التى غلبت على الحياة الاسلامية اذ ذاك . وهذا الموضوع فى الحقيقة محتاج الى دراسة متخصصة مستقصاة ، لمعرفة كل جوانبه ، وهو امر لا يتسع له مجال هذا الكتاب . وان كنا نرجح أن أغلب التنظيمات العقيدية بجماهيرها ودعاتها ، قد هالها ضعف الخلافة ونهاويها ، فانصرفت الى تأييد الدعاة الفاطميين الذين انطلقوا من مدينة سلمية بالمغرب الى العالم الاسلامى كله . وكان لهم تنظيم منسق بالغ غاية العمق (١) يمهّدون الطريق لقيام الخلافة الفاطمية (٢) ، وذلك بسبب الانقسام الذى وضع فى صفوف البيت العباسى .

وقد لاحظت نذر هذا الانقسام منذ بداية الدولة العباسية ، منذ عهد السفاح أول الخلفاء ، ثم اشتدت فى عهد المأمون ومن تبعه . فالسفاح يولى أخاه المنصور العهد . ويعرض عن عبيه عبد الله وسليمان ابنى علي . ولم يرض عبد الله بن علي عن هذا . اذ كان يرى أنه واخوته قد أسهموا فى قيام الدولة وقاموا بالدور الأكبر ، فهو الذى قاد جيوشها حين التحمت الشحاما مباشرة بجيوش الأمويين . وأحرز لها النصر الحاسم فى موقعة الزاب ، ثم تولى مطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حتى ألجأه الى مصر ، وأرسل اليه صالح بن علي فقتل عليه فى بوسير بمصر ، ثم هم الذين وطدوا الأمر للدولة فى معقل الأمويين فى الشام ومصر . لذلك ثار عبد الله بن علي حين تولى المنصور الخلافة بعد أخيه السفاح ، اذ كان عهد الله يرى أنه أحق بالخلافة ، وادعى أن السفاح كان

(١) انظر : ظهر الاسلام ، ج ٤ ، ص ١٢٧ — ١٢١ .

(٢) جمال سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٨٣ — ٨٤ .

حسن ابراهيم وطه مشرفه : عبد الله المهدي ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

قد عهد اليه بولاية العهد من قبل (١) . وكان العباسيين أرادوا أن يمضوا بهذا الانقسام قدما ، فدرجوا على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد . فالسفاح يولى المنصور ثم عيسى بن موسى (٢) والمنصور يولى ولده المهدي ثم عيسى بن موسى (٣) . والمهدي يختار الهادي ثم هارون الرشيد (٤) . وهارون يولى الأمين والمأمون . وقد وضع الانقسام في موقف الهادي من هارون ، وفي موقف الأمين من المأمون . وقد أحس المأمون بما يتهدد البيت العباسي من خطر ، فعهد بالخلافة الى عباسي واحد هو المعتصم . ثم عاد الانقسام الى الظهور بصورة أشد قوة في هذا العصر الذي ندرسه فيما حدث منذ عهد المتوكل . وقد كان مركز الخليفة في العصر الأول من القوة بحيث كان قادرا على القضاء على كل انقسام ، اذ كانت العصبية الفارسية التي تسند الخلافة متساسة تؤمن بتقديس شخصية الخليفة ، أما في العصر الثاني فان الخلافة كانت تعتمد على العنصر التركي وهو عنصر يتأثر بطبيعته البدوية ويجري وراء مصالحه الخاصة ، ولا يرى للخليفة من الحرمة ما يراه له العنصر الفارسي المتحضر ، والذي أثر فيه ميل الخلافة الى العنصر التركي فاتجه الى تحقيق ميوله القومية غير معتمد على قوة الخلافة .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه البيت العباسي يفقد هذه الوحدة كان يفقد عنصرا آخر من عناصر القوة . فلقد كانت العصبية العربية تضعف وتتداعى ضعفا طبيعيا تلقائيا ، بسبب تفرق العرب في الأمصار ، واختلاط دمائهم بدماء الشعوب التي خضعت لنفوذهم ، ولاشتغال العصبية القبلية بينهم في كل مكان . وكان العباسيون أنفسهم قد عملوا على إهمال هذه العصبية العربية ، واضعاف ما بقي فيها من رمق . وقد وضحت المباشرة بين العباسيين وبين العنصر العربي منذ البداية الأولى :

(١) الطبري ، ج ٩ ، ص ١٥٦ .
(٢) نفسه ، ج ٩ ، ص ١٥٦ ، ٢٦٦ .
(٣) نفسه ، ج ٩ ، ص ٢٦٦ .
(٤) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٢ .

فهذا محمد بن على يرسل كتابا الى دعاة الدين وجههم الى المشرق لنشر الدعوة ، يحضهم فيه على ألا يعتمدوا على الجماعات العربية ، وأن يستمدوا قوتهم من مصادر أخرى • بل بلغ من موقفهم المعادى للعرب أن نصحوا أبا مسلم الخراساني بالتخلص ممن تحوم حوله شبهة مقاومة للدعوة • بل قيل ان ابراهيم الامام كتب الى أبى مسلم يأمره بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان (١) • فقد خاف العباسيون ألا يقبل عليهم العرب كما أقبلوا على بنى أمية من قبل، واذن فقد أودى العباسيون بذلك العنصر العربى ، الذى كان من الممكن أن يقف وراء الخلافة العباسية ، وأن يسندھا ويحميها فى أوقات الأزمات كما حمى الخلافة الأموية من قبل • وحين احتاجت الخلافة العباسية الى حماية هذا العنصر العربى كان الوقت قد فات : فلقد حاول العرب حماية الخلافة فى عهد المتقى ولكن لم يعد لهم من القوة ما يستطيعون به النهوض بهذا العبء (٢) •

ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فقدانها تأييد العرب ، قد تخبطت فى سياستها وتذبذبت ، فلم تعد تثق بأية قوة من القوى الموالية لها ، حتى قوة الموالى التى كان لها الفضل الأول فى قيام الدولة ، فقد خشيت أن تستبد بالأمر ، فعملت على تشتيت وحدتها • فقد اعتمدت على الخراسانيين فى انجاح الدعوة واقامة الدولة ، ثم ضربتهم بأن قتلت زعيمهم أبا مسلم الخراساني ، ثم استعانت بالفرس ولكنها ما لبثت أن ضربت الزعامة الفارسية حين نكبت البرامكة ثم بنى سها • فكأن الخلافة فقدت ثقة العرب ، ثم ثقة الخراسانيين ثم ثقة الفرس بعامة •

(١) الطبرى : ج ٧ ، ص ٤٢٢ •

(٢) الصولى : الراضى والمتقى • ص ٢٢٦ — ٢٤٧ •

ودفع خوف العباسيين على الخلافة وتوجسهم الشر دائما ، الى التماس عصبية جديدة ، قدر لها أن تلتهم ما بقى للخلافة من نفوذ ، فقد ضيقت الخلافة العرب والفرس لتستعين بالترك ، فاستبد الترك بالخلفاء واغتالوا سلطانهم • ثم استعانت بالديلم للتخلص من الترك ، فكان حالها مع الديلم كحالها مع الترك • وحين لجأت الى الترك السلاجقة بعد الديلم لم تقص الى شيء • فقد استمرت فى ضعفها ، وخضعت لتسلط كل هذه العصبيات الواحدة بعد الأخرى •

الفصل الثاني

ظهور العنصر التركي في العالم الاسلامى

فى العصر العباسى الثانى ظهر فى العالم الاسلامى عنصر جديد كبير بجانب العنصرين العظيمين - العرب والفرس - وهو عنصر الأتراك ، وكان له أثر كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية فى الأمة الاسلامية .

وقد عرف العرب الأتراك بعد فتح بلاد ما وراء النهر على يد قتيبة ابن مسلم الباهلى فى العصر الأموى ، وعرفوا فيهم عنصرا سحاربا من الطراز الأول . وقد نال الأتراك فى بلادهم حقوقا فى العصر الأموى لم تنل مثلها الشعوب التى خضعت للعرب فى الفتوح الأولى على عهد الراشدين . فقد أشركهم العرب فى الجندية ، وأشركوهم فى غزو ما وراءهم من بلاد الترك الكفار ، كما أبقوا على ملوكهم وعلى نظامهم فى الحكم . وكل ما فى الأمر أنهم يحالفون الدولة الاسلامية ، ويخضعون لولايتها الذين تكون لهم السلطة العليا ، والذين تؤيدهم حاميات عربية قوية فى المراكز الاستراتيجية .

غير أن هؤلاء الأتراك تسلموا الى الحياة الاسلامية . وأخذوا ينظرون على مسرح الأحداث فى بغداد ظهورا واضحا منذ عهد الخليفة المأمون . فقد رأى هذا الخليفة العرب يقفون خلف الأمين . كما لم يكن له أن يطمئن الى الفرس ، فقد رأى طموحهم الى السلطة بما رأى من نفوذ بنى سهل ، وبما علم من طموح أبى مسلم ومن نفوذ البرامكة من قبل . لذلك أحب أن يوجد نوعا من التوازن بين العنصرين الكبيرين - الفرس والعرب - فبدأ يستخدم المحاربين الأتراك ، وأنه كان على نطاق ضيق ، وأخذ يلحق فتيانهم الذين يرسلهم ولاية الأقاليم الشرقية للدولة بفرق الجيش .

وتلقف خلفاء المأمون هذه العصبية الجديدة النامية ، أرادوا أن يستغلوا مواهبها الحربية للحفاظ على دولتهم والابقاء على خلافتهم ، فكان أن أقبل المعتصم على استخدام الأتراك في الجيش على نطاق واسع . فقد استقدم سنة ٢٢٠ هـ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التي نسميها « تركستان » وما وراء النهر « اشترأهم وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية عشر ألفا » (١) . بل إن عددهم زاد كثيرا على مدى أيام المعتصم حتى باع سبعين ألفا (٢) ، وكانوا يتكلمون التركية ، فأخذوا يتعلمون العربية . وقد حرص المعتصم على أن تبقى دماؤهم متميزة ليحفظ لهم مميزاتهم الجنسية ، فجلب لهم نساء من جنسهم زوجهن بهم ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهن (٣) . ومن هنا بدأت تكون شيئا فشيئا عصبية جديدة في العالم الاسلامي الى جانب العصبيتين الكبيرتين وهما العصبية العربية والعصبية الفارسية . وكان المعتصم بعمله هذا هو موجد هذه العصبية الجديدة .

والذي حدا بالمعتصم الى الاتجاه نحو الأتراك أمور أهمها :

أن جيش الدولة الى عهد المعتصم كان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما العنصر الفارسي الخراساني ، والعنصر العربي . وكان الخراسانيون عماد الدولة نحو قرن ، منذ انشاء الدولة الى أيام المعتصم . كما كانوا حرس الخلفاء . وكان الى جانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب من مضر وربيعة واليمن ، لكن هؤلاء كانوا أقل حظوة وأصغر عددا . فقد ضعف شأن العرب منذ قيام الدولة العباسية ، إذ أنها اعتمدت منذ بدء الأمر على الخراسانيين ، وكان العرب يقاتلون في صفوف

(١) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٥٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ . ابن كثير ، ج ١٠ ، ص ٢٩٧ .
(٢) جمال سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٢٣ .
(٣) ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٥ .

الأمويين . ثم لما انتصرت الثورة العباسية أخذ شأن العرب يضعف ، وثقة الخلفاء بهم تقل على مر الأيام .

ثم ان ثقة المعتصم بالفرس بدأت تضعف ، اذ رأى أن كثيرا من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس ، تعصبا لأبناء المأمون الذي كانت أمه فارسية . فقد شغبوا على المعتصم . وطلبوا العباس ونادوه بالخلافة ، وكادت تقع فتنة لولا أن تداركها المعتصم بأن استدعى العباس الى حضرته ، فبايع نفسه وخرج الى الجند يزجرهم ويقول لهم « ما هذا الحب البارد ! ! » قد بايعت عمي ، وسلمت الخلافة اليه » (١) . وقد كان لهذه الحادثة أثر كبير على المعتصم دعاه الى التفكير العميق حتى لا تتكرر مثل هذه الحوادث ، وانتهى به التفكير الى أن يستعين بقوم غير العرب والفرس ، فهداه تفكيره الى الترك كما أن هذه الحادثة جعلت المعتصم والعباس لا يصفوا أحدهما للآخر ، فقد ظهر من قول العباس حين زجر الجند على حبهم البارد له . أنه لم يزجرهم على دعوته للخلافة ، وانما يزجرهم على شغب ليس له فاعليه . وظل الجو بين الرجلين جو حذر وتربص ، حتى انكشفت النيات في أثناء غزوة عمورية ، حيث دبرت مؤامرة لقتل المعتصم اشترك فيها العباس ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقبض المعتصم على العباس وسجنه ومنع عنه الماء حتى مات ، كما سجن أبناء المأمون كلهم حتى ماتوا في السجن ، وقتل كل من شارك في المؤامرة (٢) .

وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك ، وهو أن أمه كانت تركية من المصغد ، وقد شابه المعتصم أخواله في كثير من طباعه النفسية وصفاته الجسدية ، من القوة والشجاعة ، ومتانة الجسم والاعتداد بقوة الجسد (٣) فدعته العصبية التركيه والنشابه الخلقي والنفسي أن يفكر في استدعاء الأتراك ففعل .

-
- (١) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٠٤ ، ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٦١ .
 (٢) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٤٣ — ٢٤٨ .
 (٣) تاريخ الخلفاء : ص ١٣٣ ، ابن كثير : ج ١٠ ، ص ٢٩٦ .
 ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

استكثر المعتصم من الأتراك حتى امتلأت بهم بغداد ، وقد جاءوا
ومعهم صفاتهم الأصلية فيهم ، فقد كانوا في بلادهم يحيون حياة البداوة
والخشونة ، وهذه البداوة تكسبهم قوة في البدن ، ومرانا على الفروسية
والقتال ، كما تكسبهم خشونة في الطبع ، وقد تجلّى هذا في معاملتهم
للناس ، حتى آذوا أهل بغداد وضايقوهم ، فقد كانوا يجرون خيولهم
في أسواق بغداد وسككها في تهور ونزق فينالون الصبيان والضعفاء
بالأذى . فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة
أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير . ثم بلغ ضيق أهل بغداد بهم أن شكوا
إلى المعتصم وتهددوه بالدعاء عليه في صلاتهم حتى تخرج (١) ، ولم
ير بدا من اخراج الترك عن بغداد ، فارتاد مكانا وبني ايم مدينة خاصة
هي مدينة سامرا ، وجعل خططها قسمة بين طوائفهم ، وقطع القطاعات
لرؤسائهم (٢) وانتقل إليها هو مع جنده ، وبذلك انتقلت دار الخلافة من
بغداد إلى هذه المدينة الجديدة ، التي ما لبثت أن عظمت عمارتها
وكثر عمرانها ، وانتقل إليها طوائف من الصناع والتجار وجلبوا إلى
أسواقها ألوان الأمتعة لكل ما يحتاج إليه الناس . وكان لهذا أثر كبير
على بغداد من الناحية الاقتصادية والعمرانية على السواء ، ولذلك اشتد
كره أهل بغداد للأتراك ورأوا في مجيئهم شؤما عليهم سواء في حلهم
أو في ترحالهم ، فأخذوا يسبونهم ويهجون المعتصم ، وأخذ المحدثون
منهم يضعون الأحاديث في ذم الترك تعبيرا عن شعورهم وشعور الناس (٣) .

مكن المعتصم للأتراك في الأرض ، وقربهم إليه وخصهم بالنفوذ ،
فقلدهم قيادة الجيش ، وجعل لهم مركزا في مجال السياسة . وحرم
العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش ، ثم أسقط أسماءهم من الدواوين
وقطع أعطيائهم ، وكذلك أثر الترك على الفرس في كل شيء . ويبدو هذا

(١) النجوم الزاهرة : ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان (مادة تركستان) ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

(طبعة بيروت) .

واضحاً من ترتيب الجيش فى غزوة عمورية ، فقد كانت القيادة العليا لمعظم فرق الجيش فى يد الأتراك وعلى رأسهم أشناس (١) .

وقد أخذ نفوذ الأتراك يزداد شيئاً فشيئاً ، بما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم ، وبما تزاجوا وتناسلوا ، وبما أبدوا من بسالة فى الحروب ، وبتأييد الخلفاء لهم ، فقد جرى الواثق بن المعتصم على سياسة أبيه فى الاستكثار من الترك ورفع مكائدهم . ويقول السيوطى « ان الواثق استخلف سنة ٢٢٨ هـ على السلطنة أشناس التركى ، وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهرًا . وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً (٢) » وبذلك تقلد الأتراك مناصب هامة فى الدولة اضطر الى ابتداعها حتى يستميلوا اليهم قلوب هؤلاء الأتراك . ومنذ ذلك العهد أخذ التاريخ الاسلامى يصطبغ بالصبغة التركية ، وبعد أن كانت الأحداث تتصل فى العصر الأموى بأعلام العرب من أمثال الحجاج بن يوسف ، وزيد ابن أبيه ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وفى العصر العباسى الأول بأعلام الفرس من أمثال أبى مسلم الخراسانى ، والبرامكة وبنى سهل وعبد الله بن طاهر ، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس ، وإيتاخ وبغا الكبير ، وبغا الصغير ، وابن طولون ، والاششيد وغيرهم من الأتراك ، اذ صاروا هم القابضون على زمام الدولة والمتصرفون فى شئونها .

ومن ذلك التاريخ دخل نزاع العصبية عنصر جديد قوى ، فبعد أن كان النزاع بين العرب والفرس ، أصبح بين العرب والفرس والترك . وكان لكل جنس من هذه الأجناس طابعه الخاص الذى يحكم تصرفاته والذى ينعكس بالتالى على البلاد التى يحكمها .

فطابع العرب ميل الى البداوة والحكم القبلى ، واعتزاز بدمهم

(١) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٨٠ .

(٢) الخلفاء : ص ٣٥ .

ولاحتقار لغير جنسهم ، وزهو بسيوفهم ولسانهم ، ومع انطباعهم بالقلق والاضطراب وسرعة الثورة على الرؤساء الضعفاء ، الا أنهم أسرع ما يكونون قبولاً للتأقلم والمتحضر ، فاذا تحضروا انغمسوا في النعيم ، ومالوا الى خصب العيش وتأثقوا في المأكل والمشرب والملبس • وهم في أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء ، فاذا انغمسوا في النعيم وقعوا في سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم وبساطتهم • ومع ذلك فان الاسلام قد طبعهم بطابعه ونظمه وتربوا على شرائعه ، أو كان لهم الساسة الذين تربوا على هذا وربوهم عليه ، فاستطاعوا أن يبنوا الدول ويقيموا الملك على طاعة أولى الأمر منهم •

وكان طابع الفرس حب الفخفة والظهور ، وقد ورثوا مدنية قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع ، فطبعوا عليها بمحاسنها ومساوئها ، فلهم قدرة على تنظيم الحكم ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها ، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب وتهتز له ، وتميل الى العلم وتشجعه بالمعنى الواسع ، الذي يشمل الفلسفة بفروعها ، ولما كانت المذاهب الدينية قد كثرت عندهم ، فقد نقلوا ذلك الى الاسلام فكثرت مذاهبهم فيه • وقد أورثهم ضغط الدولة الأموية عليهم ميلاً كامناً الى الانتقام من العرب ، والأخذ بثأرهم منهم ولكن في هواة ولين • وعلمهم التشيع النقية ، فمكروا وعملوا في الخفاء ، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحياناً ، وبال دعوة المقتنعة بالعلم أحياناً أخرى ، وهم مع ذلك قد تربوا على تقديس ملوكهم والاعتراف بالحق الالهي لهم •

أما الترك فكان طابعهم حب الجندية والفروسية ، والاستكثار من جنسهم لتقوية حكمهم ، ثم كثرة الخلاف فيما بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد منهم كالبدو في تعصبهم للقبائل ، الا أن الأعراب كانوا يتعصبون للقبائل ، تعصبا للدم ، أما الترك فتعصبهم للقواد تعصبا للمنفعة وتحقيقا للمصالح المادية • وقد كان حبهم للمال عظيماً يأخذونه من الرعية في غير حكمة وأناة ونظر بعيد ، فبدل أن يعنوا بموارد الثروة

ينمونها من اصلاح أراض وتنظيم تجارة واستغلال ومنابع الثروة ، يجيلون أبصارهم فى الناس يتعرفون أصحاب الثروة ، فينتهزون الفرصة لمصادرتهم أو التتكيل بهم ، ثم ينفقون ما تصل اليه أيديهم فى الترف والنعيم ، فاذا فرغت أيديهم منه ثاروا على من لديه المال ، ولذلك فتاريخهم فى العراق سلسلة من مطالبات الخليفة بالمال • وهم يخضعون للقوة ، فلما كان الخلفاء أقوىاء كبجوا جماهم ، ولكن لما ضعفت الخلافة تسلطوا على الخلفاء وأرهمقوهم بطلب المال واعتدوا على أشخاصهم ، فليس للخليفة عندهم حرمة كما كان الحال عند العرب أو الفرس • ولذلك كان تاريخ الخلفاء فى عهدهم سلسلة من العزل والسجن • كذلك فعلوا بكل من له مال من الوزراء والكبراء والتجار^(١)

وبين هذه العصبيات الثلاث تقسمت المملكة الاسلامية ، ولأجلها وقعت الحروب وثارى الفتن ، فلقد كان لاصطناع المعتصم للأتراك آثار سياسية بعيدة المدى ، فقد ثار العنصر العربى ودبر المؤامرات ، وكان أبرزها مؤامرة عجيف بن عنبسة والعباس بن المأمون ، فان العباس بعد أن تخلى عن الخلافة بادية الأمر ، خضع لتحريض القائد العربى عجيف الذى ساءه شدة انحراف المعتصم الى الأتراك وتخطيه العرب ، فدبر مؤامرة لقتل المعتصم واستيلاء العباس على الحكم فى أثناء غزوة عمورية •

لكن المؤامرة فشلت وقتل مدبروها ، فاضعف هذا الحادث من نفوس العرب • كما أن المعتصم كتب لواليه على مصر يأمره باسقاط من فى ديوان الجيش من العرب وقطع أعطياتهم ، فلما فعل الوالى ثار العرب من لخم وجذام بقيادة يحيى بن الوزير الجروى ، الذى رأى أنه لا يوجد سبب يدعو الى الثورة أفضل من هذا السبب « لأنه منعنا حقنا وفيأنا » ولكنه هزم وتفرق عنه أصحابه وأسر ، فانقرضت دولة العرب من مصر ، وصار جندها الموالى من عهد المعتصم ، الى أن ولى أحمد بن طولون

(١) انظر : ظهر الاسلام ، ج ٢ ، ص ٦١ — ٦٣ •

التركي ، فاستكثر من العبيد ، وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف غلام تركي ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق (١) .

وفي أيام الواثق ثار العرب في الجزيرة العربية ، فنكل بهم قواد الأتراك وكان على رأس الجيش بغا الكبير الذي أذل أسرى العرب وجلدهم بالسياط ، وعاد معه الأسرى من بنى سليم وبنى مرة وبنى النمر في الأغلال . وكذلك ثارت القبسة بدمشق وقاتلوا جيوش الخلافة ولكنهم هزموا (٢) .

وكل هذا أثر في نفوس العرب ، وحملهم على الانصراف عن تأييد العباسيين . ولم يكن للعرب من القوة ما يستطيعون بهم استعادة سلطانهم ، فقد سادتهم روح التفرق ، ولم يستطيعوا أن يوحّدوا صفوفهم للدفاع عن القضية التي يدافعون عنها . ولم يكن هذا في مصلحة الخلافة العباسية نفسها ، إذ أنه حين استبد الأتراك بالخلفاء ، لم تجد الخلافة سنداً قوياً من هذا العنصر العربي الذي كانت بذاتها تنتمي إليه ، والذي كان من الممكن أن يقف وراءها يشد أزرها .

وكما كان علو شأن الترك على حساب العنصر العربي ، كذلك كان على حساب العنصر الفارسي . فلقد كان الفرس في العصر العباسي الأول هم عماد الدولة وييدهم تصريف أمورها ، ولقد كانت الخلافة تعتمد عليهم في أهم الأمور ، وكانوا هم من جانبهم يحتفظون للخليفة بمظهر الأبهة والجلال ، ثم ينشرون نفوذهم تحت ظل الخلافة وسلطانها ، فإذا أحس منهم الخلفاء اسرافاً في الطسوح أوقعوا بهم ، ولكنهم سرعان ما كانوا يستردون نفوذهم ، فلما جاء الأتراك أقصوهم عن منزلتهم هذه وغلبوا على الخليفة دونهم فحقق الفرس ولعبت بهم العصبية الفارسية ،

أنفسهم بالمال والرجال بعيدا عن المركز ، ويرمون الى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها — وخصوصا بلادهم الفارسية — والاستقلال بها عن خلفاء بغداد ، فاذا سنحت لهم فرصة بعد غلبتولوا على العراق ولينسلطوا على الخليفة نفسه ويقضوا على سلطة الأتراك •

ولقد اشتدت العصبية بين الفرس والترك ، كل يريد الغلبة لنفسه • ويريد القضاء على صاحبه • وكانت بغداد نفسها في كثير من الأوقات مسرحا للقتال بين الديلمة الفرس وبين الأتراك • وقد نجح الفرس الى حد كبير في اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها ، وتأسيس دول لهم بها مستقلة عن الخلافة من الناحية الداخلية ، وان كانت تخضع للخلافة من الناحية الاسمية ، وقد وصلوا الى العراق نفسه آخر الأمر على يد بنى بويه ، وأخضعوا الخليفة لأمرهم ، وأزالوا ولاية الترك عليه ، وأقاموا سلطانهم فكان شأن الخليفة معهم شأنه مع الترك قبلهم ، اذ كانت هيئة الخلافة قد زالت من النفوس قبل مجيئهم ، ولكنهم مع ذلك كانوا أخف على الخلفاء من الترك فلم يشهد عصرهم مقاتل الخلفاء كما كان في عهد تسلط الأتراك •

الفصل الثالث

عصر نفوذ الأتراك في العراق

انتقلت عاصمة الخلافة من بغداد الى سامرا بعد أن بناها المعتصم وأقطع القطائع فيها لجنده الأتراك ، وظلت سامرا عاصمة الدولة ما يقرب من خمسين سنة ، تحولت في خلالها الى مدينة عظيمة عامرة بالقصور والحدائق ، وأصبحت مقرا للعصبة التركية الجديدة ، ومنذ ذلك الوقت أخذت تبرز في حياة الدولة العباسية شخصيات تركية كان لها أثر كبير في الحياة العامة ، واستطاعت السيطرة على مقاليد الأمور في عهد المعتصم وما تلاه من الخلفاء ، ومن أبرز هذه الشخصيات في عهد المعتصم إيتاخ وأشناس ووصيف وسيما الدمشقي ، وكان هؤلاء غلمانا من الترك كانوا مماليك لبعض الأشخاص ، فاشتراهم المعتصم وقربهم اليه ورفع من أقدارهم حتى حجبهم جماعة منهم وصيف وسيما الدمشقي (١) ، وعلى رأس هؤلاء الأتراك المقربين جميعا حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ، وهذا اللقب كان يلقب به ملوك أشروسنة - وهي كورة من بلاد ما وراء النهر عاصمتها مدينة بنجكت - وكان والد حيدر ملك هذه الكورة . وقد رحل حيدر الى بغداد على أثر خلاف وقع بينه وبين أبيه في عهد المأمون ، وسهل على الخليفة غزو أشروسنة ، فوجه المأمون اليها جيشا فتحها ، ثم ملكه المأمون بعد أبيه (٢) . وقد قرب المعتصم الأفشين وجعله من كبار قواده .

وقد خدم الأتراك الدولة في عهد المعتصم وابنه الواثق ، وكانوا سندها في حروبها وفي القضاء على الثورات التي نشبت في أجزائها ، فهم كانوا عماد الجيش في غزوة عمورية ، واليهم يرجع الفضل في الانتصار

(١) اليعقوبي : ج ٣ ، ص ٢٠٤ .
(٢) البلاذري : ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .

الذى حققه المعتصم على الروم فى هذه الغزوة . كما استطاع الأفشين القضاء على ثورة بابك الخرمى الذى استفحل أمره ، وعجزت جيوش الخلافة عن قهره فى أيام المأمون ، وأصبح يشكل تهديدا خطيرا للخلافة العباسية . فحاربه الأفشين سنتين حتى استطاع آخر الأمر أن يقهره وأن يحصله أسيرا الى سامرا . وقد رفع هذا الحادث من مقام الأفشين عند المعتصم الذى خلع عليه ورفع منزلته ، ويقول المسعودي « وتوج المعتصم الأفشين بتاج من الذهب المرصع بالجواهر ، واكامل ليس فيه من الجواهر الا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب . ولبس وشاحين » (١) وقد كان الأفشين أحد قواد الفرق الثلاث فى جيش المعتصم فى غزوة عمورية ، وزاد اعتماد المعتصم عليه بعد مؤامرة عجيف والعباس . كما أحمى الأتراك ثورات العرب فى الجزيرة العربية . وبهذه الأعمال كلها قوى نفوذهم وزاد سلطانهم ، فأحاطوا بالخليفة وكان منهم بطلانته وحرسه وحجابه .

بدأ يتكون للأتراك طموح خاص ، وبدأ بعضهم يتجه لتكوين دولة خاصة يحكمها ، سواء تحت ظل الخلافة أو منفصلا عنها ، كما طمح بعضهم الى الاستئثار الكامل بشئون الحكم فى عاصمة الدولة . وأظهر مثل ذلك ما فعله الأفشين فانه أخذ يرسل الهدايا وما يتجمع لديه من الأموال الى أشروسنة ، كما بدأ يتصل بأصحاب الطموح الذين يريدون الخروج على الدولة ، ويرتب الأمر معهم ، فقد اتصل بالمازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان وحرضه على الخروج ، وقد أقر المازيار حين هزم وقبض عليه بهذا على الأفشين « بأنه بعثه الى الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » (٢) وقد حوكم الأفشين وأدين ، فحبسه المعتصم حتى مات فى السجن ثم صلب جسده (٣) .

(١) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٥٩ (طبعة ١٩٤٨) .

(٢) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٦١ .

(٣) الطبرى : ج ١٠ ، ص ٣٦٣ — ٣٦٧ .

ولقد أحس المعتصم بخطورة مطامع الأتراك ، وبدأ يدرك أن التوازن بين سلطة الخلافة وهذا العنصر الجديد بدأ يختل مما ينذر بخطر ضياع هيبة الخلافة وفعاليتها ، ولهذا وجه إلى الأتراك ضربة شبيهة بالضربة التي وجهها أبو جعفر المنصور للخراسانيين بقتل أبي مسلم ، فبطش المعتصم بالأفشين ليكون عبرة لغيره ، وليوقف تيار هذا الطموح .

وقد أثر حادث خيانة الأفشين في نفس المعتصم تأثيرا كبيرا ، ويظهر لنا من هذه الحادثة التي رواها الطبري بين المعتصم وأبي الحسين اسحاق ابن إبراهيم وإلى بغداد منذ عهد المأمون ، مدى برم المعتصم بالأتراك وندمه على منحهم سلطات واسعة في دولته ، ومقارنة خدمة الفرس للخلفاء من قبله وخدمة الترك له ، ومدحه الأولى وذمه الثانية « قال المعتصم : فطرت إلى أخى المأمون ، وقد اصطنع أربعة انجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! » قال اسحاق : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسيمعت . وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله . وأنت ، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبدا . وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ . وأما أنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت ما صار أمره ، وأشناس ففشل أى فشل . وايتاخ . فلا شئ . ووصيف . فلا معنى فيه . . . قال اسحاق : يا أمير المؤمنين . نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعا . واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها ! . قال : يا اسحاق . لمقاساة ما مربى في طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب « (١) » .

لكن المعتصم برغم ذلك لم يتخل عن سياسته في الاعتماد على الأتراك ، ويبدو أنه لم يكن في استطاعته غير ذلك ، فقد أصبح الأتراك قوة كبيرة ليس من السهل التخلص منها ، ولم يكن من الممكن الاعتماد على العرب والفرس بعد أن فسد الأمر بينهم وبين الخلافة ، بهذه

(١) الطبري : ج ١١ ، ص ٨ .

الثورات التي قام بها العرب وقاومتها الدولة بعنف وقسوة • وبعد أن أسقط المعتصم العرب من ديوان الجيش • وبعد ثورة بابك الخرمي التي كانت ثورة فارسية بكل امكانياتها • وبعد اقضاء هاتين العصبيتين والاعتماد على العصبية التركية التي تركزت في العاصمة الجديدة وأحاطت بالخليفة ونالت أكبر المناصب في الدولة •

وتعتبر خلافة الواثق بن المعتصم (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) فترة انتقال بين عهدين : الأول منهما هو عهد تمكن الأتراك مع بقاء هبة الخليفة • والثاني ويبتدىء بالخليفة المتوكل ، وهو عهد تمكن الأتراك مع زوال هبة الخليفة وانحدار مكائمه •

ويمتاز عهد الواثق بأن المماليك الأتراك الذين اصطنعهم المعتصم تمكنوا من توطيد نفوذهم وتثبيت أقدامهم ، ونال رؤسائهم منزلة عظيمة ونفوذاً كبيراً ، وبلغ من نفوذهم أن الواثق استخلف أشناس على السلطنة ، فكان بذلك أول خليفة استخلف سلطاناً (١) وأسند إليه أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر • كما عهد الى ايتاخ بولاية خراسان والسند وكور دجلة (٢) ، وظل هذا القائد يتقدم في منزلته حتى اذا كان عهد المتوكل كان قد بلغ ذروة منزلته ، فكان اليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبربر ، والحجابة ودار الخلافة (٣) وبذلك ازداد النفوذ التركي داخل العراق وخارجه •

وقد عمل هؤلاء القواد الأتراك على تمكين سلطانهم على الخليفة نفسه اعتقاداً منهم أنه مصدر السلطان ، فأحاطوا به ، ولم يرغب واحد منهم في مفارقة سامرا حتى يضمن لنفسه الاحتفاظ بنفوذهم فيها ، وليظل قريباً من الأحداث يراقبها ، ويشترك في المنافسات السياسية للوصول الى أقرب منزلة من الخليفة ، أو ليحقق لنفسه مآرب شخصية ، ولذلك

(١) الخلفاء : ص ١٣٥ •

(٢) اليعقوبي : ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٥ •

(٣) المايرى : ج ١ ، ص ٣٣ •

لم يذهب واحد منهم فى ولايته ، بل كانوا ينسبون عنهم عمالا من قبلهم ، فأنا ب أشناس عنه فى أعمال غرب الدولة محمد بن ابراهيم بن الأغلب ، وأنا ب ايتاخ عنه فى ولاية خراسان عنبسة بن اسحاق الضبى (١) . فاستقنوا . بذلك سنة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وكان هذا وبالا على الخلافة ، فان كثيرا من هؤلاء الوكلاء طمعوا فى ولاياتهم واستقلوا بها ، منتهزين ضعف السلطة المركزية ، وعدم معرفة الخليفة بمجريات الأمور فى الولايات . فالخليفة مطمئن الى من ولاه من الأتراك ، وهذا الوالى لم يبرح العراق ، بل هو يحرص على البقاء ليحتفظ بنفوذه لدى الخليفة ، ويعيش عاملا لنفسه سادرا فى حياة اللهو والمجون ، لا يعلم شيئا عما يجرى فى ولايته ، فكان طبيعيا أن يستقل الوكلاء بالولايات فيما بعد (٢) .

وكان لازدياد نفوذ الأتراك وبقائهم فى سامرا على هذه الصورة أثره المباشر على منصب الخلافة نفسه ، فقد أصبحوا يتدخلون فى اختيار الخلفاء وتولييتهم ، فأخذوا بذلك صفة أهل الحل والعقد ، بل صاروا فعلا هم أصحاب الحل والعقد .

وكان الخليفة الواثق هو آخر الخلفاء الذى جرت توليته على السنة التى كانت متبعة من قبل . ثم مات الواثق ولم يعين وليا للعهد من بعده . وهنا برزت القوة التركية الجديدة بنفوذها ، وكانت قد وصلت الى حد كبير فى التقدم ، ولكن تقدمها لم يكن فى نطاق الخلافة والطاعة لها كما كان الحال فى تقدم العناصر الايرانية ، وانما كان على حساب هيبتها ، ووقع الصراع بين قوتين رئيسيتين : قوة القديم برجاله مثاين فى كبار رجال الدولة من أبناء البيت العباسى ، والوزير وكبير القضاة ، وهم أصحاب الحل والعقد فى بيعة الخليفة على ما كان متبعا فى العصر العباسى الأول ، وبين قوة الأتراك الفنية التى تعمل على تثبيت سلطانها . وكانت القوة الأولى راغبة فى مبايعة محمد بن الواثق ، وكانت القوة الثانية

(١) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢) محمد توفيق خفاجى : ص ٢٥ .

ترشح جعفر بن المعتصم • وقد كان الموقف فى صالح الأتراك اذ أن محمد بن الواثق كان صبيًا لا يستطيع الاضطلاع بمهام الخلافة ، لذلك عارض قواد الأتراك ترشيحه بشدة ، وتولى لواء المعارضة وصيف التركى وأبدى وجهة نظر مقبولة وهى أن محمدا لا يصلح للخلافة لصغر سنه^(١)، وحين قبل هذا رأى أعلن الأتراك ترشيحهم لجعفر وسارعوا ببيعته « فكان أول من بايعه سيما التراكى المعروف بالدمشقى ، ووصيف التركى • وبذلك أسند اليه منصب الخلافة ، وأمر باعطاء الجند لثمانية أشهر »^(٢) • ولقب بالمتوكل • وكان لنجاح الأتراك فى تولية هذا الخليفة أثر كبير فى تولية من جاءوا بعده من الخلفاء ، وأصبح سابقة جرت عليها الأمور من بعد ، اذ أصبح قواد الأتراك هم أهل الحل والعقد ، أو هم أهم أهل الحل والعقد ، لأنهم الخلافة لأحد الا بموافقتهم ورضاهم • وبذلك أحكم الأتراك قبضتهم على شئون الخلافة ، وأصبحت الأمور تصرف بإرادتهم •

وكان لنفوذ قواد الأتراك على هذه الصورة أيضا أثر كبير على منصب الوزارة ، اذ ضعفت الى جانبهم شخصيات الوزراء ، فكثرت عزل الوزراء ومصادرتهم وحبسهم ، واستتبع ذلك انحطاط شخصيات الوزراء أنفسهم اذ لجأ كثيرون الى الرشوة وبذل المال للوصول الى منصب الوزارة ، وبذلك تقلد الوزارة شخصيات كان همها الوصول الى المنصب ، ثم جسع المال لتعويض ما أنفقوا ، وبذلك ضاعت هبة الوزير وتناقصت قيمته شيئا فشيئا حتى لم يصبح آخر الأمر الا مجرد كاتب للخليفة ، وأصبحت حقيقة السلطان فى يد القواد •

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركى فى سهولة ويسر ، بل صارعوه بمصارعة شديدة ، لكن لم يكن لديهم من القوة ما يستطيعون به صد هذه القوة التركية النامية ، فقد كانت سامرا عاصمة الخلافة قاعدة

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٦ •

(٢) اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٠٨ • ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٢ •

للفوز التركي • ولم يستطع الخلفاء التغلب على الأتراك إلا بعد أن عادوا الى بغداد ، فاستعانوا بالعناصر الأخرى الموجودة فيها ، والا بعد أن ظهر في الأفق قوة جديدة أخرى هي قوة الديلم التي بدأت تصل الى العراق ، وتشارك في الأحداث • وما زالت تنمو حتى استطاعت آخر الأمر أن تقهر النفوذ التركي وتحتل مكانه •

وخلفاء هذا العصر الذي نسميه « عصر نفوذ الأتراك » هم : المتوكل (٢٣٢-٢٤٧ هـ) والمنتصر (٢٤٧-٢٤٨ هـ) والمستعين (٢٤٨-٢٥٢ هـ) والمعز (٢٥٢-٢٥٥ هـ) والمهتدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) والمعتمد (٢٥٦-٢٧٩ هـ) والمعتضد (٢٧٩-٢٨٩ هـ) والمكتفي (٢٨٩-٢٩٥ هـ) والمقتدر (٢٩٥-٣٢٠ هـ) والقاهر (٣٢٠-٣٢٢ هـ) والراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ) والمتقي (٣٢٩-٣٣٣ هـ) والمستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ) •

وعهد الخلفاء الخمسة الأوائل منهم كان عهد التفوق التركي على الخلفاء • وكان عهد الثلاثة الذين جاءوا بعدهم عهدا انتعشت فيه الخلافة واستطاعت أن تسترد نفوذها • ثم عادت الى الانتكاس مرة أخرى في عهد المقتدر والقاهر اللذين كثرت في عهديهما الفتن والدسائس ، وتناقصت موارد الدولة المالية ، حتى عجزت الخلافة عن تسير دفة الأمور ، حتى اذا جاء عهد الراضي ظهر منصب أمير الأمراء ، الذي انتقلت اليه كل سلطات الخليفة وكل اختصاصات الوزير ، ولم يبق للخليفة من منصب الخلافة إلا الاسم ، وقنع بأن يخطب اليه على المنابر وتضرب السكة باسمه ، ولم تستطع الخلافة استرداد سلطانها بعد ذلك ، فقد انتهى عصر الأتراك حين حل محلهم الديلم فورثوا سلطة أمير الأمراء في عهد بني بويه ، ثم تلاهم السلاجقة فحكموا باسم الخلافة •

عهد تفوق الأتراك :

تولى المتوكل الخلافة بقوة النفوذ التركي ، وقد كان يبغض الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ويحقد عليه ، لأنه كان آهاه في عهد أخيه

الوائق ثم زاد حقه عليه لأن الوزير كان من الحزب الراغب فى تولية محمد بن الواثق ، وبذلك عهد المتوكل الى ايتاخ التركى باعتقاله فاستدرجه هذا وحبسه وصادر أمواله • ثم عذبه وقتله (١) • وقوى مركز ايتاخ عند الخليفة ، فعهد اليه بكثير من المناصب • فاليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة (٢) •

الا أن المتوكل ما لبث أن أدرك حقيقة الأتراك ، ولمس منهم الاستبداد بشئون الخلافة ، وأحس منهم قلة الاحترام لشخصه ، فاقعد خرج مرة متنزها الى ناحية القباطول ، وشرب وعربد على ايتاخ ، فهم ايتاخ بقتله ، فلما أصبح أخبر المتوكل بذلك ، فاعتذر الى ايتاخ ، وقال له :

« أنت أبى وربيتنى » (٣) ولقد أثر هذا الحادث فى نفس المتوكل وأحس منه بالمهانة ، لذلك دبر مكيدة أبعد بها ايتاخ عن سامرا ، ثم أسند الحجابة بعده الى وصيف ، ثم استدرج ايتاخ وحبسه وقتله (٤) • ثم أتبع المتوكل بطشته بايتاخ بتقرير ولاية العهد من بعده ، ولعله قصد أن يبعد الأتراك عن التدخل فى اختيار الخلفاء ، فعقد البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد ، وهم محمد ولقبه المنتصر بالله ، وأبو عبد الله محمد ولقبه المعتز بالله ، وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله ، وعقد لكل واحد منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل • وقسم ادارة الدولة بينهم متبعا فى ذلك التقسيم الذى جرت عليه الخلافة العباسية منذ عهد المهدي • وكانت العادة أن يعهد بالمغرب لولى العهد الأول ، وأن يعهد بالمشرق لولى العهد الثانى • فأعاد المتوكل تقاليد الخلافة القديمة • فأما المنتصر فولاه المغرب كله ، وأما المعتز فولاه المشرق كله ، وأما المؤيد فأقطعه جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين •

(١) ابن الأثير : ١٣ ، ١٤ •

(٢) ابن الأثير : ١٣ ، ١٤ •

(٣) ابن الأثير : ١٣ ، ١٤ •

(٤) ابن الأثير : ١٣ ، ١٤ •

نم أضاف للمعتز فى سنة ٢٤٠ هـ خزن الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب وأمر أن يضرب اسمه على الدراهم (١) وبذلك حرم المتوكل الأتراك مما كان فى أيديهم من الولايات والمناصب الكبيرة . ولذلك اشتد حقدهم عليه ، فأشاعوا الاضطراب ، وأصبحوا مصدر قلق ، فهم فوق كرههم للعرب والفرس ، ليسوا على وفاق فيما بينهم ، وكل فريق منهم يتعصب لقائد من قوادهم ، وأصبحت لذلك مؤامراتهم ودسائسهم لا تنقطع ، وأصبح همهم جمع المال بكل سبيل .

أحس المتوكل بالضيق من هذا الجو الخائق الذى يشيره الأتراك ، وأحس ببعدهم له وتربصهم به ، فكان عليه أن يفكر فى وسيلة يتخلص بها منهم ويعيد أمور الدولة سيرتها الأولى . ولما كان وجوده فى سامرا يجعله فى قبضتهم ، فقد فكر فى نقل العاصمة من العراق الى دمشق لعله يجد فى الشام من العنصر العربى ما يقف به فى وجه هذا العنصر التركى . لكن العلاقات بين العباسيين وبين أهل الشام لم تكن طيبة منذ قيام الدولة العباسية ، وزادها سوءا ما حدث فى أيام المعتصم حين ثار المبرقع اليمانى ، وثار أهل دمشق ، فعصفت بهم الدولة . فلم يستطع المتوكل لذلك تحقيق غايته بين أظهرهم ، بل شغب عليه جند الشام « فاجتمعوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمى بالنشاب » (٢) واضطر الى العودة الى سامرا بعد أن قضى بالشام نحو ثلاثة أشهر .

وقد بلغ العداء بين المتوكل والأتراك حدا لا يبد معه من أن يتخلص أحدهما من الآخر . فأما المتوكل فقد عزم على أن يتخلص نهائيا من الأتراك ، ولكن ابنه المنتصر كان يشايعهم ، وقد كان ينقم على أبيه قسوته على العلويين ، وذمه لعلى بن أبى طالب ، وهدمه قبر الحسين وتكليه بالشيعة ، وكان المنتصر يعطف على الشيعة ويرى فى العلويين

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

قراية يجب ألا تنتهك حرمتها ، وبسبب هذا التعارض فى رأى والميول فسد اسجوا بين الولد وأبيه ، فعزم المتوكل على اجراء تغيير فى ولاية العهد بتقديم المعتز على المنتصر فى ولاية العهد . لكل ذلك انضم المنتصر الى الأتراك وشبايعهم على أبيه ، فقر رأى المتوكل على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوهم^(١) . وعزم الحزب الآخر على الفتك بالمتوكل والتخلص منه .

كان ذلك مفترق طريق فى حياة الخلافة العباسية . فان نجح المتوكل زالت دولة الأتراك ، وعادت غلبة الفرس ، واستأنفت الخلافة سبيلها الأولى ، وان نجحوا هم تدعم سلطان الأتراك وضاعت هيبة الخلافة . وشاء القدر أن ينجح الأتراك ، فقد سبقوا المتوكل بتدبيرهم ، فباغته جماعة منهم على رأسهم بغا الصغير وباغر حارس الخليفة وهو الذى تولى قتله ، ثم قتلوا وزيره الفتح بن خاقان . ثم أقبلوا الى ابنه المنتصر وبايعوه بالخلافة ، وأخذوا له البيعة من وجوه الدولة ومن بقية القواد ، كما أحضروا أخويه المعتز والمؤيد فأجبروهما على مبايعته ، واستعملوا العنف مع الغاضبين من الناس^(٢) .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فلم يقتل خليفة منهم من قبل الا الأمين الذى قتل بعد هزيمته فى الحرب . ولم يكن قتل الخليفة اعتداء على المتوكل وحده ، بل كان قتلا لسلطان كل خليفة بعده ، ولم يكن قتلا بيد باغر التركى وحده وانما كان بيد الأتراك . وكان فى قتله تثبيت لسلطان الأتراك ونفوذهم ، وانذار للبيت العباسى كله أنه من أراد أن يلى الخلافة فليذعن اذعانا تاما لرغبة الأتراك أو فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كان مصرع المتوكل مصرعا لسلطان الخلافة ومجدا للأتراك

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٦٣ .
(٢) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٣١ — ٣٦ .

فلم يعد للخليفة معهم شيء الا مظهر اسمى اقتصر على السكة والخطبة
« وصار يضرب ذلك مثلا لمن له ظاهر الأمر ، وليس له من باطنه شيء ،
فيقال : « قنع فلان من الأمر بالسكة والخطبة ، يعنى قنع بالاسم دون
الحقيقة » (١) .

وتألم الناصر لما وصلت اليه الخلافة ، وعبر الشعراء عن هذا
الألم ، فبكوا المتوكل ، وبكوا معه مكانة الخلافة وحرمتها ، وتحسروا
على عهد الفرس الذين كانوا يحفظون للخليفة بأبته وعظمته ، ويعملون
ما عملوا في ظل خدمته ، وكان الناس يرون في الخلافة مجد الأمة وعز
الاسلام (٢) .

كان طبيعيا أن يكون المنتصر خاضعا لنفوذ الأتراك ، ألم ير كيف
قتلوا أباه ، واستخلف هو تحت ظلال سيوفهم ، فأنى له القوة التى يقف
بها فى وجوههم ، وبخاصة بعد أن أسلم لهم يده وقبل منهم ما فعلوه
بأبيه ؟ !

بلغ سلطان الأتراك ذروته فلم يكن أحد يستطيع الإجتراء على
معارضتهم ، وكانوا هم يحرصون على تثبيت سلطانهم على الخلافة ،
فيقصون عنها من يرون فيه احتمال معارضتهم . وقد خشوا من المعتز
والمؤيد ابنى المتوكل لو ولى أحدهما الخلافة بعد المنتصر . لذلك أمروا
المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد ، حتى يحولوا بينهما وبين الوصول
الى منصب الخلافة ، وحتى يتركوا لأنفسهم الحرية فى اختيار من يرون
مصلحتهم فى استخلافه ، ولم يملك المنتصر أن يعترض ، فأذعن للأمر
وهو كاره وخلع أخويه ، ولكى يظهر سخطه ويعتذر عن عمله دعا أخويه
والأتراك وقوف . وقال : أثريانى خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر
ولدى وأبايع له ؟ . والله ما طمعت فى ذلك ساعة قط ، واذا لم يكن

(١) الفخرى : ص ٣٨ . ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ١١ .

(٢) انظر ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ١٢ — ١٩ .

فى ذلك طمع ، فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الى من أن يليها بنو عمى .
ولكن هؤلاء — وأوما الى سائر الموالى (يريد الأتراك) ممن هو قائم
عنده وقاعد — ألحوا على فى خلعتكما فخفضت ان لم أفعل أن يعترضكما
بعضهم بحديدة فيأتى عليكما « (١) » .

وهكذا أدرك المنتصر أنه لم يعد له من الأمر شيء ، وانه حين مالا
الأتراك على أيه انما مالأهم على قتل سلطان الخلافة نفسها . فاشتد كرهه
للأتراك ، وعزم على التخلص من زعمائهم ، وكان كثيرا ما يبدى تبرمه
بهم وينغضه لهم ، وعزمه على قتلهم حتى كان يسميهم « قتل الخلفاء »
ويسبهم فى مجالسه ، ويقول لجلسائه « قتلنى الله ان لم أقتلهم » ولكن
هذا الجهر بالعداء لهم نبههم اليه فتخلصوا منه ، يقول المسعودى
ان الطيفورى الطيب سمه فى مشرط حجه به ، وقد كان عزم على
تفريق جمع الأتراك فأخرج وصيفا فى جمع كثير الى غزاة الصائفة
بطرسوس . ونظر يوما الى بغا الصغير — وقد أقبل فى القصر وحوله
جماعة من الأتراك — فأقبل على الفضل بن المأمون ، فقال : قتلنى الله
ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله . فلما نظر الأتراك
الى ما يفعل بهم ، وما قد عزم عليه ، وجدوا منه فرصة (٢) « .

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر تعاهد الأتراك على توحيد
كلمتهم ، فاستحلفوا القواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن
يرضوا بما يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش — وجميعهم أتراك —
وكانهم بذلك قد جعلوا من أنفسهم أهل الحل والعقد فى اختيار الخليفة .
ولم يرض هؤلاء أن يتولى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلا يغتصبهم ،
وأجمعوا على اختيار أحمد بن محمد المعتصم ولقبوه المستعين ، وأخذوا
له البيعة من سائر الناس . وأحاطوا بالخليفة الذى وكل نفسه وأمر

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٣٨ ، ٣٩ . الطبرى : ج ١١ ، ص ٧٦ .

(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(م ٢٢٢ — العصر العباسى)

دولته اليهم ، فقد استكتب أحمد بن الخصيب وعقد أتامش على مصر والمغرب واتخذ وزيراً ، كما جعل شاهات الخادم على داره وكراعه وحرمه وحراسه وخاص أموره ، وقدمه وأتامش على سائر الناس (١) . وهكذا جعل الأتراك من أنفسهم وحدهم أهل الحل والعقد ، واستولوا على أكبر المناصب ، فصارَت الدولة بكليتها في أيديهم .

ولم ترض الأطراف الأخرى في سامرا بهذا العمل ، فنشبت الثورة وفادى فريق من الناس باسم المعتز (٢) ، وتكاثر العامة والأتراك ، وظلت الحرب سجّالا في الشوارع واستباح كل من الفريقين دم الآخر ، لكن الأمر انتهى بتغلب الأتراك .

وكذلك هاج الناس في بغداد لما رأوا من استبداد الأتراك . وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه دون الرجوع منهم إلى ديانة ، ولا نظر إلى مصالح المسلمين « فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير » (٣) ولكن الأتراك هزموهم بعد معركة كبيرة سقط فيها كثير من القتلى من الجانبين .

وهكذا بدأ عهد المستعين بالاضطراب والتطاحن على السلطة . لكن الأتراك لم تدم وحدتهم ، فانهم بعد أن انتصروا انشقوا على أنفسهم ، وبدأ يتكون من بينهم أحزاب متناحرة على الاستئثار بالنفوذ .

وقد وجد الخليفة فرسته في الخلافات التي نشأت بين الأتراك للتخلص من زعمائهم شيئا فشيئا . وبدأ فنفي أحمد بن الخصيب إلى أقریطش واستنصفى أمواله . ثم قتل أتامش حين تأمر عليه وصيف وبغا وأغريا به الموالي لاستئثاره بالأموال دونهم (٤) . ثم ما لبث الخلاف

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤١ .

(٢) الطبري : ج ١١ ، ص ٨٢ .

(٣) الطبري : ج ١١ ، ص ٨٥ .

(٤) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٢ .

أن استشرى بين باغر وبين وصيف وبغا • فقد أراد باغر أن يستولى على السلطة وجمع حوله الأنصار • فاتفق الآخرون على التخلص منه • وأحسن هو بتأمرهما مع الخليفة عليه فعمل بدوره على التخلص منهما ومن المستعين • واستغل الخليفة هذا الخلاف فاتفق مع بغا ووصيف • وانهى الأمر باستدراج باغر وقتله (١) وثار لباجر أصحابه وهاجموا مقر الخليفة ونشب القتال •

وأدرك الخليفة أنه طالما بقي في سامرا فلن يستطيع حسم الموقف لصالح الخلافة • فهرب إلى بغداد حتى يستعين بمن فيها من العرب والفرس •

على أن لجوء الخليفة لحماية أهل بغداد جعل الأمر ماثرا للاحتكاك العنصرى بين الأتراك من جهة وبين العرب والفرس من جهة أخرى • فقد كان انتقال الخليفة من سامرا إلى بغداد بمثابة فرصة جديدة استغلها الفرس والعرب لكي يثبتوا جدارتهم مرة أخرى في تولى أمور الدولة • وكان في الوقت نفسه فرصة لأهل بغداد أن تعود مدينتهم دارا للخلافة فيعود إليها مجدها وانتعاشها القديم •

وأدرك الأتراك في سامرا أن وجود الخليفة في هذه المدينة ضرورى لكي يكسبهم الهيبة ، ويجعل سلطتهم أكثر شرعية وثباتا • لذلك حاولوا ترضى الخليفة ، فأرسلوا إليه وفد هم يعتذرون ويسألونه الصفح • وبعد مناقشة كانت أقرب إلى العتاب والتوبيخ من جانب الخليفة : وإلى الاعتذار والتضرع من جانب الأتراك • رفض الخليفة أن يعود معهم إلى سامرا (٢) •

والراجح أن رفض الخليفة كان بتحريض من وصيف وبغا ، اللذين أدركا أن الحزب المعادى لهما في سامرا على قدر كبير من القوة • ورأيا

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٧ •

(٢) انطبرى : ج ١١ ، ص ٩٧ • ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٨ •

ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٢١ •

أن في عودة الخليفة هزيمة لهما قد تؤدي الى تجريدهما من مناصبهما وربما تؤدي الى قتلها •

فلما لم يدعن الخليفة المستعين الى رجاء الأتراك • جأهروا بعدائه وأعلنوا خلعه وبايعوا للمعز بسامرا وتكتل حوله أغلب الأتراك • بينما ظل أهل بغداد على ولائهم للمستعين وبيعتهم له ومعهم ابن طاهر الفارسي الأصل وقليل من الأتراك • ووقعت الحرب بين الطرفين • وحاول كل منهما حصر الآخر وقطع الموارد عنه • فأما الخليفة فقد كتب الى الأقاليم يستنجد بها ويقطع الميرة عن سامرا • وأما الأتراك فقد عملوا على حصر بغداد ومنعوا عبور الناس اليها • وتحمل الناس ضغطا شديدا وكانت سنة قاسية عذبوا فيها وتعرضوا لكثير من السلب والنهب وكوارث القتال (١) •

وقد قاتل أهل بغداد قتالا شديدا ، لكن الأتراك نجحوا في حصر بغداد ، ولم يكن العنصر العربي من القوة بحيث يستطيع السمو طويلا ، فضلا عن أن الطرف الآخر استطاع أن يغري بغا ووصيف بالتخلي عن المستعين بأن واد بأن يسترد هذان مراكزهما (٢) ، وبذلك استرد الحزب التركي وحد • ، وأصبح بذلك مركز المستعين ضعيفا • ورأى ابن طاهر اتفاق الأتراك وضعف حزب المستعين فتخلى عن مناصرته بل رأى أنه لكي يأمن على نفسه لا بد له أن يعمل على أن يتنازل المستعين عن الخلافة (٣) •

وقعت هذه الظروف خلع المستعين نفسه وبويع للمعز بالخلافة • وخرج المستعين الى منفاه بالبصرة ، ولكن الأتراك خشيوا من بقاءه حيا فأرسلوا اليه جيشا قتلته ، وترك جثته في العراق حتى دفنه العامة (٤) ، فكانت هذه خطوة أخرى في سبيل سيادة الأتراك •

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٨ — ٥٨ •

(٢) نفس المصدر : ص ٥٦ •

(٣) Mutr, the Caliphate p. 58.

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٦٤ •

لكننا مع انتصار الأتراك فلمس ظاهرة سيكون لها أثرها عما قريب وهي أن المغاربة — وهم من عرب الحوف بمصر دخلوا الجيش في عهد المعتصم — اشتركوا مع الأتراك في قتال قوات المستعين ببغداد ، ومن ثم فشهد بروز قوة أخرى من الممكن أن يكون لها دور الى جانب قوة الأتراك . كما نشهد ظاهرة أخرى وهي أن القيادة العامة لقوات المعتز التي قتلت المستعين أسندت الى رجل من البيت العباسي وهو أبو أحمد بن المتوكل وهو الموفق ، وهو الذي باشر القتال والمفاوضة حتى ثم الأمر للمعتز (١) . وبتولية الموفق قيادة الأتراك ، انتقل الأمر من يد قواد الأتراك الى يد رجل من البيت العباسي ، وسيكون لهذا أثره فيما بعد ، فان هذا الرجل هو الذي أمسك بزمام الأمر والنهي في أيام المعتد واستطاع بقوة شخصيته وخبرته أن يكبح غير قليل من جماح الأتراك .

ولم تكن ظروف الخلافة في عهد المعتز خيرا مما سبقها ، فان الخلافة عادت الى سامرا ووقعت تحت النفوذ التركي الذي حاول المستعين أن يتعد عنه ، وزاد استبداد الأتراك ، وكثرت اضطراباتهم ومطالباتهم بالمال . ولما كانت الأموال في نقص مستمر لكثرة الاضطرابات وتأخر أموال الولايات ، بحيث لم تعد تفي بحاجة الجند الأتراك ومطالبهم التي لا تنتهي فقد ازدادت اضطراباتهم ، وأخذوا يبحثون عن فرصة توصلهم للمال ، وكانوا دائما يجدون مثل هذه الفرصة حين يزيلون خليفة ويأتون بآخر ، فيعطيهم الخليفة الجديد رزق عدة أشهر فوق ما ينتهبونه من أموال حين يعزلون الخليفة أو يقتلونه . ووقع اختيارهم على المؤيد ، فلما علم المعتز بما يعتزمه الأتراك قبض على أخيه المؤيد وأجبره على خلع نفسه من ولاية العهد ، ثم انتهى أمره الى القتل ، وكذلك قبض على أبي أحمد الموفق وحبسه ثم نفاه الى البصرة ، ثم الى الحجاز (٢) .

ثم اتجه الخليفة الى التخلص من زعماء الأتراك منتهزا فرصة

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٩ — ٥٨ .

(٢) المسعودي : ج ٤ ، ص ١٧٦ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٠ .

الخلافت بينهم ، وكانت أحزابهم لا تكف عن الخلافات ، وإذا كانت تأتي فترات يتوحدون فيها أمام محاولات الخلفاء للقضاء عليهم ، فإن زعماءهم لا يلبثون أن يعودوا لمطامعهم وخلافاتهم ، للاستئثار بالسلطة والحصول على الأموال وجمع الأنصار حولهم . وكان أول ما اتجه إليه الخليفة هو القضاء على بغا ووصيف باعتبارهما المسؤولين عن الحرب الأهلية التي وقعت بينه وبين المستعين ، وكان لها أسوأ الأثر وبخاصة في الأحوال الاقتصادية ، وما يتعلق بمعاش الناس ، فقد ارتبكت الأحوال، وتعرض الناس للسلب والنهب ، وقلت المحاصيل بانصراف الناس عن الأعمال ، وأحرقت كثير من دكاكين التجار ومتاجرهم ، وتحمل أهل بغداد النصيب الأكبر من هذه الخسائر ، فقد طال حصار بغداد ومنعت الموارد عنها ، ووقع معظم القتال فيها وفيما حولها . وكذلك لم تنج أقاليم العراق من هذه الأضرار ، فقد أصاب الأنبار وغيرها ما أصاب بغداد (١) .

لذلك كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر الوالي على بغداد أن يسقط اسم وصيف وبغا من الدواوين ! وأخذ في التدبير لقتلهما مرتقبا الفرصة المناسبة . وقد واثته الفرصة حين ثار الجند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر . فأرسل لتهدئتهم بغا ووصيف ، ولما أغلظ وصيف في الرد على الجند وثبوا عليه فقتلوه . وبذلك تخلص المعتز من أحد الرجلين . وليتخلص من الآخر عمد إلى مضاعفة بايكباك أحد زعماء الأتراك الذي كان ينافس بغا ويعتبره خصما له (٢) . وحاول بغا في سبيل كسر الحزب المعادي له أن يعيد مأساة المستعين بتحريض الخليفة على الخروج إلى بغداد ولكن خطته فشلت وانتهى الأمر بقتله (٣) .

كاف هذه الحوادث المتتالية قد زادت من نفوذ الأتراك . فكثرت عندهم بالناس وتعددهم عليهم . الأمر الذي أثار عليهم بقية الطوائف

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٥٣ .

(٢) اليعقوبي : ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٥ .

الأخرى، وكانت قوة المغاربة قد أخذت في الظهور منذ الحرب بين المستعين والمعتز وأصبح يحسب لها حساب ، فتطلع رجالها الى أن يكون لهم دور الى جانب الأتراك . وتزعهم رجلان هما محمد بن راشد ونصر بن سعيد وهاجموا الأتراك وأبعدوهم عن القصر وقالوا لهم « كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر » وأعانت العامة وبعض فرق الجيش المغاربة على الأتراك في الأعمال (١) . وبدأ في الأفق احتمال قيام نوع من التوازن بين القوى يكبح جماح هؤلاء الأتراك الذين تحولوا الى عصابة تثير الفوضى وتقلق الأمن .

لكن الأتراك ما لبثوا أن توحدوا تحت زعامة بايكباك . وقتلوا زعمي المغاربة واستعادوا نفوذهم وارتكبوا سلسلة من أعمال الفوضى والارهاب . فقتلوا الوزير أحمد بن إسرائيل واعتقلوا الكتاب وصادروا أموال الناس (٢) ، وما لبثوا أن أرغموا المعتز على خلع نفسه ، ثم جاءوا بمحمد بن الواثق وكان ببغداد ، فأسندوا اليه الخلافة ولقب بالمهتدي ، وأسلموا المعتز الى من يغذبه حتى مات (٣) .

وكان المهتدي رجل ورع وتقوى ، وكان شديد الرغبة في الإصلاح ، فقد رأى الفساد يعم الدولة ، لافتقارها الى الأمن في الداخل ، وبقيام التطاحن بين الطوائف ، وإهمال العمال والرؤساء ، والتهاك على الملذات وارتكاب المنكر والموبقات . كما رأى تفكك البيت الخلافي نفسه ، وانصراف الخلفاء الى اللهو وبعدهم عن الرعية ، الأمر الذي أدى الى عدم ادراكهم لمشاكل الناس مما قلل من قيمة الخلفاء وقدرتهم على تصريف الأمور في نظر الناس ، وجعل من الأتراك حلقة الاتصال بين الخليفة ورعيته .

فرأى أن يبدأ الإصلاح من البيت الخلافي نفسه ، فتجرد من مظاهر

(١) الطبري : ج ١١ ، ص ١٥٠ .

(٢) الطبري : ج ١١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٨ — ٧٠ .

الأبهة وزخرف الحياة ، مقتديا في ذلك بالخليفة الورع عمر بن عبد العزيز .
ثم نهى عن المنكر وحرم الشراب ، ونهى عن التتيان ، وأظهر العدل ،
وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمهم . ثم
دقق الاشراف على الدواوين ، حتى لقد ضرب جماعة من الرؤساء أهملوا
في أعمالهم (١) ، وأخذ ينظر في المظالم بنفسه ويرد الكتب الى النواحي
يأمر قيما يتظلم به اليه ، حتى ثقلت وطأته على العامة والخاصة (٢) .

كانت سياسة المهتدي قمينة أن تؤتى ثمارها ، لولا أن الأحوال
العامة من حوله كانت فوق طاقته ، ففي مستهل خلافته ثار العامة في بغداد
وأبوا أن يبايعوا له ، واضطر الى بذل المال لاختاد ثورتهم ، ثم ثار
الجند فيها أيضا لأن والى بغداد استولى لنفسه على رواتبهم . وأذكى
العلويون نار الثورة في كثير من البلاد الاسلامية ، وبدأت ثورة الزنج
التي هددت الدولة العباسية زهاء أربعة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ،
وثار الخوارج في الموصل ، كما خرج على الخلافة أحمد بن عيسى
ابن الشيخ — وكان أبوه واليا على فلسطين والأردن — في الشام وتغلب
على دمشق ، وامتنع عن حمل المال الى دار الخلافة ، وطمع في
الاستيلاء على سائر بلاد الشام وعلى مصر (٣) . ثم كان المهتدي محوطة
بطعمة من الأتراك لم تترك له سبيلا الى الإصلاح .

كانت علة الخلافة الحقيقية في ذلك الوقت كامنة في الأتراك ،
وكان نجاح الخلافة في التخلص من نفوذهم هو سبيل الإصلاح الحقيقي ،
لكي تستعيد الخلافة فعاليتها وقدرتها على تصريف الأمور في حرية .
لذلك رأى المهتدي لكي يكسر من شوكتهم أن يضرب رءوسهم بعضهم
ببعض ، وأن يثير عليهم جندهم ليبعد عنهم القوة التي يستخدمونها
لأغراضهم ، فلقد أسرف قواد الأتراك في حبسهم لجمع المال وشجعهم

(١) القسمراني : الأول وآثار الدول : ص ١٦٣ .

(٢) عن المهتدي : انظر الميسعودي ، ج ٤ ، ص ١٨٣ — ١٩٤ .

(٣) انظر : ابن الأثير ، ج ٧ ، ص ٧١ — ٧٦ . حسن ابراهيم : ج ٣ ،

فى الحصول عليه والاستئثار به دون رجالهم • حتى حقد عليهم جنودهم
وثاروا بهم ، ورفعوا شكائهم للخليفة مقدمين له بذلك الفرصة التى
ينتظرها ليتخلص من نفوذ هؤلاء القواد •

لم تكن ثورة الجند فى هذه المرة من تلك الثورات التى كان يبعدها
القواد لارهاق الخلفاء وللحصول على الأموال ، وانما كانت ثورة على
ما وصلت اليه الأوضاع العامة من السوء • والواقع أن الجند كانوا قد
برموا بقوادهم وخلافاتهم وتنازعهم على السلطة ، وأحيانا بأنهم
انما يستخدمون أداة لكى يحصل القواد على المال ، فاذا ما وصلوا
اليه اختزنوه لأنفسهم واستأثروا به دونهم ووكلوهم الى الخلافة يأخذون
من خزائنها رزقهم لعدة أشهر ، فأرزاق الجند على الخلافة ولكن
خدماتهم لصالح القواد • لذلك طالب الجند بأن يستعيد الخليفة نفوذه على
كافة شئون الدولة ، وأن تكون إمارة الجيش لأحد اخوته ، وأن تبطل
الاقطاعات وتحسن أحوالهم • وتعهدوا لتنفيذ هذه المطالب أن يقوموا
بحماية الخليفة وبقتل كل من يريده بسوء^(١) • وكانت هذه المطالب كافية
لكسر شوكة زعماء الأتراك •

لكن المهتدى لم يستغل هذه الفرصة فيسارع الى ضرب رؤوس
الأتراك ، وانما رأى أن يضرب بعضهم ببعض • وبذلك أتاح لهم فرصة
ليجمعوا شملهم ويسكتوا الجند عنهم • وحين بطش ببايكباك وقتله ،
كان الأتراك قد جمعوا جموعهم بقيادة موسى بن بغا ، واشتبكوا
مع الخليفة الذى قاد بنفسه المعركة ومن حوله المغاربة والفراغة وبعض
جند الأتراك ، وبعد قتال شديد تخاذل عنه الأتراك الى أصحابهم ، وهزم
رجالهم فاضطر الى الاستسلام ، وأرادوه على أن يخلع نفسه فلما رفض
قتلوه وبايعوا لأبى العباس أحمد بن المتوكل ولقب بالمعتمد على الله^(٢) •

(١) انظر الطبرى : ج ١١ ، ص ١٩٤ — ١٩٩ . ابن الأثير :
ج ٧ ، ص ٧٩ — ٨١ .

(٢) انظر الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٠٣ — ٢١٠ . ابن الأثير :
ج ٧ ، ص ٨١ — ٨٢ . اليعقوبى : ج ٣ ، ص ٢٢٨ .

لم يذهب جهاد المهتدى عبثا ، فلقد استطاع أن يكشف قواد الأتراك أمام جنودهم ، كما استطاع أن يثير الطوائف الأخرى ضدهم ، حتى لقد طالبوا بأن تعود أزمة الأمور الى يد الخلافة ، وأن توكل القيادة فى الجيش الى رجل من البيت العباسى ، ثم انه لأول مرة منذ عهد الخليفة الواثق يقف خليفة هذا الموقف القوى الصريح أمام هذه العصبية التركية الطاغية ، فلم يكن كسابقيه من الخلفاء يلقي بيده ويكتفى بتدبير المؤامرات للتخلص من زعماء الأتراك ، وانما هو يناصبهم الحرب ، ويقف أمامهم فى شجاعة لم يألّفوها ممن سبقه . روى الطبرى أن المهتدى لما بلغه تأمر الأتراك لخلعه « خرج من مجلسه منتقلا سيفا ، وقد لبس ثيابا نظافا وتطيب ، ثم أمر بادخالهم اليه ، فأبوا ذلك مليا ، ثم دخلوا عليه . فقال لهم ، انه بلغنى ما أتم عليه من أمرى ، ولست كمن تقدمنى مثل أحمد بن محمد (المستعين) ولا مثل ابن قبيصة (المعتز) . والله ما خرجت اليكم الا وأنا متحنط ، وقد أوصيت الى أخى بولدى ، وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي ، والله لئن سقطت منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . أما دين ! أما حياء ! أما رعية ! كى يكون هذا الخلاف على الخلفاء وإلّاقدام والجرأة على الله سوءة لكم » (١) . حقا لقد استطاع الأتراك القضاء على المهتدى ، ومع ذلك غفد كان لحركته أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، ولم يكن الأمر يتطلب بعد ذلك الا الوقوع على الرجل القوى القوام الذى يستطيع أن يمسك بيده أزمة الأمور ، والا الخروج من دائرة النفوذ التركى بالخروج من سامرا التى كانت حصن الأتراك .

وقد وجد هذا الرجل العازم الذى يقبض على أزمة الأمور فى شخص أبى أحمد الموفق الذى كانت له تجربة القيادة فى أيام المعتز — كما رأينا من قبل — فلما تولى أخوه المعتز المهتدى ، تولى هو حقيقة السلطان ، فترك للخليفة الخطبة والسكة والتسمى بأمره المؤمنين ،

وأمسك هو بزمام الأمر والنهي وقود العساكر ومجاربة الأعداء ،
ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء (١) وكان فى أيامه بطلا ،
فوجد الأتراك تحت قيادته من يحكمهم ويوجههم لخدمة الدولة .

وكذلك انتقلت دار الخلافة من سامرا حصن الأتراك الى بغداد
وفيهما عناصر كثيرة تريد أن تحمى الخلافة من شرورهم ، ولذلك رأينا
سلسلة من الخلفاء يقبضون على كثير من السلطان ، ويموتون حتف
أنوفهم . وبذلك عادت الخلافة الى الانتعاش مرة أخرى الى مدى أربعين
سنة حكم فيها ثلاثة من الخلفاء ، استتالت مدة حكم أولهم الى
ثلاث وعشرين سنة ، وحكم الثانى عشر سنوات ، وحكم الثالث ست
سنوات ، وماتوا جميعا موتا طبيعيا ، وعاشوا فى دست الخلافة آمنين
من عدوان الأتراك عليهم ، بل ان الأتراك فى أيامهم عادوا خداما للدولة
كما كان شأنهم فى عهد المعتصم والواثق .

* * *

انتعاش الخلافة :

يبدأ هذا العهد بخلافة المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ولكن
المعتمد لم يكن هو صاحب الفاعلية فى هذا الانتعاش الذى ظهر فى الخلافة
العباسية ، فقد كانت السلطة الحقيقية فى يد أخيه أبى أحمد طلحة الموفق ،
فهو رجل الدولة الحازم الذى جمع الأمور كلها فى يده ، بل ان المعتمد
أصبح كالمجنون عليه ، تدار الأمور باسمه ، ويستخدم منصبه للتأثير
الروحي اذا لزم الأمر ، فيظهر الخليفة بشخصه فى بعض المواقف ليعطى
ظهوره أثرا روحيا الى جانب الأثر المسمى القوى الذى يعطيه غيره ،
كما حدث فى القتال الذى وقع بين الخلافة وبين يعقوب بن الليث الصفار ،
الذى زحف بجيوشه الى العراق ، فكان ظهور الخليفة فى طليعة الجيش
العباسى لمجرد التأثير على جنود الصفار بأنهم يقاتلون الخليفة صاحب

(١) الفخرى : ص ٢٢٦ .

السلطان الشرعي ، الأمر الذي يجعل من الصفار خارجا على الخلافة في نظر رجاله ، وقد أحدث هذا أثره ، فقد تنازل كثير من جنود الصفار عنه • لكن القيادة الحقيقية والعمل القوي كان لأبي أحمد الموفق (١) • والحقيقة أن المعتمد لم يكن في مستوى الأحداث التي تعرضت لها الخلافة ، فقد كان همه منصرفا إلى اللهو والانغماس في الملذات (٢) ، كما حاول في بعض الأحيان أن يعرقل أعمال أخيه الموفق لإعادة هئية الخلافة وتقوية قبضتها على ولاياتها ، وذلك حين خضع لانغراء أحمد بن طولون وإلى مصر بالخروج إلى مصر بحجة أن الموفق قد حجب عليه وسلبه سلطانه (٣) • فالفضل إذن للموفق في القوة التي عادت إلى بيت الخلافة في هذا الوقت •

كانت الخلافة العباسية تهددها أخطار جسيمة في ذلك الوقت • وكانت أهم هذه الأخطار ثورة الزنج ، وتأسيس طائفة الاسماعيلية التي تنتسب إلى اسماعيل بن جعفر الصادق • ولكن ثورة الزنج كانت أقرب الأخطار إلى الخلافة العباسية •

والزنج من العناصر السوداء التي كثرت في العراق في ذلك الوقت، وكانوا يجلبون في الأكثر من سواحل افريقيا الشرقية ، يستخدمهم الناس في أعمال الخدمة ، وقد اعتمد عليهم ملاك الأراضي وأصحاب الاقطاعات في الزراعة وفي اصلاح الأراضي التي تحتاج إلى اصلاح ، وكانوا يقومون بعمل شاق ولكنهم لا يجدون رعاية أو شفقة من ساداتهم • وقد كثر عددهم إلى حد كبير ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التي قاموا بها ، وهددوا بها الدولة العباسية ودوخوها أكثر من أربعة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) •

وكان مسرح هذه الثورة المنطقة الممتدة بين البصرة وواسط ، وكانت

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ •

(٢) الخلفاء : ص ٢٤٢ •

(٣) الكندي : ص ٢٢٥ •

حرباً بين الأجتاس ، بين البيض والسود ، فقد ثار الزنوج الذين كانوا يعملون فى اصلاح الاراضى السبخة حول البصرة ، وانضم اليهم جماعات من العبيد هربوا من القرى والمدن المجاورة ، وانضموا الى هذه الحركة تخلصاً من حالتهم السيئة .

وقد دعا الى هذه الثورة رجل مغامر رأى اختلال أحوال الخلافة العباسية ، فأراد أن يحقق لنفسه شيئاً فى هذا الجو المضطرب ، مستغلاً ظهور الحركات المذهبية التى ظهرت فى بعض أجزاء العالم الاسلامى ، والذى أخذت تمتد حتى وصلت مركز الخلافة فى العراق ومستغلاً الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى أخذت تسوء بسبب تسلط الأتراك على الخلافة ، وانصرافهم الى جمع المال والحصول على الاقطاعات الكبيرة ، مع عدم التفاتهم لتنمية الثروة العامة للدولة باصلاح المرافق وتحسين وسائل الاقتاج ، بل لجأوا الى المصادرات والتضمينات مما أدى الى العسف بالناس وتدهور الأحوال الاقتصادية ، وانعكس عملهم هذا على كل صاحب قدرة على احراز المال بكل سبيل ، وبهذا اختلت الأحوال العامة وأحدث هذا أثره على الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وبخاصة فى العراق الذى كان يقع مباشرة تحت نفوذ هؤلاء الأتراك . فكان الجو مهياً لكل مغامر يستطيع استغلال هذه الأحوال .

ادعى هذا المغامر الجريء أنه ينتسب الى على بن أبى طالب ، فزعم أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وأكثر المؤرخين يرون أنه من قبيلة عبد القيس العربية (١) ويقول الدكتور حسن ابراهيم انه فارسى من أهل الطالقان (٢) . وبدأ حركته متنقلاً بين البحرين والبصرة وبغداد ، وبين أهل البادية يدعو نفسه ويدلس على الناس باصطناع الكرامات ، لكنه لم يستطع أن يحقق لنفسه شيئاً ، اذ طارده عمال الدولة وانكشف

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٨٤ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٢ .

(٢) تاريخ الاسلام : ج ٣ ، ص ٢٠٩ .

أمره ، ففرق عنه الناس وكرهته العرب وتجنبته مسجته ، فلما تفرقت عنه العرب وقبت به البادية لجأ الى منطقة البصرة وأخذ يدرس أحوال العمال الذين يعملون في أراضيها • وبين هؤلاء العمال وجد فرصة ، فقد كان ملاك الأراضي في هذه المنطقة يملكون كثيرا من العبيد يستخدمونهم في اصلاح الأراضي السبخة ، وهو عمل ^١ اق يقومون به ولا يجدون عليه مكافأة الا القوات الضئيل من الدقيق والتمر والسويق يجلبه سادتهم اليهم ، مما جعلهم ازاء هذه الحالة السيئة على أتم استعداد لتابعة من يخلصهم من هذه الحالة التي يعيشون فيها ، فاستطاع هذا المغامر — الذى لقب بصاحب الزنج — أن يؤلب هؤلاء العمال ، وأتاهم من الناحية الفعالة في النفوس وهى الناحية الدينية ، فادعى أنه رسول العناية الالهية لا تقاذهم مما يعانونه من البؤس ، كما ادعى العلم بالغيب • وأتت النبوة « (١) » •

التف حول هذا الرجل خلق كثير من هؤلاء التعساء • كما انضم اليه كثير من المغامرين ، فدعاهم الى الخروج على السادة الظالمين « ومناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا من الاحسان الا أتى اليهم » •

والحقيقة أن الرجل ، وفى لتابعيه بما وعد ، ولذلك التفوا حوله وقاصروه ، وقاتلوا فى سبيله قتالا شديدا ، وصمدوا لجيوش الخلافة العباسية وألحقوا بها كثيرا من الهزائم • ولقد كانت حركته الاولى ضد الملاك من أصحاب الأراضي • فقد كان كل من يقع فى يده من هؤلاء السادة مالكي العبيد يسلمه لبيده ويأمرهم بضربه • ثم أعلنها ثورة ضد الرق ، فدعا الى تحرير العبيد متخذًا من تأويل الآية الكريمة « ان الله

(١) عن سيرة هذا الرجل • انظر : الطبرى : ج ١١ ، ص ١٧٤ وما بعدها • ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٧٢ وما بعدها • وكذلك حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢٠٩ وما بعدها • الدورى • ص ٦٧ — ٧٧ •

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا * * * * * » مبدأ ينادى به ففسر الآية بأن المؤمنين وقد اشتروا أنفسهم ، لم يعودوا عرضة للرق والعبودية (١) .

استهوت هذه الدعوة العبيد فى كل منطقة العراق الجنوبية ، فكانوا يتركون ساداتهم ويسرعون اليه تخلصا من الرق ، وبذلك كثر أتباعه وعظم شأنه وقويت شوكته . ولكن الرجل تناقض مع مبدئه هذا تناقضا عجيبا ، الأمر الذى يجعلنا نحكم على حركته بأنها مغامرة انتهائية ولا تسلكها فى عداد الحركات الإصلاحية ، فانه وقد دعا الى تحرير العبيد كان يستعبد أسراه من البيض بل خير البيض ، يقول المسعودى « وقد بلغ من أمر عسكريه أنه ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس ، من ولد هاشم وقريش ، ومن سائر العرب وأبناء الناس ، تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها . هذه فلانة ابنة فلان الفلانى . لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤون الزنج ويخدم النساء الزنوجيات كما تخدم الوصائف . ولقد استغاثت الى على بن محمد (صاحب الزنج) امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه الى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه . فقال : « مولاك وأولى بك من غيره » (٢) . ويبدو أن هذه المناقضة كانت لكى يرضى أصحابه ، اذ بها ينتقمون لأنفسهم ممن كانوا بالأمس سادتهم ، فلم يعترضوا على هذا العمل الذى يتعارض مع مبدأ الحرية الذى يدعوا اليه .

والواقع أن صاحب الزنج لم يكن صاحب مبدأ . وانما كان صاحب طموح يستخدم له من الشعارات ما يساعد على تحقيقه . ويعمل فى سبيل ذلك من الأعمال ما يحقق غرضه حتى ولو أوقعه ذلك فى التناقض أو الصق به صفة الخسة والنذالة فقد كان يفاخر بأنه ينتسب الى على

وفاطمة ، ومع ذلك فنساء من العلويات يستعبدن وتنتهك أعراضهن بعينه وتحت أمره . ثم هو حين يخطب أصحابه يترجم على أبي بكر وعمر ، ويسب عثمان وعلياً ومعاوية وطاحنة والزبير وعائشة كما كان يرى رأى الخوارج الأزارقة (١) ويعلل نلذكه هذه الدعوة الغريبة ، فيقول « لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الشائر بميول أصحابه . أن تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذى يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة . وإن كان قد افتخر بأنه من نسل على وفاطمة لما ينطوى عليه المذهب الشيعى من التوريث الذى لا يلائم عقول مواطنيه . ومن ثم يتضح لماذا رفض قرمط المؤسس الحقيقى لمذهب القرامطة . وهو المذهب الشيعى المتطرف الذى قدر له أن يملأ العالم الإسلامى قاطبة خوفاً وهلعاً . أن يرتبط بزعيم العبيد على الرغم مما قد يفيد من اشتراكه معه فى حركته . متأثراً بعوامل مذهبية » .

بهذه المتناقضات كشف صاحب الزنج عن ميوله الحقيقية . حتى أن أعداءه لقبوه بالمدعى ، كما سموه بالخبيث (٢) . ومع تناقضات صاحب الزنج فإن العبيد الذين كانوا يضيقون بحالهم ويرغبون فى التحرر التفوا حوله التفافاً شديداً . ولما كان عدد الزنوج كبيراً وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال ، فإنه تكون له منهم جيش كبير استخدمه لتحقيق أطماعه ، واتخذ لنفسه قاعدة ، فبنى له مدينة سماها « المختارة » وأحسن تحصينها ، ثم أخذ يتوسع فيهاجم المناطق المجاورة له .

انتشرت جيوش صاحب الزنج فى العراق وخوزستان والبحرين ، فتملكوا « الأبله » و « عبادان » والأهواز ، ثم البصرة ، وواسط ، والنعمانة ، ورامهرز . وقد استخدموا العنف مع خصومهم ، فكانوا يقتلون كل من وقع فى أيديهم سواء من المقاتلة أو من غيرهم ، ولم ينج

(١) نفسه : ج ٤ ، ص ١٩٤ . حسن إبراهيم : ج ٣ ، ص ٢١١ .

(٢) حسن إبراهيم : ج ٣ ، ص ٢١٠ .

(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ . ابن الأثير : ج ٧ ،

ص ٨٧ ، ٨٨ وغيرها .

من فظائعهم حتى النساء والأطفال ، وحتى من استأمنهم غدروا به وقتلوه .
وقد كان إستيلاؤهم على البصرة مثالا ارتكبه من الفظائع ، فقد
ذبحوا كل من وصلوا اليه من أهلها ، وخربوا مسجدتها العظيم ، وأشعلوا
النار في المدينة حتى لقد قتلوا من أهلها ثلاثمائة ألف (١) .

وقد تكلم الناس في قدر ما قتل (على يد الزنج) في هذه السنين
من الناس ، فمكث ومقل ، فأما المكث فانه يقول : أفنى من الناس
ما لا يدركه العد ولا يقع عليه الاحصاء ، ولا يعلم ذلك الا عالم الغيب .
والمقل يقول : أفنى من الناس خمسمائة ألف . وكلا الفريقين يقول
ذلك ظنا وحده ، اذ كان شيئا لا يدرك ولا يضبط » (٢) .

أشاعت جيوش الزنج الرعب في قلوب الناس ، وتقدموا في العراق
حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من حاضرة الخلافة . وأرسلت الخلافة
بعض قوادها الأتراك لقتال الزنج في عهد المهدي ، ولكنهم لم يستطيعوا
الثبات أمامهم . ولما ولي المعتمد سير كثيرا من مشهورى قواده الأتراك
من أمثال موسى بن بغا ، ولكنهم لم يغنوا شيئا ، بل ظل خطر الزنج
يتزايد وانتصاراتهم على جيوش الخلافة تتوالى .

كما كثر ظهور المتغلبين في الولايات الشرقية . وكان موسى بن بغا
— وهو أظهر زعماء الأتراك في ذلك الوقت — قد ضمت اليه فارس
والأهواز والبصرة واليمامة مع ما كان اليه من عمل المشرق ، ولكنه
لم يستطع الوقوف أمام هذه الموجة من حركات التغلب التي شملت أرجاء
الدولة العباسية ، وطلعت الحياة السياسية في هذه الأقاليم بطابعها ،
فان بلاد الدولة العباسية فيما وراء العراق قد صارت مسرحا للمنازعات
والحرب بين هؤلاء المتغلبين ، وأصبحت الخلافة في مركز العاجز الذي
يرقب الأحداث ، ولم يصبح في مكنتها الا أن تقر التغلب على ما ملكت

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٨٦ — ٨٨ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ .

(م ٢٣ — المعصر العباسي)

يداه من البلاد. ويقول الطبرى « فلما رأى موسى بن بغا شدة الأمر وكثرة المتغلبين على نواحي المشرق ، وأتته لا قوام له بهم ، سأل أن يعفى من أعمال المشرق ، فأعفى منها ، وضم ذلك الى أبى أحمد ، وولى أبو أحمد بن المتوكل ، فانصرف موسى بن بغا من واسط الى باب السلطان مع عماله عن المشرق » (١) .

أظهرت انتصارات الزنج ، وكثرة المتغلبين على نواحي المشرق عجز القواد الأتراك ، وبذلك انكسرت شوكتهم ، وأتيح للخلافة أن تأخذ زمام الأمر بيدها . وفعلوا استدعى المعتمد أخاه أبا أحمد الموفق من منفاه بالحجاز ، وجعل اليه أمر المشرق كله كما جعله ولى العهد الثانى بعد ابنه جعفر ، الذى جعله ولى العهد الأول وعقد له على المغرب كله وضم اليه موسى بن بغا .

بدأت الخلافة تسترد نشاطها وفعاليتها ، وأخذت تعمل على تقوية نفوذها على ولايتها ، فقد قبض الموفق على ناصية الأمور فى الدولة ، وبدأ يعمل لتأكيد سلطان الخلافة على أقاليمها فى المشرق والمغرب . فاما فى المشرق فقد نهض لقتال يعقوب بن الليث الصفار الذى تغلب على معظم المشرق ، وأجبر الخلافة على أن ترسل اليه التقليد بولاية خراسان وجرجان والرى وفارس كما توليه شرطة بغداد ، ولكنه طمع أن يسير الى دار الخلافة فيكون له على الخليفة من النفوذ ما كان للأتراك ، وخرجت جيوش الخلافة بقيادة الموفق ، وخرج الخليفة بنفسه معها ليكون لوجوده أثره الروحى على جنود الصفار ، اذ أنهم حين يرون الخليفة مع جيوش الموفق يرون أن صاحبهم خارج على السلطة الشعبية ، على أمير المؤمنين ، وفعلوا حدث هذا الأثر وبخاصة أن جنود الصفار لم يكونوا من المرتزقة وانما كانوا من الرجال المتطوعين الذين رأوا خروج المتغلبين على الخلافة فقاموا ليدفعوا عنها وليردوا اليها سلطانها ، وكان يعقوب بنفسه أحد هؤلاء المتطوعين فى أول أمره ، وكان يشجع فى جنده

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٥ .

هذه الدعوى ، فكان وجود الخليفة فى الجيش الذى يحارب الصفار أمر يتقضى دعوى الصفار . ولذلك فانه حين احتدم القتال تخلى كثير من جند الصفار عنه وانضموا لجيش الخليفة . وبعد معركة كبيرة انهزم الصفار (١) وبذلك أكدت الخلافة سلطانها على المشرق وان لم تحكمه حكما مباشرا .

وأما فى المغرب . فان مصر والثغور الشامية كانت فى يد أحمد بن طولون منذ سنة ٢٥٤ هـ ، وكان شبه مستقل بشئونها عن الخلافة . ولما كانت موارد المشرق قد نفدت أو كادت لما حل ببلاد المشرق من البلاء على أثر الحروب المتصلة التى شنها صاحب الزنج ، والتى كانت دائمة بين أصحاب المطامع من المتغلبين . فقد أرسل الموفق الى أحمد بن طولون يأمره بأن يمدد بالمال الذى يساعده على قتال الزنج . ومع أن أحمد بن طولون أرسل الى الموفق مليوناً ومائتى ألف دينار ، إلا أن الموفق أحس بأن ابن طولون يتصرف تصرف المستقل الذى يعين متبرعا ولا يطيع أمرا ، فرأى أن يلزمه طاعة الخلافة ، فعزله عن ولاية الثغور الشامية . ثم أمر بصرفه عن ولاية مصر . ولكن ابن طولون كان من القوة بحيث لم يكن فى الامكان القضاء عليه . ولقد استطاع أن يتغلب على جيوش الخلافة ويردها عن الشام . بل انه كاد للموفق بأن أغرى الخليفة بالخروج الى مصر بحجة أن الموفق قد حجب عليه وسلبه سلطانه (٢) . ومع ذلك فان الموفق نجح فى احباط مشروعات ابن طولون مع الخليفة . ثم استطاع أن يرغم الطولونيين بعد وفاة أحمد بن طولون على الاقرار بسلطان الخلافة ، وتضمن كتاب الصلح بين خمارويه بن أحمد بن طولون وبين الخلافة أن يتولى خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة (٣) .

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

(٢) الكندى : ص ٢٢٥ .

(٣) الكندى : ص ٢٢٧ ، ٢٣٨ .

بعد هذه الأعمال التي قام بها الموفق لتأكيد سلطان الخلافة على ولاياتها • تفرغ لحرب الزنج وتولى قيادتها بنفسه • وقد زأوج الموفق في قتال صاحب الزنج بين أسلوبى الحرب والسياسة • وأتى الأمور من مآتيها ، فقد خرج من بغداد الى واسط في صفر سنة ٣٦٧ هـ والتحم بقوات صاحب الزنج وأوقع بها الهزائم المتتالية حتى أجلاهم عن الأهواز ، وحاصر مدينتهم المختارة وبنى بأزائها مدينة سماها « الموفقية » نسبة اليه (١) ثم بذل الأمان لكل من يأتيه من رجال صاحب الزنج • فتخلى كثير من الناس عن صاحب الزنج وانضموا للموفق • فأمنهم وعفا عنهم وأحسن معاملتهم • ومازال الموفق وابنه العباس يشددان الحصار على مدينة الزنج حتى سقطت في أيديهم • وعاد الناس الى قراهم بعد أن تخلصوا من الأسر والرق • وقتل الخبيث بعد ثلاث سنوات من القتال الشديد في صفر سنة ٣٧٠ هـ ، بعد أن أقلق الدولة العباسية وكلفه كثيرا من الجهد والمال • وبعد أن ظل أتباعه يعيشون في الأرض فسادا أكثر من أربعة عشر عاما •

كان الموفق ذا شخصية قوية وقد اكتملت له التجربة في القيادة منذ عهد المعتز • فلما أصبحت الأمور في يده في عهد المعتمد صارت له الكلمة العليا بين الأتراك قوادا وجنودا بعد أن أنهكهم التفكك وقلت بأيديهم الأموال • وبعد أن ظهر عجز قوادهم واضحا ولزمهم الفشل في التصدي للمتغلبين في المشرق ولقتال صاحب الزنج في العراق • وقد استطاع الموفق بضربه للمصنفارين وبجده من غلواء الطولونيين ، وبسيطرته الناجحة على الأتراك ، أن يعيد للخلافة العباسية هيبتها ، وأن يخفف من عواقب الحركات الاستقلالية المتعددة شرقا وغربا ، وخروجها على الخلافة أو استقلالها عنها •

وقد جنى المعتضد (٢٧٩—٢٨٩ هـ) ثمار جهاد أبيه الموفق • والذي شارك بنفسه فيه الى جانب أبيه • فقد شارك أباه في حروب وفي أعماله

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٧٩ •

الادارية وأفاده ذلك خبرة مكنته من أن يستمر فى رفع شأن الخلافة
واقرار هيبتها • كما مكنته من الأخذ على يد الأتراك « وكان مهيبا عند
أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفا منه » (١) •

مات الموفق فى عام ٢٧٨ هـ بعد الأعمال الجلية التى قام بها ،
فبايع الخليفة المعتمد لابنه العباس بولاية العهد الثانية مكان أبيه ،
وتحولت اليه سلطات أبيه ، فسار على النهج الذى سار عليه أبوه ، ولما
كان الخليفة قد وصل الى حد كبير من ضعف الشأن فى حياة الموفق
الذى لم يبق له من الخلافة الا اسمها ، فقد ضعف أمره وأمر ابنه المنفوض
الذى كان ولى العهد الأول ، والذى لم يبرز فى مجال هذا الصراع الذى
احتدم بين الخلافة وبين خصومها طوال الثلاث والعشرين سنة التى مرت
على خلافة المعتمد ، لذلك اضطر الخليفة أمام قوة أبى العباس الذى لقب
بالمعتضد الى خلع ابنه عن ولاية العهد وبايع لأبى العباس المعتضد ، ثم
ما لبث أن مات فجأة بعد شهور •

ولما بويع المعتضد بالخلافة عام ٢٧٩ هـ سار على نهج أبيه الموفق
فى الحزم والعزم ، كما سلك مسلكه فى حسن السياسة والعدل ، كان
حازما مع قواده شديد الوطأة عليهم ، اذا غضب على قائد أمر بالقائه فى
حفرة وردم عليه (١) حتى هابوه هيبة عظيمة ، وسكنت فتنة الأتراك
فلم يجرؤ واحد منهم على اسخط الخليفة أو احداث شغب • وأما عزمه
فانه كان سريع النهضة للخارجين على سلطان الخلافة ، يخرج بنفسه
للحرب ليستعيد السيطرة على الخارجين وليشعرهم بقوة الخلافة (٢) • وفى
أيامه ظهر القرامطة فى الكوفة على يد حمدان قرمط وفى البحرين على يد
أبى سعيد الجنابى ، كما ظهر ابن حوشب فى بلاد اليمن حيث نشر الدعوة
للمهدى الفاطمى ، وأبو عبد الله الشيعى يدعو للفواطم فى المغرب •

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٨٣ •

(٢) المسعودى : مروج الذهب : ج ٤ ، ص ٢٣٣ •

(٣) نفسه ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ •

ولكنه مع ظهور كل هؤلاء المتغلبين من الصفاريين أو السامانيين ، استطاع أن يقر هيبة الخلافة ، وأن يسكن الفتن فى أيامه ، وكانت الخلافة فى عهده أعظم هيبة وأكثر انتعاشا منها فى عهد المعتمد ، وذلك لأن المعتضد استفاد من جهود أبيه ، وواصلها هو فى خلافته ، فحققت للخلافة فى عهده السيطرة القوية الناجحة • وإلى شدة المعتضد التى اشتهر بها كان عادلا ، رفع الظلم عن رعيته وأسقط المكوس ، وأبطل ديوان المواريث وأمر بأن يورث ذوو الأرحام (١) فأحبه الناس ، كما كان مقتصدا فى المال لا ينفقه الا فيما يلزم وما يعود على الدولة بالخير • وحين مات كان فى بيت ماله من الذهب تسعة آلاف ألف دينار ومن الورق أربعون ألف ألف درهم (٢) •

خلف المكتفى أباه المعتضد (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وقد سار على نهج أبيه ولكن الفتن التى كانت قد بدأت فى عهد أسلافه استفحل أمرها فى عهده ، ومن اسماعيلية ، وقرامطة ، وفاطمية ، وقد بذل المكتفى جهده لقمع هذه الفتن فنكل بالقرامطة الذين ظهروا بالشام وعاثوا فيه فسادا (٣) ، ثم أقر سلطان الخلافة على الشام كله ، وأزال دولة بنى طولون عن مصر وأعادها ولاية تخضع مباشرة للخلافة (٤) وكانت أحوال الخلافة قميئة أن تسير كما كانت فى عهد المعتضد لو أن العمر استطال بالمكتفى ، ولكنه مات ولما يمض على خلافته أكثر من ست سنوات ، وبموته عادت الخلافة الى ضعفها ، وعاد الأتراك الى قوتهم • فلقد أخضع الموفق وابنه المعتضد الأتراك وكبجها جماهم ، وجعل منهم خداما للدولة كما كان شأنهم فى عهد المعتصم والواثق • والحقيقة أن اصلاح أمور الدولة مع وجود هذا العنصر التركى لم يكن يحتاج الا الى الحزم المقرون بسعة الأفق ، وقد كان أكثر الخلفاء ممن سبقوا الموفق اما مندفعين متهورين.

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧٢ •

(٢) المسعودى : ج ٤ ، ص ٢٣٢ •

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٨٧ — ١٨٩ •

(٤) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ •

كالمهدي أو ضعافا متخاذلين كالمستعين (١) . كما كان البيت العباسي مفككا يعمل أمراؤه للوصول الى السلطة فمكثوا الأتراك من بعضهم وأعاقوهم بطريق مباشر أو غير مباشر على التسلط على الخلفاء ، ولم يتح للخلافة رجل حازم من رجال البيت العباسي طوال الفترة التي سبقت خلافة المعتضد ، فلما وجد هذا الرجل في شخص الموفق عاد الأتراك الى خدمة الدولة والى طاعة الخلفاء ، ولكن موت المكتفى كان ضربة للخلافة ، كما كان فرصة لعودة تغلب الأتراك .

* * *

أحسن الأتراك والوزراء الطامعون فى الاستئثار بالسلطة أن الأمر لا يستقيم لهم مع خلفاء أقوياء من أمثال المعتضد والمكتفى ، فعملوا على اختيار الخلفاء من الأمراء الضعاف من البيت العباسي ، ليعود الى أيديهم السلطان وتنتم لهم الرياسة . ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفى ، وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وهو كفاء عالم أديب قادر ، فأنصرفوا عنه الى المقتدر ، وهو طفل عاجز لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فولوه الخلافة ولقبوه « المقتدر » . حكى مسكويه أن وزير المكتفى العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلى الخلافة ، فقال له : « اتق الله ولا تنصب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وفرس هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وتحنك وحسب حساب نعم الناس (يشير بهذا الى ابن المعتز) . قال الوزير : فيمن تشير ؟ . قال ابن الفرات : بجعفر ابن المعتضد (هو المقتدر) . فقال الوزير : جعفر صبي ! قال ابن الفرات : الا أنه ابن المعتضد . ولم تجيء برجل يأمر وينهى ، ويعرف ما لنا . وبمن يباشر التدبير بنفسه ، ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا تسلم هذا الأمر الى من يدعك تدبره أنت ؟ » (٢) .

(١) محمد خفاجي : ص ٤٤ .

(٢) ظهر الاسلام : ج ١ ، ص ٢٧ . انظر : ابن الاثير : ج ٨ ،

وهكذا عمل الأتراك والوزراء على إعطاء الخلافة لمن لا يستحقها حتى يكون لهم الأمر وله مجرد اللقب ، كما رسموا سياستهم بعد ذلك على افساد تربية الأمراء العباسيين الذين يعدونهم لتولي منصب الخلافة ، حتى ينشأ الواحد منهم جاهلاً غراً ، فينصرف الى لهوه ولذته ، ويترك لهم زمام الأمور والتصرف في شئون الدولة • يحكى الصولى فى كتاب الأوراق فى أخبار الراضى والمتقى • أنه لما عهد اليه بتربية الراضى وأخيه هارون كان يحب اليهما العلم ، ويشترى لهما كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار فقليل له على لسان أهل القصر « ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم • فأعمل على ذلك » • فأتى الصولى الحاجب فأخبره بذلك ، فبكى ، وقال « كيف تفلح مع قوم هذه نياتهم » •

انقسم الناس الى فريقين ، فريق يؤيد تولية الطفل جعفر بن المعتضد وفريق يؤيد تولية ابن المعتز ، وكان على رأس الفريق الأول الوزير ومؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن وغيرهما من الأتراك ، وكان من رأس الفريق الآخر العباس بن الحسن ومحمد بن الحسن ومحمد بن داود بن الجراح وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضى ، ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى وبعض الأتراك (٢) لكن الغلبة والقوة كانتا فى جانب الذين مع المقتدر فنتم له الأمر • وقتل ابن المعتز (٣) ونلاحظ هنا أن العناصر الأخرى غير التركية هى التى كانت تناصر ابن المعتز ، كما نلاحظ ظهور أمراء بنى حمدان وتدخلهم فى شئون الخلافة ، وقد ظهر بنو حمدان فى عهد المعتضد ثائرين على الدولة ، ثم عفا عنهم المعتضد وولاهم إمارة الموصل ، ولقد أرادت الخلافة بهذا أن تعيد العنصر العربى الى الظهور مرة أخرى ولكن كان الأوان قد فات ، ويبدو هذا من تصرف أمراء بنى حمدان ، فانهم كانوا يحاولون التدخل لمساندة الخلافة ، ولكنهم

(١) الصولى : ص ٢٦ •

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٥ •

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦ •

حين يدركون عجزهم أمام العناصر التركية المتغلبة يعودون الى ولاياتهم ليتفرغوا لما أصبحوا بصدده من الوظيفة الثغرية التي أصبحت تقوم بها الدولة العثمانية في مواجهة الروم ، واحساسا منهم أن بقاءهم واكتسابهم عطف العالم الاسلامي انما هو احسانهم القيام بهذه المهمة الثغرية لا في التورط في مشاكل الخلافة التي يحسون بعجزهم عن حلها .

وكان المقتدر طفلا لما يجاوز الثالثة عشرة من عمره ، لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، ولا يمكن أن ينتظر منه القدرة على ادارة شئون الخلافة ومواجهة المشكلات العويصة التي تحيط بها ، ومع ذلك لقبه رجاله بالمقتدر ! ! ولما شب عكف على لذاته ، وتوفر على المغنين والنساء ، وترك أمور الدولة لغيره ، وعلى رأسهم مؤنس التركي ، وبلغ من بله الخليفة وسوء حاله أن تدخل النساء في أمور الدولة ، وشاركن مع الأتراك في ادارة دفة الأمور ، ولقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه التي ازداد نفوذها ، وبلغ من تسلطها أن عينت قهرماتتها صاحبة للمظالم (١) ، وبلغ من نفوذها أنها كانت اذا غضبت هي أو قهرماتتها على أحد الوزراء كان مصيره العزل ، حتى انحطت مرتبة الوزارة وكثر العزل والتولية للوزراء أمام تقلب عواطف النساء ، وطمع قواد الأتراك الذين كانوا يرون في عزل وزير وتولية آخر فرصة لمصادرة الأموال . حتى لقد وزر للمقتدر في مدة خلافته اثنا عشر وزيرا فيهم من وزر له المراتين والثلاث .

وفي أيامه انتشرت الفتن في الداخل والخارج . فقد خرج عليه مؤنس الخادم سنة ٣١٧ هـ وثار عليه رجال الجيش ، لما رأوا من اسراف الحاشية والخدم ، وضياع الأموال وافساد الحكم بسبب تدخلهم في أمور الدولة ، فخلعوه وبايعوا أخيه محمد بن المعتضد ولقبوه بالقاهر بالله (٢) . لكن فرصة خلع الخليفة وبيعة أخيه لم تحقق

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ٢٧٨ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦٨ .

للأثرالك ما كانوا يريدون من أموال ، فعادوا مرة أخرى يخلعون القاهر ويعيدون المقتدر الذى باع ما فى خزائنه من الأمتعة والجواهر ليرضى طمع هؤلاء الذين لم يكن همهم الا المال (١) . لكن لم يمض طويل وقت حتى وقعت الوحشة بين الخليفة ومؤنس الخادم مرة أخرى ، وانتهى الأمر بقتله قتلة مهينة (٢) .

وقد وصف موير (٣) حالة الدولة العباسية فى عهد المقتدر فقال « ان عهد الخليفة التعس قد هوى بالدولة الى الحضيض ، فقد ضاعت ممتلكاتها فى الخارج : فضاعت أفريقية ، وأوشكت مصر أن تضيع ، واستقل أمراء بنى حمدان بالموصل ، واستطاع البيزنطيون أن يشنوا غاراتهم المتصلة على الحدود التى ضعف الدفاع عنها ومع ذلك بقى شيء من الاعتراف بسلطان الخلافة فى البلاد الشرقية ، حتى بين أولئك الأمراء الذين نادوا أخيرا باستقلال ولاياتهم . أما فى الأراضى القريبة من حاضرة الخلافة فقد أخدمت اثورات القرامطة المخيفين الى حين . وفى بغداد نفسها صار الخليفة المقتدر ، الذى كان آلة فى أيدي رجال البلاط المفسدين ذوى الأطماع الدنيئة ، تحت رحمة حراسه من الأجانب الذين أصبحوا يأترون الى حد كبير بأوامر القواد من الأثرالك وغيرهم ، الذين لا يمتنون الى العباسيين بصلة والذين كانوا يشعلون نار الثورة من حين الى حين » .

« واذا علمنا أن هذا الخليفة التعس قد غلب على أمره وخلع مرتين وذبح فى النهاية عندما حاول مقاومة أحد قواده المخلصين لعرشه . فلا نعجب اذا تلاشت تلك الهيبة التى عمل أسلافه القريبون على استعادتها . وغدا العرش مرة ثانية هدفا للزدرء فى الداخل ، وفرصة سانحة تحمل على اغراء المغيرين على الدولة من الخارج . أضف الى ذلك أن الشعب

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٨٢ .

(٣) The Caliphate - p.p. 567—568.

(٣)

قد فسدت أخلاقه ، ولم تعد بغداد بعد ذلك المكان الذى يضم رجالاً أقوياء يدافعون عن بلادهم ، بل يحكمون أنفسهم إذا دعت الحال الى ذلك ، وانما أصبحوا الآن أحزاباً وشيعاً متطاحنة تستطيع أن تذهب الطرق بالدماء » .

وهكذا بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة قتل المقتدر ، وبويع لأخيه القاهر مرة أخرى . ولم تكن خلافة القاهر القصيرة (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) خيراً من خلافة المقتدر ، فقد استمر شغب الجند ، وفكر مؤنس الخادم فى الخروج عليه بالاتفاق مع الوزير ابن مقلة الذى كان همه كهم الأتراك فى الحصول على المال ، ولكن القاهر كان طاغية جسوراً سفاكاً للدماء ، استطاع أن يفتك بخصومه (١) ، ولعل الأحداث التى مرت بالقاهر من قبل جعلته شديد القسوة على خصومه ، يرى فى قواد الأتراك أعداء للدولة ، وكان يحمل دائماً حربة لا تفارقه يباشر بها قاتل من يريد قتله ، وزاد فى ألقابه عبارة « المنتقم من أعداء الله ونقش ذلك على السكة (٢) » ومع قوة القاهر وقسوته فاز القواد قبضوا عليه وخلعوه وسلبوا عينيه ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء ، وبايعوا بعده للخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) .

وفى عهد الراضى حدث تطور جديد فى شئون الحكم : فى مركز الخلافة ، وفى وضع الوزارة وفى وضع الأتراك أنفسهم ، وانهى هذا التطور بقدم عنصر جديد آخر استولى على مقاليد الأمور وسيطر على الخلفاء فلم يكن لهم الى جانبه شئ من السلطان ، ولم تشهد معه ذلك الصراع الذى رأيناه بين الخلافة وبين الأتراك . وهذا التطور هو ظهور منصب أمير الأمراء الذى انتقلت الى يده مسئولية كل سلطات الخليفة ، وأصبح منصب الخلافة مجرد رمز تدار الأمور باسمه من غير الرجوع

(١) الخلفاء : ص ٢٥٧

(٢) الخلفاء : ص ٢٥٧ . ٢٥٨ .

اليه فى شىء • وقبل أن تتحدث عن هذا المنصب الجديد نرى أنه من الضرورى أن نعرض لمركز الوزارة فى هذه الفترة التى عرضنا لها من قبل ، كما يجب أن نخلص الى ما وصل اليه شأن الأتراك بعد هذا الصراع الذى شهدناه بينهم وبين الخلفاء •

أما عن مركز الوزارة ، فإن الأتراك لم يقنعوا بسيطرتهم على الخلفاء هذه السيطرة المتجبرة التى تصرفوا بها فى منصب الخلافة ولاية وعزلا وسجنا وسلا ، وانما أرادوا أن يسدوا سلطانهم الى المناصب الادارية والمالية بصفة خاصة • وفى مقدمة هذه المناصب منصب الوزارة الذى أصبح فى هذا العهد محنة لمن يتولاه ، بسبب ما ينتظره من عزل وسجن ومصادرة • واذا كان الخلفاء قد تعرضوا لما تعرضوا له فمن باب أولى تعرض الوزراء لمثل هذه المحنة فى هذا العهد الذى كثرت فيه المحن ، وأدابت بنارها كل الناس وبخاصة من كان منهم صاحب مال أو كان مسئولا عن مال •

لقد تقهقر منصب الوزير فى هذه الفترة كثيرا عما كان له من قبل من اختصاص ، ومن وضع الى جانب الخلافة ، وتركز عمل الوزير فى هذا العصر فى الاشراف على الأموال ومحاولة الحصول عليها بكل الوسائل لسد حاجة الأتراك وكبار قوادهم ، ولما كانت الظروف العامة فى العراق مضطربة لما كان يحدث من فتن داخلية ، ولظهور الثورات التى أشرنا اليها من أمثال ثورة الزنج وظهور القرامطة والاسماعيلية ، ولظهور المتغلبين واستحباب الأطراف فى ولايات الدولة ، فإن الوزير وقد كان مسئولا عن توفير المال ، كان يجد صعوبة كبيرة فى تأدية مهمته وسد حاجات هؤلاء الأتراك التى لا تنتهى الى المال ، ولذلك أصبح الوزراء عرضة للتكيل والمصادرة ، وكذلك مصادرة أموال كل من يحيط بهم من كتابهم وأقربائهم (١) •

(١) انظر الفخرى : ص ٢٢٣ — ٢٤٢ • ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٥١ •

لقد حاول الأتراك أن يشغلوا بأنفسهم منصب الوزارة حتى يكون الأمر كله بأيديهم ، ولكن هذه التجربة قد فشلت بسبب ما كان بين اد الأتراك من حسد وغيرة وتنازع على السلطة ، وبسبب ما اتص به من جشع فى جمع المال لأنفسهم . فقلد تولى القائد اتامش الترى الوزارة فى عهد المستعين ، ولكنه أتهم باستغلال أموال الدولة لنفسه خاصة الأمر الذى أدى الى تأمر بعض قواد الأتراك عليه وقتله ومصادرة أمواله (١) .

وبعد هذه التجربة قرر الأتراك أن يعرضوا عن تولى الوزارة بأنفسهم وراوا أن من مصلحتهم تجنب متاعبها ، مع الاشراف عليها عن طريق اشرافهم على قصر الخلافة وعلى شئون الدولة كلها . وبذلك أصبح تعيين الوزراء وترشيحهم يتم عن طريقهم ، ويخضع لشهواتهم ، وبذلك كثر عزل الوزراء وتوليتهم حتى ان عهد المعتز وقد استمر نحو ثلاث سنوات شهد أربعة تغييرات فى الوزارة ، كما شهد عهد المقتدر اثنى عشر وزيرا ولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة ، وبسبب هذه السيطرة المتجبرة على الوزارة تجد هذا المنصب قد تدهورت مكاتته وانحطت منزلته ، وغدا الوزير غير قادر على البقاء فيه فترة تكفى للشروع فى أى اصلاح يعود على الدولة بشىء من الفائدة ، وكان أى وزير يحاول أن يضبط الأموال وينظم الاشراف عليها ويحد من جشع الأتراك يتعرض للتهديد والمزل (٢) . وما زال منصب الوزير يتدهور حتى اذا كان آخر هذا العهد ، وفى خلافة الراضى على وجه التحديد ، فقد الوزراء كل ما كان لهم من نفوذ ، واقتصر عملهم على الحضور الى القصر فى زيهم الرسمى ليشاركوا فى الاحتفالات والمواكب ، وصار الأمر كله بيد الأتراك ، وزاد مركز الوزير ضعفا فى عهد امرة الأمراء حتى لم يعد سوى كاتب للخليفة الذى فقد بدوره كل سلطان .

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٢ .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٢ . الدكتور محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة ، ص ١٤ — ٨٧ .

أما الأتراك أنفسهم فقد وصلوا الى حد كبير من التفكك وتفرق الكلمة ، والسرف في ذلك أنه لم يكن يربطهم بعضهم ببعض ، أى رباط سوى رباط العنصرية ، وهذا الرباط نفسه اذا كان يجمعهم كعنصر ، فانه يفرقهم كجماعات مغامرة أصحاب طموح ، واذا كانت القبائل العربية يربطها رباط العصبية الدموية ، واذا كان الفرس يربطهم رباط القومية ، فان الأتراك لم يكن لهم من هذا أو ذاك شيء ، فهم ليسوا الا فئات متباينة لكل منها زعماءها ورؤساؤها المباشرون ، وهم لا ينضمون حول هؤلاء الرؤساء بدافع من لحة القرابة أو دافع من القومية ، وانما بدافع المصلحة المادية ، فهم ينتقلون وراء مصالحهم المادية من زعيم الى زعيم ، ويتبعون من يحقق لهم أكبر قدر من الفائدة . ولذلك كان التنافس دائما بين قوادهم على مراكز الصدارة ، حتى يستطيعوا أن يحققوا لأتباعهم ما يحفظ عليهم ولاءهم لهم ، وحين كان الجند يحسون من قادتهم عجزهم عن تحقيق مطالبهم أو يرون استئثارهم بالأموال كانوا يشورون عليهم كما حدث في خلافة المهدي (١) . ولذلك كانت أمور الأتراك — على الرغم من أنهم كانوا هم العنصر الغالب على الخلافة — كثرة القلق بعد أن دب الحسد والتنازع بين رؤسائهم ، وبعد أن قام الجند بشورات متعددة ضد هؤلاء الرؤساء ، ومن مظاهر هذا القلق أن كثيرا منهم تقلد امارات مختلفة بعيدة عن مقر الخلافة نسيبا كالشام ومصر وجنوبي العراق ، فلم يكونوا يذهبون اليها وانما كانوا يولون عليها من قبلهم غوايا وبيقون هم في بغداد وسامرا ليراقبوا الأحداث وليحتفظوا بالنفوذ والسلطان في مقر الخلافة ، أو على الأقل ليعملوا على تحسين أوضاعهم .

ثم حدث تطور جديد هو أن عناصر أخرى قد بدأت تظهر بجوار الأتراك في مركز الخلافة ، وقد رأينا المغارية كيف نازعوا الأتراك في عهد المعتز (٢) ، كذلك بدأ العنصر الديلمي يظهر على مسرح الأحداث في

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٧٩ .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦١ .

• نهاية العصر التركي ، وسنشهد أثر وجوده حين الكلام على منصب أمرة الأمراء ، وكذلك ظهر في المجال العنصر العربي تحت زعامة بني حمدان . وبمرور الزمن أحس الأتراك بقرب زوال دولتهم ، فانحسر كثير منهم عن مقر الحكومة المركزية إلى ولاياتهم التي تقلدوها مكتفين بها ، وعملوا على الاستقرار بها بعد أن فسدت أحوال الخلافة وأصبح المقام في ظلها غرما عليهم وهلاكاً لهم (١) .

وأحست الخلافة بضعف الوزراء ، وبعمجز الأتراك . ورأت ضياع أملاك الدولة وفراغ خزائنها ، فبدأت تتطلع إلى حكام الإمارات القريبة من العراق تستعين بهم على انقاذ الموقف الذي بلغ دأته في التدهور ، فأرسل الخليفة الراضي إلى محمد بن رائق أمير واسط والبصرة وعينه في منصب جديد هو منصب أمير الأمراء ، وفوض إليه شئونه وأطلق يده في سلطات الدولة جميعاً . وبذلك ابتدأ عصر جديد تفرد له الفصل التالي .

(١) محمد حلمي : ص ٩٥ .

الفصل الرابع

عصر امرة الأمراء

(٣٢٤ - ٣٣٤ هـ / ٩٢٩ - ٩٤٨ م)

منصب أمير الأمراء :

ابتدأ ظهور منصب امرة الأمراء رسميا في عهد الخليفة الراضى عام ٣٢٤ هـ ، واسند في هذا الوقت الى محمد بن رائق (١) . والمنصب عبارة عن نقل كل سلطات الخليفة في هذا الوقت الى قائد تتوفر فيه صفات الرياسة العسكرية ، ويجمع الى جانب صفته العسكرية الاختصاصات المدنية . ومن هذا القبيل ما يقال عن بعض الوزراء : انهم أصحاب سيف وقلم ، اذ جمعوا بين الاختصاصات الحربية والمدنية ، فيرمز بالسيف للاختصاص الحربي ، وبالقلم للاختصاص المدني . وهذه التسمية الأخيرة تعددت مرات لعدد من الوزراء قبل هذا الوقت (٣٢٤ هـ) لكل ذلك لم يكن نظاما مقررًا ، بل كان استثناء عارضا يلجأ اليه الخلفاء مؤقتا ثم يعودون الى النظام الطبيعي ، وهو نظام الفصل بين السلطتين المدنية والحربية ، فان مبدأ الفصل بين السلطات ليس من المبادئ التي وصل اليها الفقهاء في العصر الحديث ، بل هو مبدأ مطبق الى حد ما في العصور القديمة بحسب البيئات ، فقد عرف الفصل في النظم اليونانية ، وكان معروفا لدى الرومان . وعرف أيضا عند العرب وظل مدة مطبقا في النظم الاسلامية : فكانت الوزارة وهي سلطة مدنية من أكبر المناصب في الدولة ، وكانت تأتي مباشرة بعد الخليفة (٢) . ولكن يحدث أحيانا أن يظهر قائد من القواد ، وأن يؤتى من الظفر ما يجعل له هيبة ومكانة وتدخل في الأمور السياسية بحيث يطغى نفوذه على نفوذ الوزراء أو لا يقل عنهم .

(١) الصولى : ص ٨٥ . الفخرى (طبعة وزارة المعارف) ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) الأحكام السلطانية (طبعة الحلبي ١٩٦٠) : ص ٢٢ - ٢٩ .

وكان أمير الأمراء يتولى : امرة الجيش ثم المناصب المالية ، فهو يلى الخراج والمعادن فى جميع البلاد ، ثم الدواوين ، فهو ينظر فى جميع الأمور ، وهو الذى يختار لها الرجال الذين يقومون بها : والأموال تحمل الى خزائن أمير الأمراء ، فينصرف فيها كما يريد . ويطلق للخليفة ما يريد فبطلت بيوت الأموال القديمة ، وصارت تابعة لأمر الأمراء المسئول وحده عن الناحية المالية كلها : نفقات الخليفة وأرزاق الجند ونفقات الدولة . وإذا تحولت تبعية الدواوين وبيوت المال على هذا النحو الى شخص بعينه : بطلت الدواوين وأبطلت الوزارة وأبطل كل شيء (١) . ثم كان لأمر الأمراء حق ثالث اضافى ، هو أن يخطب له على المنابر الى جانب الخليفة ، وكان اسمه أيضا ينقش على السكة ، كما كان يتمتع بكثير من مظاهر الخفاوة (٢) . هذه هى اختصاصات منصب أمير الأمراء فما سبب تطور النظام وظهور امرة الأمراء على انقاض الوزارة ؟

اسباب ظهور امرة الامراء :

ظهرت امرة الأمراء على انقاض الوزارة ، فأصبح نظاما مقرا ، وكان ذلك تطورا خطيرا فى النظم الاسلامية ، فما هى أسبابه المباشرة ؟

كانت العادة أن يتولى الخليفة بنفسه حقيقة السلطان ، ويعاونه جماعة من الناس لهم صفة العمال فقط لا يزيدون على ذلك شيئا ثم يتخذ الخليفة كتابا ، ثم يسمى هؤلاء الكتاب وزراء . ولكون الوزراء عادة مجرد منفذين لأوامر الخليفة كانوا يسمون وزراء تنفيذ ، ثم تعظم سلطات الوزراء شيئا فشيئا حتى يصبحوا متصرفين فى حقيقة السلطان الذى كان بيد الخلفاء وعندئذ يعتبرون مفوضين من قبل الخلفاء ، وتسمى وزارتهم عند الفقهاء وزارة التفويض (٣) . ثم تغلب

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .

(٢) تجارب الأمم : ج ١ ، ص ٣٥١ .

(٣) انظر عن الوزارة : الأحكام السلطانية ، ص ٢٢ — ٢٩ .

(م ٢٤ — العصر العباسى)

النظم العسكرية النظم المدنية وتصبح شخصية القائد أكبر شخصية فى الدولة ، فتطغى على نفوذ الوزير وتلقى شيئا من الظلال عليها ، وتتجمع السلطة الحقيقية فى يد أمراء الأمراء العسكريين ، وقد دعت الظروف فى الدولة العباسية الى هذا التطور • وأهم هذه الظروف :

١ - الظروف الاقتصادية : فان كثرة الثورات بالعراق جعلت العراق نفسه عاجزا عن القيام بموارد الدولة ، فمنذ منتصف القرن الثالث الهجرى . (حوالى سنة ٥٠ هـ) والثورات تتوالى بعضها اثر بعض فى اقليم العراق بالذات ، منها الثورة العلوية ، ثم ثورة الزنج وهى من الثورات التى أرادت أن تصبح نفسها بصيغة علوية ، ثم لم يكفد الخلفاء يفرغون من حرب الزنج التى استمرت نحو خمسة عشر عاما ، حتى وقعوا فى خطر أكبر وهو خطر القرامطة ، وهى من الحركات التى جرت على الدولة مشاكل مالية كبيرة الى جانب المشاكل الحربية والعقيدية . وغيرها • وكان هذا الخطر القرمطى خطرا مستمرا • ثم ان أطراف الدولة كانت قد استقلت وقامت فيها دول ثغرية اتجهت بجهودها الى النشاط الثغرى ولم تتبع الخلافة الا من الناحية الروحية ، أو اتجه بعضها الى الاستقلال التام عن الخلافة • وكثر المتقلبون فى داخلية الدولة واستبدوا بالأطراف التى تغلبوا عليها ، فخوزستان والأهواز فى يد البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرتان فى يد على بن الياس ، والرى واصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ووشمكير أخو مردايج بن زياد ينازعه فى هذه الأعمال ، ومصر والشام فى يد بن طعج الاخشيد ، والمغرب وأفريقية فى يد العبيدين ، وبلاد ماوراء النهر فى يد بنى سامان ، وطبرستان فى يد الديلم • وحتى العراق نفسه خرجت منه أطراف كثيرة من يد الدولة ، فالبصرة طرف من هذه الأطراف ، والموصل وديار بكر ومصر وربيعة فى يد بنى حمدان ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى (١) ، • لذلك أصبح ايراد الرقعة الباقية من العراق ضعيفا جدا ،

(١) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

وكان لابد من التحايل للحصول على الأموال بكل طريقة ، ولكى تظل الخلافة حافظة لبعض كبريائها ، ولكى تستطيع أيضا أن تواجه الثورات الكثيرة التى تقوم فى العراق ، ولذلك كانت السلطة الحربية أهم ما يمكن للخلافة أن تعتمد عليه . ولذلك أنشئ منصب امرة الأمراء أيام الخليفة الراضى . ونقتبس من كلام الراضى نفسه ما يصور الحال ، قال الراضى « كانت بغداد دار المملكة حين كان فى بيت المال عشرة آلاف ألف دينار فى أيام المعتضد وضعف لها فى أيام المكتفى ، فأما ولا مال بها فهى كسائر البلدان » (١) . وهذا القول يعبر عن مقدار الأزمة المالية التى وقعت فيها الخلافة أيام الخليفة الراضى . (٣٢٢ هـ — ٣٢٩ هـ) .

٢ — الظروف العسكرية : والسبب الآخر فى ظهور امرة الأمراء سبب عسكرى ، وذلك أن الجند من الترك وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى العسكرية كالديلم وغيرهم ، كانوا يستجيبون لقوادهم وعصبياتهم ، وينقادون لمصالحهم الخاصة أكثر مما يستجيبون أو ينقادون للمصالح العامة أو للخلافة ، وآفتهم المال ، فهم يخدمون حيث يوجد المال . ولذلك استتب العجز المالى ضعف فى قوة الجيش الذى يمكن أن تنصرف فيه الخلافة ، وحتى بفرض وجود المال فإن قيادة الجند محتاجة الى شئ من اللياقة والكياسة لمدارة عصبيتهم وتحزباتهم . وكانت سيطرة القواد عليهم تأتيهم من ناحية خدمة مصالحهم المادية ، فهم يخدمون من يدفع لهم أكثر ، وكذلك فى قدرته على مداراتهم لتسلسل له قيادتهم . وبذلك عظم نفوذ القواد حتى سيطروا على شئون الدولة وعلى مقدرات الخلافة ، وخير ما يصور حالة هؤلاء الجند ووقوع الخلافة فى قبضتهم ، وفى تصوير عبثهم ، وشهوتهم للمال قول الخليفة الراضى نفسه : « كأنى بالناس يقولون : أرى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى حتى يتحكم فى المال ، وينفرد بالتدبير . ولا يدرون أن هذا الأمر قد أفسد من قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ، فسلمت

(١) الصولى : ص ١٤٥ .

الى قوم يتسحبون على ويجلسون فى اليوم مرات ، ويقصدوننى ليلا ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال خاص ، ويتعبدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أصحابى ، وأمر فيه بأمر فلا يمثل ولا ينفذ . وأكثر ما فيه أن يسألنى كلب من كلابهم فلا أملك رده ، وان رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا « (١) . وهكذا أدت الأزمة الاقتصادية التى حلت بالخلافة ، وكذلك تحكم العنصر التركى وسوء تصرف زعمائه الى أن تلجأ الخلافة الى هذا الحل الذى وصلت اليه وهو انشاء منصب أمير الأمراء .

* * *

نظرة على الحالة فى العراق

فى ظل منصب امرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ)

إذا نظرنا الى العراق فى أول هذه الفترة وجدنا شخصيات سياسية مختلفة ، أولها : الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٣٩ هـ) وهو من الخلفاء الناضحين فى تفكيرهم على حسب وصف الصولى المؤرخ صاحب كتاب « الراضى والمتقى » (٢) ، الا أنه عاجز لأسباب كثيرة أهمها الأسباب الاقتصادية . وبجانب الخليفة الراضى كان وزير مشهور هو « ابن مقلة » وقد كان من الخطاطين ومن الكتاب المعروفين بجمال الأسلوب ، الا أنه كان وزيرا لخليفة ضعيف ، فلم يملك الا ايقاع الشخصيات السياسية فى مكائد لكى يتصرف فيهم ، فليست له من الشخصية ولا من القوة ما يستطيع به أن يفرض كلمته أو أن يوجه جهود رجال الدولة نحو الصالح العام .

وثانيها : شخصية أمير الأمراء ، وكان فى ذلك الوقت « ابن رائق » هو الذى كان يابى هذا المنصب ، وهو منصب أعلى من الوزارة يجمع صاحبه فى يده السلطتين الحربية والمدنية ، والوزير الى جانبه ليس

(١) الصولى : ص ٤١ .

(٢) الصولى : ص ١٩ .

الا كاتبا أو وزيراً خاصاً بالخليفة ، لأن أمير الأمراء مفوض تفويضاً عاماً من الخليفة بتدبير الأمور المدنية وبقيادة الجيش • وابن رائق قائد من القواد لكنه لا يستطيع أن يترك العاصمة وأن يقود الجيوش بنفسه ، فهو يعتمد على بعض قواده الذين يتوسم فيهم الاخلاص ، وكان اعتماده على « بحكم التركي » •

وثالث الشخصيات من شخصيات المجال العراقي في هذا العام (٣٣٦ هـ) هو « البريدى » وهو رجل طموح يصل فى سلك الادارة من الوظائف الديوانية الصغيرة الى الوظائف العالية • ويجب أن نشير هنا الى أنه لم يكن يوجد فاصل بين الوظائف المدنية والوظائف الحربية ، فكثير من الوزراء قاد الجيش بنفسه مع أنه لم يكن من رجال الحرب •

ولستطيع أن نعد هؤلاء جميعاً ثلاثة معسكرات : — معسكر الخليفة من ناحية ، ومعسكر أمير الأمراء من ناحية أخرى ، هذا يملك حقيقة السلطان ، وذلك يملك اسم السلطان • أما المعسكر الثالث وهو فريق البريدى فانه يعمل لحسابه الخاص ويطمع فى يوم من الأيام أن يبلغ امرة الأمراء • وطبيعة هذه الشخصيات كلها واحدة ، وهى طبيعة العصر كله ، لا نستثنى منها الا « الراضى » فهو بحكم مكانته الدينية ، وبحكم ما هو واقع تحته من ظلم ، رجل ينشد الحقيقة ويعلمها لولا أنه عاجز، أما من عداه فهم بطبيعتهم أثرون كل يعمل لحسابه الخاص دون أن يربى حرمة لولاء أو صداقة ، ودون أن ينظر فى ذلك الى المصالح العامة ، فالمصلحة الشخصية هى أساس كل تصرف يقوم به فرد من هؤلاء على مسرح السياسة ، وهم جميعاً شاكون يستخون بعضهم بعضاً ، ويتجسس بعضهم على بعض ويسمع بعضهم عن بعض كل شائعة وكل خبر ، فالجور محروم من كل ثقة ، ثم انهم جميعاً حين يجد الجدار انما يعتمدون على الجيوش وعلى القواد الذين يقودونها • لكن الواقع أن كل قائد من قواد الجيوش كان يعمل لحسابه الخاص ، ويوجه جنده لمصلحته الخاصة ، وهى الوصول الى أعلى مركز فى الدولة • ولهذا كان الجند أنفسهم

لا يتبينون أين تكون المصلحة العامة ، فكان هؤلاء الجند على مشال ساداتهم يبحثون عن المصالح الخاصة أيضا ، ولهذا كانوا يتجولون من تبعية قائد الى تبعية آخر بحسب مصالحهم الشخصية ، فهم يتبعون القائد الذى يستطيع أن يدفع لهم أكثر عطاء ممكن أو يتيح لهم أكبر فرصة للمغنم . فالجيش من قاداته الى جنده الصغار كل يتصيد فى ذلك الوقت مصالحه الشخصية .

ثم ان كل واحد من هؤلاء الأفراد حريص اما على البقاء فى بغداد حيث مركز الدولة ، واما على أن يكون متصلا ببغداد اتصالا وثيقا ، متفاهما مع بعض رجال امرة الأمراء أو بعض القادة ، أو مع الخليفة أو أحد المتصلين به ، وهداياهم تصل باستمرار الى بغداد ان كانوا بعيدين عنها : لكى يديموا بتلك الهدايا الصداقات التى يعتمدون عليها فى اذاعة الأخبار أو فى معرفتها أو فى الوقوف على نوايا كل فرد (١) ، ولا يختلف واحد منها عن الآخر ، الا أن البريدى كان أشد هذه الشخصيات مكررا وأكثرهم بقاء على مسرح السياسة ، فهو مشترك فى كل شىء ، لا يحدث حدث الا كانت له فيه يد ، ولذلك يحسن أن نفهم الأحداث على أساس تصرف البريدى نفسه .

كان أبو عبد الله البريدى كاتباً لياقوت والى الأهواز من قبل الخلافة (٢) ، وفى سنة ٣٢٦ هـ وصل البويهيون فى هجرتهم نحو الجنوب من اقليم طبرستان الى هذه الولاية ، واستطاعوا اقتزاعها من واليها ياقوت ، وذلك لأن البريدى خان سيده ولم يتعاون معه (٣) . وقد كان البريدى فى الواقع يعمل على التخلص من ياقوت والوثوب على ولايته ، فكان ذلك فى صالح بنى بويه . لكنهم بعد أن اقتصروا على ياقوت تركوا الأهواز وعادوا الى شيراز التى اتخذوها عاصمة لهم ، وبذلك ساء

(١) الصولى : ص ٢٧ .

(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٣٩٦ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٠٦ — ١١١ .

مركز البريدى الذى أصبح خائناً للخلافة ولأمير الأمراء ابن رائق • فقر
لاجئاً الى بنى بويه بعد أن عادت جيوش الخلافة الى الأهواز (١) • وحيل
اتصل بينى بويه اغراهم بأن يمدوه ببعض الجند لاعادته الى الأهواز ،
والأهواز اقليم هام جداً بالنسبة للعراق وبالنسبة لاقليم فارس • فهى
دهليز العراق كما هى دهليز فارس • والذى يملك الأهواز ويستكمل
قوته يستطيع أن يسد كل طريق على القوات المقيمة باقليم فارس ،
فوجود سلطة قوية بالأهواز كان معناه سد الطريق على بنى بويه •
ومعنى ذلك إبعادهم عن العراق الذى كان متجه أنظارهم ، لذلك فانهم
حين أمدوا البريدى بالجند كانوا يخفون نواياهم الحقيقية ، وكانوا
يطمعون فى الاستيلاء على الأهواز استيلاء تاماً ولكن بنى بويه لم يكونوا
يثقون فى البريدى ، ولذلك استرهنوه اثنين من أبناءه حتى يطمئنا
اليه (٢) • ثم سار جيش مشترك من البويهيين وممن مع البريدى من
الترك — ونلاحظ هنا أن البريدى وهو رجل مدنى استطاع أن يجمع
حوله قوة من الجند الأتراك — ذلك لأن الأتراك قد تحولوا الى جند
مرتزقة يبيعون سيوفهم لمن يدفع لهم المال — واستطاع هذا الجيش المشترك
أن يستولى على الأهواز ، إلا أن الطرفين لم يستطيعا الاتفاق طويلاً ، اذ
ان البريدى كان يتوهم أن بنى بويه انما يساعدهونه ثم يرجعون مكلفين بأن
يخطب فى البلاد باسمهم • وأن يكتفوا بالتبعية الاسمية • لكن بنى بويه
كانوا ينوون الاستيلاء الفعلى على الأهواز • هذا الى أن جند بنى بويه
كانوا من الديلم وكان جند البريدى من الترك والشعبان متباغضان •
فشارت العصبية بينهما ووقع الاحتكاك • واستطاع أحمد بن بويه قائد
جيش الديلم طرد البريدى من الأهواز (٣) • ولمسا كان البريدى قد هان
السلطان فى العراق ، فانه تراجع الى البصرة واستولى عليها دون

-
- (١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٨ •
(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٤ •
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٩ •

• ناومة (١) ، وذلك لأنها كانت فى الحقيقة بعيدة عن أن تكون موضوعا لسمع أحد من الشخصيات الموجودة فى العراق •

كان ابن رائق لا يثق بقائده بجكم لأنه سمع أن ابن مقله يحاول أن يستميل بجكم ، فهو يخاف أن يتم الدس عليه بين ابن مقله وبجكم ، ولهذا لم يتحرك ابن رائق إطلاقا لمنع البريدى من احتلال البصرة فاحتلها وهو آمن •

وقد كان ابن رائق أمير الأمراء أقوى الشخصيات فى ذلك الوقت ، فابن مقله لم يكن الا وزيرا ضعيفا تابعا للخليفة • وبجكم ما هو الا قائد لابن رائق وصناعة من صنائعه ، والبريدى ما هو الا رجل طريد استطاع أن يستولى على جزء صغير وهو البصرة • الا أن الأمور أخذت تتطور على أساس مكيدة قام بها ابن مقله ، فأوقع الأطراف بعضهم فى بعض • واستطاع البريدى أن يبقى قائما على قدميه وأن يكون سيد الموقف ، وأن يسير نحو بغداد ليكون أمير الأمراء •

كان البريدى فى أزمة فقد توالى عليه الهزائم ، فهو حين آوى الى البصرة كان منهزما أمام أحمد بن بويه ، خائفا من ابن رائق وقائده بجكم ، يتوقع أن ينتهزا فرصة انهزامه للقضاء عليه ، وهو من قبل هذا كان قد انهزم أمام بجكم وابن رائق فأعانه بنو بويه حتى استولى على الأهواز ، ثم طرد منها فأنحاز الى البصرة • تلك هزائم متتالية على البريدى ، ولكنه ظل ثابتا وظل جنده حوله لم يتركوه لأنه كان قادرا على أن يبقى الأمل فى نفوسهم ، ثم ان الظروف بعد ذلك خدمته وجعلته يطمع فى أن يكون ذا شأن فى العراق وأن يصل الى امرة الأمراء •

وكانت خطة ابن مقله أن يتفق مع بجكم ضد ابن رائق ، فاستطاع بواسطة الكيد والدس والاختلاق أن يفرق بين بجكم ومولاه ابن رائق

وبالرغم من أن ابن رائق اكتشف مؤامرة ابن مقلة وعاقبه عقاباً صارماً بأن قطع يديه (١) ، إلا أن اكتشاف المؤامرة لم يمنع من أن تتم وتحقق غاياتها ، لأن النفوس تغيرت من مجرد وجود جو المؤامرة ، ففقد ابن رائق وبجكم كل واحد منهما ثقته في الآخر . فوجد اذن انقسام طارئ في جبهة أمير الأمراء ، وهي الجبهة التي كان يتخوف منها البريدي . فلما انشقت جبهة أمير الأمراء على نفسها ، أخذ الطرفان المنشقان يسعيان كل بطريقته لاكتساب صداقة البريدي ، فبدأ أمير الأمراء بالاتفاق مع البريدي لكي يحصل منه على بعض المال . فرحب البريدي بهذا الاتفاق واعتبره فرصة يطمئن فيها على مكائته بالبصرة (٢) . أما بجكم فقد وجد نفسه بين هاتين القوتين : البريدي في البصرة وأمير الأمراء في العراق ، فحين خاف وضاعت المودة بينه وبين مولاه ، كان عليه أن يدافع عن نفسه بسرعة والاضاع جملة واحدة ، وكان عليه أن يثبت لأتباعه أنه قادر قوى لا ينحط عن منزلته الكبيرة ، ولذلك كان عليه أن يحارب مولاه ويسرع الى الحلول محله والا فقد كل شيء ، ولكنه في نفس الوقت كان مضطراً أن يتخلص من البريدي فما كان منه الا أن يتظاهر بالهجوم على البريدي ، فعبا جيشه وسار نحو البصرة . فلما تمكن الخوف من قلب البريدي عرض عليه بجكم الصلح والاتفاق ، فتصالحا ضد ابن رائق . فكأن البريدي قد غير حلفه في سنة واحدة (٣) .

بجكم أمير الأمراء :

رجع بجكم الى بغداد بعد أن أمن ظهره ، فأخرج ابن رائق وتولى امرة الأمراء (٤) وجعل البريدي وزيراً . ولم ينتقل البريدي الى بغداد لتولى الوزارة بنفسه ، وإنما عين نائباً عنه في ذلك المنصب (٥)

-
- (١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١١ . الصولى : ص ٥ .
(٢) الصولى : ص ١٠٥ . ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .
(٣) ابن خلدون : نفس الصفحة .
(٤) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ . الصولى : ص ١٠٦ .
(٥) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٧ . ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٥ .

ثم تصاهر هذان الرئيسان في السنة التالية ، وأصبحا بهذه المصاهرة متضامنين في كل شيء (١) . واستقر وضع امرة الأمراء باشتراك هذين الرجلين في المسؤولية واتفاقهما معا . وظل هذا الجو الخالي من التقلبات مستمرا من عام ٣٢٦ الى ٣٢٩ هـ . ودبت الحياة في الآمال من جديد بعد أن تمتع الناس بهذا الاستقرار . وابتدأ الرؤساء يفكرون فيما وراء العراق فاتفق بجكم والبريدى على أن يستعيدوا الى ملكية الخلافة أقاليم الجبال الشمالية .

وضع الطرفان الخطة معا ، واتفقا على أن يخرج بجكم من بغداد الى مدينة خاتقين الى حلوان الى فواحي الجبل . وأن يكون دور البريدى هو أن يقف عند الطريق بين الأهواز والعراق ليحول بين بني بويه والطمع في العراق ، وكان مفتاح الطريق بين الأهواز والعراق هو مدينة « واسط » التي أنشأها الحجاج بن يوسف بين الكوفة والبصرة لتكون مكانا وسطا بينهما . وبدأ الطرفان في تنفيذ الخطة فعلا ، فخرج البريدى الى واسط ، وخرج بجكم بجيش قوى حتى بلغ حلوان (٢) .

وعندئذ حدثت ظاهرة غريبة هي أنه بمجرد ابتعاد بجكم عن العراق عاد اليه جو الريبة القديم ، فشك في صهره البريدى ، وخاف أن ينتهز فرصة غيابه فيتصيد لنفسه بعض المناصب والمصالح ، لذلك ترك تنفيذ الخطة المتفق عليها ، وعاد مسرعا من حلوان نحو واسط ليقضى على البريدى . والواقع أن بجكم له بعض العذر ، فقد كان جميع القواد في ذلك الحين لا يحبسون الخروج من العراق . فانسحب البريدى من واسط نحو البصرة — الى قاعدته الأولى — الى الموقف الذي كان غيبه عام ٣٢٩ هـ ، وتبعه بجكم بجنوده وهو مطمئن الى النصر ، فكان في أثناء سيره اذا وقف الجيش في ناحية خرج الى الصيد ، فقتل في مرة من

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١١٧ . ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٨ .

(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٢٧ .

خرجاته هذه للصيد (١) . وقبل مقتل بجكم بقليل كان قد مات الخليفة الراضى فى بغداد وولى بعده المتقى (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) .

وفرى بعد ذلك موقف البريدى الذى تخرج كل الحرج ، عاد فتحسن الى درجة أن الناس ظنوا أن امرة الأمراء ليس لها فى هذا الظرف الا البريدى . وظلم البريدى فعلا فى هذا المنصب وجاءه الجند من كل ناحية ، وبخاصة الجند الذين كانوا تحت قيادة بجكم ، فان نصغهم انضم اليه بالبصرة والنصف الآخر خرج الى ناحية بغداد وواصل سيره شمالا حتى انضم الى الحمدانيين بالموصل (٢) .

وتوزيع الجيش نفسه على هذا النحو لم يكن شيئا اتفاقيا ، بل كان لأن الجند كانوا يشتغلون بالسياسة ويعرفون كيف تتجه ، فالذين انضموا الى البريدى كانوا يرون أنه رجل الساعة ، والذين انضموا الى الحمدانيين كانوا يرون أنهم رجال الساعة . ولم يخب ظن الطرفين فقد آل الأمن للبريدى أولا ثم لبنى حمدان .

البريدى فى بغداد :

لما تجمعت تلك الجيوش للبريدى زحف به انصر بغداد ودخلها دون عناء ولم يلق مقاومة (٣) . الا أن الخليفة المتقى لم يكن يحب هذا الرجل بل كان يحقره ، ولهذا لم يأذن له بالثول بين يديه ، ولم يخرج له التقليد بامرة الأمراء ، واكتفى بأن يجعله وزيرا . لكن الوزير اذا جمع الى منصبه المدنى قيادة الجيش كان فى حكم أمير الأمراء تماما .

وهكذا وصل البريدى الى امرة الأمراء الفعلية وان لم يتسلمه الخليفة هذا المنصب تقليدا رسميا . الا أن فريقا من الجند الديلمية ثاروا ضده فى بغداد . وكان الديلمية يومئذ قد دخلوا فى خدمة جيش الحضرة

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٢٧ — ١٣١ .

(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

مشمس الخلافة المركزية) وأمام هذه الثورة تراجع البريدى الى البصرة بعد عدة اشهر . ولم يكن الخليفة المتقى مخطئا حين رفض الترحيب بالبريدى ، فان وجود مثل هذا الرجل فى ذلك المنصب ليس حلا للأزمة ، فان البريدى لم يكن شخصية سليمة ولا محبوبة ، وهو فى البصرة واقع بين خطرين : خطر بنى بويه المستقرين فى فارس والأهواز من ناحية ، وخطر القرامطة المستقرين فى البحرين من ناحية أخرى ، وهو مسالم لهذين العدوين يترضاها بالمال : فهو رجل عاجز لا تظهر قدرته الا فى الجهة الضعيفة وهى جهة بغداد ، فمشله لم يكن يصلح لامرة الأمراء فى نظر المتقى . الا أن البريدى حين عاد الى البصرة كان يتطلع الى الرجوع الى بغداد وتولى امرة الأمراء ، وفعلا عاد البريدى الى بغداد مرات ، فما السبب فى عدم بقاءه مدة طويلة فى بغداد ؟

وأول الأسباب أن الخليفة المتقى كان معتقدا أن مثل البريدى لا يمكن أن يكون المنقذ للدولة مما هى فيه .

والسبب الثانى هو أنه كان يومئذ فى بغداد فى جيش الحضرة كثير من الديلم الذين هاجروا ، ودخلوا فى عداد الجيش وأعطيت لهم سجلات بدخولهم فى الخدمة ، وأصبحوا عساكر نظاميين ، وكانوا حزبا كبيرا يقارب الحزب التركى بل ويزيد عليه فى بعض الأحيان ، وهذا الحزب الديلمى هو الذى وقف معارضا للبريدى حتى اضطره الى الخروج من بغداد (١) .

وسبب ثالث لخروج البريدى ، وهو أنه مع اشتهاره بالكرم لم يسلك سبيلا مستقيما ، بل أخذ يضع العراقيل فى وجه الخليفة للوصول الى مصالح شخصية ، فان البريدى حين لم يخرج له الخليفة التقليد بمنصب امرة الأمراء أراد أن يخرج الخليفة ، فطالبه بالأموال

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ .

للجند • ولم يكن من واجب الوزير أن يوفر المال للجند وانما ذلك من واجب أمير الأمراء الذي يجمع بين الاختصاصات الحربية وبين اختصاصات الوزير • فالعودة الى النظام المدني ولو لسبب عارض كانت تلزم الخليفة بالتزامات لا تقع عليه في نظام امرة الامراء أو النظام العسكري • وفهم الخليفة المتقي الهدف الذي يرمى اليه البريدي من هذه المطالبة ، فأخرج له ما طلب من المال ، فصار الجند بعد ذلك لا يطالبون الخليفة بل يطالبون البريدي بأن يوزع عليهم ما أخذ من أموال ، وهنا فلمح كياسة الخليفة المتقي • فصار البريدي فريسة لنفس المكاييد التي كان يدبرها للخليفة • كان البريدي يريد أن يتحكم في الخليفة فتحكم فيه الخليفة والجند ، فلما رأى الأمور مضطربة في بغداد تركها وعاد الى البصرة (١) •

ابن رائق أمير الأمراء مرة اخرى :

كان الزعيم الذي ترأس الجند أمام البريدي هو « كورتكين الديلمي » ، الا أن تحكم الديلم في الموقف على هذا النحو أحدث رد فعل ، فنهضت العصبية التركية تبحث لنفسها عن رئيس قوى يستطيع أن يتحكم في الموقف ، فاستدعى ابن رائق للمرة الثانية ، وهو زعيم للحزب التركي ، وقد كان حين غلبه بجكم خرج الى الشام وولى فيها ولايات وكانت له حروب مع الاخشيدى أول الأمر (٢) • فقدم ابن رائق الى بغداد وتولى امرة الأمراء بسهولة للمرة الثانية • وفي هذه المرة سلك مع البريدي نفس الخطة التي سلكها بجكم من قبل • فقد صـ نحو البصرة ، ثم عرض الصلح على البريدي الذي رحب بالصلح وأسندت اليه الوزارة هذه المرة أيضا (٣) ، فصار مشاركا في السلطان مع ابن رائق • وتكرر المسألة على هذا النحو يدل على أن صاحب البصرة قاسم مشترك في كل سلطان يوجد بالعراق • وكان طبيعيا أن

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ •

(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٢٨ • ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٠٨ •

(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٤ •

يوجد رد فعل أيضا من ناحية سياسة ابن رائق ، فانه تتبع الديلم ونكل بهم يريد بذلك اضعاف هذا الحزب الذي يريد أن يتحكم في القيادة العليا (١) .

ظل الأمر على هذا مدة الى أن اختلف البريدى وابن رائق ، فانه هذا عزل البريدى عن الوزارة ، فجيش البريدى جيوشه وخرج الى بغداد ، فاضطر ابن رائق والخليفة الى الهروب أمامه الى الموصل والتجأ الى بنى حمدان ، واستولى البريدى على امرة الأمراء ودخل بغداد للمرة الثانية (٢) .

امرة الأمراء في يد بنى حمدان :

كان بنو حمدان يلون الجزيرة ويقومون بالغزو ضد الروم ، وكان يهمهم بطبيعة الحال أن تنتظم أمور العراق ، ليكون العراق القوى سندا وراء ظهرهم يعتمدون عليه ، واضطراب الأحوال فيه يعود عليهم بالضرر ، ولذلك كانوا يهتمون بأمور العراق اهتماما كبيرا ، وان كانوا في حقيقة الأمر يؤثرون وظيفتهم الثغرية لما تضافى عليهم من هيبة واحترام في أعين الناس ، ولأنها تحيطهم بعطف جميع المسلمين . فتدخل بنو حمدان في الأمر ، وكانت طريقته في التدخل اصلاحية وقوية ، فأرادوا أن يطهروا العجوة أولا بأن تخلصوا من ابن رائق بقتله ، ثم عادوا بالخليفة نحو بغداد فخرج منها البريدى بكل بساطة (٣) . وأسند الخليفة امرة الأمراء الى الحسن بن عبد الله الحمداني ولقبه ناصر الدولة كما خلق على أخيه أبي الحسين ولقبه سيف الدولة (٤) . وقد بدأ ناصر الدولة عهده باصلاح الأحوال الاقتصادية ، فبدأ باصلاح السكة وحال دون العيارين والصيارفة بعيار لها ، وهدد الصيارف بانزال العقاب بهم

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤١٢ . الصولى : ص ٢٠١ .

(٣) ابن خلدون : ج ٣ ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

(٤) الصولى : ص ٢٢٨ .

إذا لم يقلعوا عن الربا (١) ، ثم وضع نظاما جديدا للصرف ، بحيث فراخ على الخليفة أن يكتفى بقدر قليل من المال ، كما فرض على الناس التقشف (٢) . ثم سار الحمدانيون بجيوشهم نحو البصرة للقضاء على البريدى الذى ظن أن نهايته قد صارت محتومة فالتقوا به قرب واسط وكانت بينهما وقعة غير حاسمة (٣) .

لكن فى أثناء وجود الحمدانيين وسط المعسكر حدثت فتنة بين الجند فقد قام « توزون الديلمى » وتزعّم حركة شغب حتى ضجر سيف الدولة من قلة الضبط الذى اتصف به هذا الجند ، فقرر بنو حمدان العودة الى الجزيرة ليتفرغوا لواجبهم الثرى ، وآلت امرة الأمراء الى توزون (٤) .

توزون أمير الأمراء :

فلاحظ هنا أن قوة الديلم صارت هى القوة المتحكمة فى مراكز الخلافة وتضائل شأن الحزب التركى تضائلا كبيرا ، فلم يستطع أن يستعيد مركزه مرة أخرى ، لأن امرة الأمراء استمرت فى يد الديلم حتى تسلمها بنو بويه وهم من الديلم أيضا ، ولا نكاد نسمع عن تسلط الترك فى العراق مرة أخرى حتى يأتى عهد السلاجقة وهم من الترك ، ولكن ليسوا من الطوائف التركية التى شهدناها منذ عهد المعتصم .

وتوزون أهم الأمراء الذين تولوا الأمر قبل العصر البويهى ، فقد استطاع أن يغتصب المنصب من متنافسين قوين هما الحمدانيون والبريديون وبهذا أثبت أنه أقوى من ابن رائق كما أثبت أنه أقوى من بجكم ، وهو

(١) الصولى : ص ٢٢٩ ، ٢٣١ .
(٢) الصولى : ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .
(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٣٦ .
(٤) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

الذى صد الحمدانيين فانسحبوا ، وهو الذى وقف أمام البريدى ، ولهذا لا نكون مبالغين اذا قلنا انه كان من أكبر شخصيات الدولة فى هذا الوقت ، وقد أحس هو نفسه بعظم السلطان الذى اجتمع فى يده ، فلم يراع للخليفة المتقى حرمة حتى ضاق الخليفة فخرج من بغداد لاجئا الى الحمدانيين ، لكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يعيدوا سلوكهم كما حدث فى المرة الأولى (١) ، وفى نفس الوقت كان توزون يتحایل على الخليفة بالوعود ، حتى عاد الخليفة الى بغداد مرة أخرى اذ كان يخشى أن يعين توزون خليفة غيره •

وحين عاد الخليفة قدم له توزون كل فروض الطاعة ظاهريا ، ولكنه أوعز الى بعض أصحابه فقبضوا على الخليفة وأجبروه على خلع نفسه ثم سملوا عينيه (٢) ، وبهذا وقع الخلفاء تحت يد الديلم كما كانوا من قبل فى يد الترك ، وان كانوا لم يتعرضوا للقتل الا أنهم تعرضوا للاهانة والتعذيب وفقد الهيبة •

وكما عزل توزون الخليفة استطاع أن يختار خليفة غيره يكون طوع يديه ، ذلك هو المستكفى • ومن هذا نرى مقدار ما وصل اليه توزون من قوة ، ومقدار ما وصلت اليه الخلافة من ضعف • ثم توفى توزون فخلعه ابن شيرزاد ، وفى عهد هذا قدم البويهيون الى العراق فحاصروا محل أمراء الأمراء ، وبدخلوهم بدأ العصر البويهى الذى استمر من ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ • وفيه خضعت الخلافة خضوعا تاما للبويهيين ، وفى عهدهم لم نشهد ذلك الصراع الذى كان قائما بين الخلفاء وبين المتغلبين على شئون الخلافة ، فقد فقدت الخلافة فعاليتها طوال العصر البويهى ،

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ . ابن خلدون : ج ٣ ، ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .
(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ . الصولى : ص ١٨٠ — ١٨٣ .

ثم طوال العصر السلجوقي من بعد ، وحين ضعف السلاجقة وبدأت الخلافة تسترد قوتها كان الوقت قد فات ، وكان العالم الاسلامى يواجه فى شرقه وغربه خطرا شديدا لم تكن للخلافة قدرة على المشاركة فى دفعه ، ونعنى بهذين الخطرين الخطر المغولى فى المشرق والخطر الصليبيى فى المغرب ، واستطاع المغول أن يكتسحوا العالم الاسلامى الشرقى وأن يصلوا الى العراق ويسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ .

الباب الثاني

الحركات الاستقلالية في العالم الإسلامي

أول ما تنبه اليه حين ندرس هذا العصر أن الظروف قد تغيرت ، وأصبحنا في عالم جديد يختلف تمام الاختلاف عن العصر العربي الأول ، ويخالف على الأخص فكرة مثالية كانت ماثلة في أذهان المؤرخين القدماء ، ولا تزال الى حد كبير ماثلة في أذهان بعض المعاصرين اليوم ، وهي أن الخلافة وحدة لا يجب أن تتجزأ ، وأن قوة العالم الاسلامي تقاس بضعف الخلافة وقوتها . ولكن هذا المقياس غير صحيح لأنه مقياس مبني على فكرة مثالية هي فكرة احياء التقاليد الأولى الأموية ، وفكرة جمع العالم الاسلامي على اختلاف أقطاره في يد واحدة هي يد الخلافة ، مع أن المقياس التاريخي يجب أن يبنى على الوقائع المادية . فان الخلافة قد تجزأت فعلا ، وأصبح كل اقليم مستقلا استقلالاً ذاتياً عن الخلافة ان كان اقليماً سنياً . أو مستقلاً كل الاستقلال عنها ان كان يدين بمذهب غير سني ، كدول الخوارج ودول الشيعة التي كانت لا تعترف بسلطان الخلافة العباسية .

وفكرة الجماعة كانت فكرة لها أهميتها الكبيرة في العصر الاسلامي الأول ، ولها تأثيرها في أذهان المسلمين في ذلك الوقت ، فهي التي أوجت للحسن بن علي أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية . وفكرة الجماعة التي حققها عبد الملك بن مروان هي التي جعلته أفضل من عبد الله بن الزبير مناخسه في الخلافة ، مع أن عبد الله بن الزبير كان أحب للمسلمين من عبد الملك .

ثم ضعفت هذه الفكرة في أواخر العصر الأموي ، فلما جاء العصر العباسي لم نجد لهذه الفكرة أثراً . فهذا العصر العباسي كله لم يتأثر بفكرة الجماعة كما تأثر بها عصر الراشدين والأمويين ، وحلت محل فكرة الجماعة الأساسية فكرة أخرى هي فكرة الصوالمح الاقليمية أو الصوالمح الشعوبية ، بمعنى أن كل اقليم أو كل جنس كان ينزع بطبعه الى الاستقلال بأموره عن الخلافة والى اختيار حكومة قوية تنهض فيه وتدافع عن مصالحه باسم الخلافة البعيدة . فالعصر العباسي كله يختلف اختلافاً

جوهريا عن العصرين السابقين عليه ، ومصدر هذا الاختلاف هو اتصاف المبادئ التى نادت بها الثورة العباسية ونعنى من بينها هنا مبدأ المساواة ومبدأ الإصلاح •

ففكرة الجماعة قد ذهبت وحل محلها فكرة جديدة هي فكرة حقوق الشعوب ، أو ما سماه القدماء بالشعبوية ، وما نسميه الآن بالقوميات • ففى هذا العصر ظهرت قوميات فى العالم الاسلامى ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية يتلمس شخصيته القومية ، ويحاول أن ينميها ، وأن يرفع الى مستوى الاستقلال ، بحيث أن الزمن لم يمتد الا يسيرا حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها رضيت الخلافة أم كرهت •

ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية ، لأن المعارضة الشيعية والمعارضة الخوارجية كانت تشجع هذه النزعات ، وكانت الخلافة اذا قاومت لا تجنى من وراء المقاومة الا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الاكراه لا عن طريق التقليد •

ان الأمصار الاسلامية التى رأيناها فى عصر الراشدين والأمويين تخضع للسلطة المركزية فى المدينة أو فى دمشق ، وتستلهمها التوجيه ، وتوفد اليها الحاضرة ولادة أو عمالا تطول اقامتهم أو تقصر ، ينفذون ما يرسم الخلفاء من سياسات أو ما يصدر من أوامر • هذه الأمصار شهدت خروجاً على هذه المركزية وشهدت عمالا لا تطول اقامتهم أو تقصر ، وانما يورثون ويظفرون باستقلال محلي للبلاد التى يحكمون فيها •

وقد وضحت جذور هذا التطور منذ فجر الدولة العباسية وفى عنفوان قوتها فقد استقل عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بالداخل) بالاندلس ، وقام عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية بثورة على الأمويين

واعترف به العباسيون أميرا مستقلا (١) . وشهد المغرب قيام الدولة البرستمية في تاهرت والأدارسة بالمغرب الأقصى ، والأغالبة بتونس ، والطاهريين في إيران . لكن هذه الظاهرة وضحت واتسع انتشارها في القرن الثالث ، فظهر الصفاريون بسجستان ، والسامانيون في بلاد ما وراء النهر ، والغزنويون في بلاد الهند ، والطولونيون والاختشيديون في مصر والشام .

هذه التطورات لم تكن مجرد ظهور مغامرين يستقلون بهذا البلد أو ذلك ، إنما كانت أعمق من ذلك بكثير . كانت تطورا بعيد المدى في التاريخ الاسلامي وفي الحضارة ، وهي بقدر مالها من هذه الأهمية تحتاج الى استكناه حقائقها في دراسة متخصصة نأمل أن توجه اليها جهود الدارسين .

يرى بعض الدارسين في ذلك انحلالا وتفككا للدولة الاسلامية ، وبداية الكارثة التي أودت بوحدة المسلمين ، ويردون ذلك الى عاملين هما : ضعف السلطة المركزية ، ثم نمو سلطات الولاة على حساب الخلافة . والحقيقة أن هذه التطورات لم تكن تفككا وانحلالا للدولة الاسلامية ، فقد دان هؤلاء الأمراء في الاقاليم بالطاعة للخلافة واعترفوا بنفوذها الروحي : يدعون للخليفة على المنابر ، ويكتبون اسمه على السكة ، ويشاركون في الجهاد . وكانت الخلافة تتدخل في بعض الأحيان تدخلا مثمرا ، فتترد المنحرفين من أمراء الأقاليم حين يجاوزون حدود الخدمة العامة ، أو حين يشتمد بهم الطموح للسيطرة والدخول في منافسات تضر بالأقاليم الاسلامية ، أو حين يعجزون عن أداء وظائفهم في الدفاع عن أقاليمهم أو تنمية مصالحها . فقد قضت على الدولة الطولونية في

(١) كان عبد الرحمن بن حبيب أميرا شبه مستقل منذ سنة ١٢٧ هـ ، وقد اعترفت به الخلافة العباسية وأقرته أميرا مستقلا بولايته ، ثم خلع طاعة المنصور وأعلن استقلاله حتى خرج عليه أخوه وقتله .
انظر : المغرب الكبير : ص ٣٢٣ — ٣٣٣ .

مصر والشام حين ضعف حكامها ودخلوا فى منافسات داخلية ضارة ، وكذلك ضربت الصفاريين حين اتجهت جهودهم الى تغلب داخلى فى جسم الدولة ، كما ساندت السامانيين للحلول محل الدولة الطاهرية التى فقدت فاعليتها ، وشجعت الغزنويين حين نهضوا بأمر الثغر الهندى ولقيت محمودا الغزنوى « يمين الدولة » اذ كان يرعى الذراع الأيمن من جسم الدولة الإسلامية فى المشرق ، كما ظهرت الاخشيديين فى محاولتهم الدفاع عن حدود مصر الغربية لرد هجمات الفاطميين ، وحتى فى أثناء ضعف الخلافة لم يكن المجال فى مركز الخلافة خاليا من القوة ، فالخلافة فى أثناء ضعفها انما تنازلت عن حقيقة السلطان لسلطة الوزير أو سلطة أمير الأمراء فلم يكن المجال خاليا من سلطة قوية قادرة على ضبط الأمور وتسيير الحوادث •

لقد كان العالم الإسلامى تجمعه وحدة الخضوع الاسمى للخليفة المسلمين ، ووحدة الولاء العميق للإسلام ، والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة هذا الدين ، والوقوف فى وجه الأخطار التى تتهدد العالم الإسلامى •

ومن الاسراف أن نرد نمو هذه الظاهرة الى ضعف الخلافة ، فقد أيننا هذه المحاولات الاستقلالية تتضح فى فجر الدولة العباسية ، فقد ستنقل عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس أول العهد بقيام الدولة العباسية • وظهرت بعض هذه الدول فى عصر المأمون • بل هذه الخلافة فى بعض الأحيان تشد أزر هذه الحركات الاستقلالية وتدفعها دفعا ، رغبة منها فى حماية بعض مناطق الأطراف أو عجزا عن حكم هذه الأطراف حكما مباشرا ، وليس أدل على ذلك من قيام دولة الأغالبة فى تونس بتشجيع من الخلافة العباسية •

كانت هذه الحركات فى الحقيقة تعبيرا عن أمرين : عن القومية • وعن الاقليمية • ذلك أن الإسلام حينما انتشر ذلك الانتشار العظيم

فوق هذه الرقعة الفسيحة من الأرض قهر قوميات لها عرافتها فى التاريخ والحضارة ، قهر الفرس والمصريين والبربر والقوط • هذه القوميات بعد أن أسلم أصحابها واستكافوا زمنا للحكم الخلافى المركزى ، لم يكن من المعقول أن يطول خضوعهم ، بل المعقول أن تجد هذه القوميات لها منافسها فى هذه الحركات الاستقلالية التى حفل بها تاريخ الاسلام فى هذه الفترة •

ولعل أبلغ ما يعبر عن هذه القوميات الساعية الى التحرر والمساواة ظهور الشعوبية فى ايران • فالموالى من الفرس كانوا من وراء النجاح الذى حققه العباسيون ، فظفروا بمساواتهم بالعرب ، بل أشراهم ضعف العصبة العربية وتفرقها فى الأمصار ، وتخلى العباسيين عنها وتنكيلهم بها ومحاربتهم لها ، الى محاولة الفوز بكل النفوذ والسلطان ، بل طما بهم طمعهم الى محاولة النيل من كل ما هو عربى ، وبلغت حركاتهم هذه أوجها فى القرن الثالث الهجرى ، فأصبحت هجوما سافرا يريد أن يشوه كل ما ينسب للعرب من تراث ، فأكثروا من التأليف فى مناقب العجم ووضعوا الكتب فى مثالب العرب ، ودسوا على الأدب والتاريخ نصوصا اختلقت للحط من شأن العرب •

هذه الحركات ليست مجرد شعور بالحقد والكراهية للعرب ، بقدر ما هى تعبير عن القومية الفارسية ، وهذا التعبير لم يتخذ هذا المجرى الثقافى الأدبى وحسب ، ولكنه التمس له طريقا سياسيا فى صورة الدويلات الفارسية التى ظفرت باستقلالها فى ايران •

وكانت محاولات الأندلسيين والمغاربة والبربر والمصريين فى الاستقلال تعبيرا عن قومياتهم التى لبست لبوسا اسلاميا ، والتمست لنفسها تعبيرا اسلاميا ، فهى تريد أن تستقل ، وهى تعترف بالخليفة رأسا للدولة الاسلامية ورمزا للوحدة الاسلامية • فهذه الحركات الاستقلالية اذن تعبير واضح عن هذه الشعوبية أو هذه القوميات التى دانت للاسلام ، ورسلت فى طاعته •

وهى ليست تعبيراً عن القومية فحسب ، بل هى صورة للصراع المتلازم دائماً بين الاقليمية والمركزية فى كل دولة امتدت أطرافها فى العالم وحكمت أقاليم متباينة . فالدولة الاسلامية دخلت فى طاعتها أقاليم جغرافية متباينة جنساً ولغة وطبيعة ، وهى وان كانت قد دانت للسلطة المركزية قرناً أو قرنين ، فانها سرعان ما فرضت نفسها على التاريخ والحوادث ، مخفية وراء هذه الحركات الاستقلالية ، وملتمسة ضعف الخلافة أو الشغالة . وكيف يمكن توحيد عالم بأسره ، ممتد من الصين الى المحيط الأطلسى فى سلطة متمركزة فى بغداد ؟ !

وثمة حقيقة أخرى وهى أن هذه التطورات كانت انتصاراً حقيقياً للدعوة الاسلامية ولروح الاسلام . فالاسلام كما نعلم لم يفرض امتيازاً للعرب على حساب غيرهم من سائر المسلمين . فاذا كانت هذه القوميات قد تحررت وبرزت فذلك من نعمة الاسلام .

واذا كان كتاب التاريخ الاسلامى قد نظروا الى هذه التطورات نظرة التشاؤم ، ورأوها نذيراً بسقوط الخلافة الاسلامية وتفرق شملها العالم الاسلامى ، ومقدمة للحوادث المفجعة التى أصابت العالم الاسلامى على يد المغول والصليبيين ، وعقدوا المراثى للخلافة كنظام فريد انشأه العرب ورعاة الاسلام ، فان مؤرخى الحضارة يرون أنها طبيعة التنافس بين البيئات الاسلامية فى الانتاج الثقافى ، ذلك التنافس الذى هيا لعصر النهضة الاسلامية الشاملة .

واذا كانت هذه الحركات الاستقلالية نتيجة لنمو الشعور القومى ، واستجابة للظروف الجغرافية ، فانها كانت فى نفس الوقت استجابة لمصالح العالم الاسلامى الكبير الذى تنتمى اليه . وكانت كل دولة من هذه الدول التى استقلت - الى جانب تحقيقها للدافع القومى والمصلحة الاقليمية - تقوم بمهمة كبيرة لصالح العالم الاسلامى ، وكانت قيمة كل من هذه الدول وأهميتها تتحدد بمقدار خدمتها التى تؤديها ، فطالما

نهضت بالعبء الذى يلقى على عاتقها فى خدمة العالم الاسلامى والدفاع عنه ومد نفوذه • بقيت قائمة ونالت احترام المسلمين وعطفهم • أما اذا عجزت أو انزلت فى صراعات داخلية ، فانها كانت تفقد أهميتها ، ثم لا تلبث أن تسقط ليحل محلها من هو أقدر منها • ولذلك فان أهم الدول المستقلة هى الدول التى قامت فى مناطق الثغور الاسلامية سواء فى المشرق أو فى المغرب • أما الدول التى قامت فى وسط المنطقة الاسلامية وحاولت أن تقتطع لنفسها ملكا ، ولم تشارك فى نشاط العالم الاسلامى الخارجى ، ولم تتفاعل مع أحداثه العامة ، فانها كانت دولا قليلة الأهمية ، كما لم يستمر بقاءها طويلا ، مهما كانت القوة التى تعتمد عليها •

وتتبع بعض مظاهر الحركات الاستقلالية فى جميع الأوطان الاسلامية لنتبين هل كانت هذه الحركات تعبيرا صحيحا عن القومية فى الاقليم الذى قامت فيه ، وهل كانت ضرورة من ضرورات المصلحة العامة لخدمة العالم الاسلامى ، وهل أدت هذه الخدمة وما مدى نجاحها فيها •

ونستعرض هذه الحركات مبتدئين بالقسم الغربى من العالم الاسلامى ، ثم بقسمه الشرقى • ونحن فى استعراضنا لهذه الحركات الاستقلالية انما نسير مع التتابع الزمنى لظهور هذه الحركات ، وهى من حيث تتابعها الزمنى قد بدأت فى المغرب قبل أن تبدأ فى المشرق ، وليس ذلك لأن ظهور الروح القومية قد بدأت فى المغرب قبل المشرق ، وانما لأن عاملا آخر أظهرها فى المغرب ذلك هو عامل المعارضة التى قامت فى وجه الدولة العباسية منذ قيامها •

الفصل الأول

الحركات الاستقلالية في المغرب الاسلامي

كان المغرب الاسلامي مركز القوة للدولة الأموية منذ قيامها ، وظل يمثل القوة التي تستند اليها طوال مدة حكمها ، بينما كان المشرق مركز المعارضة التي قامت في وجه الحكم الأموي منذ بدأ الصراع بين الخليفة على بن أبي طالب الذي اتخذ الكوفة عاصمة له ، وبين معاوية بن أبي سفيان والي الشام ، وظل العراق ومن ورائه المشرق كله بيئة غير طيعة في يد بني أمية طوال مدة خلافتهم ، بينما احتفظ المغرب بولائه للدولة الأموية برغم نزوع الشمال الأفريقي الى الاستقلال وبرغم انتشار الخوارج فيه ، فلم تتجه اليه المعارضة الشيعية طوال العصر الأموي •

فلما نجحت الثورة العباسية بقوة المشرق ، تدهورت المعارضة الموالية لبني أمية وللنفوذ العربي الى المغرب وكذلك انقلب الوضع وصار المغرب هو البيئة المعارضة ، وأصبح بيئة غير طيعة في يد الخلافة العباسية ، ومن ثم انفتح أمام المعارضة الشيعية العلوية التي وجدت فيه ملجأ بعيدا عن القوة العباسية • وفي بيئته التي اتسمت بالمعارضة استطاع العلويون أن يقيموا لهم دولا تناوىء الخلافة العباسية معتمدة على القوميات التي بدأت تظهر في المغرب ، ولم يمض أكثر من قرن ونصف حتى قامت دولة شيعية علوية في أفريقية قدر لها أن تنتزع المغرب كله من يد الخلافة العباسية ، ونعنى بها الدولة الفاطمية •

وكذلك فرت الفلول الأموية التي نجت من التكنيل العباسي الى المغرب البعيد (١) • والذي كان في الحقيقة طرفا بعيدا جدا عن مركز الدولة العباسية التي اتخذت العراق مقرا لها ، ولجأت الى اقليم كان

(١) ابن خلدون : ج ٣ ، ص ١٧٠ •

لبنى أمية فيه موال استطاعوا أن يحموا الأمير الأموي الذي لجأ اليهم ، وأن يعينوه على الوصول الى الحكم منتهزين الخلافات الداخلية بين الأطراف المتنازعة فى الأندلس ، والرغبة التى بدت ظاهرة فى هذا الاقليم للنزوع الى الحكم الذاتى (١) ، وحتى فى العهد الأموي لبعده عن مركز العالم الاسلامى ولمواجهته لثغر بدأت تبرز خطورته فى ذلك الوقت . ولذلك كانت الأندلس أول اقليم انفصل عن حكم الدولة العباسية ، وكان انفصاله عنها انفصالا تاما ، لأن الأمير الذى قام بهذا الانفصال كان يعارض الحكم العباسى ولايعترف به ، شأنه فى ذلك شأن المعارضة العلوية التى لجأت الى المغرب بعد ذلك بقليل .

لذلك نبدأ فى استعراضنا للحركات الاستقلالية فى المغرب بالطرف البعيد وهو الأندلس ، ثم نسير متتبعين الأقاليم من المغرب الى الشرق .

الأندلس

أهم ما يلاحظ أن بلاد الأندلس فتحت فى عصر متأخر ، فقد تم فتحها فى عصر الوليد بن عبد الملك سنة ٩٥ هـ (٢) . ورغم حداثة عهدها بالفتح فانها بدأت تعبر عن شخصيتها الاسلامية تعبيرا مبكرا جدا ، ذلك أن الحركة الاستقلالية ، فيها ترجع الى سنة ١٣٨ هـ (٣) ، وهذه الظاهرة جديرة بالالتفات اذ أنه فى نحو أربعين سنة ، قطعت الحركة الاسلامية فى بلاد الأندلس شوطا كبيرا جدا وبدأت فى ظهورها ونموها أقوى من الحركات الأخرى . والسبب الذى أدى الى نجاح الحركة الاسلامية يرجع الى ناحيتين :

١ — ان الحكم السابق على حكم العرب ، وهو حكم القوط ،

(١) دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ٢٢٠ .
اخبار مجموعة ، ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) الطبرى : ج ٦ ، ص ٤٦٨ — ٤٩٤ (طبع دار المعارف) .

(٣) ابن القوطية : الافتتاح ، ص ٢٤٠ — ٢٧٧ . اخبار مجموعة ، ص ٧٠ وما بعدها .

كان حكما أجنبيا مفروضا له مظهره العسكرى ومظهره الدينى ، وكانت له مساوئه التى كان أبرزها عظم نفوذ الكنيسة وتسلط رجال الدين ، واستحواذ الكنيسة على قدر كبير جدا من الأراضى الزراعية واعفائها من دفع الضرائب . وكذلك انقسام المجتمع الى طبقات متميزة تستمتع فيها الطبقة العليا من النبلاء ورجال الدين بكل المميزات السياسية والاقتصادية ، بينما ترزح الطبقات الأخرى التى تكون الغالبية العظمى من الشعب ، من التجار والزراع وصغار الملاك ، ثم رقيق الأرض الذين يعسرفون بالأقنان « Serfs » أو عبيد الأرض تحت عبء الضرائب الفادحة ، والعمل المرهق لاشباع نهمة الحاكمين ، مضافا الى ذلك طبقة العبيد من أسرى الحروب التى كانت تثن تحت وطأة العبودية ، وكان حرمان هذه الطبقات العاملة فى المجتمع من الحقوق العامة واثقالها بالأعباء الجسيمة ، يبعدها عن أن يكون لديها أية اعتبارات وطنية أو أية روح قومية ، الأمر الذى يجعل مثل هذا النظام الفاسد عرضة للانهايار عند أول صدمة (١) ، ويسرع بهذه الطبقات المغبونة الى أى نظام يرد اليها اعتبارها أو يخفف عنها ، وقد وجدت فى الاسلام هذا النظام الذى يرفع عنها هذا الظلم الذى تعيش فيه .

٢ — والسبب الأهم من هذا هو أن عنصر الهجرة كان له دور كبير جدا فى نشر الاسلام فى الأندلس ، فقد تم فتح الأندلس على يد العرب والبربر من أهل أفريقيا ، واستتبع الفتح هجرات مغربية وهجرات عربية ، فلقد كان قرب الأندلس من بلاد المغرب ، سببا فى هجرات جماعات كبيرة من أهل الشمال الأفريقى ، كما أن الظروف التى تلت الفتح استتبعت توالى الجيوش العربية على الأندلس ، وكانت هذه الجيوش تقيم فى الأندلس وتتبعها قبائل عربية للإقامة بصفة نهائية . ولا تكاد توجد مدينة أندلسية أو ولاية أندلسية الا وفيها مهاجرون من هؤلاء وهؤلاء ، وقد اختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم . ولم يلبث

(١) عبد الحميد العبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس ، ص ٤٣ — ٤٦ .

إن نشأ جيل جديد كبير من المولدين ، كما كان هذا الاختلاط سببا
فى نمو الحركة الاسلامية نموا مبكرا ، بالإضافة الى التغييرات التى
أحدثها الفتح العربى فى التنظيم الاجتماعى فى الأندلس ، فقد زالت طبقة
النبل و ضعف نفوذ الكنيسة و تهاوى سلطاتها ، مما أدى الى دخول
كثيرين من أفراد الطبقات التى كانت مهضومة واستردت حقوقها بالفتح
فى الاسلام وكذلك العبيد الذين وجدوا فى اعتناق الاسلام فرصة للتحرر
ونيل الحقوق (١) .

وبعد أن اكتسبت بلاد الأندلس هذه الصفة الاسلامية ، بدأت تعبر
عن نفسها تعبيراً استقلالياً ، اذ بعد استقرار الفتح أخذت الأندلس
تكون شخصيتها شيئاً فشيئاً ، وتأخذ استقلالها الإدارى ، بحيث نجد
فى آخر العهد الأموى أهلها يولون والى وعلى الخليفة أن يوافق على
ذلك . ثم تم لها الاستقلال فى أول عهد الدولة العباسية بقيام الإمارة
الأندلسية فى البلاد .

قد استطاع أمير أموى فار من وجه العباسيين هو عبد الرحمن
ابن معاوية أن يصل الى الأندلس وأن يؤسس إمارة مستقلة . وقد لقيت
هذه الإمارة تأييداً من السكان الراغبين فى الاستقلال ، الأمر الذى
مكّنها من الصمود فى وجه محاولة الدولة العباسية للقضاء عليها ،
وضمن لها البقاء . وقد ظلت بلاد الأندلس مستقلة تحت حكم الأمراء
من بنى أمية حتى سنة ٣١٦ هـ .

وفى هذه السنة قام الأمير عبد الرحمن الثالث الأموى الملقب
« بالناصر » بإعلان الخلافة الأموية فى الأندلس بعد أخذ رأى العلماء
ورجال الدولة . وكان ظهور الخلافة الأموية معناه أن التطور الاستقلالى
بلغ أقصى ما يمكن أن يصل اليه . وظلت هذه الخلافة الأموية حتى
سقطت حوالى نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجرى . وكان

سقوطها مقدمة لظهور المغاربة فى تاريخ الاسلام فى هذا الجزء الغربى
من الوطن الاسلامى •

ذلك أن سقوط الخلافة الأموية فى سنة ٤٢٢ هـ أدى الى انقراط
عقد الوحدة الأندلسية ، واستقلال كل أمير بمقاطعته وعلان نفسه ملكا
عليها ، وقد بلغت الأسر الحاكمة فى الأقاليم نحو عشرين أسرة مستقلة
فى عشرين مدينة أو مقاطعة ، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف • وقد أدت
هذه الفرقة الى ضعف الأندلس ، وعجزها عن الصمود أمام الممالك
المسيحية التى أخذت تتوحد فى شمال أسبانيا ، وتزحف الى الجنوب
مستولية على البلاد شيئا فشيئا ، الأمر الذى حدا بالمعتمد بن عباد ملك
إشبيلية الى الاستعانة بالمرابطين الذين ظهر أمرهم فى شمال أفريقيا •
فاقتحموا المجال الأندلسى وقهروا المسيحيين فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ
١٠٨٦ م ، ثم قضوا على ملوك الطوائف ووحّدوا الأندلس ، لكنهم
ما لبثوا أن خرجوا عن البلاد ، التى عادت الى حالتها أيام ملوك الطوائف
من التشتت والضعف ، الأمر الذى جعل الموحدين فى المغرب وهم الذين
ورثوا ملك المرابطين ، يوجهون اليها جيوشهم فيهزمون الأسبان هزيمة
كبيرة فى موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٥ م • لكنهم ما لبثوا أن
هزموا فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م أمام الأسبان الذين دعوا
لحروب صليبية تجمع لها المتطوعون من فرنسا وألمانيا وإنجلترا
وايطاليا • واضطروا آخر الأمر الى الخروج عن الأندلس التى تقلص
ملكها حتى انحصر فى مقاطعة غرناطة • وقد استمرت تصارع ببسالة
الزحف الصليبي من ٦٣٠ هـ الى ٨٩٧ هـ حيث سقطت ، وبسقوطها زال
العرب والاسلام من أسبانيا (١) •

لقد أدت الدولة الأموية فى الأندلس دورا واضحا فى الناحيتين
السياسية والحضارية • وأهم دور قام به الأمويون فى الناحية السياسية
هو أنهم ظهروا فى وقت هام ، وهو ظهور الامارات المسيحية فى شمال

(١) المجلد فى تاريخ الأندلس : صفحة ١٧٠ — ١٩٦ •

الأندلس وسعيها لاسترداد الأرض التي فتحها العرب ، وكذلك ظهور
الامبراطورية النربية التي أنشأها شارلمان ، وقيام تحالف بين الامبراطورية
الشرلمانية وبين الامارات المسيحية في الأندلس . هذا التحالف الذي
كان له هدف صليبي هو طرد المسلمين من الأندلس واسترداد البلاد التي
فتحوها . وكان ظهور الدولة الأموية تأجيلا لهذا الهدف الصليبي حتى
سنة ٨٩٧ هـ وهي السنة التي سقطت فيها غرناطة .

كما كان للأمويين في أسبانيا دورهم في التاريخ الثقافي ، فظهرت
الثقافة الإسلامية في مدن الأندلس مثل قرطبة وطليطلة واشبيلية
وغرناطة ، وبلغت أوجا كبيرا من التقدم ، كما ظهر الفن الإسلامي
الأندلسي في عصر الامارة واستمر على طول التاريخ الأندلسي يزدهر
متخذاً أيضاً مثل هذا الطابع المستقل .

وبذلك أسهمت الأندلس المستقلة في خدمة العالم الإسلامي الكبير
في ناحيتها ، سواء من الناحية السياسية أو الحضارية ، وعلى الرغم من
قيامها في طرف بعيد وعلى الرغم من استقلالها التام وعدم اعترافها
بالخلافة العباسية ، فانها ظلت جزءا من الوطن الإسلامي ، وظلت مفتوحة
أمام التيارات الحضارية التي كانت تتدفق زاخرة في حركة أخذ وعطاء
بين كل أجزاء الوطن الإسلامي .

ثم ان استقلال هذه المنطقة من غير شك أدى الى انتعاش كبير فيها
من الناحية الاقتصادية والعمرانية ، كما أدى الى استقرار أحوالها
الداخلية الى حد كبير جدا .

بلاد المغرب الأفريقي

بدأت شخصية المغرب الأفريقي في الظهور منذ أواخر العصر الأموي ،
ولكن ظهورها اتخذ شكلا واضحا في بداية العصر العباسي ، وقد أعان
على ظهور شخصيات المغرب تفهقر المعارضة اليه واتخاذها مركزا لنشاطها
(٢٦ هـ — العصر العباسي)

وكان للمعارضة أطراف ثلاثة : المعارضة الأموية ، وقد رأينا كيف فرت إلى الطرف البعيد من المغرب الإسلامي ، واستقرت في الأندلس وأسست لها فيه دولة مستقلة على يد عبد الرحمن الداخل * والمعارضة الخوارجية ، والمعارضة الشيعية ، وقد توزعتا بين المشرق والمغرب ، ولكن مجالها في المغرب كان أقوى منه في المشرق * .

ونلاحظ أن المعارضة الخوارجية كانت تلجأ دائما إلى المناطق التي تتفق روح أهلها مع مبادئ الديمقراطية ، فنراها في المشرق في العصر العباسي تنتشر في مناطق القبائل العربية حيث الروح القبلية النزاعة إلى الحرية وإلى المبادئ الديمقراطية ، فتظهر في الجزيرة العربية : في شمالها وبخاصة في منطقة الموصل (١) ، وفي الجنوب في اليمن وعمان (٢) ، كما تظهر في المغرب الأفريقي حيث القبائل البربرية التي تسودها هذه الروح القبلية * وإذا كان انتشار المبادئ الشيعية في المشرق يعبر عن الميل الفارسية ، فإن انتشار مبادئ الخوارج في المغرب كان تعبيرا عن الميل المغربية التي ألقت الحرية كالقبائل العربية * .

وسكان أفريقية من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي وهم من أطلق عليهم اسم «البربر» جنس خشن غصوب ، محارب ، شديد الغيرة على حرته ، يشبه العرب التي حد كيز ، وصفهم القائد العربي موسى بن نصير فقال « البربر أشبه العجم بالعرب ، لقاء ونجدة وصبرا وفروسية (٣) » ، وهم مثل معظم القبائل العربية في معيشتها في الجزيرة ، بدو رحل يعيشون في أرض محدودة ، ويشنون الحروب على نفس طريقة القبائل العربية ، وهم كالعرب قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم ، لأن الاحتلال الروماني لبلاد الشمال الأفريقي ظل مقصورا على الساحل * ثم هم كانوا في حياتهم السياسية والاجتماعية يتبعون نفس النظام الذي

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦١ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٢٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢١١ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

كانت تمارسه القبائل العربية وأعنى به الديمقراطية فرؤساؤهم من أنفسهم على أساس المناقب الشريفة (١) : ومن ثم وجد العرب فيهم عند فتح شمال أفريقيا ندا شديدا الشكيمة ، ولم يستطيعوا التغلب عليهم الا بعد أن أشعروهم بتقديرهم لهم واحترامهم لكبريائهم ولم يعاملوهم كمغلوبين بل كاخوة على قدم المساواة . والويل لمن كانت تحدثه نفسه من ولادة الدولة بمس كبريائهم ، فقد هيا العرور ليزيد بن أبي مسلم عامل أفريقية في عهد يزيد بن عبد الملك أن يعامهم معاملة العبيد فوثبوا عليه فقتلوه (٢) .

ولقد اتسمت سياسة الدولة الأموية بالتعصب للعرب على غيرهم من الشعوب ، كما اتسمت سياستهم الاقتصادية بالشدّة ضد الشعوب المغلوبة ، هذه السياسة التي رسمها الحجاج بن يوسف الثقفي وأنفذها عمال الدولة في كل الأقاليم ، وهي ابقاء الجزية على من أسلم من الموالي ، وذلك لأن امتداد الحركة الإسلامية كان قد اشتد ، وأخذت أعداد كبيرة من أهل البلاد المفتوحة تدخل في الاسلام ، فقلت موارد بيت المال بسبب نقص الجزية ، ولما كانت في حاجة شديدة الى المال لتواجه المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تواجهها ، فقد حرصت على ابقاء هذه الموارد ، كما اشتطت في جمع الخراج وزادت من مقدار الجزية ، الأمر الذي أغضب أهل البلاد المفتوحة وأثارهم ضد الدولة .

وقد وقع هذا الجور على البربر في شمال أفريقية ، حيث عاملهم عبيدا لله ابن الحبحاب عامل هشام بن عبد الملك معاملة قاسية « أراد أن يخمس نفسه البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين ، وذلك شيء لم يرتكبه أحد قبله (٣) » واستولى على معظم قطعان أغنامهم وذبحها ليحصل منها على الصوف الأبيض الذي أغرم بلبسه أهل دمشق ، بل لم يكتف بتجريدهم

(١) دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا (ترجمة حسن حبشي) ، ج ١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر عن التنظيم القبلي . أحمد ابراهيم الشريف : حكمة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٢٤ — ٣٠ .
(٢) الطبري : ج ٦ ، ص ٦١٧ (طبعة دار المعارف) .
(٣) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ٧٥ .

من هذه القطعان التي كانت أهم مصادر حياتهم ، وإنما اغتصب الجميلات من بناتهم وأرسلهن الى الشام ليعملن في القصور (١) .

وغلل البربر يكظمون غيظهم أكثر من خمس سنوات يجمعون ولا يفصحون ، ويطوون صدورهم على سخائم لا يمنعهم عن كثفة دفيها غير الخوف من وجود جيش كثيف (٢) .

الا أنهم كانوا يتهيئون للثورة التي اتخذت مظاهرا دينيا أكثر منه سياسية ، ذلك أن الشعب البربري في بساطته متدين بطبعه ، شديد الإيمان فيما يعتقد مسرف في توقيره للمتدينين ، ولم يكن ينظم قبائلهم في حركة عامة الا شخصية دينية ، ولهذا لم يقدر للبربر أن يلعبوا دورا هاما على مسرح العالم الا حينما حركتهم شخصية دينية هي شخصية المرابطين ، وهم قد أسلموا قيادهم من قبل لامرأة متنبئة — هي الكاهنة — كانوا يعتقدون أن لها قوة خفية فوق الطبيعة ، قادتهم زمنا في صراعهم ضد العرب في أيام الفتح .

في ذلك الوقت كان الاسلام سائدا في أفريقية ، فقد تقدم بخطى سريعة في أيام الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ، حتى ليقول المؤرخ ابن عبد الحكم انه لم يبق في عهد عمر بربري واحد لم يعتنق الاسلام ، وقد يكون في هذا القول بعض المبالغة ، وقد لا يكون كثيرون دخلوا الاسلام عن اقتناع وأن المنفعة الشخصية لعبت دورا كبيرا في هذا الوقت ، اذ أن عمر بن عبد العزيز كان أهم غاية له في حياته أن ينشر الاسلام في كل بقاع الدولة التي يحكمها العرب ، فلم يدخر وسعا في اصطناع كل وسيلة تؤدي الى زيادة عدد المسلمين ، وكان يكفى عنده أن يقول المرء « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » لترفع عنه

(١) اخبار مجموعة : ص ٣١ ، ٣٢ . ابن عذاري : ج ١ ، ص ٣٩ .

(٢) دوزي : ج ١ ، ص ١٤٤ .

الجزية ، تاركا للزمن أن يقوى من ايمان هؤلاء المسلمين الجدد الذين دخلوا في الاسلام على هذه الصورة الهيبة .

ولقد أكدت الأيام بعد نظر الخليفة الورع ، وبخاصة فيما يتعلق بسكان الشمال الأفريقي ، اذ لم يلبثوا أن ألفوا الاسلام وتعلقوا به وأصبح أعز ما لديهم . وهم حين دخلوا الاسلام دخلوه ببساطة البدوى الساذج ، فلم يفهموا بطبيعة الحال قضايا الدققة التي تطرب لها العقول المثقفة ، ولكنهم فهموا منه جانبه العاطفى القومى ، ووافق هوى فى نفوسهم ما يدعو اليه من المساواة والعدالة . فلما افتقدوا تلك المساواة والعدالة فى حكم عمال بنى أمية بعد عهد عمر بن عبد العزيز انحازوا الى جانب الخوارج الذين اتجهوا الى المغرب بعد أن عصفت بهم الدولة فى المشرق ، فوجدوا فى الشمال الأفريقى البعيد ملجأ يتخفون فيه ، ووجدوا فيه تربة صالحة لزراعة مبادئهم ، فصادفوا نجاحا منقطع النظير . واذا كان المشرق الاسلامى قد ضاق بشدة الخوارج وتعصبهم ، فان سكان الشمال الأفريقى تلقوا آراء الخوارج فى حماسة بالغة دون بحث عن أفضل الجماعات التى يتصلون بها ، فلم يكن يهمهم أن تكون هذه الجماعة حرورية أو صفرية أو اباضية ، وانما أخذوا مبادئ الخوارج عموما أخذاً قويا لاحتضانها للأفكار الثورية الديمقراطية ، والتقى تقنعهم بأن مضعديهم ملعونون وسيكون مأواهم النار .

ولم يكن الخلفاء جميعهم بعد عمر بن الخطاب — فى نظرهم — سوى مغتصبين كفر ، ومن ثم لم يكن من الاجرام أن يثوروا ضد الطاغية الذى سلبهم متاعهم ونساءهم ، بل عدوا ذلك حقا واجبا عليهم .

ولما كان العرب قد نحوهم — حتى ذلك الحين — عن السلطة ، ولم يتركوا لهم الا ما عجزوا عن ادارته من حكومة القبائل ، فقد أصبح من اليسير عليهم أن يفهموا أن عقيدة سيادة الشعب التى ينادى بها الخوارج — وهى العقيدة التى مارسها البربر من زمن بعيد فى استقلالهم

القبلى — انما هى العقيدة الاسلامية الخالصة • ولما كان هذا الشيعى الذى أسرف عمال بنى أمية فى الضغط عليه ، قد آثاره متعصبين أنصاف وعاظ وأنصاف محاربين وكانت لهم ترات قديمة مع الجماعة المسماة بأهل الجماعة ، فقد كان فى طريقه الى تحطيم ذلك النير باسم الله ورسوله ، وباسم هذا الكتاب الكريم الذى يعتمد عليه الآخرون • افتتاحا — فى قيام استبدادهم الجائر (١) •

كانت النفوس تأثرة اذ ذلك ، ولم تكن تنتظر الا اللحظة المناسبة لتمتشق الحسام ، وقد واثت هذه اللحظة حينما أرسل عبيد الله بن الحجاج سنة ١٢٢ هـ قسما من جيشه فى حملة الى صقلية • فما كادت الحملة تبصر حتى كانت أدنى شرارة كافية لاشعال نار الثورة ، ولقد جاءت هذه الشرارة فى صورة عمل طائش قام به عمر بن عبد الله حاكم شمال مراكش من قبل ابن الحجاج ، اذ أمر بربر اقليمه بدفع الجزية مضاعفة كأن لم يكونوا مسلمين ، فسرعان ما انتضوا السلاح ، وحلقوا شعورهم ورفعوا القرآن على أسنة رماحهم كما جرت سنة الخوارج (٢) • وتداغت البلاد بأسرها مسلمها وكافرها وعظم البلاء ، وقدم من بطنجة من البربر على أنفسهم واحدا منهم هو ميسرة السقاء المدغورى وكان خارجيا صفرى ، وهاجموا مدينة طنجة واستولوا عليها وقتلوا حاكمها • ثم بايعوا ميسرة بالخلافة وخاطبوه بأمر المؤمنين ، ولكنهم حين أحسروا منه عجزا قتلوه وولوا عليهم غيره رجلا من صنهاجة • وظهرت الخوارج فى كل أفريقية ، الأمر الذى حمل والى على استدعاء قواته من صقلية ، ودارت بين العرب والبربر معارك طاحنة كان أهمها معركة الأشراف التى اقتصر فيها البربر وقتل حماة العرب وفرسانهم « واقتضت البلاد وخرج أمر الناس » (٣) وغدت أفريقية كما يقول دوزى أشبه بقارب منساب

(١) دوزى : ج ١ ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ •

(٢) أخبار مجموعة : ص ٢٢ •

(٣) ابن الاثير : ج ٥ ، ص ٧٥ •

ليس له شراع أو ريان ، فقد خلع العرب طاعة عبيد الله وعنفوه — يحنون
لأنه هو الذى جر عليهم كل هذه النكبات الجسام (١) .

لم يهدأ الصراع بين العرب والبربر فى أفريقية طيلة الأيام الباقية
من حكم الدولة الأموية . فلما قامت الدولة العباسية استمر البربر فى
ثوراتهم . ولم يكن خروج البربر على الأمويين والعباسيين يمثل خروجا على
الدين ، وإنما كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة وفرضهم
الضرائب الفادحة عليهم ، ونزعة منهم الى الحكم الاستقلالى الذى كان
أساس حياتهم أزمانا طويلة . وفى العهد العباسى انضم كثير من العرب
الساحطين على العباسيين الى البربر ، فقد خرج محمد بن الأشعث والى
أفريقية على المنصور ، فولى المنصور أمر هذه البلاد الأغلب بن سالم بن
عقال التميمى وهو أبو ابراهيم بن الأغلب الذى أسس دولة الأغالبة ،
فقدم الأغلب القيروان سنة ١٤٨ هـ ، ولكن البربر ثاروا عليه بزعماء قواد
من العرب وقتلوه بعد معارك طاحنة على أبواب القيروان سنة ١٥٠ هـ
وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . فولى المنصور أفريقية أبا جعفر عمر
ابن حفص من آل المهلب ، فاستطاع أن يقر الأمن فى البلاد ثلاث سنوات ،
ما لبث البربر من الاباضية والصفرية بعدها أن ثاروا واشتعلت الثورة
فى أفريقية كلها (٢) . ويقول موير « ان أفريقية كادت تخرج عن طاعة
العباسيين فى معظم عهد المنصور ، وان البربر والعرب النازلين فيها مالوا
الى مبادئ الخوارج ، وخلصوا طاعة العباسيين الذين أخذوا يرسلون
اليهم الجيوش تلو الجيوش لاختضاعهم ولكن بدون جدوى ، واستمرت
مدينة القيروان تسقط فى أيدي الثوار حينما وفى أيدي العباسيين حينما
آخر ، حتى استطاع المنصور قبيل نهاية خلافته أن يرسل اليها جيشا جرارا
أقر الأمن فى البلاد الى حين » (٣) ويقول ابن الأثير « كان بين الخوارج

(١) دوزى : ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن الأثير : ج ٥ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

والجنود (العباسيين) من لدن قاتلوا عمر بن حفص الى انقضاء أمرهم،
ثلاثمائة وسبعون وقعة» (١) .

واستمرت قبائل البربر تناوىء سلطان العباسيين حتى سنة ١٨١ هـ
حتى أدرك العباسيون أن فوزهم على البربر أمل لا سبيل الى تحقيقه ،
فتراجعوا عن المغرب الأفريقي ، مكتفين باقليم تونس الذى أقاموا فيه
دولة حاضرة ما لبثت هى الأخرى أن استجابت للحركة الاستقلالية ،
فاستقلت بأمرها استقلالا يكاد يكون تاما عن الخلافة العباسية
مع الاعتراف لها بالسيادة الاسمية .

وانجلى هذا الصراع الطويل بين السلطة المركزية وبين البلاد التى
نزعت الى الحكم المستقل تحت شعار الخوارج ، الى قيام ولايات من
البربر على يد زعماء من سلالة العرب استقلت استقلالا تاما ، ومن هذه
الولايات : ولاية تاهرت التى أسسها عبد الرحمن بن رستم بمساعدة
الاباضية (١٣٧ — ٢٩٧ هـ) وولاية سجلماسة التى أسسها بنو مدرار
(١٦٧ — ٥٢٥٧ هـ) وتلمسان التى أسسها أبو غروة الصنهاجى ، وبرغوانة
الواقعة على ساحل المحيط الأطلسى .

لكن الحكم فى المغرب الأفريقى فى الحقيقة انقسم بين دولتين هما
الدولة الادريسية التى أسسها ادريس بن عبد الله العلوى فى بلاد المغرب
الأقصى (١٧٢ — ٢٧٥ هـ) ودولة الأغالبة التى أسسها ابراهيم بن الأغلب
فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) الى أن قامت فى المغرب دولة شيعية
ضممت المغرب الاسلامى كله ما عدا الأندلس ، هى الدولة الفاطمية
(٢٩٨ — ٥٦٧ هـ) وهكذا نجد المغرب الأفريقى خضع لعاملين هما
العامل القومى والعامل المذهبى ، وقد تساند العاملان معا فى استقلال
هذا المغرب وبناء شخصيته الاسلامية .

(١) ج ٥ ، ص ٢٤٢ . حسن ابراهيم : ج ٢ ، ص ١٧٨ .

المغرب الأقصى

دولة الإدارة

كما لجأت المعارضة الخوارجية الى المغرب ، كذلك لجأت اليه المعارضة العلوية التي فرت من وجه الخلافة العباسية ، وكان الخوارج أسبق من العلويين في المغرب ، وقد استطاعوا ، كما أوضحنا ، أن يقنعوا البربر النزاعين إلى الاستقلال بعدم شرعية الحكومات الأموية والعباسية ، إذ أنها ورثت سلطانا لا يقوم على أساس الحق ولا على أساس المبادئ الإسلامية ، وأنها مغتصبة تجب مقاومتها ، فلما وصل دعاة الشيعة الى المغرب دعوا الى نفس الفكرة وهي عدم شرعية سلطان الخلافة العباسية والأموية من قبلها ، وزادوا أن صاحب الحق الشرعي هم آل البيت أبناء النبي من ابنته فاطمة وهم الذين ثاروا في وجه الظلم وقتلوا في سبيل إقرار الحق ، فاكتمست الدعوة عطف البربر الذين كانوا بطبيعتهم مؤيدين لرجال الدين معظمين للأولياء الصالحين ، والذين يدعو لهم الشيعة هم أئمة ورثوا علم النبوة فوق أنهم من نبعثها ، فكان أرض المغرب قد تحرثها الخوارج للشيعة ، وحين قدم دعاة الشيعة كان سلطان الخوارج قد زال فانتفعوا بفرضهم ، ولم يتعرضوا لمعارضتهم .

والمعارضة العلوية للعباسيين نشأت مبكرة منذ قيام الدولة العباسية ، ولقد كان التحالف بين العلويين والعباسيين يقويه الشعور المشترك بالكره لعدو متحكم هو الأمويون ، فلما قضى على هذا العدو لم يكن هناك ضرورة لاستمرار هذا التحالف ، وبخاصة أن العلويين كانوا يعتقدون أن العباسيين يعاونونهم لتحقيق أهدافهم وتولى الخلافة ، وظنوا أن الدعوة للرضا من آل البيت إنما تعنيهم هم باعتبارهم المطالبين بالخلافة ولأنهم هم الذين ثاروا في وجه بني أمية منذ خلافة يزيد بن معاوية ، وتحملوا عبء الجهاد وأصابتهم كل الكوارث ، وكانوا يرون أن الشيعة إنما تلتفت حولهم هم ، لكن العباسيين حين انتصرت الثورة استولوا على الخلافة وتكبروا للعلويين ، بل انهم ادعوا انهم أصحاب الحق الشرعي فيها ، وأن

حقهم في ميراث النبي أقوى من حقوق العلويين • واعتقد العلويون أن العباسيين خدعوههم واغتصبوا الخلافة منهم ، فظلوا على دعوتهم ونشاطهم ، وقاموا بثورات كثيرة أولها ثورة الشقيقين : محمد الملقب بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وهما أبناء عبد الله بن الحسن بن علي • ولكن المنصور أخضع هذه الثورة في عنف شديد وقتل محمد في المدينة سنة ١٤٤ هـ ، وقتل أخاه إبراهيم في « باخري » بين الكوفة وواسط سنة ١٤٥ هـ (١) • ولقى العلويون من العباسيين شرا مما لقوا من بني أمية ، فظل العلويون يشورون وظل العباسيون يتبعونهم بالسجن والقتل ، حتى فروا إلى أطراف العالم الإسلامي •

وفي سنة ١٦٩ هـ ثار الحسين بن علي بن الحسن على عامل العباسيين بالمدينة في عهد الهادي العباسي ، لما ألحق هذا الوالى بالعلويين من أهله ، وحدثت بين الطرفين موقعة بين المدينة ومكة وعلى ستة أميال منها تعرف بموقعة (فخ) قتل فيها الحسين وعدد كبير من أفراد البيت العلوي : وقد شابها هذه الموقعة حادث كربلاء في العهد الأموي ، فقد أوشك البيت العلوي فيها على التفاني (٢) •

فخر من هذه الموقعة ادريس بن عبد الله وأخوه يحيى بن عبد الله ، فأما الأخير فقد اتجه إلى المشرق حيث لجأ إلى الديلم الذين التفوا حوله حتى اشتدت شوكته وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من كل الأمصار مما يدل على عطف الناس على الشيعة وحبهم لهم ، وأصبح يحيى شجاعا في خلق الدولة العباسية حتى استطاع الفضل بن يحيى البرمكي قائد الرشيد أن يصلحه باسم الرشيد ويستنزله على الأمان ، ولكن الرشيد غدر به وسجنه (٣) •

(١) انظر : الأصفهاني : مقاتل الطالبين ، ص ٢٦٠ — ٢٧٠ ، ص ٣١٥ — ٣٨٦ •

(٢) مقاتل الطالبين : ٤٣١ — ٤٦٠ . الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٤ — ٢٠ . ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٣٢ — ٣٤ . الفخري : ١٧١ . ابن كثير : ج ١٠ ، ص ٤٠ •

(٣) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٤٣ — ٤٥ •

وأما ادريس فإنه اتجه نحو المغرب الأقصى حيث التقى حوله البربر في اقامة أول دولة علوية وهي الدولة التي نسبت اليه «دولة الأدارسة» . وافق وصول ادريس الى المغرب نشاط الحركة الاستقلالية في هذه البلاد ، كما وافق أيضا ظهور القوات العباسية على الخوارج وكسر شوكتهم ، فلما وصل ادريس استطاع أن يضم حوله البربر الذين وجدوا فيه أثرا على الدولة التي يكرهونها : كما كان يمثل عندهم روح الاسلام التي لا تقر الظلم ، ويرضى بنسبه الشريف الى النبي عاطفتهم الدينية ، فانضوت الحركة الاستقلالية تحت لوائه ، واستطاع أن يكون له اماره مستقلة ظلت ترث النفوذ حتى سنة ٢٧٥ هـ ، وكانت من أطول الامارات المستقلة عمرا ، اذ كانت معاصرة للنفوذ الفاطمي في المغرب ، ولنفاذ الخلافة الأموية في الأندلس .

وكان الأدارسة يعبرون تعبيرا صحيحا عن شعور البربر أهل البلاد الأصليين ورغبتهم الحقيقية في الاستقلال ، فقد كان ادريس لا يعتمد إلا على نسبه العلوي ، أما جنوده ورجاله كلهم فكانوا من أهل البلاد الأصليين .

وأدرك هارون الرشيد أن الاحتفاظ بأفريقية بالقوة لم يعد في الامكان ، فلجأ الى السياسة ، فأقام دولة موالية للخلافة العباسية ، تكون حاجزة بين أملاك الدولة العباسية في المغرب الاسلامي ، وبين هذه الامارة الناشئة التي أخذت تبدو خطورتها وتهدد بالتهام الشمال الأفريقي كله ، لذلك عهد الى ابراهيم بن الأغلب بولاية تونس التي نجح في الاحتفاظ بها ، ليقف في وجه الأدارسة اذا أرادوا الاغارة على أملاك الدولة العباسية الواقعة في شرق دولتهم (١) . كما كاد لادريس بأن دس له من قتله بالسهم سنة ١٧٧ هـ (٢) .

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٥٦ .

(٢) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٩ .

على أن مقتل ادريس لم يقف جهود العلويين في بلاد المغرب ، ولم يؤثر في الحركة الاستقلالية فيها ، فقد كانت له أمة حامل ، فانتظر أشياعه حتى ولدت ذكرا أسموه ادريس والتفوا حوله فكان ادريس الثاني هذا المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة ، فقد اشتد أمره واتخذ لدولته عاصمة جديدة هي مدينة فاس التي أسسها سنة ١٩٢ هـ (١) .

وعجز ابراهيم بن الأغلب عن القضاء على الدولة الأدرسية بالقوة في عهد ادريس الثاني ، فلجأ الى الدس لتفريق البربر عنه ، ولكن الأمر انتهى بين الطرفين بأن يكف كل منهما عن الآخر من فاحيته (٢) .

وقد حكم بعد ادريس الثاني ثمانية من الأدارسة كان أعظمهم قوة وأعلامهم قدرا هو يحيى الرابع ابن ادريس بن ادريس بن عمر (٢٩٢ — ٣١٠ هـ) الذي امتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى ، وكان كما يصفه السلاوي « واسطة عقد البيت الادريسي : أعلامهم قدرا ، وأبعدهم ذكرا ، وأكثرهم عدلا ، وأغزرهم فضلا ، وأوسعهم ملكا . وكان فقيها حافظا للحديث ، ذا فصاحة وبيان ، بطلا شجاعا حازما ، ذا صلاح ودين وورع (٣) » . وفي أيامه ظهر الفاطميون في شمال أفريقيا ، وأخذوا يمدون بنفوذهم نحو المغرب حتى وصلوا الى بلاد الأدارسة ومدوا سلطانهم عليها .

وقد حكم أمراء الأدارسة البلاد باسم الفاطميين ولكن ما لبثت دولة الأدارسة أن وقعت بين خصمين متنازعين ، الفاطميون في أفريقيا والأمويون في الأندلس ، وقد بدأ الأمويون يتجهون بنفوذهم الى المغرب الأفريقي . في عهد عبد الرحمن الناصر ، وأمام هذا الضغط من الجانبين تقهقر النفوذ الادريسي الى الريف ، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلالهم فقد أصبحوا تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب اما من الفاطميين أصحاب

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٤ ، ص ٢٣ (طبعة بيروت) .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٦ .

(٣) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : ج ١ ، ص ٧٩ (طبع

القيساهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هـ) .

أفريقية وأما من الأمويين أصحاب الأندلس (١) .

امتد حكم الأدارسة يبلاد المغرب من السوس الأقصى الى وهران ، وكانت حاضرتهم مدينة فاس التي بلغت حدا كبيرا من العمران والرفق وأصبحت مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية . وقد زال ملكهم بعد أن حكموا أكثر من قرنين (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) . وقد أسهم الأدارسة في خدمة العالم الاسلامي في ناحيتهم ، فهم الذين ثبتوا البربر على الاسلام ، ويعتبرون بحق الممهدين لظهور البربر في المجال الاسلامي ظهورا واضحا ، فان البربر لم ترسخ قدم الاسلام بينهم الا بعد أن اتخذ شكل حكومة قومية ، وأصبح مرتبطا بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر في حظيرة الاسلام ، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على صياح الاستقلال السياسي . وكان ظهور الأدارسة وحكمهم للمغرب حكما قوميا مقدمة لظهور المرابطين الذين كان ظهورهم يمثل حركة قومية عظيمة ، جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الاسلامية . وقد قام الأدارسة بدور كبير جدا في انتشار الاسلام في غرب أفريقيا ، وينسب اليهم الفضل في القيام بحركة تبشيرية في حوض السنغال استمرت بعد ذلك في عهد المرابطين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها (٢) . كما أن مدينة فاس عاصمة الأدارسة ظهرت ظهورا ثقافيا واضحا وأصبحت هي ومدينة القيروان مثالان نموذجيا للمدارس الاسلامية في المغرب .

تونس

دولة الاغالبة

كان مظهر الحركة الاستقلالية في تونس يتمثل في قيام امارة

(١) انظر : السلاوي : ج ١ ، ص ٨٠ — ٨٦ . ابن عذاري : البيان المغرب : ج ١ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٢) انظر : ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم وعبد الحميد عابدين) ، ص ٢٦٧ — ٢٦٩ ، انظر عن دولة الأدارسة في
عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٤٦٥ — ٥٠٤ .

الأغلبة الذين ظلوا يحكمون تونس منذ سنة ١٨٤ هـ حين ولى الخليفة هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب منطقة تونس ، واعترف به أميرا مستقلا بإمارته تحت ظل الخلافة العباسية . ثم ظل أبناء ابراهيم يتوارثون الحكم بعده معترفين بالسلطان الأسمى للخليفة العباسي . وظلت الحركة الاستقلالية واضحة في عهد الأغلبة حتى سنة ٢٩٦ هـ وهي السنة التي نهجت فيها الدعوة الفاطمية في بلاد الغرب واكتسحت الامارات المغربية كلها ، وقامت الخلافة الفاطمية في الشمال الأفريقي .

أقنعت الحركات الخوارجية ثم العلوية التي قامت في الشمال الأفريقي الخليفة هارون الرشيد بأن انفصال المغرب عن الدولة العباسية أصبح حقيقة واقعة ، فاستجاب للعرض الذي قدمه ابراهيم بن الأغلب — وكان عاملا على اقليم الزاب من قبل ابن مقاتل والى أفريقية من قبل العباسيين — وهو أن يعهد اليه الخليفة بولاية أفريقية . على أن يوفر لبثت المال الاعانة التي كانت ترسلها مصر الى أفريقية ومقدارها مائة ألف دينار ، وأن يرسل الى الخلافة فوق ذلك أربعين ألف دينار سنويا (١) . وكانت موافقة الرشيد على هذا العرض تعني الاعتراف باستقلال أفريقية تحت حكم ابن الأغلب استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية ، ومما يؤكد هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد لقب الامارة الذي أطلقه المؤرخون كثيرا على بنى الأغلب (٢) ، كما يؤكد قيام كل خليفة عباسي جديد باقرار الأمير الأغلبى على ولاية أفريقية (٣) . وكانت السياسة التي ابتدأها هارون الرشيد وسار عليها الخلفاء من بعده فيما يختص بأفريقية ، سياسة أملت الظروف في هذا الطرف البعيد ، وكانت هي نفس السياسة التي جرت عليها الدولة العباسية في كل الأقاليم البعيدة التي كانت تنزع الى الاستقلال أو التي كانت الدولة تعجز عن حكمها حكما مباشرا ، وهي اقامة أسر حاكمة تحكم باسم الخلافة ، وهي سياسة مرنّة توفق بين مصلحة

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٥٦ .
(٢) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٥٧ ، ١٢١ ، ١٨٢ .
(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ، ص ١٦ .

الخلافة ومصلحة أهل الاقليم النزاعين الى الاستقلال . كما كانت الظروف الخاصة بأفريقية هي التي جعلت الرشيد يقيم هذه الامارات المستقلة ، فقد رأينا من قبل كيف كانت ثورات أهل أفريقية على حكم الخلافة ، وعجز جيوش الدولة في قهرها ، ثم كيف استطاع ادريس العلوي اقامة دولة له بالمغرب الأقصى أيديتها قبائل البربر ، وكيف كان يتطلع الى توحيد المغرب الاسلامي كله واقتطاعه عن الخلافة العباسية حتى لقد راسل أهل مصر (١) ، فأقام الرشيد هذه الامارة المستقلة لتكمين حاجزا بين أطماع الأدارسة وبين البلاد الواقعة شرق دولتهم .

ولا شك أن هذه السياسة من الرشيد كانت تنطوي على بعد نظر سياسي ، اذ قيام هذه الامارة يرفع عن كاهل الخلافة متطلبات الدفاع عن هذا الاقليم البعيد الذي كان عرضة دائما لهجمات الروم من ناحية البحر ، كما كان عرضة لحرركات المتغلبين من راغبي الاستقلال ، وكان ارسال الجيوش العباسية اليه من المشرق أمرا صعبا يتكلف ثقات طائلة لبعيد المسافة بين العراق مركز الدولة وبين هذه الأقاليم البعيدة ، الأمر الذي يجعل الدفاع عنه بواسطة جيوش الخلافة قليل النفع ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الأسرة الحاكمة فضلا عن ارضائها للنزعة الاستقلالية لأهل البلاد ، ستعمل بطبيعة الحال على اقرار الأمن لدوام حكمها ، وستكفي الحكم بما تقتضيه الظروف التي تواجهها ، وستعمل على تنمية موارد المنطقة المحلية للقيام بمتطلبات الحكم في الاقليم والدفاع عنه ، وقد رأينا كيف عرض ابراهيم بن الأغلب تنازله عن الاعانة التي كانت تقدمها مصر لولاية هذا الاقليم ومقدارها مائة ألف دينار ، فوق أنها تمتد بيت مال الخلافة بأربعين ألف دينار .

ولقد أثبت ابراهيم بن الأغلب أنه حاكم ناجح ، فقد استطاع أن يولد الحكم في أسرته وأن يقضي على الثورات التي قامت في اقليمه ، كما استطاع أن يوقف طموح الأدارسة وأن يعقد معهم اتفاقا على أن

(١) المغرب الكبير : ص ٣٧٤ .

يكف كل منهما عن الآخر في ناحيته ، ويقول عنه ابن عذارى « لم يل
أفريقية أحسن سيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أرف برعية ، ولا أوفى
بعهد ، ولا أرفع لحرمة منه ، قطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت أفريقية
في أيامه » (١) .

وقد اتخذ إبراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، ولكنه ما نبت .
أن شرع في سنة ١٨٥ هـ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها
على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن ولائه
للعباسيين ، وانتقل إليها بأهله وعبيده (٢) ، وذلك ليكون في مدينة
يتوفر له فيها جو الثقة بين أهله ومن يثق فيهم ، وهو بذلك يسير على
سنة الحكام الكبار في ذلك العصر ، حيث كانوا ينشئون لدولهم عواصم
ملكية غير العواصم القديمة التي كانت تضم طبقات قد لا يتوافق فيها
الاخلاص لهم ، وقد رأينا كيف ترك العباسيون الكوفة واتخذوا أهم
الهاشمية مقرا ، ثم كيف أنشأوا بغداد في عهد المنصور ، ثم سامرا في
عهد المعتصم ، وكيف تركوا القسطنطين وأنشأوا العسكر في مصر ، وكيف
بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء (٣) ، ثم كيف بنى محمد بن
أبى عامر مدينة الزاهرة (٤) .

وقد استطاع بنو الأغلب من بعد إبراهيم أن يقضوا على كل الثورات
التي قامت في أفريقية ، وأن يوطدوا الأمن بصورة أكثر إلى حد كبير
جدا عما كان عليه الحال من قبلهم ، كما استطاعوا أن ينموا موارد الإقليم
لتسد النفقات الحربية الهائلة التي تطلبها التصدي لتحركات الروم ضد
الساحل الأفريقى ، ولم يكتفوا باتخاذ موقف الدفاع ، بل انهم قاموا
بعملات بحرية ناجحة أدت إلى فتح صقلية ومالطة .

(١) ابن عذارى : ج ١ ، ص ١١٦ .

(٢) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ٥٦ . المغرب الكبير ، ص ٣٧٥ .

(٣) المجلد في تاريخ الأندلس : ص ٣٨ .

(٤) نفس المرجع : ص ١٥١ .

كان الساحل الأفريقي مفتوحا أمام الأساطيل الرومية التي كانت تتخذ قواعدها في الجزر القريبة منه ، في صقلية ومالطة ، ولقد كانت المعارك دائمة بين البحرية الإسلامية والبحرية البيزنطية منذ فتح العرب شمال أفريقيا ، وقد وجه المسلمون حملاتهم البحرية الى صقلية منذ ولاية معاوية بن خديج ، وفي سنة ٨٦ هـ أرسل موسى بن نصير حملة بحرية لغزو صقلية ، فهاجمت مدينة سرقوسة وغنمت منها غنائم هائلة ، وفي سنة ١٠٥ هـ غزا بشر بن صفوان صقلية وأصاب منها سبيا كثيرا (١) ، كذلك غزا عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ صقلية كما رأينا من قبل . لكن الثورات التي نشبت في أفريقية بعد ذلك جعلت الولاة العباسيين يشغلون عن غزو تلك الجزيرة ، فتجرات سفن الروم على مهاجمة السواحل الأفريقية ، وتحول المسلمون الى مركز الدفاع بعد أن كانوا في العصر الأموي يأخذون موقف المبادأة ونقل العمليات الحربية سواء منها البرية أو البحرية الى أرض العدو .

فلما استقل ابراهيم بن الأغلب بأمور أفريقية أخذ يعمل على تكوين قوة بحرية كبيرة لا تستطيع أن ترد هجمات الروم أو تبادلهم أعمال القرصنة التي يتبادلها الطرفان فحسبه ، وإنما تستطيع أن تقوم بعمل حقيقي لابعاد الأسطول الرومي نهائيا عن الساحل الأفريقي ، بالاستيلاء على قواعد المواجهة لهذا الساحل في صقلية ومالطة وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية . وقد نمت البحرية الإسلامية في عهد الأغلبة نموا كبيرا واستطاعت أن تحقق الغرض الذي كان يرمى اليه ابن الأغلب .

وقد بدأ الغزو الحقيقي لصقلية في عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) وقد اختير لقيادة الحملة القاضي أسد بن الفرات فقيه القيروان ومصنف الكتاب المنسوب اليه « الأسدية » في الفقه على مذهب

(١) المغرب الكبير : ص ٣٨٥ .

(م ٢٧ — العصر العباسي)

الإمام مالك • وقد أراد زيادة الله أن يصنع الحملة بصيغة الجهاد الديني ، وقد كان أهل أفريقيا في ذلك الوقت قد تفقهوا في الدين الاسلامي ، وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وانتشر بينهم مذهب مالك الذي أصبح لديهم ليس مجرد مذهب ديني فحسب وإنما أصبح لهم وطنية وعقيدة • وساعدت الأربطة — وهي أماكن محصنة ينزلها المقاتلون المعدون للدفاع عن الثغور والمتطوعون الشجعان والمستشهدون النقا الذين يرغبون في القتال في سبيل الله (١) — على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم • ولذلك خرج مع حملة أسد ابن المخرات «أشراف أفريقية من العرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر (٢) » واستمرت الحملة الأغلبية على صقلية منذ سنة ٢١٢ هـ تقوم بغزو الجزيرة ، واقتناخ مدنها الواحدة بعد الأخرى حتى تم لهم فتح الجزيرة كلها سنة ٢٦١ هـ • وفي هذا العام استولوا على جزيرة مالطة ، ثم عبروا مضيق مسينا وغزوا كلابريا في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية • ومنذ ذلك التاريخ وجزيرة صقلية تحت حكم المسلمين ، وقد تكونت بها إمارة اسلامية حكمت الجزيرة في العهد الفاطمي ، وظلت تجاهد الروم حتى أسقطها النورمان سنة ٤٨٥ هـ (٣) •

وهكذا نرى كيف أدى الأغلبة واجبه نحو العالم الاسلامي ، وكيف قاموا بنصيبتهم في الدفاع عنه على خير ما يكون الدفاع ، فقد دافعوا عن الثغر الأفريقي دفاعا ناجحا ، بل مدوا نفوذ العالم الاسلامي وضموا الى حوزته بقعة هامة هي جزيرة صقلية التي ظل يحكمها المسلمون أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا من اشعاعات الثقافة الاسلامية •

(١) انظر : محمد عبد الهادي شعيرة : بحث عن المرابطين في الثغور البرية العربية الرومية ضمن كتاب « طه حسين بمناسبة بلوغه سن السبعين » ، ص ١٤٧ — ١٦٨ .

(٢) ابن عذاري : ج ١ ، ص ١٣ . المغرب الكبير : ص ٣٨٧ .

(٣) عن غزو صقلية : انظر المغرب الكبير ، ص ٣٨٥ — ٣٩٢ .

وفى عهد الأغالبة ازدهرت الحياة الاقتصادية فى أفريقية ازدهارا كبيرا لم تشهده منذ القرن الثالث الميلادى ، فقد وفر لها الأغالبة الأمن الذى افتقدته وقتا طويلا ، وفى ظل هذا الأمن توفر السكان على أعمالهم ، فزادت المحاصيل الزراعية ، وعمرت بالزراعات أراض لم تكن عامرة وهى الآن تبدو منطقة شبه صحراوية ، فقد عمرت المنطقة الممتدة بين قمودة والساحل بأشجار الزيتون والنخيل ، وانتظمت المنطقة الساحلية بالقرى والبساتين وبخاصة الكروم التى كان يصنع من أعناقها النبيذ ، كما كانت المنطقة الواقعة الى الشمال من قمودة مركز إنتاج للقمح . كما تقدمت الصناعة وبخاصة صناعة الآلات الحديدية اللازمة للسفن ، والسيوف والدروع والسروج واللجم ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وصناعة الزجاج وكذلك صناعة النسيج ، وإلى سوسة تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات البياض الناصع ، كما ازدهرت التجارة وبخاصة فى القيروان حاضرة الأغالبة ازدهارا عظيما وكثرت فى يد أهلها الأموال بسبب هذه التجارة ، ويصف الإدريسي نمو القيروان ورخاءها بقوله « أم الأمصار ، وقاعدة الأقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب طرا ، وأكثرها بشرا ، وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأتقنها بناء ، وأنفسها همما ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربعا (١) » .

وقد اهتم الأغالبة بالعمارة فى تونس اهتماما كبيرا ، وأهم آثارهم مسجد القيروان العظيم الذى اختطه عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ وزاد فيه الأغالبة زيادة عظيمة ، وكذلك جامع الزيتونة بتونس ، وهو الجامع الذى يقوم بالمهمة العلمية التى يؤديها الأزهر فى مصر ، فهو جامعة علمية قديمة حفظ التراث الإسلامى وما زال حتى الآن يؤدي مهمته السامية ، وقد أسسه ابن الجحباب فى عام ١١٤ هـ ، ولكن عظمته ترجع الى الأغالبة ،

(١) الإدريسي : سنة المغرب والاندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق) ليدن ١٨٦٦ ، ص ١١٠ . وانظر عن الحالة الاقتصادية (المغرب الكبير) ، ص ٤٠٧ — ٤٦٤ .

كذلك مسجد سوسة وسورها ورباطها المشهور ، وكذلك هم الدين أنشأوا مدينة العباسية ومدينة رقادة • واهتموا بإنشاء المرافق (وهي خزانات الماء يجتمع فيها المطر للشرب منه عند الحاجة) والخزانات والقناطر اهتماما كبيرا ، وبالجمله فقد كان عهد الأغالبة عهد عمران ورخاء فى تونس (١) •

أما الناحية الثقافية ، ففي عهدهم ظهرت الثقافة المغربية ذات شخصية مستقلة • فظهرت مدارس القيروان وغيرها من المدارس الاقليسية • وفى عهد الأغالبة بدأ المغرب الاسلامى يكتب طابعا واضحا ، هو أن مذهب الامام مالك أصبح بالنسبة للمغاربة ليس مجرد مذهب دينى ، وانما أصبح لهم وطنية وعقيدة ، وظل يدفع الحياة فى المغرب ويطبعمها بطابع خاص ما زال موجودا فى البلاد حتى اليوم •

وقد ظلت الدولة الأغلبية تؤدى دورها الذى اضطلعت به فى هذا الطرف الغربى حتى نجحت الدولة الفاطمية فى المغرب وامتدت الى تونس فأسقطت هذه الدولة سنة ٢٥٦ هـ ، وخلف الفاطميون الادارسة والأغالبة فى المغرب الأفرىفى ثم امتدوا شرقا الى مصر •

مصر والشام

الطولونيون ، والاختنسيديون

أصبحت مصر والشام منذ ابتداء الدولة العباسية تقريبا تؤلفان وحدة خاصة ، وهذه الوحدة ادارية وسياسية وثقافية ، فمن الناحية الادارية كانت الشام ومصر تابعة لولى العهد الأول الذى كانت توكل اليه ادارة المغرب فهو الذى يولى الولاة ، وان كانت تصرفاته انما تصدر باسم الخليفة ، وكانت الوظائف كوظيفة الخراج قد يجمع صاحبها بين وظيفته فى الشام وبينها فى مصر ، والواقع أن موقع مصر والشام على البحر

(١) المغرب الكبير : ص ٤٢٢ — ٤٦١ •

المتوسط كان يحتم عليهما أن يتعاوننا من الناحية الادارية ، ومن الناحية الحربية أيضا ، وقد كان أسطول مصر فى العصر الأموى يدافع عن الشام ، كما أن واحدا من الأساطيل المصرية كان يدافع عن أفريقية • وقد كان الاشتراك وثيقا بين مصر والشام فى المعارك البحرية التى حدثت فى عهد عبد الله بن سعد ابن أبى سرح والى مصر ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام فى عهد الخليفة عثمان •

والارتباط الوثيق بين مصر والشام قديم جدا يرجع الى عهد الفراعنة ، فقد كانا يؤلفان وحدة سياسية وثقافية قوية • كما كان من الطبيعى أن تؤدى وحدة المصير فى العهد البطلمى والعهد الرومانى الى زيادة التفاهم وزيادة الارتباط بين هذين القطرين • فاذا لم ننظر الا الى الماضى البيزنطى القريب لوجدنا أنهما قطران كانا يدينان بمذهب دينى واحد ، وكانا يستعملان لغة ادارية واحدة هى اللغة اليونانية ، وكانا يخضعان لدولة واحدة • وكان التجاوب ظاهرا بين كراهة أهل الشام للسيادة البيزنطية وكراهة أهل مصر لها • ثم أن الحدود الجغرافية بين القطرين حدود مفتوحة بخلاف الحدود بين الشام وآسيا الصغرى التى يفصله عنها جبال شاهقة •

لهذا كانت مصر والشام تمثلان وحدة واحدة فى العصر العباسى ، وحين بدأت الحركات الاستقلالية تظهر فى أقاليم الدولة العباسية فى العصر الثانى ظهورا واضحا ، كان مظهر هذه الحركة الاستقلالية فى هذه الوحدة هو قيام الامارتين المستقلتين فى مصر ، وهما الامارة الطولونية والامارة الاخشيدية ، وقد مدت كلتا الامارتين سلطانهما على مصر وعلى الشام • أما الامارة الحمدانية التى ظهرت فى شمال الشام ، فانها كانت فى الحقيقة تقوم فى المنطقة الفاصلة بين الشام والعراق أكثر من قيامها فى منطقة شامية خالصة •

وكان مركز الحكم الطولونى والاخشيدي فى مصر ، والشام مضادا اليها ، وذلك لأن مصر بموقعها ومواردها أقوى من الشام ،

وأقدر على القيام بأعباء دولة مستقلة • وليس هذا أمرا جديدا ، وإنما هو الوضع القديم الذى كان سائدا على امتداد التاريخ منذ العصر الفرعونى • لهذا فحديثنا عن الطولونيين والأخشيديين فى مصر إنما هو حديث عن الشام أيضا •

ليس من شك فى أن الطولونيين والأخشيديين كانوا يمثلون عنصرا دخيلا على الحياة الإسلامية فى مصر • إنما من الواضح أن الطولونيين والأخشيديين كانوا يستجيبون أو يعبرون عن حركة مصرية قومية واضحة ، ويكفى أن نلاحظ أن ظهور الطولونيين كان يتمشى مع تطور عظيم فى تاريخ هذه البلاد •

هذا التطور هو انتصار الحركة الإسلامية وانتشار الإسلام ، حتى أصبح المسلمون يمثلون أغلبية فى هذه البلاد ، ولولا هذه الحقيقة لما قدر للدولة الطولونية أن تظهر فى ذلك الوقت • ولقد تأثرت مصر بأحداث العالم الإسلامى منذ فتحها على يد عمرو بن العاص ، وشاركت فيها مشاركة قوية ، تأثرت بما جلبه الفتح العربى للبلاد المفتوحة من حرية وأمن ، وتأثرت بما دار حول الخلافة من أحداث لم تكن مصر طرفا معزولا عنها ، كما تأثرت بالسياسة الأموية ، ثم ظهرت ظهورا واضحا فى العصر العباسى الثانى مشاركة فى الحركة الاستقلالية التى شملت كل أقاليم الدولة الإسلامية •

فلقد دخلت مصر فى دائرة النفوذ العربى منذ سنة ٢٢ هـ ، وابق عليها النظام الإسلامى الذى رأسه الخليفة عمر بن الخطاب لحكم البلاد الإسلامية • وسارت عليه طوال عصر الراشدين ، الذى كان امتدادا للعصر النبوى ، وكان عصر التطبيق العالمى للدعوة الى الإسلام ، والتطبيق العملى لمبادئ الإسلام فى بيئات غير عربية • وكان هدف السياسة العمرية هو الرقابة الشديدة على الولاة ، وعدم اعطائهم أية فرصة للاثراء على حساب أهل البلاد المفتوحة ، وعدم تمكينهم من البقاء

طويلا حتى يتكون لهم طموح خاص فى الانفصال عن الدولة . ولذلك كان اختيارهم يتم من بين أكثر الصحابة فضلا وأعظمهم ايمانا ، فهم لم يكونوا ولاية أو قوادا فحسب، وإنما كانوا دعاة للإسلام يلبقون مبادئه النظرية فى أسلوب عملى . وفى هذا العهد نظمت أمور الحكم فى مصر، فاستقرت قواعد الولاية ونظمت الشرطة وأحكام الخراج واستقرت قواعد القضاء ، ووضحت العلاقات بين مصر وبين الخلافة فى عهد الراشدين (١) .

وفى عهد الراشدين أصبحت مصر قاعدة الدفاع عن المغرب ، كما أصبحت قاعدة التوسع العربى نحو الغرب ونحو الجنوب . ولذلك ظهرت البحرية الإسلامية فى مصر ونمت نموا كبيرا وتكفلت بالدفاع عن السواحل الشرقية للبحر المتوسط ضد غارات الروم ، واستطاعت أن تحرز نصرا كبيرا على الروم فى معركة ذات الصواري سنة ٣١ هـ ، كما امتد منها الفتح العربى الى المغرب والى النوبة (٢) .

وفى أيام الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ، لم تكن مصر بمعزل عن الأحداث بل كانت طرفا فيها كالشام والعراق (٣) ، ثم كان لها دور فى الصراع الذى احتدم بين الخليفة على بن أبى طالب ووالى الشام معاوية ابن أبى سفيان . ثم كانت طرفا من أطراف النزاع الذى قام بين ابن الزبير ومروان ابن الحكم .

وفى العصر الأموى تأثرت مصر بالنقلة فى شئون الحكم الى يد بنى أمية ، وشاركت فى أمجاد العصر الأموى ، كما تأثرت بمساوئه وأحداثه ، فقد شهد العصر الأموى تطورا هاما فى ادارة الاقاليم ، ذلك أن قيام الدولة الأموية لم يكن تطورا طبيعيا اعتمد على الأجهزة الإسلامية فى الحكم ، وإنما وصل الأمويون الى الخلافة عن طريق القوة والاعتصاب

(١) حسن محمود : الكندى المؤرخ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) ابن الأثير : ج ٣ ، ص ٦٨ (الطبعة الثالثة) . الكندى :
الولاية ، ص ١٢ .
(٣) انظر ابن الأثير : الأحداث ، سنة ٣٤ ، ٣٥ هـ .

معتمدين على قوة الجند ووفرة المال ، فصاحب قيامهم فتن وصراعات
دموية فى كل أقاليم الدولة بين الموالين لبنى أمية والساخطين عليهم ،
ومن ثم تعكر السلام الذى كان يسود ولايات الدولة فى عهد الراشدين ،
ولهذا كان لزاما أن تتغير الخطوط الرئيسية للسياسة العربية فى العهد
الأموى لتستجيب لهذه الظروف الجديدة •

فالساسة الإدارية مثلا تغيرت أساسيا ، فلم تعد مركزية مطلقة فى
يد الخليفة الذى لم يكن فى مقدوره بمفرده أن يواجه الفتن والثورات
فى كل أقاليم الدولة ، ولذلك نمت سلطات الولاة ، حتى صاروا نوابا
للخليفة فى أقاليمهم : يقررون الضرائب بحسب ما تقتضيه ظروفهم ،
فيزيدونها أو يضاعفونها ، ويجندون الجند ويقضون على الثورات ،
واستتبع ذلك أمران : — الأول أن الدولة تختار ولايتها على أساس
المولاء لها والاختصاص لسياستها ، ولذا كان هؤلاء الولاة اما من رجال
البيت الأموى نفسه أو من مواليهم وأشبياعهم • والثانى أن مدة حكم
الولاة أخذت تطول حتى لتزيد ولاية بعضهم على عشرين سنة (١)
وذلك حتى تتاح لهم الفرصة لتحقيق أهداف الأمويين • وكان من نتيجة
الصراع الذى احتدم فى العصر الأموى ، أن تأثرت الحالة الاقتصادية
للبلاد ، فان الدولة احتاجت لقمع الثورات والفتن وكذلك لاستئذان
الفتوح التى كانت قد توقفت فى أيام الفتنة الكبرى وما تلاها من صراع
الى أموال جسيمة كان يوفرها عمال الدولة عن طريق سياسة مالية
قاسية ، هى زيادة الخراج ، وابقاء الجزية على من أسلم ومضاعفتها
أحيانا ، الأمر الذى أغضب أهل البلاد المفتوحة وأثار حقدهم على بنى
أمية ، وقد تأثرت مصر بهذه السياسة الأموية ، فان أهلها غضبوا من
والى مصر وثاروا عليه فى سنة ١٠٧ هـ (٢) •

(١) حكم مصر والمغرب : عبد العزيز بن مروان ، من سنة ٦٥ هـ الى
٨٦ هـ . الكندى : الولاة ، ص ٤٨ — ٥٨ . وحكم الحجاج ، العراق
والمشرق ، من سنة ٧٥ هـ (ابن الاثير : ج ٤ ، ص ٣٣) ، الى وفاته
سنة ٩٥ هـ (ابن الاثير : ج ٤ ، ص ١٧٣) .
(٢) الكندى : الولاة ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

كما شهدت مصر تطورا اجتماعيا آخر بدأ يأخذ طريقه فى الحياة المصرية ، وهو انتشار الاسلام الذى أخذ يسير فى خط صاعد منذ الفتح العربى ، وذلك لأن المصريين الذين كانوا يقاسون الظلم والاضطهاد للدينى طوال العصر الرومى ، اعتبروا الفتح منقذا لهم ، ومرد ذلك الى سماحة المبادئ الاسلامية ، والى سياسة التسامح الدينى التى سار عليها العرب ، وكذلك الهجرات العربية واستقرارها فى البلاد واختلاطها بالسكان .

وقد بدأ دخول المصريين فى الاسلام منذ وقت مبكر ، فلقد تحول كثير من القبط الى الاسلام قبل أن يتم الفتح العربى حين كانت الاسكندرية لا تزال محاصرة بقوات المسلمين ، ثم سار كثير من القبط على نهج اخوانهم بعد ذلك بسنوات قليلة (١) . وخير شاهد على ذلك أن خراج مصر فى عهد عثمان بلغ اثنى عشر مليوناً من الدنانير ، ثم نقص فى عهد معاوية الى خمسة ملايين ، ثم استمر فى النقصان حتى تدخل عمال الدولة فأبقوا الجزية على من أسلم لتلافى هذا النقص (٢) .

لكن هؤلاء المسلمين الجدد فى مصر وفى غيرها من بلاد الدولة الاسلامية لم ينالوا حقوقهم المشروعة فى عهد الدولة الأموية ، فسخطوا على الأمويين وتمنوا زوالهم ، وأيدوا الدعاة العباسيين ، وكانوا من وراء النجاح الذى أحرزته الثورة العباسية .

وكان طبيعيا أن يودى انتقال الحكم الى يد العباسيين الى ايجاد سياسة جديدة تنبع من هذه الظروف وتساير هذه التطورات . ولقد واجه العباسيون فى المغرب الاسلامى وبخاصة مصر والشام ظروفًا شديدة ، فقد صاحب قيام الدولة العباسية احياء المقاومة

(١) انظر : ارنولد : انتشار الاسلام ، ص ٩٢ — ٩٤ :

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

البيزنطية التي بدأت تسترد فعاليتها بعد ما أصيب البيزنطيون به من هزائم كبرى ، فبدأوا ينظمون مقاومة ناجحة في آسيا الصغرى والبحر المتوسط ، لاسترداد ما فقدوه من البلاد أو على الأقل لوقف التقدم العربى . كما أن المقاومة الأموية تفهقرت نحو المغرب وجعلت تنظم مقاومة فى مصر والشام ، حتى ان ثورات العرب فى الشام لم تنقطع زمنا طويلا . هذا فوق نمو الحركة الاقليمية التي أخذت تتطور نحو حركة استقلالية شملت العالم الاسلامى كله .

وقد عالج العباسيون هذه الظروف بأن عملوا على ايجاد وحدة ادارية كبيرة تشمل الشام ومصر وبلاد المغرب الأفرىقى ، وجعلوا لها كيانا اداريا خاصا ، فكانوا يولون على هذه البلاد نائب للخليفة يختار من أمراء البيت العباسى ، وكانت العادة أن يكون ولى العهد الأول ، وكان نائب هذا أو من ينوب عنه يقسم وقته بين مصر والشام ، فان كان بالشام أقام بمدينة دمشق ، وان كان بمصر أقام بمدينة العسكر التي أنشأها صالح بن على بعد دخوله مصر سنة ١٣٣ هـ ، وعندما يكون فى أيهما يستخلف على الأخرى .

لكن أمر الحكم فى قسمى العالم الاسلامى (الشرق والمغرب) تطور منذ عهد المأمون الى اقطاعية لها سلطانها ونفوذها الكبير ، وبدأ نواب الخليفة يقيمون فى بغداد بصفة مستمرة ، ومنحوا امتيازات كبيرة ، فخطب لهم على المنابر ، وكتبت أسماؤهم على السكة وذكرت فى الوثائق الرسمية (١) وكانت الدولة تخص رجال البيت العباسى ورجال الحزب العباسى بالولايات والاقطاعات ، ثم بدأت فى العصر العباسى الثانى تولى الولاة من الترك ، وكان هؤلاء — كما ذكرنا فى الحديث عن عصر نفوذ الأتراك — لا يرغبون فى ترك سامرا أو بغداد ، وانما كانوا

ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٧ .

(١) حسن أحمد محمود : الكندى المؤرخ ، ص ١٠٨ .

يقبلون الولاية ولا ينقلون اليها بل ينيون عنهم فيها رجالا من قبلهم .
ولما كانت الخلافة مغلوقة على أمرها ومشغولة بصراعها مع هؤلاء
الأتراك الذين سيطروا عليها ، ولما كان هؤلاء مشغولين بمنافساتهم ،
فقد تركوا الأقاليم لنوابها . وكانت أقاليم الدولة تتجه نحو الاستقلال
أو الحكم الذاتي ، وتتعرض لذلك لكثير من الفتن والثورات واضطراب
الأحوال الاقتصادية .

ولما كانت الجساعات الكثيرة من المسلمين في هذه الأقاليم تواقفة
الى مزيد من الاستقرار والهدوء ، فقد كان الحل الحتمى لانقاذ العالم
الاسلامى مما تردى فيه ، أن تظهر الإمارات المستقلة لتتملأ الفراغ الذى
تركه ضعف الخلافة ، ولتعيد الاستقرار السياسى ، وتصلح الأوضاع
الاقتصادية وترعى مصالح أهل البلاد وتدافع عنهم .

وكان ظهور الطولونيين فى مصر صورة من تلك التطورات التى
سادت العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى .

ومؤسس الدولة الطولونية — أحمد بن طولون — رجل تركى ،
كان أبوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم ولاية ولايات الدولة الشرقية الى
الخلفاء العباسيين ضمن هداياهم للخلفاء . وقد تربى أحمد بن طولون فى
بغداد ونال حظا من الثقافة الدينية كان لها أثر كبير فى حياته السياسية .
فلقد خالف ابن طولون ما درج عليه الأتراك من العبث والظلم ، وما طبعوا
عليه من حب المال وجمعه عن طريق الاستيلاء والمصادرة دون نظر الى
رعاية مصالح الناس ، أو عمل على تنمية موارد الثروة ، حتى أصاب
العراق فى عهدهم الخراب الاقتصادي ، فلما تولى أحمد بن طولون مصر
نمت ثروتها على يديه نموا كبيرا بما قام به من اصلاحات اقتصادية
شاملة . كما كان مثالا فى التواضع والعدل وتقريب العلماء (١) .

(١) ابن خلكان : ج ١ ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

دخل أحمد بن طولون مصر في رمضان سنة ٢٥٤ هـ نائبا عن واليها بايكباك التركي ، ولم يكن له ولاية مصر وإنما كان على الصلاة وله الحاضرة ، وكان معه آخرون على حكم الجهات الأخرى ، فقد كان على الاسكندرية اسحاق بن دينار ، وعلى برقة أحمد بن عيسى الصعيدي ، وعلى القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى البريد شقير الخادم ، وعلى خراج مصر كلها أحمد بن المدبر . فكانت سلطات أحمد بن طولون اذن محدودة في مصر . لكننا نحس من تصرفاته أنه قد جاء الى مصر وله آمال عراض لم يشأ أن يكشف عنها دفعة واحدة ، وأن غايته أن يستقل بولاية مصر كلها تحت سلطان الخلافة العباسية وبرغبتها ، ثم يتخذ من مصر قاعدة ليلعب الدور الأول في العالم الاسلامي ، ثم يجعل الامارة وراثية في أبنائه . ولتحقيق هذه الغاية بدأ يسير في خطوات متتابعة .

كان أمام ابن طولون في مصر عقبات عليه أن يذللها ، ومشاكل يتحتم عليه حلها . كان سلطانه في مصر محدودا لأنه تقلد قسبة البلاد دون غيرها ، وقد كان يحكمها باسم والي مصر بايكباك ، وفي استطاعة هذا أن يعزله اذا لم يحز رضاه ، كما كان له منافسون أخطرهم في مصر أحمد بن المدبر عامل الخراج الذي دأب على الايقاع به وتهديد مركزه في دار الخلافة . ثم كانت الفتن والثورات مشتعلة في مصر وقد أجهد نارها الخوارج والعلويون ، وقد تأثرت حالة مصر الاقتصادية بهذه الفتن فتعطلت المرافق وتعرضت البلاد لسطوات هؤلاء الخارجيين واستيلائهم على الأموال وكان على ابن طولون أن يتصدى لهذا كله .

فأما ثباته في مصر ، فقد أعانته الظروف عليه ، ذلك أن بايكباك قتل ، وأسندت ولاية مصر الى بارجوخ الذي كان بينة وبين ابن طولون مودة ومصاهرة فأقره على ما في يده وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها (١) . وقد تخرج مركز أحمد بن المدبر حين أصبحت مصر كلها

(١) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ٦٦ . الكندي : الولاة ، ص ٢١٦ .

فى ولاية ابن طولون وتوطد مركزه فى دار الخلافة ، ولما كان ابن المدبر مكروها من أهل مصر لزيادته فى الضرائب واستعماله القسوة فى جبايتها ، فقد فضل أن ينقل منها الى جهة أخرى ، فترك مصر وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧ هـ . وتعتبر هذه السنة حاسمة فى حياة ابن طولون ، اذ كانت بداية اطلاق يده فى البلاد المصرية كلها (١) . فقد دافعت له الاسكندرية وبرقة ، وقدم له حكام الكور (المديريات) مظاهر الطاعة والخضوع ، وعندئذ بدأ يتصرف كأنه الوالى الشرعى للبلاد ، فبدأ فى انشاء مدينة له على طراز المدن التى تنشئها الدول الجديدة كمواصم لها ، فأخذ فى انشاء القطائع وتأسيس المسجد الجامع بها (٢) . وهذا يكشف لنا عن اتجاه أحمد بن طولون نحو اقامه دولة مستقلة ثابتة الأركان . ثم سيطر على البريد فأصبح خاضعا له ، وضمن ألا تشرب أخباره الى دار الخلافة الا بالقدر الذى يريد (٣) . ولما مات بارجوخ سنة ٢٥٨ هـ توطدت قدم أحمد بن طولون بمصر وأصبح يحكمها من قبل الخلافة مباشرة (٤) . وفى سنة ٢٦٣ هـ كتب الخليفة المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه على ارسال الخراج ، فرد عليه « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى » فقلده الخليفة خراج مصر ، وولاه الثغور الشامية (٥) . وبذلك أصبحت مصر كلها فى يد ابن طولون ادارتها وماليتها وحربها وقضاؤها .

أصبح ابن طولون مطلق اليد فى التصرف ، فأخذ يعمل على إنشاء دولة قوية تستطيع أن تتحمل أعباء الدور الذى يصبو الى القيام به فى العالم الاسلامى ، فبدأ أولا بالعمل على اقرار الأمن فى البلاد لينصرف

-
- (١) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ٥٩ ، ٦٠ .
 - (٢) الكندى : الولاة ، ص ٢١٦ .
 - (٣) حسن أحمد محمود : الكندى ، ص ١٧١ .
 - (٤) ابن الاثير : ج ٦ ، ص ٩١ .
 - (٥) الكندى : الولاة ، ص ٢١٢ .

الى تنفيذ مشروعاته فى هدوء ، ولذلك تصدى للفتن الداخلية فقمعها بقوة حتى استقامت له الجبهة الداخلية واعترفت جميع القوى بزعامته ، ولما كانت المشروعات الاستقلالية تتطلب الأموال للقدرة على انجازها ، فقد قام باصلاحات اقتصادية كثيرة •

فحين أسند اليه ديوان الخراج ملأه بالموظفين الموالين له ، وفرض عليهم رقابة صارمة حتى لا يستغلوا وظائفهم فى النهب وادهاق الناس ، وقد استعان بأهل البلاد فاتخذ منهم الموظفين ، بل حرص على ألا يحضر لمصر موظفا من غير أهلها (١) ، ونتيجة لذلك بلغ خراج مصر فى عهده نحو ٣٠٠٠٠٠ ر. ٣٠٠٠٠ دينار (٢) ، كما عمد الى مضاعفة الدخل فى ميادين الانتاج كلها : الزراعى والصناعى والتجارى ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة الدولة دون أن يرهق الناس بالمكوس والضرائب ، فعنى باقامة الجسور وحفر الترع فانصلحت أحوال الزراعة ، ولما كان قد قضى على الفتن ونشر العدل فان الفلاحين قد أقبلوا على العمل فى أراضيهم آمنين حتى انتعشت الزراعة وكثرت المحاصيل وعم الرخاء بلاد الريف كلها ، كما أن جو الأمن نشط التجارة ، واستتبع نمو الزراعة والتجارة نشاط الحركة الصناعية فى البلاد وبفضل هذه الاصلاحات تجمعت لدى ابن طولون أموال ضخمة كانت عونته فى الخطوات التى خطاها فى سبيل الاستقلال •

وليس تكمل استقلاله ويقوم بدور فعال فى العالم الاسلامى كان لابد أن يكون له جيش قوى يدين له بالولاء ويكون عونته فى تحقيق مشروعاته والدفاع عن الاستقلال الذى يريد تحقيقه ، فاستكثر من شراء العبيد حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف مرتزق (٣) • وبهذا أصبحت له قوات نظامية كبيرة

(١) البسلوى : ص ١٠٦ •

(٢) ابن سعيد : المغرب ، ص ١٣٢ •

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٩٤ •

العدد تخضع له مباشرة • ولقد أعانه نمو الموارد الاقتصادية على هذا الاكثار من الجند وشراء الأسلحة لجيشه ، كما أعانه على القيام باصلاحاته العمرانية وبناء القطائع والقصر المعروف بالميدان والمسجد الجامع ، كما مكّنه من القيام بدوره في الجهاد في الثغور الشامية التي أسندت اليه • وحين اكتملت لابن طولون سلامة الجبهة الداخلية تفرغ لنشاطه الخارجي •

كانت المشكلة الكبيرة التي اعترضت ابن طولون تقوم في دار الخلافة نفسها ، فقد بدأت الخلافة حركة انتعاش قام بها الموفق أخو الخليفة المعتمد ، لاستعادة فعالية الخلافة ونقوية قبضتها على ولاياتها • وقد سيطر الموفق على الشؤون العامة في الخلافة ولم يبق للخليفة الا الاسم ، ولما كان الموفق يستعد للقضاء على ثورة الزنج التي هددت الخلافة تهديدا خطيرا ، فقد كتب الى أحمد بن طولون يطلب منه ارسال معونة مالية ، وعلى الرغم من أن ابن طولون أرسل مليوناً ومائتي ألف دينار ، فإن الموفق استقلها ، وأحس أنه يرسلها متبرعا ولا يرسلها مأمورا ، فكتب اليه كتابا ينطوي على الجفاء والشر ، ورد أحمد بن طولون عليه بكتاب شديد اللهجة ، وبذلك تصدى لأكبر قوة في الدولة العباسية ، وهي قوة الموفق الذي كان سلطان الخلافة الفعلي في يده • وقد كانت مغاضبة الخلافة في ذلك الوقت الذي أخذت تسترد فيه فعاليتها أمرا ينطوي على خطر جسيم على ابن طولون ، ولولا أن الموفق كان مشغولا بحرب الزنج لتهدد مركز ابن طولون تهديدا حقيقيا ، ومع ذلك فقد أرغم الموفق أخاه الخليفة على عزل ابن طولون عن ولاية مصر وتولية ماجور التركي بدله (١) • ولولا علو همة ابن طولون ورباطه بجأشه لذهبت آماله أدراج الرياح ولسقط أمام الخلافة العباسية •

ولكن ابن طولون اتخذ كل سلاح للدفاع عن نفسه ، ولكنه

(١) عن الخلافة بين الموفق وابن طولون • انظر ابن الأثير : ج ٦ ،

لم يشأ أن يجاهر بعداء الخلافة وانما أراد أن يظهر على أنه مطيع للخلافة خادم لها ، وحصص العدا بينه وبين الموفق على اعتبار أن الخلافة واقعة تحت قبو الموفق الذي حجب على الخليفة ، فطلع على العالم الاسلامي بأمر جديد كان له وقع عظيم في الأوساط المعاصرة ، ذلك أنه نصب نفسه مدافعا عن الخليفة المظلوم ، وهدد باستعمال القوة المسلحة ، فقد كتب الى المعتمد في سنة ٢٦٨ هـ كتابا هاما يحرضه فيه على الخروج عن العراق والانحياز الى مصر ، ويشير الى أن لديه القوة الكافية لتأييد الخليفة « ... وقد جمعت عندي مائة ألف عنان أنجاء ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يتهيا لأخيه فيه شيء مما يخافه عليه منه في كل لحظة ... » (١) وقد استجاب الخليفة لأغراء ابن طولون ، فخرج متظاهرا بالتصيد حتى وصل الى الرقة حيث كان في انتظاره بعض رجال ابن طولون ، لكن الموفق اكتشف المؤامرة فأعاد الخليفة الى سامرا (٢) ، ولو نجح ابن طولون في ايواء الخليفة لتحركت قواته الرابضة على حدود العراق ، ولدخلته دفاعا عن حق الخليفة . ويعطينا هذا التصرف صورة للوزن الكبير الذي أصبح لابن طولون في العالم الاسلامي .

ثم ان ابن طولون أتى بما يشعر بأنه نصب نفسه وصيا على أمور الخلافة ، فقد عقد مؤتمرا في دمشق جمع له القضاة في الشام ومصر ، وأصدر قرارا بخلع الموفق عن ولاية العهد ، استنادا الى أن الموفق تقض البيعة بعدوانه على الخليفة ، وأنه خرج على السلطات المخولة لولى العهد ، وأنه يكون بذلك غير أهل لإمامة المسلمين . ثم أتبع ذلك بأن أمر بلعن الموفق على المنابر واسقاط اسمه من الدعوة ومحوه من الطرز (٣) . وبذلك يكون أحمد بن طولون قد أعطى نفسه حق خلع ولى العهد ، وهو تصرف جريء ، فولاية العهد ، عقدا وحلا ، من

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ، ص ٢٨١ .

(٢) الكندي : الولاة ، ص ٢٢٥ .

(٣) الكندي : ص ٢٢٦ .

اختصاص الخليفة ، ولتبرير ذلك اتخذ ابن طولون لنفسه لقباً جديداً ورد في صيغة كتاب الخلع وهو « أحمد ابن طولون مولى أمير المؤمنين » (١) .

وبجانب هذا التصرف السياسى ، قام بعمل حربى ، فقد تصدى لقوات الموفق ، كما تصدى للعمال الذين عينهم الموفق على الشام أو على مصر ، منتهزاً انشغال الموفق بحرب الزنج ، واستطاع أن يقر سلطانه على الشام وعلى الثغور بقوة السلاح ، بل أن قواته امتدت إلى الحجاز وفازت قوات الموفق فى مكة (٢) .

وقد رد الموفق على ابن طولون ، بأن اعتبره خارجاً على الخلافة ، وأصدر أمراً من الخليفة ومن ولى العهد الأول ومنه بلعن ابن طولون على المنابر فى كل ولايات الدولة واعتباره من المفسدين (٣) . ومثل هذا الأمر يصدر من الخلافة كان أقوى من فعل ابن طولون وأفعلى فى نفوس الناس ، وكان له رد فعل شديد ، فقد شغب الأمراء فى الولايات والمدن فى الشام والثغور على ابن طولون . ولم يستطع أن يكبح جماحهم بعد أن ضعف نفوذه الأدبى بتأثير الدعاية الواسعة التى نشرها الموفق ضده ، وكان لهذا أثره فى موقفه العسكرى ، فقد هزمت قواته فى مكة ولعن فى المسجد الحرام (٤) . كما حلت به الهزيمة لأول مرة فى طرسوس بعد أن قفل أهلها أبوابها فى وجهه ، ومات أكثر حنده من البرد وغرقت أمتعتهم فى مياه نهر بردان الذى أرسله عليهم حاكم طرسوس (٥) .

وعلى الرغم من هذا الخلاف الذى وقع بين أحمد بن طولون وبين دار الخلافة ، فإنه أثبت جدارة كبيرة وأظهر تفوقاً فى السياسة والحرب ،

-
- (١) البلوى : ص ٢٩٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٤٢ .
(٣) الكندى : ص ٢٥٩ .
(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٢٠ .
(٥) الكندى : ص ٢٢٩ .

ولم يؤخذ عليه الا هذا التصرف الذي اتخذه بازاء الموفق . ومع ذلك فقد اتسعت دولته وامتد ملكه من العراق شرقا الى برقة غربا ومن آسيا الصغرى الى النوبة ، وكان شديد البأس خبيرا بتعبئة الجيوش وقيادتها وقد أسهم الى جانب قوات الخلافة في الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم ، حتى خشي بأسه امبراطور الروم وترضاه بأن فك له من تحت يده من المسلمين وأهدى اليه عدة مصاحف للقرآن الكريم (١) .

مات ابن طولون فبايع الجند لابنه خمارويه ، الذي كان عليه أن يدافع عن الدولة التي أقامها أبوه في مصر وأن يحفظ بالشام ، كما كان عليه أن يستأنف النضال الذي كان قائما بين الطولونيين وبين دار الخلافة . وكان الموفق قد استراح من حرب الزنج وتفرغ لشئون مصر ، لكن خمارويه استطاع أن يحبط كل مساعيه وأن يقر السلام في الحدود الشرقية ، وقد امتد نفوذه من الفرات الى برقة ، وأصبح الطولونيون قوة يحسب لها حساب كبير ، وأحس الموفق أنه من الأفضل مسالمتها بعد أن أدرك أنها تملأ مكانتها في قوة وجداره ، كما رأى خمارويه أن من الخير له أن يسعى للسلام مع الخلافة فبدأ بطلب الصلح ، واستجابت الخلافة لهذا الطلب ، فبعث الخليفة وأخوه الموفق اليه كتابا كتبوه بأيديهم تعظيما له وتكريما (٢) . وفي هذا الكتاب أعطت الخلافة خمارويه حكم البلاد مدة ثلاثين سنة فيه وفي أولاده لايهدد بعزل أو تدخل في شئونه ، فكان هذا أمرا جديدا في العلاقات بين مصر وبين دار الخلافة . وبذلك استوفت الامارة الشكل وأصبحت مصر دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمي والفعلي .

وفي عهد الخليفة المعتضد تدعمت العلاقات بين الطولونيين ودار الخلافة ، حيث تمت المصاهرة بين البيتين ، فقد تزوج الخليفة قطر الندى بنت خمارويه ، وكسب بذلك البيت الطولوني مجدا ونفوذا بمصاهرته

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٩ .

(٢) الكندي : ص ٢٣٨ . النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٥٠ .

للخليفة ، كما كسبت الخلافة وقوف هذا الطرف الغربى الى جانبها يشد
أزرها ماديا وعسكريا .

على أن خمارويه ما لبث أن توفى سنة ٢٨٢ هـ وبموته اضطربت
أحوال الدولة الطولونية بسبب تدخل الجند وتنافس الأمراء الطولونيين
فيما بينهم ، واشتعلت الفتن والثورات ، وأصبح من المؤكد أن أمراء
البيت الطولونى فقدوا عنصر القوة الذى كان يتمتع به أحمد بن طولون
وأبنة خمارويه ، بحيث أصبحوا ألعوبة فى يد الجند وتعرضوا للمهانة
والقتل . وفى سنة ٢٩٠ هـ ظهر القرامطة بالشام ، فأنفذت الدولة
الطولونية جيشا لقتالهم فهزم ، وأدى هذا الضعف الى أن تجدد الخلافة
العباسية رغبتها فى إعادة مصر الى سلطانها المباشر ، فأرسلت جيشا بقيادة
محمد بن سليمان الكاتب لاسترجاع مصر ، ولم تقو القوات الطولونية
على الصمود له ، فدخل الفسطاط سنة ٢٩٢ هـ وأمر بإحراق الفطائع
فأحرقت . وهكذا زالت الدولة الطولونية بعد أن حكمت البلاد ثمان
وثلاثين سنة (١) .

عادت مصر الى حكم الخلافة مباشرة ، لكن الخلافة كانت قد
انتهكت مرة أخرى فى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) وعادت سلطة
الإتراك على دار الخلافة مرة أخرى ، وعاد معهم استبدادهم بالخلفاء
وإهمالهم لشئون الدولة ، وتأثرت مصر بهذه الظروف فأصبحت مسرحا
للمنافسة بين الولاة وعشال الخراج . وقد صاحب هذا قيام الدولة
الفاطمية بالمغرب واكتساحها لدولة الأغالبة فى تونس ، وبذلك تلاقت
الحدود العباسية والحدود الفاطمية على حدود مصر الغربية ، وقد ظهر
الاتجاه الفاطمى نحو مصر منذ ذلك الوقت فأخذوا يرسلون دعائهم
بوجيوشهم الى مصر ، ولاحقوها بالحملات المتكررة ولم يكن هناك بد

(١) انظر عن سقوط الدولة الطولونية : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ،
ص ٨٨ — ١٤٣ . الكندى ، ص ٢٤١ — ٢٤٨ ، المقرئ : الخطط ،
ج ٢ ، ص ٣١٣ وما بعدها .

من وجود حاكم قوى فى مصر يستقل بشئونها ويقر الأمن فيها ، ويستخدم مواردها للوقوف فى وجه القوة الفاطمية الزاحفة نحو الشرق ، وهذا يذكرنا بموقف الخلافة العباسية من تونس بعد أن تهددت بقيام الأدارسة ، فأقام الرشيد ابراهيم بن الأغلب حاكما مستقلا ليكون حاجزا بينهم وبين الزحف الى مصر ، ونشهد هنا نفس المسألة تتكرر ، فنرى القوة الموالية للعباسيين تنحسر عن تونس ، ولا ترى الخلافة بدأ من أن تقيم دولة حاجزة فى مصر تحميها وترد عنها هذا الزحف الشيعى الجديد ، فولى الخليفة الراضى محمد بن طنج على مصر سنة ٣٢٣ هـ (١) .

الدولة الإخشيدية

كان ظهور محمد بن طنج الإخشيد فى مصر يشبه الى حد كبير ظهور أحمد بن طولون بها من ناحية ، ويشبه ظهور ابراهيم بن الأغلب بأفريقية من ناحية أخرى ، فقد ظهر الإخشيد ليخلص مصر من الفتن الداخلية العنيفة التى قامت بها بعد عودتها الى حوزة الخلافة العباسية ، وليصلح من أحوالها التى أفسدها عمال الخراج الذين عادوا الى عبثهم وفسادهم بعد زوال الحكم الطولونى . وكما تصدى الموفق لأحمد بن طولون من قبل ، كذلك تصدى محمد بن رائق للإخشيد . كذلك جاء الإخشيد الى مصر ليواجه التهديد الفاطمى الذى أخذ يتجه الى مصر ويلح عليها بالغزو ، وبعد أن اكتسح أمامه دولة الأغالبة فى أفريقية ، وقد تصدى الإخشيد للنفوذ الفاطمى كما تصدى ابراهيم بن الأغلب لنفوذ الأدارسة فى المغرب من قبل . وكذلك لعب الإخشيد نفس الدور الذى لعبه أحمد بن طولون من قبل بالنسبة للخلافة العباسية ، فقد حاول الإخشيد اغراء الخليفة العباسى المتقى بالقدوم الى مصر ليخرج عن نفوذ أمير الأمراء المتسلط فى بغداد ، كما حاول ابن طولون أن يغرى الخليفة المعتمد بالقدوم اليها بعيدا عن نفوذ أخيه الموفق ، فكللا الرجلين اذن أراد

أن يجعل من مصر مركز الثقل في العالم الاسلامي بنقل الخليفة اليها حتى
ولو الى حين .

ومحمد بن طغج بن جف تركي من فرغانة : وقد قدم جده جف
الى دار الخلافة في عهد المعتصم : وظلت أسرة جف مقبلة بدار الخلافة
تعمل ضمن الأتراك الذين كانوا يعملون في العراق . وقد بدأت حياة
محمد بن طغج العملية تظهر حين اتصل بخدمة ابن بسطام من بلاد
المشام ، ولما كانت مصر موضع نشاط للأعمال الفاطمية لغزوها . فوجد
ابن طغج ميدانا فسيحا ليظهر في مسرح الحوادث . فجاء الى مصر
وقاقل تحت قيادة تكين التركي وظهرت شجاعته وبلاؤه في قتال الحملة
التي وجهها الفاطميون بقيادة حباسة بن يوسف الكناني سنة ٣٠٢ هـ (١) .
وتوثقت الصلة بين محمد بن طغج وبين تكين فلولاه عمان وجبيل الشراة
سنة ٣٠٦ هـ نيابة عنه . وقد أتاحت له الفرصة ليكسب عطف الخليفة
ورضاه بعد أن كسب عطف العناصر التركية في الشام ومصر . فقد أغار
الأعراب على قافلة للحجاج المارين ببلاد الشام . وكان فيها قوم من
أعيان العراق ومعهم جارية لأُم الخليفة ، فتصدى ابن طغج للأعراب
وهزمهم وخلص القافلة منهم ، فحمد الناس له ذلك ورعى عنه الخليفة .
وكان عليه بعد ذلك أن يرضى المرتزقة أصحاب السلطان الفعلي في
بغداد ، وقد نم له ما أراد حين نجح في صد الخطر الفاطمي عن مصر
متعاوناً مع عاملها التركي ومع مؤنس الخادم الذي كان صاحب السلطة
الفعلية في بغداد والذي كان يقوم بهام أمير الأمراء ، وقد جاء الى مصر
ليشرف بنفسه على الاستعدادات الكفيلة بصد هذا الخطر . وعاد
مؤنس الى بغداد راضياً عن محمد بن طغج ، فقلده ولاية الرملة في
فلسطين سنة ٣١٦ هـ (٢) ، ثم ولاية دمشق سنة ٣١٩ هـ . ولكن ابن طغج
كان يرنو الى ولاية مصر معتمداً على الجند والأموال التي استتشر منها

(١) الأثير : ج ٧ ، ص ٣١ .

(٢) سيدة الكاشفة : مصر في عصر الاخشيديين ، ص ٦٣ .

فى بلاد الشام ، وقد واثته الفرصة حين ولى الخليفة الراضى ، وكانت الأحوال فى مصر مضطربة أشد الاضطراب بين مطامع القواد ، ومطامع صاحب الخراج محمد بن على الماذرائى الذى استتد بأموال مصر هو وأسرته من قبله نحواً من خمسين سنة جعلوا الخراج فى مصر دولة بينهم، فكأنهم دولة فى داخل الدولة (١) . كما تحقق لابن طنج النفوذ فى حاضرة الخلافة بعد مصاهرته للفضل بن جعفر صاحب النفوذ فى بغداد (٢) ، ولما كانت الخلافة محتاجة الى رجل قوى ليقر الأمن فى مصر وليجعل منها قاعدة لرد هجمات الفاطميين ، فقد ولى الخليفة محمد بن طنج على مصر ، واضطر هذا الى القدوم الى مصر فى شبه حملة عسكرية للقضاء على عامل الخراج ، فقهره واضطره الى الفرار . وكان على ابن طنج بعد ذلك أن يثبت قدمه فى مصر ، ولا يكون ذلك الا بأن يدافع عنهما ويحميها ، ويظهر فى العالم الاسلامى بمظهر المدافع عن أهل السنة وعقائدهم وتقاليدهم ، وقد نجح فعلاً فى التصدى لحملات الفاطميين التى استمرت من سنة ٣٢١ الى ٣٢٤ هـ ، وبذلك حاز الاعجاب ، ونال رضا الخليفة الراضى الذى أمر بأن يزداد على اسم ابن طنج لقب الاخشيد، وهو اللقب الذى كان يطلق على ملوك فرغانة ، وقد دعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام فى شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ (٣) . وفى هذا اعتراف من الخليفة بمكانة الاخشيد . كما كان هذا صدى لما أصبح للاخشيد من مكانة فى العالم الاسلامى فى المشرق .

وكان على الاخشيد لى يؤمن تلك المكانة التى سبب اليها ، ويعزز سياسته الداخلية والخارجية ، أن يكون له جيش قوى . فأنشأ الجيش على غرار ما فعل ابن طولون من قبله ، كما سار على نفس السياسة التى سار عليها وهى تحببه للصريين واكتساب ود أهل البلاد ، والفوز بولاء أهل الذمة الذين كانوا لا يزالون فى ذلك الوقت قوة يحسب لها حساب .

(١) سيدة الكاشفة : ص ٣٧ — ٤٥ . حسن احمد محمود .
الكندى : ص ٧٩ .

(٢) ابن سعيد المغرب : ص ١١ .

(٣) الكندى : الولاة ، ص ٢٨٨ .

واذا كان ابن طولون من قبل قد تصدى لأكبر قوة في المشرق متمثلة في شخصية الموفق ، فإن الأخشيد قد تحدى ابن رائق أمير الأمراء الذي اتسع نفوذه فتولى امرة الجيش وخراج جميع البلاد التي كانت في حوزة الخلافة العباسية ، وخطب له على المنابر في الشرق والغرب ، وقد هدد الأخشيد ، فلم يتردد هذا في الاشتباك معه في البر والبحر ، واستطاع أن يالحق به الهزيمة . ومن ثم أصبح الأخشيد من أكبر القوى في العالم الاسلامي حتى أن الخليفة الذي عبث به الترك وأفزعه عدوان أمير الأمراء اضطر الى الاستنجاد بالأخشيد ، فقابله الأخشيد بالركة ودعاه الى القدوم الى مصر (١) وهكذا كرر الأخشيد ما فعله ابن طولون ليجعل من مصر قاعدة الخلافة العباسية . واذا كان لم ينجح في الوصول الى هذه الغاية كما لم ينجح ابن طولون من قبل فانه قد ظفر بعد ذلك بمثل المعاهدة التي ظفر بها خمارويه ، اذ اعترف الخليفة له بولاية مصر وراثية في أولاده وأقره على البلاد التي استولى عليها في الشام ، كما دخلت مكة والمدينة في يده . وأصبح بذلك من القوة بحيث يستطيع أن يأمر عسالة وقواده بالاعتراف بولاية ابنه أنوجور ، وحصل من الخليفة على موافقته على هذه البيعة ، وأصبح يدعى للخليفة وللأخشيد وأبنه على منابر مصر والشام .

وكما كان الأخشيد يستخدم القوة مع خصومه ، كذلك كان يستخدم السياسة ، وكان بعيد النظر يقدر ظروفه وظروف العالم الاسلامي ، ويغلب المصلحة العامة اذا تعارضت مع مصلحته الخاصة . من ذلك أنه حين قاتل محمد بن رائق وانتصر عليه في الشام عقد معه صلحا على ما يجب ابن رائق ، وتعهد له الأخشيد بدفع مائة وأربعين ألف دينار سنويا ، وكان في ذلك بعيد النظر ، فانه كان يعرف مكانة ابن رائق ولا يريد أن يتعرض معه لحرب ، قد يوالى فيها ابن رائق الحملات عليه من قبل الخلافة ، هذا فوق أنه مهدد من جبهته الغربية بالفاطميين ،

(١) الكندي : الولاة ، ص ٢٩٢ .

فلم يشأ أن يشغل نفسه بالجبهة الشرقية • ومن ذلك أيضا أنه اصطدم بقوة الحمدانيين النامية في حلب والتي تقدمت لاحتلال دمشق ، وعلى الرغم من اقتصاره على سيف الدولة إلا أنه تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، كما تعهد بأن يدفع لهم جزية سنوية كفاء احتفاظه بدمشق (١) • وكان في ذلك يغلب مصلحة العالم الاسلامي على مصلحته الخاصة ، فـ كان الحمدانيون يتصدون لمنازلة الروم الذين نشطوا في ذلك الوقت في الهجوم على الولايات الاسلامية المتاخمة لبلادهم • فأراد الاخشيد أن ييسر الحمدانيون حصنا منيعا يصد غارات الروم ، وهم بذلك يتحملون عنه ثقل هذه التبعة الملقاة على عاتقه أمام العالم الاسلامي بصفته واليا على الشام •

واذا كان الاخشيد قد تصدى للهجمات الفاطمية على مصر وردھا بنجاح ، فانه كان مرهوب الجانب عند الروم حتى ان امبراطور الروم رومانوس كاتبه دون الخليفة ومدحه وتودد اليه ، وقد رد عليه الاخشيد مؤكدا ولاءه للخليفة ، وأجابه في اعتداد أنه يقبل منه ما عرضه من فداء الأسرى ومبادلتهم • ويكشف هذا الكتاب الذي أورده القلقشندي عن مدى اتساع ملك الاخشيد فانه يشمل : مصر ، واليمن ، وأجناد الشام ، جند حمص ، وجند دمشق ، وجند الأردن ، وجند فلسطين ، ثم ما تقلده من أمر مكة والمدينة • كما يكشف أن سياسته لهذه البلاد كانت ترمي الى تأليف قلوب الرعية وجمعهم على الطاعة واقرار الأمن والدعة في المعيشة (٢) •

وهكذا ارتفع شأن مصر في عهد الاخشيد ، وتوطد فيها الأمن وسادها الرخاء نتيجة لسياسة الإصلاح التي اتتهجها ، حتى ان المؤرخين

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ •

(٢) صبح الأعشى : ج ٧ ، ص ١٠ — ١٨ • حسن ابراهيم : ج ٣ ،

ص ٣٥٠ ، ٤٩٦ — ٤٦٧ •

ليتحدثون عن الثروة الطائلة التي تركها الاخشيدي (١) .

وحيث مات الاخشيدي سنة ٣٣٤ هـ كان ولداه صغيرين ، فتولى الوصاية عليهما مربيهما كافور الاخشيدي الذي أصبح صاحب السلطان المطلق في ادارة الدولة الاخشيديية (٢) ، وقد استطاع كافور أن يحافظ على الدولة وأن يدافع عنها طوال مدة وصايته من سنة ٣٣٤ الى ٣٥٥ هـ ، حتى اذا مات ابنا الاخشيدي أنوجور ثم أبو الحسن علي أعلن كافور نفسه واليا من قبل الخليفة (٣) . ولكن الحملات المغربية توالى على مصر ، وكان الدعاة الشيعة قد نجحوا في الدعوة الفاطمية ، حتى ان كافور نفسه تلقاهم بالقبول ، ووعد كثيرا من رجال بلاطه وكبار الموظفين بالدولة بتقديم الولاء للفاطسيين ، ثم لم يلبث الفاطميون قليلا بعد موته حتى وجهوا حملة الى مصر التي كان الدعاة قد حرثوها من قبل ، ونجح جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي أن يستولي عليها دون كبير عناء في سنة ٣٥٨ هـ .

وباستيلاء الفاطميين على مصر ثم تقدمهم للشام انشطر العالم الاسلامي شطرين : شطره الشرقي تحكمه الخلافة العباسية وقاعدته العراق ، وشرطه الغربي تحكمه الخلافة الفاطمية وقاعدته القاهرة التي أنشأها الفاطميون بعد دخولهم مصر بقليل .

(١) المقرئزي : الخطط : ج ١ ص ٩٩ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ، ص ٤٥ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ،

ج ٤ : ص ٣ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ، ص ٤٦ ، ٤٩ .

الدولة الحمدانية

قامت دولة الحمدانيين فى منطقة الموصل ثم فى حلب (٣١٧-٣٩٤هـ) لتسد فراغا كان موجودا بين قوة الخلافة فى بغداد أو فى الحقيقة قوة أمير الأمراء الذى يحكم باسم الخلافة فى بغداد ، وقوة الاخشيديين ثم الفاطميين الذين يحكمون فى مصر والشام ، فقد كان نفوذ بغداد فى أقل قوته فى هذه المنطقة ، كما كان نفوذ مصر فى أضعف حالاته كذلك فى هذه المنطقة . ولما كان لزاما أن توجد قوة فعالة فى هذه المنطقة الكبيرة الأهمية لمواجهة للجهة البيزنطية ، فان قيام الحمدانيين كان ضرورة لسد هذا الفراغ بين هاتين القوتين الاسلاميتين اللتين بدا واضحا عدم فعالية المشاركة بينهما فى الدفاع عن هذا الثغر الهام . فكان ظهور الحمدانيين لذلك نابعا من طبيعة هذه المنطقة الثغرية ، وحاجتها الى الدفاع الناجح فى وقت انتعشت فيه الامبراطورية البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ، ونشطت لمهاجمة العالم الاسلامى واسترداد بلاد الشام ، أو على الأقل تدمير القوة الاسلامية فى الثغور والحد من نشاطها . وقد تصدت الدولة الحمدانية لهذا النشاط الرومى ، ومن هنا تبرز أهمية الحمدانيين والدور الذى أدوه فى خدمة العالم الاسلامى .

وقد كان ظهور الحمدانيين من ناحية أخرى يمثل انتعاش العنصر العربى الذى انزوى بعد تقدم العناصر التركية فى العراق ، وبعد أن أسقط المعتصم العرب من الديوان ، ثم تتبع ابنه الواثق حر كათهم بالضرب والقمع فى مناطق التركيز العربى ، فى الجزيرة العربية وفى الشام ومصر . ثم أدى وقوع الخلافة تحت نفوذ الأتراك ثم ذلك الصراع الذى شهدناه بين الخلفاء وبين المتسلطين من قواد الأتراك الى محاولة الخلفاء انعاش هذا العنصر العربى مرة أخرى .

وقد ظهر الحمدانيون فى عهد الخليفة المعتضد ثأرين على الدولة العباسية ثم عفا عنهم وأحسن اليهم بعد أن اقتصر الحسين بن حمدان على

هارون الشاري وجاء به الى المعتضد أسيرا (١) . ومن ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانيين ، وقد استنفادت الخلافة من قيام بنى حمدان كقوة عربية في هذه المنطقة للقضاء على المناوئين لها ، فقد اشتهر الحسين ابن حمدان في حروبه مع القرامطة . كما تدخل في شئون الخلافة في بغداد وكان الحسين من البواد والرؤساء الذين حاولوا الوقوف في وجه الأتراك والحد من سيطرتهم على الخلفاء ، وأرادوا اسناد الخلافة لابن المعتز لثنافته وقدرته على تحمل أعباء الخلافة ، ولكن الأتراك نجحوا عليهم فأسندوا الخلافة للمقتدر وقد كان طفلا . ومع غضب المقتدر على الحسين بن حمدان ، فإن سياسة الخلفاء كانت تتجه الى احياء هذه القوة العربية ، لذلك قلد المقتدر رجال الحمدانيين على الموصل وديار ربيعة ، فقلد آبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وما يليها في سنة ٢٩٢ هـ ، وولى أخاه ابراهيم ديار ربيعة في سنة ٣٠٧ هـ ، كما ولى أخاه سعيدا نهاوند سنة ٣١٢ هـ ، وقلد غيرهم من بنى حمدان بعض مناصب الدولة . غير أن الذين اشتهروا من بنى حمدان ، وقاموا بدور هام سواء في شئون الخلافة أو في ميدان الجهاد ضد الروم ، هم أبناء عبد الله بن حمدان الذين اشتهر منهم : أبو محمد الحسن بن عبد الله الذي لقب « ناصر الدولة » ، وأخوه أبو المحاسن علي بن عبد الله الذي لقب « سيف الدولة » . وقد انتشبت الدولة الحمدانية الى شعبتين : ، امارة الموصل وعليها الحسن بن عبد الله ناصر الدولة وامارة حلب وعليها علي بن عبد الله سيف الدولة .

ولايهيننا من دراسة الدولة الحمدانية الا نواح ثلاثة : علاقتها بالخلافة العباسية . ثم علاقتها بحكومة مصر والشام ، ثم جهادها في الشغل الرومي .

١ — فأما علاقتها بالخلافة العباسية ، فقد رأينا كيف بدأت بالثورة على العباسيين ، ثم كيف صارت بعد ذلك الى مساعدة الخلافة . وكان

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٧ — ٧٠ .

أهم ما قام به الحمدانيون لصالح الخلافة هو الوقوف في وجه المتسلطين عليها من أمراء الأمراء . وقد كان العراق في الحقيقة يمثل الجبهة الخلفية للحمدانيين في مواجهتهم للروم . ولذلك كان يهمهم أن يبقى العراق قويا ، وأن تستقر أموره ، كما كان الحمدانيون يمثلون القوة التي تلجأ إليها الخلافة العباسية إذا ضاقت بها الأحوال في العراق ، وقد لجأ الخليفة المتقي إلى الحمدانيين فارا من قوات البريدي التي زحفت على العراق والتي عجز أمير الأمراء ابن رائق عن الصمود لها ، فناصر الحمدانيون الخلافة ، وأعادوا الخليفة إلى حاضرتة بعد أن قتلوا ابن رائق وطردها البريديين ، وتولى الحسن بن عبد الله أمرة الأمراء في بغداد ، وبحاول اصلاح الأحوال فيها . كما تولى أخوه على بن عبد الله قتال البريديين : ولذلك رضى الخليفة عن الرجلين ولقب الأول « ناصر الدولة » كما لقب الثاني « سيف الدولة » (١) وهذان اللقبان لهما دلالتهم ، فانهما يدلان على اعتراف الخلافة بالدور العظيم الذي قام به الحمدانيون في خدمة الدولة العباسية ، فالحسن بن عبد الله هو الذي نصر الدولة على المتسلطين عليها ، كما أن أخاه على هو الذي قاتل عنها في العراق ، ثم هو الذي تولى القتال عنها طوال حياته في الجبهة الثغرية . وقد درجت الخلافة العباسية بعد ذلك على اطلاق مثل هذه الألقاب على من يؤدون خدمات لها وللعالم الاسلامي ، فنراهم يلقبون محمود الغزنوي « يمين الدولة » حين كان يقوم بالمهمة الثغرية في طرف المشرق الأيمن في شغل الهند . كما أطلقت مثل هذه الألقاب على بني بويه حين تطلعت اليهم لتخليصها من عبث أمراء الأمراء في بغداد ، فلقت على بن بويه بلقب « عماد الدولة » ولقت أخاه الحسن بلقب « ركن الدولة » ولقت أخاهما أحمد بن بويه بلقب « معز الدولة » (٢) .

لكن بني حمدان لم يستقروا في بغداد كثيرا ، اذ كانت أمور العراق مضطربة أشد الاضطراب وكان بنو حمدان يفضلون عدم التورط

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٥ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٦١ . حسن إبراهيم : ج ٢ ، ص ١٠٤ .

فى مشاكل الخلافة التى يحسون بعجزهم عن حلها ، ويرغبون فى التفرغ لمهمتهم الثغرية التى يحسون بأن بقاءهم واكتسابهم عطف العالم الاسلامى انما هو فى احسانهم القيام بها . ومع ذلك فان علاقات الحمدانيين بدار الخلافة ظلت قائمة ، وكان أمير الأمراء فى بغداد يخشى دائما اتساع قوة الحمدانيين فى الموصل . ويعمل على الحد منها ، وكان الحمدانيون يتقنون مغاضبة دار الخلافة بالأموال يدفعونها لأمير الأمراء فى بغداد فى العصر البويهى (١) ، وان لم يتأخروا عن مصارعة البويهيين حينما أرادوا ازالتهن عن امارتهن . وقد ظلت الامارة الحمدانية فى الموصل تواجه هذا الضغط عليها من ناحية البويهيين حتى ضعف أمرها وخصعت للنفوذ البويهى .

٢ — أما علاقة الحمدانيين بمصر ، فان الفرع الحمدانى الذى اتصلت علاقته بمصر هو اماره حلب التى كان عليها سيف الدولة . وقد أراد سيف الدولة أن يوسع ملكه فى الشام ليستطيع أن يقوى جبهته أمام الروم ، فامتد بنفوذه الى دمشق الأمر الذى أدى الى صدامه مع الأخشيديين . وقد قامت الحرب بين الأخشيديين وسيف الدولة ، وعلى الرغم من انتصار الأخشيديين ، فانه صالح سيف الدولة وترك له حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، كما تعهد أن يدفع له جزية سنوية على ألا يتعرض لدمشق (٢) . وخين مات الأخشيديين عاد سيف الدولة الى طموحه فى ضم الشام اليه ، ولكن « كافور » هزمه بالقرب من مرج عذراء بجوار دمشق ، وتم الصلح بين الطرفين على شروط الصلح الأول مع الأخشيديين ما عدا دفع الجزية (٣) . وكان الأخشيديون فى سياستهم مع سيف الدولة أكثر حكمة وتقديرا لمصلحة العالم الاسلامى من البويهيين ، فان الأخشيديين قدروا الدور الذى يقوم به الحمدانيون فى حماية الثغور فلم يرغبوا فى ازالة هذه الامارة التى تقوم بدورها الجهادى

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٨٣ — ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر : ج ٨ ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٦٤ .

أمام هجمات البيزنطيين التي أخذت تشتد على العالم الاسلامى فى هذه الناحية • أما سياسة البويهيين فقد كانت أنانية قاصرة ، والحقيقة أن قضاء البويهيين على القوة الحمدانية ثم عدم قيامهم بعدهم بالجهاد فى الثغر الرومى بصورة مرضية قال من قيمتهم فى العالم الاسلامى ، كما قصر عمر دولتهم التى لم تكن سوى دولة داخلية وان حكمت باسم الخلافة نفسها •

وبعد سيف الدولة تفككت الأسرة الحمدانية ووقعت فى صراعات داخلية أدت بها الى الانحراف عن مهمتها الثغرية فى قتال الروم ، بل ان بعض أفرادها استعان بالروم أنفسهم على البعض الآخر • الأمر الذى جعل بقاء هذه الامارة ضارا بمصلحة العالم الاسلامى ، فسقطت تحت الضغط الفاطمى المتزايد فى مصر (١) •

٣ — أما جهاد الحمدانيين ضد الروم ، فهو الدور البراق الذى أظهر الحمدانيين فى العالم الاسلامى كقوة لها فعاليتها واحترامها ، والواقع أن الدولة الحمدانية اذا جردناها من هذا الدور الذى قامت به فى الثغور لم تكن ذات قيمة محسوسة فى حياة العالم الاسلامى الداخلية • وقد كانت الظروف مواتية لظهور الحمدانيين هذا الظهور البراق ولاحتلالهم مكانة كبيرة فى نفس العالم الاسلامى ، واستحقاقهم لهذا الثناء العظيم الذى كاله الشعراء لهم وخلدوا به ذكرهم من أمثال أبى الطيب المتنبى وأبى فراس • وكان سيف الدولة هو علمهم المفرد فى هذا الجهاد ، وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر (ج ١ ص ١١ — ١٢) فقال « • • • وكان غرة الزمان وعماد الاسلام ، ومن به سداد الثغور وسداد الأمور ، وكافت وقائعه فى عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها ، وتقل أنيابها وتذل صعايقها ، وتكفى الرعية سوء آدابها • وغزواته تدرك من طاغية الروم النار ، وتحسم شرهم المثار • وتحسن

(١) ابن الفلاس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣ — ٣٩ •

فى الاسلام الآثار « (١) » •

فلقد كانت الدولة العباسية مشغولة بأحداثها الداخلية التى شهدناها فى عصر نفوذ الأتراك ثم فى عهد أمراء الأمراء ، كما كانت مصر طرفا بعيدا ، ولم يتح للطولونيين ثم الأخشيديين من بعدهم الفرصة كاملة للدفاع القوى الناجح ، نتيجة للخلافات التى قامت بين دار الخلافة وبين أحمد بن طولون ، ونتيجة للضغط الفاطمى على الدولة الأخشيدية من ناحية المغرب ، وان كان الطولونيون والأخشيديون بذلوا جهودا مشكورة للدفاع عن الثغور الشامية والجزرية •

وفى هذا الوقت الذى كانت فيه الجبهة الاسلامية مضعضة . كانت الجبهة الرومية تستعد لانتهاز هذه الفرصة التى لم يكن لها نظير من قبل فى صراعها مع العالم الاسلامى ، وكانت تكمل استعدادها لتثأر من أعدائها القدماء ، وتزحزح الحدود الاسلامية الى ما وراء الخط الممتد بحذاء جبال طوروس بعد أن ظلت ثابتة هناك زمنا طويلا •

وتولى قيادة الهجوم البيزنطى على الأملاك الاسلامية القائد الرومى المجرب تقفور فوكاس ، وبدأ الهجوم البيزنطى بحريا على جزيرة كريت التى لم تلبث أمام القوة البيزنطية الكبيرة أن سقطت ، ثم تلاحقت هجماتهم البرية القوية على الحدود الاسلامية •

تصدى سيف الدولة الحمدانى لتحركات الروم البرية واشتبك معهم فى معارك كثيرة ولم يلتزم معهم فى أول الأمر خطة الدفاع وانما التزم جانب الهجوم ، ويقال انه غزا بلادهم أربعين غزوة اقتصر فى بعضها وهزم فى البعض الآخر ، وقد أوغل فى آسيا الصغرى حتى وصل الى مدينة صارخة على مسيرة سبعة أيام من القسطنطينية واستولى عليها وأقام المنابر وخطب له فيها (٢) • ولكنه ما لبث أن تعرض لهجمات رومية قوية

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ١٢٢ •
(٢) النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٣٠٣ •

ألزمته خطة الدفاع ، وبلغت قوة الروم طرسوس وخربوا حصن الهارونية الذى بناه هارون الرشيد ، ثم هاجموا ديار بكر ووصلوا الى ميفارقين وعاثوا فى بلاد الحمدانيين والعباسيين ، وما زالوا حتى حاصروا مدينة حلب نفسها قاعدة سيف الدولة ، ولم ينجها الا تجمع جيش اسلامى قوى من سورية والجزيرة اضطر الروم الى التقهقر عنها بعد أن دخلوا المدينة وغنموا منها وسبوا (١) . وما زالت الحملات البيزنطية تتوالى على منطقة الثغور الاسلامية حتى سقطت قلاع الحدود القيليقية الكبرى وهى أضنة والمصيصة وطرسوس ، ثم تلا ذلك حملات استولت على معظم شمال سورية وحمص واللاذقية ، ثم سقطت حلب نفسها ، ولم تقاوم سوى أنطاكية ، أما دمشق فقد ألزمت بدفع الجزية . وكذلك اكتسحت الجيوش البيزنطية الرها وديار بكر وميفارقين ونصيبين ، ولم يقف فى سبيلهم شىء الا صحراء العراق ، كما استولوا على مدن الساحل الشامى مثل بيروت وصيدا وجبيل ولم تقاومهم سوى طرابلس .

وهكذا تعرضت الامارة الحمدانية لأقوى هجوم شنه الروم منذ الفتوح الاسلامية ، ومن غير شك كان تصدى الحمدانيين لهذه الموجة العلتية ذا أثر كبير فى اضعاف حدتها ، وتكسرها على صخور قوات سيف الدولة الحمداني ، ولو لم تتح للعالم الاسلامى المتفكك هذه القوة الحمدانية فلربما استطاع الروم احتلال الشام كله (٢) ، ومع أن القوة الحمدانية هزمت آخر الأمر ، فانها من غير شك أدت دورها على قدر قوتها المحدودة وأتاحت فرصة للقوى الأخرى لتجمع شتاتها . وعوقبت التقدم البيزنطى وقتا ليس بالقصير حتى انشغلت الامبراطورية بمشاكلها الداخلية وبهجوم السلاف عليها من الغرب .

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر : أومان : ص ١٧٨ — ١٨٣ . حسن ابراهيم : ج ٣ ،

ص ٢٣٥ — ٢٣٨ .

وهكذا كان قيام الدولة الحمدانية ضرورة من ضرورات العالم
الاسلامى وجاء قيامها فى وقت كان العالم الاسلامى أحوج ما يكون فيه
الى قوة فتية تدافع عن حدوده فى هذا الشر الخطير • ومع ذلك لم تسقط
الدولة الحمدانية الا نتيجة للضغط عليها من العراق ومن مصر فى الوقت
الذى كانت تقوم فيه بهذا الدور الحيوى •

الفصل الثاني

الحركات الاستقلالية في المشرق

إذا كان المغرب الاسلامي بيئة معارضة للخلافة العباسية ، فإن المشرق كان البيئة الصالحة التي ارتكزت عليها الدولة العباسية واستمدت منها قوتها ، فهو المجال الذي توجهت اليه الدعوة العباسية في فترة التحضير للثورة ، وكانت جماهير المشرق الاسلامي هي التي التفتت حول الدعوة للرضا من آل محمد وآزرتها . والدعوة العباسية حين اتجهت الى المشرق انما كانت تتجه الى بيئة شيعية حرثها العلويون من قبل . وكان العراق مركز الشيعة منذ كانت الكوفة عاصمة للخلافة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وقد اتسم الصراع الذي قام بين علي ومعاوية بمظهر الصراع الاقليمي بين العراق والشام ، واشتعلت بعد مقتل الحسين بن علي . ومنذ ذلك الوقت ظل العراق ومن ورائه المشرق بيئة غير طيبة في أيدي بني أمية ، بل كان مصدر قلق دائم للخلافة الأموية ، الأمر الذي جعل الدولة الأموية تقوى قبضتها على المنطقة الشرقية ، وتوكل أمرها الى أقدر قواتها وأشدهم بأسا وأكثرهم عنفا ، من أمثال زياد وابنه عبد الله والحجاج بن يوسف . وقد ازداد النشاط الشيعي في المشرق كنتيجة لانضمام الموالي الفرس للحزب الشيعي ، تنفيسا عن القومية الفارسية التي بدأت تنقبط ، وتردد أن تثبت وجودها في المجال الاسلامي . وقد أدت سياسة الضغط التي انتهجها بنو أمية على الموالي الى كرههم للدولة الأموية ، وإلى انضمامهم لأحزاب المعارضة والتي كان الحزب الشيعي أقربها الى تحقيق أهدافهم . وكان انضمام هؤلاء الموالي ذوي الملكات الممتازة إلى حزب الشيعة من أكبر الوسائل في انجاح هذا الحزب ، ثم كانوا هم الذين حملوا عبء الدعوة العباسية وكانوا جندها حين أعلنت الثورة ، وبقوتهم انتصرت على الدولة الأموية .

وقد وصل الفرس في الدولة العباسية الى المكاة التي كانوا يسعون اليها ، فالمشرق اذن كان سند الدولة العباسية ، ومن ثم ظل يعطى الخلافة العباسية ولاءه ، ويمدها بالذخيرة الحية لتثبت سلطانها وقمع كل الحركات المعادية لها طوال عصر قوتها . وفي العصر الذي تغلبت فيه اللامركزية في شئون الحكم ، نجد المشرق يختلف تماما عن المغرب ، فبينما كانت المغرب تتجه الى الاستقلال التام عن الخلافة العباسية ، وتستجيب في تطلعها القومي الى احزاب المعارضة الساعية الى الانفصال التام عن الدولة العباسية ومناوأتها ، كانت اقاليم المشرق الاسلامي في اتجاهها القومي نحو الاستقلال تحرص على البقاء متصلة بالخلافة ، معترفة بسلطانها ، عاملة في مجال التعاون معها ، بل حرصت على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها . ولم تكن دولة من هذه الدول التي نشأت في المشرق ترى سلطانها شرعا الا اذا اعترف به الخليفة العباسي ، وحتى الأمراء الذين أقاموا لهم ملكا بقوتهم حرصوا أشد الحرص على أن تصدر لهم الخلافة براءة التقليد ولم يسعوا قط في اقامة ملكهم بعيدا عن سلطان الخلافة الأسمى على الأقل . وأمام هذا الولاء العميق للخلافة العباسية ظلت الخلافة قائمة على الرغم من فترات الضعف الشديدة التي مرت بها ، ووقوعها تحت أيدي المستبدين بها من الأتراك والديلم والسلاجقة . وكان من الممكن أن تسقط الخلافة العاجزة وينقسم المشرق بين دول مستقلة منفصلة ، لولا هذا الاحترام الذي كان يكنه المشرق الاسلامي للخلافة ، وكان خلفاء بني العباس في عصر ضعف الخلافة يقفون مجردين الا من مركزهم السامي ، وهو المركز الذي أبقي الخلافة العباسية قائمة هذه المدة الطويلة ، ولم تسقط الا على يد مهاجم بربري لا يدين بالاسلام وهم المغول .

وقد توزع المشرق الاسلامي في حركته الاستقلالية بين نوعين من الدول : دول قامت لتسد حاجة ثغرية على طرف من أطراف المشرق الاسلامي ، فهي الى جانب الاستجابة للدافع القومي تستجيب أيضا للضرورة الثغرية . ودول لم تكن استجابتها الا للدافع الاقليمي ولنزعات

الطموح من جانب الراغبين في الحكم ، وهذه الدول كانت داخلية ولم يكن لها فاعلية في خدمة العالم الاسلامي الا بقدر حسن ادارتها للمنطقة التي قامت فيها ، ومن ثم قلت أهميتها وقصرت مدة بقائها •

ونشير في حديثنا عن المشرق الاسلامي الى لفظ يرد كثيرا في كتب المؤرخين ، وهو لفظ « المتغلبون » أو « حكام الأطراف » • ومنشأ هذا اللفظ أن كل أمير أو صاحب جند أو قائد يتغلب على ناحية من النواحي يطلقون عليه اسم « المتغلب » أو « صاحب طرف » والفرس يطلقون عليه اسم « طرفدار » • وولاية النواحي يحكمون : اما عن طريق التغلب ويطلبون من الخليفة تقليدا بمعنى مرسوم يصدر من الخليفة بتولية المتغلب على الناحية التي تغلب عليها • والخليفة هنا يقر الأمر الواقع • ولم تكن الخلافة في العادة تؤخر التقليد الا اذا كانت قادرة على ارسال الجيوش لاسترداد ما تغلب عليه المتغلب ، أما اذا شغلت بشيء أو عجزت فهي تصدر التقليد • وأما أن الخليفة يختار بنفسه رجلا من وجوه قواده الموثوق بهم أو المشهود لهم بالكفاءة ، فيوليه ناحية من النواحي ويصدر اليه تقليدا ، فيكون « طرفدار » بالتفويض • فولاية النواحي نوعان : ولاية بالتغلب بمعنى الاستيلاء ، وولاية بالتفويض •

ولفظ التغلب بمعنى الاستيلاء ، ولفظ التفويض ، من الألفاظ الاصطلاحية التي استعملها فقهاء ذلك الزمان ، ونراها في كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١) • فالخلافة قد فقدت كل سلطان على أقاليم الدولة الشرقية الا عن طريق المفوضين أو عن طريق المتغلبين • ولم يكن هذا الموقف بدعا في تاريخ الخلافة ، وانما كان قاعدة من قواعد المرونة السياسية ، بحيث كان فقهاء ذلك الزمن يقسمون الولايات الاسلامية الى قسمين : قسم نشأت فيه الولاية باختيار الخليفة ، وفي الغالب كان يحدث ذلك في أقاليم الشغور المواجهة

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية (طبعة المطبع ١٩٦٠ م) •

لأرض العدو لتنمية موارد الثغر وتقويته على وظيفته في دفع العدو ، أو مد نفوذ العالم الاسلامي . وقسم نشأت فيه الولاية على كره من الخليفة ، وهو اذ يقر المتغلب ، انما يستجيب للأمر الواقع ، ويستجيب أيضا للمصلحة العامة التي تقضى باجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم ، وحتى يكون تقليد هذا المتغلب استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته ، وفي الغالب ما كان يحدث التغلب في مناطق المشرق الداخلية ، فالخلافة قد فقدت كل سلطان على اقليم فارس ، وأصبحت عاجزة عن القيام بأي شيء فيه الا عن طريق المتغلبين عليه .

وقد بدأ الشعور القومي في المشرق مبكرا ، ولكن الحركة الاستقلالية فيه بدأت تظهر متأخرة عن ظهورها في المغرب الاسلامي ، وذلك لأن المغرب كما أوضحنا من قبل بدأ بيئة معارضة منذ قيام الدولة العباسية . أما المشرق فانه أرضى نزعة القومية بانتصاره للدعوة العباسية واقامة الخلافة العباسية ، فقد كان احساس المشاركة بأن الدولة لهم — فهم وزراؤها ومنهم جل قوادها وجندها — مانعا عن القيام بحركات استقلالية عنها حتى ولو كانت هذه الحركات تحت ظلها . ثم بدأ المشرق يتخذ الحركة الاستقلالية في أوائل القرن الثالث الهجري ، ثم برزت هذه الحركة في العصر العباسي . وكان المشرق في أول حركته الاستقلالية يخضع لحكم واحد ، تحت سلطان دولة أنشأتها الخلافة العباسية بارادتها هي الدولة الطاهرية التي حكمت المشرق كله ، ثم بدأت الحركة الاستقلالية تتشعب الى شعب ثلاث بحسب الظروف الثغرية والاقليمية ، هذا عدا ظهور حركة المتغلبين في الأقاليم الداخلية في بلاد ايران .

ونحن في استعراضنا للحركات الاستقلالية في المشرق نقتبع التقسيم الاقليمي ونسير فيه بحسب سير الحوادث زمنيا .

الدول المستقلة في إيران

بدأت إيران تتطور تطورا اسلاميا بعد فتحها مباشرة ، اذ بدأت الصبغة الاسلامية والثقافة الاسلامية تنتشر فيها منذ اتمام حركة التتبع العربى ، وقد اشتدت الحركة الاسلامية فيها بدخول الموالى في الاسلام ، ثم أخذت شخصيتها الاسلامية في الظهور معبرة عن نفسها بانضمامها الى حركات المعارضة التى قامت فى وجه الحكم الأموى ، وقد شهدنا كيف انضم الموالى من الفرس الى حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، ثم فى جيوش مصعب بن الزبير . ثم فى ثورة محمد بن الأشعث . ولكن بداية ظهور القومية الايرانية ظهورا واضحا كانت فى سنة ١٣٢ هـ ، لأن الايرانيين كانوا من وراء الحركات التى أدت الى نجاح العباسيين . وشهد العصر العباسى الأول نفوذ الموالى فى مجالات الدولة المختلفة . ولكن الوطن الايرانى بدأ يعبر عن نفسه تعبيرا قوميا بظهور الامارات المستقلة ، وهى تختلف الى حد ما عن الحركات التى ظهرت فى الأقاليم الأخرى . ووجه الاختلاف أن أقسام إيران الجغرافية ظهرت فى كل قسم منها حركة استقلالية منفصلة ، أى أن التعبير القومى لايران لم يكن شاملا . انما يمكن أن نسميه تعبيرا متجزئا للقومية الايرانية .

(١) الدولة الطاهرية

(٢٠٥ — ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ — ٨٧٢ م)

أسس هذه الدولة طاهر بن الحسين أحد قواد المأمون الثقة ،
وقد ولاء المأمون خراسان سنة ٢٠٥ هـ وأضاف إليه أعمال المشرق
كلها من بغداد (١) ، فاتخذ نيسابور قاعدة له في خراسان ، وقد بذت
من طاهر منذ أول الأمر ميول نحو الحكم المستقل - ولكنه مات وشيكا
سنة ٢٠٧ هـ وعلى الرغم من معرفة المأمون بميول طاهر فإنه أقر
ابنه طلحة على ولاية خراسان ، فقابل الطاهريون ثقة المأمون بالاخلاص
من جانبهم ، فلم يفكروا بعد ذلك في الاستقلال عن الخلافة العباسية ،
بل حرصوا على التعاون معها والاعتراف بسلطانها م وكل من عبد الله بن
طاهر مثلا في هذا الاخلاص ، فقد ولاء المأمون في حياة أبيه مصر
وكانت تغلى بالفتن ، ففضى على الخارجين بها وأصلح أحوالها ، وأقام
واليا عليها وعلى الشام والجزيرة « فأصلح الدنيا ، وأمن البرىء وأخاف
السقيم واستوسقت له الرعية بالطاعة » (٢) ولمسا كان للعلويين نشاط
كبير بمصر وكان بنو طاهر يميلون الى ولد على بن أبي طالب ، فقد أراد
المأمون اختبار اخلاص عبد الله بن طاهر ، فغرس له من يسبر غور نفسه
بأن يدعو الى أحد العلويين بمصر ، وكان رد ابن طاهر مثلا في الاعتراف
بالجميل . قال « فنتجىء الى وأنا في هذه الحال : لى خاتم في المشرق
جائز ، وخاتم في المغرب جائز ، وفيما بينهما أمرى مطاع ثم ما التفت
عن يمينى ولا شمالى وورائى وأمامى الا رأيت نعمة لرجل أنعمها على ،
ومنة ختم بها رقبتي ، ويدا لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرما ،
تدعونى الى أن أكفر بهذه النعم وهذا الاحسان ، وتقول اغدر بمن كان
أولا لهذا وآخرا ، وأسع في ازالة خيط عنقه وسفك دمه ، تراك
لو بدعوتنى الى الجنة عيانا من حيث أعلم ، أكان الله يحب على أن اغدر به

(١) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٤٦ - ١٤٧ .

وأكثر احسانه ومنته وأفكت بيعته !!» (١) . ومنذ ذلك الوقت لم تذهب الثقة بين العباسيين وبنى طاهر . وقد تتبّع الطاهريون العلويين يقضون على حركاتهم في كل مكان تصل أيديهم اليه ، فقد قضى عبد الله بن طاهر على الحركات العلوية في خراسان بعد أن ولي عليها سنة ٢١٤ هـ (٢) . كما تصدى خلفاؤه للحسن بن زيد العلوي الذي ظهر في طبرستان واجتمع اليه الديلم وأهل طبرستان في سنة ٢٥٠ هـ ، موة يقردهم ومرة متعاونين مع قوات الخلافة (٣) .

وكذلك تعاون عبد الله بن طاهر مع الخلافة تعاونا صادقا في قمع الخارجين عليها ، فقد خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان على المعتصم بتحريض من الافشين ، فاستطاع عبد الله بن طاهر كشف المؤامرة وأطلع المعتصم عليها ، وأرسل جيوشه الى قتال المازمار حتى قبض عليه وارسله الى سامرا (٤) . وتعاون بنو طاهر بعد ذلك مع الخلافة وشاركوا في الأحداث التي كانت تجري في بغداد لصالح الخلافة (٥) .

وقد قدر العباسيون خدمات الطاهريين وقربوهم ، ومالوا الى جانبهم في النزاع مع الصفاريين ، وأبقوا شرطة بغداد في أيديهم حتى ٣١٠ هـ على الرغم من زوال ملكهم في خراسان .

ومما لا شك فيه أن حكم الطاهريين نلشرق كان حكما صالحا . فقد اهتموا بأمر رعاياهم ، وأصلحوا الأحوال الاقتصادية للبلاذ وأقروا الأمن فيها : كما تعهدوا عمالهم بالنظر والمراقبة فكانوا يضربون على يد كل من يعسّف بالرعية منهم (٦) ، كما تعهدوا أهل العلم والمعرفة ، وأصبحت نيسابور في عهدهم مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية .

-
- (١) الطبري : ج ١٠ ، ص ٢٧٧ .
 (٢) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٦٢ .
 (٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٥ ، ٥٧ - ٥٨ ، ٧١ .
 (٤) الطبري : ج ١٠ ، ص ٣٥٦ - ٣٦٢ . ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٨٢ - ١٨٨ .
 (٥) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
 (٦) ابن الأثير : ج ٦ ، ص ١٨٩ .

وقد حافظوا على الثغر الشرقي ومدوا نفوذ العالم الاسلامي في بلاد الترك ووطدوا سلطان المسلمين بالنقضاء على الخارجين من ملوك الترك الذين كانوا قد دخلوا في طاعة المسلمين . وحين بدت الدولة الطاهرية عاجزة عن القيام بدور فعال في حكم الثغر الشرقي نتيجة لتعرضها لثورات العلويين ، ونتيجة لقيام الصفاريين سقطت في سنة ٢٥٩ هـ ،

(٢) الدولة الصفارية

(٢٥٤ — ٢٨٩ هـ / ٨٦٧ — ٩٠٣ م)

تمثل هذه الدولة امتداد الحركة الاستقلالية الى قسم من اقسام ايران الجغرافية وهو القسم الجنوبي . وتنسب الى يعقوب بن الليث الصفار ، وهو رجل مغامر انتهز فرصة ضعف الخلافة واضطراب الأحوال السياسية ، فغلب على اقاليم ايران الجنوبية وضم اليه فارس ، وامتد الى خراسان وأسقط الدولة الطاهرية ، واعترفت به الخلافة أميرا مستقلا، ولكن طموحه امتد الى فتح بغداد ووضع الخلافة تحت نفوذه ، فاصطدم بقوة الخلافة التي كانت قد بدأت حركة انتعاش في عهد المعتمد وأخيه الموفق ، وكان ذلك من أكبر الأسباب في تئصر عمر هذه الدولة وسقوطها .

بدأ يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو حياتهما يشتغلان بصناعة الصفر ، ويعيشان من كسب عملهما ، ثم التحقا بفرق المتطوعة التي تكونت لقتال الخارجين على الدولة العباسية في الأقاليم الشرقية وبخاصة في إقليم سجستان ، ذلك أن مركز الخلافة قد تضعف منذ سيطر الأتراك على شئون الخلافة ، فطمع كثير من الأمراء المحليين ومن الخارجين في اقتطاع أملاكها ولاقت الدولة الطاهرية التي كانت تعتمد عليها الخلافة في المشرق كثيرا من شرهم ، كما أدت ثورات هؤلاء الخارجين وعجز الخلافة عن قمعها الى تعرض حدود الدولة الشرقية والشمالية الى هجمات جيرانها من الترك والهنود والديلم . لذلك تكونت جماعة من المتطوعين للجهاد

صيانة للوحدة ودفعاً لأذى المهاجمين^(١) . وبهؤلاء المتطوعين التحق يعقوب وأخوه عمرو تحت قيادة صالح بن النضر الكنانى فى إقليم سجستان ، وقد كان يعقوب ذا مواهب عالية فما لبث أن ظهر أمره بين أخوانه من المتطوعة جندياً بأسلاً ، ذا تجربة وحسكة ، الى خلق عسكري رفيع أساسه الخشونة والتواضع والمواساة .

وحين مات صالح بن النضر الكنانى خلفه على قيادة المتطوعة درهم ابن الحسين ، ولما لم يكن يملك مواهب القيادة ، فقد تطلع الجند الى شخصية قوية تستطيع مواصلة جهود صالح ، فوقع اختيارهم على يعقوب بن الليث^(٢) . وقد برهن يعقوب منذ اللحظة الأولى فى القيادة على مقدرة وكفاءة ، فقد ضبط أمور الجند ووجههم الى أعمال ناجحة ، فحارب الخارجين على الدولة من الشراة وظفر بهم وخرب قراهم ، واشتدت شوكته فغلب على سجستان ، وأظهر التمسك بطاعة الخليفة وكاتبه ، وأظهر أنه يعمل بأمره وأنه أمره بقتال الشراة وملك سجستان ، فطهر الطرق وحفظها وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فأطاعه الجند وكثر أتباعه ، فتقدم الى منطقة خراسان واحتل مدينتى هراة وبوشنج بعد أن هزم جيش الطاهريين الذى تقدم لمنعه ، وعند ذلك هابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف^(٣) .

ولم يكتف الصفار بما وصل اليه ، وإنما تقدم فاحتل كرمان سنة ٢٥٥ هـ وضمها الى سجستان^(٤) وسار الى إقليم فارس فدخله واحتل عاصمته شيراز ، وليظهر أنه يعمل تحت طاعة الخلافة ، بادر بارسال هداياه الى الخليفة المعتر عنوانا على الطاعة^(٥) ثم ليظهر بمظهر المدافع عن حدود الدولة ، ولى وجهه شطر إقليم بلخ وطخارستان

(١) محمد حلى محمد ، ص ١١٦ .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٢٢ ، ٦٥ .

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٣١٢ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٦٥ .

(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٥٧ .

(٥) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

والسند فهزم من اعترضه هناك واحتل كابل ، وأوقع بالهنود والأتراك ، فأذعن له ملك المولتسان ، وملك الرخشج ، وملك الصبسين وملك السند (١) ثم تقدم شمالا الى طبرستان فحارب الحسن بن زيد العلوي وهزمه بهد ان عجزت قوات الطاهريين عن القضاء عليه . وارسل للخليفة هداياه عنوانا على طاعته ، كما أرسل أصناما أخذها من كابل دليلا على جهاده في سبيل الاسلام . وردت عليه الخلافة بان أرسلت اليه تقليدا بولاية بلخ وخطارستان الى مايلي ذلك من كرمان وسجستان والسند وغيرها (٢) .

الى هذا الحد كان الصفار يعمل تحت دائرة طاعة الخلافة، ويحرص على ارضائها ، ويسعى لتأييدها ، وقد استجابت الخلافة فمنحته التقليد على ما ملك . لكن كثيرا مما وضع يده عليه كان تحت نفوذ الطاهريين الذين تعطف عليهم الخلافة ، وتعتمد عليهم لاخلاصهم في خدمتها وطاعتهم لها . وكانت تحركات الصفار نحو هذه الجهات تهديدا خطيرا للطاهريين واضعافا لهم في الوقت الذي كانوا يقاتلون فيه العلويين في طبرستان ومنطقة قزوين . وقد أدت انتصارات الصفار من ناحية وانتصارات العلويين من ناحية أخرى الى اضمحلال أمر محمد بن طاهر والى خراسان وانتفاض كثير من الأعمال عليه ، فلم يبق في يده الا بعض خراسان وأكثر ذلك مفتون منتفض بالمتغلبين في نواحيها ، والشراة الذين يعيشون فيها غسادا ولا يمكنه دفعهم ، لتوزيع قواته وتحطيمها في جبهة الصفار في الجنوب وجبهة العلويين في الشمال (٣) .

وأحسن الصفار بقوته ، ووجد الفرصة مواتية ليضم المشرق كله تحت لوائه حين أدرك ضعف الطاهريين ، فتقدم الى نيسابور عاصمة خراسان ، وحين أدرك بعض أهلها أن محمدا بن طاهر غير قادر على دفعه

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١١٦ .
(٢) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٨٨ . الطبري : ج ١١ ، ص ٢٥٧ ، ٢٣٣ — ٢٣٤ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٦٦ .
(٣) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٨٨ .

عنها ، راسلوا الصفار واستدعوه فدخلها ، وأساء معاملته محمد بن طاهر وحبيسه وأهل بيته ، وليبرر فعله أرسل الى الخلافة بشرح حال خراسان وأن الشراة والمخالفين قد غلبوا عليها ، وضعف محمد بن طاهر ، وأن أهل خراسان قد كاتبوه واستعانوا به فصار اليها فدفعوها اليها فدخلها (١) .

وأدركت الخلافة خطورة الصفار ، فأرسل الموفق يقول له مع الرسل ، « ان أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل ، وانه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه اياه ، وانه لم يكن له أن يفعل ذلك بغير أمره ، فليرجع . » فأنه ان فعل كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين (٢) « لكن الصفار تحدى الخلافة معتمدا على قوة جيشه وطاعة جنده ، فتقدم نحو فارس واحتلها وثبت سلطانه بها ، ثم أظهر عزمه على السير الى العراق ، وتقدم الى الأهواز ، ورأت الخلافة أن ترضى الصفار ريثما تعد عدتها ، فأرسلت اليه تقليدا بولاية خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس ، وتعيينه أميرا على شرطة بغداد ، وبذلك حققت له جميع ما طلب (٣) . لكن يعقوب أصر على أن يجمع الخليفة الحجاج الذين أعلن عليهم عزل يعقوب وعصيانه ، لخروجه على الخلافة ، وأن يذيع فيهم كتابا آخر يعلن رضاه عن يعقوب فيبطل بهذا الكتاب الجديد الأثر السيئ الذى تركه الكتاب الأول ، ثم زاد على ذلك بأن طلب أن تضاف اليه شرطة سامرا الى شرطة بغداد . وقد رأت الخلافة أن تجيبه الى ذلك ففعلت (٤) .

تساهلت الخلافة هذا التساهل الكبير مع الصفار لأنها كانت واقعة بين قوتين ، ولم تنشأ أن تواجههما فى وقت واحد ، وكانت تخشى اتفاقهما عليها ، هاتان القوتان هما قوة الصفار التى احتلت فارس وتقدمت الى

(١) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٢ .

(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٢ .

(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . ابن الأثير : ج ٧ ،

ص ١٠٣ .

(٤) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٣١٦ .

الأهواز ، وقوة صاحب الزنج فى اقليم البصرة والتي كانت قد امتدت الى الأهواز أيضا ، ولما كان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتال صاحب الزنج ، فإنه ترضى الصفار ليكسب ولاءه وليبعده عن المعركة . وفى الوقت نفسه كانت الخلافة قد أقامت لها حكما مواليا فى المشرق وراء خراسان ، بأن جعلت من بلاد ما وراء النهر التي كانت خاضعة لولاية خراسان اقليما قائما بنفسه وعهدت بولايته الى نصر بن أحمد الساماني . وقد كان السامانيون يتولون أعمال بلاد هذا الاقليم من قبل بنى طاهر ولاية خراسان (١) . وبذلك جعلت الخلافة لنفسها قوة موالية وراء الصفار تستخدمها عند اللزوم .

لكن الصفار غرة تساهل الخلافة من ناحية ، وثقته فى ولاء جنده له من ناحية أخرى ، ففاته التوفيق فى الناحيتين . ذلك أنه لم يدرك تغيير الأحوال فى مركز الخلافة التي كانت قد بدأت تسترد فعاليتها بتولية الموفق على قيادة الجيش وسيطرته عليه ونسيطة لجنوده ، كما لم يدرك مرامي سياسة الموفق ، ولم يكن الصفار سياسيا بعيد النظر حين غاضب الخلافة ، وقد كان فى امكانه أن يستعين بقوات صاحب الزنج الذى طلب فعلا أن يساعده فرفض الصفار طلبه فى ازدراء (٢) . كذلك كان الصفار قصير النظر حين أفرط فى ثقته بجنده ، حقيقة كان الصفار محسنا الى رجاله مواسيا لهم ، ضابطا لأموارهم حتى أحبوه وأولوه اخلاصهم ، ولكنهم فى الوقت نفسه كانوا من المتطوعين الذين تجمعوا أصلا لنصرة الخلافة ، وانما انضموا تحت لواء الصفار غضبا للخلافة لا غضبا عليها ، فكان ولاء أكثرهم للخلافة أكثر من ولائهم للصفار . فلما رأوا الصفار يقاتل جيشا على رأسه الخليفة نفسه تخاذلوا عن الصفار ، بل هاجموا فى صفوف الخليفة .

لم يقنع الصفار بما ولاء الخليفة ، بل أراد أن يسير الى دار الخلافة

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ .

ليرغمها على الاذعان لقوته وليحتل منها مركز الأتراك من قبل ، لذلك لم يرَ الموفق بدا من الدخول معه في معركة تكسر شوكته وتكبح جماحه • وخرج جيش الخليفة بقيادة الموفق • وخرج الخليفة المعتمد مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحي على جند الصفار حين يرويه يقاتل صاحبهم •

وحين التقى الجيشان أحرز الصفار نصرا مبدئيا في المعركة ، ولكن هذا النصر ما لبث أن تحول الى هزيمة ساحقة ، حين رأى جند الصفار الخليفة على رأس الجيش يحارب الصفار الذي كان في أول أمره جنديا مع المتطوعة يحارب الخارجين على الخليفة • فانضموا للخليفة وحملوا على الصفار ومن ثبت معه للقتال • فانهزم يعقوب في خاصة أصحابه تاركا في الميدان غنائم كثيرة ، بلغت « الدواب والبغال فيها أكثر من عشرة آلاف ، ومن الدنانير والدراهم ما يكفل عن حملة ، ومن جرب المسلك أمر عظيم (١) » وأصدرت الخلافة كتابا بلعن الصفار واعتباره خارجا على أمير المؤمنين ، منكرا للنعم ، ساعيا الى الفساد (٢) •

أعادت الخلافة محمد بن طاهر ، الذي تخلص في المعركة من أسر الصفار ، الى منصبه رئيسا لشرطة بغداد ، وعاد يعقوب الى البلاد التي ملكها يحصنها ويقوى قبضته عليها ، ويستعد لمعركة أخرى ، فاستولى على الأهواز من صاحب الزنج (٣) ، وكانت الأهواز مفتاح الدخول الى العراق من ناحية فارس • ولما لم تكن الخلافة متفرغة لقتاله ، فقد سارت على سياسة الاستمالة كسبا للوقت ، فأرسلت الى يعقوب الصفار « رسولا يرضاه ويستميله ويقلده أعمال فارس ، فوصل الرسول ويعقوب مريض فجلس له ، وقد جعل عنده سيفا ورغيفا من الخبز الخشكار ومعه بصل ، وأحضر الرسول فأدى الرسالة • فقال له : قل

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٠٣ •
(٢) الطبري : ج ١١ ، ص ٢٣٨ •
(٣) الطبري : ج ١١ ، ص ٢٤٦ •

للخليفة انى عليل ، فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا السيف هذا ، حتى آخذ بسيفى ، أوتكسرنى وتفقرنى فأعود الى هذا الخبز والبصل . وعاد الرسول فلم يلبث يعقوب أن مات « (١) » .

من هذا يتبين أن يعقوب بن الليث امتد طموحه الى الاستقلال التام عن الخلافة ، واعادة دولة الفرس بحد السيف . وكان هذا الطموح هو علة الدولة التى أقامها وسبب قصر أجلها . وعلى الرغم من أن أخاه عمرا الذى اختاره الجند خلفا له ، قد أدرك هذه الحقيقة وكان أبعد من أخيه نظرا وحسن سياسة ، فان الخلافة لم تنس للصفاريين طموحهم ، وكانت ترتقب الفرصة للقضاء عليهم .

كتب عمرو الى الخلافة بطاعته ، فأرسل اليه الموفق التقليد بولاية خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان والشرطة ببغداد وأرسل اليه الخلع . وبذلك تولى عمرو ما كان بيد أخيه ، وأتاب عنه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى شرطة بغداد وسامرا ، وأرسل الى الموفق هدية عمودا من ذهب (٢) .

لكن الخلافة ما لبثت أن تخلصت من صاحب الزنج والقضاء على حركته ، وأصبحت حرة اليد ، تستطيع أن توجه اهتماما للصفاريين ، فأصدر الخليفة المعتمد قرارا بعزل عمرو بن الليث عن البلاد التى ولاه اياها ، وأعلن هذا الخلع على ملا من الحجاج الذين حضروا الى بغداد من خراسان ، ولعنه بحضرتهم ، وأخبره أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر فلعن (٣) . ثم سير جيشا الى قتال عمرو بفارس ، فانتصر على جيوش الصفار (٤) . أما محمد بن طاهر فقد

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١١٦ .

(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٥٥ .

(٣) الطبرى : ج ١١ ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٤) الطبرى : ج ١١ ، ص ١٣١ .

بقى ببغداد واستخلف على خراسان رافع بن هرثمة ، وأبقى بلاد ما وراء النهر في يد بني سامان (١) .

ثم سار الموفق بنفسه لقتال عمرو بن الليث في فارس ، واضطره الى التقهقر الى سجستان بعد أن ألحق بقواته الهزيمة (٢) .

وحين تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩ هـ أرسل عمرو بن الليث هداياه الى الخليفة يعلن ولاءه ويسأله ولاية خراسان ، فأجابه الخليفة وبعث اليه التقليد . لكن رافعا ابن هرثمة رفض الأذعان وقاتل عمرا الذي قتله سنة ٣٨٣ ، وبعث برأسه الى الخليفة وطالب بولاية بلاد ما وراء النهر ، وكانت بيد اسماعيل بن أحمد الساماني .

وانتهز المعتضد الفرصة . فأزاد أن يضرب عمرا بقوة السامانيين النامية في بلاد ما وراء النهر . فأجابه الى طلبه . وهو يقدر المغامرة التي يتعرض لها عمرو ، وقد صدق تقدير الخليفة ، فان السامانيين ألحقوا بعمرو هزيمة حاسمة وأسروه وأرسلوا به الى الخليفة الذي سجنه حتى مات . وأخذت الخلافة ترسل جيوشها متوالية حتى استطاعت القضاء على بقية الصفاريين في سنة ٢٩٨ هـ .

انتهت الدولة الصفارية بعد هذا العمر القصير الذي لم يتجاوز خمسا وثلاثين سنة ، على الرغم من قوة جيوشها وحسن تدريبها وتسليحها ، وعلى الرغم من اتساع البلاد التي وقعت تحت يدها ، وامتلاء خزائنها بالأموال حتى قيل ان يعقوب بن الليث حين مات كان في خزائنه خمسون ألف ألف درهم وثمانون ألف ألف دينار (٣) . وذلك لأن الصفاريين اتجهوا الى مجال داخلي ، واتجه طموحهم الى اقامة ملك لهم ، ولو أنهم واصلوا اتجاههم الأول الى المجال الخارجي وواصلوا جهودهم في الثغر الذي

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٤٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٥٣ .
(٣) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٦٧ .

يليه من ناحية الهند لاكتسبوا عطف الخلافة واحترام العالم الاسلامي ،
ولكانت الخلافة قدرت لهم هذا فأعانتهم أو على الأقل لم تسع الى
اسقاطهم ، ولكنهم اتجهوا الى الداخل ووسعوا ملكهم على حساب دولة
كانت توالى الخلافة وتقوم بمهمة ثغرية كبيرة في المشرق ، وزادوا بأن
تحدوا الخلافة في وقت كانت قد بدأت تتعثر فيه وتعمل على استرداد
فقدوها على ولاياتها ، فتعرضوا بذلك لسيخطها وسخط الموالين لها ،
فلم يستطيعوا الاحتفاظ بملكهم وسقطوا وشيكا .

(٣) الدولة السامانية

(٢٦١ — ٥٣٨٩ هـ / ٨٧٤ — ٩٩٩ م)

قامت هذه الدولة في منطقة ربما لا تدخل في منطقة الثقافة
أو الحضارة الايرانية ، وهي المنطقة التي تسمى « بلاد ما وراء النهر » ،
ولكنها ما لبثت أن امتدت الى المنطقة الايرانية ، فبسطت سلطانها على
بلاد خراسان كما ضمت طبرستان والري والجبل وبلاد سجستان .
واستجابت لنفس تيار الحركة الاستقلالية والقومية الايرانية ، وربما كان
تعبيرها عن الحركة الايرانية القومية أكثر ظهورا ووضوحا مما رأينا عند
الدول الأخرى ، ومظهر ذلك أن السامانيين عملوا على احياء اللغة
الفارسية الحديثة التي تجمع بين المؤثرات العربية والمؤثرات الفارسية ،
وبدأت هذه اللغة في عهدهم تصبح لغة الفكر والثقافة ، ترجمت اليها
بعض الآثار العربية الاسلامية ، كما ظهر شعراء من الفرس (١) ، وكان
ظهورهم مقدمة للشاعر الفارسي العظيم « الفردوسي » الذي يعبر تعبيرا
صحيحا عن القومية الفارسية وعن الثقافة الايرانية الجديدة .

والسامانيون ينتسبون الى احدى أسر الفرس العريقة ، وهم
ينتسبون أنفسهم الى ملوك الفرس ، شأنهم في ذلك شأن الأسر الفارسية

(١) ابن خلكان : ج ١ ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .
Browne. Lite. Hist. of Persia, val. I, pp. 356, 369 - 399.

(م ٣٠ — العصر العباسي)

التي حكمت (١) ، وقد ظهر أمر هذه الأسرة في عهد الخليفة المأمون ونالت حظوة عنده ، فولى أولاد أسد بن سامان بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم : فولى نوح بن أسد سمرقند في سنة ٢٠٤ هـ وأحمد بن أسد فرغانة ، ويحيى بن أسد الشاش وأشرو سنة . والياس بن أسد هراة . ولما ولي طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال .

وظل السامانيون في بلاد ما وراء النهر يتعاونون تعاوناً سادقاً مع الطاهريين ويحمون هذا الثغر الشرقي . كما شاركوا في الصراع الذي قام بين الصفاريين والطاهريين . وكانوا يشدون أزر الطاهريين ، الأمر الذي جعل الطاهريين دائماً يقرون السامانيين في بلاد ما وراء النهر ، ولما ضعف أمر الدولة الطاهرية واستولى الصفاريون على إقليم خراسان ، قدرت الخلافة للسامانيين إخلاصهم ، فجعلت بلاد ما وراء النهر اقليماً منفصلاً عن خراسان وأقرتهم عليه السامانيون (٢) . وظل السامانيون يعملون متعاونين مع الطاهريين من ناحية الغرب ، كما كانوا يسدون الثغر من ناحية الشرق ، ويمدون من نفوذ العالم الإسلامي في جبهتهم ، فقد غزا اسماعيل بن أحمد الساماني بلاد الترك في سنة ٢٨٠ هـ وأسر منهم نحو عشرة آلاف أسير (٣) . كما صد غاراتهم في سنة ٢٩١ هـ .

كانت العلاقة بين السامانيين وبين الخلافة العباسية تقوم على المودة . والواقع أن السامانيين لم يتجهوا بأطماعهم إلى البلاد الداخلية في العالم الإسلامي ، وإنما امتدوا بنشاطهم إلى المجال الخارجي ، فهم يمدون نفوذ العالم الإسلامي في الثغر التركي إلى أواسط آسيا ، أما امتداد سلطانهم إلى الداخل فلم يكن دافعه الطمع وإنما كانوا في الحقيقة يسدون فراغاً حدث على أثر ضعف الطاهريين ، وكانت كل قوتهم مركزة في التركستان

(١) نسب بنو بويه أنفسهم إلى ملوك الفرس إلى بهرام جور الملك ابن يزدجرد . وهو نفس النسب الذي قيل عنه للسامانيين . (ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ ، ج ٨ ، ص ٩١) .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٦٦ .

شرقى نهر جيحون وفى أواسط آسيا ، واستطاعوا أن ينشروا الحضارة الإسلامية فى تلك البلاد الوثنية ، فدخل على أيديهم عدد كبير فى الإسلام ، وأقاموا فى أيامهم بما وراء النهر مراكز ثقافية هامة كانت عاملا هاما فى صبغ الترك بالصبغة الإسلامية . وقد جعلوا من التركستان بيئة مؤثرة فى الترك فخفف من خطرهم على العالم الإسلامى ، بل هياتهم للقيام بدور فعال لصالح العالم الإسلامى فى الداخل والخارج .

كان السامانيون يدركون مهمتهم الثغرية ، ويفضلون ألا يدخلوا فى الصراع الداخلى مع الدول الإسلامية الأخرى ، ولكنهم كانوا يدخلون الحرب مع جيرانهم من المسلمين مضطرين ، أما دفاعا عن أنفسهم أو دفاعا عن مصلحة الخلافة وحفظا لأملاتها . ويتبين هذا واضحا من العلاقات بين السامانيين والصفاريين ، وبينهم وبين العلويين فى طبرستان .

فأما علاقتهم بالصفاريين ، فإن عمر بن الليث الصفار بعد أن ولته الخلافة خراسان طمع فى بلاد ما وراء النهر وطلب من الخليفة ولايتها ، ولما أجابته الخلافة الى طلبه لم يشأ أن يترك السامانيين بها ، كما كان يفعل الطاهريون ، وإنما سار اليها ليأخذها بالقوة من يد اسماعيل بن أحمد السامانى ، فكتب اليه هذا يقول « انك وليت دنيا عريضة ، وإنما فى يدى ما وراء النهر ، وأنا فى ثغر ، فأقنع بما فى يدك واركنى فى هذا الثغر » (١) . ولكن عمر بن الليث رفض وسار بقواته فهزمه اسماعيل وأسره ، وأرسله الى دار الخلافة حيث حبس ثم قتل سنة ٢٨٩هـ . وبهذا سقطت الدولة الصفارية ، وعهدت الخلافة الى اسماعيل بن أحمد السامانى بولاية ما كان فى يد الصفار .

وأما علاقة السامانيين بالعلويين فى طبرستان فإن محمد بن زيد العلوى طمع فى خراسان بعد أسر عمرو بن الليث الصفار ، فنهاه اسماعيل

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٧٨ — ١٧٩ .

وترك له جرجان على ألا يتقدم نحو خراسان ، ولما أبى إلا العداء سار اليه اسماعيل وحاربه وقتله واستولى على طبرستان (١) . ثم ضم اليه الري وقزوين ، وبذلك أعاد طبرستان الى أملاك الخلافة العباسية كما حمى هو حدوده من ناحية الغرب .

وكانت الخلافة العباسية تعتمد على السامانيين في اقرار سلطانها في بلاد المشرق ، وضرب المتغلبين الخارجين على طاعة الخلافة ، فسيروا جيوشهم لاقرار سلطان الخلافة عدة مرات بحسب طلبها ، فانتزعوا الري من يد قافاك غلام يوسف بن أبي الساج الذي تغلب عليها ، كما سيروا جيشا الى كرمان ، انتزعوها من يد محمد بن الياس ، كما أعادوا الكرة على الري وانتزعوها من يد وشمكير بن زيار ، ثم من يد ماكان ابن كالى الذي قتل ، وما زالوا يوالون انتصاراتهم على المتغلبين على البلاد فاستولوا على أبهر وقزوين وقم وهمذان ونهاوند والدينور حتى بلغوا حدود حلوان (٢) .

ظل السامانيون مخلصين للخلافة العباسية حتى كان العصر البويهى . فطمع البويهيون في التوسع في البلاد التي في أيدي السامانيين ، فاشتبك الطرفان في حروب من سنة ٣٥٦ الى سنة ٣٦١ هـ و انتهت بصلح بين الأمير منصور بن نوح السامانى وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة ، على أن يحمل ركن الدولة وابنه الى منصور مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ثم تصاهر البيتان وتزوج ابن منصور بابنة عضد الدولة ، وبذلك استقر السلام بين الطرفين (٣) .

كانت الدولة السامانية قميئة أن تعمر طويلا ، لولا أن البيث السامانى تعرض للخلافات الداخلية بين أفراده ، مما أدى الى كثير من

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٨٠ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٤٠ — ٤١ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٣٥ .

الفتن والثورات ، هذا فوق أنهم اعتمدوا فى جيوشهم على الجنس التركى ، وهو جنس ثبتت خطورته على الدول المعاصرة له ، وقد تولى هؤلاء الأتراك مناصب عالية فى الإدارة وفى الجيش وأصبحوا خطيراً على الدولة • كما كان صغر الأمراء من بنى سامان يعرض الدولة لتدخل النساء فى شئون الحكم ، الأمر الذى يشجع القواد وأصحاب الأطراف على الاستئثار بالسلطة •

وقد تعرضت الدولة السامانية لضغط متزايد من كل الجهات ، فمن الشمال والغرب تعرضت لضغط الديلم والعلويين ، كما تعرضت للضغط البويهى ، ثم تعرضت من الشرق لضغط خانات الأتراك الذى دخلوا الاسلام على يد السامانيين ثم بدأوا يتطلعون الى الاستقلال والحلول محلهم ، كما أن محمود الغزنوى وهو حاكم المنطقة الجنوبية الغربية ، قد تطلع الى الحلول محل السامانيين بعد أن بدأت أمورهم تضطرب • وقد كان الغزنويون يحكمون هذه المنطقة باسم السامانيين ، ولكنهم حين أحسوا بضعف القوة السامانية طمعوا فى الحلول محلها • واتتهى الأمر بأن سقطت الدولة السامانية لينقسم ملكها بين قوتين : قوة الغزنويين التى اتخذت من الثغر الهندى مجالا لنشاطها ، وقوة خانات الأتراك الذين تولوا أمر الثغر الشرقى فى بلاد ما وراء النهر •

لقد أدى السامانيون دورهم فى الحياة الاسلامية سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الحضارية ، كما أنهم استجابوا للنزعة القومية وللمصلحة الاقليمية •

فأما دورهم من الناحية السياسية ، فقد حفظوا الثغر الاسلامى الشرقى ومدوا النفوذ الاسلامى الى بلاد الترك البعيدة • وجعلوا من بيئة بلاد ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركى الذى أسلم على يد السامانيين وبدأ يتحول الى عنصر مفيد بالنسبة للعالم الاسلامى ، وانبثق عن التأثير السامانى ذلك الدور الذى تهيأ للترك الغز فى خدمة العالم الاسلامى فى العصر السلجوقى • كما أنه انبثق عن النفوذ السامانى الدولة الغزنوية وهى دولة تركية اتخذت من الثغر الهندى مركزا لها وعملت باسم

السامانيين ، ثم حلت محلهم وقامت بدور كبير سنتحدث عنه حديثا خاصا .
وأما دورهم من الناحية الحضارية ، فإن بلاط السامانيين في بخارى كان
مثابة العلماء وكعبة الأدباء « كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة
المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع فجوم أدباء الأرض
وموسم فضلاء الدهر (١) » . وكانت مكتبة نوح بن نصر الساماني كما
يقول ابن خلكان « عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة
بأيدي الناس وغيرها مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلا
عن معرفته » (٢) .

كما استجابت الدولة السامانية للنزعة الإيرانية القومية ، فهم الذين
أحيوا الثقافة الفارسية ، وفي عهدهم بدأت الكتابة باللغة الفارسية عن
الأدب والشعر والتأليف إلى جانب اللغة العربية ، وبدأ كثير من الكتب
العربية يترجم إلى الفارسية مثل كتاب الطبري « تاريخ الأمم والملوك » .
وقد بدأ الروح الفارسي يظهر في الأدب من ذلك الوقت ، وحفل بلاط
السامانيين بكثير من الشعراء الذي نظموا شعرهم بالعربية وبالفارسية ،
واشتهر في هذا العصر كثير من شعراء الفرس ، من أمثال عمر الخيام
صاحب الرباعيات ، والرئيس ابن سينا أحد فلاسفة المسلمين . وقد نظم
كثيرا من القصائد بالفارسية (٣) .

كما أن خراسان وبلاد ما وراء النهر ازدهرت ازدهارا كبيرا ، وقد
رحل المقدسي إلى إقليم خراسان وما وراء النهر في العهد الساماني ، فامتدح
أهل خراسان وحبهم للخير وتمسكهم بالحق ، كما شكر السامانيين لحسن
سيرتهم في الحكم وعدلهم في الرعية وتكريمهم لأهل العلم (٤) . وصارت
مدن ما وراء النهر مراكز للتجارة والصناعة ، وعم هذه المنطقة الرخاء
المادي ، كما أصبحت مركزا من مراكز الإشعاع الحضاري .

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن خلكان : ج ١ ، ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٣) Browne. vol. I. pp. 356, 369, 399. حسن إبراهيم ، ج ٣ ،

ص ٣٦٧ .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

الهند

الدولة الغزنوية

٣٥١ — ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ — ١١٨٦ م

استطاع المسلمون أن يفتحوا شطرا من بلاد الهند ، وهو اقليم « البنجاب وحوض السند » فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى والى المشرق فى خلافة عبد الملك بن مروان فى سنة ٧١٠ م . واستمر المد الاسلامى يصبغ هذا الاقليم بالصبغة الاسلامية فى الدين والثقافة حتى سنة ٩٦٢ م وكان اكتساب اقليم السند الصبغة الاسلامية فى هذه الفترة مقدمة لظهور حركة قومية هندية تكتسب الشكل الاسلامى والطابع الاسلامى . وهذه الحركة الاستقلالية التى تعبر عن تراث الهند وماضيها وقوميتها تتخذ صورة دولة مستقلة هى الدولة الغزنوية التى استمرت نحو قرنين وربع قرن من الزمان من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ .

ويرجع ظهور الدولة الغزنوية التى سميت بعاصمتها غزنة الى أحد المغامرين المسلمين المسمى « سبكتكين » فقد تولى منطقة غزنة من قبل السامانيين ، ثم مد سبكتكين سلطانه فى الشرق حيث ضم اليه اقليم خراسان الذى ولاء عليه نوح بن منصور السامانى فى سنة ٣٨٤ هـ ، مكافأة له على قمع الثوار فى بلاد ما وراء النهر (١) . لكن سبكتكين اتجه بأعماله نحو الهند ولم يكن اتجاهه نحو البلاد التى كانت فى حوزة السامانيين الا تلبية لرغبته حين استعانوا به على قمع حركات الخارجين عليهم فى خراسان ، فقد انضم بقواته الى نوح بن نصر السامانى فى قتال الخارجين عليه فى خراسان ، وفى قتاله البويهيين الذين رغبوا فى الاستيلاء على خراسان من أملاك السامانيين واستطاع سبكتكين وابنه محمود مع قوات السامانيين الانتصار على هؤلاء الخارجين ، كما انتصروا على بنى بويه وأعادوا للسامانيين مدينة نيسابور . وبغودة نيسابور الى السامانيين ولى نوح السامانى محمود بن سبكتكين عليها

كما ولاه على جيوش خراسان ، ولقبه « سيف الدولة » ولقب أباه
سبكتكين « ناصر الدولة » (١) .

ومع أن سبكتكين كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين
وأكثر نفوذا منهم ، فانه كان يعترف لهم بالسيادة ويشن الحروب ويفتح
البلاد باسمهم (٢) ، حتى « اتسعت رقعة ولايته ، وعظم حجم جريده ،
وعمرت أرض خزانته ، وأشفقت النفوس من هيئته » (٣) .

وقد ولى سبكتكين منذ أول الأمر وجهه شطر الأقاليم الهندية ،
فاتجه الى المواقع الجبلية الواقعة في بلاد الأفغان الآن ، واستولى على
بعض المواقع فيها ، حيث مدينة كابل حاضرة بلاد الأفغان الحالية . وقد
أفزعت أعمال سبكتكين أحد ملوك الهند المسمى « جييال » الذي كانت
مملكته تمتد في شمال غربى الهند ، وقد رأى في استيلاء سبكتكين على
أطراف بلاده تهديدا خطيرا لمملكته ، فدخل مع سبكتكين فى حروب
طاحنة ، لكن سبكتكين ألحق به الهزيمة فى سنة ٣٦٩ هـ وأجبره على طلب
الصلح « على مال يؤديه ، وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه ، فاستقر
ذلك ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسير معه سبكتكين
من يتسلمها . فلما أبعد جييال ملك الهند قبض على من معه من المسلمين
وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه . فلما سمع سبكتكين بذلك . . سار
نحو الهند فأخرب كل مامر عليه من بلادهم ، وقصد « لمغان ، وهى من
أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة ، وهد بيوت الأصنام وأقام فيها شعائر
الاسلام . . ثم عاد الى غزنة وسار خلفه جييال فى مائة ألف مقاتل ،
فلقيه سبكتكين وألحق به هزيمة كبيرة وأسر منهم مالا يعد وغنم أموالهم
وأثقالهم . وذل الهنود بعد هذه الواقعة ، ولم يكن لهم بعد راية ، ورضوا

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٣٨ . العتبي : تاريخ اليمنى ، ج ١ ،
ص ٥٠ - ٥١ ، ٥٤ .

(٢) Lsne - Boole. Muhammadan Dynasties. p. 266.

(٣) العتبي : ج ١ ، ص ٦٣ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٦ .

بالأ يطلبوا فى أقاصى بلادهم ، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الموقعة أطاعه الأفغان والخلج (١) •

لكن هذه الدولة التى أقامها سبكتكين ظهرت فى المجال الإسلامى ظهوراً قوياً ، وكان تعبيرها القومى واضحاً فى عهد محمود الغزنوى الذى استطاع أن يتولى السلطة من سنة ٣٨٨ هـ الى ٤٢١ هـ (٩٩٨ - ١٠٣٠ م) ، وامتاز عهده بالجهاد الإسلامى فى إقليم الهند ، ويقال أن غزواته وصلت الى حدود هضبة الدكن ، واعترفت به الخلافة سلطاناً مستقلاً ولقبه الخليفة بلقب « يمين الدولة » اعترافاً بأنه كان يرعى الركن الأيمن من المشرق الإسلامى • ويقول براون « ان قوة محمود الغزنوى التى لا تحد قد ظهرت فجأة ، وأنه بدأ عهده بوضع يده على مملكته الصغيرة التى ورثها عن أبيه سبكتكين ، ولكنه لم يلبث أن غزا الهند اثنتى عشرة مرة ، وضم الى مملكته بلاد البنجاب ، وأخضع بلاد الغور ، وبلاد ما وراء النهر ، ووالى لبنى بويه ضرباته التى انتهت باستيلائه على أصفهان » (٢) •

حين توفى محمود الغزنوى كانت الدولة السامانية تسير الى نهايتها، تحت ضربات خانات التركستان فى بلاد ما وراء النهر ، وتآمر المتغلبين فى أقاليم خراسان ، وكان عليه أن يؤمن جناحه الشمالى حتى يتفرغ الى غزواته التى يزعم القيام بها فى بلاد الهند ، ولكى يضيف الى قوته قوة أخرى ، لانه تقدم نحو خراسان وأحل الهزيمة بالسامانيين فى مرو سنة ٣٨٩ هـ وبذلك صفت له خراسان ، وعين أخاه نصراً على جيوشها ، فاتخذ نيسابور قاعدة له ، وخطب للخليفة القادر • وبذلك زالت دولة السامانيين من خراسان على يد محمود كما زالت من بلاد ما وراء النهر على يد بغراخان التركى (٣) • واتخذ محمود لنفسه لقب « سلطان » بعد

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ •
(٢) Brown, Vol. I, p. 376. حسين ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٧ •
(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٤ - ٥٦ •

أن كان يلقب بالأمير ، كما لقبه الخليفة القادر « يمين الدولة وأمين الملة » ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تحمل اسمه « (١) » . ولقبه سلطان الذي اتخذه محمود الغزنوي هو اللقب الذي سار عليه الأتراك في الدولة الإسلامية ، فهو اللقب الذي اتخذه السلاجقة من بعد كما اتخذه العثمانيون بعد ذلك ، وكان ظهور هذا اللقب بصفة رسمية في بلاد الإسلام على يد محمود الغزنوي ، أما الحكام من الفرس فقد اتخذوا لقب « ملك » كما فعل بنو بويه ، وكلا اللقبين أقل من لقب الخليفة الذي ظل أعلى ألقاب الدولة الإسلامية حتى زوال الخلافة العباسية في بغداد .

ولم يكتف محمود بما استولى عليه من بلاد ، بل عمل على مد أملاكه وتوسيع رقعة دولته ، فاستولى على سجستان سنة ٣٩٣ هـ (٢) ، كما أزال سلطان البويهيين في الري وبلاد الجبل في سنة ٤٢٠ هـ ثم ملك قزوين وقلعها ودان له بالطاعة أمراء هذه الجهات (٣) . وقد أرضى محمود الخلافة العباسية حين تتبع المخالفين لها والخارجين عليها بالقتل والنفي ، فقد قتل الرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة ، كما نفى المعتزلة الى خراسان وضيق عليهم ، وأحرق كتب الفلسفة والمعتزلة والنجوم ، كما رفض أن يستجيب للفاطميين الذين حاولوا استمالته تخفيفاً من حملته على أشياعهم (٤) .

لكن الأعمال التي خلدت اسم محمود الغزنوي هي الأعمال التي قام بها لنشر الإسلام ، وغزواته في بلاد الهند التي وسعت رقعة العالم الإسلامي ، وكانت بحق بداية العالم الإسلامي الهندي . ففي سنة ٥٠١ هـ حارب محمود الغور ، وكانوا لا يدينون بالإسلام ، كما كانوا يتخذون

(١) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) المتنبى : ج ١ ، ص ٩٩ — ١٠٤ . ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٣٩ .

(٤) حسن إبراهيم : ج ٣ ، ص ٨٩ .

من بلادهم الجبلية الوعرة المسالك بين هراة وغزنة ملجأ يقطعون منه الطريق ويخيفون السبيل ، فأوقع بهم محمود وأخضعهم لسلطانه ، ونشر بينهم الاسلام ، وأرسل اليهم جماعة من المسلمين يعلمونهم أصول الدين (١) .

أما حملاته في بلاد الهند فقد استمرت من سنة ٣٩٢ هـ الى سنة ٤١٥ هـ ، وقد اصطبغت بصبغة الجهاد الديني ، فقد كان محمود رجلاً دينياً ، دفعته عاطفته الدينية الى الجهاد في سبيل الله ، كما دفعه تأثمه من قتال المسلمين — الذي فرضته عليه ضرورة تقوية دولته وتأمين أطرافها — الى التعويض عن ذلك بقتال الكفار ونشر الاسلام في بلادهم ، فتتالت غزواته على بلاد الهند التي أقسم على نفسه أن يغزوها في كل عام (٢) .

كان محمود يملك مزايا فريدة من موقعه في غزنة القريبة من بلاد الهند الشمالية ، ومن وقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها ، وقد ساعده ذلك على نجاح غزواته في بلاد الهند ، كما قوى مركزه الحربي استيلائه على بلاد ما وراء النهر من أيلك خسان (٣) ، وملكه لسجستان وبلاد الغور ، الأمر الذي قوى مركزه في الداخل وجعله مطلق اليد في توجيه حملاته المنظمة على بلاد الهند (٤) . ولما كان جييال ملك البنجاب الذي حارب سبكتكين حروباً طاحنة لا يزال قوياً ، فقد توجه محمود لغزو شمال الهند سنة ٣٩٢ هـ فأوقع بجييال وأسره وغنم غنائم كثيرة ، حتى قيل أن عدد الأسرى بلغ أكثر من خمسمائة ألف ، وأحب بعد نصره أن يطلق جييال ليراه الهنود في شعار الذل ، فأطلقه ، ولكن هذا لم يستطع أن يعيش بعد أسره وذلك لحلق رأسه وأحرق نفسه (٥) . وكان من أثر ما أحرزه محمود من نصر في هذه الغزوة أن أطلق عليه اسم « الغازي » (٦) .

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٧١ — ٧٧ .

(٤) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٠ .

(٥) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(٦) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٠ .

بعد انتصار محمود على جييال سار نحو « ويهند und » وانتصر على أهلها (١) ، ثم قصد اقليم الملتان ، وهو مركز مشهور للحجاج من الهنود في جنوب بلاد البنجاب على سمت غزنة ، فاستولى على مدينة « بهاطية » ، وانتصر على صاحبها سنة ٣٩٥ هـ ونشر فيها الاسلام وترك جماعة من المسلمين يعلمونه أهلها (٢) . وفي سنة ٣٩٦ هـ قصد مدينة الملتان نفسها ، وفي طريقه اليها انتصر على « أئتدبال » بن جييال ، ثم قضى على مقاومة أهل الملتان واغتنتحها عنوة وفرض غرامة كبيرة على أهلها . وما زالت غزوات محمود تتتالى في كل عام على بلاد الهند حتى استولى على منطقة البنجاب كلها ، وهزم كل من اعترضه من ملوك الهنود وراجاتهم وقضى على تحالفهم ، واستولى في سنة ٤٠٤ هـ على ناردين ، وغنم في غزواته هذه غنائم كثيرة « فأخذ من الجواهر مالا يحد ، ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ، ومن الأوانى الذهبيات سبعمائة ألف وأربعمائة مائة . الى غير ذلك من الأمتعة ، وعاد الى غزنة بهذه الغنائم ، ففرش تلك الجواهر في صحن داره ، وكان قد اجتمع اليه يرسل الملوك ، فأدخلهم فراها . ما لم يسمعوا بمثله » (٣) .

ولم يقاوم محمود الا قمشير التى والى عليها الغزو من سنة ٤٠٤ هـ الى ٤٠٧ هـ حتى تم له فتحها بعد جهود كبيرة ، واستولى على كل قلاع منطقتها ، وما زالت غزوات محمود مستمرة على بلاد الهند حتى توج انتصاراته في سنة ٤١٦ هـ باسترداد ناردين وهدم الصنم الأكبر «سومنان» وأرسل الى الخليفة يعلنه بما فتح الله على المسلمين في الهند (٤) .

وقد أعجب محمود بجبال اقليم جوجرات ففكر في اتخاذ مدينة « الهلوار » حاضرة له ، ولكن قواده نصحوا بالعدول عن هذا الرأى ، فعاد الى غزنة ، وكانت آخر غزواته في سنة ٤١٨ هـ حيث أدب الثوار

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٦٤ .
 (٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٦٩ .
 (٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٧٧ .
 (٤) ابن خلكان : ج ٢ ، ص ٨٤ — ٨٥ .

الذين اعترضوه في طريق عودته الى غزنة • وفي السنة التي توفي فيها استولى نائبه « ينال تكين » في هذه البلاد على « فوس » التي كانت من أعظم مدن الهند في ذلك الوقت (١) •

ويقول وللي هييج « يمكننا الى حد ما أن نعتبر محمودا (الغزنوي) سلطانا هنديا خالصا • لقد هتتح في خريف حياته اقليم البنجاب ، ونشر الاسلام في ربوع الهند ، وافتتح طريقا سلكه بعده كثيرون • وقنع خلفاؤه — بعد أن جردوا من أملاكهم في فارس وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر — بحكم اقليم البنجاب ، وكونوا أسرة هندية خالصة » (٢) •

واصل خلفاء محمود جهوده في فتح بلاد الهند ، ففتح ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) قلعة سرستى الجبلية جنوبى قشмир كما استولى على قلاع هانسى وسنبيات (٣) ، كما فتح ابنه مودود (١٣٢ — ٤٤١ هـ) عدة حصون في بلاد الهند وهزم من تعرض له من الملوك حتى هابوه ودانوا له بالطاعة (٤) • وغزا ابراهيم بن مسعود (٥٤١ — ٤٩٢ هـ) بلاد الهند فحاصر قلعة « أجود » وهلى على مائة وعشرين فرسخا من لاهور ، وعدة قلاع أخرى في سنة ٤٧٢ هـ • وهكذا نرى الى أى حد امتد ملك الغزنويين في بلاد الهند •

ويقول ستانلى لينبول « ان حملات الغزنويين في بلاد الهند ، واتخاذهم لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد ، فقد مهدت الدولة الغزنوية في لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى ، ونشروا نفوذ

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٤٨ •

(٢) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٤ •

W. Haig, Rncyclopaedia of Islam. Vol, II, p. 134.

(٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨١ •

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٣ — ١٩٤ •

المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية (١) » •

وفى الوقت الذى كان فيه الغزنويون يمدون سلطانهم فى الهند كان ملكهم فى الشرق يتهدد بقوتين خطيرتين هما قبائل الغز التركية والسلاجقة ، وكان هؤلاء قد وصلوا فى هجرتهم من مساكنهم فى الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم والهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون الى اقليم خراسان • فأما الغز فقد أجلاهم مسعود بن مجبوء عن خراسان بعد حروب دامت زهاء سنتين (٤٢٩ — ٤٣١) •

وأما السلاجقة الذين تفاقم شرهم — فى الوقت الذى اضطربت فيه الأحوال بعد موت محمود الغزنوى نتيجة للخلاف الذى وقع بين مسعود وأخيه محمد على الحكم — فقد نهبوا هراة فى سنة ٤٢٢ هـ ، وبدءوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يغيرون على خراسان اغارات منظمة ، واضطر مسعود الى الاشتباك معهم وألحق بهم هزيمة شديدة بالقرب من نسا سنة ٤٢٦ هـ ، ولكنه كان مشغولا بغزو الهند فاضطر الى عقد صلح معهم ، ولكن السلاجقة استفادوا من صلحهم مع مسعود ، فدعموا مركزهم ، واستعدوا لاقامة دولة لهم ، فضاق مسعود بالمكائنة الكبيرة التى نالوها وبتوطيد نفوذهم فى خراسان ، وحاول اجلاءهم فهاجمهم بالقرب من مدينة سرخس سنة ٤٢٩ هـ ، ولكنهم انتصروا على قواته انتصارا باهرا • وبذلك أصبحت قوتهم أعظم قوة فى خراسان ، وحملهم هذا على احتلال نيسابور وإعلان دولتهم بها ، وجلس طغرلىك على عرش مسعود بها وأمر بأن تقرأ الخطبة باسمه ، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة ، ويعتبر عام ٤٢٩ هـ بداية قيام دولة السلاجقة وان لم يعترف بها الخليفة العباسى الا فى سنة ٤٣٢ هـ حينما طلب السلاجقة منه أن يعترف بدولتهم وبطغرلىك سلطانا عليهم ، والواقع أن

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٩٤

The Muhammadan Dynasties, p. 284.

اعتراف الخليفة العباسي لم يكن إلا أمراً شكلياً لإعطاء الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس (١) .

لم يقبل مسعود الأمر الواقع ، فعزم على قتال السلاجقة بنفسه ، ولكن جهوده باءت بالفشل فقد هزمه السلاجقة هزيمة ساحقة عند دندانقان سنة ٤٣١ هـ واضطر الى العودة الى غزنة ، بل انه عزم على الانسحاب الى بلاد الهند ليجمع جيشاً كبيراً يحارب به السلاجقة (٢) ، ولكنه فشل اذ ثار عليه رجاله وعزلوه وولوا أخاه محمداً . وتعتبر موقعة دندانقان من المواقع الفاصلة اذ أنها أنهت الصراع بين الغزنويين والسلاجقة وبها انحسرت الدولة الغزنوية عن كل بلاد خراسان .

وكذلك تلقت الدولة الغزنوية ضربات مماثلة من خانات التركستان ، خضعت منها أملاكها في الشرق ، ولم يلبث الغوريون في بلاد الأفغان أن قضوا على ملك الغزنويين وحلوا محلهم ، واتجهوا بقوتهم الى بلاد الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين بها . وبذلك انتقلت رعاية الشرع الهندي من يد الدولة الغزنوية الى يد الدولة الغورية .

والواقع أن الدولة الغزنوية كانت أول اقتصار للعنصر التركي في صراعه مع العنصر الإيراني على السيادة النهائية في الاسلام . ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة الغزنوية وهي دولة مؤسسها تركي ، تحقق انتصاراتها في إيران على الدولة البويهية الفارسية ، كان عنصر تركي جديد يستعد لإكمال الجولة بين العنصرين ، ذلك أن السلاجقة ، ما لبثوا أن دخلوا العراق بعد أن تسلموا خراسان من الغزنويين ، ففرضوا على ملك البويهيين وحكموا المشرق الاسلامي .

والدولة الغزنوية من ناحية أخرى تعتبر دولة هندية ، كانت تعبر عن رغبات الهنود المسلمين في الحصول على استقلالهم الذاتي أسوة

(١) عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، ص ٢٩ .

(٢) حسين أمين : العراق في العصر السلجوقي ، ص ٥٣ .

بغيرهم من الشعب الاسلامى . وكان هؤلاء الهنود المسلمون هم عدة الدولة فى الفتح والغزو ، وكان منهم أغلب الوزراء والكتاب والموظفين ، أى أن الدولة بهذا كانت دولة اسلامية ، وكان عصر الغزنويين احياء للتراث الثقافى القديم ، ولا شك أن الثقافة التى تم احيائها فى عهد محمود الغزنوى كانت الثقافة الفارسية ، وقد ظهر الشاعر الفردوسى صاحب الشاهنامه فى بلاد الغزنويين ، كما ظهر غيره كثير من الشعراء الذين نظموا شعرهم بالفارسية (١) .

ويمكن القول بأن اللغة الأردية لغة الهند والباكستان وهى مزيج من الفارسية والسانسكريتية — ظهرت على عهد محمود الغزنوى ، وقد بدأت هذه اللغة التى ستصبح لغة الهند الاسلامية تظهر فى هذا العصر وتعبّر عن نفسها تعبيرا أدبيا .

وتلت الدولة الغزنوية دولة أخرى فى هذا الثغر هى الدولة الغورية التى كان اتجاهها هنديا خالصا ، وما زالت تقوم بدورها فى مد نفوذ العالم الاسلامى وتمكينه فى الهند ، حتى جاء المغول فأسقطوها ، ثم قاموا بأمر هذا الثغر الهندى بعد أن أسلموا ، وعلى أيديهم امتد الاسلام فى الهند وتدعم ، وكانوا أساس العالم الاسلامى الهندى الذى تعبّر عنه الآن دولة باكستان .

(١) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

طبرستان (١)

الدولة الطبرية — الدولة الزيارية

يرجع ظهور الحركة الاستقلالية في اقليم طبرستان الى المعارضة الشيعية التي قامت في وجه الخلافة العباسية ، وقد فرت المعارضة الشيعية الى المناطق البعيدة من العالم الاسلامي واستطاعت أن تؤسس لها دولا في أطراف هذا العالم ، وقد شهدنا كيف قامت دولة الإدارة في المغرب الأقصى بعد فرار ادريس بن عبد الله العلوي بعد موقعة فخ ، ثم كيف قامت الدولة الفاطمية في أفريقية واستطاعت أن تملك كل النصف الغربي من العالم الاسلامي . وفي الوقت الذي غر فيه ادريس بن عبد الله الى المغرب ، غر أخوه يحيى بن عبد الله الى المشرق ولجأ الى الديلم . ومنذ هذا التاريخ (١٧٦ هـ) بدأ الاسلام يدخل بلاد الديلم على يد هؤلاء الشيعية على مبدأ الزيدية .

والفرقة الزيدية من الفرق الشيعية الممتازة بطابع خاص هو طابع الجهاد الذي أوجبه على نفسها (٢) ، وتكاد كل الثورات التي قامت ، فيما عدا الفاطميين وحركة الحسن الصباح الذي أسس جماعة الحشاشين ، ترجع الى هذه الفرقة الزيدية . فالزيدية هم الذين تحملوا عبء الاضطهاد

(١) طبرستان إحدى مناطق إيران الجغرافية ، وتقع جنوب بحر قزوين ، وقد وصفها ياقوت في كتابه معجم البلدان (ج ١٣ ص ١٦ — ١٦ طبعة بيروت) ، فقال : فمن أعيان بلدانها دهستا وجرجان ، واستراباذ ، وآمل وهي قصبتها ، وسارية وهي مثلها ، وشالوس وهي مقاربة لها . وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان ، وهي بين الري وقوس البحر . وبلاد الديلم والجبل وهي طول ستة وثلاثين فرسخا في عرض ستة عشر فرسخا والعرض من الجبل الى البحر . وكانت بلاد طبرستان من الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها ، وقد بدأ اتصال المسلمين بها منذ خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٩ هـ ولكن فتحها لم يتم الا في عهد المأمون سنة ٢٠١ هـ ، وقد تولى عليها من قبل المأمون المازيار ابن قارن ولم يزل عليها حتى عصى في عهد المعتصم . ثم آلت الى بني طاهر . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ١٥٦ .

في مركز الخلافة ، فهاجروا الى أطرافها ، وكانت إحدى هجراتهم الى بلاد الديلم . وكان من نتيجة هذه الهجرة وضع بذرة الاسلام في تلك البلاد ، وظلت البذرة تنمو حتى استكملت نموها ، حتى دخل الديلم جميعا في الاسلام واعتنقوه على مبدأ الزيدية ، وصاروا شيعة يدافعون عن المبادئ الشيعية بعامة وعن الزيدية بخاصة .

وقد أدى مبدأ التسوية الذي فادت به الثورة العباسية ، الى تهيئة الظروف أمام الشعوب البربرية النازلة وراء الثغور الاسلامية ، وأن تندمج في عداد الأمة الاسلامية ، وأن تقوم بالدور الذي تؤهلها له ملكاتها ، ومعنى هذا أن الدخول في الاسلام في ذلك الوقت أصبح كالتجنس تماما . فاذا دخل فرد أو اعتنقت أمة الاسلام ، صار ذلك الفرد أو هذه الأمة من عداد الرعية الاسلامية . وتحت ظل هذا المبدأ دخل الديلم في عداد الأمة الاسلامية وتهيأ لهم بذلك أن يقوموا بدور هام في التاريخ الاسلامي ، بعد أن انفتح خط الثغور لكي تدخل في قلب الخلافة أمم حديثة عهد بالاسلام وحديثة عهد كذلك بالحضارة . لكننا من ناحية أخرى يجب أن نعرف أن الشعب الديلمي كان شعبا فارسيا ، وأن الفرس المتحضرين لم يعتبروه أجنيا الى حد كبير ، ولهذا وجد تعاون بين الفرس المتحضرين وبين الديلم المتبربرين .

كان الديلم الاسلامي في أوائل القرن الثالث وحتى منتصفه محتفلة بكثير من تماسكه القديم ، وكان من الصعب على جماعة كالديلم — وخصوصا أنهم كانوا وثنيين ، وكانوا خارجين عن نطاق أرض الاسلام ، يقرلون وراء ثغور إقائمة عند قزوين وأبهر وغيرها ، وهي الثغور المعروفة بشعور قزوين أو بشعور الديلم — أن ينفذوا الى داخل العالم الاسلامي ، وكان هذا النفوذ الى الداخل أمرا صعبا حتى بالنسبة للدول الكبيرة كالروم أو بالنسبة للشعوب الكثيرة العدد كالترك ، اذ كانت حدود الثغور الاسلامية محروسة حراسة قوية ، فكان لا بد أن يسلم أهل هذه الناحية . وقد أخذ الديلم والجبل الاسلام على يد أهل طبرستان

الذين كانوا قد دخلوه من قبل على يد الدعاة من الشيعة الزيدية .
فطبرستان بذلك هي البيئة الأم بالنسبة لمن أسلم ممن وراءهم ، كما كانت
التركستان بالنسبة لمن وراءها من أقاليم الترك .

وقد ظلت طبرستان منذ فتحها اقليما خاضعا للخلافة العباسية ،
يحكمه آل طاهر الذين مدوا نفوذهم على المشرق كله باسم الخلافة
العباسية ، الى أن احتاجت طبرستان في مناسبة من المناسبات أن تقوم
ضد الخلافة ، وذلك عندما قامت ثورة يحيى بن عبد الله العاوي بالكوفة
سنة ٢٥٠ هـ . الذي خرج على الخليفة المستعين وخج معه جميع الزيدية
بالكوفة (١) . وقد عهد الخليفة الى محمد بن عبد الله بن طاهر بقمع هذه
الثورة ، فقمعها بعد حرب حامية ، ثم أراد الخليفة أن يكافئه فمنحه
اقطاعا عند ثغور طبرستان في المنطقة التي تفصل بين اقليم طبرستان واقليم
الديلم . وقبض ابن طاهر اقطاعه ووضع يده عليه . الا أن عامله تجاوز
الحدود المرسومة للاقطاع ، أو وقع خطأ أصلى في تحديد الاقطاع حتى
أدخلت فيه أرض لم يكن ينبغي أن تدخل فيه ، فقد دخل فيه أرض كان
أهل الثغر يتخذونها مرافق عامة ويستفيدون منها في الاحتطاب والرعى ،
فغضب أهل الثغر الطبري : أولا لأن بعض أرضهم أعطى لمن غلب
اخوانهم في المذهب بالكوفة — وكان أهل طبرستان قد دخلوا الاسلام
منذ عام ١٧٠ هـ تقريبا على مذهب الزيدية على يد يحيى بن عبد الله
الحسنى ، عند فراره بعد موقعة فخ ثم صار ملجأ الفارين من الشيعة
من بعده — وثانيا لأن هذا الرجل جار على المنافع العامة فحرمهم من
أرض كانوا يرتفقون منها . لذلك نهضوا يرفضون أن ينفذ هذا الاقطاع
وعصوا واليه ، وأصبح الأمر أمر ثورة وخلع للسلطان (٢) .

في هذا المأزق الذي أوقعت الظروف فيه أهل طبرستان لم يجد
الثائرون خيرا من أن يتحالفوا مع الديلم . وكان هذا التحالف ممكنا

(١) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٣ — ٤٤ .

(٢) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٤٤ — ٤٥ .

لأن الشجر كان هادئا ، فلم يكن بين الشعبين عدااء ولا حروب • ثم كان الظرف موافقا لهذا التحالف ، وذلك أن بعض عمال والي طبرستان دخل بلاد الديلم ، وهم مسالمون لأهل طبرستان ، فسبى منهم وقتل ، فساء ذلك أهل طبرستان ، ووجدوا فرصة لضم الديلم الى ثورتهم ، فراسلوهم يذكرهم بالعهد الذي بينهم ويعتذرون فيما فعله هذا العامل بهم من السبى والقتل (١) فوق التحالف ، وأصبح أهل طبرستان ، أقوياء يستطيعون الاعتماد على معين لا ينضب من الجند الديلمى المعروف بالخشونة والطبع المتبربر وبالقدرة الفائقة على الحرب • ولم يبق أمامهم الا أن يختاروا أحد العلويين ليكون اماما لهم ورئيسا لحركتهم ، فاتصلوا بالعلويين الموجودين بالرى ، فنهض لرياستهم علوى من الرى هو الحسن ابن زيد العلوى ، فرأس الثورة وقامت بقبوله هذا دولة علوية تعرف بالدولة العلوية الطبرية الزيدية ، واستطاع الحسن بن زيد أن يحتل مدينة أمل قاعدة طبرستان ثم مدينة سارية ، وانضم اليه أهل الشجر من الديلم فى كلار وشالوس والرويان ثم أهل جبال طبرستان وجماعة من أهل السفج ، وبذلك سيطر على كل منطقة طبرستان وما يليها من بلاد الديلم ، ولم يلبث العلويون أن خرجوا بالرى واستطاعوا مع القسوات التى أرسلها الحسن بن زيد أن يطردوا عمال ابن طاهر الى قزوين (٢) وما زال الحسن بن زيد يتوسع فى امتلاك المناطق حتى ضم اليه قزوين أيضا ، ثم ضم اليه اقليم جرجان •

وقد أعانت الظروف الحسن بن زيد ، فقد كان العلويون منبئين فى كل هذه المناطق وكانوا يظهرين عندما تتقدم الجيوش الطبرية فيهددون الجبهة الداخلية ، وبذلك تقع القوات الطاهرية بين نارين فتضطر الى المتراجع • ثم ان الدولة الطاهرية كانت تتلقى الضربات من قوات الصفاريين التى كانت تزحف للاستيلاء على أملاك الطاهريين فى خراسان • وكانت الخلافة كذلك مشغولة بمقاومة ثورة الزنج فى اقليم العراق

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٤٥ •

(٢) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ •

والأهواز ، فلم يكن فى إمكان الخلافة أن ترسل قوات قوية لمساعدة
الظاهرين أو القضاء على الحركة الزيدية (١) .

وحين غلب الصفار على خراسان وجه قواته لقتال الحسين بن زيد
ولكن هذا كان يجد له ملجأ فى بلاد الديلم المنيعه ، فلم يستطع يعقوب
ابن الليث الصفار أن يلحق بالقوات الطبرية هزيمة حاسمة ، واضطر آخر
الأمر الى التراجع بعد أن فقد عددا كبيرا من قواته فى مسالك جبال
طبرستان الوعرة (٢) .

وهكذا تدعمت الدولة الطبرية التى كتب لها أن تعيش أكثر من
نصف قرن من ٢٥٥ — ٣١٦ هـ لم تنقطع عن حكم طبرستان الا فترة قليلة
هى الفترة الواقعة بين سنتى ٢٨٧ هـ ، ٣٠١ هـ . فى هذه الفترة استطاع
السامانيون ولادة بلاد ما وراء النهر من عاصمتهم سمرقند أن يغلبوا
الجيش الطبرية فى عهد محمد بن زيد الذى تولى الامامة بعد موت أخيه
الحسن سنة ٢٧٠ هـ ، وأن يستولوا على طبرستان وأن يتحالفوا
مع الديلم (٣) وكان آل سامان قد ضموا الى أنفسهم بموافقة الخليفة
حكم المشرق كله ، وثلثوا بذلك تراث الظاهريين . ولكى تضمن الدولة
السامانية جنود الديلم وبقاء حلفهم اتفقت مع رؤسائهم أن تصرف لهم
أجعالا سنوية ، ورضى الديلم بهذا ولزموا أرضهم ، وبذلك حرم
العلويون من هذا النصير القوى الذى كان عماد جيوشهم . فلم يستطيعوا
القيام فى وجه السامانيين طوال هذه الفترة .

الى أن استطاع أحد دعاة العلويين وهو الحسن الأطروش فى
سنة ٣٠١ هـ أن يجمع حوله رؤساء الديلم مرة أخرى ، وأن يهزم
السامانيين ويستولى على طبرستان ويعيد الدولة سيرتها الأولى . وكان

(١) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ٧١ — ٧٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ .

(٢) الطبرى : ج ١١ ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الاثير : ج ٧ ، ص ١٧٩ — ١٨٠ — ١٨٤ .

العلويون ، فى أثناء هذه المحنة التى ألحقها بهم السامانيون ، منبئين فى أرض الديلم يعلمونهم الأسلام ، وينشرون فيهم حضارتهم ، ولكن الأعمال السامانية كانت تقف حجر عثرة فى سبيل هؤلاء الدعاة . فلما انقطعت السامانية انتهزت الدعوة الزيدية الفرصة ، ونهضت الدولة العلوية الطبرية مرة أخرى على يد الحسن الأطروش^(١) ، ثم ظلت الامامة فى أولاده وأصحاره الى أن انتهت سنة ٣١٦ هـ ^(٢) ، وآل الملك الى دول زيدية لا امامة لها ، أو الى دول زيدية أخرى استغنت عن الامامة الزيدية وخولت لنفسها قبول التقليد من خليفة سنى .

* * *

الدولة الزيارية

تفرعت عن الدولة الطبرية دول أخرى ديلمية . ومن هذه الفروع الدولة الزيارية المنسوبة الى « مرداوج بن زيار » وتفسر نشأة هذه الدولة بالظروف التى أنشأت الدولة الطبرية ، فالدولة الطبرية نشأت أولا ثم اتخذت لنفسها اماما ، فلما ساءت العلاقة بين الزيدية والديلم ، عمد الديلم الى تكوين دول خاصة بأنفسهم من دون الأئمة الزيديين ، ولم يكن الديلم كلهم من ذوى الطاعة ، فان منهم من كان يسعى الى مصالحه الخاصة أو الى مصالح من التف حوله من الجند .^(٣)

وقد كان الديلم ينقسمون الى عصبيتين : عصبية الجبل الممثلة فى « أسفار ابن شيرويه » وعصبية الديلم الممثلة فى « ماكان بن كالى » ، وكانت كل طائفة من الناس تجتمع بحسب قبائلها وعصبياتها حول رئيس تتبعه ، وكان من التزامات هذا الرئيس أن يجد لجنده مجالا للحرب يرتزقون منه ، ولذلك كان بعضهم يخرج على الدولة سعيا وراء مصالح جنده . ومن أمثال هؤلاء « أسفار بن شيرويه » فانه ترك خدمة الزيدية

(١) الطبرى : ج ١٢ ، ص ٢٥ . ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) ابن الاثير . ج ٨ ، ص ٦٤ — ٦٧ .

(٣) أنظر : ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

وخرج الى معسكر السامانيين ثم عاد مرة أخرى الى طبرستان وأساء معاملة الأئمة العلويين ، كما أساء الى جميع العلويين الذين كانوا موجودين بطبرستان ، ونذكر له أنه جمع العلويين في احتفال بمدينة آمل في عام ٣١٦ هـ وذبحهم • وسير ما كان لديه من بقاياهم الى اقليم ما وراء النهر ، الى السامانيين (١) ولم يلبث أن جنى ثمرة هذا الغدر وبالا ، فان أتباعه لم يقرّوه في أنفسهم على ما فعل ، لهتأمر عليه وزيره مع قائد من كبار قواده هو « مرداويج بن زيار » ونجحت المؤامرة فقتل ، وآلت الرياسة الى مرداويج ، واستطاع هذا أن يجمع السلطة بين يديه ، وأن يخضع رؤساء الديلم لسلطانه ، وبدأ يكون دولة نسبت الىه وهي الدولة الزيارية •

واستطاع مرداويج أن يبعد عن أرضه أحد رؤساء الديلم الأقوياء ، وهو « ماكان بن كالي » الذي ضعف أمره ولجأ الى السامانيين • فلما ضعف أمر « ماكان » تفرق عنه كثير من جنده الديلم ولجأوا الى مرداويج • ومن هؤلاء جماعة كان يرأسهم « على بن بويه » (٢) •

كان الدور الذي قامت به الدولة الزيارية يختلف عن الدور الذي قامت به الدولة الطبرية • فان الدولة الطبرية كانت دولة شيعية غير معترفة بالخلافة العباسية ، ولهذا فانها اقتطعت لنفسها بقعة من الأرض، وأرست فيها قاعدة الهجرة الدبلوماسية في الشمال ، وأنشأت حكومة قوية تشمل طبرستان وبلاد الجبل والديلم وجرجان ، ودافعت عنها ضد قوات الخلافة أو القوات الموالية لها من الطاهريين ثم السامانيين ، فكانت لذلك علاقاتها بالدولة العباسية علاقة عدا • أما الدولة الزيارية ، فان دورها كان عبارة عن توسيع هذه القاعدة ، فمدت خط الهجرة الدبلوماسية نحو الجنوب فاستولت على أصفهان والري ونهاوند وهمدان ، وهذا الاقليم هم المعروف باقليم الجبل أو الجبال ، ومع كونها دولة شيعية زيدية المذهب

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٦٤ — ٦٦ •

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ •

الا أنها استغنت عن الامامة الزيدية ، واتصلت بالخلافة العباسية واعترفت بها وقبلت التقليد من الخليفة العباسي . ثم انها فكرت فى اقامة دولة فارسية ، ولذلك أحيت التقاليد الساسانية فى بلادها . وامتد بها الطموح الى اعادة ملك بنى ساسان .

والدولة الزيارية هى التى مهدت تمهيدا صحيحا لامتداد الهجرة الديلمية الى مركز العالم الاسلامى ، هذه الهجرة التى تولاهها بنو بويه ، فان الدولة البويهية التى تفرعت عن الدولة الزيارية ، تقدمت بأمواج الهجرة نحو الجنوب وبلغت اقليم فارس واستقرت فى ايران حيث جعلت قاعدة ملكها مدينة شيراز ، ثم مدت بنفوذها الى العراق وحكمته باسم الخلافة العباسية .

وقد عاشت الدولة الزيارية فى الشمال مستقلة عن بنى بويه أولا . ثم حليفة لهم فى آخر الأمر . ولذلك فأننا نفضل أن نكمل الحديث عن الدولة الزيارية فى خلال الحديث عن بنى بويه . لارتباط هذه الأحداث وتشابكها ، ولأن كلا الطرفين « الزياريين والبويهيين » اتصلوا بالخلافة ، وكان كل منهما « طرفدار » تولى التقليد من قبل الخليفة العباسي .

الباب الثالث

العصر البويهى والعصر السلجوقى

العصر البويهى — والعصر السلجوقى

هذان العصران يقتسابان فى نواح كثيرة ، وهذا التشابه هو الذى جعلنا نجمع بينهما فى حديث واحد ، ولم نجمعهما من حيث التتالى فى الزمن ، مع كونهما متتالين فعلا . والواقع أن كل دولة من هاتين الدولتين حاولت أن تحكم ما نسميه فى التاريخ الاسلامى القديم بالشرق ، وكلتاها انتزعت السلطة الفعلية من يد الخلافة ، مع اضرار الاحترام لشخصية الخليفة ولمركز الخلافة . وكلتاها قامت على أكتاف شعوب كانت الى عهد قريب جدا لا تعرف الاسلام ، ثم دخل كل شعب من هذين الشعبين فى الاسلام بطريقة ما ، وأتاح له الاسلام أن يشارك فى حياته العامة ، وفى حياته السياسية خاصة وفى حياته الثغرية على وجه التحديد . وكلا الشعبين بعد ذلك هاجر من أطراف العالم الاسلامى الشمالية أو الشرقية نحو مركز الخلافة ، وحاول أن يحكم المشرق كله واستولى على السلطان الفعلى ، ولم يفكر قط أن يكون أداة طيعة فى يد الخلافة كما كانت حال الترك أيام أن استخدمهم الخليفتان الأخوان : المأمون ، والمعتصم . فهما أشبه بدولتين مندمجتين فى الخلافة ، أو حاكمتين باسم الخلافة ، لهما السلطة الفعلية التى يتولاها الخليفة ، ولهما الى جانب ذلك لقب الملك أو السلطان ، ولهما العواصم التى اختاروها بعيدا عن بغداد وركزوا فيها قوتهم السياسية . وانه صرح الأمر ، وخير طريقة للتوضيح أن نذكر الحوادث حسب ترتيبها الزمنى — مع الاعتراف بأن فى هذا نوعا من التكرار — لنبين كيف تغيرت بحسب الظروف من حال الى حال .

كانت الدولة الأموية دولة عربية ، وكانت الحكومة الاسلامية فى ظل هذا البيت الأموى القرشى المكى العربى مستندة الى العرب ، وكانت القوة العسكرية فيها عربية ، فكان الجيش عربيا ، وكانت الأمم المغلوبة النازلة فى أرض الاسلام والأمم المحالفة المعروفة بأهل العهد النازلة بأطراف العالم الاسلامى لا تشارك فى هذا المجهود الحربى الا مقدار ،

فكان وضعها فى الجيوش العربية وضعاً ثانوياً ، وكانت بمثابة الجيوش المساعدة التى كان يستخدمها الرومان الى جانب جيوشهم الرومانية الأصلية . ثم دعت الظروف الى أن تقوم الثورة العباسية . وقد استخدمت هذه الثورة أهل خراسان أداة وجندتهم وغلبت بهم الجيوش العربية . وكان من الطبيعى بعد أن اقتضت هذه الجيوش ألا تسرح ، وأن تبقى قائمة لتحافظ على الثورة وأن ترعى مبادئها التى نادت بها ، ولكى تستفيع أيضاً بنتائج جهودها ، فهذا الجانب المصلحى الذى لا ينبغى إهماله فى التاريخ ، فأصبحت الجيوش الخرسانية هى الجيوش الأولى فى الدولة ، وأصبح العرب أقلية يمكن أن يقضى الأمر بدونهم ، ويمكن أن تحكم الدولة رغم أنوفهم .

فكان من نتيجة الثورة العباسية أن انتقل الحكم من يد العرب الى يد الخراسانيين . ثم دعت الظروف مرة أخرى الى الحد من غلواء الفرس ، والى جند آخر من غير الجند الخراسانيين أكثر كفاءة وأكثر خشونة ، لكى يستطيعوا الدفاع عن الدولة ذات الثغور الشاسعة الممتدة . وقد كانت الأمم القديمة تفضل الخشنيين من الجند على المترفين ، وكان القائد حين يدرّب جيشه يحاول أن ينسب ترف المدينة وأن يعود على التقشف ، ليكون أقدر على الحرب . لهذه الأسباب ولغيرها بدأ الخلفاء يجندون الترك ، فأرسل الخليفة المأمون الى إقليم ما وراء النهر (التركستان الروسية الآن) دعاة يدعون رجال الترك الى الاسلام ، ويدعونهم فى نفس الوقت الى الدخول فى الجندية والانتقال الى بغداد ، فانتقل كثير منهم على يد هؤلاء الدعاة الى بغداد ، ودخلوا فى الجيش أيام المأمون الى أن عظم أمرهم أيام المعتصم ، حتى أصبحوا يؤلفون ما يعرف بجيش الحضرة بمعنى الجيش المركزى ، فلما بلغوا هذا الحد بنى لهم المعتصم عاصمة جديدة هى « سامرا » وإنما أقبل هؤلاء الترك على الجندية لأنهم فى بلاد متوحشة بربرية بعيدة عن مراكز الحضارة ، وكانت بغداد يومئذ كما كان الشرق الأدنى كله مركزاً للحضارة وللمتمدن ، تنطلق اليه

نفوس البرابرة بشيء من الاعجاب والدهشة ، وينجذبون اليه ويتوقون لرؤيته والارتحال للعيش فى كنفه .

كما أن الترك أقبلوا على الجندية لأنها تدر عليهم رزقا كثيرا ، وقد كان الداعى الذى جاءهم مصحوبا بفارض لهم يفرض لهم عطاء فى الديوان . هؤلاء الترك دخلوا فى الجندية كما يدخل الأفراد الذين تربطهم العصبية لا كما يدخل الأفراد العاديون ، لكنهم برغم هذه العصبية لجنسهم كانوا من حيث المبدأ يأترون بأمر الخلفاء وبأمر قوادهم ، ويقومون بمهمة الدفاع كما كان يقوم بها الخراسانيون والعرب من قبلهم دون فارق آخر . ونحن نسلم بأن هؤلاء الأتراك بلغ بعضهم درجة كبيرة من النفوذ ، وحاول أن يحد من سلطان الخليفة ، وزاد فى منزلته على الوزراء ، إلا أن هذا كله لا يمنع من أن هؤلاء الأتراك كانوا يقومون بنفس المهمة التى قام بها الخراسانيون أنفسهم والعرب من قبلهم .

وفى العصر العباسى الثانى ظهرت قوميات فى العالم الاسلامى ، فكان كل شعب من الشعوب المنضوية تحت لواء الحكومة الاسلامية يتلمس شخصيته القومية ، ويحاول أن ينميها وأن يرتفع الى مستوى الاستقلال ، بحيث لم يمتد الزمن الا يسيرا حتى أصبحت كل قومية تحكم نفسها بنفسها رضيت الخلافة أم كرهت . ولم يكن من الممكن أن توقف الخلافة هذه الحركات الاستقلالية لأن المعارضة الشيعية والخوارجية كانت تشجع هذه النزعات ، وكانت الخلافة اذا قاومت لا تجنى من وراء المقاومة الا ظهور دولة جديدة تستقل بحكم نفسها عن طريق الاكراه لا عن طريق التقليد (الرضا - والاتفاق) . فى هذا الوقت حدثت هجرات ، أولها هجرة شعوب ديلمية كانت تهزل فى شمال العالم الاسلامى وجنوبى بحر قزوين . وهذه الهجرة اصطفت بصبغة تحالف صنعتة الهجرات التركية أيام المأمون والمعتصم ، لأنها هجرات حدثت فى عهد الانفصال والاستقلال ، وأنها هجرات أكبر من الهجرات التركية أيام المعتصم . فلذلك هاجر الديلم محتفظين بنظامهم الخاص

وَقَتْلُوهُ مَعَهُمْ ، وَكَوْنُوا لِأَنْفُسِهِمْ سُلْطَةً فِي مَدِينَةِ شِيرَاز ، وَصَارَ شَأْنُهُمْ كَشَأْنِ غَيْرِهِمْ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى آسَاسِ الشَّخْصِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ ، ثُمَّ عَظُمَ أَمْرُهُمْ تَبَعًا لِقُوَّتِهِمُ الْحَرَبِيَّةَ حَتَّى تَطْلَعُوا إِلَى حَكْمِ الْمَشْرِقِ ، وَالْإِتِّزَاعِ السُّلْطَانِ الْفَعْلِيِّ مِنْ يَدِ الْخَلِيفَةِ ، بِحُجَّةِ التَّعَاوُنِ مَعَهُ وَتَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَةِ لَهُ ، وَإِثَارِ الصَّالِحِ الْعَامِ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ •

فَلَمَّا انْتَهَتْ هَذِهِ الْهَجْرَةُ وَأَدَّتْ رِسَالَتَهَا وَانْقَرَضَتْ دَوْلَتُهَا. أَوْ كَادَتْ ، ظَهَرَتْ هَجْرَةٌ أُخْرَى آتِيَةٌ مِنَ الْمَشْرِقِ هِيَ هَجْرَةُ تَرْكِيَّةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ التَّرْكِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْغَزِّ • وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأَتْرَاكِ الْغَزِّ قَبِيلَةٌ قَدَّرَ لَهَا أَنْ تَكُونَ عَظِيمَةً الشَّأْنِ ، وَأَنْ تَقُومَ بِدَوْرِ هَامٍ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَأَنْ تُضَفِّيَ اسْمَهَا عَلَى كُلِّ هَجْرَةٍ ، وَهِيَ قَبِيلَةُ بَنِي سَلْجُوقَ • وَكَانَتْ هَذِهِ الْهَجْرَةُ شَأْنَهَا كَشَأْنِ الْهَجْرَةِ الدِّيْلَمِيَّةِ تَمَامًا : فَقَدْ احْتَفَظَ الْأَتْرَاكِ بِنَظْمِهِمُ الْخَاصَّةَ ، وَفَتَحُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي دَاخِلِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ دَوْلَةً أَرَادُوا بِهَا الْعِزَّةَ لِلْإِسْلَامِ وَتَوْحِيدَ الْمَشْرِقِ ، ثُمَّ انْتَزَعُوا الْأَمْرَ مِنْ يَدِ الْخَلِيفَةِ كَمَا انْتَزَعَهُ الْبُويْهِيُونَ مِنْ قَبْلِ ، وَظَلُّوا مَدَّةً طَوِيلَةً يَتَوَلَّوْنَ الْأَمْرَ وَيَقُومُونَ بِخِدْمَاتٍ كَبِيرَةٍ جَدًّا وَبِخَاصَّةٍ فِي أَيَّامِ تَوْحِيدِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ لِرَأْسِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ • فَلَمَّا تَفَرَّقُوا وَتَفَرَّقُوا فَرُوعًا ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ السَّلَاجُوقَةِ أَوْ كُلُّ قَائِدٍ تَابِعٍ مِنْ قَوَادِهِمْ مِمَّنْ يُسَمُّونَ بِالْأَتَابِكَةِ ، مُنْفَرِدًا بِإَقْلِيمٍ مُعَيَّنٍ ضَاعَتِ الْوَحْدَةُ وَضَعُفَتِ الدَّوْلَةُ • فَلَمَّا بَلَغَتْ الْأُمُورُ هَذَا الْحَدَّ حَاوَلَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ أَنْ تَنْهَضَ بِالْأَمْرِ ، وَأَنْ تَحْمِلَ عَلَى أَكْتَافِهَا مَسْئُولِيَّةَ الْحُكْمِ كَالدَّوْلَةِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّ الْفُرْصَةَ لَمْ تَتَسَّعْ أَمَامَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ لِأَنَّ الْهَجْرَةَ الْمَغُولِيَّةَ كَانَتْ طَاقِيَّةً فَاجْتَاوَتْ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ الْمَشْرِقِيَّ كُلَّهُ •

هَذَا عَنْ الْحَالَةِ فِي الْعِرَاقِ • أَمَّا بَقِيَّةُ أَجْزَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، فَانْزِعَتْ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ — كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلِ — قَدِ عَمِلَتْ عَلَى الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَبَيْنَ الشُّعُوبِ الْمَخْتَلِفَةِ • وَهَذِهِ السِّيَاسَةُ أَيْقَظَتْ الرُّوحَ الْقَوْمِيَّةَ ، فَبَدَأَتْ فِي أَطْرَافِ الدَّوْلَةِ حَرَكَاتٌ انْفِصَالِيَّةٌ انْتَهَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ الثَّانِي بِاسْتِقْلَالِ هَذِهِ الْأَطْرَافِ ، وَقِيَامِ دُولٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، وَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَذَا

فمما النظام الثغرى القديم فى أيام بنى أمية وقد قامت هذه الدول فخلفت هذا النظام الثغرى القديم فى أيام بنى أمية ، وحملت عن الخلافة عبء الدفاع عن الحدود الإسلامية من ناحية ، ومد نفوذ العالم الإسلامى وراء هذه الحدود من ناحية أخرى ، الى جانب ارضاء النزعة القومية ، والاستجابة للظروف الجغرافية ، فحققت بذلك الناحيتين : مصلحة العالم الإسلامى ، وارضاء الشعور القومى .

وهذه الدول فى معظمها — كما رأينا من قبل — لم تستقل عن الدولة استقلالا تاما ، وانما استقلت استقلالا داخليا أو جزئيا ، بمعنى أن حكامها كانوا أحرارا فى إدارة هذه الدول ، وإن مالية كل دولة كانت تصرف على شئونها الا مبلغا خاصا يرسل الى العاصمة كرمز شكلى للتبعية ، كما كان لكل دولة جيشها الخاص بها ، أما السيادة فظلت حقا من حقوق الدولة الكبرى ، وكان كل وال ، ولو أنه ولى الحكم بالوراثة يحرص على أن يصدر الخليفة العباسى الأمر أو التقليد بولايته . فهذه الدول المنفصلة أو المنقطعة كانت تتمتع بكل مظاهر الاستقلال ولكنها كانت تعترف بالسيادة الروحية للخليفة العباسى . ومظاهر هذه السيادة مظاهر شكلية تتلخص فى أمور أهمها : الخطبة للخليفة على المنابر ، ثم ضرب السكة باسمه ونقش اسمه على الطراز (على أطراف ملابس الخليفة ، أو الخلع التى يخلعها على غيره ، ولفظ طراز لفظ فارسى ومنه أخذ « دار طراز » بمعنى « دار نسيج ») ثم ارسال الأموال سنويا ، والحرص على استصدار التقليد بالولاية .

كل هذا ينطبق على المشرق . أما المغرب فله شأن آخر وظروف أخرى فقد بدأت أجزاء المغرب تنفصل انفصالا تاما عن الخلافة العباسية منذ قيامها ، حتى تم انفصاله نهائيا على يد الفاطميين حين حكموا مصر والشام ، ثم عاد اسم الخلافة العباسية الى مصر والشام بعد زوال الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي .

بعد هذا العرض الذى قصدنا به ترتيب سير الأحداث فى العالم الإسلامى ، فعرض للحديث عن العصرين البويهى ثم السلجوقى .

الفصل الأول

العصر البويهى — الدولة البويهية

٣٢٠ — ٤٤٧هـ / ٩٣٢ — ١٠٥٥م

يسمى بويه أسرة تتكون من ثلاثة رجال ظهر أمرهم وهم : على والحسن وأحمد أبناء بويه ، ولا يتفق المؤرخون على نسبهم ، فبعضهم ينسبهم الى بهرام جور أحد ملوك ساسان ، بينما يرفع بعضهم نسبهم الى الالهة كما كان يفعل الرومان فى تمجيد أبطالهم ، وينحط بهم البعض الآخر الى دهماء الناس ، كما يقول البعض انهم من العرب من بنى ضبة^(١) ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا أسرة فقيرة ببلاد الديلم ، وكان أبوهم بويه رجلا من عامة الناس يتعيش من صيد السمك ، ويعينه أولاده على الحياة بالقيام بالنسب الضئيلة يتكسبون منها ، وقد كان أحمد بن بويه بعد أن ملك البلاد وتولى امرة الأمراء ببغداد يتحدث بنعمة الله تعالى عليه فيقول « كنت أحتطب الحطب على رأسى »^(٢) .

لكن هذه الأسرة الفقيرة عظم أمرها حتى سُمى باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية ، وقد اشتركوا مع الخلافة فى حكم العراق الى حدود الجزيرة العربية ، وبلاد الجبل أو العراق العجمى (واطليم الجبل قد يجمع فيسمى اقليم الجبال) ، كما أن اقليم طبرستان كان حليفا للبويهيين ، كما حكموا اقليم الأهواز المسمى أيضا باقليم خوزستان ، وهو الاقليم الذى يقع نصا الى الشمال من القاعدة الشمالية للخليج الفارسى ، ويقع شرقى العراق وجنوب بلاد الجبل ، وهو الممر بين الخليج الفارسى واطليم الجبل وبين العراق فى المغرب واطليم فارس فى المشرق .

(١) الفخرى : ص ٢٤٩ . حسن ابراهيم حسن : ج ٣ ، ص ٣٧ .
لدورى : ص ٢٤٤ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ، ص ٥٦ .

وكان اقليم فارس مركزا لكثير من آل بويه ، وكذلك حكموا اقليما يقع شرقي فارس وهو اقليم كرمان . وهذه هي البلاد التي كانت تحت حكم بنى بويه وكانوا يقولون أمرها مباشرة ، أما ما وراء ذلك من البلاد في كل الجهات فلم يكن لهم فيها كلمة ولا شبه سيادة ولا حتى مجرد اعتراف اسمي . ونريد منذ البدء أن نبرز حقيقة هامة وهي أن بنى بويه حكموا جزءا محدودا من العالم الاسلامي . فلا يجب أن نخلط بين تاريخهم وبين تاريخ بنى حمدان في الجزيرة . أو الأخشيديين والفاطميين في مصر والشام ، ولا أن نخلط بين حكم بنى بويه وممالك الديلم وطبرستان وجرجان في الشمال ، ولا بينهم وبين الدول التي كانت تتولى أمر المشرق البعيد ، ونشير هنا الى الدولة السامانية والدول الغزنوية . وان كانت قد قامت علاقات بين بنى بويه وبين هذه الدول .

جاءت هذه الأسرة من الشمال ، من بلاد الديلم ، وكان ارتفاع أمرها على يد الأخ الأكبر من الاخوة البويهيين الثلاثة ، وهو على بن بويه ، فانه كان جنديا استطاع بشجاعته أن يكون قائد جماعة مهاجرة من الديلم ، وكان الديلم بعد أن انفتح خط الشجر الطبري يهاجرون على هيئة أجناد ، فكانوا يتخذون لأنفسهم قائدا يتبعونه ، وكان هذا القائد ينتقل من خدمة ملك الى خدمة ملك آخر حسب مصالح جماعته ، وحسب من يحتاج لخدمته ومن يدفع له ولأصحابه أكبر عطاء ممكن . ونريد أن نعرف بعد هذا خطوات على بن بويه ، وخطوات أمثاله لكي نستطيع أن نقارن بينه وبين أمثاله من الأجناد المهاجرين .

وخطوات على بن بويه جزء من الهجرة العامة التي ابتدأت من الشمال من جنوبى بحر قزوين وانتهت الى غمر كل القسم المركزى للخلافة ، والى انتشار الديلم فى أنحاء المشرق والمغرب . لكن هذه الهجرة الشاملة لم تكن قوية الا فى المناطق التي نسميها بالمجال البويهى الحقيقى الذى أشرنا اليه آنفا ، فهم فى مجالهم المركزى حول العراق (م ٣٢ - العصر العباسى)

يؤلفون أغلبية الجيش وييدهم السلطة الكاملة ، أما فيما وراء ذلك ففي المشرق والمغرب فقد كان عددهم قليلا ، فانهم لم يكونوا في هذه الأماكن البعيدة الا كآثار تبعثت عند اندفاع الهجرة من الشمال الى الجنوب •

الخطوط العامة للهجرة الديامية :

اذا نظرنا الى خط سير الهجرة ، وجدناه خطا بدأ من الشمال ونفذ الى الجنوب ، ففصل بين المشرق البعيد وبين العراق ، والواقع أن وضع هذا الخط على هذا النحو انما نشأ لأن فراغا كان موجودا في الموضع الذي سارت فيه الهجرة ، فان الدول التي كانت تحكم المشرق بعيدة كل البعد عن العراق ، بحيث لم يكن في مقدورها أن تتعاون معه تعاوناً ناجحاً يعود بالفائدة على المشرق كله ، فانه حين انتهت الدولة الطاهرية التي كانت تحكم المشرق من نيسابور آل أمر المشرق الى دوتين : الدولة السامانية من ناحية والدولة الصفارية من ناحية أخرى •

أما الدولة السامانية فكانت تقوم في مجال بعيد هو اقليم ما وراء النهر ، وأما الدولة الصفارية فكانت في أول الأمر دولة ثغرية ، قامت في أقصى أرض المسلمين من ناحية ثغر الهند في اقليم سجستان ، وهو اقليم بعيد أيضا عن العراق ، وقد حاولت الدولة الصفارية أن تتلقى تراث الظاهريين وأن تتعاون مع الخلافة في حكم المشرق ، الا أن ظروف هذه الدولة حالت دون قيام هذا التعاون ، اذ أنها لم تنشأ في كنف الخلافة وفي طاعتها كما نشأ آل سامان ، وانما اصطدمت بارادة الخلافة وتحت سلطانها ، وحاولت ارغامها ، وبذلك انخرفت عن مهمتها الثغرية ، فانتهى أمرها الى الزوال ، وأصبح المشرق كله بيد آل سامان ، وكان مقر الخلافة ضعيفا لا يستطيع أن يقوم وحده بمؤونة المشرق ، فان الإدارة تحتاج الى أموال ، والأموال لا تجتمع كلها في العراق ، وانما تصرف كل ناحية من أموالها ، ولا تستطيع أن ترسل الى الخلافة الا قدرا ضئيلا ، فكان الحد الفاصل بين الاقليم الذي تديره الخلافة مباشرة ، وبين الاقليم الذي يديره آل سامان مباشرة ، هو الخط الذي ينزل من

مدينة الري نحو الجنوب شرقى بلاد فارس • عند هذا الخط نهاية دولتين ، هنا تبلغ قوة الخلافة أضعف حد ممكن ، وتبلغ قوة السامانيين أضعف حد ممكن •

وعلى هذا الخط الضعيف سارت الهجرة الديلمية ، فوجدت أمامها ظروفًا مواتية ، وخطًا ضعيفًا تستطيع أن تنفذ منه بسهولة ، وأن يكون قوة وسطا بين آل سامان وبين الخلافة ، ثم تطور أمر الهجرة بعد ذلك وخطت الدولة الديلمية خطوة جديدة نقلتها من دولة وسطى بين قوتين الى دولة تتعاون مع الخلافة وتدبر باسمها أمر العالم الاسلامى •

ولم تقف الخلافة مكتوفة اليدين أمام التقدم الديلمى ، فقد حاولت بكل وسيلة أن تمنع الهجرة الديلمية وأن تصد تيارها ، ولكن هذا التيار كان قويا بحيث اجتأح أمامه كل شيء • وأول محاولة قامت بها الخلافة لاييقاف هذا التيار هى تفويض آل سامان أمر المنطقة التى تخرج منها الهجرة ، فضمت هذه المنطقة مع اقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر الى السامانيين ، وقد أفادت هذه الطريقة بعض الشيء وأدت الى نتائج مؤقتة ، فقد نجح السامانيون فى تفويض أركان الدولة الطبرية العلوية بعد حكم الحسن بن زيد وأخيه محمد (١) ، وانقطعت سلسلة الأئمة الزيديين ابتداء من عام ٢٧ هـ الى أن قام الحسن الأطروش سنة ٣٠١ هـ • ولجأ زعماء العلويين فى أثناء هذه المحنة الى داخل بلاد الديلم وظلوا يواصلون الدعوة • وفى أثناء هذه الفترة استطاع آل سامان أن يتحالفوا مع زعماء الديلم ، فوقفت الهجرة مقابل أفعال دفعها السامانيون لهم • وتلك طريقة اتبعها كل ممالك العصور الوسطى مع المتبربرين ، الا أنها طريقة لا تزيد المتبربرين الا جشعا ، ولا تحل الموقف الا بصفة مؤقتة (٢) • فلم تلبث الهجرة الديلمية أن استؤنفت فى أوائل القرن الرابع الهجرى

(١) ابن الأثير : ج ٢ ، ص ١٧٩ •
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٨ — ٢٩ •

مرة أخرى ، وقوى تيارها نتيجة لكثرة دخول الديلم في الاسلام ، حتى ظهرت دولة ديلمية أخرى أخذت مكان الدولة السلوية ، وهي دولة الزيارية ، ونحتت لها مجالا جديدا في اقليم الجبل (١) • وهنا أيضا حاولت الخلافة بطريقة أخرى أن توقف تيار الهجرة ، فاتفقت مع مرداويج ابن زيار على أن تقره على ما في يده ، وعلى أن تمنحه التقليد بحكم هذه البلاد (٢) • وكان الغرض بطبيعة الحال أن تظل العلاقات سلمية بين مرداويج وبين الخلافة ، فلا يتعدى أحد الطرفين على الآخر ، وتقف بذلك الهجرة الديلمية • ولكن الظروف لم تساعد الخلافة على تنفيذ خطتها ، وذلك لأن تيارا جديدا قويا من تيارات الهجرة بدأ حوالى سنة ٣١٨ - ٣٢٠ هـ • فان مرداويج ما كاد يستقر في اقليمه وينال اعتراف الخلافة ، حتى قصده الديلم من كل ناحية ، وكثروا حتى ضاقت الأرض بهم ، وحتى كان يتدخل لتوزيعهم على النواحي المختلفة ، الى أن خرجت عليه طائفة من طوائف المهاجرين وهي التي كان يقودها على بن بويه •

فاذا ابتدأت الهجرة على يد على بن بويه ، اتجهت نحو الجنوب واستقرت في اقليم فارس ، وبهذا غمر العنصر الديلمي كل المنطقة التي تقع بين بحر الخزر وخليج العجم • وتتبع هذه المرحلة الأخيرة من مراحل الهجرة ، ولنسمها بالمرحلة البويهية على أساس أن المرحلة الأولى كانت مرحلة طبرية علوية زيدية ، وأن المرحلة الثانية كانت مرحلة زيارية •

كان على بن بويه قائدا صغيرا من قواد زعيم ديلمى هو « ماكان بن كالى » وكان « ماكان » هو ومرداويج وغيرهما من القواد الذين استخدمتهم الدولة الطبرية ومن يتبعونهم من الرجال ، فتبعية الجند في هذا النظام لم تكن للدولة ولا لشخص الامام ، ولكن للقائد الذى يضمن لهم أرزاقهم • وكانت العادة أن ينتقل هؤلاء الأجناد من خدمة

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٧ •

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٧٨ •

رئيس الى خدمة آخر بحسب الظروف الاقتصادية وبحسب كثرة الغنائم وقتلتها . فلما ضعف « ما كان » أمام مرداويج وعجز نوعا ما عن ضمان الأرزاق للجند تفرق عنه كثير من أصحابه ، وكان ممن تفرق عنه « على ابن بويه » بجماعته ، ولجأ الى مرداويج برغم العداء الذي كان بين هذا وبين « ما كان » فكان على بن بويه كان كالمستأمن لمرداويج ، فولاه مرداويج ولاية صغيرة في أقصى الجنوب من ممتلكاته هي ولاية الكرج^(١) الواقعة بين همدان وأصبهان ، ومن هذه النقطة ابتدأت الهجرة البويهية .

الظروف التي ابتدأت فيها الهجرة البويهية :

كان مرداويج حريصا على أن يوزع المهاجرين توزيعا يضمن به طاعتهم ، فكان إذا ولاهم لم يبقهم في ولاياتهم مدة طويلة ، وكان إذا رأى لديهم مالا كثيرا خصص بعض هذا الدخل لجند جدد ، وكان لا يولى واليا الا بعد أن يدير الأمر في فكره مرات ومرات ، فلما ولى عليا بن بويه الكرج عاد فوقع تحت وطأة التردد ، فأمر بأن يحال بينه وبين الوصول الى الكرج ، لولا مصادفة وقعت حالت دون تنفيذ هذا الأمر ، تلك المصادفة هي أن عليا حين مر بمدينة الري أتيح له أن يكرم الوزير أبا عبد الله الحسين بن محمد الملقب بابن العميد والد أبي الفضل ابن العميد الذي صار فيما بعد وزيرا لركن الدولة بن بويه — فسهل له هذا الوصول الى ولايته^(٢) . ثم حاول مرداويج بعد هذا أن يضعف والي الكرج بعض الشيء ، فأرسل اليه جنودا من المهاجرين يتقاضون أرزاقهم من دخل الولاية ، لكن عليا استفاد من هذا ، فانه لم يكن طالب مال وانما كان طالب رجال ، ولما كان قد تعود أن يعطى كل ما يغنمه للأجناد ، فانه أكرم الوافدين عليه حتى صاروا تبعاء له^(٣) . وهنا حاول مرداويج أن يستقدمهم جميعا اليه ويحولهم الى مكان آخر ، فخلف هؤلاء الأجناد على أنفسهم ، وأيقنوا أن الأمور قد تخرجت بينهم وبين

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ .

(٢) مسكويه : ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٢ .

مرداويج • ثم ان مثل هؤلاء الأجناد لم يكونوا ليعملوا عملا الا اذا اتفق مع صوالجهم ، ولم يكن شأن الرعية المستقرة التي تطيع اذا أمرت ، وهنا بدأ النزاع بين الزيارية وبين أتباع علي بن بويه •

وكانت خطة علي أن يفر الى مكان لا تصل فيه اليه يد مرداويج ، وأن يدخل في طاعة الخلافة ليكون من خدامها بدلا من أن يخدم مرداويج • فلهجرة اذن هجرة جند ينتقلون من خدمة سيد الى خدمة سيد آخر • لكن مثل هذا التنقل لم يكن ينظر اليه بعين الارتياح دائما من الولاة والملك والخلفاء • فلما علم أن مرداويج يقصده استعداد وخرج من الكرج الى أصفهان ، وأراد واليها وهو محمد بن ياقوت المظفر أن يمنعه ، ف وقعت بين الطرفين وقعة بظاهر أصفهان عام ٣٢١ هـ انتصر فيها علي بن بويه على والي أصفهان ، وكان سبب النصر أن جماعة من الديلم يبلغون فيما يقول ابن الأثير ستمائة — انضموا أثناء المعركة الى بنى جنسهم أتباع علي بن بويه ، و وقعت المدينة في يد هؤلاء المهاجرين (١) • وأخذ مرداويج يستعد لخراجهم ، ولم يكن علي ليقبى في أصفهان ؟ لأن بقاءه فيها يجعله قريبا من مرداويج من ناحية ويسخط الخلافة من ناحية أخرى ، لأنها كانت حريصة على موقع أصفهان • فها كاد علي يعلم باستعداد مرداويج حتى سار نحو الجنوب حتى بلغ مدينة « أرجان » التي تقع في منتصف المسافة بين أصفهان وشيراز ، فاستولى عليها بغير قتال لأن صاحبها لم يأمن من نفسه قوة للوقوف أمام جيش هزم والي أصفهان ، فانسحب نحو الجنوب ليستطيع الانضمام الى غيره وليستطيع بعد ذلك محاربة بنى بويه •

بقى علي بن بويه في أرجان مدة كما بقى من قبل في أصفهان ، ويقصد بذلك اراحة جنده وجمع بعض المال من الناس • حتى اذا اشتد عليه الطلب من قبل مرداويج استمر في انسحابه مع جماعته نحو الجنوب ، ووصل الى مدينة « النوبندجان » وهي مدينة كبيرة تقع في منتصف

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ٩٣ •

المسافة بين أرجان وشيراز . وكان على بن بويه فى كل مرة يقطع نصف المسافة بينه وبين هدفه . ولم يأنس صاحب النوبندجان قوة من نفسه لمقاومة على ، وكان أيضا مغاضبا لآل ياقوت ملاك هذه المدينة والذين يملكون فارس أيضا ، فلم يتحمس للقتال ، ولما قدمت من شيراز طلائع جيش من جيوش آل ياقوت المظفر لصدد بنى بويه لم يتعاون والى النوبندجان مع هذه الطلائع فانهزمت ، ودخل على بن بويه «النوبندجان» دون قتال كبير ، فكأنه قد وصل من الكرج الى النوبندجان دون أن يحارب الا مرة واحدة فى معركة كبيرة ، فقد كان على يقتصد فى خوض المعارك ما أمكن ، وهذا يعطينا صورة عن رجل سياسى يستعمل الحكمة أكثر مما يستعمل السيف ، فمع كونه قائدا نم يكن يتعجل القتال ، وكان يفضل التريث والسياسة .

بدأ على بن بويه بعد استيلائه على النوبندجان يستعد للزحف على شيراز هدفه الأخير ، ففرق جيوشه ليعزلها ، وأرسل جيشا نحو مدينة « كازرون » وتقع غربى شيراز ، والمراد بارسال هذا الجيش هو قطع شيراز عن المنطقة الغربية ، وكذلك أرسل جيشا آخر نحو مدينة « اصطخر » ليقطع شيراز عن المنطقة الشرقية . فلما عادت اليه قواته خلافة تقدم نحو شيراز ، وتقدم جيش هذه المدينة نحوه فالتقوا عند قنطرة شيراز ، ووقعت بينهم معركة كبيرة ، اسمها موقعة القنطرة عام ٣٢٢ هـ ، وكانت من المواقع التى استعد لها الطرفان ، وكانت من غير شك تفوق الاستعدادات التى أعدت لمعركة أصبهان ، وكان القتال حاميا بين الطرفين ، وقد استعمل الجيش الشيرازى النفط — وكانت الجيوش القديمة تجعل فيها فرقة من النفاطين — غير أن الريح انقلبت وقت استعمال النفط فأضرت بالجيش الشيرازى نفسه فانهزم ، وانسحبت شيراز فاستقر بها على بن بويه ، واتخذها قاعدة له . وحين انتصر على جيش ياقوت أحسن الى من وقع فى يديه من الأسرى وأكرمهم اكراما حملهم على الانضمام اليه ، فلم يقبلوا الرجوع الى آل ياقوت حين خيرهم

على بين البقاء معه أو اللحق بياقوت • وهكذا حقق على بن بويه هدفه الأخير ، وفي نفس الوقت كثرت جموعه وزادت قوته (١) •

فنحن أمام هجرة استمرت سنتين ، وأمام شعب جديد كان في الشمال فنزح الى الجنوب ، ولم يفتح البلاد التي أمامه فتحا وانما مر بها مروراً دون أن يترك بها حامية ، ودون أن يخضعها لنفسه خضوعاً تاماً ، حتى بلغ المهاجرون مكاناً أحسوا فيه بالأمن وهو مدينة شيراز ، فاستقروا فيه واتخذوه قاعدة ، وكان اختيارهم لهذه القاعدة اختياراً ينم عن نظرة سياسية وحرية سليمة •

لم يحاول بعد ذلك أن يتوسع بسرعة ، وهو لم يحاول طول حياته أن توصف أعماله بالتوسع ، بل كان دائماً يؤثر التؤدة ، ولا يخطو خطوة إلا بعد أن تمهد لها الظروف والملايسات ، فبعد استقرار بشيراز بعد أن استولى عليها سنة ٣٢٢ هـ ، ولم يتجه نظره الى ما وراءها إلا عام ٣٢٤ هـ اذ اتجه الى بلد بعيد عن الخلافة ، وعن السامانيين حكام المشرق ، وعن الزياريين • وهو اقليم كرمان الواقع وراء اقليم فارس من ناحية الشرق • ثم تهيأت له ظروف لكي يتدخل في أمر الأهواز عام ٣٢٦ هـ ، فوجه اليها جيوشه وملكها ، ثم اتجهت جهوده نحو الشمال نحو أملاك الدولة الزيارية فأرسل أخاه الحسن لكي يحتل البلاد التي كانت تحت يد مرداويج بن زيار ، ولم تتعجل جيوش الحسن الحوادث بل ظلت تنتهز الفرص الى أن أخذت أقاليم الجبل شيئاً فشيئاً ، والى أن وضعت أملاك الزياريين تحت سلطانها على أساس الحلف بين الطرفين • أما العراق فلم يحاول على بن بويه أن يوجه اليه أحداً الا حين اقتنع أهل العراق أن لاخلص لهم الا على يد بني بويه ، فعلى بن بويه قد أطل على العراق منذ استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ هـ ، ولكنه مع ذلك لم يضع قدمه في العراق الا عام ٣٣٤ هـ ، بعد استقراره في الأهواز بشمالي

(١) عن تحركات على بن بويه السابقة ، انظر : ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٩١-٩٥ ، مسكويه ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ، ٢٩٧-٢٩٨ .

سنوات ، وهي فترة طويلة بالنسبة لدولة فتية تلك كثيرا من الجند ، ولو كان على بن بويه شخصية متعجلة كشخصية بجكم أو كابن رائق أو كشخصية قوزون ، لأعجله طمعه فأقحمه في أمور العراق قبل أن تنتهى الظروف ، فقد كانت امرة الأمراء هي المنصب الكبير الذي يلي منصب الخلافة مباشرة من حيث القواعد الرسمية ، ولكن شخصية أمير الأمراء هي الأولى من حيث الواقع ، وكان المنصب يحمل اغراء شديدا لكل شخصية طموحة ، ولكن عليا بن بويه كان يغلب الأناة الحكيمة على تهور الطموح . فالفترة من وقعة شيراز عام ٣٢٢ هـ الى دخول البويهيين في العراق عام ٣٣٤ هـ يمكن أن نقسمها الى قسمين : - القسم الأول : من عام ٣٢٢ هـ الى استيلاء علي بن بويه على الأهواز عام ٣٢٦ هـ ، وكانت مهمة علي في هذه الفترة ، كما يبدو من تصرفاته ومن سياق الأخبار أن يدعم قاعدته في شيراز ويكون له ولأسرته ملكا موطدا . والقسم الثاني ويشمل الثماني سنوات الباقية ، وقد ظلت فيه عين بني بويه ترتجب أمور العراق ، وظل أهل العراق أنفسهم يتطلعون الى هذه القوة الفتية لكي تنقذهم من أطماع الشخصيات الطنطانية القافهة والتي عقت جهودها جميعا ، لأنها كانت تتحرك بدافع من الطمع ومن المصلحة الشخصية .

تدعيم الملك البويهي :

في أول هذه الفترة ، حاول علي بن بويه أن ينظم الأمور المالية ، فاستطاع بحزمه أن يستولي على كنوز آل ياقوت الذين كانوا يحكمون شيراز ، ونجح في تدبير الأمور المالية تديرا حسنا ، وهنا تتكرر القصة التي تروى عقب قيام الأمراء الحازمين عادة ، وهي أن عليا بن بويه وجد مالا مخبوءا وقع عليه صدفة ، فكان هذا سببا لانتظام أحواله المالية ، ويقال أنه لولا هذا المال المخفي الذي وجدته لوقع في أزمة شنيعة لأن الجند الديلمي لا يصبر على قلة المال (١) .

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٥ .

ثم أخذ على بعد ذلك يعمل على أن يأمن جانب جيرانه ، فكان عليه أن يأمن جانب مرداويج الذي كان يلاحقه منذ خرج من الكرج الى أن استقر في شيراز • وكان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه تغلب على ما تغلب عليه برغم ارادتها • وإذا كان قد تغلب على طرف من الأطراف فإن أول واجب عليه أن ينال من الخلافة تقليدا يقر الأمر الواقع ، ولذلك سارع على بن بويه فطلب من الخلافة التقليد على أن يدفع ألف ألف درهم ، ولما كانت ظروف الخلافة سيئة وحاجتها الى المال شديدة ، فقد أرسلت اليه التقليد بسهولة ، وخرج من بغداد رسول يحمل التقليد والخلع واللواء ، فتسلم على من الرسول ما معه ولم يعطه المال ، وقالوا انه احتال على الرسول حتى أخذ منه التقليد والخلع واللواء قبل أن يعطيه المال ، واستبقاه حتى مات عنده (١) • والمهم أن عليا أصبح بهذا التقليد واليا شرعيا ، وأمن بذلك جانب الخليفة ، وأمن من ناحية أخرى آل ياقوت الذين كانوا يتحفظون للوثوب على ما اغتصبه منهم • وفي نفس الوقت اتفق مع مرداويج بن زيار ، فان مرداويج قد حشد قواته لمتبعه ، فلما وصلت الى أصفهان دون أن تدرك بنى بويه أمرها مرداويج بعد أن أمدّها بمدد جديد ، أن تتجه صوب الجنوب وراء بنى بويه ، واتجهت تلك القوات نحو الجنوب فعلا بعد أن قسمت نفسها قسمين لتحصر بينها عليا بن بويه ، لكن مرداويج كان صاحب تقليد من الخليفة ، وكان هذا التقليد يتضمن تحديدا لممتلكاته ، فهو عندما بعث جيوشه نحو الجنوب كان متجاوزا لحدود التقليد ، وكان معرضا نفسه لأن يتحول من الولاية المتقلدين الى العصاة الذين يريدون التغلب ، ولهذا بعث اليه الخليفة بمجرد سيرجنوده نحو الجنوب يطلب اليه الرجوع الى الحدود المرسومة في التقليد ، وسيراليه جيشا عليه ياقوت ليرده ، فكان مرداويج معرضا اذن لسخط الخليفة والوقوع في حروب مع جنده ، فانتهاز على بن بويه هذه الفرصة وعرض عليه مرونة سياسية أن يدخل في طاعته وأن يكون ما بيده بلادا تابعة لمرداويج يخطب له فيها •

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٩٥ .

ولم يكن على بهذا العرض متنازلا عن حقيقة سلطانه ، لأنه يملك من القوات ما يستطيع به أن ينازل مرداويج ، ثم انه كان يعلم أن مرداويج لو عاد الى حدود تقليده أصبح مفصولا عنه بأقاليم تخضع للخلافة ، وأصبح محتاجا من ناحية أخرى الى أن يتكلف نفقات أخرى لتجريد جيش آخر . فرحب مرداويج بهذا العرض واسترهن عليا بن بويه أخاه الحسن فسلمه اليه على ليكون رهينة عنده على الوفاء (١) . وبهذين العهدين : العهد الذي اعطاه الخليفة ، والعهد الذي ربط بين علي ومرداويج ، أمن على على حدوده وأصبح مركزه قويا ، وقصده الرجال من كل ناحية . ويشير ابن الأثير الى تتابع هذه الأحداث في فترة وجيزة لا تتجاوز سبعين يوما وبعدها من الاتفاقات العجيبة التي أفادت عليا ابن بويه (٢) .

في هذه الفترة خلع الخليفة القاهر وتولى بعده الخليفة الراضي . وشغل آل ياقوت بأحداث الخلافة عن ملاحقة علي بن بويه الذي اغتصب منهم أقاليمهم ، ثم ان مرداويج بعد أن اتفق مع علي بن بويه عاد فأخلى أصبهان لأن الخلافة طلبت منه ذلك ، ثم لم يلبث أن قتل في سنة ٣٢٣ هـ على يد بعض الأتراك الذين تأمروا عليه . وقد كان في جيشه الديلمى بعض الترك ، والترك والفرس أعداء يتعصب بعضهم على بعض في كل مناسبة ، وفي مرة من المرات أهان مرداويج الترك وأراد اذلالهم ، فتآمروا عليه فقتلوه ، وكان بين المتآمرين توزون وبجكم اللذان ذكرا أمرهما في الحديث عن امرة الأمراء . وكان من نتيجة ذلك أن هرب الحسن بن بويه الذي كان رهينة عند مرداويج (٣) . وكان من نتيجة ذلك أيضا أن تفرق كثير من جند الديلم واتجهوا مهاجرين نحو الجنوب وانضم فريق منهم الى بنى بويه .

(١) مسكويه : ج ١ ، ص ٣٠٢ . ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٩ .
(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٩٩ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٠٣ — ١٠٥ . ابن خلكان : ج ١ ، ص ٣٦٤ .

شغل وشمكير أخو مرداويج الذى تولى بعده ، وشغلت الخلافة كل منهما بأمر نفسه عن على بن بويه . ووجد فراغ بين ملك مرداويج وبين ملك بنى بويه ، هذا الفراغ هو اقليم الأهواز واطليم الجبل . فلما أفاق رجال الخلافة وقوادها وأرادوا الاستيلاء على الأهواز ، تولى أمر ذلك من قبل الخلافة ياقوت نفسه ، وهو الذى أضاع هذا الاقليم وانهزم أمام على بن بويه ، فلما قدم جيش ياقوت نحو الأهواز خشى على بن بويه أن يغتر ياقوت بمن معه من القوات ، وأن يدفعه طمعه الى التقدم نحو فارس ، فجند جيشا وأرسله لملاقاة ياقوت ، والتقى الجيشان عند أرجان سنة ٣٢٣ ، وفى هذه الموقعة انهزم ياقوت هزيمة حاسمة أضاعت اسمه وقضت على مستقبله الحربى . وانما انهزم ياقوت هنا لأن كاتبه وهو الذى كان يلى ضمان الأهواز فى نفس الوقت (وهو عبد الله البريدى الذى ذكرناه فى فصل امرة الأمراء) لم يتعاون معه ، وكان فى الواقع يعمل للتخلص منه والوثوب على ولايته ، فكان ذلك فى صالح على بن بويه (١) . ولكن عليا لم يرد أن يتعجل ويستولى على الأهواز . بل اكتفى بتحطيم قوة ياقوت وعاد ثانية الى شيراز ، وبذلك دعم ملكه فى اقليم فارس . ونريد أن نحدد بعد هذا موقف على ابن بويه ، وموقف اقليم فارس من باقى الأقاليم الاسلامية المجاورة له .

أصبح على بن بويه « طرفدار » مستوليا على هذا الاقليم بالتغلب ، وهو وان كان زيدى المذهب ، فإنه لا يتصل بالامامة الزيدية التى كان مذهبها يفرض عليه أن يتبعها ، لأن المهاجرين من الديلم حين بعدوا عن بلادهم الأولى ، وحين بعدوا عن أئمتهم الزيديين الذين ضعف أمرهم ، تحرروا من فكرة الامامة وتصرفوا كيف استطاعوا ، وأباحوا لأنفسهم أشياء لم يكن المذهب يبيحها ، أهمها الاستغناء عن امامه تسيعية أيا كانت ، والاعتراف بالخلافة العباسية . ولم يكن على بن بويه هو الذى استحدث هذا الوضع الجديد ، وانما سبقه الى السير على هذا مولاة مرداويج

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ٩٩ .

ابن زيار ، وسار على ذلك قبل مرداويج « أسفار بن شيرويه » • وعلى هذا تكون العلاقة بين علي بن بويه وبين الزيدية علاقة روحية ليس غير ، وهي علاقة روحية قوية لأن أنصار الزيدية في الشمال من نفس أجناد علي بن بويه ، ولم يكن من المنتظر أن يوجد عدااء بين الطرفين •

أما موقف اقليم فارس من الزياريين فقد حددته الاتفاق الذي أشرنا اليه بين علي ومرداويج ، الا أنه كان اتفاقا لا يمكن تنفيذه لأن « الطرفدار » الجديد لم يكن أقل قوة من الطرفدار القديم ، وقد كانت بينهما مسافة خاضعة للخلافة تفصل بين أراضي السيد والتابع • وقد قتل مرداويج وكان أخوه وشمكير أقل منه قدرة ، وكان — على أي حال — يواجه صعوبات سياسية تحول بينه وبين جعل « التبعية المتفق عليها حقيقة عملية (١) » • ولو أراد فعلا تنفيذ التبعية لما استطاع بسبب قوة علي بن بويه ، فالفريقان متساويان في كل شيء ، وليس لدى ابن بويه ما يجعله يلين في معاملة الزياريين كما كان يمكن أن يلين لو كان تعامله مع أئمة الزيدية ، فالزياريون في نظر علي بن بويه ينقصون عن الامامة الزيدية شيئا هاما هو الهيبة الروحية •

أما علاقة علي بن بويه والخلافة فقد تحددت بمقتضى التقليد الذي أرسله الخليفة ، وهو تقليد قضت به الظروف ، وقد حاولت الخلافة أن تسترجع هيبتها ففتطاولت جيوشها على مشارف فارس ، فكانت واقعة أرجان سنة ٣٢٣ هـ ، وفيها ردت جيوش الخلافة وتأكد قيام علي ابن بويه بحق التغلب أو حق الاستيلاء ، وسنرى أن أمور الخلافة كانت الى نزول واضطراب ، بحيث لم يجد الناس في العراق وسيلة للإصلاح الا باستدعاء بني بويه والترحيب بهم ، ليكونوا أصحاب الأمر في هذا الاقليم الذي هو اقليم الخلافة الأول •

أما علاقة علي بن بويه بجيرانه الشرقيين وهم آل سامان وعاصمتهم

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٠٥ ، ١١٤ •

بخارى أو سمرقند بحسب العصور . فان السامانيين كانوا طرفا بعيدا وكافت دولتهم تقوم بدور خاص فى حياة العالم الاسلامى وهو دور الدفاع عن الثغور ، وكان قيامها بهذا الدور يجعل لها مكانة خاصة ، ويدر عليها أسباب العمران والرواج الاقتصادى ، كما يدر عليها عطف كل المسلمين ، لقيامها عن هذا العالم كله بواجب مقدس ، ولذلك لم تكن الدولة السامانية تستطيع أن تنحرف انحرافا كبيرا عن مهمتها الثغرية ، ولم تكن تتدخل فى أمور المنطقة الوسطى من العالم الاسلامى ، فان مشاكل هذه المنطقة معقدة مستمرة بحيث كان واجب السامانيين أن يتحاشوا الدخول فيها ، وحسبهم أن يقوموا بأمر ثغرهم لينالوا ثناء العالم الاسلامى بدوله المختلفة . وكانت فارس التى استقر فيها على ابن بويه فى ناحية أخرى خارجة عن المنطقة التابعة لآل سامان ، وكانت آخر منطقة من المناطق الخاضعة للخلافة فى الشرق ، فكانت الخلافة هى صاحبة المشكلة ، وكان فى وسع الخلافة أن تستعين بالسامانيين ، الا أنها انما تطلب من أمثال هؤلاء الولاة الشئ الممكن والشئ الذى تتحقق به مصالح العالم الاسلامى . ولهذا لم يتدخل السامانيون وتركوا الأمور على ما هى عليه وأصبحوا مقرين للأمر الواقع .

والنتيجة من كل ما سبق أن عليا بن بويه صار متمكنا من اقليمه معترفا به من الجميع غير متوقع لهجوم عليه ، وقد اختار مكانا ممتازا بعيدا عن مراكز القوى الاسلامية المختلفة ، وأصبح فى امكانه أن يوسع قاعدته وأن يجعل من اقليم فارس مركزا لدولة أكبر ، تجمع الى اقليم فارس كل الأقاليم ذات العصبية الايرانية التى يمكن أن تنضم الى هذا المركز الجديد .

وأول بلد أراد على بن بويه ضمه هو اقليم كرمان ، فأرسل اليه جيشا بقيادة أخيه الأصغر أحمد ظهرت شجاعته فى موقعة القنطرة (١) . وفتح هذا الاقليم كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لفارس ، فاقليم فارس

محدود من الشمال باقليم الأهواز ، ومن الغرب والجنوب بالبحر ، أما من الشرق فهو محدود بكرمان في قسمه الجنوبي وبالصحراء في قسمه الشمالي ، فهو بطبيعة هذه الحدود يتعرض للغزو من ناحية كرمان أو من ناحية الأهواز، فلا شك أن نية البويهيين عندما بعثوا الجيوش الى كرمان كانت تهدف الى تأمين ظهر اقليم فارس . وكان اقليم كرمان اقليما سهل الفتح ، وان كان تابعا للدولة السامانية ، فهو أولا بعيد عنها شيئا ما ، وهو غير متصل بها الا بممر من السهل حراسته عند مدينتي اسيرجان وليم ، ثم ان هذا الاقليم محدودا من الشمال بالصحراء ، ومن الشمال الشرقي بالممر المذكور ، ومن الشرق بجبال وعرة ينزلها شعب ايراني متبربر هو شعب القفص والبلوص ، والحد الجنوبي هو البحر ، أما الحد الغربي فهو اقليم فارس (١) . ومدخل كرمان من ناحية فارس مدخل سهل ، اذا دخلت منه جيوش غازية ضيقت على الجيوش الموجودة فيه وأخذت عليها مسالكها ، واذا آوت هذه الجيوش المدافعة فانما تأوى اما الى الجبال ، واما الى الممر للإلتجاء الى أملاك الدولة السامانية . وهذا ما وقع فعلا عندما دخلت جيوش أحمد بن بويه سنة ٢٢٤ هـ ، فلم تجد عناء كبيرا في الاستيلاء على البلاد ، وخرج والى كرمان فارا بجنده من الممر . ونزل رؤساء القفص والبلوص ليؤدوا الى المتغلب الجديد ما اعتادوا من الاعتراف بالطاعة ، وكان هذا الشعب يعيش عيشته الخاصة مستقلا لا يتعرض له ولاية كرمان ولا يتعرضون هم لهم ، واستمروا على ذلك أجيالا طويلة . فلما دخل أحمد بن بويه ، وكان شابا متهورا ، غدر بالقفص والبلوص وأراد اقتحام بلادهم بالقوة فدخل الجبال معتزا بقوة جنده ، ولكن أهل الجبال عادة ذوو حرص وحذر فعلموا بمسيره ووضعوا له كمينا فاجأوه به على حين غرة ، فقتل معظم رجاله وأصيب هو بضربة قطعت يده اليسرى من الساعد وبعض أصابع يده اليمنى ، وأشفى على الموت لولا أن عالجته زعيم القفص والبلوص وأوصله مأمنه واعتذر لأخيه . الا أن أحمد عاد بعد شفائه الى هذه البلاد ، ونكل بأهلها فشكوا الى أخيه

(١) أنظر ياقوت : معجم البلدان : ج ١٦ ، ص ٤٥٤ (طبعة بيروت) .

الذى رأى أن الأمر قد يخرج فاستدعى أخاه ، وولى غيره من اتباعه من يستطيع أن يجرى فى سياسة هذا الاقليم على الوضع الثقليدى (١) . وفى هذه الحملة برزت صفات أحمد بن بويه : فهو فارس معتد بقوته ، أحق يتعجل فى الالتجاء الى القوة ، غير بصير بفضل السياسة لمن يملك فى نفس الوقت القوة . وسنراه يسلك نفس هذا السلوك فى كل مكان يصل اليه .

بعد أن أمن على بن بويه ظهره من ناحية الشرق بالاستيلاء على كرمان ، كان عليه أن يؤمن جبهته من الناحية الشمالية ، من ناحية الأهواز والأهواز اقليم هام جدا بالنسبة للعراق وبالنسبة لفارس ، ولم تكن أهميته تخفى على بنى بويه ، فان الذى يملك الأهواز ويستكمل قوته يستطيع أن يسد كل طريق على القوات المقيمة بفارس . فوجود سلطة قوية بالأهواز كان معناه سد الطريق على بنى بويه وحصرهم فى مجال ضيق ، وقصر نشاطهم بالتالى على هذا المجال الاقليمى وحده ، فان كان لبنى بويه طموح بالأهواز هى باب هذا الطموح ، فهى التى تصلهم بالشمال ببلادهم الأولى ، وهى التى تصلهم أيضا بالعراق . وهى من الناحية الاستراتيجية دهليز العراق كما هى دهليز فارس ، ومن أجل ذلك قرروا الاستيلاء على هذا الاقليم الهام .

وقد وانتهم الفرصة حين لجأ اليهم البريدى هارا من وجه قوات الخلافة بعد أن خان سيده ياقوت — كما أوضحنا ذلك فى حديثنا فى فصل امرة الأمراء — فأغراهم بامداده ببعض الجند لاعادته الى الأهواز ، وحين قرر البويهيون امداد البريدى بالجند كانوا يخفون نواياهم الحقيقية ، وكانوا يطمعون فى الاستيلاء على الأهواز استيلاء تاما . ولما لم يكونوا يثقون فى البريدى فقد استرهنوه اثنين من أبنائه ، وتقدم جيش بويهى يقوده أحمد بن بويه ذلك الفارس العنيف ، واستطاع هذا الجيش متعاوناً مع قوات البريدى فتح الأهواز دون عناء كبير .

(١) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

لكن أحمد بن بويه والبزیدی لم يتفقا ، وذلك لأن البریدی كان يتوهم أن بنی بويه يساعده ثم يرجعون مكتفين بأن يخطب البریدی باسمهم ، وبالنسبة الاسمية لهم ، لكنه رأى جنود أحمد مستقرة في البلاد لا تريد الخروج عنها ، والسبب الثاني هو أن جنود أحمد كانوا من الديلم وجنود البریدی كانوا من الترك وكانوا أقلية ، والشعبان متباغضان ، فوقع التشاحن بين الطرفين ، وانتهزت الدولة في بغداد فرصة هذا التشاحن فأرسلت قواتها بقيادة « بجكم » لاسترداد الأهواز ، ووقف هذا عند حدود الأهواز القريبة من العراق منتهزا الفرصة للتدخل ، وأحسن أحمد ابن بويه بتخرج الموقف فأرسل إلى أخيه ، فأمدّه بجيش تمكن به من طرد البریدی من الأهواز فتراجع إلى البصرة ، كما اضطرت قوات الخلافة إلى التراجع ، وأصبحت الأهواز بهذا في يد بنی بويه (١) .

وقعت الأهواز في يد بنی بويه وقوعا سهلا ، لأنهم انما دخلوها بإرشاد رجل عاش فيها وعرف أهلها وأطمعهم في كثير من المغنم اذا عاد ، فكان دخولهم الأهواز أمرا سهلا . وبهذا تم لبنی بويه توسيع قاعدتهم توسيعا ملاما لما يضطرب في نفوسهم من آمال ، فهم قد ملكوا قطعة من الأرض كبيرة ، وملكوا مفتاح التوسع نحو الشمال ونحو العراق ، وأصبحت حدودهم ترتكز من ناحية على الجبال الواقعة شرق كرمان ، وعلى الصحراء التي تتوسط بلاد إيران ، وعلى الحدود الحصينة بطبيعتها التي تفصل بين إقليم الأهواز والجبل ، وأصبح نزولهم من الأهواز إلى العراق أمرا ميسورا . ولم يكن على بن بويه يتعجل النزول إلى العراق ، وانما ظل البويهيون يرقبون أحداث العراق حتى استدعوا إليه فدخلوه .

كانت الحالة في العراق مضطربة أشد الاضطراب في الوقت الذي أخذت فيه الهجرة البويهية تتجه إلى الجنوب ، وكانت الخلافة واقعة

(١) نشور المصدر : ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢٣٣ — المصدر المباشر)

تحت نفوذ القواد الأتراك ، وكانت الأمور المالية مختلة أشد الاختلال ،
وخزائن الخلافة خالية ، والخلفاء يقعون فى ضائقات كبيرة نتيجة لتحكم
الأتراك وجشعهم ، كما كان الجند يلتفون حول قوادهم الذين يحققون لهم
المصالح المادية ، وليس للخلافة فى واقع الأمر سلطة على هؤلاء الأجناد .
ونتيجة لهذه الظروف الاقتصادية والعسكرية استدعى الخليفة الراضى
والى واسط محمد بن رائق وقلده منصبا جديدا هو منصب أمير الأمراء .
وكان الخليفة يرمى من وراء ذلك الى حل مشكلة الخلافة المستعصية
فى العراق ، والتخلص من ربة التسلط على شخصيات الخلفاء لمباشرتهم
السلطة بأنفسهم وتعرضهم لمطالبها مع عجزهم المالى لاستقلال معظم
الأطراف ، وعجزهم العسكرى لعدم خضوع الجيش للخلافة ، هذا
الجيش الذى أصبح ولاؤه لقواده ولمصالحه .

لكل امرة الأمراء عجزت عن اقرار الأمور فى العراق ، وعجزت
عن حل المشكلة التى كانت تواجه الخلافة نتيجة لوقوعها فى نفس الموقف
الذى كان قبلها . وهو تنازع القواد ، وتحزبات الأجناد ، كما رأينا ذلك
تفصيلا فى فصل امرة الأمراء .

وفى هذا الوقت كانت الهجرة البويهية قد استقرت فى فارس ،
وأقامت الأسرة البويهية لها ملكا موحدا — كما رأينا — وأصبحت من
موقعها تطل على العراق وترقب ظروفه ، وكان الناس فى العراق ، وقد
أحسوا بفشل أمراء الأمراء ، يتطلعون الى هذه القوة الجديدة التى ظهرت
قريبا منهم ، وأثبتت كفايتها وجدارتها . فكاتب القواد فى بغداد أحمد بن
بويه الذى كان يحكم اقليم الأهواز منذ فتحها سنة ٣٢٦ هـ ، وطلبوا
اليه المسير اليهم والاستيلاء على هذه المدينة ، ونلاحظ أن حزب الديلم
فى بغداد هو الذى كان بيده الأمر بعد أن تغلب توزون على امرة الأمراء ،
ثم خلفه ابن شير زاد .

وتقدم أحمد بن بويه الى بغداد ، فخرج الأتراك عنها ، واستقبله

الخليفة المستكنى واحتفى به ، وخلع عليه ، ولقبه « معز الدولة » ولقب أخاه عليا « عماد الدولة » وأخاه الحسن « ركن الدولة » وأمر أن تضرب ألقابهم وكنياهم على الدينار والدراهم (١) . وبدخول أحمد بن بويه وتوليته امرة الأمراء في بغداد سنة ٣٣٤ هـ ابتدأ العصر البويهى الذى استمر حتى سنة ٤٤٧ هـ .

العلاقة بين بنى بويه والخلافة :

خلفاء العصر البويهى هم : المستكنى وقد خلع فى نفس السنة لانعدام الثقة بينه وبين أحمد بن بويه (٢) . والمطيع وقد حكم ٢٩ سنة (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) والطائع وقد حكم ١٨ سنة (٢٦٣ — ٣٨١ هـ) . والقادر وحكم ٤١ سنة (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) . ثم القادر وقد حضر نهاية العصر البويهى وابتداء العصر السلجوقى .

لم يتغير الخلفاء فى هذا العصر بسرعة كما كانوا يغيرون ويخلعون بعد بضع سنين فى العصور السابقة ، ومعنى هذا أن الخلافة تعرضت مرات أقل لمهزلة الانتخاب الذى كان شكليا ، والذى لم يكن يشرف أى خليفة يقع عليه الانتخاب . ونلاحظ فى العصر البويهى شيئا من الاستقرار ، فالخلفاء ، يحكمون عشرات السنين دون أن يتعرض لهم أحد من ذوى السلطان . ومرد ذلك الى أن امرة الأمراء فى العصر البويهى كانت تتحمل كل المسؤولية ، على حين بقى الخليفة رمزا لا يتولى من حقيقة السلطان شيئا قابلا لأن ينازعه أحد عليه ، فالخليفة لم يكن مسئولا قط عن الخزائن ، ولا عن الادارة المالية ، ولا عن الجند ولا عن السياسة ، وانما هو الذى يستطيع أن يعطى كل تصرفات البويهيين المالية والعسكرية والسياسية صفتها الشرعية . فالاستقرار اذن كان ناشئا عن وقوف الخلافة موقفا سلبيا ، مع أن الناس تعودوا أن يجدوا شخصية الخليفة ايجابية فعالة . وهذا التحول الذى صارت اليه الخلافة هو الذى أحزن كثيرا من الناس

(١) الاثير : ج ٨ ، ص ١٦١ .
(٢) انظر نفس المصدر والصفحة وفى سبب خلع المستكنى .

مدفوعين الى ذلك بدافعين : الأول ديني ، وهو النظر الى شخص الخليفة باعتباره من آل البيت الذين يحصلون تراث النبوة ، والثاني قانوني فقهي ، وهو أن الخليفة رأس الدولة وصاحب الحق في كل التصرف ، وفي الجماعات دائما طوائف من الناس تميل الى تأييد الوجهة الشرعية ، وهم الذين يرون أن تسير الأمور وفقا للتقاليد والقواعد المقررة القديمة ولكن مسئولية هذا الوضع الجديد لا تقع اطلاقا على ملوك بني بويه ، فهم لم يستحدثوا شيئا من النظم ، وانما ساروا على سنة انشئت من قبلهم ، وحلوا محل أمراء الأمراء أمثال ابن رائق وبجكم وتوزون وغيرهم ، وكل الذي استجد انصب على التلقيب ، فقد أصبح أمراء بني بويه يلقبون بالملك (١) .

والواقع أن تلقيب أمراء بني بويه بلقب «الملك» أو «شاهنشاه» (٢) كان في محله ، لأن أمراء الأمراء من البيت البويهي كانوا أقدر وأقوى من أمراء الأمراء السابقين الذين كانوا لا يعتمدون الا على أجناد متقلبين في أهوائهم ، بعكس أجناد بني بويه الذين كانوا يحسون بقوميتهم الفارسية ، وبنوع من احياء التراث الفارسي القديم ، فكان لهم شعور قوى يهديهم الى المصالح العامة ، ويردهم عن الانطلاق وراء أهوائهم في كل وقت .

وأكثر المؤرخين يميل الى القول بأن بني بويه أذلوا الخلفاء بسبب مذهبهم المختلف ، وأنهم سلبوهم سلطانهم وجعلوا منهم العوبة في أيديهم (٣) والحقيقة أن بني بويه ورثوا وضعا قام من قبلهم ، ولم يكن لهم يد في هذا التطور الذي صارت اليه أمور الخلافة في بغداد .

(١) ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ . ابن خلكان : ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٢) ابن العميد : ص ٢٤١ . ابن خلكان : ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٣) ابن الأثير : ج ٧ ، ص ١٦٢ . حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٢٤٩ .

Arnold : The Caliphate p. 68.

وقد بدأ هذا التطور من أيام الخليفة الراضى الذى ألجأته الضرورة إلى انشاء منصب أمير الأمراء ، ويقول ابن الأثير « لما رأى الراضى وقوف الحال عنده ألجأته الضرورة إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط ، يعرض عليه اجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد ، فلما أتاه الرسول بذلك فرح به وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد ، فألفذ له الراضى الساجية وقلده اماره الجيش وجعله أمير الأمراء ، وولاه الخراج والمعادن في جميع البلاد ، والدواوين ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر * * * وبطلت الدواوين في ذلك الوقت ، وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور ، وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها * وكذلك كل من تولى امرة الأمراء بعده * وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة ما يرون ، وبطلت بيعت الأموال » (١) . وهكذا نرى أن بنى بويه لم يستحدثوا هذا المنصب ، وهم حين تولوا هذا المنصب لم يغيروا شيئاً إطلاقاً * ولم يستحدثوا قليلاً ولا كثيراً ، فقد كانوا يسمون أمراء الأمراء فزادوا على ذلك لقب «الملك» وليس اللقب بشيء * ثم ان معاملة بنى بويه للخلفاء جرت على نسق السنين السابقة ، بل لعلمهم كانوا أكثر مجاملة من غيرهم لأنهم كانوا أكثر قوة * ومع ذلك فهناك تغيير طفيف هو جعل امرة الأمراء وراثية في بيت معين ، فأصبحت المناصب تورث * ولكن مبدأ الوراثة لم يحرم الخلفاء شيئاً ، لأن أمراء الأمراء كانوا * كما رأينا - يتولون برغم أنف الخليفة لأنهم يتصرفون في جند قوى غالب ، فلم يكن الخليفة يختار أمراء الأمراء * فاذا جاء أمير الأمراء القوى واستطاع أن يجعل هذا المنصب وراثياً كان ذلك مدعاة للاستقرار ، وكان في ذلك رفع للمنصب عن مستوى النزعات العصبية بين الترك والديلم وغيرهم * ثم ان الأسرة التى تتولى هذا المنصب بصفة وراثية لابد أن تحس بما يلقي عليها من المسؤولية ، ولابد أن تحس في أغلب الأحيان بأن سلطانها مستقر متوطد ، على حين كان أمير الأمراء

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٢ .

قبل بنى بويه لا يثق بغيره اطلاقا . ولا يثق بقواده الذين لا يخلون قط من الطمع ، بل رأينا الجند يتبعون هذا القائد أو ذاك حسب تفديرهم لأماكن ذلك القائد ، أولاقبال حظه ، أو لتوقعهم أن يظفر بذلك المنصب الكبير ، بحيث كان من المستطاع أن نعرف شخصية القائد بعدد من يلتف حوله من الأتباع . فانتقال هذا المنصب الى الأسرة البويهية كان فى ذاته خيرا لا شرا ، ولم يكن فى نفس الوقت تجديدا بل كان استمرارا فى نظام بدأ من قبل . ونحب أن ننظر فى المسألة من وجهة أخرى فنتساءل : هل فقد الخلفاء شيئا ؟ . لانظن أن الخلفاء فقدوا شيئا ، فحق التعيين فى المناصب كان حقا صوريا لا يمارسه الخليفة ، فالظروف هى التى كانت تسلى عليه الوزراء ، والأزمة المالية هى التى كانت تضطره أن يعزل الوزير ليصادر ماله ، وفى سنة ٣١٢ هـ عزل الوزير ابن الفرات وسجن وعين واحد غيره ، فلما علم ابن الفرات باسم من يخلفه قال « الخليفة هو الذى نكب لا أنا » (١) فالخليفة فى الواقع لا يختار رجالا وانما هى الظروف تسلى عليه الأشخاص . فالوزير حامد ابن العباس لم يكن من المؤهلين للوزارة ومع ذلك تولى هذا المنصب لأنه غنى (٢) . أما بالنسبة للقضاء فكان العرف الجارى هو أن يدفع القاضى قبل أن يولى مبلغا من المال كنوع من الواجب ، فلما تولى معز الدولة امرة الأمراء فرض على قاضى القضاة مالا سنويا ، فكان لهذا الأمر صدى أدى الى ثورة على هذه المسألة ، وقالوا انه يبيع مناصب القضاء ويقرر على القاضى وعلى المتقاضين (٣) وظنوا أن العدل لا يتحقق بهذه الطريقة . ومع ذلك فالفرق يسير جدا بين أن تأخذ المال مرة واحدة وبين أن تأخذ كل سنة ، لأنه من المستطاع أخذ المال مرة واحدة ثم عزل القاضى كل سنة أو كل ستة أشهر ، وقد كان العزل يحدث كثيرا بسبب حاجة الخزانة الى المال .

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٥١ .

(٢) حسن ابراهيم : ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٩٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء :

ص ٢٦٥ — ٢٦٦ . الصولى : ص ١٤٦ .

أما القواد الذين أصبحوا رجال الدولة ، فقد كانوا قبل العصر البويهي رجال الدولة أيضا ، فقد قال الرازي « ملكوا الأمر دوني » (١) . أما حق التصرف في الأموال العامة ، فقد كان حقا مقررًا للخليفة صوريا ، أما فعلا فإن هذا الحق كان ملغيا لا يمارس لأن الأئمة المالية كانت شديدة ، بحيث لا يستطيع الخليفة ولا غيره أن يدير الأمور تدييرا اراديا تاما . وقد كانت الأموال قبل العصر البويهي عندما أقشئت امرة الأمراء تحمل لا الى خزائن الخلفاء ، وإنما الى خزائن أمير الأمراء . فالبويهيون هنا لم يستحدثوا شيئا كذلك .

أما فيما يختص بنفقات الخليفة ، فإن أمراء الأمراء كانوا قد جعلوا لتلك النفقات ضياعا خاصة تسمى الضياع المستخلصة (٢) . أما بنو بويه فجعلوا للخليفة راتبا يوميا يأخذه يسمى « مياومة » ولمسا وجدوا أن ذلك غير عملي لأن الأموال قد تتأخر ، أضافوا الى المياومة ضياعا كالضياع المستخلصة (٣) . ومع ذلك فقد كان الخليفة في بعض الأحيان يصادر منتسلب داره ويؤخذ ما فيها من نفائس (٤) ، وقد يحدث هذا نحو ثلاث مرات طوال العصر البويهي ، لكنه قد حدث كذلك من قبل . وقد يكون هذا شرا ، ولكنه شر لم يوجد البويهيون ، وإنما وجد قبل عهدهم ، بل ان المصادرة في عهدهم كانت أقل . فقد نهب الرازي ، واضطر الى أن يدفع لأمير الأمراء مبالغ من المال مع أنه غير مسئول عن الانفاق ، بل انه دفع آنية الذهب والفضة ليصوغوها نقودا (٥) ، وكذلك نهب الخليفة المتقي وسمك (٦) . وكان الخليفة اذا خرج الى حملة بجيشه وانتهى ما بيده من المال لا يستطيع الاستمرار في الحروب .

-
- (١) الصولي : ص ٩٦ .
(٢) الصولي : ص ١٣١ — ١٤٥ .
(٣) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٦١ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) الصولي : ص ١٠١ ، ١٣١ ، ١٤٥ .
(٦) الصولي : ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

أما تصرف الخليفة في الجيوش فكان حقا ضروريا أيضا ،
فإذا أصبحت الجيوش في يد بني بويه فلم يكن ذلك أحداثا اسنة
جديدة ، فقد كان الخليفة الراضى يقول « ليس لى جيش كجيش
الأخشاد » • وقد قال مرة أخرى « لو كان مثله عندى وكان جيشه مكان
هذا الجيش : فانه أشبه بجيش آبائى » (١) • فلم يكن للخليفة جيش
قبل العصر البويهى ، حتى نقول مع القائلين أن البويهيين اغتصبوا من
الخليفة شيئا •

أما الخطبة والسكة ، فان القاعدة كانت أن يخطب للخلفاء ولأمير
الأمرء معهم على جميع منابرهم • ونظن أن العبارة كما هى تدل على أن
الخطبة تكون لأمير الأمرء مع الخليفة على جميع المنابر حتى فى بغداد
نفسها ، لأن اللفظ ورد هكذا « على جميع المنابر (٢) » • ومع ذلك
فاننا نلاحظ من سياق النصوص بعد ذلك أن بغداد كانت مستثناة ، حيث
كان لا يخطب الا للخليفة وحده ، فلما تولى بنو بويه خطب لهم فى بغداد
مع الخليفة (٣) • والمسألة لا تعدو أن تكون حقوقا • أما كتابة اسم
أمير الأمرء البويهى على السكة فقد كان أمرا جرت به السنة من قبل •

إذا صح ما نذهب اليه من أن بني بويه لم يغتصبوا الخلفاء الذين
عاشوا فى عهدهم شيئا ، فلماذا نجد فى كثير من الأخبار التاريخية أقوالا
تتردد بأن الخلافة قد ذهبت بهجتها واضمحل أمرها ؟ • ونجد كثيرا من
المؤرخين يحملون بني بويه مسؤولية هذا الاضمحلال • كل هذا فى
نظرنا أقوال غير صحيحة ، وقع أصحابها فى تيار المبالغة من ناحية ،
وفى تيار الأسى على مصير الخلافة من ناحية أخرى • على حين نلاحظ أن
بني بويه انما خدموا الخلافة ، وجعلوا منصب أمير الأمرء أكثر
استقرارا ، وجعلوا اتجاه دفة السياسة اتجاها واحدا مستمرا فى يد

(١) نفس المصدر : ص ٤٤ •

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٢ •

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٩ •

واحدة قوية آمنة على نفسها • ثم ان أسلوب المجاملة الذي كان يتبعه البويهيون اذا مثلوا في حضرة الخلفاء كان يدل على عظيم توقيرهم لهم ، وبقول بعض المؤرخين « أظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارسا ، وجدد دار الخلافة حتى صار كل محل منها آتسا » (١) فالخلافة في الجملة لم تفقد هيبتها في العصر البويهي بل كان بو بويه خير خدام للخليفة على النحو الذي صورناه •

وللعصر البويهي ميزة أخرى ، وهي أن الخلافة في العصر البويهي أفسحت صدرها للمذاهب ، فصار الخليفة خليفة للسنة وللشيعة على حد سواء • وهذا الوضع جديد لم يحدث مثله من قبله ، فلم يكن أهل السنة أو العباسيون يجيزون للشيعة أن يجهروا بمذهبهم ، ولا أن يدعوا له ، ولم يكونوا يعترفون به اطلاقا ، وكان اذا ظهر من العلويين رئيس رواق ووضع عليه الجراسيس ، فاذا ثار من جراء هذه المضايقات أو اذا ثار مطالبا بالخلافة حورب بجيوش الخلافة • أما في العصر البويهي فان الشيعة والسنة اصطاحوا على أن يتمتع كل فريق منهم بالحرية المذهبية • ونستطيع أن نطابق على العصر البويهي لذلك عصر الحرية المذهبية •

ومع أن البويهيين كانوا شيعة الا أنهم لم يعاملوا أهل السنة معاملة سيئة ، بل ان صدرهم اتسع للحرية المذهبية اتساعا كبيرا ، وقد أظهروا من سعة الأفق ما كان الصاحب بن عباد خير مثال عليه ، فهو يقول في رسائله « وقد كتبت في ذلك كتابا أرجوه يجمع على الأئمة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح الى المواقعة ، فان المهادنة تجمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقا لأنفسنا ولهم (٢) » وكانوا يرون في التدابر المذهبي ما يفرق بين الناس

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٩ •
(٢) رسائل الصاحب بن عباد : الرسالة الخامسة من الحساب السادس ، ص ٩١ (تصحيح عبد الوهاب عزام الطبعة الأولى) ، وانظر كذلك الرسالة السادسة ، ص ٩٢ — ٩٤ •

بدون وجه حق ، فيتكدر الأمن العام ، وتذهب مصالح الناس ومعايشهم ، ويرون أن الاسلام وقد اتسع أفقه لمعايشة الأديان الأخرى ، فان التباغض والعداوة بين أهله أنفسهم أمر منكر لا يصح أن يفرضه مسلم .

والبويهيون شيعة على مذهب الزيدية ، وهو مذهب تطور وتعددت فرقه ومقالات أصحابه ، وأقرب فرق الزيدية الى بنى بويه هي فرقة السليمانية ، وهم الذين ساروا بالمذهب الزيدى نحو التسامح ، ونحو اتساع المذهب لكل مقالة ولكل ميل : فان سليمان بن جرير صاحب هذه الفرقة كان يقول « ان الامامة شورى فيما بين الخلق » ولا نميل الى جعلها هذه العبارة ذات معنى مطلق ، فالشورى هنا هي نوع من الاختيار في بيت معين ، وهو اختيار يحدث من تلقاء نفسه لخروج رجل من آل البيت والتفاف الناس حوله ، والالتفاف هو الذى يأخذ مظهر الشورى ، بدليل قول الشهرستانى : « ويصح أن يتعقد (الشورى) بعقد رجلين من خيار المسلمين » والسليمانية هم أول من قال بالمقالة التى طبقها البويهيون فى القرن الرابع : قالوا « الامامة من مصالح الدين ، ليس يحتاج اليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده ، فان ذلك حاصل بالعقل ، لكنها يحتاج اليها لاقامة الحدود ، والقضاء بين المتحاكمين وولاية اليتامى والأيتامى ، وحفظ البيضة ، واعلاء الكلمة ، ونصب القتال مع أعداء الدين ، وحتى يكون للمسلمين جماعة ، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة . فلا يشترط أن يكون الامام أفضل الأمة علما ، وأقدمهم عهدا ، وأسدهم رأيا وحكمة ، فان الحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل (١) » .

هذه المقالة السليمانية تلقى ضروءا كثيرا على موقف البويهيين من الخلفاء العباسيين . فالخليفة العباسى مفضول لكن ولايته جائزة ، وهو ليس أفضل الناس علما ، والسليمانية تقول لا يشترط أن يكون الامام أفضل الناس علما ، ومبدأ صحة امامة المفضول مع وجود الأفضل يميز

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ « طبعة الحلبى » .

من غير شك أن تخرج الإمامة عن البيت العلوي الى بيت آخر مفضول ، ثم ان الإمامة مصلحة من مصالح الدين وليست ركنًا ، فلا نعجب اذا قال الشهرستاني « ومالت جماعة من السنة الى ذلك » ، والسليمانية لم تقف عند هذا الحد بل قالت انه يجوز أن يكون الامام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد ، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه في الأحكام ، ويستفتى منه في الحلال والحرام ، ويجب أن يكون في الجملة ذا رأى متين وبصر في الحوادث نالغذ .

وتحس اذا أردنا أن نستفيد عن طريق الفرق الزيدية في فهم المبادئ الزيدية كما اعتنقها بنو بويه ، وجب علينا أن ننتهج نهجا خاصا ، فنحن لا نفهم مبدأ بنى بويه على أساس ما كتبه الشهرستاني ، بل على أساس الواقع أولا ثم على أساس الاستشارة فقط بما كتبه الشهرستاني . وهذا هو النهج الذي نريد أن نحدد به مبادئ البويهيين الزيدية .

الملاحظ أن الممالك الزيدية كالمملكة الزيارية والمملكة البويهية قبل أن تتدخل في أمور بغداد ، وبعد ذلك ، انتهت كلها بأن اعترفت بالخلافة وكانت قبل ذلك قد استقلت بالملك ، ولم تتبع اماما معيناً من أئمة الزيدية فهي في الحالتين لم تتبع اماما زيدياً ، فهل كانت خارجة على مبادئ الزيدية ؟ . الواقع يدل على أنها لم تعتبر نفسها خارجة ، فلقد ظلت قبل وبعد اتصالها بالخلافة تعتبر نفسها دولاً زيدية ، وتدين بتبجيل أهل البيت وباحترام البيت الفاطمي العلوي (١) . وقد حرصت تلك الدول على تنمية العلوم الشيعية ، فليس من العدل أن اتهمهم كما اتهمهم بعض المؤرخين أنهم خانوا مبادئهم ، واتبعوا الخليفة السني جريا وراء مصالحهم الخاصة (٢) . وهؤلاء المؤرخون كانوا يتوقعون منهم أن يعزلوا الخليفة السني ليولوا على أنفسهم اماما من آل البيت . الا أن بنى بويه حين

(١) كانوا يزورون مشهد الحسين حفاة . انظر ابن كثير : ج ١٢ ،

ص ٧ .

(٢) ابن الاثير : ج ٨ ، ص ١٦٢ .

انتصروا ، انتصروا وهم لا يدينون بالولاء لامام زيدى ، بل كانوا مستقلين عن آل البيت يدبرون ملكهم بأنفسهم ، مكتفين بوجود مجتهدين فيما بينهم تنسد بهم الحاجة الدينية ، ويكونون الوسيلة التى يفهم الناس الدين عن طريقها ، فان الله يعرف بالعقل كما قالت بعض الفرق الزيدية . وكان فى امكانهم أن يلغوا الخلافة السنية حقيقة . ليضعوا محلها خلافة شيعية . الا أن مثل هذا كان يعرض العالم الاسلامى لهزات عنيفة ، فان مثل هذا التغيير كان أمرا لا يقبله المشرق كله : لا يقبله السامانيون ، ولا الغزنويون ، ولا يقبله كثير من السنة الذين كانوا أغلبية فى العراق وفى اقليم الجبل ، وفى شيراز . فلو أن الدولة البويهية ألغت الخلافة العباسية لعرضت العالم الاسلامى الشرقى لحروب أهلية ، ولعرضت نفسها لهجمات من جانب السامانيين والغزنويين . فكانت الحكمة السياسية تقضى عليهم بأن يبقوا القديم على قدمه . وكانت الحكمة السياسية تملى عليهم أن يتبعوا المبدأ الذى يقول بجواز امامة المفضل مع وجود الأفضل ، فأجازوا على هذا الأساس الذى أقره المبدأ الزيدى ، وعلى أساس المصلحة السياسية أن يدينوا بالولاء لخليفة سنى ، واكتفوا بوجود المجتهدين من بينهم كالصاحب بن عباد باعتباره مجتهدا ، والقاضى عبد الجبار باعتباره قاضيا فقيها من قضاة الزيدية .

ملوك بنى بويه

ذكر ملوك بنى بويه فى هذا العصر أهم من ذكر الخلفاء ، فانه لم يكن للخلفاء شأن كبير فى تصريف أمور الدولة البويهية ، وان كان نفوذهم الروحى ظل محترما فى المشرق خاصة . فقد كان المغرب يمسد الفاطميين ، وكان بنو أمية فى الأندلس لا يدينون بالولاء للخليفة العباسى بل انهم نادوا لهم بخلافة أموية ، ولم يكن لهم غير السامانيين والغزنويين وهؤلاء كانوا منصرفين لمهمتهم الثغرية فى المشرق .

وأول شيء نلاحظه عندما نذكر بنى بويه ، هو أنهم كانوا أقل ثقافة من الفرس المستقرين فى البلاد التى تغلبوا عليها ، ذلك لأنهم كانوا فى

طرف من الأطراف التي كانت خارجة عن العالم الاسلامي ، وعن نطاق الحضارة حتى منتصف القرن الثالث الهجري . فهم قوم قريبو عهد بالحياة القبايلة . وحديثو عهد بالمدينة . فلما تم لهم الغلب لم ينسوا تقاليدهم القديمة ، فاعتبروا البلاد التي تغلبوا عليها ملكا خاصا لهم يرثه الأبناء ، وينقسم هذا الملك بمقدار عدد الأبناء . وهذه الفكرة غير اسلامية ، لم يطبقها العرب على بداوتهم ، ولم يعتنقها العالم الاسلامي الا تحت ضغط الغارات البويهية ، والسلجوقية فيما بعد . ولهذا لم يلبث الملك البويهى أن تعرض لتقسيمات كثيرة بعد عهد البويهيين الأوائل ، وصار صاحب كل قسم يحاول أن يتغلب على القسم الآخر . ومن الانصاف أن نذكر للبويهيين وهم حين كانوا متأثرين بتقاليدهم الأعجمية غير الاسلامية ، أنهم حاولوا أن يتمسكوا بفكرة التوحيد السياسى الإسلامية ، وحاول ملوكهم لذلك أن يجمعوا أملاك البيت البويهى كلها قسمها الميراث . ولذلك تعرضت الدولة البويهية لهزات عنيفة بسبب التناقض بين هذين التقليدين .

ونلاحظ كذلك أن مركز الدولة البويهية تغير مرات كثيرة ، فقد كان مركزها فى شيراز طوال حياة « عماد الدولة البويهى » مؤسس الأسرة الى أن مات سنة ٣٣٨ هـ ، ثم انتقلت رئاسة البيت وانتقل معها مركز الدولة الى الرى ، حيث كان « ركن الدولة » الأخ الذى يلى « عماد الدولة » فى السن ، وظل مركزها بالرى الى أن توفى « ركن الدولة » عام ٣٦٦ هـ ، ثم انتقل مركز القوة مرة أخرى الى بغداد عندما آلت رئاسة البيت البويهى الى « عضد الدولة » ، وظلت بغداد مركزا للعالم البويهى من سنة ٣٦٧ هـ الى عهد ابنه الثالث « بهاء الدولة » الى أن نقل هذا مركز الدولة الى شيراز مرة أخرى فى سنة ٣٨٩ هـ . ومن هذه الأمثلة نستطيع أن نتصور أن الدولة كانت تتأرجح ، وأن هذا التأرجح كان يعرضها لهزات عنيفة ويجعل الحياة قلقة فى هذا العصر من الناحية السياسية على الأقل .

أول أمراء بني بويه هو « عماد الدولة » الذي كان بالنسبة لأخويه كالأب ، وهو الذي قاد الهجرة الديلمية نحو الجنوب ، وكان أخوته كالقواد بالنسبة له . فلما استقر الديلم في شيراز كان عماد الدولة هو الذي ينشئ لأخوته الممالك ، فيرسلهم إلى نواح يقتحمونها ويملكهم عليها ، وكان لذلك يتحمل مسئولية الاخفاق اذا حدث ، فهو الذي أصبح أخطاء أخيه معز الدولة في كرمان (١) ، وهو الذي أفقذه من حبائل البريدي بالأهواز (٢) ووجهه آخر الأمر إلى بغداد ، فكان هو المتصرف في أمور ملكه ، وكذلك كان أخوه الذي جاء بعده وهو ركن الدولة يطاع من بقية أفراد البيت البويهى لأنه كان من نفس الجيل ، وكانت تقاليده هي التقاليد الأولى .

فلما آل الأمر بعد ذلك إلى طبقة عضد الدولة وهو الجيل الثانى تغيرت الحال بعض الشيء ، إلا أن عضد الدولة استطاع بالقوة أن يفرض على كل أفراد البيت البويهى الولاء للدولة والحرص على الصالح العام . إلا أن الالتجاء إلى القوة صار سابقة يتبعها كل من راوده الطموح ، وصار الحال بعد عضد الدولة مختلفا . إذ أن عضد الدولة فتح باب الخلاف ، وقدر بعده على أفراد هذا البيت أن يفترقوا أبدا .

وجاء بعد جيل عضد الدولة جيل أبنائه الثلاثة : صسام الدولة ، وشرف الدولة ، وبهاء الدولة ، وتولوا رئاسة الدولة واحدا بعد واحد ، وتنازعوا على الملك نزاعا طويلا ، حتى آل الأمر إلى الأخ الأصغر بهاء الدولة ، فاستقرت الأمور في أيامه .

ثم كان بعد هذه الأجيال الثلاثة جيل رابع هو جيل أبناء بهاء الدولة فإنه قد كان من تمكن بهاء الدولة وعلو أمره ما مهد الأمر لأولاده فكانت الرياسة في أولاده دون غيره من أخوته . فتولى الملك من بعده أولاده ،

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٠ .

سلطان الدولة ، ومشرف الدولة ، وجلال الدولة • فلما آل الأمر الى هذا الجيل الرابع غلب الانقسام فأصبح كل واحد منهم مستقلا بناحيته ، بحيث لا يدع للأكبر أو لمن يجب أن يتولى الرياسة رسميا مجالاً للتدخل • وهذا الانقسام كان سبباً في ضعف الأسرة ، فان العراق بلد مضطرب يأكل كل حكماءه ، فاذا كان صاحب العراق مستقلاً كان الجند وكان كبار الولاة أقدر على التحكم فيه ، فكافوا يشورون وهم آمنون من أن يأتي مدد من شيراز أو من بلاد الجبل •

وفي هذا الجو المضطرب القلق اتجهت النفوس الى شيراز ، وكان فيها أحد أبنائه سلطان الدولة وهو « أبو كاليجار » فانضوى الجميع تحت لوائه ، وقد دفعهم الى هذا التضامن احساسهم بالضعف وبقرب النهاية • ثم ان أبا كاليجار لم يحكم وحده الا خمس سنين ثم آل الحكم من بعده الى ابنه الملك الرحيم ، وهو آخر ملوك بني بويه ، وفي عهده دخل طغرل بك السلجوقي بغداد سنة ٤٤٧هـ وأزال ملك البويهيين •

بعد هذا الاجمال نعود الى شيء من التفصيل :

عماد الدولة :

كان عماد الدولة يتلقب بلقب الملك ، وليس هذا اللقب غريباً على العالم الاسلامي ، فقد اعترف به الخلفاء منذ أيام بني أمية لرؤساء المعجم فهم قد اعترفوا بملوك الترك في بلاد ما وراء النهر ، وكانت منزلة الملك من غير شك أقل من منزلة الخلفاء • وهناك لقب آخر من ألقاب الرياسة هو لقب سلطان ، وهو لقب لم يتلقب به البويهيون ، وانما تلقب به رؤساء الدولة الغزنوية ، فهم أول من تلقب بلقب السلاطين ، ثم نراه بعد ذلك لقباً لرؤساء السلاجقة •

كان علي بن بويه عماد الدولة رئيساً للدولة البويهية ، وكان أخوه معز الدولة ممثلاً له في بغداد وكان يتلقب هو وصاحب الجبل (ركن الدولة) المقيم بالرى بلقب الأمير • وظل الحال على هذا في التلقب الى

آخر أيام الدولة البويهية ، ونلمس هذا واضحا في رسائل صاحب ابن عباد فإنه في رسائله يذكر أميره مؤيد الدولة أو فخر الدولة مقرونا باسم الامارة ، فاذا ذكر لفظ الملك فانما كان يشير في الحقيقة دائما الى عضد الدولة ملك بنى بويه ورئيس البيت البويهى (١) .

كانت الأمور مستقرة أيام عماد الدولة مؤسس الأسرة ، ولكن من سوء حظ هذه الأسرة أن عماد الدولة لم يعمر أكثر من أربع سنوات بعد الاستيلاء على بغداد ، فلم يتح لبنى بويه الوقت الكافى لتنظيم الوضع الجديد تنظيما تاما ، ونعرف من سيرة عماد الدولة قبل ذلك أنه لم يكن يتعجل التطورات التاريخية ، بل كان دائما يميل الى تثبيت كل خطوة يخطوها قبل أن يفكر في خطوة جديدة ، وتلك الأناة هي التي أفادت الدولة في عصرها الأول وثبتت دعائمها . فلمسا توفي عماد الدولة عام ٣٣٨هـ (٢) جرت الأمور على طريقة غير متوقعة لرجل يعيش في العالم الاسلامى ، بل جرت على سنة قبلية بربية ، فلم يرث الأخ الأوسط ركن الدولة الا الرياسة ، وظل حيث هو :

ركن الدولة :

لم ينتقل ركن الدولة الى شيراز عاصمة الدولة ، وانما انتقلت الدولة اليه ، وتحولت العاصمة من شيراز الى الرى (٣) . ثم ان ركن الدولة لم يكن فى قوة عماد الدولة ولا فى سطوته ، بحيث يقطع على كل مشاغب ميله الى الشغب ، بل كان منبع الشغب ابنا له هو عضد الدولة ، وهذا الابن كان قد ولى بعد عماد الدولة أمر شيراز ، لأن عمه لم يرزق ولدا ، فاختره لهذا المنصب (٤) . وكان من واجب عضد الدولة أن يستشير أباه ركن الدولة فى كل شئ ، وأن تكون سياستهما

(١) رسائل صاحب بن عباد : على سبيل المثال : ص ٣ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ وغيرها .
(٢) ابن كثير : ج ١١ ، ص ٢٢١ .
(٣) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٧٤ .
(٤) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ١٧٤ .

واحدة ، الا أن الذي حدث كان غير ذلك ، فان عضد الدولة اتجه بأطماعه الى بغداد وأراد أن يجمع لنفسه السلطة في اقليم فارس في العراق في وقت واحد ، فدرس لابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة الذي كان قائما بعدأبيه في بغداد ، ولم يكن هذا الدهس الا فرصة اختافها عضد الدولة لكي يبرر أطماعه ، ولكي يسير الى بغداد ويستولى على السلطان في حاضرة الخلافة (١) . وحدث كل هذا الاعتداء من قبل عضد الدولة على ابن العم بختيار وركن الدولة حي قائم ، فلما تفافهم الأمر لجأ ركن الدولة الى التهديد بجمع الجيوش والسير لحربه ، وعندئذ فقط رجع عضد الدولة وترك ابن عمه بختيار كما هو في بغداد وعاد الى شيراز (٢) . وهذه الحادثة تكشف أن السياسة البويهية لم تكن واحدة ، وأن عز الدولة بختيار كان يسير في اتجاه وابن عمه عضد الدولة كان يسير في اتجاه ، وأن ركن الدولة بالرى كان يسير في اتجاه آخر ، وكان هو الوحيد الذي يمثل تقاليد الأسرة ، الا أنه كان يرض هذه التقاليد فرضا يحتاج منه الى شيء من العناء ، فلم يكن اذن من السهل على ركن الدولة أن يدبر هذا الملك الواحد الذي كان يدبره أخوه الأكبر عماد الدولة من قبل .

ونستطيع أن نقول بناء على هذا أن الدولة مالت منذ اللحظة الأولى الى استقلال أجزائها بعضها عن بعض ، فكان كل جزء من أجزاء الدولة البويهية الثلاثة يميل الى الاستقلال بأمر نفسه . فكان من المنتظر عند موت ركن الدولة أن تعرض الدولة لأزمة شديدة ، وفعلا وقعت الأزمة .

عضد الدولة :

مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ ، وآلت رئاسة البيت البويهى الى عضد الدولة . وفي السنة التالية لوفاة أبيه سار بجيوشه الى بغداد

(١) مسكوبيا : تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٣٤٤ .

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(م ٣٤ — العصر العباسي)

وحارب ابن عمه بختيار وقتله سنة ٣٦٧ هـ (١) ، فحقق عضد الدولة ما كان أبوه من قبل منعه من تحقيقه • وبقتله بختيار ضمن أن يكون الوارث الوحيد لملك بنى بويه الثلاثة ، واجتمعت لذلك رئاسة البيت البويهى لعضد الدولة واستقرت فى بغداد ، وأصبحت عاصمة الخلافة عاصمة أيضا لبنى بويه • فالعاصمة تتبع الرئيس وتكون حيث كان ، ولا تكون فى مركز مختار لصفاته الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية •

فلما دخل عضد الدولة بغداد كان ذلك وضعاً جديداً ، فان بغداد من قبل كانت تتلقى دائماً نائبا عن البيت البويهى ، أما فى هذه المرة فهى تتلقى ملك بنى بويه ، ولهذا استحدثت بعض مراسيم ملوكية لم تكن متبعة أيام معز الدولة ولا عز الدولة بختيار ، فألقت الخطبة وذكر فيها عضد الدولة ، وضربت الطبول نوبا ثلاثا على بابه (٢) • وكان طبيعيا أن يحيط عضد الدولة نفسه بهذه المراسيم لأنها نفس المراسيم التى كان يتبعها فى شيراز ، ولأن معز الدولة أو عز الدولة كانا اذا زارا ملك بنى بويه فى شيراز أو الرى يقدمان له من مراسيم الاحترام ما يقدمه الرجل العادى أمام ملكه ، كانوا يقفون بحضرته ولا يجلسون برغم الالاحاح ، وكانوا يقبلون الأرض بين يديه (٣) • وها هو الذى تقبل الأرض بين يديه يحضر الى بغداد ، فكان من الطبيعى أن يقتضى الوضع بعض مراسيم جديدة لم تكن متبعة من قبل ، فعضد الدولة فى الحقيقة لم يكن حين احتفظ بوضعه كملك يريد الاعتداء على الخلافة كما قد يفهم من سرد خبر الخطبة والطبل مجردا من كل شرح فى النصوص التاريخية ، ونحن نعرف أن عضد الدولة كان شديد الاحترام للخلفاء (٤) ، فلم يكن اذن أمر الخطبة والطبل يتناقض قط مع احترام الخلفاء •

(١) مسكويه : ج ٢ ، ص ٣٨٠ — ٣٨٦ •

(٢) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢٤٩ •

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٣ ، ص ٣٠٠ •

(٤) انظر مسكويه : ج ٢ ، ص ٤١٧ (وصفت حفلة عقد العهد الى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ) •

كانت الدولة قوية جدا في عهد عضد الدولة لأنه استطاع أن يجمع السلطة كلها في يده بحيث لم يشاركه أحد في السلطان ، ولهذا يمكن أن يقرن حكمه بحكم سابقه ، أيه وعمه من قبل ، وبهذه الطريقة سارت الدولة قدما لم تتأخر في شيء ، وأوتيت مدة طويلة من الثبات من سنة ٢٣٤ — ٣٧٢ هـ أي ثمانية وثلاثين عاما الى أن مات عضد الدولة ، الا أن هذا الازدهار كان يحصل في طياته بذرة فاسدة هي التي ابتدئها عضد الدولة وهي سنة اعتداء بعض أفراد البيت البويهى على بعض ، وقد يعتذر له عن هذا بأنه إنما أراد الوحدة ، متأثرا في ذلك بالنقلد الاسلامية القديمة من ناحية • ومستجيبا لمغريزة الأثرة من ناحية أخرى • وعلى أي حال فإن جيل عضد الدولة وأبنائه من بعده لم يكن كجيل آبائه ، وإنما كان جيلا يطمع أفرادهم جميعا في الرياسة •

ابناء عضد الدولة : صمصام الدولة ، شرف الدولة ، بهاء الدولة :

لم يعمر عضد الدولة بعد دخوله بغداد سوى خمس سنين ثم مات في سنة ٣٧٢ هـ (١) ، ثم آل الأمر من بعده الى أولاده الثلاثة : صمصام ، وشرف ، وبهاء ، تداولوا الرياسة واحدا بعد واحد ، وأقاموا في بغداد جميعا ما عدا الثالث وهو بهاء الدولة : فإنه لم ينتقل عن بغداد الا بعد أن تغلب على كل المعارضات الناجمة ضده ، ثم تحول بعد عشر سنين من ولايته الى شيراز (٢) ، وهو موقن أن لا حياة للدولة اذا استمر مركزها في بغداد ، وكان يدرك من غير شك أن قوة الدولة ومركزها يجب أن يعود الى شيراز ، وهذا يذكرنا بأن اختيار مؤسس البويهية لشيراز كان اختيارا موفقا ، وأن العاصمة حين تنقلت في أرجاء الملك البويهى هذا التنقل كانت تستنفذ جزءا من قوة الدولة •

كان أول من تولى بعد عضد الدولة من أبنائه ، ابنه صمصام الدولة • وظل في بغداد زمنا ثم غلبه عليها أخوه شرف الدولة وأرسله

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٧ .

الى شيراز حيث اعتقله وسمله (١) . الا أن هذا المطرود المعمول أوتي من طول العمر ما لم يؤته أحوه المتغلب عليه المستقر في بغداد ، الا أن أخاه شرف الدولة حين مات قام مقامه في بغداد أخ ثالث هو بهاء الدولة (٢) .

وعلى أى حال فمنذ أن غلب صمصام الدولة الى أن قتل في أيام بهاء الدولة ، كانت الدولة منقسمة الى ثلاثة أقسام : قسم فيه صمصام الدولة وقاعدته شيراز ، وقسم فيه شرف الدولة ثم بهاء الدولة ومركزه في بغداد ، وقسم ثالث هو القسم الشمالى : قسم الجبال ، وهو قسم محايد يميل أحيانا الى هذا الفريق وأحيانا الى الفريق الآخر . وظل هذا الاضطراب قائما منذ أن غلب صمصام الدولة في بغداد عام ٣٧٧ هـ الى عام ٣٨٨ هـ حين انتصر بهاء الدولة على خصمه وأخيه صمصام ، فكانت الحروب تمزق جسم الدولة طوال هذه الفترة (٣) . ثم ان النصر لم يأت لأن بهاء الدولة كان أقوى بكثير من أخيه ، بل ان النصر جاء دون أن يسعى له بهاء الدولة ، وذلك بسبب ثورة قامت في شيراز ضد صمصام الدولة ، وكانت ثورة قام بها الجند الديلم وقام بها أولاد عز الدولة بختيار الذى قتله عضد الدولة ، فانهم اشتركوا فيها وقتلوا صمصام الدولة وقالوا وهم يقتلونه « هذه سنة سنها أبوك » (٤) . ولحسن حظ الدولة عاد السلام من سنة ٣٨٩ هـ الى أن توفي بهاء الدولة عام ٤٠٣ هـ .

استطاع بهاء الدولة أن ينفرد وحده بالسلطان وأن ينهض بالدولة وأن يعوض ما خربته الحرب ، وبخاصة في الأهواز التى كانت الميدان الذى تلتقى فيه الجيوش عندما تحشد اما في شيراز واما في بغداد . وكانت الدولة منذ نشأت تسير الى الأمام دائما ماعدا الحوادث الثلاثة التى ذكرنا : الحادث الأول هو مسير عضد الدولة ضد ابن عمه بختيار أيام ركن

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧ — ١٨ ، ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣ .

(٣) أنظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٩ — ٥٣ .

(٤) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٥٣ .

الدولة • والثاني هو مسيره بعد وفاة أبيه وقتله بختيار عام ٣٦٧ هـ •
والثالث هو فترة الاضطراب التي استمرت اثنتى عشرة سنة بين صمصام
الدولة واخوته وعلى الأخص بهاء الدولة • وإلى هنا نستطيع أن نقول
ان سفينة الدولة سارت بسلام ، وان الحكام استطاعوا أن يبرتوا الدولة
من الجروح القليلة التي كانت تصيبها • اما بعد هذا التاريخ فان النزاع
يزداد ، فكان كل جيل أشد من سابقه ميلا الى التنازع وإلى الانانية
والآثرة •

ولقد تبين لأمرء البيت البويهى فى أثناء هذا النزاع الذى كان
قائما بوجه خاص بين شيراز وبغداد أن من يملك شيراز لا يكاد يغلب ،
وأن من يملكها ويملك إلى جانبها الأهواز يستطيع أن يتحكم فى المنطقة
العراقية وفى منطقة الجبل على السواء ، ولهذا السبب حرص البويهيون
على أن يكون مركز قوتهم فى شيراز ، أو على الأقل أن تكون شيراز
فى متناول يدهم •

ابناء بهاء الدولة : سلطان الدولة — مشرف الدولة — جلال الدولة :

اضطربت الأمور بعد بهاء الدولة لأن أبناءه الثلاثة استأثر كل واحد
منهم بناحيته • فان أولهم وهو سلطان الدولة الذى ولى من ٤٠٣ —
٤١٥ هـ وأقام فى شيراز ، وإلى أهل بيته النواحي ، فولى أخاه مشرف
الدولة أمرة الأمراء ببغداد ، وولى أخاه جلال الدولة منطقة البصرة ،
وأخاه أبا الفوارس كرمان (١) فمال كل واحد منهم الى الاستقلال • أما
أمير الأمراء فانه أراد أن يعتبر نفسه رئيس البيت البويهى ، فقطع الخطبة
لأخيه سلطان الدولة فى النصف الأخير من ملك أخيه عام ٤١١ هـ (٢) •
ثم ان جلال الدولة بالبصرة حاول من ناحيته أيضا أن يكون كما كان
البريدى من قبل • واذا تتبعنا أخبار جلال الدولة وجدنا وجوه شبه
كثيرة بينه وبين صاحب البصرة القديم الذى استطاع أن يقف على يديه

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٩٠ •

(٢) نفس المصدر : ص ١١٨ •

مدة طويلة (١) وأمام أزمة عدم التضامن هذه كان أمام أمراء البيت البويهى حلان : اما أن يلجأوا الى العنف فيستنفدوا قوات أنفسهم ، واما أن يلجأوا الى السياسة • ثم غلبوا السياسة فى آخر الأمر واتفقوا على أن يستقل كل واحد منهم بناحيته ، ثم حل موت سلطان الدولة الموقوف حلا نهائيا سنة ٤١٥ هـ قالت الرياسة الى مشرف الدولة صاحب امره الأمراء ببغداد ، وانتقلت الرياسة معه اليها ، ولكنه لم يعمر بعد أخيه الا عاما واحدا (٢) ، فتوحد الملك البويهى من جديد لجلال الدولة ، فحكم مدة طويلة تبلغ تسعة عشر عاما أتيح له فيها أن يستعيد حيوية البيت البويهى ، وبينما كان جلال الدولة يدبر أمر الملك البويهى من بغداد ، كان فى شيراز ابن لسلطان الدولة هو أبو كاليجار واليه انتقلت الرياسة بعد جلال الدولة • وظل أبو كاليجار خمس سنين ، ثم خلفه آخر ملوك الأسرة البويهية وهو أبو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم • وفى عهده دخل السلاجقة العراق سنة ٤٤٧ هـ •



ما سبق نرى أن البيت البويهى لم يوجد قاعدة ثابتة لرئاسة الدولة ، فاختلف أفرادهم فيما بينهم اختلافات كثيرة أضاعوا فيها جزءا من حيويتهم ومن نشاطهم • وكانوا فى أثناء هذا النزاع الأسرى انما يستجيبون لطبيعتهم البدوية المتبربرة ، تلك الطبيعة التى تعتبر الملك ملكا خاصا للملك ، له أن يقسمه كيف شاء لا كما تشاء ظروف استقرار الشعوب ، فالأرض هنا غير ثابتة ، وليست لها حدود معينة ، وانما يمتد الملك بقدر قوة المالك وسيوفه وجيشه •

فالسبب الأول فى ضعف البيت البويهى كما نرى ، هو أن بنى بويه لم يحتفظوا بتضامنهم فكان كل من يؤول اليه جزء من هذا الملك ينزع الى الاستقلال ، ويعتبر ما بيده ملكا خاصا موروثا ، وكان بذلك يهدد

(٢) نفس المصدر : ص ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩ •

(١) نفس المصدر : ص ١٢٥ ، ١٢٩ •

الصالح العام ، ويهدد مبدأ التضامن وهو المبدأ الذى قام عليه كيان البيت البويهى فى عهد على بن بويه وأخويه • وظل هذا الانقسام يزداد الى أن أحسوا آخر الأمر بالخطر فلم يغن عنهم تضامنهم فى اللحظة الأخيرة شيئا •

والسبب الثانى هو أن ملوك بنى بويه ضيقوا على أنفسهم أفقهم ، فلم يلتفت ملوكهم الى الحوادث الكبيرة التى كانت تقع فى العالم الاسلامى فى البلاد المجاورة لهم : لم يلتفتوا غربا الى نهضة بيزنطة فى أيام الدولة المقدونية ، والى غاراتها على الشام واقتصارها انتصارا حاسما على الدولة الحمدانية • فلم يشاركوا الأمم الاسلامية المجاورة فى الدود عن الحدود ، مع أن الملاحظ بالتجربة أن الدول انما تكبر وتندعم بمقدار ما تتحمل من أعباء عامة ، فلما قصرت هذه الدولة فى تحمل الأعباء العامة انحصرت عنها الأنظار وضعف اسمها • ولم تزد مشاركة بنى بويه للأمم الاسلامية الغربية فى دفع الخطر عن التفكير ولكنهم لم ينفذوا شيئا • ولعلهم شغلوا عن الجبهة الرومية وعن التعاون مع الممالك الغربية بما كان بينهم من خلافات • ثم ان بنى بويه من ناحية أخرى لم يشاركوا فى الدفاع عن الجبهة الشرقية التى كان يحمل أعباءها السامانيون والغزنويون ، وهم حين قصبوا فى هاتين الجبهتين رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مملكة اقليمية ، ولم يحرصوا على أن يكون لهم دور الصدارة فى العالم الاسلامى • وبذلك لم ينالوا حب العالم الاسلامى وعطفه ، ولعل ذلك هو الذى حدا بالمؤرخين الى ذم بنى بويه واتهامهم باذلال الخلافة ، ثم كان ذلك سببا فى قصر عمر دولتهم فلم تعمّر أكثر من ١١٣ سنة •

الفصل الثاني

العصر السلجوقي

السلجقة مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم « الغز » كانت تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم (بحر آرال) فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين وفي الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيجون . وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلجقة نسبة الى رجل منها تزعمها هو « سلجوق بن دقاق » ، ولم يكن لهذه القبائل اسم خاص تعرف به قبل تولى سلجوق هذا رئاستها ، ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ووحدها تحت زعامته ، ثم قادها ونزل بها أرض الاسلام ، فأسلمت معه فنسبت اليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده (١) . وقد قاد أبناء سلجوق الهجرة التركية الى غرب العالم الاسلامي .

والهجرة التركية من الهجرات العالمية الكبيرة التي أثرت في التاريخ الاسلامي ، بل أثرت في التاريخ العام تأثيرا كبيرا ، ونقطة التحول في حياة هؤلاء الترك ، بل نقطة الانطلاق ، كانت حين اعتنقوا الاسلام حين وصل الى بلادهم ، وباعتنائهم الاسلام انهار الحاجز الذى كان يفصل بينهم وبين الأمة الاسلامية ، بل بينهم وبين التاريخ العالم . فأخذوا يتسربون الى ممالك المسلمين يدخلون في خدمة ملوكها وأمرائها وقوادها ، ويمددون العالم الاسلامي بقوة جديدة ويعطونه حيوية كبيرة . ثم وانتهم الظروف بعد أن دخلوا في المجال الاسلامي فكونوا لأنفسهم دولا وجلسوا على كراسى الملك .

وهكذا رفع الاسلام من قدر الترك ، فأدخلهم في نطاق التاريخ

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٦٧ . عبد المنعم حسنين : سلجقة ايران والعراق : ص ١٧ .

العالمى . ثم مهدوا هم أنفسهم فيه مكانا عليا ، حين جعلوا من الاسلام
الراية التى ياتفون حولها ، فأنعشوا قوة الاسلام فى دار الاسلام ،
ثم منسوا بها قدما يركزونها فى معالم الطريق الذى ساروا فيه فى
البر والبحر ، حتى قدر لهم أن يزيلوا آخر الأمر أكبر دولة غربية
كانت . نازل العالم الاسلامى وهى الدولة البيزنطية . وأن يبلغوا
بمالك الاسلام حتى وسط أوربا (١) .

والهجرة التركية التى تولى زعامتها بنو سلجوق تشبه الهجرة
الديلمية التى نزعها بنو بويه فى نواح وتخالفها فى نواح أخرى . فأما
وجه التشبه بين الهجرتين ، فهو أن كلتا الهجرتين نفذت على مراحل ،
ونفذت على كل مرحلة منها حتى تثبت أقدامها فى المكان الذى وصلت اليه .
ثم ان كلا من البويهيين والسلجقة تطاعوا الى الوصول الى مركز الخلافة
العباسية والسيطرة عليه وحكمه باسم الخلافة ، وكلاهما وصل الى غايته ،
وكلاهما حاول حكم العالم الاسلامى الشرقى كله ، فأما البويهيون فلم
يستطيعوا تحقيق هذه الغاية . وأما السلجقة فقد نجحوا ، بل امتدت
دولتهم الى أكثر من ذلك . وكلا الطرفين شل يد الخلافة وقام بالحكم
المباشر دونها مع انسار الطاعة لها واظهار الاحترام لخلفائها .

وأما وجه الخلاف بين الهجرتين ، فان الهجرة البويهية سارت فى
مراغ بين قوتين هما قوة الخلافة فى العراق وقوة السامانيين فى المشرق ،
وكان مرورها فى الخط الضعيف هينا سهلا ، فلم تتعرض لحروب كبيرة ،
أما الهجرة السلجوقية فقد اقتحمت مجالا قويا كانت تسيطر عليه قوتان ،
هما الدولة السامانية ، ثم الدولة الغزنوية من بعدها ، وقد استطاع
السلجقة أن يحنلوا بعطف الدولة الأولى ويتعاونوا معها ، أما الثانية فقد
حارعوها . مراعا شديدا حتى استطاعوا أن يحلوا محلها ، ويردوها الى
الركن الغربى من المشرق الاسلامى الذى بدأت منه . ثم ان الهجرة

(١) عبد النعيم حسنين : انظر المقدمة بقلم الدكتور أحمد عزت

عبد الكريم : ص ح .

البويهية كانت فى تقدمها تسير الى غاية تسعى للأمن فيها ، فكان توقفها فى أثناء سيرها توقفا بقصد الراحة فحسب ، فلم تكن تستولى على البلاد التى تمر بها ، لأنها كانت مطاردة من ورائها بقوة أكبر ولا ترغب هى فى قتالها ، فكانها من هذه الناحية تعتبر فارة من وجه أعدائها ، ولم تتوسع الا بعد أن أمنت ، ثم كان توسعها بعد ذلك فى مجال ضعيف . ولكن الهجرة السلجوقية كانت فى تقدمها تماك ما تصل اليه يدها من البلاد ملكا تاما ، وكان توقفها فى مراحل تقدمها لكى تثبت قدمها فيما ملكت يداها ، ولكى ترسم السياسة التى تنتهجها فى المرحلة التالية . فلم يكن تقدمها فرارا من وجه خصومها وانما كان غلبة على هؤلاء الخصوم . والهجرة البويهية امتدت الى مجال محدود وركزت جهودها فيه ، أما الهجرة السلجوقية فقد امتدت الى مجال واسع وتطلعت الى غاية كبيرة . وقد رضى البويهيون أن يجعلوا من أنفسهم دولة اقليمية ، ولم يشاركوا فى أحداث العالم الاسلامى الخارجى ، ومن ثم لم يظفروا باحترام العالم الاسلامى ، وظل السلاجقة بعد ذلك يوالون نشاطهم فى الثغر الشرقى أول أمرهم الى المجال الخارجى ، فشاركوا العالم الاسلامى فى أهدافه العامة فى المشرق والمغرب على السواء . وقد بدأت مشاركتهم للعالم الاسلامى فى المشرق منذ دخلوا فى الاسلام ، فان «سلجوق» نفسه نشط بعد اسلامه الى قتال من وراءه من الترك الكفار وأبعد شرهم عن العالم الاسلامى ، وظل السلاجقة بعد ذلك يوالون نشاطهم فى الثغر الشرقى حين اجتمع المشرق كله فى أيديهم ، أما فى الغرب فقد توجهوا منذ وصلوا الى الثغر الغربى الى قتال الروم ، وصبغوا أعمالهم فى هذه الناحية بصبغة الجهاد الدينى ، وحملوا عن العالم الاسلامى فى هذا الثغر الهام عبء الجهاد ، فاقتطعوا من الروم الأناضول وحولوها الى أرض تركية اسلامية ، فمهدوا بذلك السبيل للترك العثمانيين للقضاء على دولة الروم والاندفاع فى الأراضى والبحار الأوروبية ، فكانهم بذلك حملوا رسالة العرب وحققوا ما كان يصبو اليه خلفاء الأمويين منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ، وعلى الرغم من تسلط البويهيين والسلاجقة على الخلافة ، فإنها

لم يمتد بطموحها في العصر البويهى الى استعادة سلطانها على المغرب الاسلامى ، بل انها كانت تحس بتهديد هذا المغرب لها تحت سلطان الفاطميين ، وقد بلغ هذا التهديد مداه حين وصل النفوذ الفاطمى الى بغداد نفسها وخطب فيها للخليفة الفاطمى المستنصر بالله، أما فى العصر السلجوقى فان الخلافة طمحت الى استعادة سلطانها على المغرب ، فقد قلد الخليفة طغرلبيك السلجوقى « جميع ما ولاه الله من بلاده » وخاطبه بلقب « ملك المشرق والمغرب » (١) ويدل هذا على أن الخليفة اعترف لطغرلبيك بما صار تحت يده من بلاد المشرق وأذن له فى أن يستخلص المغرب من يد الفاطميين، وهكذا اتسعت آمال الخلافة بقدم السلاجقة ، كما اتسعت آمال السلاجقة أنفسهم الى أن يمتد سلطانهم من بلاد ما وراء النهر الى مصر الغربية .
واذا كان هذا لم يتحقق على يد السلاجقة أنفسهم فانه تحقق على يد صلاح الدين الأيوهى ، الذى يمكن أن نعتبر عصره وعصر مولاه نور الدين محمود الذى كان أتابكا من أتابكة السلاجقة امتدادا للأثر السلجوقى ، فقد أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية بمصر وخطب فيها للخليفة العباسى ، وبذلك عاد المغرب للخلافة العباسية ولو بصورة اسمية .

الخطوط العامة للهجرة التركية

بدأت الهجرة التركية الغزية بانحذار هذه القبائل من مساكنها تحت زعامة سلجوق بن دقاق الى بلاد ما وراء النهر فى عام ٢٧٥ هـ (٩٨٥ م) وأقاموا بها متعاونين مع الدولة السامانية ، يجاهدون من وراءهم من الترك الكفار ، ويساعدون السامانيين فى حروبهم مع خانات الترك ، وفى نزاعهم مع الغزنويين ، حتى اذا ما انهارت الدولة السامانية عام ٣٨٩ هـ دخلت حياة السلاجقة فى طور جديد ، فقد خشيهم الخانيون فى بلاد ما وراء النهر ، فأغروا السلطان محمودا الغزنوى بهم ، فدبر مؤامرة قبض فيها على زعيمهم اسرائيل بن سلجوق ووجوه قومه وزج بهم فى أعماق السجون . لكنه بعد ذلك أذن لهم فى العبور الى خراسان .

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٣٧ .

وبعبور السلاجقة الى خراسان تبدأ الخطوة الثانية من خطوات الهجرة السلجوقية ، وفي هذه المرحلة اصطدم السلاجقة بالدولة الغزنوية اصطداما مباشرا ، واستطاعوا التغلب على مسعود بن محمود الغزنوي فاستولوا على كل اقليم خراسان ، وأعلنوا قيام دولة السلاجقة ، وطلبوا من الخلافة الاعتراف بدولتهم وبطغرل بك سلطانا عليهم سنة ٤٣٢ هـ . وفي هذه المرحلة امتدوا بنفوذهم على كل أقاليم ايران وأزالوا عنها الملك البويهى كما أزالوا عنها الغزنويين ، وبرزوا بقوتهم فى ثغر الروم ، وأطلقوا على العراق .

وكانت المرحلة الثالثة من مراحل الهجرة هى وصول السلاجقة الى العراق ودخول طغرل بك بغداد وازالة ملك البويهيين سنة ٤١٧ هـ ، ومن العراق امتد السلاجقة بنفوذهم الى كثير من بلاد الشام . وبذلك كملت الهجرة وامتد السلاجقة من بلاد ما وراء النهر الى سواحل البحر المتوسط فوجدوا العالم الاسلامى الشرقى تحت سلطانهم ، كما تطلعوا الى ضم المغرب اليه .

كان السلاجقة عنصرا غريبا على البلاد التى دخلوها وغلبوا على الحكم فيها ، فهم شعب متبربر بالقياس الى الشعب الايرانى المتحضر الذى مارس حياة الاستقرار أزمانا طويلة ، وألف الحضارة وكان له تراثه الحضارى العظيم . أما السلاجقة — ونعنى بهم العنصر التركى الذى غلب اسمهم عليه — فانهم لهم يآلفوا حياة المدن والاستقرار فى مواطنهم الأولى ، بل عاشوا حياة قبلية مطبوعة بطابع البداوة من ميل الى التنقل والارتحال ، طلبا للرزق وانتجاعا الى مواطن الكلا . فلما هاجروا الى العالم الاسلامى المتحضر كانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم ، الأمر الذى صبغ دولتهم بهذه الصبغة ، وكان له أثر كبير فى حاضرهم ومستقبلهم . فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتمادا كبيرا ، وكونوا من رجالها جيوشهم ولذلك شجعوا هذه القبائل

على الوفود الى ايران وغيرها من الأقطار الاسلامية (١)

وكان المظهر القبلى يغلب على سلاطين السلاجقة وبخاصة الأولين منهم ، فالسلطنة عندهم كانت مقترنة دائما بقيادة الجيوش ، لأنها استمرار للأصل الذى فُتحت عنه ، وهو رياسة القبيلة وقيادة قواتها المقاتلة ، شأنهم فى ذلك شأن شيوخ القبائل عند العرب (٢) • ولذا نجد كل سلطان من سلاطين السلاجقة يقود الجيوش بنفسه أو يعهد بذلك لأحد من أولاده أو أقربائه أو أحد الأشخاص المقترنة أسماؤهم بأحد أفراد البيت السلجوقى (٣) •

ولغلبة الحياة البدوية على السلاجقة لم يكن سلاطينهم على درجة من الثقافة ، مما جعلهم فى حاجة ماسة الى كثير من الموظفين لاستعمالهم فى المهام المختلفة ، ولذلك برزت فى عهدهم طبقة الموظفين ، وازداد نفوذ أفرادها تبعا لأهمية المناصب التى يتولونها ، أو لصلتهم بالسلطان السلجوقى ، ومن أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب ، الذين استطاعوا أن يلعبوا دورا موحها فى كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية ، بل استطاعوا فى كثير من الأحيان أن يسيطروا على السلاطين السلاجقة ، ويوجهوهم وفق ارادتهم (٤) •

كما أن النظام القبلى كان واضح الأثر فى حياة الدولة السلجوقية ، فقد غلبت على سلاطينهم الصنيفة العسكرية ، وساعد على ذلك وجود كثير من القبائل السلجوقية فى المدن الرئيسية فى ايران والعراق ، وقد أدت قوة النظام القبلى الى اثاره الفتن والقتال فى كثير من مراحل تاريخ السلاجقة ، وهذا يذكرنا باشتعال الفتن بين القبائل العربية فى أمصار

(١) عبد المنعم حسنين : ص ١٩ •

(٢) انظر احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ، الفصل الخاص

بالنظام القبلى •

(٣) حسين امين : العراق فى العصر السلجوقى : ص ١٨٢ •

(٤) عبد المنعم حسنين : ص ١٩ •

الدولة الإسلامية في العهد الأموي • فقد كانت القبائل تشعل نيران الفتن في العصر السلجوقي إذا حرم السلاطين أفرادها من المرتبات التي يؤدونها لهم ، فتزيد الحالة سوءا واضطرابا •

كما أثرت بدعوة السلاجقة في حالتهم الدينية ، فانهم حين دخلوا في الاسلام تعصبوا له تعصبا شديدا ، ومالوا ميلا مفرطا لأهل السنة والجماعة حين دخلوا الاسلام على المذهب السني ، وقد انعكس ذلك في تصرفاتهم فجعلهم يظهرون الولاء للخليفة العباسي في بغداد ، ويسعون لازالة خصومه الفاطميين الشيعة • كما كانوا يحترمون رجال الدين احتراما شديدا ، وقد حظى شيوخ الصوفية منهم بالاجلال والتعظيم ، الأمر الذي أدى الى انتشار التصوف في عهدهم وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام ، فارتفع شأن رجالها ، وعظم تأثيرهم في حياة الناس (١) •

وثمة ظاهرة أخرى برزت عند سلاطين السلاجقة وهي اعتقادهم بأن حكمهم مستمد من الله ، فهم يقولون بنظرية الحق الإلهي في الحكم ، ويبدو هذا غريبا على قوم انطبعت حياتهم بالنظام القبلي ، ولعل الفكرة جاءتهم عن طريق وزرائهم الفرس وبخاصة نظام الملك ، ويبدو هذا واضحا من كلام نظام الملك نفسه في كتابه « سياسة نامه » اذ يقول « اختار الله السلطان وميزه على عباده ، وجعلهم جميعا خاضعين له ، ومنه يستمدون نفوذهم ودرجاتهم ، أما هو فيستمد قوته من ربه الذي جعله أمينا على عباده ، وكفاه أن يتحلى بطيب الخلق وحميد الخصال (٢) » • كما يتضح كذلك من المرسوم الذي أصدره السلطان ألب أرسلان في تفويض ولده الأعز ملكشاه الى (الخواجا) نظام الملك « وأن نعده ونهيئه لنعمة الملوكية المفوضة من الله تعالى ، والتي حصلها بواسطة تربيتنا

(١) عبد المنعم حسنين : ص ٢١ •

(٢) سياسة نامه : ص ٦٢ — ٦٣ • حسين أمين : ص ١٨٠ —

له (١) ، ومعنى هذا أن السلاجقة صبغوا حكمهم بصبغة إلهية دينية ،
ليكسبوا حكمهم صفة القداسة وليفرضوا على الناس احترامهم وطاعتهم ،
وشاركوا الخليفة العباسي في نفس الصفة التي يدعيها لنفسه . والأمر
في كلتا الناحيتين غريب على طبيعة السلاجقة الأولى ، كما هو غريب
على التفكير الإسلامي الأول . فإن السلطان « طغرل بك » أول سلاطين
الدولة السلجوقية انتخب على نحو ما ينتخب زعماء القبائل على أساس
الخلال الكريمة التي من شأنها أن تخدم مصالح الجماعة والتي منها
المقدرة وقوة الشخصية والشجاعة ، كما أن أبا بكر أول خليفة للمسلمين
انتخب على أساس خلاله الكريمة وليس على أساس حق إلهي ، وقصد
حرص هو على إبراز ذلك في أول خطبة له في مسجد المدينة في قوله
« أيها الناس : فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت
فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » . وإنما جاءت فكرة الحق الإلهي
في الناحيتين من تفكير شعوب كانت قد درجت على اعطاء حكم ملوكها
صفة الحق الإلهي ونعني هنا الفرس .

ومع كل هذا فقد ظلت التقاليد القبلية بارزة في حكم السلاجقة ،
ولم يخضعوا لزعيم واحد إلا في عصورهم الأولى حيث كانت الظروف
تفرض عليهم التوحيد ، ثم لم يلبثوا أن استقل كل واحد منهم بما ملك
يداه ، ودبت الشحناء والمنافسات بينهم حتى كان ذلك سببا في ضياع
ملكهم آخر الأمر .

ونريد بعد هذا التقديم أن تتبع خطوات الهجرة السلجوقية ،
ثم نسائر الحكم السلجوقي حتى نهايته .

السلاجقة في بلاد ما وراء النهر :

بدأت هجرة القبائل التركية الغزية من مساكنها في أقصى التركستان
في خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية ، تحت ضغط ظروف

(١) المصدر السابق .

قاهرة ، أما لضيق اقتصادى وعجز الموارد الطبيعية عن اقامة هذه القبائل التى تزايد عددها ، واما تحت ظروف ضغط قبائل أقوى منها اضطرتها الى التخلي عن مساكنها • وقد اتجهت هذه القبائل المهاجرة نحو الغرب ، نحو اقليم ما وراء النهر وخراسان •

لكن التاريخ لم يذكر اسم السلاجقة الا منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، حيث بدأ اتصالهم بالعالم الاسلامى ، على يد زعيمهم « سلجوق بن دقاق » الذى يبدو أنه نشب خلاف بينه وبين زعيم تركى آخر ، ففارقه والتجأ الى أرض الاسلام بجماعته ، حيث أملاك السامانيين فى بلاد ما وراء النهر • ولما لم يكن دخول القبائل التركية الوثنية الى بلاد الاسلام أمرا ميسورا فقد أعلن سلجوق وجماعته الاسلام • وكان دخولهم الاسلام على المذهب السنى الذى يرعاه الخليفة العباسى • ونلاحظ هنا الفرق بين دخول الديلم ودخول السلاجقة فى الاسلام ، وهو أن الديلم اعتنقوا الاسلام قبل أن تبدأ هجرتهم للعالم الاسلامى على يد دعاة الشيعة الزيديين فدخلوا الاسلام على المذهب الشيعى الزيدى ، وخضعوا قبل هجرتهم الى داخل العالم الاسلامى للأئمة الزيديين • أما السلاجقة فانهم لم يسلموا الا بعد أن لجأوا الى أرض الاسلام فعلا ، ولما كان السامانيون والخانيون وهم من نزل الترك الغز فى أملاكهم ، من المسلمين السنيين ، فقد دخل سلجوق وجماعته الاسلام على المذهب السنى • ثم لم يلبثوا أن تحمسوا للاسلام تحمسا شديدا حتى أخذ سلجوق يغير على من وراءه من الترك الكفار الذين كانوا يهددون أرض الاسلام • واستطاع القضاء على شرهم •

استطاع سلجوق أن يرضى المسلمين فى بلاد ما وراء النهر بما قام به من أعمال ضد الترك الكفار فيما وراء أرض الاسلام ، ثم أتيت له فرصة لارضاء ملوك السامانيين حين استنجدوا به فى قتالهم مع الخانيين ،

الطامعين في أملاكهم ، فأرسل لهم النجيدات تحت قيادة ولده أرسلان (١) .
وكان لهذه المساعدة أثرها الطيب في نفوس السامانيين : فأذنوا لسلجوق
وجماعته بالمرور في أراضيهم ، والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب
من شاطئ نهر جيحون ، حيث اتخذ مدينة «جند» قاعدة له . ثم أخذت
القبائل التركية تتوالى على بلاد ما وراء النهر ، حتى اكتبلت هجرتهم
إلى هذه الناحية في أواخر القرن الرابع الهجري .

وبدأ القرن الخامس والسلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر
بعد أن تمت هجرتهم من بلاد التركستان . وكانت الدولة السامانية قد
انهارت في عام ٣٨٩ هـ ، وتوزعت أملاكها بين الخانيين والغزنويين .
وأخذ السلاجقة وقد كثرت أعدادهم ينتقلون في إقليم ما وراء النهر في
شبه رحلتين ، فيتجمعون في الشتاء حول « نور بخارى » وفي الصيف
حول « سمرقند » (٢) . واستقرت حياتهم وطاب لهم العيش في مقامهم
الجديد ، ونمت ثروتهم وزاد عددهم ، فبدأوا يستعدون للقيام بدور
جديد ، بعد أن جهزوا أنفسهم بالمال والعتاد ، وبعد أن أحسوا بضيق
الخانيين بهم ، ومحاولاتهم المتكررة للقضاء عليهم واضعافهم (٣) .

بدأ مركز السلاجقة يتوطد في بلاد ما وراء النهر ، وأحبهم الناس
لما أظهروه من التمسك بأهداب الدين ، والغيرة على الإسلام والتقرب
من علماء المسلمين ، حتى لقد أحس الخانيون بخطرهم عليهم . ولما كان
هؤلاء يدركون أنهم لا يقوون على طرد السلاجقة من البلاد ، فقد راسلوا
السلطان محمود الغزنوي الذي كان القوة الوحيدة البارزة في المشرق
الإسلامي . وكانت تجمعهم بالخانيين في ذلك الوقت روابط الصداقة
والمصاهرة . فأظهروه على قوة السلاجقة وصوروا له مقدار الخطورة
الكبيرة التي تكمن وراء وجود هذه القوة خلف ظهره ، في الوقت الذي

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور : ص ١٤٥ .

(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ .

(م ٣٥ — العصر العباسي)

يتفرغ هو فيه الى غزواته في الهند . ولما كان السلاجقة قد أخذوا فعلا يسعون لتوسيع ممتلكاتهم بالاغارة على المناطق المجاورة لهم ، فقد أحس السلطان محمود بخطورتهم ، وكان يدرك بتجاريه الخاصة كيف تتجمع القبائل ، ثم تكون الجيوش ، ثم تقيم الدول . لذلك استمع الى نصائح الخائنين ، وأخذ يفكر في أنجع الوسائل للقضاء على قوة السلاجقة .

وبتدخل السلطان محمود بدأت صفحة جديدة في سير الهجرة السلجوقية ، فقد انتقلوا من بلاد ما وراء النهر الى الأقاليم الإيرانية ، واستطاعوا أن يقيموا لهم دولة ، ما لبثت أن امتدت على كل أقاليم إيران ، ونالت اعتراف الخلافة العباسية بها .

السلاجقة في خراسان :

مات سلجوق بمدينة « جند » وترك أولادا أربعة : إسرائيل (بيغو أرسلان) وموسى بيغو ، ويونس ، وميكائيل (١) . وآلت قيادة السلاجقة الى إسرائيل . ولكن أمر السلاجقة علا من بعده على يد ابنه أخيه ميكائيل ، وهما : جغرى بك أبو سليمان داود ، وطفرك بك أبوطالب محمد وهو الذي آلت اليه رئاسة السلاجقة العامة وقاد نهضتهم الكبرى .

كان السلطان محمود بالقرب من نهر جيحون سنة ٤١٥ هـ حين اشتكى اليه الخانيون من وجود السلاجقة وحذروه من خطرهم . وحين استطلع هو خبرهم وعلم بعظم قوتهم ، لم يشأ أن يلجأ الى الحرب في كسر شوكتهم ، وإنما فضل أن يأخذ الأمر بالحيلة والدهاء . فأرسل الى السلاجقة رسالة يمتدحهم فيها ، ويعجب منهم — مع حسن تديبرهم وقوة عقلهم — كيف لا يتصلون به ولا يطلبون منه شيئا . ثم يعرض عليهم عقد ميثاق يؤكد الصداقة والود بينهم ، فهو شديد الرغبة في مصادفتهم ،

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٦ . حسين أمين : ص ٤٠ .

لا يستغنى عن معونتهم • وهو لذلك يرغب فى أن يقدم عليه جميع الاخوة السلاجقة ، فان لم يستطيعوا الحضور جميعا ، فليختاروا واحدا منهم يفد اليه • وحدد مكانا للقاء بالقرب من نهر جيحون (١) •

اختار السلاجقة لمقابلة السلطان زعيمهم اسرائيل ، وسار هذا الى لقاء محمود فى جيش كبير ، لكن السلطان كان يدبر فى نفسه أمرا ، هو القبض على زعيم السلاجقة ومن معه من الوجوه والقواد • لذلك أرسل الى اسرائيل رسولا يستقبله ، ويقول له : « لسنا الآن فى حاجة الى الاستمداد بجيشك ، وانما جملة مقصودنا أن ننعم برؤيتك والاستظهان بك ، فاترك الجيش فى مكانه ، وتعال أنت مع خواصك وأعيان رجالك » (٢) • وفارق اسرائيل حذره وانخدع بملاطفة السلطان ، فترك الجيش وسار فى خاصة قواده ، وأتاح بذلك للسلطان فرصة القبض عليه وعلى قواده والقائهم فى غياهب السجون ، ثم أمر السلطان بحمل اسرائيل بعيدا حيث حبسه فى احدى قلاع الهند حتى مات سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م (٣) •

كان لفعل محمود أثره الكبير على السلاجقة وعلى الدولة الغزنوية نفسها • فأما أثره على السلاجقة ، فان هذا العمل الذى يتنافى مع تقاليد الشهامة ومع التقاليد الاسلامية ، أحفظهم وجعلهم يصممون على الشار لزعيمهم ورجاله ، ولكن فى أفاء ودهاء ، فقد علمهم هذا الحادث الحذر والحيلة ، وعدم الأمان لجيرانهم ، فرسموا خطتهم على مصانعة السلطان والمكر به حتى يسمح لهم بالانتقال الى خراسان ليعيدوا عن دسائس الخائين ، ثم اذا وصلوا الى هذا الاقليم وثبتوا أقدامهم ، وسعوا الى الاقتضاض على الغزنويين والأخذ بالثار منهم ، ثم لتكن خطوتهم بعد ذلك تكوين دولة قوية لهم تخلف الغزنويين فى اقليمى خراسان وما وراء

(١) الراوندى : ص ١٤٧ — ١٤٨ •

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٨ •

(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٧ • الراوندى : ص ١٥٠ — ١٥١ •

النهر ، وتضم إليها ما تستطيع ضمه من كل أجزاء إيران • وأما أثر هذا العمل على السلطان فإنه اعتقد أنه كسر شوكة السلاجقة وقل حدهم ، ولذلك فارقت الحيلة والجذر ، فوقع في كيد السلاجقة الذين أوقعهم من قبل في كيده •

رأى السلاجقة أن الاشتباك في حروب مع السلطان قد يعصف بالبقية الباقية من قوة السلاجقة ، نظرا لقوة السلطان محمود ومكائنه في العالم الاسلامي ، ولأنهم في مواقعهم ببلاد ما وراء النهر يتعرضون كذلك لقوة الخانيين ، وبذلك يضربون من ناحيتين • فآثروا الحيلة حتى ينفذوا الى قلب الدولة الغزنوية نفسها ، فراسلوا السلطان محمود يستعطفونه ويلتمسون منه الاذن بالمرور بالأراضي التي تخضع لسلطانه ، والرحيل الى اقليم خراسان ، والاقامة في المنطقة الواقعة بين مدينتي « نسا » و « باورد » • وعلى الرغم من تحذير حاكم طوس للسلطان وتبصيره بالخطورة التي تهدد دولته باقامة السلاجقة في خراسان ، فإن السلطان لم يأبه بهذا التحذير ، اعتقادا منه بأنه أضعف قوة السلاجقة حين قبض على اسرائيل وقواده ، فسمح لهم بعبور جيحون ، وفرقهم في نواحي خراسان واعتبرهم من رعاياه ووضع عليهم الخراج (١) •

كان انتقال السلاجقة الى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل الهجرة السلجوقية ، وتعتبر في الحقيقة أهم مراحل الكفاح السلجوقي للقيام بدور بارز في تاريخ العالم الاسلامي • كما كان لهذا الانتقال أثر موجه لمستقبل إيران وما جاورها • فقد أخذ السلاجقة يدعمون قوتهم ، وينتشرون في الأرجاء المجاورة لهم ، وهم بذلك يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية واقتلاع جذورها من بلاد خراسان وما وراء النهر •

قاد السلاجقة في مرحلتهم الجديدة ابنا ميكائيل بن سلجوق : جفرى

(١) ابن الأثير : معجم ٩ ، ص ١٧٧ • الراوندى : ص ١٥٣ •

بك أبو سليمان داود ، وطغربك أبو طالب محمد . وكانا يتمتعان بنفوذ كبير بين الجند ورجال القبائل ، لما كانا يتحليان به من صفات الفروسية والشجاعة وسعة الرأي وقوة التدبير . وهما اللذان واجهتا القوات الغزنوية ، وقادا صراع السلاجقة في خراسان . وذلك أن أهل « نسا » و « ياورد » اشتكوا الى السلطان محمود في أواخر عام ٤١٨ هـ ، فأمر والى طوس باجلائهم ، وكان الوالى نفسه ضيق الصدر من توسع السلاجقة ، فهاجم معسكراتهم . ولكنهم هبوا لقتاله ، واستطاعوا أن يحققوا عليه نصرا كبيرا الى أن تدخل محمود الغزنوى بنفسه وهو الذى استطاع بقواته الكبيرة أن يلحق الهزيمة بهم (١) . لكن السلطان محمود لم يستطع طردهم من خراسان ، بل انهم استطاعوا أن يجمعوا شملهم مرة أخرى ويستعدوا لجولة جديدة .

وواتتهم الفرصة في سنة ٤٢١ هـ عندما مات السلطان محمود ، فأخذوا يوسعون أملاكهم وينشرون نفوذهم على الجهات المجاورة لهم ، حتى شمل نفوذهم أكثر جهات خراسان . وأدى توسع السلاجقة الى الاصطدام بوالى نيسابور وهى قاعدة الغزنويين في خراسان ، فدخلوا معه في حروب طاحنة اضطر فيها الى الاستعانة بقوات السلطان مسعود الذى تولى بعد أبيه محمود ، غير أن السلاجقة حققوا نصرا كبيرا على قوات والى نيسابور ، ثم على مسعود نفسه بعد ذلك ، واضطروه الى عقد صلح معهم (٢) .

أبدى السلاجقة بعد نظر وحكمة ، فبعد انتصارهم على السلطان مسعود ، لم يتعجلوا الأمور قبل أن تتمكن أقدامهم في الجهات التى حصلوا عليها ، وانما رأوا أن يهادنوا السلطان وأن يحصلوا على كل ما توصله اليهم المهادنة من كسب ، فأرسلوا اليه يعتذرون عما حدث منهم ، وبأنهم انما كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن منازلهم وأبنائهم ،

(١) حسين أمين : ص ٤٩ .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٧٨ .

ولولا ذلك ما قاتلوا ولا رفعوا حساما في وجه السلطان ، ثم يطاولونه
تخفيف وقع الهزيمة بأن جيش السلطان « أصابته عين حاسدة » فهزم
على الرغم منهم • وهم لذلك يطلبون عطف السلطان وعفوه (١) •

كان السلاجقة يبغون من وراء طلب الصلح أن ينالوا وقتا من الراحة
والاستقرار ، وليكسبوا شيئا من البلاد يعترف السلطان بحقوقهم في
ولايتها • فعلا تحقق لهم ما أرادوا ، فتم الصلح بينهم وبين السلطان
على أن تعطى الى بيغو وطرغل وداود ولايات « نسا » و « فراوة »
و « دهستان » ويعطى لكل واحد منهم خلعة ومنشورا ولواء ، وأن يقوم
القاضي بتسليمهم الخلع بنفسه ، ويأخذ عليهم الميثاق بالوفاء للسلطان •
على أن يقتصروا على ولاياتهم هذه ، وأن يأتى أحدهم بلاط السلطان
ليكون في الخدمة (٢) •

وقد نظمت هذه الاتفاقية ، وكتبت « دهستان » باسم داود ،
و « نسا » باسم طرغل و « فراوة » باسم بيغو ، ثم وقعها السلطان ،
وأوجت اليهم رسائل منه ، فخطبوا بلقب « الدهقان » (٣) •

استراح السلاجقة بعد هذا الصلح وأتيحت لهم الفرصة لتقوية
مركزهم بعد أن اعترفت بهم الدولة ولاة من قبلها ، فأخذوا في توسيع
رقعة أراضهم التي ضاقت بهم نظرا لتوارد القبائل التركية عليهم ،
وتواردت أخبار تقدمهم على عاصمة الدولة في غزنة ، فأحس رجال
الدولة بخطورة تقدمهم في خراسان ، فاجتمعوا الى السلطان الذي كان
قد ركن الى الصلح مع السلاجقة ، فأعرض عن خراسان والسلجوقية
وتفرغ لأمر بلاد الهند ، وأخذوا يحذرونه مغبة اهمال أمر خراسان ،
وقالوا له كما يروى ابن الأثير « ان قلة المبالاة بخراسان من أعظم سمادة

(١) انظر رسالة السلاجقة في تاريخ البيهقي ، ص ٥٢٥ — ٥٢٦ •

(٢) حسين أمين : ص ٥٠ — ٥١ •

(٣) البيهقي : ص ٥٢٨ • حسين أمين : ص ٥١ •

السلجوقية ، وبها يملكون البلاد ويستقيم لهم الملك ، ونحن نعلم وكل عاقل أنهم اذا تركوا على هذه الحالة استولوا على خراسان سريعا ثم ساروا منها الى غزنة ، وحينئذ لا يتفعنا حركاتنا » (١) .

عندئذ تقض السلطان الصلح وأمر والى خراسان بضرب السلاجقة وطردهم ، ولكن هذا أجاب بأن « امر السلاجقة قد علا بحيث لا أستطيع أنا ولا غيري أن نقاومهم » (٢) . فسير مسعود قوات لحرب السلاجقة ، ولكن هؤلاء راوغوها ، وما زالوا يستدرجونها حتى اذا ما وجدوا فرصة هاجموها ، فألحقوا بها هزيمة فادحة على باب مدينة سرخس سنة ٤٢٩ هـ ، ثم تقدم طغرل بك الى مدينة نيسابور فدخلها وجلس على عرش الملك مسعود ، وأعلن قيام دولة السلاجقة ، ونادى بنفسه سلطانا باسم « طغرل بك السلطان المعظم ، ركن الدنيا والدين أبو طالب » (٣) ثم فرق عماله فى النواحي ، وسار أخوه داود الى مدينة هراة فاستولى عليها .

تعتبر سنة ٤٢٩ هـ — ١٠٣٧ م بدء قيام دولة السلاجقة ، لأن طغرل باشر مهامه كسلطان فعلى لهم منذ ذلك التاريخ ، وبذلك أصبح للسلاجقة كيان سياسى ، ورقعة فسيحة من الأرض ، وحاكم له الزعامة التى منحها اياه رعاياه ، فقد اجتمع رجال البيت السلجوقى فوجسوا صفوفهم ، وانتخبوا طغرل بك رئيسا لهم وسلطانا عليهم ، وبذلك استكملت الدولة الشكل ولم يبق الا استكمال الصفة الشرعية بالحصول على موافقة الخليفة العباسى ، والواقع أن اعتراف الخليفة لم يكن فى ذلك الوقت الا أمرا شكليا لاعطاء الدولة صفة شرعية يرضى عنها الناس ، ولم يلبث الخليفة حين طلب منه السلاجقة الاعتراف أن أصدر لهم التنفيذ .

ولم يمر اعلان دولة السلاجقة فى سهولة ، فان السلطان مسعودا ما كاد يسمع باعتلاء طغرل بك عرشه فى نيسابور وتلقبه بالسلطان « طغرل

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٨ .

(٢) الرواندى : ص ١٥٧ .

(٣) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٧٩ . حسين امين : ص ٥٢ .

الأول» حتى خرج بنفسه على رأس قواته لتأديب السلاجقة ، لكن هؤلاء ألحقوا به هزيمة حاسمة عند « دندانقان » فى عام ٤٣١ هـ . انقلب بعدها مدحورا الى غزنة ، وغنم السلاجقة من معسكره « ما لا يدخل تحت الإحصاء ، وقسسه داود على أصحابه وآثرهم على نفسه » . ورجع طغرل الى نيسابور عزيزا منصورا (١) . فلما دخل طغرل البلد كف العيارون الذين كانوا يعيشون فى البلاد فسادا ، فسكن الناس واطمأنوا ، واستولى السلجوقية حينئذ على جميع البلاد ، فسار ييغو الى هراة فدخلها ، وسار داود الى بلخ فملكها .

كانت موقعة « دندانقان » موقعة حاسمة فى تاريخ السلاجقة والغزنويين على السواء ، فانها أنهت الصراع بين هاتين القوتين ، فلم يعد الغزنويون بعد يفكرون فى مهاجمة السلاجقة أو مناوأتهم ، ولم يحاول أحد من حكام الأقاليم فى ذلك الوقت التصدى لهم ، فقوى أمرهم وتوافد الجند اليهم من جميع أطراف خراسان ، ففقت دولتهم ، وخافها جيرانها ، حتى لقد فكر المسلمون فى إيران والعراق وغيرها من بلاد المشرق الاسلامى فى الانضمام تحت لوائها ، وحرصوا على اظهار الولاء لها ، كما أنها ظفرت برضاء الخليفة العباسى عنها واعترافه بها ، وبذلك انحسرت الدولة الغزنوية عن إيران وبلاد ما وراء النهر ، وبدأ الخيال يداعب طغرل بك فى تكوين دولة عظمى تسيطر على جميع أنحاء العالم الاسلامى ، واتجه طموحه الى العمل على أن يجعل من هذا الخيال حقيقة واقعة ، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل كفاح السلاجقة (٢) .



سيطرة السلاجقة على إيران :

رأى السلاجقة بعد نصرهم المؤزر فى « دندانقان » أن عليهم أن يوحّدوا صفوفهم ، ويرسموا لأنفسهم خطة المستقبل ، لذلك عقد طغرل

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٨٠ . البيهقى : ص ٦٩٥ .

(٢) عبد المنعم حسنين : ص ٣٠ .

اجتماعا ضم أخاه جفرى ، وعنه موسى بيغو ، وأبناء عمه ، كما ضم غيرهم من رجالات السلاجقة ، وتدارسوا الخطوات التى ينبغى أن تتلو قيام دولتهم . فتعاهدوا جميعا على أن يظلوا متحدين متماسكين ، وألا يدعوا للتفرق والتنازع سبيلا الى قلوبهم حتى يظلوا أقوياء ظافرين (١) . كما أكدوا اتفاقهم على تعيين « طغرل الأول » قائدا أعلى لجيوشهم وسلطانا على دولتهم ، وتعاهدوا على أن يدينوا له بالولاء دائما . ومع أن طغرل كان أصغر سنا من أخيه جفرى إلا أنه كان قوى الشخصية ، متوفد الذكاء ، فائق الشجاعة ، عظيم الدين ، وهى صفات حبت فيه الجند ورجال القبائل فالتفوا حوله وأسلموا قيادتهم له .

ورأى طغرل أن تحقيق أهداف السلاجقة يقتضى جمع الكلمة ، وتكتيل القوى . ولكى يبذل كل واحد من رجال البيت السلجوقى جهده فى تحقيق الهدف الأكبر ، ولكى يبعد عنهم التنافس والخصومة ، عين كل واحد منهم على ولاية من الولايات ، وسيره اليها ، وسمح له أن يفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها ، على أن يضم ما يفتحها الى منطقة نفوذه دون منازع ، فاختص جفرى بك بأكثر خراسان على أن يتخذ مدينة مرو دارا لملكه . وتنصب موسى على ولاية بست وهرات وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي التى يستطيع فتحها ، وتنصب قاورد وهو أكبر أولاد جفرى على ولاية الطبرسين ونواحي كرمان ، واختص ابراهيم اينال ، وهو أخو السلطان طغرل من الأم ، بقهستان وجرجان ، ولأبى الحسن بن موسى هراة وبوشنج وسجستان وبلاد الغور وهى ولاية متداخلة فى ولاية أبيه موسى . أما طغرل بك فقد اتخذ مدينة الرى دارا لملكه وقرر أن يتجه بنفسه لفتح العراق والولايات القريبة منه (٢) .

بعد أن حدد السلاجقة أهدافهم وربوا أمرهم ، وكان عليهم أن

(١) الراوندى : ص ١٦٥

(٢) الراوندى : ص ١٦٧ — ١٧٧ . حسين أمين : ص ٥٤ .

يستكملوا الصفة الشرعية لدولتهم ، فيحصلوا على موافقة الخليفة العباسي بقيامها ، واعترافه بسيطرتها على الأقاليم التي تحت يدها والمناطق التي قد تسيطر عليها بعد ذلك . فكتبوا للخليفة في عام ٤٣٢ هـ — ١٠٣٠ م رسالة حرصوا فيها على اظهار ولائهم للخلافة وحبهم للجهاد في سبيل الله وابتناء مرضاته ، ثم يروا فيها قتلهم للغزنويين بأن السلطان محمودا غدر بهم وقبض على عمهم اسرائيل بن سلجوق وسجنه في قلعة «كالنجر» بالهند حتى مات ، كما سجن كثيرا من اقاربهم ورجالائهم . ثم شرحوا للخليفة كيف أن ابنه مسعودا أهمل مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب ، حتى أن أهل خراسان طلبوا منهم أن يقوموا على حمايتهم ورعاية مصالحهم . ولكن مسعودا وجه اليهم الجيوش فاضطروا لقتاله حتى أظفرهم الله به . فنشروا العدل وأصلحوا أحوال الناس . ثم طلبوا في آخر رسالتهم أن يعترف الخليفة بقيام دولتهم وبطغرل سلطانا عليهم ، حتى تكون ولايتهم على أساس من الدين ، وأمر أمير المؤمنين (١) .

حين وصلت رسالة السلاجقة الى الخليفة القائم بأمر الله ، كان الملك البويهى يتداعى فى العراق ، فقد انتشرت الفتن بين الجنود ، وبخاصة الجنود الأتراك الذين كانوا فى ثورات دائمة ، من أن الأمن أصبح مفقودا لضعف الدولة وقيام البدو والعيارين بمهاجمة المدن والأسواق ، والفرق المذهبية يضرب بعضها بعضا (٢) . وكان الخليفة يحس بهذا التفكك والانحلال ، ويرى الدولة البويهية عاجزة عن اقرار الأمور فى العراق ، كما يراها عاجزة عن العسود فى الأقاليم الأخرى أمام القوة الجديدة النامية التى اندفعت من خراسان تسيطر على كل أقاليم ايران ، لذلك فانه حين وصلتة رسالة السلاجقة ، بادر بإرسال رسول الى طغرل بك فى الري ، وأمره بأن يتقرب منه ويدعوه للحضور الى بغداد لتتسرف دار الخلافة بحضوره (٣) .

(١) الراوندى : ص ١٦٦ — ١٦٧ . عبد المنعم حسين : ص ٢٣ .

(٢) انظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٨٢ وما بعدها .

(٣) الراوندى : ص ١٦٧ .

لم يتوقف السلاجقة حتى يصل رد الخلافة ، وانما أخذوا في تنفيذ خطتهم في السيطرة على إيران كلها ، فاتجه كل واحد الى ولايته ليستولى على ما يقدر عليه من أقاليم إيران ، وحين وصل رسول الخليفة لم يكن طغرل بك موجوداً بمدينة الري ، فاضطر للبقاء بها ثلاث سنين ، في أثناءها خاض طغرل حروباً كثيرة لاتمام سيطرة السلاجقة على إيران والعراق • اذ كان عليه أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ الديلمة في كل من إيران والعراق ، وقد ساعدته الحالة السيئة في المشرق الاسلامي فانتصر في حروبه جميعها •

وقد بدأ طغرل بك تنفيذ خطته في عام ٤٣٣ هـ ، فولى وجهه شطر جرجان وطبرستان فاستولى عليها من يد « آنوشيروان » الزيارى الذى قبل أن يكون واليا عليها من قبل طغرل بك ، فكان هذا ايذاً بسقوط الدولة الزيارية من إيران (١) •

ثم توجه في عام ٤٣٤ هـ الى خوارزم ، فتمكن من ضمها الى أملاك السلاجقة هي وما جاورها • ثم رحل بعد ذلك الى مدينة الري التى كانت قد وصلتها قوات السلاجقة بقيادة ابراهيم اينال ، فتسلمها وأصلح عمارتها واتخذها مقراً لحكومته (٢) • وفى الري قابله رسول الخليفة ، فأكد له طغرل عزمه على زيارة بغداد فى الوقت المناسب (٣) •

وفى المدة من سنة ٤٣٤ هـ الى سنة ٤٤٦ هـ استطاع طغرل بك أن يضع يده على كل أجزاء إيران الغربية ، فاستولى على قزوین وأبهر وزنجان وهمدان ، واقليم آذربيجان ، فخضع له بذلك أمراء الديلم ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان التى قاومت كثيراً حتى توجه اليها بنفسه ، وفى سنة ٤٤٢ هـ توجه لفتح اصفهان والأجزاء الجنوبية من إيران ، فاستولى عليها وعلى اقليم فارس ، وبذلك أسقط الدولة

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٨٥ •
(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٠ •
(٣) عبد المنعم حسنين : ص ٣٥ •

البويهية في هذه المنطقة . وفي عام ٤٤٦ هـ توجه بنفسه الى اقليم آذربيجان ليؤكد سيطرة السلاجقة عليه ، فدخل تبريز ، ومد بحدوده الى بلاد الروم ، حتى حاصر « ملاذ كرد » وضيق عليها ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها ، وما زال في غزواته حتى بلغ أرزن الروم (١) .

ونلاحظ أن السلاجقة منذ أول أمرهم اتجهوا الى الشغر الرومي ، وبدأوا يصبغون حركتهم بصبغة الجهاد الديني ، فوجهوا القبائل الغزية التي وفدت عليهم في الجهات الغربية من ايران الى قتال الروم والتوسع في بلادهم منذ سنة ٤٥٠ هـ ، على ابراهيم اينال (٢) . ومنذ ذلك التاريخ اصطدم السلاجقة بالروم ، وتولوا عن العالم الاسلامي أمر الشغر الرومي ، ولم تكن حروبهم حروب تخریب وتدمير ثم عودة الى خط الثغور كما كانت الحال من قبل على طول العصر العباسي ، وانما كان اتجاه فتح وامتلاك ، فقد اقتطعوا جزءا من آسيا الصغرى وأقام به فرع من السلاجقة عرف باسم سلاجقة الروم . وبدخول السلاجقة آسيا الصغرى على هذا النحو مهدوا لقيام الامارة العثمانية التي قامت على يد قبيلة غزية تركية ، فامتدت وكونت دولة كتب لها أن تقضى بعد ذلك على بيزنطة وتتوغل في أوروبا .

في سنة ٤٤٦ هـ كان طغرل بك قد فرغ من فتح ايران وبسط نفوذ السلاجقة عليها وعلى بعض البلاد المجاورة لها . وبذلك أطل على العراق ، فأخذ يستعد لدخول بغداد واتمام بسط سيطرة السلاجقة على المشرق الاسلامي كله .

السلاجقة في العراق :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة السلجوقية تتبوأ مقعدها في خراسان ، وتقهر الغزنويين وتردهم الى الركن الجنوبي الشرقي من

(١) انظر ابن الاثير : ج ٩ في حوادث هذه السنوات حتى ص ٢٢٣

(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٠٣ .

العالم الاسلامى ، ثم تتجه غربا لتضم كل أقاليم ايران ، كانت الدولة البويهية تنهاوى أمام ضربات معاول الهدم التى تتوالى على بنيانها المتداعى ، والخلافات بين رجال البيت البويهى تمزق الدولة وتبدد قوتها فى صراعات أسرية ، وفروع البويهيين فى أقاليمهم يعمل كل واحد منهم منفصلا عن الآخر ، بل يسعى بعضهم لقهق بعض والاستيلاء على ما بيده ، وحتى فى الوقت الذى دهمتهم فيه القوات السلجوقية الزاحفة ، لم يتكتلوا أمام الخطر الذى يهددهم جميعا بل تراهم سادرين فى خلافاتهم يقلم بعضهم أظفار بعض ، ويتيحون بذلك للسلاجقة فرصة أخذ ما بأيديهم غنيمة هنية (١) ، فلم تلبث أقاليم الجبال وما وراءها غربا أن سقطت أمام زحف طغرل بك ، كما سقطت الأقاليم الجنوبية والوسطى من ايران فى يد قواته . ولم يبق فى يد بنى بويه غير إقليم العراق ، وهو بذاته يموج بالفتن بين الطوائف المختلفة من الجند ، كان يعمه الاضطراب بسبب النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة (٢) .

وكانت آفة البويهيين الأخرى الى جانب خلافاتهم الأسرية ، هى استئثارهم من الأتراك فى جيوشهم ، وهؤلاء جماعة قد تخدم الدولة فى حالة قوتها وحزم ملوكها ، ولكنها تكون من أشد الأخطار على كيانها اذا ما دب الضعف فيها ، أو اذا ما تنازع رجال البيت الحاكم فيما بينهم . وقد رأينا مثلا لذلك فى حالة الخلافة العباسية قبل عصر بنى بويه ، فقد خدم الأتراك الدولة فى عصر قوتها أيام الخليفة المعتصم وابنه الواثق ، ثم فى عهد انتعاش الخلافة على يد الموفق وابنه المعتضد . لكنهم حين أحسوا من الخلافة ضعفا ورأوا فى البيت العباسى تفككا بعد الواثق ، سيطروا على الشؤون العامة فى دار الخلافة وأهانوا الخلفاء واستبدوا بهم ، وأربكوا الدولة بجشعهم وتسلطهم . ولولا ما كان للخلافة من قدسية واحترام فى نظر الناس لزالَت الخلافة العباسية من الوجود . ولقد

(١) انظر ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٢١ وغيرها .

تكررت المأساة في أواخر العصر البويهى ، ولم يثوت المتأخرون من ملوك بنى بويه من نفاذ البصيرة وبعد النظر ما يتحاشون به ما وقعت فيه الخلافة من قبلهم ، فاستكثروا من الأتراك فى جيوشهم ، وكان أخطر ما فى الأمر أن الجند البويهيين كانوا من الديلم ، وبين الديلم والترك عدااء تقليدى ، لذلك دب الشقاق بين الفريقين ، ولم يتخذ البويهيون سياسة حكيمة لازالة الجفوة بين الطرفين ، وانما لجأوا الى السياسة الهدامة ، وهى محاولة ضرب كل فريق منهما بالآخر ، والوقوف فى موقف التوازن بينهما فيقربون هذا الفريق حتى اذا أحسوا منه تغلبا ، قربوا الفريق الآخر • وقد كان البويهيون يتوخون من تطبيق هذه السياسة عدم افساح المجال للطرفين ليتفقا ضدهم ، الا أن النتيجة كانت خطرا جسيما على الدولة ، وعلى الأمراء البويهيين أنفسهم • فقد أدى التنازع بين طوائف الجند الى اضعاف الجيش البويهى بوجه عام والى احداث اثشقاق خطير بين صفوفه ، كما أدى الأمر الى أن الجند من الديلمة ومن الأتراك فقدوا الثقة بالأمير ، ولم يعد الأمراء بنى بويه المتأخرين تلك الثقة وذلك الاحترام الذى كان فى نفوس الجند للأمراءهم السابقين • وتبعاً لذلك لم يصبح ازالة النزاع القائم بين الديلم والأتراك أمرا ممكنا • وحين أحس الأتراك من ملوك بنى بويه ضعفا ورأوا ماوقع فيه رجال البيت البويهى من خلاف ، وكانوا قد أصبحوا هم الجند الغالب فى الجيش ، سيطروا على الدولة ووضعوها تحت نفوذهم ، حتى لقد أخذوا يوجهون سير الأمور ، ويتدخلون فى تولية ملوك بنى بويه وعزلهم ، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء • ولما كانت الخلافة مجردة من كل قوة فعلية فانه لم يكن أمام الخليفة الا أن يجيبهم الى ما يرغبون (١) •

و حين أطل السلاجقة بقوتهم على العراق ، كان أبو الحارث البساسيرى قائد الأتراك يسيطر على بغداد وما جاورها سيطرة تامة ،

(١) على سبيل المثال : انظر ابن الاثير : ج ٩ ، ص ١٣٥ — ١٣٧ وما بعدها .

ولم يكن الخليفة ، أو الملك البويهى « الملك الرحيم » يملكان شيئاً أمام قوة هذا القائد وجنوده (١) . وكانت الأحوال تنذر بالخطر على الدولة البويهية وعلى الخلافة العباسية نفسها . فأما الدولة البويهية ، فكانت كل أملاكها فى إيران قد ضاعت منها وسقطت فى يد السلاجقة ، وأصبحت مهددة فى العراق نفسه ، ولم يكن الرحيم على وفاق مع قائد جنده وهو البساسيرى ولذلك كان التعاون بينهما منعزلاً ، وأما الخلافة العباسية فقد كانت مهددة بالنفوذ الفاطمى الذى وصل الى أعالي الشام وأطل على مشارف العراق حين استتوت القوات الفاطمية على حلب سنة ٤٤١ هـ (١) ، كما وصلت دعوتهم الى العراق نفسه . ولم يكن الوضع فى العراق مطمئناً للخليفة العباسى ، إذ أن القوة المسيطرة فيه قوة شيعية ، فبنو بويه شيعة وإن كانوا يحكمون باسم الخلافة العباسية ، والقائد البساسيرى متشيع وقد يجد مصلحته فى جانب الفاطميين ، وسنراه بعد ذلك يتخذ جانبهم صراحة .

فى مثل هذا الجو المضطرب تختل الأمور ويسعى كل لمصاحته . فأما الخليفة فلم تعد له ثقة فيما حوله . وكانت مصلحته تحتم عليه الاتصال بالقوة الغالبة وبخاصة إذا كانت هذه القوة سنية تحترم الخلافة العباسية وتدين لها بالولاء . والملك البويهى مرتبك لا يجد له مخرجاً من الأزمة التى هو واقع فيها ، والوزير « ابن المسلمة » الذى كان فى ذلك الوقت يلقب « رئيس الرؤساء » يرى أن يتصيد لنفسه فى هذا المجال ، فهو يسعى الى اكتساب رضا من يرى فيه صاحب القوة الغالبة . والقوة الغالبة تظهر واضحة فى يد السلاجقة . والقائد البساسيرى وهو صاحب القوة العسكرية فى البلاد كان يرى أن قدوم السلاجقة الى العراق معناه زوال نفوذه وذهاب سيطرته ، ولذلك كان يناوىء كل اتصال بهم . ومن أجل ذلك كان الصراع بينه وبين الوزير شديداً ، كل يوجه التهم الى صاحبه ، فالبساسيرى يقول « ما أشكو الا من رئيس الرؤساء الذى خرب البلاد

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٠٩ .

وأطمع الغز وكاتبهم (١) • والوزير يطلق لسانه في السياسيرى ويذمه ويتهمه بمكاتبة المستنصر بالله صاحب مصر (٢) ، وقد نجح الوزير بدعايته هذه في افساد العلاقات بين الخليفة والقائد ، الأمر الذى جعل الخليفة يطلب من الملك ابعاد السياسيرى ومنابدته •

وواضح الأمر فى الخلاف الذى نشب بين الوزير وقائد الجند أن الأزمة فى العراق كانت مستحكمة • وكان فى تقدير الرجلين أن المخرج من هذه الأزمة معلق اما بالسلاجقة واما بالفاطميين ، فتشيع كل منهما لجهة من هاتين الجهتين ، غير أن الوضع الاستراتيجى للعراق يجعله دائما تحت رحمة من يملك اقليم الجبال الشمالية ، وكان هذا الوضع فى يد السلاجقة (٣) •

وفى المحرم من سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م كانت جيوش السلاجقة على أتم استعداد لدخول العراق ، فقد فرغ طغرل بك من أعماله فى ضم كل أقاليم ايران ، واطمأن الى أحوال دولته بها ، ورأى أن يزيل كل وجود البويهيين ، فان أحد قواد الديلم هاجم شيراز واستولى عليها وقطع الخطبة فيها للسلطان طغرل بك وخطب باسم الملك الرحيم (٤) ، فحقز هذا العمل طغرل بك على ازالة كل خطر يأتى من قبل البويهيين ، وذلك بازالتهم نهائيا من فارس ومن العراق • وسواء أوقع هذا الحادث أم لم يقع فان السلاجقة كان لابد لهم من الاستيلاء على العراق ليستطيعوا اكمال خطتهم فى توحيد المشرق الإسلامى كله تحت حكمهم ، بل السعى لتوحيد العالم الإسلامى كله وحكمه باسم الخلافة العباسية • لذلك أمر طغرل بك قواده بالاستعداد ، وأظهر أنه يريد التوجه الى مكة بقصد الحج ، واصلاح طريق مكة ، والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٢٥ •
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ •
(٣) حسين أمين : ص ٦٢ •
(٤) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٢٦ •

العلوى صاحبها^(١) ، ثم تقدم بقواته عن طريق حلوان ، وهو الطريق السهل الذى يوصل بشكل سريع الى قلب العراق .

لم يجد الملك الرحيم سبيلا الى المقاومة بعد أن فارقه قائد جنده ، وكان هو قى واسط فعاد سريعا الى بغداد محتشيا بدار الخلافة وبنفوذها الأدبى ، فأمر الخليفة بأن يذكر اسم طغرل بك فى الخطبة ، وأن يكون لقبه « السلطان ركن الدولة أبو طالب طغرل بك محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين » على أن يذكر بعد اسم الملك الرحيم أبى نصر بن أبى كالجار سلطان الدولة البويهى . ثم دخل طغرل بغداد فاستقبل بها أروع استقبال ، واعترف به الخليفة سلطانا على جميع المناطق التى تحت يده^(٢) .

ومع أن الملك البويهى قبل أن يكون تابعا للسلطان السلجوقى ، فإن هذا لم يشأ أن يبقى الى جانبه أحدا ينافسه أو تخشى مغبة وجوده ، فقبض على الملك الرحيم وسيره الى الرى حيث سجن فى احدى قلاعها حتى مات سنة ٤٥٠ هـ .

وبدخول طغرل بك بغداد وقبضه على الملك الرحيم ، أسدل الستار على الدولة البويهية التى سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها ١١٣ سنة ، وحلت محلها فى السيطرة وفى الحكم باسم الخلافة الدولة السلجوقية ، ولكن هذه كانت أوسع رقعة وأعظم قوة وأبعد من أن تكون دولة اقليمية .

وأقام طغرل ببغداد ثلاثة عشر شهرا عمل فى أثنائها على تدعيم مركز السلاجقة فى العراق وتوثيق صلاتهم بالخليفة العباسى ، كما عملت الخلافة من جانبها على تقوية الروابط بينها وبين هذه القوة الجديدة .

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٢٧ .

(٢) الراوندى : ص ١٦٩ . ابن الأثير : ج ٧ ، ص ٢٢٨ .

(م ٣٦ — العصر العباسى)

فتزوج الخليفة القائم بأمر الله من « أرسلان خاتون خديجة » ابنة جغرى بك أخى طغرل فى سنة ٤٤٨ هـ • فتم بذلك التقرب بين البيت العباسى والسلجوقى (١) • واستقر لذلك نفوذ السلاجقة فى بغداد •

وفى غمرة هذه الانتصارات التى حققها طغرل بك ، وبخاصة فى توطيد العلاقة بين البيت السلجوقى وبيت الخلافة ، جاءت الأنباء التى عن حركات عسكرية كبيرة يقوم بها القائد التركى البساسيرى ، الذى جاهر بالعصيان وأعلن انضمامه الى الفاطميين • وأخذ يعد العدة للاستيلاء على الموصل ، فالتحم مع قوات السلاجقة بالقرب من سنجار ، وأوقع بها هزيمة ساحقة فى شوال سنة ٤٤٨ هـ ، وواصل سيره حتى دخل الموصل وأعلن فيها الخطبة للخليفة الفاطمى الذى أرسل اليه والى القواد الذين انضموا له الخلع (٢) •

وفى الوقت الذى كانت فيه قوات السلاجقة تنهزم أمام البساسيرى ، كان العامة فى بغداد يضجون بالشكوى من الجند السلجوقى الذى عسف بهم • والواقع أن أهل بغداد لم يستقبلوا السلاجقة بنفس الروح التى استقبلتهم بها دار الخلافة ، بل كان موقفهم منها موقف العداء ، وذلك لما كانوا يلقونه دائما عند دخول جيوش جديدة الى مدينتهم ، فوقع الاشتباك بينهم وبين الجند ، ولما اقتصر هؤلاء فعلوا ما يفعله الجند المتبربرون حين يدخلون مدينة زاخرة الحضارة • حتى اضطر الخليفة الى تنبيه طغرل بك الى ما يقع من جنوده ، والى اظهار استيائه • وكان طغرل يفكر فى اخراج جنده عن بغداد فى الوقت الذى بلغت فيه أخبار انتصار البساسيرى • كما أن الخليفة اضطرب من هذه الأنباء ، واحتتمى بطغرل وعينه واليا على الموصل وبلاد الجزيرة ، فاضطر طغرل الى المسير عن بغداد قاصدا الموصل • بحيث تمكن من اخماد حركة البساسيرى فى

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٣١ • البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ،

ص ١٠ — ١١ •

(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٣٤ •

عام ٤٤٩ هـ ، وبسط نفوذه على ديار بكر ، وعين أخاه ابراهيم اينال واليا على الموصل والجزيرة ، وققل راجعا الى بغداد بعد أن وطد نفوذ السلاجقة في هذه البلاد ، فأحسن الخليفة استقباله ، وجلس له مجلسا عاما قصد به اعلاء شأن السلاجقة وازعاف شأن البساسيري والدعاية الفاطمية ، فلقب طغرل بك بلقب « ملك المشرق والمغرب (١) » ويدل هذا التلقب على أن الخليفة اعترف لطغرل بك بما صار تحت يده من البلاد في المشرق ، وأذن له باستخلاص المغرب من يد الفاطميين . وبذلك افسح الأمل أمام الدولة الجديدة لتمدد سلطانها على المشرق من بلاد ما وراء النهر الى المغرب حتى حدود مصر الغربية .

لكن مشكلة جديدة ما لبثت أن أطلت برأسها هددت وحدة البيت السلجوقي كما هددت الخلافة العباسية . وقد جاءت هذه المشكلة من قبل رجل من رجال السلاجقة أنفسهم ذلك هو ابراهيم اينال أخو طغرل بك لأمه . فانه لم يلبث بعد أن عاد طغرل الى بغداد حتى ترك ابراهيم الموصل ورحل الى بلاد الجبل ، فخلت الموصل من قوة كافية للدفاع عنها فدخلها البساسيري مرة أخرى . وكان رحيل ابراهيم على هذه الصورة أمرا مرييا ، فانه ترك ولايته في الموصل دون اذن من السلطان وبدون حماية ، في الوقت الذي كانت فيه قوات البساسيري تؤيدها الخلافة الفاطمية لا تزال سليمة متربضة ، وهذا أمر يوحى بالاتفاق بين الطرفين ، وقد أشارت المصادر الى مراسلة بين ابراهيم وبين الفاطميين والبساسيري الذين استمالوه وأطعموه في السلطنة والبلاد (٢) .

وكتب السلطان الى ابراهيم يستدعيه من بلاد الجبل وأرسل اليه خلع الخليفة التي خلعها على طغرل ، ليبين له مقدار تقدير الخلافة

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٣٥ — ٢٣٧ . تاريخ ابو الفداء : ج ٢ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٣٩ . ابن الجوزي : المنتظم : ج ٨ ، ص ١٩٠ .

للسلاجقة ومقدار تفوق النفوذ السلجوقي ، كما كتب له الخليفة بنفسه هذا المعنى ، فعاد ابراهيم الى بغداد ، ولكن عودته الى جانب السلطان كانت الى حين . فان السلطان خرج الى الموصل في جيش كبير واصطحب معه أخاه ابراهيم فما لبث هذا أن انتهر فرصة غادر فيها السلطان واتجه الى همدان ، حيث انضم اليه عدد كبير من الترك ، وهنا أدرك السلطان حقيقة الموقف ، وقدر الخطورة التي تنجم عن استقرار أخيه في منطقة الجبال ، فصمم على جسم الداء قبل استفحاله ، فان وجود أي تفكك في البيت السلجوقي على هذه الصورة يهدد وضعهم في العراق تهديدا خطيرا ، بل ربما مكن للقوة الفاطمية من احتلال العراق في الوقت الذي يقع فيه السلاجقة في حروب أسرية ، وتضيع الخلافة العباسية في وقت انشغال السلاجقة ، وبذلك يقف السلاجقة أمام القوة الفاطمية من غير سند شرعي من خلافة قائمة .

لذلك توجه طغرل الى سحق حركة أخيه ابراهيم قبل استفحاليها ، تاركا أمر الموصل والعراق الى حين ، واستطاع أن يوقع الهزيمة به في معركة حاسمة بقرب مدينة الري وأن يأسره ويقتله (١) .

لكن السلطان وقد أهمه خروج أخيه ابراهيم على هذا النحو ، وفي غمرة خوفه من انقسام البيت السلجوقي ، لم ينظم الأمور بشكل يوفر للعراق الأمن ، وكان عليه أن يقدر خطر مفارقة دار الخلافة بدون قوة كافية للدفاع عنها . ولكن يبدو أن السلطان لم يكن يقدر خروج ابراهيم من ناحية ، ولم تكن لديه القوات الكافية من ناحية أخرى ، فان ابراهيم حين خرج الى همدان انضمت اليه معظم القوات التركية التي كانت متبرمة من طغرل لطول مقامه بالعراق ، ولقلة ما يصل الى أيديهم من الغنائم بسبب هذا المقام ، وبسبب ضرب طغرل بك على أيديهم بعد أن عسفوا بالعامّة وأغضبوا الخليفة في بغداد . وعلى أي حال فان السلطان

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ . الراوندي : ص ١٧١ .

فضل أن يتفرغ للقضاء على حركة ابراهيم التي كانت تهدد البيت السلجوقي في المقام الأول .

وانتهز البساسيري فرصة انشغال طغرل وخلو العراق من قوة كافية للدفاع عنه ، فهاجم بغداد واستولى عليها ، وأسر الخليفة . وأعلن الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وبذلك حقق حلم الفاطميين الذي راود العلويين أزمانا طويلة (١) . ثم مالبت أن استولى على البصرة وواسط . وحاول الاستيلاء على الأهواز ولكنه اضطر لمصالحة حاكمها إذ كان السلطان طغرل يمددها بالجنود .

ويبدو أن الخلافة الفاطمية في مصر لم تكن تملك القوة الكافية لامتداد البساسيري حتى تحتفظ بما وصلت اليه ، كما يبدو أن ثقتها في البساسيري لم تكن كبيرة ، ولذلك لم تتحرك للقيام بعمل جدي ، وتركته يواجه الموقف منفردا أمام قوة السلطان ، الذي مالبت أن عاد الى العراق بعد أن فرغ من اخماد حركة أخيه ، واضطر البساسيري الى الخروج عن بغداد متجها الى الشام ، ولكن القوات السلجوقية التحمت به قرب الكوفة وأوقعت به هزيمة حاسمة حيث قتل ، وحملت رأسه الى الخليفة العباسي الذي كان قد عاد من أسره الى بغداد . وبذلك عادت الخلافة العباسية وقضى على الحكم الفاطمي نهائيا بعد أن ظل يخطب لهم في بغداد أكثر من عام (٢) . وعاد مركز السلاجقة فتدعم وعلت مكانتهم في دار الخلافة حتى أضاف الخليفة الى ألقاب طغرل لقب « ركن الدين » (٣).

أصبح طغرل سيد الموقف بعد هذه الانتصارات المتلاحقة ، فاستتب له كل شيء ، وبسط نفوذ السلاجقة في العراق كما بسطه في إيران ، وبلغ من القوة حدا جعله يفكر في مصاهرة الخليفة العباسي بالزواج من ابنته .

(١) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ . المنتظم : ج ٨ ،

ص ١٩٦ .

(٢) ابن الاثير : ج ٩ ، ص ٢٤٣ . المنتظم : ج ٨ ، ص ٢١٢ .

(٣) الراوندي : ص ١٧٥ .

وبذلك سبى السلاجقة الى حد لم يبلغه احد من قبلهم ، وبلغت الخلافة حدا من الضعف لم تبلغ مثله من قبل . ويمكن تقدير هذا من المقارنة بين موقف ابي جعفر المنصور الذي جعل من اسباب غضبه على ابي مسلم الخراساني أنه أراد أن ينخذ لنفسه جارية كانت لعبدالله بن علي العباسي ، وبين طلب طغرل الزواج من ابنة الخليفة العباسي نفسه . وفزع الخليفة من فكرة مصاهرة السلاجقة ، ولكنه هدد وخوف ، فأرغمته ظروف الضعف والخوف على القبول مضطرا . وزفت ابنة الخليفة الى السلطان المعجوز الذي يبلغ السبعين من عمره ، والذي أظهر أنه لم يكن ينبغي من الزواج غير اظهار سمو الهمة الى الاتصال بهذه الجهة النبوية والشرف بمصاهرتها . ولم ينعم بهذا طويلا فانه ما لبث أن مرض ومات في رمضان من عام ٤٥٥ هـ (١) .

مات طغرل بك بعد أن وضع أساسا متينا لدولة السلاجقة ، يبسط نفوذها على ايران والعراق ، وعلى هذا الأساس استطاع خلفاؤها أن يرفعوا من البناء ، وأن يقيموا مجدا شامخا . وانتهى بموته دور التأسيس للدولة . وبدأت بعد ذلك تبرز في التاريخ بروزا مرموقا ، فوققت على سواحل البحر المتوسط وأشرفت بذلك على بلاد الروم ، وحملت في هذه الناحية عبء الدفاع عن هذا الثغر الاسلامي من ناحية الغرب ، كما وققت على حدود الصين والهند وحملت عبء الدفاع عن الثغر الشرقي ، وبذلك ارتبطت بالتاريخ العالمي ارتباطا قويا ، وجعلت للعالم الاسلامي خدمة كبيرة ، كان يقوم بها من قبلها مجموعة من الدول الاسلامية التي ظهرت في كلا المجالين .

كما برز مركز الوزارة بروزا واضحا في عهد طغرل بك ، فقد أسهم الوزير أبو نصر منصور بن محمد السكندري (٢) ، الذي كان يلقب بعميد

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧ — ٩ . الراوندي : ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) راجع عن سيرته ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ١١ — ١٢ وغيرها

من الاخبار المنثورة من قبل في ج ٩ .

الملك بنصيب وافر فى اقامة دولة السلاجقة وتدعيم أركانها ، وكان لكفاءته أثر كبير فى ازدهارها ، فضلا عن أنه كان من الكتاب المجيدين بالفارسية والعربية • فاكسب منصب الوزارة بفضل أهلية كبيرة جعلته هدفا تتطلع اليه النفوس وتقوم بسببه المنازعات والمنافسات التى حفل بها العصر السلجوقى ولعبت دورا مهما فى توجيه سير الأحداث فى دولة السلاجقة (١) •

(١) عبد النعيم حسنين : ص ٤٥ — ٤٦ •

المظاهر العامة للحكم السلجوقي

استطاع السلاجقة فى مدى عشرين سنة من ٤٢٩ - ٤٤٩ هـ / ١٠٣٧ - ١٠٥٧ م، أن ينقلوا دولتهم من دولة اقليسية الى قوة اسلامية كبيرة تسيطر على مشرق العالم الاسلامى ، وتحاول ان تستد بنفوذها الى المغرب الاسلامى ، وتحظى باعتراف الخلافة العباسية وبناييدها على ما تملك وعلى ما يمكن أن يقع تحت يدها . وفى سنة ٤٢٩ هـ دخل طغرل بك مدينة نيسابور وجلس على عرش الغزنويين بها ونادى بنفسه سلطانا ، وبدأ بذلك قيام الدولة السلجوقية التى مالبت أن نالت اعتراف الخلافة ، ثم أخذت فى التوسع حتى ضمت الى حوزتها كل أقاليم ايران ، بل امتدت حتى تآخمت حدود الدولة البيزنطية ، بل اخترقت هذه الحدود وافتطعت من أملاك الروم أجزاء أقرت سلطانها فيها . وفى سنة ٤٤٧ هـ دخل طغرل بك بغداد وأنهى الحكم البويهى ، ولقبه الخليفة « يمين أمير المؤمنين » (١) ، ثم استتب له الأمر فى العراق وفى سنة ٤٤٩ هـ بعد أن قضى على خصوم السلاجقة وخصوم الخلافة بالقضاء على حركة البساسيرى ، ولقبه الخليفة « ملك المشرق والمغرب » (٢) ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ العصر السلجوقى فى حياة الدولة العباسية . والدارس لتاريخ السلاجقة تبدو له مظاهر وجهت الحكم السلجوقى وأثرت فى مستقبل الدولة السلجوقية ، بل أثرت فى مستقبل العالم الاسلامى .

وأول هذه المظاهر أن السلاجقة كانت تغلب عليهم حياة البداوة التى ألفوها فى موطنهم الأول ، وقد أثر ذلك فى سلوكهم وفى توجيههم لسياسة الدولة التى شادوها . فالدولة السلجوقية منذ أول أمرها كان طابعها واتجاهها عسكريا محضا ، وذلك بسبب أصلاتها البدوية وتربيتها الخشنة ، وجوارها لجماعات قوية كثيرا ما تحاول القضاء على السلاجقة واستئصال شأفتهم . وقد اعتمدوا فى أول تكوينهم على القبائل التركية

(١) الراوندى : ص ١٦٩ .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢١٧ .

فى الجيش وفى الغزو ، وهى قبائل رعوية كثيرة العدد ، فكانت كثرة عددهم وضيق مراعيهم وقلة مواردهم مع طبيعتهم الخشنة ، تجعل منهم قوة خطيرة اذا اتحدوا وظهر فيهم زعيم قوى قادر على توجيههم •

وقد أثرت طبيعتهم البدوية فى فكرتهم عن معنى الوطن ، ففكرة الوطن عند السلاجقة تبدو فكرة عامة ، فهم وقد اعتنقوا الاسلام على المذهب السنى يرون أن العالم الاسلامى هو الوطن ، ولكونهم جماعات بدوية فى الأصل تنتقل من مكان الى آخر ، فانهم يفضلون الاستقرار فى الأماكن الأكثر خصوبة والأوفر ماء والأعظم خيرات ، ولذلك نراهم يستهدفون تكوين دولة تشمل العالم الاسلامى كله معترفا بها من قبل الخليفة العباسى ، ويسعون لاضعاف جميع القوى المناهضة لدولتهم (١) •

وتحقيقا لذلك فان سياستهم تجاه الأقاليم المجاورة لهم اتست بسمة الفتح والغلب واعتبروا استيلاءهم على المناطق التى استولوا عليها من البلاد الاسلامية فتحا ، ويتضح هذا من رسالتهم الى الخليفة العباسى بعد استيلائهم على كثير من المدن الايرانية جاء فيها « وشكرا لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر » (٢) • كما يتضح كذلك من معاملتهم للملك الرحيم آخر ملوك بنى بويه ، فقد أعطى طغرل بك العهد بعد التعرض له وتعهدت الخلافة له بالأمان ، ولكن طغرل قبض عليه وأرسله الى الرى حيث سجنه حتى مات • وهذه المعاملة تكشف عن سياسة السلاجقة العسكرية التى ترمى الى تحطيم مراكز العدو والقضاء عليه ، وعدم افساح المجال لأية قوة يحتمل أن تكون مصدرا لعرقلة التدابير العسكرية •

واذا كانت هذه سياسة السلاجقة تجاه الأطراف الاسلامية ، فانها من باب أولى تكون تجاه الأطراف المعادية للعالم الاسلامى ، وقد أقام السلاجقة علاقاتهم مع جيران العالم الاسلامى على العداء الصريح ،

(١) حسين امين : ص ١٢٧ •

(٢) الراوندى : ص ١٦٧ •

واتجهوا بقوتهم الى فتح البلاد التي تجاور العالم الاسلامي في الغرب والشرق على السواء . وقد وسموا اعمالهم في الجبهة الرومية بسسمة الجهاد الديني ، وفي عصر قوتهم استطاعوا أن يحققوا على البيزنطيين انتصارات رائعة وأن يقتطعوا أجزاء هامة من أملاك الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى . وكان من الممكن أن يزحزحوا البيزنطيين عن كثير من أراضيهم لو أنهم استمروا في حالة اتحاد وقوة ، لكنهم ما لبثوا أن اختلفوا وشغلوا بمنازعاتهم الخاصة ، وأداروا ظهرهم الى الجبهة الرومية التي استنجدت بأوروبا ، فعرضوا العالم الاسلامي الى هجوم غربي كبير لم يتصدوا هم لصدده فيما عرف بالحروب الصليبية . كما أن جهادهم لمصلحة الاسلام في الجبهة الشرقية كان واضحا في دخولهم في حظيرة الاسلام .

والظاهرة الثانية — وقد تكون مرتبطة بالظاهرة الأولى — هي ميلهم الى الانفصال واعتبار الملك ميراثا يقسم بين الأبناء ، وعلى الرغم من توحيدهم في أول الأمر والتفافهم حول زعيم واحد ، فإن ميلهم الى الانفصال منذ أول الأمر واضح ، وإنما كان يجمع كلمتهم في أول أمرهم هدف واحد يسعون لتحقيقه ، ووجود زعماء أقوياء يوجهونهم نحو هذا الهدف ، أو يستطيعون فرض الوحدة عليهم . ويبدو ذلك واضحا من أول قيام دولتهم ، فقد أخذ السلاجقة يتكثرون في بداية تكوينهم ويلتفون حول زعيم واحد ، وذلك لأن القوى التي كانت تناهضهم كانت قوية ، وكانت تسعى لقهرهم . فتعاهد الزعماء الكبار ، بعد انتصارهم على مسعود الغزنوي وعلان قيام دولتهم ، على أن يحفظوا هذه الدولة ، وأن يدينوا بالطاعة لزعيمهم « طغرل بك » الذي ارتضوه سلطانا ، وأن يخضع له الحكام الذين يعينهم خضوعا تاما . لكننا نلمس نزعة الاستقلال فيهم ، في استقلال كل واحد بولايته ، واتخاذه لقب الملك ، وفي حرية تصرفه فقد أصبح « جغري بك » كبير اخوة طغرل حاكما على مدينة « مرو » واختص بأكثر خراسان وكان يحمل لقب ملك . وأصبح

«موسى» حاكما على ولاية « بست وهرارة وسجستان» وله لقب ملك أيضا .
كما أصبح « قاورد » وهو أكبر أولاد جفرى بك حاكما على ولاية
« الطبسين وكرمان » وله لقب ملك كذلك . وكان « ابراهيم اينال »
حاكما على « قهستان وجرجان » (١) . وكان كل ملك من هؤلاء الذين
أقرهم السلطان « طغرل بك » يتمتع باستقلال ذاتى فى تصرف شئون
ولايته الداخلية ، كما كان له الحق فى التوسع ان وجد ذلك ضروريا
لمملكته .

وقد كان ملوك السلاجقة يجدون متنفسا لميلهم الى التوسع فى
الوقت الذى كانت توجد فيه أجزاء من البلاد تحت يد غيرهم ، فلما اكتملت
سيطرتهم على كل المناطق الايرانية ، لم يكن هذا المتنافس موجودا الا فى
محاولة الاستيلاء على ما فى يد بعضهم . ثم لم يلبث الخلاف أن نشب
بينهم فزالت وحدتهم تماما بعد انتهاء عصر سلاطينهم العظام ، وأدى هذا
الى ضعفهم جميعا والى زوال الملك السلجوقى كله آخر الأمر .

والظاهرة الثالثة ، أن السلاجقة لم يتخذوا لهم عاصمة ثابتة تكون
مركزا لدولتهم ، ومقرا للسلطان السلجوقى ، شأنهم شأن البويهيين من
قبلهم ، الا أن البويهيين جعلوا من بغداد أحد مراكزهم ، بينما السلاجقة
لم يتخذوا مركزا لهم . واختلفت العواصم السلجوقية ، فطغرل بك اتخذ
مدينة « نيسابور » عاصمة له ، بينما حكم « ألب أرسلان » فى مدينة
« مرو » وحكم « ملكشاه » ومحمود بركيارق فى « أصفهان » . كما اتخذ
السلطان محمد بن محمود مدينة « همدان » عاصمة له (٢) . فالسلطان
لا ينتقل الى العاصمة الثابتة التى اختيرت لموقعها الاستراتيجى أو لسهولة
مواصلاتها أو لتوسطها ، وانما تنتقل الدولة الى السلطان حيث يكون .
وهذا التآرجح يكلف الدولة ويقال من قوتها ويضعف حيويتها .

(١) نلمس فارقا بين اخوة طغرل وبين ابراهيم اينال وهو اخوه
لامه ، فانه لم يلقب بملك . الراوندى : ص ١٦٧ . الحسينى : أخيسار
الدولة السلجوقية ١٧ .

(٢) حسين أمين : ص ١٨٢ — ١٨٣ .

وظاهرة أخرى وضحت في العصر السلجوقي ولم تكن موجودة في العصر البويهي وهي ظهور شأن الوزارة وعلو مركز الوزراء وفعاليتهم في إدارة الدولة . وقد كانت الوزارة أقل شأنًا في العهود التي سبقت السلاجقة . ففي العصر العباسي الأول كان الخليفة هو الشخصية القوية، والوزير إلى جانبه منفذ لأرادته ، وكان أقوى الوزراء يخشون بأس الخليفة ويتحاشون غضبه . وفي العصر الثاني ، تضاعف شأن الوزراء أمام قوة نفوذ القواد من الأتراك ، حتى إذا ما ظهر منصب أمير الأمراء ازداد مركز الوزير ضعفه حتى لم يصبح إلا مجرد كاتب للخليفة ، ولم تشهد في العصر البويهي بروزا لشخصية الوزراء . أما في العصر السلجوقي فقد برزت شخصية الوزير بروزا كبيرا حتى لئرى نظام الملك يكاد يكون هو صاحب الفاعلية في حكم السلاجقة في عهد اثنين من أعظم سلاطين السلاجقة وهما ألب أرسلان وملكشاه . وظهر في العصر السلجوقي أسر بعينها تولى الوزارة وتتحكم في هذا المنصب الخطير . وتبعًا لعلو مركز الوزارة أصبحت مآثرًا للتنافس والتصارع عليها ، وفي الوقت الذي كان يشهد فيه العصر السلجوقي تنازع رجال السلاجقة على تولي السلطة ، كان يشهد تنازع الرجال الأفذاذ على تولي الوزارة . وقد كان هذا الصراع من كلا وجهيه من أسباب تمزق وحدة السلاجقة وضياع ملكهم .

ومرد ظهور الوزارة هذا الظهور الكبير إلى أن السلاجقة ، وقد كانوا قليلي حظ من الثقافة ، وقد حكموا عالمًا متحضرا عريقا ، رأوا أنه من الضروري أن يعتمدوا على العناصر المثقفة وبخاصة تلك التي كانت في إيران ، من أمثال أبي نصر الكندي ونظام الملك وأبنائه من بعده وغيرهم من الشخصيات الفارسية المثقفة والتي تولت المناصب الرفيعة : الوزارة والحجابه والكتابة . وسيطرت بثقافتها على الإدارة السلجوقية .

وفي الوقت الذي كان للسلطان السلجوقي فيه وزير كان للخليفة العباسي وزير ، لكن الوزير السلجوقي كان أكثر نفوذا وسلطانًا ، وذلك

لأنه كان يستمد قوته ونفوذه من قوة الدولة السلجوقية التي كانت صاحبة النفوذ الحقيقي ، وكان كثيرا ما يتدخل في أمور وزير الخليفة ، بل كان يستطيع أن يعزله ، كما يستطيع أن يوصي بتعيين وزير بعينه للخليفة فيجاء إلى طلبه^(١) . وبدأت في العصر السلجوقي تظهر للوزراء ألقاب لم تكن معروفة من قبل تقرر بأسمائهم ، فقد تلقب وزراء السلاجقة بألقاب « عميد الملك ، نظام الملك ، مؤيد الملك ، معين الدين ، شهاب الدين وغيرها من ألقاب » . وقد قلد الخلفاء سلاطين السلاجقة فأضافوا إلى وزراءهم ألقابا مثل « فخر الدولة ، أبو المعالي ، جلال الدين ، سيد الوزراء ، صدر الشرق والغرب ، عون الدين »^(٢) . وفي العهد السلجوقي زاد راتب الوزير زيادة كبيرة ، فقد كان راتب ابن هبيرة وزير الخليفة المقتفي مائة ألف دينار سنويا^(٣) . أما الوزير السلجوقي فكان يخصص له راتب مقداره عشر ما تحصل عليه الدولة من واردات الاقطاعات^(٤) .

وقد كان النظام الاقطاعي هو الأساس الذي قامت عليه الملكية في عهد السلاجقة ، فزعماء السلاجقة — بحسب طبيعتهم البدوية — كانوا يعتبرون أنفسهم زعماء أقوامهم ، ويرون أن حكمهم يمتد حيث ينتشر قومهم ، فهو لا يرتبط أو يحدد بساحة معينة من الأرض ، وكان لكل قبيلة نصيبها من المراعى ، وزعيم القبيلة هو الذى يتولى توزيع هذا النصيب على بطون القبيلة بحسب ما تجرى عليه تقاليد العادة والعرف . ولما أصبحت إيران قاعدة للسلاجقة تأثر هؤلاء بما عرف عند الفرس السياسيين من نظام الحكم الاستبدادى . فاعتبر السلاجقة المملكة ضيعة للسلطان يمتلكها نيابة عن قومه ، وتبعاً لذلك أخذ يقطع أراضي تلك المملكة على أقربائه ومؤيديه . وإلى جانب هذا النوع من الاقطاع وجد

(١) المنتظم : ج ٩ ، ص ٥٦ . الفخرى : ص ٢١٨ .

(٢) انظر الفخرى : ص ٢١٨ — ٢٣٠ . حسين أمين : ص ١٩٢ .

(٣) الفخرى : ص ٢٧٨ .

(٤) Lambton, Landlord and Peasant in, p. 44.

اقطاع آخر حربي ، وهو اقطاع الجنود اقطاعات تكون بديلا عن الرواتب التي كان يتسلمها الجند في العصور السابقة . وقد قصد السلاجقة بذلك الى الاحتفاظ بجند ثابت قوى ، لأنهم كانوا يعتمدون على القبائل التركية التي كان من طبيعتها التنقل ، كما أنهم رأوا أن الأموال قد لا تتوفر للخزانة لسبب من الأسباب ، ففارقوا الاقطاعات على الجند ، لتتوافر لهم دواعي عمارتها واصلاحها . وان كانوا قد تحوطوا ففقسما الاقطاع الواحد على بلاد متباعدة ، فربما قررلواحد من الجند ألف دينار في السنة ، فوجه نصفه على بلد من الروم ونصفه على وجه في أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض (١) .

وقد أدى هذا النظام الاقطاعي الى الغرض المطلوب منه حينما كانت الدولة قوية ، الا أنه لم يلبث أن أدى الى نتيجة عكسية ، فان الذين تملكوا الأراضي صاروا يميلون الى الاستغلال واعتبار الاقطاع ملكا وراثيا ، وأخذوا في الاساءة الى الفلاحين ومعاملتهم بالشدة ، كما أن البعض طمع في الاستيلاء على أملاك الآخرين مما أدى الى انتشار الفتن واستشراء الظلم والفساد . والوزير الذي كان هو الشخص المستول عن مراقبة الاقطاعات وتنظيمها أخذ يغض النظر في بعض الحالات التي يظهر فيها الجشع الاقطاعي ، وهو ، وقد كان له عشر واردات الاقطاعات ، كان يهمله أن تزداد ايرادات الاقطاعات ليزداد راتبه . وقد أدى هذا بالطبع الى الفوضى والى ظهور الاستياء والنفور بين الفلاحين ، كما أدى الى اضعاف الروح المعنوية الأمر الذي أدى الى ضعف المجتمع السلجوقي بوجه عام (٢) .

ونتيجة لهذا النظام الاقطاعي ظهر نظام الأتابكة . والأتابكة هي امارة يقطعها السلطان السلجوقي لأحد المقربين . وقد كان للسلاجقة مما يليك قربوهم وأقطعوهم اقطاعات كبيرة أقاموا بها أتاييكيات لهم .

(١) العماد الأصفهاني : آل سلجوق ، ص ٥٥ .

(٢) انظر حسين أمين : ص ٢٠٥ — ٢٠٩ .

ومن أشهر هذه الأتابكيات أتابكية الموصل ، ومؤسس هذه الأتابكية هو « عماد الدين زنكى بن آقسنقر » وهو من المماليك الأتراك ، تربى برعاية السلطان ملكشاه ، وقد أقطعه حلب واللاذقية وحماة ومنبج ، ثم أضاف إليها عماد الدين مدينة تكريت بعد وفاة السلطان ملكشاه (١) . وقد كان لهذه الأتابكية أثر كبير فى مناهضة الصليبيين ، كما أنه أنقذ الكثير من المدن الاسلامية من أيديهم ، واستطاع أن يستولى على حلب وينقذها من الوقوع تحت الحكم الصليبي سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٩ م (٢) . كما أن لابنه نور الدين محمود الفضل فى حركة التجميع الاسلامى ضد القوى الصليبية ، هذا التجميع الذى حقق غايته من بعد على يد صلاح الدين الأيوبي . ومن الأتابكيات المهمة أتابكية دمشق التى أسسها « طغتكين » مملوك السلطان « ننتش بن ألب أرسلان » وكذلك أتابكية « سنجار » التى أسسها « عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود » والمعروف بعماد الدين زنكى الثانى . وكذلك أتابكية آذربيجان التى أسسها « أيلدكز » مملوك السلطان مسعود السلجوقى . وغير ذلك من الأتابكيات الكثيرة (أتابكية لورستان ، أتابكية اربل ، أتابكية ديار بكر ، أتابكية أرمينية ، أتابكية الجزيرة ، أتابكية فارس ، أتابكية كرمان) .

وكان الغرض من انشاء هذه الأتابكيات هو اشراك الأقاليم فى حكم الدولة السلجوقية : أى أن الولايات تحكم نفسها بنفسها مع ارتباطها بالمركز فى الشؤون المهمة والخطيرة ، على أن تسير تلك الأتابكيات وفق مصلحة السلجوقية وفى خدمة السلطان الكبير . والذى عمم النظام الاقطاعى بشكل كامل هو « نظام الملك » وزير السلطان ألب أرسلان ، وكان يستهدف بذلك أن يخفف الأعباء الادارية والحربية عن الحكومة المركزية ، اذ أن الأتابكيات أصبحت مستقلة بتنظيم أحوالها وصيد أى اعتداء يقع عليها ، كما تستطيع التوسع اذا اقتضت مصلحة الدولة ذلك .

(١) ابن الاثير : تاريخ الدولة الانابكية ، ص ١١ — ١٨ . حسين

امين ، ص ٢١٠ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

كما أنه وقد رأى معظم الجيش السلجوقي يتكون من القبائل المختلفة العناصر ، أراد أن يجعل تلك الجماعات تعيش فى أراض تقطع لها لتربط بالأرض وتنشعر بشعور المواطنة ، وباستقرارها فى أراض محددة يمكن السيطرة عليها ، ومن ثم تخف حدة حركاتها فى الغزو والمنازعات فيما بينها • ثم انها بسكنائها فى تلك الأراضى الزراعية تجد نفسها مدفوعة الى اصلاح الأرض التى تستفيد من خيراتها ، وبذلك تزدهر الحياة الزراعية التى كانت فى ذلك العصر قوام الحالة الاقتصادية •

ولقد كان لهذه السياسة أثرها الطيب فى بداية نشوء الدولة ، حيث كان السلاجقة متحدّين ، وكان السلاطين أقوياء وفى مكتتهم مراقبة أصحاب الاقطاعات مراقبة مستمرة ، وطالما كانت السياسة التى رسمها نظام الملك قائمة ، وهى بعثرة اقطاعات الأمراء حتى لا يقوى الاقطاع فيكون خطرا فى المستقبل ، لكن هذه السياسة بمرور الزمن أدت الى عكس ماكان يرجوه نظام الملك والسلاجقة المخلصون منها ، فان السلاجقة ما لبثوا بعد عهد السلاطين العظام أن انحلت وحدتهم ودخلوا فى صراعات على تولى السلطنة ، كما سعى بعضهم الى التوسع على حساب البعض الآخر حين توزعت الدولة بين فروعهم • فقد أصبحت الأتابكيات تنقوى وتتوسع بسبب المشاركة فى المنازعات والخصومات بين السلاطين السلاجقة ، وصار الأتابكة يتخذون الألقاب لأنفسهم ، وبمرور الزمن وبسبب ضعف السلاطين قوى نفوذ الأتابكة • وابتعدوا عن الادارة السلجوقية المركزية ، بل ان نفوذ بعضهم قوى حتى تحكموا فى السلاطين أنفسهم ، كما تشجع بعضهم واستقل نهائيا عن الدولة السلجوقية • وما زال التنافس بين الاقطاعات يزداد والمطامع تقوى حتى أدى ذلك الى خنق الدولة المركزية وأعان على انهيارها آخر الأمر (١) •

(١) عن الاقطاع فى العصر السلجوقي : انظر حسين أمين :

ص ٢٠٥ — ٢١٣ •

ابراهيم طرخان : الاقطاع الاسلامى (بحث من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، ص ٧٣ — ٧٦ •

أما الظاهر فى علاقة السلاجقة بالخلافة ، فانها بدأت طيبة فى أول الأمر ، وكانت الظروف المحيطة بالخلافة وبالسلاجقة على حد سواء تحتم أن تبدأ هذه العلاقة طيبة ، فأما الخلافة فقد كانت الظروف المحيطة بها سيئة ومعقدة ، فالدولة البويهية التى تسيطر على شئون الدولة فى العراق أخذت فى الانهيار ، وفقدت قدرتها على ضبط الأمور ووقع آخر ملوكها « الملك الرحيم » تحت نفوذ القائد التركى البساسيرى ، الذى وضح اتصاله بأعداء الخلافة « الفاطميين » والذى استولى على الموصل وخطب فيها للفاطميين وانضم اليه ولاية هذه المنطقة وقوادها ، ثم ما لبث بعد ذلك أن استطاع أن يدخل بغداد ويخطب فيها للفاطميين . الأمر الذى جعل الخليفة يلجأ الى طغرل بك ويطلب منه القضاء على حركة البساسيرى وحماية الخلافة العباسية . والخلافة العباسية تخشى القوة الفاطمية فى مصر ، وفى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية فى حالة شديدة من الضعف ، كانت الخلافة الفاطمية فى مصر فى أوج قوتها وعظمتها وقد اتسعت رقعتها من المحيط الأطلنطى غربا الى نهر الفرات شرقا واعترف الصليحي الشيعى بسلطان المستنصر بالله الفاطمى باليمن سنة ٤٥٥ هـ ، وما زال النفوذ الفاطمى يمتد حتى وصل الى بغداد نفسها . وفى بغداد كانت الأمور مضطربة أشد الاضطراب بين الطوائف المختلفة من سنة وشيعة ، وبين الحنابلة والشافعية . والخليفة العباسى يتلفت حوله فلا يجد الا هذه القوة السلجوقية التى برزت على مسرح العالم الاسلامى والتى تدين بالمذهب السنى ، وهى تتلاقى بمذهبها مع آمال الخلافة العباسية فى مقاومة النفوذ الشيعى الذى أخذ يهدد الخلافة تهديدا خطيرا : لذلك رحبت الخلافة العباسية بالسلاجقة ورأت فيهم القوة الفتية التى تستطيع أن تدعم الخلافة وتدافع عنها ، لذلك نجد الخليفة القائم العباسى يتغاضى عن أعمال طغرل بك وجنوده فى بغداد ، فانه حين عسف الجند السلجوقى بالأهالى لم يطلب من السلطان أكثر من منع جنوده وعتابه على أعمالهم ، كما يكبح غضبه حين نكث طغرل بوعده بتأمين الملك الرحيم وقبض عليه ،

فاستسلم للأمر الواقع ، بل أخذ يتقرب من البيت السلجوقي وتزوج من « أرسلان خاتون » ابنة داود أخى طغرل بك (١) .

أما السلاجقة فقد كانوا من السنة الحنفية ، وقد صاروا يفتحون المدن والبلدان ويتوسعون على حساب الدويلات الضعيفة ، وسيطروا على أملاك البويهيين فى إيران حتى أصبحوا على أبواب العراق ، وكان لابد لهم لى يصبغوا عملهم بالصبغة الشرعية أن ينالوا اعتراف الخلافة وتأييدها ، وقد انتهزوا الظروف السيئة المحيطة بالخلافة لى يلبوا دعوة الخليفة الذى أرسل يستنجد بطغرل بك ويدعوه للقدوم الى دار الخلافة ، فأظهر السلطان حين قدم الى بغداد غاية الاحترام للخليفة العباسى الذى استقبل السلطان بدوره أروع استقبال ولقبه ملك المشرق والمغرب . والأمر واضح فى حسن استقبال الخلافة للسلاجقة . أما السلاجقة ، فانهم كانوا يعلمون أن مهمتهم لم تنته بعد ، وأنهم سيصطدمون حتما بدول أجنبية من أجل توسع دولتهم ، كما أن السلاجقة وهم سنيون متحمسون كانوا من أشد المنافسين والمعارضين للمذهب الشيعى ، وكانت مصلحتهم فى هذا الصراع المرتقب أن تبقى الخلافة العباسية بأية صورة من الصور ، ليستفيد السلطان السلجوقى من الاعتراف الذى يمنحه له الخليفة ، اذ بذلك الاعتراف يحصل على التأييد الشعبى من العالم الاسلامى السنى كله . ولكنهم لى يسيطروا على شئون الخلافة نفسها رأوا أن يرتبطوا بها برباط وثيق من شأنه أن يرفع من مقامهم ، بل امتد بهم الطموح الى خلط البيت العباسى بالبيت السلجوقى خلطا غير مباشر ، وذلك بأن يتزوجوا هم من بيت الخلافة ، وهذا مطمح لم يسم اليه أحد من قبلهم ، وقد تم لهم ذلك حين خطب طغرل بك ابنة الخليفة العباسى لنفسه واضطر الخليفة الى قبول طلبه وتزويجه ، وفى هذا رفع لمكانة السلطان السلجوقى الذى أصبح صهر الخليفة ، ومن المحتمل أن تلد ابنة الخليفة من السلطان ولدا يرث العرش العباسى اذ فيه يجرى دم الخلفاء ، كما أنهم

(١) المنتظم : ج ٨ ، ص ١٩٦ — ١٧٠ .

من ناحية أخرى أصهروا الى البيت الخلافي بتزويج بناتهم من الخلفاء ،
وحين ولدت ابنة السلطان من الخليفة ولدا ، أجبر السلطان ملكشاه
الخليفة على أن يجعل هذا الولد وليا لعهدده ، ولما رفض الخليفة هددده
السلطان باخراجه من بغداد (١) .

لكننا نلاحظ أن العلاقات الودية بين الخلافة والدولة السلجوقية
لم تستمر طيبة على طول المدى ، فان البيت السلجوقي لم يستمر في قوته
واتحاده اذ ما لبث الخلاف أن نشب بين أفرادده ، واتخذت الخلافة موقف
المتفرج ، وكانت تتأرجح باعترافها بين مراكز القوة فهي تمنح الاعتراف
للغالب ، ولا يمنع لديها من أن تمنح الاعتراف بالسلطة لأكثر من واحد
في وقت واحد (٢) ، ثم وجدت الخلافة فرصتها حين أصبح الصراع يهدد
البيت السلجوقي كله ، فنشطت لاستعادة سلطانها وفعاليتها ، ووجدت
في قيام الدولة الخوارزمية في المشرق وانتصارها على سلاجقة ايران خير
معين لها على اكمال القضاء على القوة السلجوقية .

ونلاحظ أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزا من مراكزهم ،
ولم يبقوا فيها أميرا سلجوقيا يتولى امرة الأمراء كما كان الحال في العصر
البويهى ، وانما استحدثوا منصبين للاشراف على الأمور العسكرية
والمدنية ، هما : وظيفة « الشحنة » وهي أشبه ما تكون بوظيفة المتصرف
أو محافظ المدينة ، ويتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وإدارية وهو مسئول
عن ادارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها ، وملاحقة الخارجين
على النظام ، ومعاينة المسيئين . ثم وظيفة « العميد » وسلطته أهم من
وظيفة الشحنة ، اذ هو يشرف على العراق بأجمعه ، ويتعاون الشحنة
والعميد في ادارة المولاية والوقوف جنبا الى جنب على رأس قوات حربية
اذا ما حدث ما يعكر الأمن (٣) . ولم يكن قدوم السلاطين أو المسئولين

(١) الفخرى : ص ٢١٧ .

(٢) انظر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ هـ .

(٣) حسين أمين : ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

السلاجقة الى بغداد الا بقصد التعرف على الأحوال أو التمتع بترف المدينة • واتخذوا دائماً من ايران مقراً لهم لأنهم لم يرغبوا فيما يندو في وجود زعامة منافسة لهم في مقر الحكم • ولما كان الخليفة في بغداد فانهم لم يرغبوا في جواره ، واكتفوا بنبابة أحد موظفيهم في العراق يدير شؤنه ويرتب أموره • وقد أدى هذا فيما بعد الى أن تنشط الخلافة في جو بعيد عن الوجود المباشر للسلطان السلجوقي • حتى تمكنت آخر الأمر من استرداد سلطاتها وفعاليتها •

هذه هي المظاهر العامة للعصر السلجوقي أحطنا بها في ايجاز ، أما العصر السلجوقي فيمكن تقسيمه الى قسمين : عصر وحدة السلاجقة ، ثم عصر انقسام السلاجقة • والعصر الأول يشمل حكم السلاطين العظام : طغرل بك ، وألب أرسلان ، وماكشاه • وينتهي بموت السلطان بركيارق سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م • أما العصر الثاني فيبدأ من سنة ٤٩٨ هـ الى آخر العصر السلجوقي سنة ٥٩٠ هـ • وسنلم بأهم الأحداث في كل من هذين العصرين •

عصر وحدة السلاجقة

يشمل هذا العصر حكم السلاطين العظام من آل سلجوق ، وهم : طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملكشاه ، وبركيارق ، وقد استطاع هؤلاء السلاطين أن يحتفظوا بوحدة السلاجقة برغم ما قام حول العرش من خلافات وحروب ، وبرغم ما أثير حول منصب الوزارة من منازعات ، فانهم بقوة شخصياتهم استطاعوا أن يقرروا الوحدة ، كما استطاعوا أن يتجهوا الى المجال الثغرى فى المشرق والمغرب ، وأن يظهرُوا بأُس العالم الاسلامى فى الجبهة التَّومِيَّة بصفة خاصة •

لكن الخلافات التى ثارت حول تولى عرش السلطنة ، والمنازعات التى نشبت حول تولى الوزارة ، كانت عميقة متأصلة بحيث استطاعت أن تفرض نفسها على الوحدة السلجوقية وأن تؤدى آخر الأمر الى تفكك وحدة السلاجقة ، ثم تقضى على ملكهم •

كما أن أعمال السلاجقة فى الجبهة الرومية ، وانتصاراتهم على الدولة البيزنطية وتهديدهم لممتلكاتها تهديدا خطيرا ، أدى الى أن تستنجد بيزنطة بالقوى الأوروبية • وحين استجابت هذه القوى الى استنجد الامبراطور البيزنطى فى حركة صليبية متحمسة ، فاتجهت الحملات الأوروبية الى العالم الاسلامى كانت عوامل الفرقة قد سيطرت على الحياة السلجوقية وانشغل بها السلاجقة ، فحقق الصليبيون انتصارات على المسلمين ، وانتزعوا منهم معظم بلاد الشام وهددوا مصر تهديدا خطيرا ، ولولا حيوية العالم الاسلامى وقيام قوى فى الموصل وفى مصر لتغير مجرى التاريخ الى حد كبير •

أما علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية ، فقد بدأت طيبة فى هذا العصر ، وزادها قوة ودعما المصاهرات التى تمت بين السلاجقة وبيت الخلافة ، لكن هذه العلاقات ما لبثت أن شابتها الأكدار فى الفترة الأخيرة ، حين يدا للسلاجقة طموح خرج عن مستوى مجرد التعاون مع الخلافة ووصل الى حد فرض القوة على الخليفة وتهديده باخراجه

من بغداد ، الأمر الذى أرخى عقدة الرباط بين البيتين • مما جعل الخليفة فيما بعد يقف موقف المتفرج من الصراع السلجوقى ويتحين الفرص لاعادة قوة الخلافة وفعاليتها • حتى اذا ما سنحت للخلافة هذه الفرصة فى عهد تمزق الوحدة السلجوقية وانهيار قوتها فى المشرق والمغرب ، ضربت الخلافة ضربتها فأكملت اسقاط السلاجقة وأعادت نفوذها متعاونة مع قوى جديدة ظهرت فى مشرق العالم الاسلامى •

طغرل بك :

يعتبر طغرل بك رأس السلاجقة من الوجهة العملية ، فهو الذى تولى السلطنة بعد انتصار السلاجقة على مسعود الغزنوى فى سنة ٤٢٩ هـ ، وتحت زعامته أقام السلاجقة دولتهم التى شملت المشرق الاسلامى والعراق وأطلت على المغرب الاسلامى وعلى حدود الدولة البيزنطية • وهو الذى وضع الأساس المتين لهذه الدولة ، فأقام خلفاؤه البناء شامخا من بعده ، فدوره فى الحقيقة يعتبر دور التأسيس للدولة السلجوقية — وقد عرضنا لأعمال طغرل بك فيما سبق — حتى اذا ما مات فى سنة ٤٥٥ هـ ، تولى عرش السلاجقة ابن أخيه ألب أرسلان •

ألب أرسلان :

حين مات طغرل بك ، لم يكن له ابن يرث العرش ، فبرزت مشكلة ولاية السلطنة بعد وفاته ، وأصبحت مثار التنافس بين أفراد البيت السلجوقى •

وكان أخوه جغرى قد توفى من قبله فى عام ٤٥١ هـ ، تاركا عددا من الأبناء كان أكبرهم ألب أرسلان الذى خلف أباه فى حكم خراسان وما وراء النهر (١) ، وكان على حكمها حين مات عمه سنة ٤٥٥ هـ ، وكان طبيعيا أن يعتبر ألب أرسلان نفسه أحق أفراد البيت السلجوقى بعرش السلطنة ، كما كان له وزير قوى النفوذ عظيم الكفاية هو أبو على

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣ •

حسن بن علي بن اسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك ، وكان هذا الوزير واسع الطموح ؛ يرغب في أن يكون وزيراً لسلطان السلاجقة ، شجع ألب أرسلان على طموحه وزكى رغبته في عرش السلطنة . وكان قد تزوج بأرملة أخيه جغرى بعد موته ، ولها ابن منه يسمى سليمان ، فاستطاعت أن تؤثر على السلطان حتى اختار ابنها ولياً للعهد برغم صغر سنه ، ونفذ وزير طغرل بك أبو نصر الكندري وصية مولاه فأجلس سليمان على عرش السلطنة بمدينة الري وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه .

لم يقبل ألب أرسلان سلطنة أخيه الأصغر ، فصمم على السير الى الري ، ولقى تصميمه هذا هوى في نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقي فاخثاروا جانبه ، بل ان بعضهم نادى به سلطاناً وخطبوا له في قزوین باسم عضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك ، وخشى الكندري مغبة الأمر ، فانضم الى ألب أرسلان وأمر بأن تقرأ الخطبة باسمه في الري وبأن يكون سليمان ولياً لعهد (١) . وبذلك استتب الأمر للسلطان ألب أرسلان في ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ . واعترف به رئيسا للبيت السلجوقي وسلطاناً على السلاجقة .

لكن أميراً سلجوقياً آخر رأى أنه أحق بالسلطنة هو « قتلмыш ابن اسرائيل » بن عم جغرى بك وشار الى الري بقواته واستولى عليها وأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة . فأسرع ألب أرسلان ومعه وزيره نظام الملك الى الري على رأس جيش كبير ، والتحم مع قتلмыш في معركة طاحنة بالقرب من مدينة الري انتهت بانتصار ألب أرسلان وقتل قتلмыш ، ودخل ألب أرسلان الري في عام ٤٥٦ هـ ، وبذلك انتهت مشكلة السلطنة واستتب الأمر لألب أرسلان دون منازع (٢) .

وفي الوقت الذي كان الصراع يجري فيه بين أفراد البيت

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١ . الراوندى : ص ١٨٥ .

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٣ — ١٤ .

السلجوقي على تولى عرش السلطنة ، كان صراع آخر يحتدم على الوزارة ، بين نظام الملك الذى لم يشأ أن يبقى الى جانبه من منافسه ، وبين الكندرى وزير طغرل بك الذى أراد أن يحتفظ بمركزه ، وعلى الرغم من أن الكندرى تقرب الى نظام الملك وأكد ولاءه للسلطان الجديد ، فان نظام الملك خوف السلطان من الكندرى حتى حمّله على القبض عليه وسجنه فى مدينة نسا (١) ، ثم ما زال يغرى السلطان به حتى أمر بقتله .

وقد نجح نظام الملك فى التخلص من منافسه ، ولكنه استن بذلك سنة سيئة فى عصر السلاجقة ، أدى العمل بها الى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، وقد اکتوى بها نظام الملك نفسه ، وتحقق ما قاله الكندرى لقاتله منبها لخطر هذه السابقة « قل لنظام الملك : بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قلبيا وقع فيه » (٢) .

وعلى أى حال فان مشكلتى العرش والوزارة حلتا بعد أن استنفدتا أكثر من عام من عصر ألب أرسلان ، ثم أخذت أوضاع السلاجقة تستقر فى بداية عام ٤٥٧ هـ ، وبدأ ألب أرسلان يسير فى بناء الدولة قدما على الأساس الذى أرساه طغرل بك فى ايران والعراق ، ويرسم الأهداف التى يسعى الى تحقيقها .

كان ألب أرسلان قائدا ماهرا ، كما كان وزيره نظام الملك سياسيا محنكا بعيد النظر ، فرسما خطة العمل على الأساس العسكرى والسياسى معا ، وذلك بأن يدعم سيطرة السلاجقة على العالم الاسلامى بالاتجاه الى التوسع فى البلاد المعادية للإسلام ، وهى الأقاليم المسيحية المجاورة لايران كبلاد الأرمن وبلاد الروم ، ولأن

(١) عبد المنعم حسنين : ص ٥٠ . يقول ابن الأثير انه سجنه فى مدينة مرو الروذ ، ج ١٠ ، ص ١١ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٢ .

هذا سوف يطبع أعمالهم بطابع الجهاد الدينى مما يكسبهم عطف العالم الاسلامى ورضاءه ، وبهذا يستقر حكم السلاجقة فى البلاد الاسلامية وتتسنع فى نفس الوقت أرجاء دولتهم •

وبينما كان ألب أرسلان يستعد لتحويل نشاطه نحو هذا الاتجاه ، فوجىء بما جعله يعدل خطته ويؤجل أعماله الخارجية الى حين ، وذلك أن فتنة جديدة أطلت برأسها يقودها عمه « بيغو » الذى كان حاكما على هراة ، والذى عز عليه أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن العصيان وحاول الاستقلال بالمناطق الخاضعة لحكمه ، فأدرك ألب أرسلان أن عليه أولا أن يثبت أركان حكمه فى جميع أجزاء دولته ، بتأديب المتمردين ، وإقرار هيبة السلطان فى كل أنحاء الدولة ، حتى يتجه الى أهدافه الخارجية وهو مطمئن الى جبهته الداخلية • وعلى هذا الأساس أصبح له أهداف قريبة وأهداف بعيدة • فأما أهدافه القريبة فهي تثبيت أركان حكمه فى كل البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة ، وأما أهدافه البعيدة ، فهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته ، ثم العمل على إسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتوحيد العالم الاسلامى تحت راية الخلافة العباسية السنية ، وحكمه بواسطة السلاجقة •

ولتحقيق أهدافه الأولى ، ولى وجهه شطر هراة فقاتل عمه « بيغو » وألحق به هزيمة فى سنة ٤٥٧ هـ • جعلته يتعهد بعدها باطاعة السلطان ، وانتهاز ألب أرسلان فرصة وجوده فى هذه البلاد ، فقام بتأديب كل من تخشى ثورتهم من أمراء هذه النواحي ، وأعاد الأمن الى نصابه فى جميع أنحاء خراسان وما وراء النهر ، ثم رجع الى مدينة نيسابور (١) • ثم أخذ بعد ذلك يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف ، وقد استغرقت هذه الجولة نحو خمس سنوات ، أقر فيها الأمن فى كل البلاد السلجوقية • وحتى لا يتوكل ظهروه معرضا لطعنة تأتى من

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ر ١٢ ، ق ١٣ • عبد النعيم حسنين :

الخلف في أثناء تحركه غربا نحو البلاد المسيحية ، رأى أن يؤمن جانبه من ناحية الدولتين الشرقيتين اللتين لا تزال فيهما بقية من القوة على حدوده الشرقية ، وهما الدولة الغزنوية في غزنة والهند ، والدولة الخانية في ما وراء النهر ، ورأى نظام الملك أن السياسة أنفع في معاملة هاتين الدولتين ، وخير وسيلة لذلك هي ربطهما برباط المصاهرة مع البيت السلجوقي ، فزوج السلطان ابنه ملكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النهر ، وزوج ابنه أرسلان شاه بابنة صاحب غزنة ، وبذلك ارتبطت الدول الثلاث برباط المصاهرة . واتفقت الكلمة (١) ، وهذا بالـ السلاجقة فأنصرف السلطان الى تحقيق أهدافه الكبرى ، وقرر أن يبدأ بفتح الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته وهي بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم ، لأنها كانت المنافذ التي تطل على ممتلكات الدولة البيزنطية .

وفي مدة قصيرة تمكن ألب أرسلان — بعد أن تجاوز آذربيجان — من الاستيلاء على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتى وان وأورومية ، كما فتح جورجيا وبلاد الأرمن ، وبسقوط مدينة « Ani » عاصمة أرمينية القديمة وهي الحصن الذى وقى الامبراطورية البيزنطية شر الغزوات الشرقية ، انفتح المجال أمام القوات السلجوقية لتكثيف الضربات السريعة للروم في الولايات الأرمينية والأناضولية والكبادوكية ، وتتوسع في حركاتها في آسيا الصغرى حتى وصلت الى عمورية في مقاطعة فريجيا . بعد أن ضربت كبادوكيا كلها (٢) .

وأغضبت فتوحات ألب أرسلان امبراطور الروم « رومانوس ديوجينيس Romanos Diogènes » الذى قاد في حماس بالغ الى ميدان القتال كل رجل استطاع أن يجنده من الولايات الأوروبية والآسيوية ، وظل ثلاث سنوات متوالية يروح ويجىء في أرمينيا

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٥ .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية : ص ١٩٦ — ١٩٧ .

وكبادوكيا محاولا ضرب القوات السلجوقية بدون جدوى ، ثم قصد سورية لضرب القوات الاسلامية ، وفعلا ألحق الهزيمة بقوات أمير حلب الذي كان يدين بالولاء للفاطمين ، ولكنه لم يستطع تحقيق نصر دائم واضطر الى التراجع (١) .

وأتاحت أعمال امبراطور الروم في الشام للسلطان ألب أرسلان الفرصة لتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة وهو القضاء على الخلافة الفاطمية في الشام تمهيدا للقضاء عليها في مصر ، فأرسل جيشا بقيادة ابنه ملكشاه لفتح بلاد الشام ، وحين أحس أمير حلب بقدوم الجيش السلجوقي خلع طاعة الفاطمين وانضم للسلاجقة وخطب للخليفة العباسي ، وبذلك انتفى خطر الغزو السلجوقي لبلاده . كما تمكن ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، ووضع يده على بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ثم حاصر دمشق ، غير أنه لم يتمكن من فتحها في ذلك الوقت (٢) . وبهذه الأعمال في بلاد الشام نجح السلاجقة في تأمين الجيش السلجوقي الرئيسي الزاحف الى بلاد الروم وتمهيد سبيله .

وأدرك الامبراطور ما يرمى اليه السلاجقة فقام بحركة مضادة ، فقد جمع جيشا جرارا يضم أخلاطا من الشعوب المسيحية ، تمثل الروم والفرنسيين والبلغار واليونانيين والجورجيين ، وذرع به آسيا الصغرى ، وتوغل شرقا حتى عسكر عند « ملاذكرد Mansikert » الواقعة على الحد الأرمني بالقرب من مدينة « خلاط » . وبعد مناوشات مع مقدمة الجيش الرومي أدرك السلطان أن من الصعب عليه أن يقاتل مثل هذا الجيش ، وبخاصة أنه لم يستطع أن يجمع قواته التي كانت مبعثرة ، ففضل أن يطلب الصلح ، وأن يؤجل ما عزم عليه من غزو بلاد الروم حتى يكمل استعداداته . ولكن امبراطور الروم

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص . اومان : ص ١١٧ .

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

وكان معتدا بقوته ومتهففا على ضرب السلاجقة ، رد على رسول السلطان بأن الصلح لا يتم الا في الرى عاصمة السلاجقة •

أزعج السلطان هذا الرد المتكبر من الامبراطور ، وألهب في الوقت نفسه حماسه الدينى ، فأعلن لجنوده أن الاسلام فى خطر ، واستثار عواطفهم الدينية بما أبداه من تضرع لله حتى لقد نزل عن جواده ومرغ وجهه فى التراب خضوغا لله واستمطارا لنصره • وبذلك صبغ عمله بصبغة الجهاد الدينى •

وفى حماسة بالغة من كلا الطرفين التحم الجيشان فى معركة عاصفة انتهت بسحق الجيش الرومى سحقا تاما ، حتى فرشت ساحة القتال بجثث رجاله ، ووقع رومانوس نفسه أسيرا فى أيدي السلاجقة • وحمل الى السلطان فى ذلة ، ولكن هذا عامل عدوه المهزوم بكرم ، وقبل أن يفتدى نفسه بعد أن عقد معه معاهدة مدتها خمسون عاما ، تعهد فيها امبراطور الروم بدفع الجزية للسلاجقة ، وبأن يرسل الى السلطان عساكر الروم حين يطلبها ، وبأن يطلق له كل أسير من المسلمين فى بلاد الروم •

وحين عاد الامبراطور الى بلاده لقي مصيرا مؤلما ، فقد وثب « جون دو كاس » على السلطة ، وقبض على الامبراطور المهزوم وعذبه وسمله فمات بعد أيام قليلة ، ولكن خلفه لم يستطع الا أن يقر المعاهدة التى وقعها مع ألب أرسلان • وبذلك صرف الروم نظره عن نهائيا عن آسيا الصغرى (١) •

كانت موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، وتاريخ منطقة غربى آسيا بصفة خاصة • فأما فى التاريخ الاسلامى ، فان السلاجقة قد واصلوا

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٤ — ٢٥ . الراوندى : ص ١٨٩ .
أومان : ص ١٩٧ — ١٩٩ .

كفاح العرب ضد الروم ، واستطاعوا بهذا النصر أن يزيلوا الروم كعدو ظل يصارعهم منذ خروج العرب من الجزيرة العربية الى المجال الخارجى فى الفتوح الكبرى ، وقد كان الروم يحرصون على وضع أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها ويعتبرونها القنطرة بين الغرب والشرق مما جعل هذه البلاد ميدان صراع بين الفرس والروم قبل الاسلام ، ثم حاول المسلمون وضع أيديهم عليها وبسط نفوذهم فيها بكل السبل ، لكن النفوذ الرومى بقى قويا طاغيا ، حتى كانت موقعة ملاذكرد هذه فأخذ النفوذ الرومى ينحسر شيئا فشيئا حتى زال تماما . ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة أدى الى تدخل قوى أخرى فيما بعد هى القوة الأوروبية ، فاشتبك المسلمون فى صراع مع قوى أوروبا المسيحية فيما عرف بالحروب الصليبية التى استمرت نحو قرنين . ثم ان انحسار الروم عن هذه المنطقة أدى من الناحية الحضارية الى انتشار الحضارة الاسلامية فى هذه البلاد بعقائدها ونظمها وآدابها وجميع مظاهرها .

وأما من ناحية تاريخ منطقة غربى آسيا ، فان موقعة ملاذكرد يسرت القضاء على النفوذ الرومى فى أكثر أجزاء آسيا الصغرى مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين . وبذلك شمل الاسلام كل منطقة غربى آسيا بل قفز منها مع التقدم العثمانى الى شرق أوروبا .

أما السلطان ألب أرسلان فانه لم يعيش طويلا بعد انتصاره فى ملاذكرد ، فقد قتل بعد عام وبضعة أشهر من هذا الفوز العظيم ، على يد أحد الثائرين فى المشرق . وذلك أنه بعد أن فرغ من قتال الروم توجه الى المشرق لقمع فتنة قام بها الخانيون ، وعبر نهر جيحون فى أوائل عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م وهاجم احدى القلاع الثائرة واستولى عليها . ولما قبض على قائدها وكان يسمى يوسف الخوارزمى أراد السلطان أن يقتله بنفسه لشدة عناده وشتمه

للسلطان ، ولكن هذا هاجمه بسكين كان يخفيها وطعنه طعنة نافذة مات منها بعد أيام ، ودفن بمدينة مرو بعد حكم دام تسعة أعوام ونصف تقريبا (١) •

ملكشاه :

كان ملكشاه مع والده في حملته على المشرق • فلما قتل والده جلس على العرش بوصية منه ، وكتب السلطان ملكشاه الى الخليفة في بغداد ليصدر له التفويض بالسلطنة وليأمر بذكر اسمه في الخطبة فأجيب الى ما طلب (٢) • غير أن عمه « قاورد » الذي أوصى له ألب آرسلان بكرمان وفارس ، لم يطب نفسا بتولى ابن أخيه السلطنة ، فخرج بقواته من كرمان قاصدا الري معلنا أنه أحق بالسلطنة • ولكن ملكشاه ووزيره نظام الملك سبقاه اليها ، ثم سار اليه فالتقيا به بالقرب من همذان ، وتمكنا بمساعدة أمراء العرب والأكراد من الانتصار عليه ، حيث أمر ملكشاه بقتله تخلصا من شره ، ولكنه أقر كرمان بيد أولاده ، فتوارثوا حكمها زمنا طويلا الى عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وسميت دولتهم في التاريخ باسم « سلاجقة كرمان » • وكذلك كافأ السلطان العرب والأكراد باقطاعات كثيرة لما أبدوا في الحرب من بسالة وبلاء • أما نظام الملك فقد علا شأنه ، فرد السلطان الأمور كلها اليه وأقطعه اقطاعا وافرا وخلع عليه ولقبه ألقابا من جملتها لقب « أتابك » ومعناه الأمير الوالد ، وذلك لما أظهر من كفاية وشجاعة وحسن سيرة (٣) •

فتوحات ملكشاه :

ما كاد الأمر يستقر لملكشاه حتى انصرف الى اكمال « البرنامج » الذي رسمه أبوه ، وهو بسط نفوذ دولة السلاجقة حتى تشمل جميع

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢٨ .
(٣) نفس المصدر : ص ٢٩ — ٣٠ .

أنحاء العالم الاسلامى • وبدأ فولى وجهه شطر الشام وكان هو قد دخلها من قبل فى حياة أبيه حتى وصل الى بيت المقدس عام ٤٦٣ هـ فلما ولجى العرش اتجه الى اتمام ما بدأه فى عهد أبيه ، فتوغلت جيوشه حتى استولت على معظم بلاد الشام ، ثم أرسل جيشا دخل الأراضى المصرية وتوغل حتى وصل القاهرة وحاصرها ، ولكنه لم يستطع فتحها لاستماتة الفاطميين فى الدفاع عنها (١) • فاضطر جيش السلاجقة الى الارتداد الى الشام ، ولم يفكر بعد ذلك فى غزو مصر مرة أخرى ، غير أن السلاجقة حرصوا على تأمين بلاد الشام وانتزاعها نهائيا من الفاطميين ، ولذلك أسند السلطان ملكشاه أمر بلاد الشام الى أخيه تاج الدين نتش فى عام ٤٧٠ هـ ، وسمح له بفتح ما يستطيع فتحه من الأقاليم المجاورة وضمه الى حوزة السلاجقة •

وفى سنة ٤٧١ هـ اتجه « نتش » الى حلب ليعيدها الى حوزته ، ولكنه علم بحصار جيش الفاطميين لمدينة دمشق ، فخف بقواته لنجدتها ، فانسحب الجيش الفاطمى دون قتال ودخل نتش مدينة دمشق واتخذها قاعدة لحكمه ، وأسس فيها دولة « سلاجقة الشام » (٢) •

وفى نفس الوقت الذى عين فيه ملكشاه أخاه نتش على الشام عين سليمان بن قتلمش واليا على البلاد التى فتحها السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فوضع سليمان يده على ولايتى قونية وآق سرا • ويعد سليمان هذا هو المؤسس الحقيقى لدولة « سلاجقة الروم » التى كتب لها أن تكون أطول دول السلاجقة عمرا ، فقد ظلت تحكم هذه البلاد الى عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م • وقد تمكن سليمان من توطيد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى • ثم حاول التوسع بفتح أقاليم جديدة • ففتح أنطاكية عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م • وكانت أنطاكية من بلاد الشام

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٧ — ٣٩ •

(٢) نفس المصدر : ص ٤١ •

غير أنها كانت تحت حكم الروم منذ عام ٣٥٨ (١) • ولذلك فإن فتحها كان بالغ الأهمية لأنه أوصل نفوذ السلاجقة الى سواحل البحر المتوسط •

لكن فتح سليمان لمدينة أن الكية أوقع الفرقة بين أفراد البيت السلجوقي ، اذ بدأ التنارع بين سليمان وتتش ، فقد حاول كل منهما أن يوسع منطقة نفوذه ، ففكر في الاستيلاء على جزء من الأقاليم الخاضعة للآخر • وقد بدأ سليمان بالعدوان ، اذ أنه بعد أن فتح أنطاكية اتجه الى حلب ليضمها لحكمه ، وحاصرها حصارا شديدا حتى استنجد حاكمها بتتش ، وصادف هذا هوى في نفس تتش فتقدم بقواته لصد سليمان عنها • ودارت بين الطرفين معركة حامية قتل فيها سليمان عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ودخل تتش حلب •

غير أن السلطان ملكشاه أحس بخطورة الخلاف بين فروع السلاجقة ، فتقدم بنفسه الى بلاد الجزيرة والشام ، وأخضع في طريقه ما صادفه من قلاع كانت لا تزال تحت حكم الروم مثل الرها • فلما اقترب من حلب رحل عنها تتش الى دمشق ، فدخلها السلطان وطمأن أهلها (٢) ، وفصل بين الطرفين المتنازعين ، فأقر تتش على بلاد الشام ، كما أقر أبناء سليمان على بلاد الروم •

وحين فرغ ملكشاه من اقرار الأمور في الجزء الغربي من دولته رحل الى بغداد حيث توطدت بينه وبين الخلافة وأصر الصلة ، اذ زوج ابنته الى الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله أوائل عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٣) ، فازداد نفوذ السلاجقة بذلك استقرارا في جميع المناطق التي تحت أيديهم وأصبحت قوتهم أكبر قوة في المشرق الاسلامي • وآن الملكشاه وقد وطد دولته في المغرب أن يتجه الى

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٤١ •

(٢) نفس المصدر : ص ٥٥ •

(٣) تتش : ص ٩١ •

المشرق لبخضع اقليم ما وراء النهر ، حتى يثار لمقتل والده في هذه الديار ، وقد واثته الفرصة حين شكا اليه علماء ما وراء النهر من ظلم أميرها أحمد خان وكان صبيا قبيح السيرة في الناس ، حتى استغاثوا بالسلطان وسألوه القدوم عليهم ليملك بلادهم . ولهذا دلالة فان المسلمين في تلك البقاع كانوا ينظرون الى السلاجقة على انهم حملة الاسلام والمسلمين . ولم يفوت السلطان هذه الفرصة بل تقدم بقواته الى بلاد ما وراء النهر ، فهزم أحمد خان واستولى على بلاد ما وراء النهر كلها ، ثم تجاوزها الى اقليم كاشغر حيث خضع له واليها (١) ، وبذلك بلغ ملك السلاجقة أقصى اتساعه شرقا وغربا ، فقد شمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب ، أى من حدود الهند شرقا الى البحر المتوسط غربا ، وضم تحت لوائه أقاليم ما وراء النهر وايران وآسيا الصغرى والعراق والشام . وليؤكد نظام الملك مدى قوة السلاجقة أمام خصومهم ، أمر رسول ملك الروم الذى جاء بالجزية المفروضة على بلاده ، منذ موقعة ملاذكرد ، أن يحملها الى السلطان وهو في كاشغر ، كما أمر الملاحين الذين يعملون في نهر جيحون بأن يحملوا الرسوم المقررة عليهم الى عامل السلطان في أنطاكية .

بعد أن نجح ملكشاه في اقرار هيئته في جميع أجزاء دولته المترامية الأطراف عاد الى أصفهان ، غير أن الأحداث لم تلبث أن تطورت تطورا آخر ، فقد أطلت برأسها على مسرح الأحداث في ايران قوة رهيبة ، أخذت تمثل دورا موحها في تاريخ الدولة السلجوقية كان له آثار واضحة فيما بعد ، ونعنى بهذه القوة طائفة الاسماعيلية .

الاسماعيلية :

الاسماعيلية احدى فرق الشيعة ، ويقولون باثبات الامامة الى

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٦٣ — ٦٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦٣ . عيد النعيم حسنين : ص ٦٩ .
(م ٣٨ — العصر العباسى)

اسماعيل بن جعفر الصادق ، ويرون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم • ومن أهم مبادئهم ايمانهم بالامامة ، لأن العقل وحده يقصر عن الوصول الى معرفة الله معرفة حققة ، ولذلك يرون أنه لا بد أن يعرف الناس امامهم وأن يبايعوه ، ومن أجل ذلك قالوا « ان من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية • وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة امام مات ميتة جاهلية » (١) •

ومن أهم الأسس التي يقوم عليها مذهبهم ايمانهم بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا • وللتنزيل معان ظاهرة يعرفها الناس وأخرى باطنة يعرفها الامام ولذلك سيموا بالباطنية •

وقد انتشر دعاة الاسماعيلية في جميع الأقطار الاسلامية لترويج لدعوتهم • وقد تمكنوا من اقناع بعض الأمراء والقبائل والأفراد باتباع مذهبهم • وأتيح لهم أن يقيموا لهم دول : منها دولة القرامطة في عام ٢٨١ هـ / ٨٩١ م • وقد تمكن القرامطة من بسط سلطانهم على كثير من مدن الشام والعراق وعمان والبحرين ، كما استولوا على مكة ، وظلوا يبعثون الرعب في تلك النواحي • كما استطاعت طائفة من الاسماعيلية أن تصل الى شمال أفريقية وأن تنجح في عام ٢٦٩ هـ / ٩٠٨ م في اقامة الدولة الفاطمية التي امتدت على الشمال الأفريقي وأخذت مصر والشام وبلغ نفوذها بغداد نفسها •

اما في ايران فقد انتشر النفوذ الاسماعيلي في بعض أجزائها ، وازداد هذا النفوذ في العصر الساماني في عهد نصر بن أحمد ، وكذلك في أثناء حكم الزياريين •

ولكن هذا النفوذ ضعف بعد غلبة الغزنويين ، وتلاشى تقريبا في بداية العهد السلجوقي لشدة تحمس السلاجقة للمذهب السني وتعقبهم للاسماعيلية •

(١) الشهرستاني : الملل والنحل : ج ١ ، ص ١٩٢ — ١٩٢ •

غير أن النفوذ الاسماعيلي عاد الى الظهور في عصر ملكشاه ، وأصبح قويا مرعبا على يد الحسن بن محمد بن الصباح ، الذي طوف في البلاد حتى وصل الى مصر وأقام فيها عاما ونصف عام ، انضم في خلال هذه المدة الى أنصار نزار بن المستنصر .

وذلك أنه حدث نزاع حول ولاية العهد بين ابني المستنصر : نزار ، والمستعلى . فانقسم الاسماعيلية بينهما ، ولم يتمكن نزار من الوصول الى العرش ، فقد هزم وأسر ومات في الأسر ، ولكن أتباعه انتشروا يروجون للمذهب النزاری .

وقد استطاع الحسن الصباح أن يكون قوة كبيرة من الأتباع في إيران وبهذه القوة استولى على قلعة (الموت) في عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٧ م وكون له دولة وكثر مريدوه . وقد ربي أتباعه على الفدائية ، واستطاعوا تكوين معازل قوية حصينة لهم في أقاليم الجبال . اتخذ الاسماعيلية طريق اغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلاطين ، وسيلة لازالة كل معترضينهم ، الأمر الذي أثار قلقا شديدا في جميع أنحاء الدولة السلجوقية فعاش الناس في خوف واضطراب يتوجسون خيفة من هؤلاء الفدائيين .

وكان أبرز عمل ينسب الى الاسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه هو قتلهم لوزيره نظام الملك في شهر رمضان من عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ويقال ان السلطان كان قد ضاق بقوة نفوذ نظام الملك ، فدبر مؤامرة للقضاء عليه ، فتم قتله على يد فتى من فتيان الاسماعيلية الفدائيين^(١) .

والواقع أن مكانة نظام الملك كانت قد تزعزعت في أيامه الأخيرة ، وذلك لأن أهله وأتباعه استغلوا مركزه ونفوذه فسيطروا على مراكز الدولة ، ولم يحسنوا السيرة معتمدين على قوة شخصية نظام

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧٦ .

الملك وسوابق خدمته ، ولما كان نظام الملك قد تقدمت به السن وأصبح شيخا كبيرا محطما فإنه كان في حاجة الى الاستعانة بأهله وأتباعه ، ولم يكن في مكنته السيطرة عليهم وتقويم معوجهم ، الأمر الذى جعل السلطان ملكشاه ينفر من نظام الملك ويحاول التخلص منه ، وقد أتاح هذا الشعور من السلطان لمنافسى نظام الملك وحسامه فرصة الدس بينه وبين السلطان حتى يزيديا من حدة الخلاف بينهما • كما أن نظام الملك قد وقع في خلاف مع « ترکان خاتون » زوجة السلطان التى كانت ترغب في أن يكون ابنها محمود وليا للعهد ، بينما كان نظام الملك يريد تولية « برکیارق » الابن الأكبر إذ أن محمود كان طفلا لا يتجاوز الرابعة • ولذلك انضمت ترکان خاتون الى أعداء نظام الملك • ولما كانت ذات نفوذ قوى على السلطان وكانت تتدخل في السياسية وفي تصريف شئون الدولة ، فإنها تمكنت من التأثير على السلطان حتى ساء ظنه بنظام الملك وفكر في عزله •

وجاء حادث أتم صورة الخلاف بين الرجلين ، وأعلن الوحشة بينهما ذلك أن حفيدا لنظام الملك كان جده قد ولاه رئاسة مدينة مرو غثار نزاع بينه وبين متولى الشحنة من قبل السلطان ، فحملت « عثمان » حفيد نظام الملك حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده على أن يقبض على متولى الشحنة ويهيئنه ، ثم أطلقه فقصده السلطان مستغيثا شاكيا •

ولما كان السلطان قد أبغض نظام الملك وأحب القضاء على نفوذه ونفوذ أبنائه وأتباعه ، فإنه هم بخلع وزيره ، غير أنه خشى أن فعل أن تنتشر الفوضى والاضطرابات في أنحاء الدولة ، نظرا لكثرة أتباع نظام الملك ، ولأن كثيرا من رجال الجيش كانوا يحبونه ويؤيدونه ويحمونه هو وأتباعه وأبنائه • فأثر السلطان أن يلجأ الى التهديد بالعزل لعله يرهب نظام الملك فيخفف من سيطرة أتباعه ، فأرسل له رسالة شديدة اللهجة ، وأمعن في اغاظة الوزير واغضابه ، فأرسل

الرسالة مع جماعة من أرباب دولته منهم شخصان من ألد أعداء نظام الملك ، هما تاج الملك الشيرازي ومجد الملك القمي . وقد وجه السلطان الكلام الى الوزير قائلاً « ان كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدي فى السلطنة فلذلك حكم . وان كنت نائبى وبحكمى فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة . وولى ولاية كبيرة . ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا الى أن فعلوا كذا وكذا ، وأطال القول » (١) .

ولما وصلت رسالة السلطان الى نظام الملك كان رده منبئاً عن اعتدائه واستمساكه بمركزه . وكان يحمل من التهديد للسلطان أكثر مما كانت تحمل رسالة السلطان له ، فقد قال ليلغى رسالة السلطان « قولوا للسلطان : اذا كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأبى . أما يذكر حينمما قتل أبوه ، فحقت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم منهم فلان وفلان — وذكر جماعة من خرج عليه — وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ولا يخالفنى ، فلما قدت الأمور اليه ، وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعه القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الذنوب . ويسمع فى السعيات » . قولوا له عنى « ان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وان اتفاقيهما رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك . فان عزم على تغيير فليترود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه » . ثم وجه الكلام اليهم قاصدا اشعارهم بقوته فقال لهم « قولوا للسلطان عنى مهما أردتم ، فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه ، وفت فى عضدى » (٢) .

وحين أحيط السلطان علماً بقول نظام الملك لم يجرؤ على عزله

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧٦ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧١ .

مع شدة حفيظته عليه ، وانما سلك طريق المؤامرة للايقاع به دون أن
تثور من وراء ذلك فتن وقلاقل ، حتى تم قتل نظام الملك على يد فتي
من فتيان الاسماعيلية •

ولم يعمر السلطان طويلا بعد نظام الملك ، فقد توفي بعد ذلك
بخمسة وثلاثين يوما • وبموت نظام الملك والسلطان انفرط عقد
السلاجقة وتمزقت وحدتهم وحكم السيف بينهم ، وقد صدقت نظرة
نظام الملك وتقديره كما أرسل الى السلطان •

والواقع أن الدارس لتاريخ الدولة السلجوقية لا يجد مقرا من
الوقوف وقفة طويلة عند الدور الذي قام به نظام الملك على مسرح
الدولة السلجوقية ، فقد قام نظام الملك بدور كبير الأثر من جميع
النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية •

فأما من الناحية السياسية : فان نظام الملك بقى وزيرا للسلطان
السلجوقي ثلاثين سنة شملت عهد ألب أرسلان وملكشاه سوى ما وزن
لألب أرسلان أيام أن كان على خراسان في عهد عمه طغرل بك ، وهي
مدة طويلة شهدت معظم بناء الدولة السلجوقية • وكان نظام الملك
في خلال هذه المدة الطويلة يعد الأستاذ الأعظم وسيد الوزراء ،
فكان في يده زمام الأمور في دولة السلاجقة المتراامية الأطراف ، وكان
واسع الثقافة عظيم الخبرة ، توفر في شبابه على تحصيل العلوم ،
ثم تمرس بالأعمال السلطانية المختلفة حتى وصل الى الوزارة •
وقد استخدم علمه وخبرته ، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة
في الداخل والخارج ، وحدد أهدافها ورسم الطرق التي توصل الى
هذه الأهداف ، واستطاع بحسن سياسته ودقة تدبيره أن يجعل
الأمور منتظمة في جميع أنحاء الدولة ، كما استطاع أن يجعل من
السلاجقة أكبر قوة في العالم الاسلامي ، وكان لتوجيهه سياسة

السلاجقة نحو الثغور الاسلامية أكبر الأثر في اكتساب السلاجقة احترام المسلمين وتقديرهم ، وبث رهبتهم وخشية بأسهم في نفوس غير المسلمين ، حتى تجمع العالم المسيحي للقضاء عليهم ، فتوالت الحملات الصليبية على العالم الاسلامي ونشب ذلك الصراع المرير بين أوروبا المسيحية وبين المسلمين نحو قرنين خرج منه المسلمون ظافرين آخر الأمر على يد صلاح الدين .

وكان توجيه نظام الملك لقوى السلاجقة نحو الدولة البيزنطية أول معاول الهدم الحقيقي لهذه الدولة التي صمدت للمسلمين نحو خمسة قرون تحافظ رغم هزائمها على خط الحدود بينها وبين العالم الاسلامي ، حتى نفذ السلاجقة الى أرضها فمهدوا لسقوطها بعد ذلك على يد العثمانيين . ولم يكتف نظام الملك بتوجيه السياسة توجيهها عمليا في حياته ، وإنما وضع سفرا جليلا ضمنه آراءه في السياسة ونظم الحكم ، وهو كتابه المشهور « سياستنامه » ويعتبر من أشهر الكتب التي تبحث في نظم الحكم ، وكيفية ادارة البلاد وكسب رضا المحكومين . والواقع أن ما تضمنه كتاب « سياستنامه » من آراء ووضايا يصلح لأن يكون أساسا لنظم الحكم ، الأمر الذي جعل هذا الكتاب يحظى بشهرة واسعة ويترجم من الفارسية الى عدة لغات مختلفة .

وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد شجع نظام الملك على تعمير المدن وإصلاح البلاد ، وشيد كثيرا من المساجد والمدارس ، وخلف كثيرا من الأبنية والآثار العظيمة في مختلف البلاد وبخاصة في بغداد وأصفهان . كما كان نظام الملك خيرا عادلا أقر الأمن والنظام في جميع أرجاء ملك السلاجقة فانتعش المجتمع ، واتحد أفرادہ وتماسكوا واتجهوا الى تحقيق أهداف الدولة التي اصبغت بصبغة الجهاد في سبيل الله لنشر الاسلام وإعلاء كلمته ، وبذلك نشطت قوى المجتمع واحتفظ البيت السلجوقي بوحدة .

أما من الناحية الثقافية ، فإن نظام الملك بنفسه كان عالماً أدبياً ، فشجع على نشر العلم والثقافة ، وأنشأ كثيراً من المدارس التي أخذت طابعاً خاصاً في الدراسة وحملت اسمه فعرفت بالمدارس النظامية ، وكانت نشأة هذه المدارس في الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية . وقد انتشرت هذه المدارس في بغداد ونيسابور وطوس وهرات وأصفهان وغيرها من البلاد ، وكان أشهرها المدرسة النظامية في بغداد . وقد شمل العلماء والكتاب والشعراء برعايته وتشجيعه ، فاجتمع حوله الكثيرون منهم ، وألفوا الكتب وقدموها له ، ونظموا الأشعار في مدحه والأشادة بذكره . فراجت سوق العلم وازدهرت الثقافة في دولة السلاجقة (١) .

وقد وضحت مكانة نظام الملك بعد مقتله ، فقد زلزلت الدولة السلجوقية بعد مدة زلزالاً شديداً ، وانتكست انتكاساً عنيفاً ، فانتهى بموته عصر التماسك والقوة ، وبدأ عهد التفكك والضعف ثم الانهيار . كما أن مكانة أسرته وعقودها لم يزل يزواله ، بل ظل الشعب يحبها ويلتفت حولها ، وقد تمتع كثير من أبنائه وأحفاده بكثير من النفوذ ، وولوا الوزارة في أحيان كثيرة في أثناء حكم أبناء ملكشاه وغيرهم من سلاطين السلاجقة ، وكان لأسرة نظام الملك وزن كبير في التنافس الذي قام بين فروع البيت السلجوقي ، فكثيراً ما كان يكفي تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقي ليتفوق على منافسيه ، كما كان يكفي تخليها عن حاكم من السلاجقة ليتخلى الشعب عنه ويلقى الهزيمة ، وما ذلك إلا لحب الشعب لهذه الأسرة وثقته بها .

بركيارق :

يعتبر عهد بركيارق بن ملكشاه وسطاً بين عصرين : عصر وحدة السلاجقة وعصر انقسامهم ، وعلى الرغم من أن بركيارق استطاع

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٧٧ — ٧٨ . عبد النعيم حسنين :

ص ٧٩ — ٨١ .

ثان يكون سلطانا على السلاجقة ، الا أن عهده كان عهد اضطراب وحروب بين أفراد البيت السلجوقي ، انتهى بانقسام الدولة السلجوقية إلى أقسام تكاد تكون منفصلة بعضها عن بعض ، ومنذ نهاية عهد بركيارق لم تتوحد الدولة الا لفترة قليلة تحت حكم أخيه سنجر . فلقد كان قتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ السلاجقة ، اذ انتهى باختفاء السلطان ووزيره من المسرح السياسي عهد القوة والاتحاد ، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام ، وكان أهم مظهر من مظاهر هذا العهد الجديد هو أن الظفر بمنصب السلطنة أصبح غاية في ذاته . فكثر النزاع بين أفراد البيت السلجوقي ، ولم تعد الدولة في هذا العهد تخضع لسلطان واحد ، بل كان يتنازعها أكثر من سلطان في وقت واحد ، ولم يعد هم أمراء السلاجقة نصره الاسلام وتوسيع أملاك الدولة السلجوقية كما كان الحال في عهد طغرل وألب أرسلان وملكشاه ، وانما كان همهم القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم ، ومن ثم وقعوا في حروب أسرية أدت إلى إضعافهم جميعا وإلى إسقاط دولة السلاجقة آخر الأمر .

وكانت أولى المشاكل التي واجهت الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه هي مشكلة اختيار السلطان الذي يخلفه ، ولقد برزت هذه المشكلة قبل موت السلطان وكانت سببا من أسباب الجفوة بين السلطان ووزيره ، وقد مات الرجلان قبل الوصول إلى رأى حاسم في هذه المسألة .

كان التنافس على العرش محصورا بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده أتباع نظام الملك ، وبين أخيه الطفل محمود الذي تعمل أمه ترکان خاتون باسمه ويناصرهما تاج الملك الشيرازي الوزير الذي احتل مكان نظام الملك . وبذلك انقسم السلاجقة إلى معسكرين متنازعين يجاهر كل منهما بعدائه للآخر . وكانت الظروف في أول الأمر تبدو في

صالح ترکان خاتون ، فقد مات ملكشاه في بغداد مقر الخليفة العباسي الذي يرجع الى رأيه في تعيين السلطان ، بينما كان بركيارق في أصفهان .
ولذلك استطاعت ترکان خاتون أن تجعل الخليفة يعترف بابنها محمود سلطانا ، وخطب له في ٢٢ شوال من عام ٥٤٨٥ / ١٠٩٢ م . ثم أمرته بالقبض على بركيارق ، فقبض أتباعها عليه وسجنوه في أصفهان .

لكن أتباع نظام الملك هبوا لنصرة بركيارق ، واستطاعوا اخراجه من السجن ونادوا به سلطانا ، وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان في وقت واحد : محمود في بغداد وبركيارق في أصفهان . وأصبح لا مقر من الاحتكاك بين الطرفين . وقد بدأت ترکان بالهجوم ، ولكن قوات بركيارق تؤيدها النظامية ألحقت الهزيمة بها ، كما قبض النظامية على الوزير تاج الملك وقتلوه انتقاما لمصرع نظام الملك ، فقد كان الوزير متهما بالتآمر على نظام الملك وولى النظامية « عز الملك » بن نظام الملك الوزارة ، وقد كان مقيما بأصفهان عند حصار بركيارق لها (١) .

وفي الوقت الذي كان الصراع قائما فيه بين بركيارق وترکان خاتون ، ولم يوصل فيه الى نتيجة حاسمة ، ظهر في الأفق منافس آخر لبركيارق هو عمه تاج الدولة تتش الذي كان واليا على دمشق وما جاورها من بلاد الشام من قبل أخيه ملكشاه ، فلما رأى الخلاف بين أولاد ملكشاه ، ذلن الفرصة سانحة للوصول الى عرش السلطنة ، واستعدادا لذلك سارع الى حلب وبسط سلطانه عليها ، ثم دانت له أنطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين بالولاء ، ثم ما لبث أن ضم الموصل وديار بكر وآذربيجان . وأحس بركيارق بالخطر يتهدد به من ناحية عمه تتش ، فتقدم بقواته الى آذربيجان ، فلما أحس تتش بقوته وبميل أمراء الأقاليم اليه ، عاد الى الشام تاركا البلاد التي فتحها لبركيارق الذي استقامت له البلاد في عام ٤٨٦ هـ (٢) . وكذلك استطاع بركيارق حسم

(١) انظر تفصيل هذه الأحداث في ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٧٨ — ٨١ .

(٢) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٨١ — ٨٣ .

فتنة أخرى قام بها خاله اسماعيل بن ياقوت بتحريض من ترکان خاتون التي منته بالزواج منها ، وقد كان أميرا على آذربيجان فجمع جيشا قويا واتجه لقتال برکیارق ولكن هذا أوقع به الهزيمة قرب الكرج حيث فر الى أصفهان للقاء ترکان خاتون التي أكرمت وفادته، ولكن لم تستقم له الأحوال لمعارضة الأمراء له • فلجأ الى أخيه أم برکیارق وهناك أحس أتباع برکیارق منه الغدر فقتلوه ، وبذلك انتهت فتنته • وصفا الجو لبرکیارق فتوجه الى بغداد حيث اعترف به الخليفة المقتدر بالله سلطانا على السلاجقة وخطب له في ١٤ من المحرم سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٤٩ م ، غير أن الخليفة مات فجأة في اليوم التالي وبويع لابنه المستنصر بالله ، فأقر هذا « برکیارق » على السلطنة وأرسل اليه الخلع والتقليد (١) •

ولكن نتش لم يقبل الأمر الواقع بل أخذ منذ تراجعه يجمع القوات ويستعد لانتزاع السلطنة من ابن أخيه ، واستطاع أن يعود ويستولى على حلب وديار بكر وآذربيجان وهمدان وأن يقتل الأمراء الموالين لبرکیارق • وقد لاحظ أن الناس يميلون الى أسرة نظام الملك ، فلما وجد أحد أبناء نظام الملك في همدان وهو « فخر الملك » اتخذ وزيراً استجلباً ليل الناس اليه ، ثم طلب من الخليفة الاعتراف به سلطانا ، ولما كان برکیارق قد هزم أمام عمه ورجع الى أصفهان حيث قبض عليه رجال محمود ، فان الخليفة اعترف بنتش سلطانا (٢) •

غير أن الظروف تحولت الى صالح برکیارق ، وذلك أن ترکان خاتون كانت قد ماتت ، ثم ما لبث محمود أن مات ، فانحاز أنصاره اليه وبايعوا برکیارق ، ثم انضم اليه « مؤيد الملك » أكفأ أبناء نظام الملك ، فأسند اليه الوزارة ، فاستطاع أن يعيد الاستقرار الى

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٥ .
(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٦ — ٨٧ .

دولة بركيارق المختلة وأن يضم الى سلطانه الأمراء العراقيين والخراسانيين ، فعظم شأن بركيارق وكثر جنده حتى استطاع الانتصار على عمه تنش في معركة بالقرب من مدينة الري عام ٥٢٨٨/١٠٩٥م انتهت بمصرع تنش (١) .

لم تكد الأمور تهدأ وتستقيم السلطة لبركيارق حتى اشتعلت المنازعات بين الوزراء ، فتنافس ابنا نظام الملك على الوزارة ، فلما عزل السلطان « مؤيد الملك » بن نظام الملك وولى أخاه « فخر الملك » لم يستطع هذا أن ينهض بالأمر لتفوق « مجد الملك القمي » الذي كان وزيراً لزبيدة خاتون أم السلطان ، ونلاحظ في أيام دولة السلاجقة أن النساء من زوجات السلاطين كن يتدخلن في شئون الحكم والسياسة وكان لهن نفوذ كبير على أزواجهن ، كما كن يتخذن لأنفسهن وزراء يعملون لهن ويتمتعون بما لهؤلاء النسوة من نفوذ على السلاطين ، واستطاع مجد الملك القمي بنفوذ سيدته ومهارته أن يسيطر على كل مرافق الدولة ويتصرف في كل مهامها حتى استحالت وزارة فخر الملك الى مجرد جسم لا حياة فيه . ووقع الصراع بين هذين الرجلين فعزل السلطان بركيارق فخر الملك وعين مجد الملك القمي وزيراً بصفة رسمية ، فانزوى فخر الملك في نيسابور ، ولكن انزواءه لم يدم طويلاً فقد عينه سنجر أخو بركيارق وحاكم خراسان وزيراً له وظل وزيراً له الى عام ٥٥٠٠ / ١١٠٦م حين قتله الاسماعيلية . وأما مؤيد الملك فانه أخذ يتصل بأعداء السلطان ومنافسيه حتى استقر به الأمر عند محمد ابن ملكشاه أخى بركيارق وحاكم اقليم آذربيجان .

كان تخلى بركيارق عن أسرة نظام الملك خطأ كبيراً ، اذ كانت هذه الأسرة تتمتع بحب السواد الأعظم من الناس ومن أمراء الجيش وكبار رجال الدولة ، فبدأ هؤلاء يتخلون عن بوكيارق ، وبذلك اشتعلت الفتنة والثورات في كل أجزاء الدولة المترامية الأطراف .

(١) البغدادى : ص ٨٥ . ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٦١

وكان أخطر ما واجه بركيارق هو الصراع الذي احتدم بينه وبين أخويه محمد وسنجر ، وقد استمرت المعارك بينهم نحو خمس سنوات من عام ٤٩٢ هـ — ٤٩٧ هـ تداولوا فيها النصر والهزيمة ، وذهبت في غمرة الصراع زبيدة خاتون أم بركيارق ، فقد وقعت في يد مؤيد الملك فأمر بقتلها وكذلك قتل وزير السلطان وصنيعة أمه « مجد الملك القمي » . والخلافة في كل ذلك لا تتحرك لشيء إلا أن تستجيب للغالب ، فتعترف بهذا سلطانا وبذاك سلطانا وتخطب لهذا أو لذاك ، فهي لا ترد طلب من بدا غالبا (١) .

وقد أدت هذه الصراعات الى انتشار الفساد والاضطراب في الدولة ، وقد أصبحت وحدة السلاجقة وقد كتب عليها التفرق أبدا . وفي عام ٤٧٩ هـ سئم بركيارق كثرة الحروب ورأى ضعف السلاجقة وتفككهم ، فكاتب أخاه محمدا في طلب الصلح ، فاتفق الطرفان على أن يحمل كل منهما لقب سلطان ، وأن تكون الأقاليم الشمالية لمحمد ، وأن تكون الأقاليم الجنوبية لبركيارق ، وأن تبقى خراسان وما جاورها تحت حكم سنجر . واستمر هذا الاتفاق قائما حتى توفي بركيارق عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، وقد جعل ولده الطفل ملكشاه وليا لعهدده على أن يكون الأمير اياز أتابكا عليه (١) .

امتاز عهد بركيارق بالشقاكات العنيفة بين أفراد البيت السلجوقي ، ولم يستطع خلالها أن يقر الوحدة السلجوقية كما كانت في عهود من سبقه على الرغم من الجهود الشاقة التي بذلها ، وحين مات كان كل جزء من أجزاء الدولة يتبع واليا يكاد يكون مستقلا ، فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر ، بينما تخضع الأجزاء الشمالية لحكم محمد ، وبلاد الشام في قبضة أبناء تنش وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلمش ، وكان كل يسيطر على ما تحت يده سيطرة تامة ،

(١) انظر ابن الأثير عن هذه الأحداث ، ج ١٠ ، ص ١٠٤ — ١٣٨ .

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٤٢ .

فتمت بذلك الدولة السلجوقية العظيمة ، ولم تعد تلك الوحدة الرائعة التي رأيناها في عهد طغرل وألب أرسلان وملكشاه ، ولم يكتب لها أن تتوحد بعد ذلك الا فترة قليلة من عهد سنجر •

وكان لهذا النزاع السلجوقي آثاره الخطيرة كذلك على العالم الاسلامي ، فان الاسماعيلية نشطوا في تلك الفترة فوسعوا منطقة نفوذهم ووصلت دعوتهم وأعمالهم الى أصفهان احدى عواصم الدولة السلجوقية ، وبثوا الرعب في قلوب الناس بما كانوا يقومون به من الخطف والقتل ، وأمعنوا في قتل كل مخالفينهم • وعلى الرغم مما قام به السلطان محمد — الذي ضم اليه ابن أخيه واسترضى اياز حتى ماله فأصبح سلطانا دون منازع — من جهود لحد من قوة الاسماعيلية ، فانه عجز عن القضاء عليهم ، ولم يستطع الجيش السلجوقي الاستيلاء على قلعتهم الكبرى « ألموت » وظلوا هم يهددون المناطق المجاورة كلها بل امتد نشاطهم الى جهات بعيدة من العالم الاسلامي •

وكذلك أدى انقسام السلاجقة وانشغالهم بصراعاتهم الداخلية الى انشغالهم عن الخطر الخارجي ، الذي أخذت تتجمع نذره في الجبهة الغربية ، فان السلاجقة في وقت توحدتهم وقوتهم ألحقوا هزائم كبيرة بالدولة البيزنطية واقتطعوا جزءا كبيرا من أملاكها في آسيا الصغرى ، وما زالوا يكتسحون هذه البلاد حتى بحر مرمرة حتى هددوا القسطنطينية نفسها ، الأمر الذي جعل الامبراطور ألكسيوس كومنين يستنفر البابا أوربان الثاني في عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، فوجد هذا الفرصة سانحة لارجاع الكنيسة اليونانية (كنيسة القسطنطينية) الى حظيرة روما ، ثم ازجأع بيت المقدس ، واعادة مجد البابوية ، فألقى خطبة في كليرمنت من أعمال فرنسا الجنوبية حث فيها «المؤمنين» على سلوك الطريق الى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدي المسلمين • وقد وجد نداء البابا أذنا صاغية لدى فرسان الاقطاع في أوروبا الذين ضاقت أوروبا بظموحهم ، كما وجد فيه الناس فرصة للخروج من البؤس

الاقتصادي الذي يعاونه ، وكذلك وجد فيه الملوك فرصة لتحقيق مغانم كبيرة من كنوز الشرق ، وليستطيع الأمراء تحقيق مطامعهم بتكوين أمارات وممالك لهم • وهكذا كان يجري كل منهم وراء غرض خاص ، ولكن الجميع حملوا شعار الصليب فكان هذا الشعار هو العلامة الوحيدة على وحدتهم التي لم تكن موجودة في حقيقة الأمر •

وبدأت الحملات الصليبية على العالم الاسلامي في الوقت الذي كان فيه السلاجقة يزاولون هذا النشاط الخطير في القضاء بعضهم على بعض والقضاء بذلك على قوتهم ، وهم يعملهم الأحقق هذا يديرون ظهورهم للجبهة التي وجهوا نشاطهم اليها من قبل والتي اكتسبوا بعملهم فيها رضاء العالم الاسلامي واحترامه •

واذا كان المشرق الاسلامي يموج بحراع السلاجقة الداخلي ، فان المغرب الاسلامي كان يحكمه الفاطميون ، ولما كان هؤلاء في عداة مذهبي مع السلاجقة فان الطرفين كانا في صراع دائم في الشام ، وهو الهدف الرئيسي للحملات الصليبية ، فكانت المنطقة في الحقيقة منطقة ضعف ، وكان الفاطميون أنفسهم يسيرون نحو الضعف فلم يستطيعوا الصمود على الرغم من قوة أسطولهم الذي حاول التصدي للغزو الصليبي بالاستيلاء على جميع مدن الساحل الشامي • ولكن الغزو الصليبي نجح في الاستيلاء على بلاد الشام وكون الصليبيون بها أمارات لاتينية لهم هي امارة الرها سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م وامارة أنطاكية ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، وامارة بيت المقدس ٤٩٣هـ / ١٠٩٨م ، وهي أعظم الولايات اللاتينية مرتبة ، ثم استطاع الصليبيون الاستيلاء على مدن الساحل بمساعدة السفن الايطالية ، وهي سفن البندقية وجنوه وبيزا التي أدرك أصحابها أن امتلاك المدن الساحلية يفتح أسواقا جديدة وموانئ حرة لبضائعهم ، وهذا سيطر الصليبيون على سواحل الشام وعلى كثير من بلاد المشرق الاسلامي وأصبحوا أعظم خطر

يتهدد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت (١) • وما زالت الحملات الصليبية تتوالى على الشرق الاسلامى والمسلمون يصارعونها مدة قرنين انتهى الأمر فيها بفوز المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبي ثم القضاء عليهم على يد المماليك بمصر •

وفى تل هذا الصراع المحتدم فى الشام كان السلاجقة مشغولين بحروبهم الداخلية ، وبالتطاحن للظفر بالعرش ، عن التنبيه للخطر العظيم ، أو كانوا غير مقدرين خطورته تقديرا صحيحا ، كما كانت الخلافة العباسية من الضعف بحيث لم يكن فى مكننتها المساهمة الفعلية لصد هذا الخطر ، ولذلك ترك الصليبيون يغزون سوريا وفلسطين • دون أن يقوم السلاجقة أو انبيت الخلافة بدور ايجابى ذى بال •

وبهذا التحول من التماسك الى الفرقة ، ومن الجهاد فى سبيل حماية العالم الاسلامى ومد نفوذه ، الى الانصراف الى الصراع الداخلى • خرجت الدولة السلجوقية من دور القوة الى دور الضعفة ودخلت فى عصر الانقسام •

(١) انظر ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ — ١٠٧ •
١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ — ١٤٠ • حتى : تاريخ العرب : ج ٤
ص ٧٥٦ — ٧٥٧ • اس القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (طبع بيروت ١٩٠٨)
١٣٦ — ١٣٨ •

عصر انقسام السلاجقة

انتهى عهد بركيارق بانقسام دولة السلاجقة وتفكك وحدتهم ، نتيجة للنزاع الذى قام حول العرش السلجوقى ، ونتيجة للخصومات التى وقعت بين الوزراء والأمراء ، يضاف الى ذلك الأخطار التى هددت كيان الدولة من خارجها وأهمها ، قدوم الصليبيين وسيطرتهم على معظم بلاد الشام وتهديدهم للدولة السلجوقية من هذه الناحية . ثم الاسماعيلية الذين كانوا يكمنون فى داخل الدولة ويسيطرون على القلاع الحصينة ، وعجز الجيوش السلجوقية عن القضاء على قوتهم أو الحد من نشاطهم . ولقد ظلت هذه العوامل كلها تنخر فى جسم الدولة حتى أتت عليها آخر الأمر .

وقد حاول السلطان محمد الذى اعتلى العرش بعد موت بركيارق أن يقضى على الفتن المختلفة التى تهدد دولة السلاجقة ، فلم يستطع على الرغم مما قام به من جهود صادقة ، فان النزعة الانفصالية لدى أمراء السلاجقة كانت أقوى من أن تتغلب عليها جهود السلاطين ، لأنهم هم بذاتهم كانوا يشعلون نارها ليصلوا الى العرش ، ولم يكن للوصول الى العرش قاعدة ثابتة يمكن السير عليها ، فكان كل من يأنس فى نفسه القدرة يسعى لفرض سلطانه . ومن ثم كانت تظهر المطامع بعد موت كل سلطان وتشتعل الحروب ، حتى يتحقق النصر للأقوى ، فاذا ما مات هذا الأقوى اشتعلت الحروب للوصول الى العرش مرة أخرى . ومن ثم ضعفت قوة السلاجقة نتيجة لخلافاتهم الداخلية وانقسام الجيوش بين الأمراء المتصارعين ، فعجزت عن التصدى للأخطار التى تواجهها ، ولذلك استفحل أمر الباطنية ، كما انتصر الصليبيون ، كما برزت على الحدود الشرقية دول فتية استطاعت أن تقهر السلاجقة فى المشرق . كما أن الخلافة أخذت تسترد قوتها وفعاليتها فى العراق ، فعملت على القضاء على السلاجقة فى العراق .

وفي هذا العصر الذي تلا موت بركيارق لا نستطيع أن نتحدث عن السلاجقة كوحدة ، وإنما نتحدث عن أقسام الدولة السلجوقية ، وأهم هذه الأقسام سلاجقة خراسان ، وسلاجقة العراق •

* * *

سلاجقة خراسان :

أهم حكام سلاجقة خراسان هو السلطان سنجر • ويعد سنجر من السلاطين العظام ، فقد اعترف به السلاجقة سلطاناً وزعيماً عليهم ، كما اعترف له الخليفة العباسي بهذه المنزلة ، فعد لذلك آخر سلاطين السلاجقة العظام الذين اعترف لهم جميع حكام السلاجقة بالزعامة والسلطنة •

وكان سنجر والياً على خراسان وما وراء النهر في عهد كل من أخويه بركيارق ومحمد ، وكان يسمى ملك المشرق • وقد ظل سنجر في المشرق بعد توليه عرش السلطنة فأطلق على السلاجقة الذين يمثلهم اسم « سلاجقة خراسان » تمييزاً لهم عن « سلاجقة العراق » وقد استطاع سنجر — قبل توليه عرش السلطنة — أن يوطد نفوذه ، وأن يقوم بفتوحات بسطت هذا النفوذ على جهات أخرى ، فقد تمكن من فتح « ترمذ » و « طخارستان » في عام ٤٩١ هـ وضمهما إلى ملكه (١) • كما استطاع أن ييسط نفوذه على إقليم ما وراء النهر في عام ٥٩٥ هـ (٢) • وبلغت قوته حدا جعله يتقدم نحو مدينة « غزنة » ويستولي عليها بعد هزيمة ملكها أرسلان شاه الغزنوي سنة ٥٠٨ هـ (٣) •

وقد ازدادت قوة سنجر بعد توليه عرش السلطنة ، وتجلت هذه القوة في انتصاره على ابن أخيه محمود الذي تولى السلطنة بعد أبيه محمد ، فبسط سنجر نفوذه على أكثر أجزاء إيران والعراق ،

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٠٤ •

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١٣٠ — ١٣١ •

(٣) نفس المصدر : ج ١٠ ، ص ١٩٠ — ١٩١ •

وصارت له الكلمة العليا في أقاليم ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان وأصفهان وهمذان والري وآذربيجان وأرمينية وبغداد والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين. وصارت تضرب له السكة في كل هذه الأقاليم ويطلقاً بسلطه كل ملوك هذه الجهات (١) .

أصبح سنجر سلطان السلاجقة وزعيمهم ، ولكنه أناب عنه محمود ابن أخيه في العراق وسمح له بالتلقب بلقب سلطان فأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية تابعاً لسلطنة سنجر ، كما أصبحت سلطنة العراق في عهد سنجر ، الذي امتد حكمه أربعين سنة ، لا يرتقى عرشها الا من ارتضاه هذا السلطان . وقد كان سلاطين العراق يدفعون الجزية لسنجر ويذكرون اسمه في الخطبة قبل أسمائهم (٢) .

غير أن الحروب لم تنقطع في عهد سنجر ، وكان مثار الحروب التي واجهها سنجر وأخطرها هي الحروب بينه وبين دولتين جديدتين ظهرتتا على مسرح الأحداث في المشرق ، وكان لهما دور موجه في تاريخ السلاجقة بصفة خاصة وفي توجيه سير الأحداث بصفة عامة ، وهما الدولة « القره خطائية » والدولة « الخوارزمية » ، وهذه الأخيرة هي التي أنهت حكم السلاجقة في المشرق كما أعانت على القضاء عليهم في العراق .

الدولة القره خطائية :

تنسب هذه الدولة الى مجموعة من القبائل التركية تعرف بقبائل الخطا كانت تسكن شمال شرقي ايران في عهد السلاجقة ، وقد استطاعت هذه القبائل أن تثبت أقدامها في هذه المنطقة وأن تؤسس لها دولة في حوالي عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، عرفت بالدولة « القره خطائية » وكان

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩ . الراوندي : ص ٢٥٩ وما بعدها . عبد النعيم حسنين : ص ١١٥ .
(٢) حسنين أمين : ص ٩٥ .

يطلق على ملوكها لقب « كرخان » وقد اتخذت لها عاصمة هي مدينة « بلاغستون » •

وقد عظم نفوذ هذه الدولة حتى أخضعت القبائل التركية التي كانت تعرف باسم « فرغيز » ثم هاجمت « كاشغر » ر « خن » • ثم أخذت في الاغارة على البلاد الاسلامية في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٦ م ، وقامت بأعمال مدمرة حتى أصيب الناس بذعر شديد ، واستنجدوا بالسلطان سنجر •

ولم يجد سنجر بدا من قتال هذه القبائل فتوجه بقواته الى ما وراء النهر في عام ٥٢٥ هـ ، ولما أحس هؤلاء بقوة سنجر أرسلوا اليه يعتذرون ويتعهدون بالطاعة والخضوع له • ولكنه صمم على استئصالهم ، فنازلوه مستميتين واستطاعوا أن يلحقوا به هزيمة منكرة في سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م في موقعة عند « قطوان » بالقرب من سمرقند • حيث فر تاركا زوجته أسيرة في يد « القرمخطائين » (١) •

وقد كانت معركة « قطوان » حدا فاصلا بين عهدين من سلطنة سنجر : — عهد القوة وسعة النفوذ ، وعهد الضعف والانهييار • كما كانت ذات آثار خطيرة في تاريخ السلاجقة ، فقد قوى أمر الخطائين ، وأخذوا يمدون نفوذهم على اقليم ما وراء النهر وكاشغر ووقعت في أيديهم سمرقند وبخارى ، وتعهد الخانيون بدفع الخراج لهم ، وبذلك صاروا خطرا جسيما يهدد سلاجقة المشرق • وقد استمرت دولتهم حتى عام ٦٠٩ هـ / ١٢٠٢ م ، حينما قضى عليها السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي •

ولقد كان من نتيجة انهزام سنجر في موقعة قطوان أن تجرأ عليه حكام الدولة الخوارزمية ، فتمردوا عليه ، ومنذ ذلك الوقت أخذ

(١) ابن الاثير : ج ١١ ، ص ٣٢ •

نجم السلاجقة يأفل تدريجيا حتى تم سقوطهم على يد الخوارزمية •

الدولة الخوارزمية :

يرجع نسب ملوك هذه الدولة الى عبد تركي كان يسمى « أنوشتكين » اشتراه أحد أمراء السلاجقة في « غرجستان » ، وقد أظهر هذا العبد من اللياقة والكفاءة ما فتح أمامه باب الترقى في عهد السلطان ملكشاه ، فعينه واليا على خوارزم ، وقد ظل في منصبه هذا حتى سنة ٤٩٠ هـ حيث توفي ، وخلفه ابنه قطب الدين محمد الذي أطلق على نفسه لقب « خوارزمشاه » أي « ملك خوارزم » وأسّس دولة عرفت في التاريخ باسم « الدولة الخوارزمية » (١) ، وقد أخذت هذه الدولة تظهر على مسرح التاريخ تدريجيا ولو أن ملوكها تظاهروا بالخضوع والطاعة للسلاجقة ، فاعتبروا أنفسهم معينين من قبلهم •

وقد أسند سنجر ولاية خوارزم الى « علاء الدين أئمز » بعد وفاة أبيه قطب الدين محمد • وظل أئمز على وفاق مع السلطان سنجر ، الذي وثق به وصحبه معه في أسفاره وحروبه فعلا أمره وظهرت كفايته • فلما اطمأن الى قوته حاول أن يجعل دولته مستقلة استقلالاً تاماً عن السلاجقة ، فثار على السلطان سنجر في سنة ٥٣٠ هـ واستطاع أن يضم الهضاب الواقعة في أسفل نهر جيحون الى ملكه • وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل النزاع بين السلاجقة والخوارزميين •

وفي هذه المرحلة التحم السلطان سنجر بقوات أئمز عدة مرات منذ سنة ٥٣٣ هـ الى سنة ٥٤٣ هـ ، وكانت كفة سنجر هي الراجحة في الغالب ، ولكن أئمز أظهر كثيرا من الدهاء والبراعة كما أظهر سنجر

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩٩ — ١٠٠ •

كثيرا من السذاجة ، غفى كل مرة كان يتغلب فيها سنجر على خصمه ، كان هذا يعتذر له ويلتمس عفوّه ، فيجيب الى ذلك • وبهذه الطريقة الماكرة ، طريقة الضرب ثم الاعتذار عند الشعور بالغلب • مع السعى للتوسع ، استطاع أئسز آخر الأمر أن يحظى بالاستقرار في خوارزم ، فرسخت أقدام الدولة الخوارزمية ، وأخذت تظهر بقوة على مسرح التاريخ ، بينما أخذت قوة سنجر تنهار وتسير نحو النهاية بخطى سريعة •

ان كثرة الحروب التي خاضها سنجر للدفاع عن حدود دولته ، ولصون نفوذه واقرار هيبة السلاجقة هدت قوته وفلت من شوكته • حقيقة انه انتصر في أكثر هذه الحروب التي تعددت ميادينها ، ولكن انكساره أمام الخطائين وضياع اقليم ما وراء النهر من يده كان ضربة قوية وجهت الى الدولة السلجوقية وحرية نافذة في ظهرها •

ونتيجة لهذا كله فقدت دولة السلاجقة السيطرة على أطرافها ، فكثرت الدول والامارات المستقلة حولها ، وأخذت تتوسع على حسابها • وأهم هذه الدول التي أحاطت بدولة السلاجقة بالشرق واشتبكت معها في حروب هي الدولة القره خنائية والدولة الخوارزمية — وقد عرضنا للنزاع بينهما وبين السلاجقة — ثم الدولة الغورية •

وكانت الدولة الغورية تسيطر على جبال الغور ومدينة « فيروزكوه » بالقرب من غزنة ، ثم امتد نفوذها الى هراة وجاصر ملكها علاء الدين حسين الغوري مدينة بلخ • واضطر سنجر الى الاشتباك معه في معركة انتهت بانتصار سنجر وأسر علاء الدين ، ولكن سنجر عفا عنه وأطلقه • فازدادت قوته وزحف نحو غزنة واستولى عليها ، وعين عليها أخاه سيف الدين ، وحين ثار أهل غزنة بسيف الدين وقتلوه عاد علاء الدين اليها ونكل بأهلها سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م • وبذلك أخذت الدولة الغورية تظهر على المسرح السياسي وتشارك

في توجيه الأحداث في إيران والهند منذ ذلك الحين (١) .

كل هذه الأحداث سارت بالسلاجقة في المشرق الى الانهيار لكن الحادث الذي عجل بالخاتمة هو تلك الفتنة التي قامت بها قبائل الغز . وقد أشعل الغز هذه الفتنة في مستهل عام ٤٥٨ هـ / ١١٥٣ م . وكان الغز من القبائل التركية المسلمة التي تسكن في اقليم ما وراء النهر ، فلما استولى الخطائيون على هذا الاقليم هاجرت طوائف الغز وسكنت بالقرب من بلخ ، وحين أراد حاكم بلخ ابعادهم استرضوه بالمال والهدايا ، فسمح لهم بالبقاء ، وأقاموا في هذه النواحي في حالة حسنة ، لكن هذا الحاكم عاود مطالبتهم بالانتقال عن بلده ، فاستعطفوه فأصر على طردهم ، فلما فشلوا في ارجاعه عن عزمه ، جمعوا شملهم وقاتلوه فألحقوا به هزيمة كبيرة اضطرته الى الفرار الى مرو حيث كان السلطان سنجر . وحين أعلمه حاكم بلخ بواقع الحال ، كتب الى الغز يأمرهم بمغادرة بلاده ، وهددهم فاعتذروا اليه وحاولوا استرضائه ، ولكنه جمع جيوشه وسار اليهم فقاتله الغز ببسالة عظيمة واستطاعوا أن ينزلوا بجيشه هزيمة ساحقة ، ووقع هو بنفسه أسيرا في أيديهم (٢) . وقد ظل سنجر أسيرا في أيدي الغز ثلاث سنوات استطاع بعدها الهرب والوصول الى عرشه في مرو (٣) .

وحين وصل سنجر الى عرشه كان قد صار شيخا مهتما نالت منه السنون وحطم نفسه ما رأى من خراب بلاده على يد هؤلاء الغز الذين عاثوا في الأرض فسادا فخرّبوا البلاد ونهبوها وقتلوا الناس رجالا ونساء شيوخا وأطفالا ، فلم يحتل سنجر الصدمة فمات كمدا في ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م (٤) .

-
- (١) ابن الاثير : ج ١١ ، ص ١٠٩ . عبد النعيم حسنين : ص ١٣٣ .
 (٢) الرواندي : ص ٢٧١ .
 (٣) الرواندي : ص ٢٧٧ .
 (٤) انظر ابن الاثير : ج ١١ ، ص ٧١ — ٩٠ . الرواندي ، ص ٢٧٨ .

وبموت سنجر انتهى عهد السلاطين العظام ، وأخذت دولة السلاجقة في الانهيار ، فلم يلبث حكام خوارزم أن استولوا على ممتلكات السلاجقة في خراسان ، فسقطت بذلك دولة خراسان أو دولة سلاجقة المشرق العظام ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة •
أما سلاجقة العراق فانهم أخذوا يسيرون نحو الضعف والانهيار حتى سقطت دولتهم في عام ٥٩٠ هـ على أيدي حكام الدولة الخوارزمية أيضا •

سلاجقة العراق

في الوقت الذي كانت الاضطرابات فيه تعم الأجزاء الشرقية من دولة السلاجقة ، كانت أجزاءها الغربية تموج باضطرابات أشد • وكان مرد هذه الاضطرابات الى عدة أمور أهمها : النزاع الذي كان يحدث دائما حول تولى عرش السلطنة • ثم الخلاف الذي نشب بين الخلافة العباسية وبين السلاجقة واستفحل حتى أخذ مظهر الحرب بين الطرفين • ثم بروز نفوذ الأتابكة •

النزاع حول العرش :

لم يكد السلطان محمد بن ملكشاه يتوفى عام ٥١١ هـ / ١١١٧ م حتى قام نزاع حول العرش ، وانقسم السلاجقة على أنفسهم في الوقت الذي كان فيه أعداؤهم يحددون بهم من كل جانب • ذلك أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر باسناد السلطنة الى ابنه محمود ، وحين وليها هذا وكان صغيرا لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره ، أنف عمه سنجر — والى خراسان وما وراء النهر — أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة • وبذلك أصبح للسلاجقة سلطانان انقسمت بينهما الدولة الى قسمين القسم الشرقي وعليه سنجر ، والقسم الغربي وعليه محمود ، وانستعلت الحرب بين الطرفين . فانتصر سنجر واعترف له الخليفة العباسي بالسلطنة على السلاجقة (١) •

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩ •

ولكن سنجر بعد انتصاره عطف على ابن أخيه « محمود » فصالحه وعينه وليا لعهدده ، وكتب بذلك الى الولايات ، كما أحاط به الخليفة العباسي علما • وأعاد اليه جميع البلاد التي كانت تحت حوزته ما عدا مدينة الري التي اتخذها سنجر قاعدة يراقب منها أعمال محمود خشية أن تحدثه نفسه بالخروج مرة أخرى (١) •

انتهى بانتصار سنجر التنازع على العرش ، ولكنه لم يحل المشكلة ، فان الدولة انقسمت الى قسمين رئيسيين ، واذا كان سنجر قد استطاع أن يفرض شخصه في القسم الشرقي ، فان القسم الغربي ظل مجالا للتنافس عند خلو عرشه دائما ، كما أن أجزاءه المختلفة في إيران والعراق وآسيا الصغرى والشام يكاد كل جزء منها يكون مستقلا يصرف شئونه حكامه دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحكام ، وكانت خلافاتهم الداخلية تشغلهم عن أى هدف آخر ، وكان سنجر برغم انشغاله بقتال الخطائين والخوارزميين يضطر أحيانا للتدخل لقمع الفتن وإقرار الأوضاع • لكن كل فرد من أفراد البيت السلجوقي كان يعد نفسه في الجزء الذي يحكم فيه ، ويحاول أن يوسع منطقة نفوذه ، ويسعى للوصول الى السلطنة ما استطاع الى ذلك سبيلا ، الأمر الذي أدى الى كثرة الحروب وتعدد مياديينها • وشملت الخلافات الأسرية معظم هذا العهد من حكم سلاجقة العراق : فقد خرج مسعود حاكم الموصل وأذربيجان على أخيه محمود وقاتله (٢) ، وبعد وفاة محمود سنة ٥٢٥ هـ تنازع ابنه داود مع عمه مسعود وبدأت الحرب بين الطرفين ، كما تقاتل مسعود بعد استقرار السلطنة له مع أخيه سلجوقشاه (٣) ثم تدخل سنجر فدارت الحرب بينه وبين مسعود ، وكذلك بين مسعود وبين أخيه طغرل ، ولم يستقر الأمر لمسعود الا بعد صراع طويل (٤) •

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٠٩ •

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣١ •

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٧ •

(٤) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٥٧ — ٢٦٢ •

ولقد كان لهذا الصراع الأسرى الذى حفل به هذا العصر أثره البالغ على البلاد الاسلامية وعلى السلاجقة أنفسهم • فقد أدى اضطراب الحالة الى تجرؤ أعداء الدولة على الهجوم على البلاد الاسلامية ، فقد أغار حكام جورجيا على بلاد المسلمين فى آذربيجان فى عام ٥١٣ هـ ، وتصدى لهم طغرل أخو السلطان محمود ولكنه هـ م ، وأخذ الكرج يغيرون على البلاد الاسلامية حتى حاصروا تفليس واضطروا أهلها الى التسليم ، واضطر السلطان محمود الى الخروج لقتالهم ، ولم ينتصر على الكرج الا بعد أن وقع الخلاف بين صفوفهم فجلوا عن بلاد المسلمين فى عام ٥١٧ هـ (١) •

أما الحالة فى سورية وفلسطين فأنها بلغت حدا كبيرا من الضعف والفوضى ، وقد كان جزء منها تحت الحكم الفاطمى • والفاطيون فى مصر كانوا فى حالة من الضعف جعلت خلفاءهم دمية فى يد الوزراء وقواد الجيش ، وهؤلاء كانوا مشغولين بتدبير المؤامرات فيما بينهم بغرض الظفر بالنفوذ والسلطان • فإذا انضاف هذا الى انشغال السلاجقة والى ضعف الخليفة العباسى الواقع تحت نفوذهم ، تسبب كل ذلك فى ضعف العالم الاسلامى فى الغرب أمام الهجوم الصليبي الموجه اليه ، وقد تمكن الصليبيون نتيجة لذلك من شق طريقهم الى بيت المقدس • وتثبيت أقدامهم فى كثير من أجزاء الشام وآسيا الصغرى ، وأخذوا فى توسيع رقعة الأراضى التى تحت أيديهم فاحتلوا مدينة صور سنة ٥١٨ هـ وكانت أمنع حصون المسلمين ، وبذلك ازدادوا قوة وأصبحوا شوكة فى جنب المسلمين (٢) •

كما أن ضعف السلاجقة وتفرقهم أدى الى أن عظم أمر الاسماعيلية حتى لقد ملكوا قلعة « بانياس » بالشام فى سنة ٥٢٠ هـ وقتلوا « قسيم الدولة آقسنقر البرسقى » صاحب الموصل (٣) •

(١) انظر ابن الأثير فى حوادث بين سنتى ٥١٤ — ٥١٧ •

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ •

(٣) نفس المصدر : ص ٢٤١ •

النزاع بين الخلافة العباسية والسلاجقة :

بدأت العلاقات بين السلاجقة والخلافة طيبة كما رأينا من قبل ، وكان كل من الطرفين يرى مصلحته في مصانعة الآخر والاحتفاظ بوده . ولتدعيم هذه العلاقة قامت المصاهرات بين البيتين : العباسي والسلجوقي . ولكن هذه العلاقات كانت تفرضها المصلحة المشتركة ولم تكن طبيعية . فالخلافة كانت تحيط بها ظروف قاسية تهدد كيانها ، وقد وجدت في الدولة السلجوقية السنية قوة تستند اليها لتدعيم مركزها الذي تهدد أمام الزحف الفاطمي . والسلاجقة وقد كانوا يقيمون دولتهم كانوا في حاجة الى سند شرعي من اعتراف الخلافة بهم وتأييدها لسلطانهم . لكن قوة السلاجقة ما لبثت أن طغت على الخلافة ، وأصبح الخليفة العباسي تحت نفس النفوذ الذي كان للبويهيين من قبل . حقيقة ان السلاجقة جاملوا الخلافة العباسية في أول الأمر وأظهروا الاحترام والطاعة للخليفة العباسي ، لكن الطموح دفعهم الى التسامي لما لم يسم اليه أحد من قبلهم وهو الاصهار للخلافة بأن يتزوج سلطانهم من ابنة الخليفة نفسه . ثم سموا الى اقرار الخلافة لابن بنتهم من الخليفة المقتدر العباسي ، وتدخل ملكشاه تدخلًا سافرًا وهدد الخليفة بترك بغداد والانصراف عنها الى أي البلاد شاء ، الأمر الذي أزعج الخليفة أيما أزعاج وجعله يتوسل الى السلطان أن يمهل شهرًا حتى يعد نفسه ، ولكن السلطان رفض أن يؤخره ساعة ، وبلغ الإذلال حد التوسط بوزير السلطان فأمهل الخليفة عشرة أيام ، ولم ينج الخليفة من هذه المحنة الا موت السلطان قبل نهاية المدة (١) .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت النفوس تتغير بين الخلافة والسلاجقة ، واتخذت الخلافة موقف المتفرج من الصراعات السلجوقية ، وكانت تستجيب لكل غالب منهم فتصدر له الاعتراف بالسلطنة وتخطب له ،

(١) الفخرى : ص ٢١٧ . المنتظم : ص ٦٢ . الراوندي : ص ٢١٠ .

وقد تعترف بأكثر من واحد في وقت واحد • وهي بذلك ترقب الفرصة لاستعادة سلطانهم • وقد بدأت الخلافة كفاحها منذ عهد المسترشد بالله بن المستظهر الذي بويغ سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م وقد رأى انقضاء السلاجقة ، ووجد الفرصة سانحة لاسترداد قوة الخلافة ونفوذها ، فبدأ بأعمال اصلاحية في المجتمع حبيته الى الفقهاء ورجال الدين ، وذلك بتتبعه لبيوت الفسق وحوائيت الخمر يغلقها ويهريق خمرها ، ثم أخذ في تتبع المفسدين وعمل على نشر العدل ، وهو بذلك يريد تقوية المجتمع وصيانتها استعدادا لما يسعى اليه من اظهار قوة الخلافة وضرب قوة السلاجقة •

كما أن الخليفة المسترشد أراد أن يبرز فعالية الخلافة وقوتها ، فضرب على يد رجل كان دائما مصدر القلق والخطر في الدولة وهو « دبيس بن صدقة » الأزدي صاحب الحلة ، وكان كثيرا ما يثير القلاقل للدولة العباسية كما كان مصدرا للفتنة • وفي سنة ٥١٧ هـ أطلق « عفيفا » خادم الخليفة وكان مأسورا عنده ، وحمله رسالة فيها تهديد للخليفة بارسال الجند لقتاله وتخريب بغداد ، فانتهزها الخليفة فرصة لاطهار بأس الخلافة ، فجهز الجيوش وسار على رأسها لحرب دبيس • واستطاع انزال الهزيمة به والغاء الى الفرار حتى استقر به الأمر عند الملك طغرل بن السلطان محمد (٢) •

وليجعل الخليفة بغداد مستعدة للحرب قادرة على الصمود أمر ببناء سور بغداد ، ويعد هذا من الأعمال الجلية للمسترشد • وسيحمي هذا السور بغداد من الغارات والاعتداءات •

ثم ما لبثت الجفوة أن وقعت بين الخليفة وبين السلطان مسعود ، وقامت الحروب بينهما ، حتى أجبر الخليفة السلطان على طلب الصلح

(١) ابن الاثير : ج ١٠ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ . المنتظم : ج ٩ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ •

سنة ٥٢٠ هـ (١) ، ثم خرج الخليفة لحربه مرة أخرى ، ولكن الخيانة وقعت في جيشه الذي كان يضم عددا من أمراء السلاجقة ورجالهم ، فوقع الخليفة في الأسر ، ثم اغتاله الباطنية وهو في خيمة وضعه بها السلطان (٢) وبويع لولده الراشد بالخلافة .

وهكذا سقط المسترشد شهيدا كأول خليفة عباسي خرج مجاهدا منذ العهد البويهي من أجل استقلال الخلافة واعادة هيبته ، فكان خير مثال يحتذىه الخلفاء من بعده . وقد سار الخلفاء على نهجه في مقاومة السلاجقة واضعاف نفوذهم .

وقد كانت خلافة الراشد امتدادا للصراع الذي بدأه أبوه ، وقد لقي نفس المصير ، بعد أن ألحق الهزيمة بقوات السلطان مسعود (٣) .

وقد أثارت صور هذا الاستشهاد نفوس الناس في العراق وألهبت صدورهم لنصرة الخلافة والوقوف في جانبها ، الأمر الذي أدى الى تدعيم قوة الخلافة واضعاف السلاجقة وانهيارهم .

وبويع للخليفة المقتفى الذي أخذ بدوره يرقب الحوادث ويتحين الفرص لضرب السلاجقة . وكانت الأمور بعامة تسير في غير مصلحة السلاجقة ، فالسلطان سنجر يهزم أمام الخطائين في سنة ٥٣٦ هـ ، والخلافات تنشب بين أفراد البيت السلجوقي في إيران والعراق ، والحالة الاقتصادية تزداد سوءا مما أدى الى تبرم الناس . والخليفة المقتفى يحكم استعداداته بتقوية الجيش وتدريبه ، ويأمر العامة بجمع السلاح ، ويحفر الخنادق حول بغداد ، ويصلح السور . والعامة تاتف حول الخلافة وتتعاون معها . والسلطان مسعود تنهكه الحروب المنازعات وتتقدم به السن . وحين توفي في سنة ٥٤٧ هـ فقدت الدولة

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠ — ١١ .

(٣) المنتظم : ج ١٠ ، ص ٧٢ .

ركنا كبيرا واخذت تتداعى وتموج بالفتن والمنازعات • بيم قوى جانب الخليفة وأصبح هو السيد المطاع وصاحب الكلمة العليا في دولته ، وأخذ يسترد امتيازاته ، بل ويسيطر على الاقطاعات السلجوقية ويضعف قوة الأمراء • وقد برز الى جانب الخليفة وزير قوى هو « عون الدين ابن هبيرة » وكان شخصية فذة عاونت الخلافة معاونة صادقة • وأخذت الخلافة بسياسة مزدوجة ، فهي تضرب السلاجقة بعضهم ببعض وتشجع بذلك قيام الخلافات بينهم • ثم تحارب ان وجدت فرصة للحرب وتنتصر فيعلو قدرها ويضعف شأن خصومها (١) • وحين ضعف سلاطين السلاجقة برز على حسابهم قوة أتباعهم فيمن عرفوا بالأتابكة •

نفوذ الأتابكة :

كان أمراء الجيش والأتابكة ذوى نفوذ كبير في دولة السلاجقة بعمامة وسلاجقة العراق بخاصة • وكان هذا النفوذ يظهر بين الحين والحين فيما كان منهم من تحريض أفراد البيت السلجوقى بعضهم على بعض وفي بث روح الغدر وعدم الثقة بينهم • غير أن هذا النفوذ كان يتستر وراء السلاطين في وقت قوتهم • فلما ضعف السلاجقة بعد موت السلطان مسعود ظهر هؤلاء الأتابكة على المسرح وبرزت شخصياتهم وأسماءهم وأخذوا يقومون بالدور الرئيسى ، وصار السلاطين أدوات في أيديهم يأترون بأمرهم وينفذون رغباتهم دون أن يكون لهم نفوذ أو شخصية واضحة •

وقد تميز العصر الأخير من حكم السلاجقة بأسماء عدد من الأتابكة أشهرهم « أيلدكز » أتابك آذربيجان الذى سيطر على أمور السلطنة السلجوقية في العراق وصار هو الحاكم الفعلى حتى توفي سنة ٥٦٨ هـ ، فاحتل ابنه « جهان بهلوان » مكانه وظل يسير أمر السلطنة حاجبا السلطان « آرسلان » ثم ابنه السلطان « طغرل »

(١) انظر : حسين امين : ص ١٥٠ وما بعدها •

الذى تولى السلطنة وهو طفل ، وما زال الأتابكة يسيطرون على الدولة حتى كانت نهايتها .

وقد جاءت هذه النهاية على يد حكام خوارزم * الذين أخذوا يتدخلون في المنازعات بين أمراء البيت السلجوقي ، وقد وجدوا في ذلك فرصة لمد ملكهم على بلاد السلاجقة ، كما وجدت الخلافة فرصتها للاستعانة بهم على إنهاء الحكم السلجوقي . ففي سنة ٥٨٨ هـ استعان « قتلوغ اينانج بن جهان بهلوان » بعلاء الدين تكش حاكم خوارزم على السلطان طغرل ، فأمدّه بحبش استولى على مدينة الري ، ولكن طغرل هزمه . وفي سنة ٥٩٠ هـ أعاد قتلوغ استنجاهه بحاكم خوارزم ، كما كتب الخليفة الناصر لدين الله اليه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومع الرسول منشور من الخليفة باقطاعه البلاد ، فسار « خوارزمشاه » من نيسابور الى الري حيث انضم اليه قتلوغ بقواته ، وأسرع طغرل للقائه ، ولكنه هزم وقتل وحملت رأسه الى الخليفة العباسي الذي كان قد سير نجدات الى خوارزمشاه ، وبقتل طغرل الثالث زالت دولة السلاجقة في ايران والعراق على يد الخوارزميين وأقرت الخلافة العباسية هذا الوضع . وخلفت الدولة الخوارزمية دولة السلاجقة لكنها لم تسيطر على الخلافة العباسية كما سيطر عليها السلاجقة ومن قبلهم البويهيون .

تطور الأحداث خارج الدولة السلجوقية

في الوقت الذي كانت فيه الدولة السلجوقية تسير نحو نهايتها ، كانت الأحداث خارج الدولة تتطور تطورا في صالح المسلمين بعامه ، وأهل السنة بخاصة . فان أتابك عماد الدين زنكي ، حكم الموصل ، ثم خلفه من بعده ابنه نور الدين محمود الذي وهب نفسه لحركة تجميع اسلامية لمواجهة الغزو الصليبي والجهاد ضد الصليبيين الذين رسخت أقدامهم في الشام ، ولم يكن فضل نور الدين في جهاده في الشام وحده ، وانما فضله الأكبر في ارساله حملة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الى مصر ، فقد ردت هذه الحملة الامتداد الصليبي عنها ، كما خلصتها من الفوضى التي أحدثتها الوزراء الفاطميون بتنافسهم . ثم استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يسقط الدولة الفاطمية بمصر في عام ٥٦٧ هـ ، وبذلك أعاد الوحدة المذهبية للعالم الاسلامي .

ثم تولى مهمة التجميع الاسلامي بعد وفاة نور الدين ، واستطاع أن يجعل من مصر والشام وحدة في وجه الصليبيين . ولم يلبث الخليفة العباسي في عام ٥٧١ هـ أن أقره على حكم مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا الوسطى . وبذلك تفرد بالسلطنة (١) . وفي سنة ٥٨١ هـ تمكن من اخضاع الموصل وادخال أمراء العراق تحت نفوذه ، وبذلك أحاط بالصليبيين وحصرهم بين شقي رحي : أحدهما العراق وسورية ، والآخر مصر (٢) .

وبهذه الوحدة الاسلامية واجه صلاح الدين القوة الصليبية ، فاستولى على طبرية في عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٨ م . ثم تلتها موقعة

(١) أبو الفردا : ج ٣ ، ص ٦٠ .

(٢) انظر عن أعمال صلاح الدين : ابن الاثير : ج ١١ ،

ص ١٦٨ — ٢١٥ .

حطين التي انتصر فيها انتصارا حاسما تلاه سقوط بيت المقدس وكثير غيرها من المدن الساحلية : عكا ويافا وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان وما يجاورها (١) .

ولم تأت سنة ٥٨٥ هـ الا وقد سقطت أخطر معاقل الصليبيين . وكادت هزيمة الصليبيين تؤدي الى طردهم من الشام نهائيا ، لولا أن تحمس ملوك أوروبا فجاءت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد ، وامبراطور ألمانيا فريدرىك بربروسا ، وملك فرنسا غليب أغسطس .

وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على عكا سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٢ م . ولم يؤت صلاح الدين فسحة من العمر فمات بعد قليل . ولكن انتصاراته فلت حد الصليبيين فأخذت كفة المسلمين ترجح منذ ذلك الحين . حتى تم طردهم بعد ذلك على يد المماليك في مصر .

هذا في المغرب الاسلامي ، أما في المشرق فان الخوارزميين ورثوا ملك السلاجقة ، واستطاعوا القضاء على دولة الخطائين الوثنية واستردوا ثغور ما وراء النهر ، وواجهوا العاصفة العاتية التي هبت من شرق آسيا على عالم الحضارة بظهور المغول .

وأما الخلافة العباسية فقد استردت استقلالها ، وانصرف الخلفاء الى الأعمال الحضارية والعمرانية . وعادت الخطبة للخليفة العباسي تتلى على منابر المسلمين من حدود الصين حتى الأندلس مرة أخرى (٢) .

وفي هذا الوقت الذي كان العالم الاسلامي يموج فيه بهذه الأحداث كانت هناك في الشرق البعيد من وراء العالم الاسلامي سيول

(١) ابن الاثير : ج ١١ ص ٢١٦ — ٢٢٧ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٤٥٠ .

(م ٤٠ — العصر العباسي)

من قوى بشرية تتجمع في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي وهي ممتدة في أواسط آسيا جنوبى سيبيريا وشمال ألتيت وغربى منشوريا وشرقى التركستان ، بين جبال ألتاي غربا وجبال خنجان شرقا • حتى اذا ما تجمع فيضها والتحم ، خضمها اندفعت في موجة عاتية كسرت الخط الفاصل بينها وبين عالم الحضارة ، وما زال يهدر هديرها ، تدفعها قوة باطشة نشيطة لرجل قوى الأسر ، حديد العقل والقلب ، عرفه التاريخ باسم « جنكيز خان » حتى اقتحمت كل سد وتخطت كل عقبة ، وما زالت في تدفقها ، والقوى الاسلامية بقيادة ملوك خوارزم : محمد خوارزمشاه ثم ابنه من بعده جلال الدين منكبرتى تصدها حيناً ، وتراجع أمامها أحياناً ، وهي في كل مرة تحاول أن تكسر من حداثتها ، حتى عجزت تماماً عن الصمود لتيارها الدافق ، فانسابت في منطقة ايران كلها ، ثم ابتلعت العراق وأغرقت بغداد في سنة ٦٥٦ هـ ، وتدفقت سيولها على المغرب الاسلامى ، ولكن بعد أن فقدت كثيراً من حداثتها • وحين وصلت الى فلسطين في عين جالوت اشتطاعت مصر أن تقيم سداً أمامها كسرهما وجطم موجتها لأول مرة من يوم أن تدفقت من وسط آسيا • فحمى مغرب العالم الاسلامى وحمى الحضارة •

ومنذ ذلك التاريخ تغير وجه العالم الاسلامى الذى شهدناه في عصر الدولة العباسية • ودخل في طور جديد من التاريخ •

* * *

تلك هي أحداث العالم الاسلامى أحطنا بها على قدر ما سمح الجهد في كتاب ، وان كانت لجديرة بأن تدرس في أسفار • ومهما يكن رأى المؤرخين في تكييف هذه الأحداث ، ومهما يكن اختلاف وجهات النظر بينهم بالنسبة للعالم الاسلامى في هذا العصر من ناحية القوة

أو الضعف • فإنه لا خلاف على أن الوطن الاسلامى على الرغم من تعدد القوى السياسية فيه واختلافها وتصارعها ، ظل وطننا اسلاميا لجميع المسلمين • وفى الوقت الذى تشعبت فيه الأحداث السياسية ، وبدأ الخط السياسى متكسراً أو مستقيماً فان الخط الحضارى فيه مضى صاعداً مستقيماً لا عوج فيه ، وأن الأمة الاسلامية فى هذا الوطن العربى الاسلامى المتراعى الأطراف ظلت تنفعل بحضارة واحدة تصعد فى معارج الرقى والتقدم ، تسهم فى انمائها كل العقول والملكات فى المشرق والمغرب وتتضم فى طياتها كل تراث الأمم من قبلها وفى وقتها فى حركة أخذ وعطاء متساوق مع تفكيرها الانسانى العالمى •

والجانب الحضارى من حياة الأمة الاسلامية جدير بدراسة مستفيضة عميقة نأمل أن نجعلها موضوع الجزء التالى من هذا الكتاب ان شاء الله •

(تم بحمد الله)

ثبت المصادر والمراجع

- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ١٣ جزءا — بولاق ١٢٤٧ .
- احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول . دار الفكر العربي ١٩٦٦ .
- احمد امين : ضحى الاسلام — القاهرة ١٩٣٦ وطبعة دار المعارف .
- ظهر الاسلام : طبعة دار المعارف .
- احمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب — ٣ اجزاء — القاهرة ١٩٣٧ .
- آدم مستر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع (نقله للعربية ابو ريده) . القاهرة ١٩٥٧ .
- الخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امرائها — مدريد ١٨٦٧ م .
- الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق — لندن ١٨٦٦ .
- ارشييلد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط — القاهرة ١٩٦٠ .
- ارنولد : سير . ت . و : الدعوة الى الاسلام . (ترجمة حسن ابراهيم) .
- الاصطخرى : المسالك والممالك . لندن ١٩٢٧ .
- الاصفهانى : كتاب الاغانى . القاهرة ١٢٨٥ هـ .
- مقاتل الطالبين — القاهرة ١٩٤٩ م .
- ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء . القاهرة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ .
- اومان : الامبراطورية البيزنطية . دار الفكر العربى بالقاهرة .
- الباز العرينى : الدولة البيزنطية . القاهرة ١٩٦٠ .
- بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى (ترجمة احمد السعيد) . القاهرة ١٩٥٨ .
- Barthold b Hist. of Central Asia. Leiden 1956.
- براون : Brawne : Literary Hist. of Persia. 3. vols. : 1909.
- ابن بسام : كتاب الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . القاهرة ١٩٤٥ .
- برنارد لويس : العرب في التاريخ . بيروت ١٩٥٤ .

- البغدادى (محمد بن حديد) : المحبر . حيدر آباد . ١٩٤٢ .
البلاذرى : فتوح البلدان . القاهرة ١٩٠١ ، ١٩٥٩ .
البلخى : كتاب البدء والتاريخ . باريس ١٩٠٧ .
البلوى : سيرة احمد بن طولون . المكتبة العربية بدمشق .
بكلر : Buckler : Harunul - Rashid and Charles the grect.
بول رو : Poul - Roux : L'Islam en Asie Paris. 1958.
البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق . مطبعة المرسوعات ١٩٠٠ .
البيهقى : تاريخ البيهقى (ترجمة يحيى الخشاب) مطبعة الانجلو ١٩٥٦ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — دار الكتب المصرية .
التنوخى : نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة . القاهرة ١٩١٨—١٩٢١ .
تيمور (احمد باشا) : التصوير عند العرب — القاهرة ١٩٤٢ .
: نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الاربعة وانتشارها .
القاهرة ١٣٥١ هـ .
الشمسلى : يتيمة الدهر — ٤ اجزاء — القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .
الجاحظ : رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٤٤ م .
: التاج فى اخبار الملوك — القاهرة ١٩١٤ م .
: كتاب الحيوان — القاهرة ١٩٠٧ م .
: البيان والتبيين — ٤ اجزاء — القاهرة ١٩٢٨ م .
جوبينو : Gabineau : Histoire des Perses. Paris. 1869.
جورجى زيدان : التمدن الاسلامى — القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦ .
جورج فضل حورانى : العرب والملاحه فى المحيط الهندى — القاهرة ١٩٥٨ .
ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم — طبع الهند ١٣٥٨ هـ .
: مناقب عمر بن عبد العزيز — لينزج ١٨٩٩ م .
الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب — القاهرة ١٩٣٨ م .
حستى : تاريخ العرب — الجزء الثانى — بيروت ١٩٥٠ م .
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى — القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٥ م .
: النظم الاسلامية — القاهرة ١٩٣٨ م .
حسن احمد محمود : حضارة مصر فى العصر الطولونى — القاهرة ١٩٦٠ م .
: الكندى المؤرخ — القاهرة ١٩٦٦ م .

- حسن الباشا محمود : الألقاب الإسلامية .
- ابن حوقل : المسالك والممالك — لندن ١٨٩٩ م .
- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية — لاهور ١٩٣٣ م .
- ابن خرداذبة : المسالك والممالك — لندن ١٨٩١ م .
- الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) — القاهرة ١٩٣٠ م .
- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام — ١٤ جزءا — القاهرة ١٩٣١ .
- ابن خلدون : المقدمة — بولاق ١٣٢٠
- : العبر وديوان المبتدا والخبر — القاهرة ١٢٨٤ هـ .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان — المطبعة اليمنية — مصر ١٣١٠
- ابن الخياط : كتاب الانتصار الرد على ابن الراوندي الملحد — القاهرة ١٩٢٥
- الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان — تونس ١٩٣٠ هـ
- ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار — القاهرة ١٨٩٣ .
- دوزي : Dozy : Essor sur L'Histoire de L'Islamisme 1819.
- : تاريخ مسلمي أسبانيا (ترجمة حسن حبشي) نشر وزارة الثقافة
- الديار بكري : تاريخ الخميس — القاهرة ١٩٦٦ .
- الدينوري : الأخبار الطوال — لندن ١٨٨٨ .
- الراوندي : راحة الصدور وآية السرور (ترجمة ابراهيم الشواربي وزملاؤه) .
- ابن رسته : الأعلام النفسية — لندن ١٨٩١ .
- رانسيمن :
- Runciman : Charleimagne and Palestine, English Historical review. vol. 1. 1935.
- زامبور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي — القاهرة ١٩٥١ .
- زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية .
- : فنون الإسلام — القاهرة ١٩٤٨ م .
- : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى — القاهرة ١٩٤٥ .
- سايكس : Sykes : History of Persia, London 1921.
- سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان — شيكاغو ١٩٠٧ .

لى سترينج :
Le Strange : Baghded During the Abbasid Caliphate.
Oxford, 1924.

- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى — القاهرة ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى — جزاءن .
- السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — القاهرة ١٣١٢ ،
الدار البيضاء ١٩٥٤ .
- السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير — القاهرة ١٩٦٦ .
- السيوطى : تاريخ الخلفاء إمراء المؤمنين — القاهرة ١٣٥١ .
- الشهرستانى : الملل والنحل — القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦١ .
- أبو شامة : الروضتين — مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ .
- أبو شجاع : ذيل تاريخ مسكويه — أكسفورد ١٩٢١ — مطبعة التمدن ١٩١٦
- الصابى : رسوم دار الخلافة — بغداد ١٩٦٤ .
- صاحب بن عباد : رسائل صاحب بن عباد . تصحيح عبد الوهاب عزام
وشوقى ضيف .
- الصولى : أخبار الراضى والمتقى من كتاب الأوراق — مطبعة الصاوى .
- الصياد (فؤاد عبد المعطى) : المغول فى التاريخ — نشر دار القلم بالقاهرة .
- ضياء الدين الرئيس : الخراج .
- ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية — القاهرة ١٩٢٣ وبيروت
١٩٦٠ .
- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك — القاهرة ١٩٢٦ .
- الطرطوشى : سراج الملوك .
- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب — القاهرة ١٩٦١ .
- سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز — القاهرة ١٩٢٧ .
- عبد العزيز الدورى : علم التاريخ عند العرب .
- دراسات فى العصور العباسية المتأخرة — بغداد ١٩٤٥ .
- ابن عبد ربه — العقد الفريد — القاهرة ١٩٤٨ .
- العتبى : تاريخ اليمن — القاهرة ١٢٨٦ هـ .
- ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب — ليدن ١٩٤٨ ، ١٨٥١ .
- عزيز بن سعد : صلة تاريخ الطبرى — ليدن ١٨٩٧ — القاهرة ١٣٢٠ هـ .

- العمري : مسالك الأبصار في الممالك والأمصار — القاهرة ١٩٢٤ .
- الفزالي : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة . القاهرة ١٩٠١ .
- فازيليف : العرب والروم (ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة) .
- ابو الفسدا : المختصر في اخبار البشر — القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .
- القاهرة ١٣٢٥ هـ .

- ابن العميد : تاريخ المسلمين — لندن ١٦٢٥ م .
- فلهوزن : الدولة العربية (ترجمة أبو ريده) القاهرة ١٩٥٨ .
- قامبري : تاريخ بخارى — القاهرة ١٩٦٥ .
- فنلى :

Finaly : Hist. of the Byzantine Empire. London 1856.

- عبد النعيم حسنين : سلاجقة العراق — القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن قتيبة : كتاب المعارف — القاهرة ١٩٣٤ .
- : عيون الأخبار — القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- : الامامة والسياسة — القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- قدامة بن جعفر : الخبراج — لندن ١٨٨٩ .
- القرماني : اخبار الاول وآثار الدول — بغداد ١٢٨٢ هـ .
- القزويني : آثار البلاد واخبار العباد — جوتنجن ١٨٤٨ .
- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق — بيروت ١٩٠٨ .
- الكتبي : نوات الوفيات — القاهرة ١٢٩٩ .
- ابن كثير : البداية والنهاية — القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- الكرملی : النقود العربية وعلم النميات — القاهرة ١٩٣٩ .
- الكندي : الولاية والقضاة — طبعة رفرن جست ١٩١٢ — بيروت ١٩٠٨ .
- ليبي : Levy : The Social structure of Islame
Combridge. 1965.

لويس ، برنارد :

Lewis; Bernard : The Origins of Ismailism. Combridge. 1940.

لينبول ، ستانلي :

Lane - Poole; Stanley : The Muhammeden Dynsties. Paris,
1925.

المسالكي : رياض النفوس — القاهرة ١٩٥١ .

- الموردى : الاحكام السلطانية — القاهرة ١٢٩٧ هـ و ١٩٦٠ م .
- محمد توفيق أحمد محمد خفاجى : اثر الاثراك السياسى والاجتماعى فى العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة لم تنشر) .
- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق — نشر دار الفكر العربى .
- : انقسام الدولة الاسلامية الى دول مستقلة بالشرق — القاهرة .
- محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى — مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٦١ .
- محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية (بحث ضمن كتاب « طه حسين » بمناسبة بلوغه السبعين) .
- الممالك الحليفة ، او : ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية الى ايام المعتصم (بحث بمجلة كلية الآداب — جامعة فاروق الأول — المجلد الرابع سنة ١٩٤٨) .
- : محاضرات بجامعة عين شمس عن العصر البويهى .
- المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب — ليدن ١٨٨١ .
- المسعودى : مروج الذهب — القاهرة ١٢٧٠ هـ و ١٩٤٨ م .
- : التنبيه والاشراف — ليدن ١٩١٤ .
- : تجارب الأمم وتعاقب الهمم — ليدن ١٩٠٦ — القاهرة ١٩١٤ ، ١٩١٥ .
- لامبتون :
Lambton : Landlord and Peasant in Persia. (Oxford, 1953).
- مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين — القاهرة ١٩٥٨ .
- للقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — القاهرة ١٢٧٠ .
- موير :
Muir, Sir William : The Caliphate. Edinburge. 1925
- ابن النديم : الفهرست — القاهرة ١٣٤٨ .
- النوبختى : كتاب فرق الشيعة — استامبول ١٩٣١ .
- هيد :
Heyd : Histoire du Commerce de Levant au Moyenage. 2. vol. Leipzig 1885 - 1886.
- اليعتوبى : تاريخ اليعتوبى — النجف ١٣٥٨ هـ .
- ابويوسف : كتاب الخراج — القاهرة ١٣٠٢ هـ .

فهرس

صفحة

تصدير ٣

القسم الأول

العصر العباسى الأول

الباب الأول

قيام الدولة العباسية

- ١١ الثورة العباسية
- ١٢ الثورة والتنظيم العقائدى
- ١٢ — زعامة الثورة ١٥ — الدعاة والنقباء ١٦ — دعاة العراق ١٧ — دعاة خراسان ٢٠ — النقباء ٢١ — شعاعات الدعاية للثورة — المساواة ٢٤ — الامامة للرضا من آل محمد ٢٦ — الدعوة الى الاصلاح .
- ٢٨ انتشار الاسلام فى ايران
- ٤٣ مساوىء الحكم الاموى
- ٤٥ — التطورات الاجتماعية .
- ٤٧ احدات الثورة العباسية (١٢٩ — ١٣٢ هـ)
- ٤٧ ابو مسلم يتزعم الدعوة العباسية فى الشرق
- ٤٩ — عمليات ابنى مسلم فى خراسان وخطارستان وما وراء النهر ٥٩ — مرحلة قحطبة بن شبيب ٦٠ — عملية قحطبة ابن شبيب ٦٤ — مرحلة الخليفة ابنى العباس السفاح .
- ٦٨ اهمية نجاح الثورة العباسية فى تاريخ الاسلام

الباب الثانى

العصر العباسى الثانى

- ٨٣ الفصل الأول : تقدم العناصر الايرانية فى العصر العباسى الاول
- ٨٦ — التيار المنافر ٩٤ — التيار الموافق ١٠٥ — البرامكة ١٠٩ — الصراع بين الامين والمأمون ١١٦ — بنو سهل .

الباب الثاني

الحركات الاستقلالية في العالم الاسلامي

٣٩٦	الفصل الأول : الحركات الاستقلالية في المغرب الاسلامي
٣٩٧	- الاندلس
٤٠١	- بلاد المغرب الافريقي
٤٠٩	- المغرب الاقصى (دولة الادارسة)
٤١٣	- تونس (دولة الأغالبة)
٤٢٠	- مصر والشام (الطولونيون والآخرديون)
٤٣٦	- الدولة الاخشيديه
٤٤٢	- الدولة الحمدانية
٤٥٠	الفصل الثاني : الحركات الاستقلالية في المشرق
٤٥٤	- الدول المستقلة في ايران :
٤٥٥	١ - الدولة الطاهرية
٤٥٧	٢ - الدولة الصفارية
٤٦٥	٣ - الدولة السامانية
٤٧١	- الهند : الدولة الغزنوية
٤٨١	- طبرستان : الدولة الطبرية
٤٨٦	الدولة الزيارية

الماب الثالث

العصر البويهي والعصر السلجوقي

الفصل الأول : العصر البويهى — الدولة البويهية ٤٩٦

٤٩٨ — الخطوط العامة للهجرة الديلمية ٥٠١ — الظروف
الى ابتدأت فيها الهجرة البويهية ٥٠٥ — تدعيم الملك البويهى
٥١٥ — العلاقة بين بنى بويه والخلافة ٥٢٤ — ملوك بنى بويه
٥٢٧ — عماد الدولة ٥٢٨ — ركن الدولة ٥٢٩ — عضد
الدولة ٥٣١ — انشاء عضد الدولة : مصمّم الدولة ،
شرف الدولة ، بهاء الدولة ٥٣٣ — انشاء بهاء الدولة :
سلطان الدولة — مشرف الدولة — جلال الدولة .

الفصل الثانى : العصر السلجوقى ٥٣٦

٥٣٩ — الخطوط العامة للهجرة التركية
٥٤٣ — السلاجقة فى بلاد ما وراء النهر ٥٤٦ — السلاجقة

صفحة

٥٥٢	— في خراسان	٥٥٢	— سيطرة السلاجقة على ايران
٥٥٦	— السلاجقة في العراق .		
٥٦٨	— المظاهر العامة للحكم السلجوقي	٥٦٨
٥٨١	— عصر وحدة السلاجقة	٥٨١
٥٨٢	— طغرل بك ٥٨٢	٥٨٢	— الب' ارسلان ٥٩٠ — ملكشاه
٥٩٠	— فتوحات ملكشاه ٥٩٣	٥٩٠	— الاسماعيليه
٦٠٠	— بركيارق .		
٦٠٩	— عصر انقسام السلاجقة	٦٠٩
٦١٠	— سلاجقة خراسان ٦١١	٦١٠	— الدولة القره خطائية
٦١٣	— الدولة الخوارزمية .		
٦١٦	— سلاجقة العراق	٦١٦
٦١٦	— النزاع حول الفرس ٦١٩	٦١٦	— النزاع بين الخلافة
٦٢٢	— العباسية والسلاجقة ٦٢٢	٦٢٢	— نفوذ الاتابكة .
٦٢٤	— تطورات الاحداث خارج الدولة السلجوقية	٦٢٤
٦٢٩	ثبت المصادر والمراجع	٦٢٩
٦٣٥	محتويات الكتاب	٦٣٥

للمؤلف

- * دراسات فى الحضارة الاسلامىة .
- * دور الحجاز فى الحىاة السىاسىة .
- * العالم الاسلامى فى العصر العباسى .
- * مكة والمدينة فى عصر الجاهلىة وعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

تطلب جمىعها من ملتزم طبعها ونشرها
وتوزىعها داخل جمهورىة مصر العربىة وخارجها
دار الفكر العربى

١١ ش جواد حسنى — بالقاهرة

ص.ب ١٣٠ — ت : ٧٥٠١٦٧

